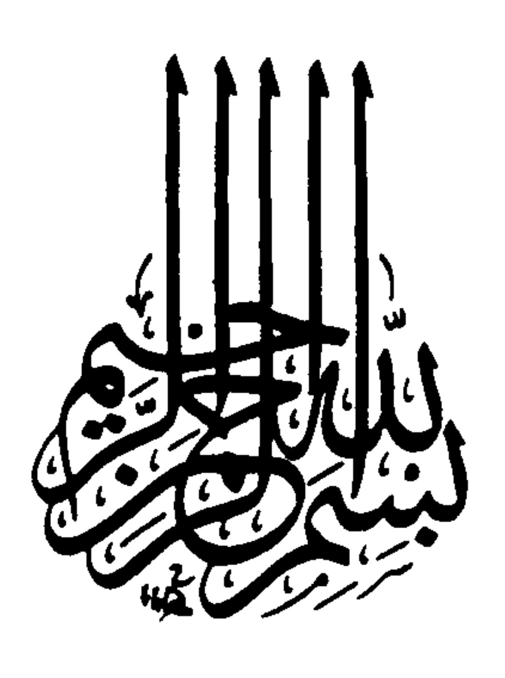
عجائب المخلوقات

عند

الإمام علي عليه السلام





محسن عقيل

دار المحجة البيضاء

الطبعة الأولى
٢٠٠٨م ١٤٢٩هـ



الرويس - خلف محفوظ ستورز - بناية رمال
ص.ب: ١٤/٥٤٧٩ - هاتف: ٠٣/٢٨٧١٧٩ - ٠١/٥٤١٢١١ - تلفاكس: ٠١/٥٥٢٨٤٧
E-mail:almahajja@terra.net.lb
www.daralmahaja.com
info@daralmahaja.com

المقدمة

الحمد لله الدائم الوجود، الحيّ المعبود. ذي الجلال والإكرام، وذي الطول والانعام لا إلَه إلا الله الرحمنُ الرحيم ابُّ السموات السبع، وربُّ العرش الكريم، الظاهر وجوده بآثاره في جميع الكائنات، ظهوراً منزهاً عن التشبيه بالمحدثات، فكلها من صنع يديه، وفي داخل كل ذرةٍ منها دلالات تدل عليه، وتشير اليه، وتنطق بلسان حالها أنها لم تخلق ذاتها بذاتها وإنما لها موجد أوجدها وأبدعها على ما هي عليه، وهو الله رب العالمين.

فسبحانه من إلَه عظيم لا تقدر العقول على الإحاطة بكنه ذاته، ولا تستطيع الألسنُ إحصاء نعمةٍ واحدةٍ من نَعمائه، لِما له أيادٍ سابغات بجلائل الإنعام في كل طرفة عين على جميع الأنام.

فلولا الله جلَّ جلاله لما وجدتْ سُفَّة هواءٍ، ولولاه جلّ جلاله لما كان (جِرْمُ) في الفضاء.

فأين جاء الهواء؟ ومن الذي يُحركه؟ وإلى أين يسير؟ ومن أي شيءٍ يصير؟ أليس هو صنع الالّه اللطيف الخبير؟.

ولماذا كانت الشمس على هذا الشكل الوضاء؟ ومن الذي خصّها بهذا الضياء؟ والذي أوقد جذْوَتها الأولى في الفضاء؟ ولماذا لم تخمد نارُها؟ و الذي يمدُّ أوارَها؟ وهل يُصَّدق العقل، (أو يقرّهُ) العلم أنّ مِصباحاً أوجد نفسه بنفسه، أو أنه أوقد ذاته بذاته؟

بل وهل يصدق العقل، أو يقّره العلم مصباحاً زِنتُهُ أكثر من [٢٠٠٠ كوادر (يليون) طن[1]].

دائم الاضاءة في الفضاء، بدون ركيزة تحمله، أو قلادةٍ تمسكه؟ ولكن الله تعالى لا يعجزه شيء لا في الأرض ولا في السماء!

---

(١) - الكوادريليون - رقم مؤلف من واحد إلى يمينه خمسة عشر صفراً. هكذا قدر الفلكيون المعاصرين وزن الشمس.

ولولا الله جل جلاله لما كان للماء وجود، ولولاه لما أثمر وأورقَ عود، فمن أين جاء الماء؟ أمن الأرض أم من السماء؟ فإن كانت الأرض قد لفظته فلماذا إذن شربته؟ وإن كانت السماء أنزلته فمنْ أين جاءت به، ومن أي شيء كوَّنتُه؟ فإن قيل من السحاب. قلنا: أصله ماء.

ولماذا كانتْ البحارُ ملْحاً أُجاجاً، والأنهارُ عذباً فراتاً؟ فإن قيل ملوحة البحار بما تذيبه الانهارُ، قلنا: وهذا خلاف البحيرات.

ومن أين جاءت بُذورُ النباتات على اختلاف أنواعها؟ أليست هي بيوضاً وفي داخلها أجنتها تمخضتْ عنها نباتاتُها؟ ولماذا ولدتها؟. إنها رزق للعباد. وكيف كُوّنت خُضرةُ النباتات والاشجار؟ ولماذا تغايرت ألوان الورود والثمار؟ أليست هي صُنع الواحد القهار؟

ولولا الله جلّ جلاله لما تنوعت الأحياء ولَمَا وجدت آباءٌ ولا أبناء فمن الذي خلق الأنعام؟ ومن الذي كوّن الاجنّة في الأرحام؟ ومن الذي خَصّص الذكر والانثى وجعلهما بالسوية في كل نسمةٍ تسعى؟ ومن الذي أخرج المرعى؟ ومن الذي قدّر فهدى؟ ومن الذي أطعم وأسقى؟ ومن الذي أسعد وأشقى؟ ومن الذي أمات وأحيا؟

كم هو جميلٌ أن نجد من يلتفت إلى هذا الكم الهائل من تراث أمير المؤمنين عليه السلام الذي مع الأسف كاد أن يهمل وينسى وذلك لأننا نجد كثيراً من الباحثين الذين مارسوا عمليات البحث والتنقيب في التراث ركزوا على جانب العلوم الإنسانية والفقهية فقط وأهملوا علوم الطبيعيات مع أن هذا التراث كان تراثاً شاملاً لم يترك شيئاً يرقى بحياة الإنسانية ويرقى بحضارتها إلا وتم تغذيته واثراؤه.

لكن عندما نتحول في هذا التراث من خلال الكتب التي جمع فيها متفرقات من خطب وكلمات تراها بشكل شبه مبعثر ومتداخل مع بعضه، فيحتاج إلى من يعيد صياغته وترتيبه كلاً في نسق مناسب له ويحاول من خلال سردها في نسق واحد أن يخرج - يؤسس - وأيضاً نحتاج إلى مراجعة هذا التراث لتقديمه من خلال دراسة مقارنة بالنظريات الحديثة ملتزمين بمنهج علمي نحتكم إليه في دراستنا للنظريات الحديثة والقديمة منها لنكشف مكامن الضعف والقوة حتى نتمكن من وضع نظريات التراث في مصاف النظريات الحديثة وتقديمها كنصوص مؤسسة نعتمد عليها كرؤية كونية نبني على أساسها نظرتنا إلى هذا الكون وعلاقتنا به.

وكما أن النظريات الفيزيائية والفلكية قدمت لنا تفسيرات علمية لحدوث هذا الكون وتفاعلاته من خلال إبداعات علماء ومفكرين من شتى الانتماءات الأيديولوجية. ونحن

هنا من خلال الغور إلى أعماق تراث الأمام علي عليه السلام ومراجعة الخلفيات العلمية لإشاراته واكتشاف مكنون درر تنبيهاته لنستخرج النظريات الفيزيائية المفسرة لحدوث هذا الكون المنسجمة مع الرؤية الكونية التي نؤمن بها. وعلى أساسها نثبت أن الدين والعلم يسيران جنباً إلى جنب يعضّد كلٌ منهما الآخر حتى يصلا بالإنسان إلى بر الأمان.

خلق الله جلّت قدرته، وعظمت آلاؤه، وكثرت نعماؤه، السماوات والأرض بالحق، جعل فيها الأنهار والأشجار والنباتات والأثمار، وخلق أنواع الطيور والحيوانات، وسخَّر الشمس والقمر والرياح والبحار، خدمة لنا ولأبينا آدم الذي خلقه من طين، ونفخ فيه من روحه المقدسة المباركة. «ثم نفخ فيها (أي التربة) من روحه، فتمثّلت إنساناً ذا أذهانٍ يُجيلُها»[1].

وأسجد له الملائكة تكريماً وتعظيماً، وأعطاه العقل والشهوة والاختيار، ليكون متميزاً عن الملائكة والحيوانات «فلا جبر ولا تفويض» ثم خلق له زوجة من جنسه ليستأنس بها ويتكاثر ويتناسل في الأرض التي هُيّئت له ليعيش فيها هانئاً متنعماً مطمئناً لا يعوزه شيء ولا تنقصه ناقصة، فتكاثر وتناسل وأصبحت الأرض تعج بأبنائه وبناته الذين عاشوا الحياة الاولى بفطرتها الإلّهية، التي عرفوا من خلالها الغاية من خلقهم ووجودهم، ألا وهي عبادة الله الواحد القهار وشكره على هذه النعمة.

هذه الفطرة التي حملها آدم وأبناؤه هي من الإمدادات الغيبية الإلّهية التي غرزها الله في عقولهم منذ الخلق والولادة.

كان ذلك الإمداد الفطري في تلك المرحلة البدائية التي عاشها الإنسان كافياً لحفظ وإدامة المسيرة البشرية من الانحراف والشرك وعبادة الأوثان والانزلاق وراء الشهوات.

ونتيجة لتكاثر البشر، ونشوء المجتمعات البدائية وتطور الحياة الاجتماعية والمادية، بدأت المشاكل والاختلافات تدبُّ فيما بينهم وتظهر على السطح بصورة استغلال وتسلط وفساد بدأ يزرع بذوره في النفوس البشرية، وهنا جاء اللطف الإلّهي والرحمة الربانية التي لم تنقطع عن الإنسان، فأرسل الأنبياء منذرين ومبشرين

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١ ص ٩٦.

ومصلحين، ليقوّموا الروح البشرية والمسيرة الإنسانية نحو الطريق الصحيح الذي أراده الله لهم منذ البداية، وكان الدين الإسلامي الحنيف آخر الأديان السماوية التي اكتمل به الإمداد الغيبي والرحمة الفياضة الدائمة على بني البشر، حين أرسل اللطيف الخبير نبينا الأكرم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله بأكمل دين وأقوم رسالة جمعت كل ما من شأنه تقويم الإنسان وحفظه من الخطأ والزلل والانحراف.

وبما أن المسيرة البشرية طويلة ودائمة احتاج الأنبياء إلى أوصياء وأئمة «فظهر أنه لا بدّ لكل نبي مرسل بكتاب من عند الله عز وجل ان ينصب وصياً يودع فيه أسرار نبوته وأسرار الكتاب المنزل عليه ويكشف له مبهمه ليكون ذلك الوصي هو حجة ذلك النبي على قومه ولئلا تتصرف الأمة في ذلك الكتاب بإرائها وعقولها فتختلف وتزيغ قلوبها كما أمر الله به فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۗ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾[1].

فالرسول والوصي والكتاب هم الحجة على الأمة ليهلك من هلك عن بينةٍ ويحيى من حيّ عن بينةٍ وهذا كما فعل آدم بشيث، ونوح بسام، وإبراهيم بإسحاق، وموسى بيوشع بن نون ومعه النقباء الإثنا عشر وسليمان بن داود بآصف بن برخيا، وعيسى بشمعون بن حمون ومعه الحواريون الإثناء عشر، ونبينا الكريم صلى الله عليه وآله بعلي عليه السلام ومعه الأئمة الأحد عشر. فوجود الوصي (علي) هو لطف من الألطاف الإلّهية ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾[2]»[3].

كان رسولنا الكريم خاتم الأنبياء والمرسلين، وكان أمير المؤمنين ووصي رسول رب العالمين الإمام علي عليه السلام أشرف الأوصياء المنتجبين.

إن مسيرة وحياة وأقوال وسلوك الأوصياء والأئمة المنتخبين من الله مكملة وحافظة للمسيرة التي ابتدأها الأنبياء، وهذا ما رأيناه من الإمام علي عليه السلام حيث كان الراعي والحافظ والمكمل للمسيرة النبوية الشريفة التي بشرّ بها الرسول العظيم، فكان بحق خير حافظٍ وأعظم وصيٍ وأفضل هادٍ للأمة الإسلامية بعد رسول الله صلى الله عليه وآله.

---

(١) سورة آل عمران، الآيتان: ٧.

(٢) سورة الرعد، الآية: ٧.

(٣) المحجة البيضاء في تهذيب الإحياء، ج ١ ص ٢٣٠.

إن الخالق العظيم الذي مَنّ علينا وأنقذنا من الظلمات إلى النور أرسل دينه على لسان النبي الأمي ليقوم بتبليغه لنا، وقد عصمه الله من الخطأ والنسيان في كل الأمور الدينية والدنيوية لأنه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝٥﴾[1] وان وصيه الإمام علي عليه السلام وأولاده المعصومين بنص آيات القرآن: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾[2] و﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾[3] والأحاديث النبوية الشريفة: «من كنت مولاه فعليٌّ مولاه اللهم والِ من والاهُ وعاد من عاداه» و «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي» هُم المحافظون والذائدون والمدافعون والمضُحّون في سبيل الشريعة من الأخطار والضياع والأباطيل والبدع التي قد تطرأ عليها وتدخل فيها من قبل المنافقين وأعداء الدين.

وقد اختص الإمام علي عليه السلام وأبناؤه المعصومون بمختلف العلوم بما ورثوه عن جدهم رسول الله الذي منحهم الولاية التشريعية والتكوينية بصورة كاملة تؤهلهم المقام السامي لإكمال المسيرة وحفظ مختلف العلوم الإلَهية. قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أنا مدينة العلم وعلي بابها فمن أراد المدينة فليأت الباب». هذه الرتبة الإلَهية والمنحة الربانية لوصي رسول الله والأئمة المعصومين هي ضرورة شرعية وعقلية لحفظ الدين من التلاعب والاندثار، لذلك تعتبر الإمامة مكملة للمسيرة النبوية، وكيف لا وهم المعصومون بنص القرآن: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[4] وحديث الثقلين: «أيها الناس يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب واني تارك فيكم ما أن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبداً كتاب الله وعترتي أهل بيتي فلا تقدموهما فتهلكوا ولا تتأخروا عنهما فتهلكوا ولا تعلموهم فإنهم أعلم منكم وان اللطيف الخبير أخبرني أنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض فانظروا كيف تخلفوني فيهما»[5].

من كل ما تقدم نستخلص أهمية الوصاية والإمامة بعد النبي صلى الله عليه وآله وضرورتها، باعتبار أن الوصي والأئمة هم حملة العلم، وورثة الأنبياء، ومنار الهداية، وألسنة

(١) سورة النجم، الآيات: ٣-٥.
(٢) سورة المائدة، الآية ٥٥.
(٣) سورة النساء، الآية: ٥٩.
(٤) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.
(٥) الكافي، ج ٢ ص ٤١٥.

الصدق والحق، بهم تكتمل الهداية، وتزال وتبطل الشبهات، لأنهم حجج الله على عباده وامناؤه في بلاده.

«هذا وإن اقتران القرآن بأهل البيت في حديث الثقلين له معان ودلالات عميقة:

١ - إن أهل البيت عليهم السلام لهم قيمة كبيرة تعادل القرآن.

٢ - إن القرآن بدون أهل البيت لا يكفي، لأن القرآن كتاب صامت حمّال وجوه، وأهل البيت هم الذين يجعلونه ناطقاً باعطائهم له التفسير الصحيح الذي سمعوه من جدهم، فيحفظونه بذلك من التحريف والتزييف والتغيير والتحوير، تحقيقاً بواسطتهم لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[1].

٣ - إن النجاة والفوز متوقفان على التمسك بأهل البيت عليهم السلام وهديهم دون سواهم.

٤ - إن أهل البيت مع القرآن، والقرآن معهم لا يفترقان إلى يوم القيامة، وهذا يعني أن وجود الأئمة مستمر لا ينقطع مع وجود القرآن إلى يوم القيامة»[2].

◎ الإمام علي عليه السلام وموقعه الإلهي:

الإمام علي عليه السلام وصي رسول الله وأبو الأئمة الأطهار مدحه النبي في مواطن كثيرة وقال فيه أحاديث عديدة: **«ذكر عليّ عبادة»** و **«يا علي ما عرفك إلا الله وأنا»** تدل بوضوح كنور الشمس الساطع على أن معرفة الإمام وادراك كنهه والغور في ذاته مسألة عظيمة ومن المستحيلات على الذات البشرية، ولكن «ما لا يدرك كله لا يترك جله».

ولا بأس أن يجهد العلماء والباحثون والمنصفون أنفسهم في التقرب من تلك الشخصية العظيمة، وملامسة فضائلها ومعجزاتها، وإن كانت تلك الملامسة لا تقارن بالآيات والأحاديث التي نزلت بحقه، فهم في سعيهم كمن يحاول الاقتراب من الشمس فيرتد خائباً من وهجها ولهيبها.

قال ابن أبي الحديد المعتزلي في مقدمة كتاب شرح نهج البلاغة:

«وما أقول في رجل أقرّ له أعداؤه وخصومه بالفضل، ولم يمكنهم جَحدُ مناقبه، كان

---

(١) سورة الحجر، الآية: ٩.

(٢) تصنيف نهج البلاغة للبيب بيضون، ص ٣٤٠.

كالمسك كلّما سُتر انتشر عَرْفه، وكلّما كُتِم تَضوّع نَشرُه، وكالشمس لا تُستَر بالراح، وكضوء النهار إن حُجِبت عنه عين واحدة أدركته عيون كثيرة.

وما أقول في رجل تُعزَى إليه كلُّ فضيلة، وتنتهي إليه كل فرقة، وتتجاذبه كلّ طائفة، فهو رئيس الفضائل وينبوعها، وأبو عُذرِها، وسابق مضمارها، ومجلّي حَلبتها، كلّ مَن بزغ فيها بعده فمنه أخذ، وله اقتضى، وعلى مثاله احتذى.

وهو مبتدع ومنشىء علم النحو والعربية الذي أملاه على أبي الأسود الدؤلي.

وأما الشجاعة: فإنه أنسى الناس فيها ذكر مَن كان قبله، ومحا اسمَ من يأتي بعده، ومقاماتُه في الحرب مشهورة تُضرب بها الأمثال إلى يوم القيامة.

وأما القوّة والأيْد: فبه يضرب المثل فيهما، ما صارع أحداً قط إلا صَرَعه. وهو الذي قلع باب خيبر واقتلع هُبَل من أعلى الكعبة.

وأمّا السخاء والجود: فحاله فيه ظاهرة، وكان يصوم ويطوي ويُؤثر بزاده.

وأمّا الحلم والصفح: فكان أحلم الناس عن ذَنب، وأصفحهم عن مسيء.

وأمّا الجهاد في سبيل الله: فمعلوم عند صديقه وعدوّه أنه سيد المجاهدين.

وأما الفصاحة: فهو إمام الفصحاء وسيد البلغاء، وفي كلامه قيل: دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوقين.

وأما سجاحة الأخلاق وبشر الوجه، وطلاقة المحيّا والتبسم: فهو المضروبُ به المثل.

وأما الزهد في الدنيا: فهو سيّد الزهاد، وبدَل الأبدال، وإليه تشدُّ الرحال، ما شبعَ من طعام قط، وكان أخشنَ الناس مأكلاً وملبساً، وكان ثوبه مرقوعاً بجلد تارة وليف أخرى، ونعلاه من ليف.

وأما العبادة: فكان أعبد الناس، وأكثرهم صلاة وصوماً، ومنه تعلّم الناس صلاة الليل، وملازمة الأوراد وقيام النافلة.

وأما قراءته القرآن واشتغاله به: فهو المنظور إليه في هذا الباب، اتفق الكل على أنه كان يحفظ القرآن على عهد رسول الله ﷺ، ولم يكن غيره يحفظه، ثم هو أول من جَمَعه.

وأما السياسةُ: فإنه كان شديد السياسة، خشِناً في ذات الله.

وما أقول في رجل تحبّه أهل الذّمة على تكذيبهم بالنبوة، وتعظمه الفلاسفة على معاندتهم لأهل الملّة. أبوه أبو طالب سيد البطحاء، وشيخ قريش، ورئيس مكة، ابن عمه محمد سيد الأولين والآخرين وأخوه جعفر ذو الجناحين، وزوجته سيدة نساء العالمين، وإبناه سيّدا شباب أهل الجنة، فأباؤه آباء رسول الله، وأمهاته أمهات رسول الله، وهو مسوط بلحمه ودمه، لم يفارقه منذ خلق الله آدم»(١).

شخصية الإمام عليّ عليه السلام شخصية إلَهية عجز عن إدراكها ومعرفتها الفلاسفة والعلماء، وقصر عن سبر غورها الباحثون والدارسون، لذلك عندما عزمت على الدخول إلى حديقة ذاته القدسية كنت متردداً متهيباً بداية الأمر خوفاً من الغرق في بحر معرفته وعظمته، إلا أني توكلت على الله ودخلت تلك الحديقة التي رعتها الألطاف الإلَهية وسقتها الأنوار المحمدية وظللتها الإمامة العلوية، فرأيت أوراداً مشرقة، وزهوراً عطرة، وغصوناً محملة بالإيمان والزهد والتقوى والجهاد والتضحية والحق والعدالة وقفت بخشوع وجلال وهيبة واحترام، مددت يدي، اقتطفت باقة من زهورها فتراءى أمامي بعضٌ من المعجزات الإلَهية، والنفحات المحمدية، والشمائل الهاشمية، والخصائص العلوية، شممتها بشوق وقبلتها بلهفة، وضعتها على صدري المشتاق لأتزود منها بالمعرفة والإيمان والعلم والموعظة، وبعد أن ارتويت من عبيرها، وتغذيت من رحيقها، سطرتها على الورق بحروف من نور وقلب مسرور، كي تبقى خالدة خلود الدهر، يقرأها كل منصف، ويطالعها كل محب للخير والعدالة.

◎ ما جاء في علي عليه السلام على لسان القرآن:

١ - نفسُ رسول الله.

٢ - الذي عنده علم الكتاب.

٣ - المؤمن.

٤ - السابق.

٥ - المؤمن المجاهد.

٦ - أُذُنٌ واعية.

٧ - خيرُ البريّة.

---

(١) مقدمة شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١.

٨ - الهادي.

٩ - الولي المتصدق في الركوع.

١٠ - الذي يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله.

١١ - الذي ينفق ماله بالليل والنهار سرّاً وعلانية.

١٢ - ولايته كمال الدين.

١٣ - النبأ العظيم.

١٤ - وهو من الذين: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾[1].

١٥ - الذي نزل فيه وفي أهل بيته عليهم السلام: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[2].

١٦ - هو صاحب سورة براءة وغديرِ خم وراية خيبر.

١٧ - هو الذي نزلت به وبأهل بيته سورة هل أتى.

◎ ما جاء في عليّ عليه السلام على لسان النبي صلى الله عليه وآله وسلم:

١ - يا عليّ ما عرفك حقّ معرفتك إلا الله وأنا.

٢ - حق عليّ بن أبي طالب على هذه الأمة كحق الوالد على ولده.

٣ - سيّد العرب.

٤ - أول من أسلم.

٥ - سيّد المسلمين.

٦ - حب علي عبادة.

٧ - صاحب السر.

٨ - حبه عنوان صحيفة المؤمن.

٩ - وزير رسول الله.

١٠ - حبه جواز وثبات على الصراط.

١١ - وصي رسول الله.

---

(١) سورة الفتح، الآية: ٢٩.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.

١٢ - من آذى علياً فقد آذاني.

١٣ - خليفة رسول الله.

١٤ - يا علي حبك إيمان وبغضك نفاق وكفر.

١٥ - عليّ مع الحق والحق مع عليّ.

١٦ - يا عليّ مَثَلُكَ في أُمتي كمثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلّف عنها غرق.

١٧ - لا يحبه إلا مؤمن ولا يبغضه إلا منافق.

١٨ - حبه إيمان وبغضه كفر.

١٩ - إمام المجاهدين.

٢٠ - يعسوب المسلمين.

٢١ - راية الهدى.

٢٢ - صاحب رايتي.

٢٣ - الصديق الأكبر.

٢٤ - الفاروق الأعظم.

٢٥ - جبرائيل عن يمينه وميكائيل عن يساره.

٢٦ - وليّ كلّ مؤمن بعدي.

٢٧ - سيد الشهداء.

٢٨ - قسيم النار والجنة.

٢٩ - خُلقت أنا وعليّ من نورٍ واحد.

٣٠ - أنا وعليّ من شجرةٍ واحدة.

٣١ - لحمه لحمي ودمه دمي.

٣٢ - في صلبه ذرّيتي.

٣٣ - عليّ مني بمنزلتي من ربّي.

٣٤ - عليّ مني بمنزلة رأسي من بدني.

٣٥ - حبيب رسول الله.

٣٦ - أنت وليّي في الدنيا والآخرة.

٣٧ - يا عليّ أنا وأنت أبوا هذه الأُمة.

٣٨ - أنا وعليّ حجّة الله على عباده.

٣٩ - أنا سيّد ولد آدم وعليّ سيّد العرب.

٤٠ - يا عليّ حزبك حزب الله.

٤١ - من سبَّ علياً فقد سبّني ومن سبّني فقد سب الله تعالى.

٤٢ - مثل عليّ في هذه الأُمة كمثل الكعبة.

٤٣ - حبُّ عليّ يأكل السيئات كما تأكل النار الحطب.

٤٤ - حبل الله المتين.

٤٥ - عليّ آية الحق وراية الهدى.

٤٦ - الصراط المستقيم.

٤٧ - أقضى أُمتي عليّ بن أبي طالب.

٤٨ - كَرّار غير فرار.

٤٩ - عليّ باب حطّة.

٥٠ - عليّ أفضلكم.

٥١ - عليّ خير البشر فمن أبى فقد كفر.

٥٢ - من أراد أن ينظر إلى آدم في علمه وإلى نوح في فهمه وإلى إبراهيم في حلمه وإلى يحيى بن زكريا في زهده وإلى موسى بن عمران في بطشه فلينظر إلى علي بن أبي طالب.

٥٣ - ذكر عليٍّ عبادة.

٥٤ - النظر إلى عليٍّ عبادة.

٥٥ - علي أول من آمن بي وأوّل من يصافحني يوم القيامة.

٥٦ - عليّ صاحب حوضي يوم القيامة.

٥٧ - لا يجوز أحدٌ الصراط إلا من كتب له عليٌّ الجواز.

٥٨ - سراج الدنيا.

٥٩ - خاصف النعل.

٦٠ - هازم الأحزاب.

٦١ - مصباح الدُّجى.

٦٢ - أبو تراب.

٦٣ - المولود بالكعبة.

٦٤ - البائت في فراش رسول الله عند الهجرة.

٦٥ - الصراط المستقيم.

٦٦ - كاتب الوحي.

٦٧ - مكسّر الأصنام.

٦٨ - ضربته بوم الخندق تعادل عبادة الثقلين.

٦٩ - مطلّق الدنيا مؤثر الآخرة على الأولى.

٧٠ - الذي ذكره في التوراة والإنجيل.

◎ ما جاء في عليٍّ عليه السلام على لسان عليّ:

١ - القرآن الناطق.

٢ - أعرَف الناس بالكتاب والسنة.

٣ - إني لم أشرك بالله طرفة عين.

٤ - إني لم أشرب الخمر قطّ.

٥ - قال لي رسول الله: يا عليّ أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي.

٦ - إني أول الناس إيماناً وإسلاماً.

٧ - علمني رسول الله صلى الله عليه وآله ألف باب من العلم يفتح كل باب ألف باب ولم يعلّم ذلك أحداً غيري.

٨ - طبيب القلوب والأبدان.

٩ - قال رسول: الله ستقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين.

١٠ - سمعت رسول الله يقول: أنا مدينة العلم وعليّ بابها.

١١ - المتصدق بين يدي رسول الله.

١٢ - قال رسول الله: لولا أن يقول فيك الغالون من أُمتي ما قالت النصارى في عيسى بن مريم لقلت فيك قولاً لا تمر بملأ من الناس إلا أخذوا التراب من تحت قدميك يستشفون به.

١٣ - أمر رسول الله أصحابه وعمومته بسدّ الأبواب على المسجد وفتح بابي بأمر الله عز وجل.

١٤ - إن الله تبارك وتعالى ردَّ عليَّ الشمس مرّتين ولم يردها على أحدٍ من أُمة محمد ﷺ غيري.

١٥ - أنا سيد الوصيّين، ووصيّ سيّد النبيّين.

١٦ - أنا إمام المسلمين، وقائد المتقين، ومولى المؤمنين، وزوج سيّدة نساء العالمين، أنا المتختّم باليمين والمعفّر للجبين، أنا الذي هاجرت الهجرتين وبايعت البيعتين، أنا صاحب بدر وحنين، أنا الضارب بالسيفين، والحامل على فرسين.

١٧ - صليت قبل الناس بسبع سنين.

١٨ - أصبر الصابرين.

١٩ - القائل سلوني قبل أن تفقدوني.

٢٠ - وريث الأنبياء.

٢١ - مفسّر القرآن والإنجيل والتوراة والزبور.

٢٢ - المكتفي بطمرين.

٢٣ - القائم بتغسيل وتكفين ودفن رسول الله.

٢٤ - القائل والله لو أعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها على أن أعصي الله في نملة أسلبها جُلبَ شعيرة ما فعلت.

٢٥ - ما قال لا لسائل قط.

٢٦ - الذي لم يخلّف ميراثاً.

وأخيراً فإن علياً عليه السلام هو:

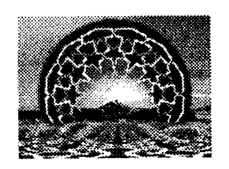
- شهيد المحراب.

- الذي أبكت رزيته ملائكة السماء وأهل الأرضين.

- المستأذن عليه عزرائيل حين الشهادة.

- ضجيع آدم ونوح ومجاور قَبرَ هود وصالح.

محسن عقيل





نشأة الكون
ودلائل التوحيد





حدوث العالم وبدء خلقه

من الآيات القرآنية الدالة على حدوث العالم وبدء خلقه ما ذكره العلامة المجلسي قدس سره من قوله تعالى:

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(١).

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾(٢).

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾(٣).

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾(٤).

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ﴾(٥).

﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾(٦).

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ﴾(٧).

﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٩.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٥٤.
(٤) سورة يونس، الآية: ٣.
(٥) سورة هود، الآية: ٧.
(٦) سورة الكهف، الآية: ٥١.
(٧) سورة السجدة، الآية: ٤.

سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾[1].

أيها الناس أنتم مربوبون لله سبحانه وتعالى الذي خلق الأكوان كلها في ستة أيام.

◎ الستة معنى للتوافق الحسن

والستة، هو أول عدد كامل في نفسه، لقبوله القسمة على نفسه وعلى اثنين وعلى ثلاثة، على الفرد وعلى الزوج وعلى نفسه وعلى واحد، وعلى هذ يكون للستة في معنى الخلق معاني التوافق الحسن والتراهم والتداخل المنسجم في سنن الكون والكينونة الحسنة.

فلا يمكن التوافق الحسن والتناغم الذي يبدو به الكون، إلاّ أن يبتنى بالستة لكمالها في ذاتها، خارج الذات الكاملة المبدعة لخالقه الله تعالى.

وإن للستة في معنى الخلق آية بيّنة (معجزة)، وفي هذا المعنى تفصيل:

١ - إنّ الله سبحانه وتعالى، إنّما يقول للشيء كن فيكون، وكذلك خلق السموات والأرض، بل وكل ما خلق إنّما كان ضمن هذا المعنى، إلاّ أن بياناً الخلق في الستة في أمر تلك الكينونة على علم وحكمة وحسن تقدير وتدبير خبير لطيف، إن في الستة بياناً لكمال الخبرة والإبداع في تقدير سابق خلق الخالق العظيم.

ولو كان على غير الستة فلا كمال، بل لا يكون على غير الستة لأنه لا يمكن أن نتصوّر ذلك بل لا يوجد عقل يتصوره.

٢ - الخلق في الستة والقول بها بيان علمي لآيات الله تعالى، فإن الله سبحانه حين يقول للشيء كن فيكون، ليس عن خواء إنّما علم يعلّمه، وسنة يحكمها، وقضاء يمضيه، وحق يقيمه وعدل يجسده في واقع خلقه، فاعلم أيها البشر ليكون لك في ذلك آية. والحقيقة هي أن الإشارة إلى أن الخلق كان في ستة أوقات، مما يفهمه الخواص ممن امتحن الله تعالى قلوبهم.

◎ الآيات المتعلقة ببدء الخلق

نقل المجلسي قدس سره ما تدلّ عليه هذه الآيات البينات قائلاً: ومن خلال قول الله

---

(١) سورة فصلت، الآيات، الآية: ٩ - ١٢.

سبحانه وتعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[1] نفهم أن كل ما في الأرض جميعاً للإنسان بما هو مستخلف فيه من قبل الله.

وهنا التفاتة يبلغها المتابع في هذا المعنى. أنّه إذا كان هذا حال الأرض ومن فيها للإنسان، فما هو حال الأكوان والسموات والأخرى؟.

والواقع - والله أعلم - أن (ثم) في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾[2] ليس للترتيب الزمني، إنّما لإثارة التفاتة المتابع، ولتجيب على تساؤلاته، فالسماء فيها سمات أخرى كما ينبيء به واقع الكون، بما فيها من أصناف:

١ - فهناك كون لا زمني من الأجرام الميّتة الـ (Black hols).

٢ - وهناك كون من المادة المضادة الـ (Anti matericel).

٣ - وهناك كوننا الذي نعيش فيه الآن، وذلك هو كون الزمن الموجب ضمن علمنا وتعاملنا مع بعد الوجود الذي يلازم الوجود والتغير، فالزمن مخلوق مربوب لخالق الزمن ربّ العالمين، فالخالق سبحانه وتعالى وجود واجب خارج الأكوان الزمنية.

ولا بدّ من وجود كون غير كون الزمن الموجب، أي ضمن الزمن السالب أو ربما ضمن كون الزمن المتوقف.

وهذان الكونان لم يتطرق العلم للحديث عنهما مع اتّساعه ولم يقدم لنا أي تفصيل عنهما، إلاّ أن القرآن. ذكرهما وفي ذلك بيان موجز عنهما في إشارة واضحة لإمكان وجودهما.

قال تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[3].

وتلك هي آية للناس في مربوبية الزمن لله تعالى، حيث أوقف الزمن بالنسبة له

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٠.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٥٤.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٥٩.

ولطعامه وشرابه، فبقي مع مرور الزمن الموجب لكونهما في واقعه، بقي كما هو، فهو يظن أنه لبث يوماً أو بعض يوم، وخلال مئة عام لم يتغير الطعام والشراب الشديد التغير ضمن الزمن الموجب حيث هو الواقع.

أما الحمار الذي مضى عليه الزمن الموجب في واقعه وكونه، فقد مات وتهرّأ اللّحم وتفسخ وباد وتناثر، وأما العظم فقد تقطع من هيكله ونخر واندثر في التراب وغاب بين ذراته.

وأراد الله سبحانه وتعالى أن يكون في ذلك آية للناس، وعبرة له في ذاته، فوعده الله تعالى في قوله: ﴿وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾.

فقال الله تعالى له: ﴿وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾ أي تتنافر من الأرض لتلتئم في هيكلها العظمي.. ثم يأتي اللحم ليكسوها فيلتئم كامل الجسد ثم يحييه سبحانه وتعالى كما كان، في خلق جديد.

وهذا كشف لمعنى الزمن السالب، ففي الموجب يبدأ التهرّي في اللحم ثم في العظام، وفي الزمن السالب يبدأ الالتئام بالعظام ثم باللحم، وفي الموجب الموت أخيراً وفي السالب الحياة أخيراً.

وهذه صورة موجزة لواقع الكون في بعديه الزمنيّين الموجب والسالب، وحالة ثالثة بين البعدين هي حالة توقفه، ولنا عودة لهذا المثال الربّاني.

وهناك كون للحياة الأخرى كما يحدثنا به القرآن العظيم، وكون بين هو كون عالم البرزخ.

كل هذه العوالم خارج عالم الأرض.. أي سموات أخرى، لأن كل ما خرج عن الأض فوقها فهو سماء، والله سبحانه وتعالى هو رب العالمين والأكون وهو بكل شيء مما في تلك العوالم وأحوالها عليم خبير.

وفي قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾[1] بيان إلى أن السموات في القرآن تأتي بمعنى الأكوان، ولذا فإن قوله عزّ وجلّ (خلق السموات) يتضمن خلق الكون الأرضي، والخلق يتضمن الإبداع في إيجاد الشيء؛ والجعل أمر تلزمه الحكمة لبيان إبداع الخلق، لذا فبإزاء هذا البيان لا بد من حمد الخالق المبدع الحكيم.

(١) سورة الأنعام، الآية: ١.

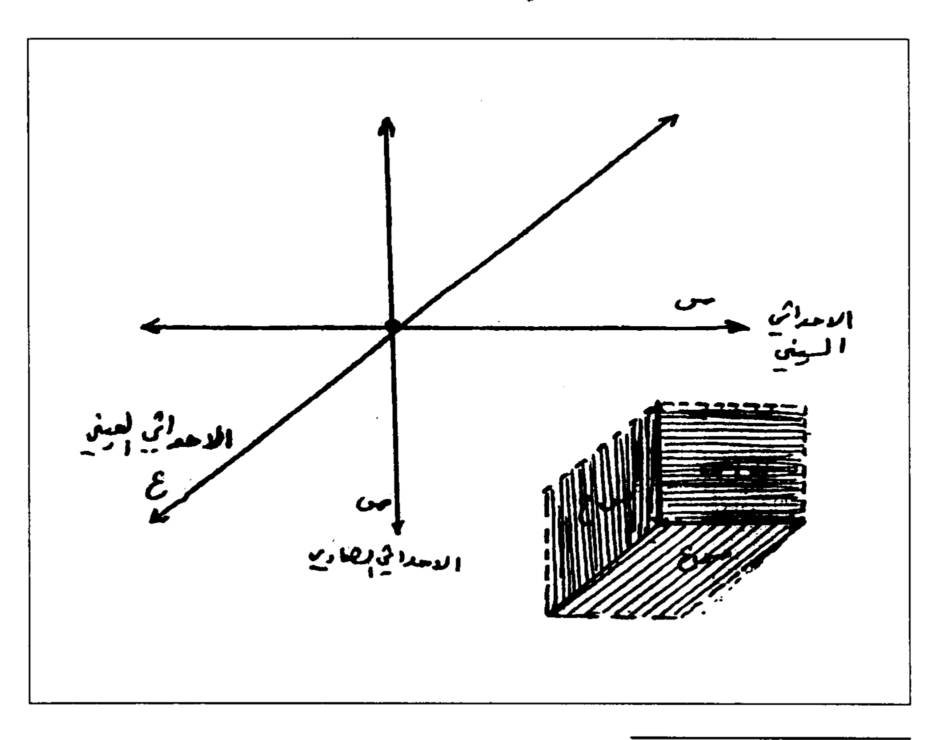
وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾[1]. معنى يخاطب الناس قائلاً:

أيها الناس أنتم مربوبون لله تعالى الذي خلق الأكوان كلها في ستة أحوال من الزمن، وللستة إضافة لما سبق معنى الحق في الواقع الكوني فهي:

١ - **الستة**: أول عدد كامل في نفسه، وإن اختياره يعني الحكمة وحسن التدبير والتقدير والتوافق الجميل للسموات والأرض في ارتباط ثوابتهما وثبات شروطهما.

٢ - **الستة**: هي عدد الوجوه الستة التي يبرز بها المكان في إحداثيات الكون، بما هي معنى الوقت الذي قام بها الوجود الزمكاني لجزئيات الكون.

٣ - وعليه فإذا كانت ستة الأيام تعني ستة الأوقات اللازمة لمعاني الحكمة وحسن التدبير والتقدير والتوافق الجميل، فهي كذلك اللازمة لقيام الوجود المادي بزمانه ومكانه، فلا بدّ أن نفصل كيفية توالي تلك الأقات.



---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٥٤.

أ - **الوقت الأول** ÷ النور (الطاقة) إلى مادة فالسماء دخان وسديم أو طاقة أو النور الذي بدأ الله تعالى به الخلق، ولا بدّ من الوقت لتحولها إلى مادة ضمن القانون الذي اكتشفه (أينشتين).

الكتلة المتكونة = الطاقة / على مربع ساعة الضوء

ولذا فإن خلق غرام واحد مثلاً، من المادة يحتاج إلى طاقة قدرها مربع سرعة الضوء أي: (٣ × ١٠^٨)٢ جول.

ط = ١× ٣ × ١٠^١٦.

= ٣ × ١٠^١٣ كيلو جول.

أي لكل غرام واحد من الخلق المادي يلزم ثلاثون ألف مليار كيلو جول. بمعنى آخر أقرب؛ لو أن البحر الأبيض المتوسط بما فيه من ماء يتحول إلى بترول ليحترق، فسوف لن يعطي أكثر من هذه الكمية من الطاقة.

ترى أية قوة تلك التي جمعت هذه المليارات من الأطنان من المادة لبناء المجموعة الشمسية؟!. وكم هو ذلك الوقت الذي استغرق في تحويل السديم الطاقة إلى مادة؟!.

ولذا يبدأ سبحانه وتعالى قوله باستفهام إنكاري؟!.

﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾؟![1].

ب - **الوقت الثاني**: ثم لا بدّ من وقت لبناء المادة في عناصرها المعروفة الـ (٩٢) عنصراً.

فتحول الطاقة إلى مادة ليس عملاً تلقائياً، إنّما هو عمل إبداعي، رهيب ومذهل. عناصر ونظائر، غازات وسوائل، مشعة ولها فترة نصف عمر وتوزيع اليكتروني ضمن مستويات الطاقة بديع.

والغازات في الفضاء مرتبة بنسب تحفظ الوجود والحياة وفترة نصف العمر للنظائر هي التي بواسطتها يقدرون اليوم عمر الأرض والأجرام. إنه الوقت البديع من لدن البديع ذي الجلال والإكرام وهو الوقت الثاني لخلق السموات والأرض.

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٩.

ج - **الوقت الثالث**: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩) وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢) مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٣)﴾(١).

هناك وقت ضروري لبناء المركبات، وأهمها الماء الذي كان سبباً لخلق الحياة، وهو وقت رفع القصور عن المادة في تصميم ربّاني بديع لخلق الكائنات الحيّة الحيوانيّة والنباتيّة.

فنبات يعطي الأوكسيجين للهواء، والسكر للغذاء، ويأخذ ثاني أوكسيد الكربون، ويستهلك الفضلات، وحيوان يتسهلك الأوكسيجين ويطرح الفضلات في توازن زمني دقيق جداً.

٤ - الوقت الرابع لرفع القصور الحيوي في أكمل صور الحياة لبناء العقل في خلق الإنسان.

٥ - وهناك وقت لبناء وخلق الكون المبدأ (Black hole).

٦ - وهناك وقت لبناء وخلق الكون المعاد (Anti material).

هذه هي الأيام الستة التي مضى فيها قيام الخلق في الأكوان السبع والأرض والله تعالى أعلم.

وقد جاءت كلمة (يوم) في القرآن العظيم بمعنى وقت في آيات عدة، كقوله تعالى:

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ﴾(٢).

﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾(٣).

﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾(٤).

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾(٥).

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾(٦).

---

(١) سورة النازعات، الآيات: ٢٧ - ٣٣.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٧٣.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٤١.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ٥٣.
(٥) سورة التوبة، الآية: ٣٦.
(٦) سورة النحل، الآية: ٨٠.

في كل هذه الآيات الكريمة السالفة (اليوم) يعني الوقت المطلق، وليس الليل أو النهار، ولا كلاهما المحدد بهما.

وقد جاء في آيات أخرى حدود (اليوم) الوقت المطلق بالنص الصريح أنّه قد يكون عشرات أو آلاف من السنين. كما في الآيات التالية:

﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾[1].

﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾[2].

﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾[3].

ومن هنا نستطيع أن نبين قوله تعالى في خلق السموات والأرض في ستة أيّام كما في الآيات التالية:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾[4].

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾[5].

﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾[6].

﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾[7].

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾[8].

فاليوم هو وقت خلق في السموات والأرض أو خلقهما عليه أن كان خلقهما ضمن معنى ذلك الوقت الذي تقدم بيانه.

أما مقدار ذلك الوقت والذي حدده الله تعالى بستة أيّام منه، دون أن تكون أقل من ذلك ولا أكثر، ففيه معانٍ علمية وإعجازية مذهلة، وبيان لحكمة الخالق وحسنة وقدرته، إلى كل معاني الأسماء الحسنة لله تعالى.

وهناك معنى آخر للستة أيام على أنها ستة أحوال، ومما نقله العلامة المجلسي قدس سره عن الأحوال الستة لحدود خلق الله، قال: قال عمران للإمام الرضا عليه السلام:

---

(١) سورة السجدة، الآية: ٥.
(٢) سورة المعارج، الآية: ٤.
(٣) سورة الحج، الآية: ٤٧.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ٥٤.
(٥) سورة ق، الآية: ٣٨.
(٦) سورة الحديد، الآية: ٤.
(٧) سورة الفرقان، الآية: ٥٩.
(٨) سورة السجدة، الآية: ٤.

يا سيدي ألا تخبرني عن حدود خلقه كيف هي؟ وما معانيها؟ وعلى كم نوع؟.

قال عليه السلام قد سألت فافهم: إن حدود خلقه على ستة أنواع:

١ - ملموس

٢ - موزون

٣ - ومنظور إليه

٤ - وما لا ذوق له وهو الروح

٥ - ومنظور إليه وليس له وزن ولا لمس ولا حس ولا لون

٦ - وما لا وزن له والتقدير والأعراض والصور والطول والعرض، ومنها العمل، والحركات التي تصنع الأشياء وتعملها وتغيرها من حال إلى حال وتزيدها وتنقصها، وأما الأعمال والحركات فإنها تنطلق لأنّه لا وقت لها أكثر من قدر ما يحتاج إليه، فإذا فرغ من الشيء انطلق بالحركة وبقي الأثر ويجري مجرى الكلام الذي يذهب ويبقى أثره»(١).

والزمن: منظور إليه وليس له وزن ولا لمس ولا حس ولا لون، وقد بدأ خلق الزمن بالحدوث، لأن الزمن لازم الحدوث، فلا حدوث بلا زمن، وهو مربوب للمحدث سبحانه. أو كما يقول الطبيعيون، الزمن بعد رابع في بناء الوجود المادي، وتلك هي من مقالات نظرية (أينشتين).

◎ تسوية سمك السماء

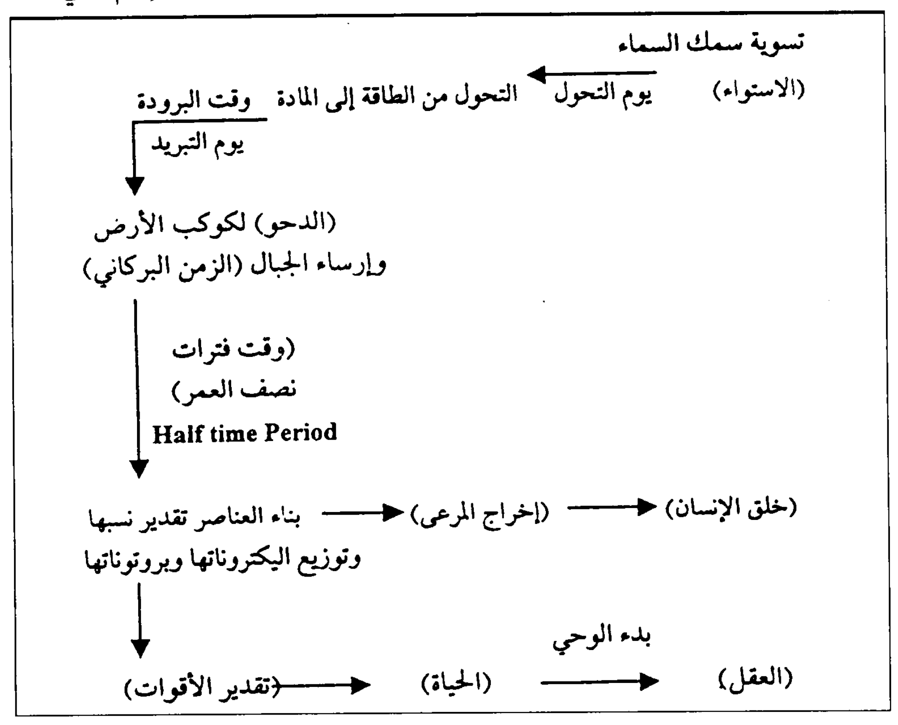
(الاستواء) يوم التحول التحول من الطاقة إلى المادة

وقت البرودة يوم التبريد (الدحو) لكوكب الأرض وإرساء الجبال (الزمن البركاني)

(وقت فترات نصف العمر) Half time Period بناء العناصر تقدير نسبها وتوزيع اليكتروناتها وبروتوناتها إلى (إخراج المرعى) إلى (خلق الإنسان) (تقدير الأقوات)إلى (الحياة) بدء الوحي إلى (العقل).

---

(١) بحار الأنوار: ٥٤/٤٩.



١ - يوم (زمن) يرافق تحول الطاقة إلى مادة.

٢ - يوم آخر (زمن) يرافق توزيع المادة في (٩٢) عنصراً.

٣ - يوم ثالث في رفع القصور المادة لبناء الحياة.

٤ - يوم رابع لخلق الإنسان في رفع القصور الحيوي.

ومما نقله المجلسي قدس سره عن الأحوال الستة أيضاً: ما ذكره الرازي في تفسيره: من أنّ المراد بستّة أيام ستّة أحوال، وذلك لأنّ السماء والأرض وما بينهما ثلاثة أشياء، ولكل واحد منهما ذات وصفة، فنظراً إلى خلقه ذات السماء حالة، وإلى خلقه صفاتها أخرى، ونظراً إلى خلقه ذات الأرض وإلى صفاتها كذلك، ونظراً إلى ذوات ما بينهما وإلى صفاتها أخرى، فهي ستّة أشياء في ستّة أحوال، وإنّما ذكر الأيّام لأنّ الإنسان إذا رأى إلى الخلق رآه فعلاً، والفعل ظرفه الزمان والأيّام أشهر الإزمنة، وإلاّ فقبل المساواة لم يكن ليل ولا نهار، وهذا مثل ما يقول القائل لغيره: «إن يوماً

ولدت فيه كان يوماً مباركاً» وقد يجوز أن يكون ولد ذلك ليلاً ولا يخرج عن مراده لأنّ المراد الزمان الذي هو ظرف ولادته، فهو تكلّف بعيد مستغنى عنه[١].

﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾[٢].

في حساب الزمن بالقانون الطبيعي لخلق المادة من الطاقة بحجم الأرض يكون مستحيلاً، ما لم ندخل في الحساب قوة لا متناهية ضبطت كم كبير جداً من الطاقة لخلق جسم صغير جداً من المادة في الأرض بالنسبة لما في الكون.

وهو تساؤل قرآني تعجبي كيف تكفرون مع حساب هذه القوة اللامتناهية التي أقامت الوجود المادي لزمن من الطاقة. وأقامت العناصر في المادة في زمن آخر لا يمكن حسابه مطلقاً بالقانون الطبيعي موزعاً على ثماني مدارات وأربع رفوف ما لم تكن هناك قوة حكيمة مقدرة ضبطت بناءه وأحكمت أشكاله.

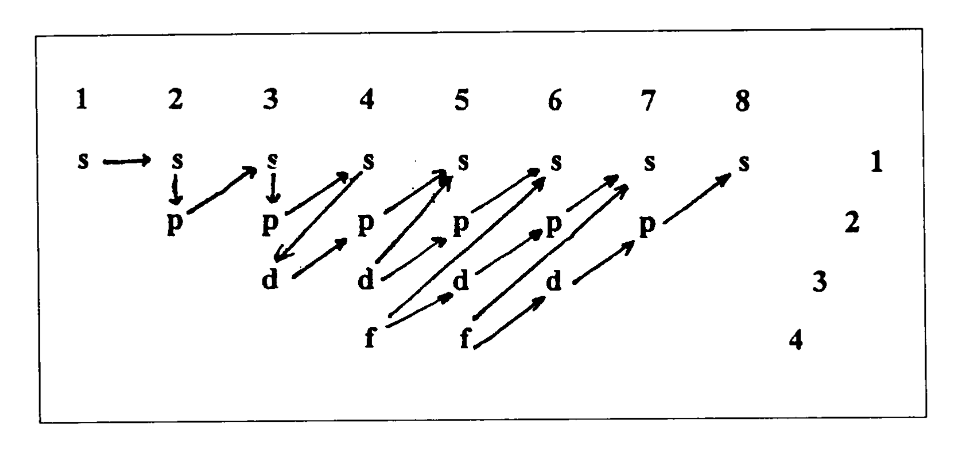
ثم حتى بعد قيام المادة وقيام عناصرها الـ(٩٢)، كيف قامت الحياة في الأرض؟؟!. وكيف قام العقل؟!.

خلق الأرض في يومين، جعل فيها رواسي من فوقها (ب)

أ، ب بارك فيها (ج)

قدر فيها أقواتها (د)

يوم من الطاقة للمادة، ويوم لتعدد المادة بالعناصر



(١) بحار الأنوار: ٥٤/٩.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٩.

الأرض بما هي جسم مادي إنما يتركب في حالات المادة الثلاث: الصلب والسائل والغاز في مخاليط ومركبات وعناصر، كلها من أصل (٩٢) عنصراً تتوزع في أربع مدارات ثانوية هي: ما يسمونه (f,d,p,s) هي أصل بناء الأرض، حيث قال سبحانه وتعالى:

﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾[١].

هذا بالقرينة مع معاني الزمن الذي تقدم معنا، وهو الزمن الموجب في توقفه وإطلاقه (يومين)، ويومين آخرين لرفع القصور الذاتي بالحياة لتكوين مصنع الغذاء في المادة (القوت) لخلق النبات والحيوان (يوم) ولرفع القصور الحيوي الذاتي في الحياة لتكوين الإنسان (يوم آخر).

◎ معنى آخر للأيام الستّة

نقل المجلسي قدس سره أنّ المراد بالأيّام هنا: مقدار أيّام الدنيا، وروى عن ابن عبّاس: أنّها من أيّام الآخرة كلّ يوم منها ألف سنة ممّا تعدون.

وأضاف قدس سره قائلاً: وبمثل هذا الخبر لا يمكن صرف الآية عن ظاهرها، ثم إنّه سبحانه إنّما خلق في هذه المدّة مع أنه كان قادراً على خلقها في طرفة عين إمّا لعبرة من خلقها من الملائكة، إذ الاعتبار في التدرج أكثر كما ورد في الخبر، أو ليعلم بذلك أنّها صادرة من قادر مختار عالم بالمصالح ووجوه الأحكام، إذ لو حصلت من مطبوع أو موجب لحصلت في حالة واحدة، أو ليعلَم النّاس التأني في الأمور وعدم الاستعجال فيها، كما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**ولو شاء أن يخلقها في أقلّ من لمح البصر لخلق، ولكنّه جعل الأناء والمداراة مثالاً لأمنائه، وإيجاباً للحجّة على خلقه**»[٢].

نعم قال لها: كن فكانت على ستة أيام. مثل باقي الأشياء، لأن الأشياء إنّما تقوم وتكون ملء إرادته دون قوله كما يقول المعصوم في دعائه «**... تسببت بلطفك الأسباب، وجرى بقدرتك القضاء، فهي بمشيئتك دون قولك مؤتمرة، وبإرادتك دون نهيك منزجرة، فالخلق بالنسبة لله تعالى إرادة**». والقرآن إنما هو وحي وبيان لتلك

---

(١) سورة فصلت، الآية: ١٠.

(٢) بحار الأنوار: ٦/٥٤. والإناء: بفتح الهمزة اسم من الابناء أي الأبطاء والتأخير

الإرادة، وفيه وضوح لبيان قدسي يتعلق بتلك الإرادة، وبيان علمي بتعلق بتعليم المؤمنين، ولذلك يشير المعصوم عليه السلام في قوله: ... **جعل الأناء والمداراة مثلاً لأمنائه وإيجاباً للحجة على خلقه»**. والدليل على أن الله سبحانه وتعالى: قال للسموات والأرض كونا فكانتا.

◎ الحدوث ومعاني الزمن

الزمن: هو البعد الذي نحس من خلاله بالحدوث والتغيّر.

ولقد أعطتنا العلوم الحديثة فرصة ومثالاً لبيان هذا المعنى، لأن الزمن هو الشيء الوحيد في العلوم الذي يكتنفه كثير من الغموض، والذي تتشعب فيه الأقوال بين الفلاسفة والفيزيائيين، ومع أن النظرية كانت حاسمة في تعريفها للزمن باعتباره بعداً وجودياً من الأبعاد الأربعة لكل كائن مادي ومثلما يكون في الأبعاد المكانية الثلاثة إحداثيات، وبما فيها من سلب وإيجاب كذلك يكون للزمن، السلب والإيجاب والتوقف.

في تركيب المادة، تدرس الذرّة على أنها أصغر وحدة بنائية في المادة تشترك في التفاعلات الكيميائية. وهذه الذرّة عبارة عن نواة موجبة تأخذ شحنتها وكتلتها من شحنة البروتونات وكتلتها. ومن غلاف يتكوّن من عدد من الاليكترونات السالبة تساوي في العدد ما يوجد في النواة من بروتونات، فالذرة متعادلة كهربائية والاليكترونات في المدارات تبعد كثيراً جداً جداً عن النواة، مما يجعل معظم حجم الذرة فراغاً.

ولذا باعتبار الموت سنّة جعلها الله تعالى على كل موجودات الكون فإذا ماتت المادة، انجذبت الاليكترونات السالبة في الذرة من مدارها لتستقر في النواة الموجبة، فيضيع حجم الذرّة ويقترب من الصفر وهكذا فعلى سبيل المثال فإن الأرض تلك الكوكب الذي نعيش عليه، لو قدَر لها وماتت لتحولت إلى جسم بحجم بيضة الحمامة ولصار محيطها ٥,٨ سم إلاّ أن كتلتها تبقى هي هي مما يجعل جاذبيتها للأجسام على سطحها تقترب من المالانهاية.

القصد من هذا المثال، أن هناك في الكون أجساماً ميتة من المادة جاءت من تحول أجرام سماوية ماتت وتحولت إلى مادة نيوترونيّة يسمّيها الفلكيون الثقوب السوداء (Black Hole) وهي حالة من المادّة يتوقف فيها الزمن أو يعتقل، حيث لا حركة ولا تغير، حتى الضوء إذ مر فوقها يتجمّد بشكل خطوط مستقيمة، فليس فيها غير السكون

والظلام القاتل، ولا يبدو فيها غير السواد، ولذا سميت (الثقوب السوداء). وسميت تجمعات هذه الأجرام الميتة (بالكون اللازمني).

إن مفاهيم اعتقال الزمن أو توقفه والزمن السالب هي بالحقيقة مفاهيم قرآنية سبق بها الإسلام كل العلوم الحالية، فلقد ورد في القرآن الكريم آية كمثال على مربوبية الزمن لله تعالى، نذكرها الآن بشيء من التفصيل، قال تعالى:

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1].

◎ حدوث العالم وبدء خلقه في كلام الإمام علي عليه السلام

● نهج البلاغة: قال أمير المؤمنين عليه السلام **في خطبة له: الحمد لله المعروف من غير رؤية والخالق من غير رويّة، الّذي لم يزل قائماً دائماً، إذ لا سماء ذات أبراج، ولا حجب ذات أرتاج، ولا ليل داجٍ، ولا بحر ساجٍ، ولا جبل ذو فجاج، ولا فجٌّ ذو اعوجاج، ولا أرض ذات مهاد، ولا خلق ذو اعتماد، ذلك مبتدع الخلق ووارثه، وإلّه الخلق ورازقه**[2].

● **نهج البلاغة**: قال عليه السلام: **الأوّل قبل كل أوّل، والآخر بعد كلّ آخر**[3].

الغرض إثبات الأوّليّة والآخريّة الحقيقيتين له سبحانه، وظاهر الأوّل حدوث ما سواه، واستدلّ بالثاني على ما ذهب إليه كثير من المتكلّمين من انعدام العالم بأسره قبل قيام الساعة، ويمكن أن يكون الآخريّة باعتبار أنّ كلّ ما عداه في التغيّر والتحوُّل من حال إلى حال، كما ورد في الرواية، وقيل: أوّليّته بحسب الخارج، وآخريّته بحسب الذهن، أو الآخر في سلسلة الافتقار لاحتياج الكلّ إليه سبحانه.

● قال عليه السلام: **الحمد لله الدّالّ على وجوده بخلقه، وبمحدث خلقه على أزليّته**[4].

● ومنه قال عليه السلام: **الحمد لله خالق العباد، وساطح المهاد، ومُسيل الوهاد، ومُخصب النجاد، ليس لأوليته ابتداءٌ، ولا لأزليته انقضاءٌ. هُو الأولُ لم يزل، والباقي**

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٩.
(٢) نهج البلاغة: ١٥٨.
(٣) نهج البلاغة، ١٩٤.
(٤) نهج البلاغة، ج١، ص٢٧٢.

بلا أجلٍ. - إلى قوله عليه السلام - قبل كُل غايةٍ ومُدةٍ، وكُل إحصاءٍ وعدةٍ، - إلى قوله عليه السلام - لم يخلُق الأشياء من أصولٍ أزليةٍ، ولا أوائل أبديةٍ[١]، بل خلق ما خلق فأقام حده، وصور ما صور فأحسن صورته[٢].

---

(١) حدوث العالم وبدء الخلق، واقع يقرّه العقل ويؤكده العلم، فتقدير الأعمال الذي يعتمده العلماء بالنسبة للكون والأرض، بل وكل جزء من مكونات الأرض، والتي تعتمد على النشاط الاشعاعي للنظائر المشعة من العناصر.

فالحقيقة أن هناك فترة نصف عمر لكل نظير من نظائر العناصر المكونة للعالم المادي تتراوح بين ملايين السنين وبين لحظات من الزمن.

وفترة نصف العمر معناها: هي الوقت اللازم لتغير نصف كتلة النظير إلى عنصر آخر أكثر استقراراً.

والآن يعتمد عنصر الكاربون في نظيره C14 لتقدير الأعمار لكل الموجودات تقريباً. المهم أن قول العلماء إن عمر الأرض يقع بين ١٥ - ١٣,٦ مليار سنة أو أقل أو أكثر دليل على قولهم بالحدوث.

أما التفاصيل ففيها الغث والسمين. ونحن إنما نقر ما يقرّه كتاب الله تعالى لأنه الحق الذي لا ريبّ فيه.

إلا أن الإحاطة بقصد القاصد في معاني الكتاب العزيز لا تدرك ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ﴾ [آل عمران: ٧].

وربنا الحق الذي لا يحيط به أحد إلا أن نتطلع إلى ما يأتينا صحيحاً موثوقاً عن الراسخين في العلم عليهم السلام.

يقول الإمام علي عليه السلام: يقول لما أراد كونه كن فيكون، لا بصوت يقرع ولا نداء يسمع وإنما كلامه سبحانه فعل منه أنشأه ومثله، ولمن يكن من قبل ذلك كائناً، ولو كان قديماً لكان إليها ثانياً، لا يقال كان بعد أن لم يكن فتجري عليه الصفات المحدثات، ولا يكون بينهما وبينه فصل، ولا له عليها فضل فيستوي الصانع والمصنوع ويتكافأ المبتدع والبديع... الخ.

وبليغ قوله عليه السلام: أن يصف وصفاً علمياً دقيقاً ومنع الأرض قبل كل علوم الفضاء الحالية: «وأنشأ الأرض فأمسكها من غير اشتغال، وأرساها على غير قرار، وأقامها بغير قوائم، ورفعها بغير دعائم، وحصّنها من الأود، والاعوجاج، ومنعها من التهافت والانفراج، أرسى أوتادها وضرب أسدادها.

إشارة إلى القوى الأربع في الطبيعة المتكافئة، فهي ممسكة بقوى الجذب الكوني التي زينها وقدرها وأحكمها الله سبحانه بحكمته وحسن تدبيره.

وأرساها على غير قرار، فثبتها في الكون سابحة مستقرة لسكانها دون أن تستند إلى شيء تقر عليه، فقد أقامها سبحانه بدون قوائم ورفعها بغير دعائم كما يقول عليه السلام، وجعلها ذات قوام صلب يقاوم الاعوجاج والأود، ثم جعلها مترابطة لا شقوق فيها وتذوب فتبتلع من عليها. ذلك من وصف الراسخون في العالم عليهم السلام لعلهم بمعاني وتأويلات وحيه جلّ وعلا.

(٢) نهج البلاغة، ج١، ص٣٠٠.

● وفي خطبة أخرى مشهورة له عليه السلام: لا تصحبه الأوقات، ولا ترفده الأدوات، سبق الأوقات كونه، والعدم وجوده، والابتداء أزله. - إلى قوله عليه السلام - ولا يجري عليه السكون والحركة، وكيف يجري عليه ما هو أجراه، ويعود فيه ما هو أبداه، ويحدث فيه ما هو أحدثه! إذاً لتفاوتت ذاته، ولتجزأ كنهه، ولامتنع من الأزل معناه، - إلى قوله عليه السلام - يقول لمن أراد كونه: «كن فيكون»، لا بصوتٍ يقرع، ولا بنداءٍ يسمع؛ وإنما كلامه سبحانه فعلٌ منه أنشأه ومثله، لم يكن من قبل ذٰلك كائناً، ولو كان قديماً لكان إلٰهاً ثانياً.

لا يقال: كان بعد أن لم يكن، فتجري عليه الصفات المحدثات، ولا يكون بينها وبينه فصلٌ، ولا له عليها فضلٌ، فيستوي الصانع والمصنوع، ويتكافأ المبتدع والبديع. خلق الخلائق على غير مثالٍ خلا من غيره، ولم يستعن على خلقها بأحدٍ من خلقه.

وأنشأ الأرض فأمسكها من غير اشتغالٍ، وأرساها على غير قرارٍ، وأقامها بغير قوائم، ورفعها بغير دعائم، وحصنها من الأود والإعوجاج، ومنعها من التهافت والإنفراج. أرسى أوتادها، وضرب أسدادها، واستفاض عيونها، وخد أوديتها؛ فلم يهن ما بناه، ولا ضعف ما قواه. - إلى قوله عليه السلام - هو المفني لها بعد وجودها، حتى يصير موجودها كمفقودها.

وليس فناء الدنيا بعد ابتداعها بأعجب من إنشائها واختراعها. - إلى قوله عليه السلام - وإن الله، سبحانه، يعود بعد فناء الدنيا وحده لا شيء معه.

كما كان قبل ابتدائها، كذلك يكون بعد فنائها، بلا وقتٍ ولا مكانٍ، ولا حينٍ ولا زمانٍ. عدمت عند ذٰلك الآجال والأوقات، وزالت السنون والساعات. فلا شيء إلا الله الواحد القهار الذي إليه مصير جميع الأمور.

بلا قدرةٍ منها كان ابتداء خلقها، وبغير امتناعٍ منها كان فناؤها، ولو قدرت على الامتناع لدام بقاؤها.

لم يتكاءده صنع شيءٍ منها إذ صنعه، ولم يؤده منها خلق ما خلقه وبرأه، ولم يكونها لتشديد سلطانٍ، ولا لخوفٍ من زوالٍ ونقصانٍ، ولا للاستعانة بها على ندٍ مكاثرٍ، ولا للاحتراز بها من ضدٍ مثاورٍ، ولا للازدياد بها في ملكه، ولا لمكاثرة شريكٍ في شركه، ولا لوحشةٍ كانت منه، فأراد أن يستأنس إليها. ثم هو يفنيها بعد تكوينها، لا لسأمٍ دخل عليه في تصريفها وتدبيرها، ولا لراحةٍ واصلةٍ إليه، ولا لثقل شيءٍ منها عليه.

لم يمله طول بقائها فيدعوه إلى سرعة إفنائها، لٰكنه سبحانه دبرها بلطفه، وأمسكها بأمره، وأتقنها بقدرته، ثم يعيدها بعد الفناء من غير حاجةٍ منه إليها، ولا استعانةٍ بشيءٍ منها عليها، ولا لانصرافٍ من حال وحشةٍ إلى حال استئناسٍ، ولا من حال جهلٍ وعمًى إلى حال علمٍ والتماسٍ. ولا من فقرٍ وحاجةٍ إلى غنًى وكثرةٍ، ولا من ذلٍ وضعةٍ إلى عزٍ وقدرةٍ[١].

● عن أمير المؤمنين عليه السلام في الدعاء اليماني المعروف: وأنت الجبّار القدّوس الّذي لم تزل أزليّاً دائماً في الغيوب وحدك، ليس فيها غيرك، ولم يكن لها سواك[٢].

● بإسناده عن سلمان، قال: سأل الجاهليق أمير المؤمنين عليه السلام أخبرني عن الربّ أفي الدنيا هو أو في الآخرة؟

قال عليّ عليه السلام: لم يزل ربّنا في الدنيا هو مدبّر الدنيا وعالم بالآخرة[٣].

● نهج البلاغة: من خطبة له عليه السلام: وكان من اقتدار جبروته، وبديع لطائف صنعته، أن جعل من ماء البحر الزاخر المتراكم المتقاصف، يبساً جامداً، ثم فطر منه أطباقاً، ففتقها سبع سمٰواتٍ بعد ارتتاقها، فاستمسكت بأمره، وقامت على حده. وأرسى أرضاً يحملها الأخضر المثعنجر، والقمقام المسخر.

قد ذل لأمره، وأذعن لهيبته، ووقف الجاري منه لخشيته. وجبل جلاميدها، ونشوز متونها وأطوادها، فأرساها في مراسيها، وألزمها قرارتها، فمضت رؤوسها في الهواء، ورست أصولها في الماء، فأنهد جبالها عن سهولها، وأساخ قواعدها في متون أقطارها ومواضع أنصابها، فأشهق قلالها، وأطال أنشازها، وجعلها للأرض عماداً، وأرزها فيها أوتاداً، فسكنت على حركتها من أن تميد بأهلها، أو تسيخ بحملها، أو تزول عن مواضعها.

فسبحان من أمسكها بعد موجان مياهها، وأجمدها بعد رطوبة أكنافها، فجعلها لخلقه مهاداً، وبسطها لهم فراشاً! فوق بحرٍ لجيٍ راكدٍ لا يجري، وقائمٍ لا يسري، تكركره الرياح العواصف، وتمخضه الغمام الذوارف؛ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾[٤].

---

(١) نهج البلاغة: ج١، ص٣٥٢.
(٢) البحار ج٥٤ ص٣٧، ح١٠.
(٣) التوحيد: باب الرحمن على العرش استوى، ص: ٢٣٢. البحار ج٥٤ ص٣٨، ح١٣.
(٤) نهج البلاغة، ج١، ع٣٢.

●عن الهيثم عبد الله الرمانيّ، عن الرضا، عن آبائه عليهم السلام قال: خطب أمير المؤمنين عليه السلام النّاس في مسجد الكوفة فقال: الحمد لله الّذي لا من شيء كان، ولا من شيء كوّن ما قد كان مستشهد بحدوث الأشياء على أزليّته، وبفطورها على قدمته[١] «الخطبة».

◎ تسمية مكة بأم القرى

● العلل والعيون: سأل الشاميّ أمير المؤمنين عليه السلام: لم سمّيت مكّة أمّ القرى؟

قال عليه السلام: لأنّ الأرض دحيت من تحتها.

وسأل عن أوّل بقعة بسطت من الأرض أيّام الطوفان.

فقال له: موضع الكعبة، وكانت زبرجدة خضراء[٢] [٣].

●ارشاد القلوب: سأل أمير المؤمنين عليه السلام: لم سمّيت مكّة؟

قال: لأنّ الله مكّ الأرض من تحتها أي دحاها[٤].

◎ أول ما خلق الله

●عن عبد الله بن أحمد بن عامر الطائيّ، عن أبيه، عن الرضا، عن آبائه عليهم السلام قال: كان عليٌّ عليه السلام في جامع الكوفة إذ قام إليه رجل من أهل الشام فقال: أخبرني عن أوّل ما خلق الله؟

قال: خلق النور[٥].

قال: فممّ خلقت السماوات؟

قال: من بخار الماء.

قال: فممّ خلقت الأرض؟

قال: من زبد الماء.

(١) التوحيد: ص٣٣. البحار ج٥٤ ص٤٦.
(٢) لعلّ المراد بأيّام الطوفان أيّام تموّج الماء واضطرابه قبل خلق الأرض.
(٣) العيون: ج١، ص٢٢١. البحار ج٥٤ ص٦٤، ح٣٦.
(٤) البحار ٥٤ ص٦٤، ح٣٧.
(٥) يمكن أن يكون المراد بالنور نور النبي والأئمة عليهم السلام ورد في أكثر الأخبار.

قال: فممّ خلقت الجبال؟

قال: من الأمواج (الخبر)[١].

● **وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله في قوله عزّ وجلّ: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾: إن الله عزّ وجل لما خلق الماء، فجعل عرشه قبل أن يخلق السماوات والأرض، وذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾[٢] يعني: وكان عرشه على الماء قبل أن يخلق السماوات والأرض، فأرسل: الرياح على الماء فتفجّر الماء من أمواجه، فارتفع عنه الدخان، وعلا فوق الزبد، فخلق من دخانه السماوات السبع، فخلق من زبده الأرضين السبع، فبسط الأرض على الماء[٣].**

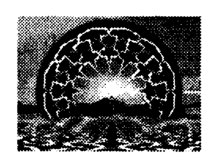
ومثلما ما تحدث الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وآل بيته الكرام عن بداية الكون ونشوئه، تحدثوا عن نهايته وتشتته وطيه كما ورد في القرآن الكريم، مُقتفين في ذلك على نهج القرآن وما ورد فيه في حالة نهاية الكون، معلنين على الملأ أن الكون حادث لا قديم وأنه سينتهي في النهاية، وينتهي معه الناس ليأتي دورُ جديد يختلف عن الدور الكوني الذي نعرفه ونعيشه حيث لا بقاء إلا لله وكل شيء هالك إلا وجهه، هذا المعنى العقلي والعلمي كان حاضراً في كل خطاباتهم وأدميتهم وأفكارهم ومحاوراتهم مع الناس.

● وقال الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام من خطبة طويلة له: **«فهم يعدون سراعاً إلى مواقف الحشر يساقون سوقاً، فالسماوات مطويّات بيمينه كطيّ السجلّ للكتب، والعباد على الصراط وَجِلت قلوبهم، يظنون أنهم لا يسلمون، ولا يؤذن لهم فيتكلمون»[٤].**

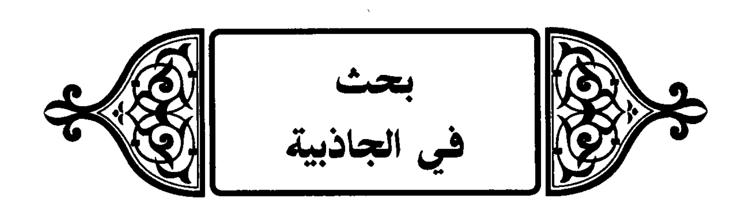
● وقال الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام أيضاً: **حتّى إذا بلغ الكتاب أجله، والأمر مقاديره، وألحق آخر الخلق بأوّله، وجاء من أمر الله ما يريده من تجديد خلقه، أماد السّماء وفطرها، وأرجّ الأرض وأرجفها، وقلع جبالها ونسفها، ودكّ**

(١) العيون: ج١، ص٢٣٠. البحار ج٥٤ ص٧٣، ح٤٩.
(٢) سورة هود، الآية: ٧.
(٣) البحار ج٥٤ ص٨٧.
(٤) بحار الأنوار: ٩٢/ ٣٧٢.

بعضها بعضاً من هيبة جلالته ومخوف سطوته، وأخرج من فيها، فجدّدهم بعد إخلاقهم، وجمعهم بعد تفرّقهم، ثمّ ميّزهم لما يريده من مسألتهم عن خفايا الأعمال وخبايا الأفعال[1].



(١) نهج البلاغة: خطبة ١٠٩/ ١٦١.



بحث في الجاذبية

خلق الله تعالى الكون، وخلق معه حالة (سحرية) لَمْلَمت شتاته وجمَعت بين أجزائه، فكان الكون المتناسق الجميل الذي لم تجد فيه تفاوتاً أبداً ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍۢ﴾[1].

خلق الله عز وجل الجاذبية مع الكون مع الزمن مع الإنسان مع كل جزيئات الكون، فهي في ذراته وجزيئاته ونجومه وكواكبه ومجراته وكل شيء فيه، ولولاها لانفرط الكون ولكان كتلة مضطربة تحكمها الفوضى.

ولولا الجاذبية لما استطعنا أن نعيش على الأرض ونستقر فوق سطحها، ولما استطعنا أن نثبت أقدامنا عليها ولاضطربت حياتنا، ولو فكرنا قليلاً في سر بقاء الإنسان على الأرض في أية نقطة منها، وخاصة أولئك الذين يعيشون في نصف الكرة الثاني - أي المعاكسين لنا - والذين عندما نتذكر أن الأرض كروية الشكل، لكدنا نشفق - لأول وهلة - أن يسقطوا منها في محيط الفضاء الأكبر، لولا ما أودعه الله تعالى فيهم وفي الكرة الأرضية من قوة الجاذبية التي تحول في كل وقت دون أن يفلتوا من قبضتها وجاذبيتها.

ولولا هذه الجاذبية الكونية لتشتت جزيئات الغلاف الهوائي المحيط بالأرض في الفضاء، ولاستحالت الحياة على سطحها، فقد تبلغ سرعة جزيئات الهواء مئات الأمتار في الثانية، غير أن قوة الجاذبية الأرضية أقوى من أن تتيح لها الانتشار والتشتت في الفضاء. ويقدر علماء الفلك أن أي جسم يستطيع أن يتخلص من قبضة الجاذبية على سطح الأرض إذا انطلق بسرعة لا تقل عن ١١,٢ كيلومتر في الثانية الواحدة.

لقد أخبرتنا الفيزياء أو قوة الجاذبية لجسم ما تزداد اطراداً بازدياد كتلته، ولما كانت

---

(١) سورة الملك، الآية: ٣.

الأرض من الضخامة بحيث يقل بجانبها كل شيء آخر مما نعرفه في حياتنا الأرضية، لم تدرك أثر الجاذبية فيما عداها من الأجسام، وحسبنا دائماً أن قوة الجاذبية من خصائص الأرض وحدها دون غيرها، ومع ذلك فقد أمكن عمل التجربة للتثبت من أن الجاذبية من خواص الأجسام كلها صغيرة وكبيرة مهما كان تركيبها الطبيعي أو الكيميائي، ولو أننا لا نكاد نلمس أثرها للأجسام الضئيلة، لضآلة مقدارها وكتلها.

إن الجاذبية قانون عام شامل يحكم كل شيء في الوجود لكن لا يدرك ذلك إلا العقل العلمي، فللأجسام أية تتجاذب فيما بينها، فالأرض تجذب القلم والقلم يجذب الأرض، والأرض تجذب الشمس والشمس تجذب الأرض، وهي تحكم الذرة كما تحكم الأجرام الكبرى - كما ذكرنا - ولولاها لذهب الجمال والكمال وذهب كلّ شيء.

ولقد عاشت الجاذبية كل الأحياء التي كانت قبلنا، عاشها الإنسان القديم وثبت كيانه من خلالها، مستقراً على الأرض فاعلاً فيها ولولاها لما بنى حضارة بل لما عاش أصلاً.

ولم يدركها إلاّ العلماء والراسخون في العلم، ولم تنتظم في قانون إلاّ في العصر الحديث على الرغم من المضامين القرآنية الرائعة التي أشارت إليها والعلماء والمسلمون - كما سنذكر لاحقاً - قبل قانونها بقرون طويلة، الجاذبية في العصر الحديث هي قانون شهير، على الرغم من شهرتها في الحضارة الإسلامية وأحاديث العلماء المسلمين عنها كما سنذكر ذلك.

يقول تاريخ العلم إن نيوتن العالم الإنجليزي كان نائماً أو مضطجعاً على الأرض تحت شجرة تفاح، فسقطت تفاحة مما جعلته يفكر في سبب سقوطها وسقوط الأشياء الأخرى على الأرض. وعلى الرغم أن الذي حدث للعالم نيوتن حالة عادية تحدث لكل فرد منا، إلاّ أن هذا العالم استفاد كثيراً من هذا السقوط، فقد كان نيوتن أول من قال: بأن الجذاب متبادل بين الأرض وما عليها من أجسام، فالأرض جذبت التفاحة وفي الوقت نفسه جذبت التفاحة الأرض (وهذه الحالة الأخيرة لم يعرفها أحد من قبل) وبما أن جسم الأرض أكبر من جسم التفاحة هي التي تحركت تحركت حتى وصلت إلى الأرض، والجاذبية هذه ليست موجودة بين الأرض وما عليها من أجسام وحسب وإنما هي موجودة بين كل الأجرام السماوية، وبين أي كتلة وأخرى في هذا الكون الشاسع،

فالأرض والكواكب يجذب بعضها بعضاً وتجذب الشمس إليها، والشمس بدورها تجذب الأرض والكواكب وهكذا على مستوى الكون كله.

من كل تلك المشاهدات والاستنتاجات والتفكير المتواصل توصل إلى قانونه الشهير في الجاذبية، وهو كقانون لا كفكرة ظهر مع نيوتن لأول مرة.

قال نيوتن: «**إن قوة الجاذبية بين أي جسمين تتناسب طردياً مع حاصل ضرب كتلتهما وتناسباً عكسياً مع مربع المسافة بينهما**».

من هنا كانت جاذبية نيوتن عوناً كبيراً على تفسير مسارات الكواكب في مداراتها، وكانت فعلاً تفسيراً مقنعاً في دراسة علم الفلك.

وعاش العصر الحديث الجاذبية بكل ثقلها وعرفها الناس، وأصبحت أشبه بالبديهية التي لا يتطرق إليها شك، وقد نسبت إلى العالم الإنجليزي نيوتن كما ذكرنا، لكن الحقيقة التفصيلية غير ذلك فمن يدرس تاريخ الجاذبية ويتتبعها منذ ظهور الإسلام على مسرح الحياة سيجد أن نيوتن هو آخر من قال في حقيقتها شيئاً جديداً، وبالطبع جاء أينشتاين في القرن العشرين ليعدلها من خلال نظريته الشهيرة النسبية العامة، لكن وفي كل الأحوال إن الجاذبية الحديثة هي آخر السلسلة الطويلة التي ذكرت الجاذبية.

فعلى الرغم من أن القرآن الكريم هو كتاب هداية وكتاب جاء لإنقاذ الناس واخراجهم من الظلمات إلى النور، وليس كتاباً علمياً متخصصاً إلاّ أنه ذكر أو أشار اشارات واضحة إلى الجاذبية السماوية أو الكونية في عدد من الآيات وبأساليب مختلفة مما يؤكد أن المقصود هي الجاذبية الكونية، لقد ذكر (فكرة الجاذبية) وليس قانونها، لأنه ليس كتاباً علمياً متخصصاً، فقد ذكرها بأروع الأساليب، ومثل القرآن كانت أحاديث النبي الأكرم ﷺ وأحاديث الأئمة الأطهار عليهم السلام لقد قالوها صراحة وبشكل واضح، أما العلماء المسلمون المتخصصون فقد فصلوا في ذلك تفصيلاً جميلاً.

● **عن أمير المؤمنين عليه السلام في خطبة طويلة: لم يخلق الأشياء من أصول أزليّة، ولا من أوائل كانت قبله أبدية، بل خلق ما خلق وأتقن خلقه، وصوّر ما صوّر فأحسن صورته «الخبر»**[١]

● **التوحيد والكافي: روي أنّه سئل أمير المؤمنين عليه السلام: أين كان ربّنا قبل أن يخلق سماءً وأرضاً؟**

(١) التوحيد: ص٤٠، البحار ج٥٤ ص٨٠ ح٥٥.

فقال عليه السلام: «أين» سؤال عن مكان، وكأن الله ولا مكان[١].

● عن أبي جعفر عليه السلام، قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: إنّ الله لمّا خلق الأرضين خلقها قبل السماوات[٢].

● تنبيه المخاطر للورّام: عن ابن عبّاس، عن أمير المؤمنين عليه السلام، قال: إنّ الله تعالى أوّل ما خلق الخلق خلق نوراً ابتدعه من غير شيء، ثمّ خلق منه ظلمة، وكان قديراً أن يخلق الظلمة لامن شيء كما خلق النور من غير شيء، ثمّ خلق من الظلمة نوراً، وخلق من النور ياقوتة غلظها كغلظ سبع سماوات وسبع أرضين، ثمّ زجر الياقوتة فماعت لهيبته فصارت ماء مرتعداً، ولا يزال مرتعداً إلى يوم القيامة، ثمّ خلق عرشه من نوره، وجعله على الماء، وللعرش عشرة آلاف لسان يسبّح الله كلّ لسان منها بعشرة آلاف لغة ليس فيها لغة تشبه الأخرى، وكان العرش على الماء، من دون حجب الضباب[٣].

● تفسير الفرات: عن عبيد بن كثير معنعناً، عن الحسن بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام قال: شهدت أبي عند عمر بن الخطّاب وعنده كعب الأحبار، وكان رجلاً قد قرأ التوراة وكتب الأنبياء عليهم السلام، فقال له عمر: يا كعب، من كان أعلم بني إسرائيل بعد موسى بن عمران عليه السلام؟

قال: كان أعلم بني إسرائيل بعد موسى بن عمران يوشع بن نون، وكان وصّى موسى بن عمران بعده وكذلك كلّ نبيّ خلا من بعد موسى بن عمران كان له وصيٌّ يقوم في أُمته من بعده.

فقال له عمر: فمن وصيّ نبيّنا وعالمنا؟ أبو بكر؟ قال: وعليٌّ ساكت لا يتكلّم.

فقال كعب: مهلاً! فإنّ السكوت عن هذا أفضل، كان أبو بكر رجلاً خطا بالصلاح فقدّمه المسلمون لصلاحه ولم يكن بوصيّ، فإنّ موسى (بن عمران) لمّا توفّي أوصى إلى يوشع بن نون فقبله طائفة من بني اسرائيل وأنكرت فضله طائفة، وهي الّتي ذكر الله تعالى في القرآن: ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ

---

(١) التوحيد: ص١١٥، الكافي، ج١، ص٩٠. البحار ج٧٤ ص٨٢، ح٦٢.
(٢) البحار ج٥٤ ص٨٥، ح٦٧.
(٣) تنبيه الخاطر، ج٢، ص٥ - ٩، البحار ج٥٤ ص٩٠، ح٧٨.

ظَٰهِرِينَ﴾[(١)] وكذلك الأنبياء السالفة والأمم الخالية لم يكن نبيٌّ إلا وقد كان له وصيٌّ يحسده قومه ويدفعون فضله!

فقال: ويحك يا كعب فمن ترى وصيَّ نبيّنا؟

قال كعب: معروف في جميع كتب الأنبياء والكتب المنزلة من السماء: «عليّ أخو النبيّ العربيّ عليه السلام يعينه على أمره ويوازره على من ناواه (و) له زوجة مباركة (و) له منها ابنان يقتلهما أُمّته من بعده، ويحسدون وصيّه كما حسدت الأمم أوصياء أنبيائها، فيدفعونه عن حقّه، ويقتلون ولده من بعده كحسد الأمم الماضية».

وقال: فأفحم عندها وقال: يا كعب! لئن صدقت في كتاب الله المنزل قليلاً فقد كذبت كثيراً!

فقال كعب: والله ما كذبت في كتاب الله قطّ، ولكن سألتني عن أمر لم يكن لي بدٌّ من تفسيره والجواب فيه، فإني لأعلم أنّ أعلم هذه الأمّة أمير المؤمنين عليُّ بن أبي طالب عليه السلام بعد نبيّها لأنّي لم أسأله عن شيء إلاّ وجدت عنده علّماً تصدّقه به التورية وجميع كتب الأنبياء عليهم السلام.

فقال له عمر: أسكت يا بن اليهوديّ! فوالله إنّك لكثير التخرص والكذب[(٢)].

فقال كعب: والله ما علمت أنّي كذبت في شيء من كتاب الله منذ جرى لله عليّ الحكم، ولئن شئت لألقينّ شيئاً من علم التوراة فإن فهمته فأنت أعلم منه، وإن فهم فهو أعلم منك.

فقال له عمر: هات بعض هناتك

فقال كعب: أخبرني عن قول الله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ فأين كانت الأرض؟ وأين كانت السماء؟ وأين كان جميع خلقه؟

فقال له عمر: ومن يعلم غيب الله منّا إلاّ ما سمعه رجل من نبيّنا؟

قال: ولكن إحال أبا حسن لو سئل عن ذلك لشرحه بمثل ما قرأناه في التوراة.

فقال له عمر: فدونك إذا اختلف المجلس.

قال: فلمّا دخل عليّ عليه السلام على عمر وأصحابه أرادوا إسقاط أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام.

---

(١) سورة الصف، الآية: ١٣.

(٢) الخرص: الكذب والقول بالظنّ، والتخرص: الأفتراء.

فقال كعب: يا أبا الحسن أخبرني عن قول الله تعالى في كتابه: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.

قال أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام: نعم، كان عرشه على الماء حين لا أرض مدحيّة، ولا سماء مبنيّة ولا صوت يسمع ولا عين تنبع، ولا ملك مقرّب، ولا نبيّ مرسل، ولا نجم يسري، ولا قمر يجري ولا شمس تضيىء، وعرشه على الماء، غير مستوحش إلى أحد من خلقه، يمجّد نفسه ويقدّسها كما شاء أن يكون كان، ثمّ بدا له أن يخلق الخلق، فضرب بأمواج البحور فثار منها مثل الدخان كأعظم ما يكون من خلق الله، فبنى بها سماءً رتقاً، ثمّ دحا الأرض من موضع الكعبة وهي وسط الأرض فطبقت إلى البحار، ثمّ فتقها بالبنيان وجعلها سبعاً بعد إذ كانت واحدة، ثمّ استوى إلى السماء وهي دخان من ذلك الماء الّذي أنشأه من تلك البحور، فجعلها سبعاً طباقاً بكلمته الّتي لا يعلمها غيره وجعل في كلّ سماء ساكناً من الملائكة خلقهم معصومين من نور من بحور عذبة وهو بحر الرحمة، وجعل طعامهم التسبيح والتهليل والتقديس.

فلمّا قضى أمره وخلقه استوى على ملكه فمدح كما ينبغي له أن يحمد، ثمّ قدّر ملكه فجعل في كلّ سماء شهباً معلّقة كواكب كتعليق القناديل من المساجد لا يحصيها غيره تبارك وتعالى، والنجم من نجوم السماء كأكبر مدينة في الأرض، ثمّ خلق الشمس والقمر فجعلهما شمسين، فلو تركهما تبارك وتعالى كما كان ابتدأهما في أوّل مرّة لم يعرف خلقة الليل من النّهار، ولا عرف الشهر ولا السنة، ولا عرف الشتاء من الصيف، ولا عرف الربيع من الخريف، ولا علم أصحاب الدَّين متى يحلّ دينهم ولا علم العامل متى ينصرّف في معيشته ومتى يسكن لراحة بدنه، فكان الله تبارك وتعالى أرأف بعباده وأنظر لهم فبعث جبرئيل عليه السلام إلى إحدى الشمسين فمسح بها جناحه فأذهب منها الشعاع والنور وترك فيها الضوء، فذلك قوله: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾[1].

وجعلهما يجريان في الفلك، والفلك يجري فيما بين السماء والأرض مستطيل في السماء، استطالته ثلاثة فراسخ يجري في غمرة الشمس والقمر، كلّ واحد منهما على عجلة يقودهما ثلاثمائة ملك بيد كلّ ملك منها عروة يجرونها في غمرة ذلك البحر، لهم

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٢.

زجل بالتهليل والتسبيح والتقديس، لو برز واحد منهما من غمر ذلك البحر لاحترق كلّ شيء على وجه الأرض حتّى الجبال والصخور وما خلق الله من شيء، فلمّا خلق الله السماوات والأرض والليل والنهار والنجوم والفلك وجعل الأرضين على ظهر الحوت أثقلها فاضطربت فأثبتها بالجبال، فلمّا استكمل خلق ما في السموات والأرض يومئذ خالية ليس فيها أحد قال للملائكة: إنّي جاعل في الأرض خليفة.

قالوا: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبّح بحمدك ونقدّس لك.

قال: إنّي أعلم ما لا تعلمون.

فبعث الله جبرئيل عليه السلام فأخذ من أديم الأرض قبضة فعجنه بالماء العذب المالح وركّب فيه الطبائع قبل أن ينفسخ فيه الروح، فخلقه من أديم الأرض فلذلك سمّي «آدم» لأنّه لمّا عجن بالماء استأدم فطرحه في الجبل كالجبل العظيم، وكان إبليس يومئذ خازناً على السماء الخامسة يدخل في منخر آدم ثمّ يخرج من دبره، ثم يضرب بيده على بطنه فيقول: لأيّ أمر خلقت؟ لئن جعلت فوقي لا أطعتك، وإن جعلت أسفل منّي لا أعينك! فمكث في الجنّة ألف سنة ما بين خلقه إلى أن ينفخ فيه الروح فخلقه من ماء وطين، ونور وظلمة، وريح ونور من نور الله، فأمّا النور فيورثه الإيمان، وأمّا الظلمة فيورثه الكفر والضلالة وأمّا الطين فيورثه الرعدة والضعف والاقشعرار عند إصابة الماء، فينبعث به على أربع الطبائع: على الدم، والبلغم، والمرار، والريح. فذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾[1].

قال: فقال كعب: يا عمر! بالله أتعلم كعلم أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب؟

فقال: لا.

فقال كعب: عليّ بن أبي طالب عليه السلام وصيُّ الأنبياء، ومحمّد خاتم الأنبياء عليهم السلام، وعليّ خاتم الأوصياء، وليس على الأرض اليوم منفوسة إلاّ [و] عليّ بن أبي طالب أعلم منه، والله ما ذكر من خلق الإنس والجنّ والسماء والأرض والملائكة شيئاً إلاّ وقد قرأته في التوراة كما قرأ!

قال: فما رئي عمر غضب قط مثل غضبه ذلك اليوم[2].

---

(١) سورة مريم، الآية: ٦٧.

(٢) تفسير فرات: ٤٥، البحار ج٥٤ ص٩٠ - ٩٤، ح٧٩.

● النهج: روى مسعدة بن صدقة عن الصادق جعفر بن محمّد عليه السلام أنّه قال: خطب أمير المؤمنين عليٌّ عليه السلام بهذه الخطبة على منبر الكوفة، وذلك أنّ رجلاً أتاه فقال: يا أمير المؤمنين، صف لنا ربّنا لنزداد له حبًّا وبه معرفة، فغضب عليه السلام ونادى: الصلاة جامعة، فاجتمع الناس عليه حتّى غصّ المسجد بأهله، فصعد المنبر وهو مغضب متغيّر اللون، فحمد الله سبحانه وصلّى على النبيّ صلى الله عليه وآله ثم قال:

◎ وصف الله تعالى

الحمد لله الذي لا يفره المنع والجمود، ولا يكديه الإعطاء والجود، إذ كل معطٍ منتقصٌ سواه، وكل مانعٍ مذمومٌ ما خلاه، وهو المنان بفوائد النعم، وعوائد المزيد والقسم؛ عياله الخلائقُ، ضمن أرزاقهم، وقدر أقواتهم، ونهج سبيل الراغبين إليه، والطالبين ما لديه، وليس بما سئل بأجود منه بما لم يسأل. الأول الذي لم يكن له قبلٌ فيكون شيءٌ قبله، والآخر الذي ليس له بعدٌ فيكون شيءٌ بعده، والرادع أناسي الأبصار عن أن تناله أو تدركه، ما اختلف عليه دهرٌ فيختلف منه الحال، ولا كان في مكانٍ فيجوز عليه الانتقال. ولو وهب ما تنفست عنه معادن الجبال، وضحكت عنه أصداف البحار، من فلز اللجين والعقيان، ونثارة الدر وحصيد المرجان، ما أثر ذٰلك في جوده، ولا أنفد سعة ما عنده، ولكان عنده من ذخائر الأنعام ما لا تنفده مطالب الأنام، لأنه الجواد الذي لا يغيضه سؤال السائلين، ولا يبخله إلحاح الملحين.

◎ صفاته تعالى في القرآن

فانظر أيها السائل: فما دلك القرآن عليه من صفته فائتم به واستضيء بنور هدايته، وما كلفك الشيطان علمه مما ليس في الكتاب عليك فرضه، ولا في سنة النبي صلى الله عليه وآله وأئمة الهدى أثره، فكل علمه إلى الله سبحانه، فإن ذٰلك منتهى حق الله عليك. واعلم أن الراسخين في العلم هم الذين أغناهم عن اقتحام السدد المضروبة دون الغيوب، الإقرار بجملة ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب، فمدح الله ـ تعالى ـ اعترافهم بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علماً، وسمى تركهم التعمق فيما لم يكلفهم البحث عن كنهه رسوخاً، فاقتصر على ذٰلك، ولا تقدر عظمة الله سبحانه على قدر عقلك فتكون من الهالكين.

هو القادر الذي إذا ارتمت الأوهام لتدرك منقطع قدرته، وحاول الفكر المبرأ من خطرات الوساوس أن يقع عليه في عميقات غيوب ملكوته، وتولهت القلوب إليه،

لتجري في كيفية صفاته، وغمضت مداخل العقول في حيث لا تبلغه الصفات لتناول علم ذاته، ردعها وهي تجوب مهاوي سدف الغيوب، متخلصةً إليه ـ سبحانه ـ فرجعت إذ جبهت معترفةً بأنه لا ينال بجور الاعتساف كنه معرفته، ولا تخطر ببال أولي الرويات خاطرةٌ من تقدير جلال عزته.

الذي ابتدع الخلق على غير مثالٍ امتثله، ولا مقدارٍ احتذى عليه، من خالقٍ معبودٍ كان قبله، وأرانا من ملكوت قدرته، وعجائب ما نطقت به آثار حكمته، واعتراف الحاجة من الخلق إلى أن يقيمها بمساك قوته، ما دلنا باضطرار قيام الحجة له على معرفته، فظهرت البدائع التي أحدثتها آثار صنعته، وأعلام حكمته، فصار كل ما خلق حجةً له ودليلاً عليه.

وإن كان خلقاً صامتاً، فحجته بالتدبير ناطقةٌ، ودلالته على المبدع قائمةٌ. فأشهد أن من شبهك بتباين أعضاء خلقك، وتلاحم حقاق مفاصلهم المحتجبة لتدبير حكمتك، لم يعقد غيب ضميره على معرفتك، ولم يباشر قلبه اليقين بأنه لا ند لك، وكأنه لم يسمع تبرؤ التابعين من المتبوعين إذ يقولون: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ۝٩٧ إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٩٨﴾[1]! كذب العادلون بك، إذ شبّهوك بأصنامهم، ونحلوك حلية المخلوقين بأوهامهم، وجزّأوك تجزئة المجسّمات بخواطرهم، وقدّروك على الخلقة المختلفة القوى، بقرائح عقولهم. وأشهد أنّ من ساواك بشيءٍ من خلقك فقد عدل بك، والعادل بك كافرٌ بما تنزّلت به محكمات آياتك، ونطقت عنه شواهد حجج بيّناتك، وإنّك أنت الله الّذي لم تتناه في العقول، فتكون في مهبّ فكرها مكيّفاً، ولا في رويّات خواطرها فتكون محدوداً مصرّفاً.

ومنها: قدّر ما خلق فأحكم تقديره، ودبّره فألطف تدبيره، ووجّهه لوجهته فلم يتعدّ حدود منزلته، ولم يقصّر دون الانتهاء إلى غايته، ولم يستصعب إذ أمر بالمضيّ على إرادته، فكيف؟

وإنّما صدرت الأمور عن مشيئته؟

المنشيء أصناف الأشياء بلا رويّة فكرٍ آل إليها، ولا قريحة غريزةٍ أضمر عليها، ولا تجربةٍ أفادها من حوادث الدّهور، ولا شريكٍ أعانه على ابتداع عجائب الأمور، فتمّ خلقه بأمره، وأذعن لطاعته، وأجاب إلى دعوته، لم يعترض دونه ريث المبطيء، ولا

---

(١) سورة الشعراء، الآيتان: ٩٧، ٩٨.

أناة المتلكّىء، فأقام من الأشياء أودها، ونهج حدودها، ولاءم بقدرته بين متضادّها، ووصل أسباب قرائنها، وفرّقها أجناساً مختلفاتٍ في الحدود والأقدار، والغرائز والهيئات، بدايا خلائق أحكم صنعها، وفطرها على ما أراد وابتدعها!.

◎ في صفة خلق السماء

ونظم بلا تعليقٍ رهوات فرجها، ولاحم صدوع انفراجها، ووشج بينها وبين أزواجها، وذلّل للهابطين بأمره، والصّاعدين بأعمال خلقه، حزونة معراجها، وناداها بعد إذ هي دخانٌ. فالتحمت عرى أشراجها، وفتق بعد الإرتتاق صوامت أبوابها، وأقام رصداً من الشّهب الثّواقب على نقابها، وأمسكها من أن تمور في خرق الهواء بأيده، وأمرها أن تقف مستسلمةً لأمره، وجعل شمسها آيةً مبصرةً لنهارها، وقمرها آيةً ممحوّةً من ليلها، وأجراهما في مناقل مجراهما، وقدّر سيرهما في مدارج درجهما، ليميّز بين اللّيل والنّهار بهما، وليعلم عدد السّنين والحساب بمقاديرهما، ثمّ علّق في جوّها فلكها، وناط بها زينتها، من خفيّات دراريّها ومصابيح كواكبها، ورمى مسترقي السّمع بثواقب شهبها، وأجراها على إذلال تسخيرها من ثبات ثابتها، ومسير سائرها، وهبوطها وصعودها، ونحوسها وسعودها.

◎ في صفة خلق الملائكة

ثمّ خلق سبحانه لإسكان سمٰواته، وعمارة الصّفيح الأعلى من ملكوته، خلقاً بديعاً من ملائكته، وملأ بهم فروج فجاجها، وحشا بهم فتوق أجوائها، وبين فجوات تلك الفروج زجل المسبّحين منهم في حظائر القدس، وسترات الحجب، وسرادقات المجد، ووراء ذٰلك الرّجيج الّذي تستكّ منه الأسماع سبحات نورٍ تردع الأبصار عن بلوغها، فتقف خاسئةً على حدودها. وأنشأهم على صورٍ مختلفاتٍ، وأقدارٍ متفاوتاتٍ، ﴿أُوْلِىٓ أَجْنِحَةٍ﴾ تسبّح جلال عزّته، لا ينتحلون ما ظهر في الخلق من صنعه، ولا يدّعون أنّهم يخلقون شيئاً ممّا انفرد به، ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾[1] جعلهم الله فيما هنالك أهل الأمانة على وحيه، وحمّلهم إلى المرسلين ودائع أمره ونهيه، وعصمهم من ريب الشّبهات، فما منهم زائغٌ عن سبيل مرضاته.

---

(١) سورة الأنبياء، الآيتان: ٢٦-٢٧.

وأمدّهم بفوائد المعونة، وأشعر قلوبهم تواضع إخبات السّكينة، وفتح لهم أبواباً ذللاً إلى تماجيده، ونصب لهم مناراً واضحةً على أعلام توحيده، لم تثقلهم موصرات الآثام، ولم ترتحلهم عقب اللّيالي والأيّام، ولم ترم الشّكوك بنوازعها عزيمة إيمانهم، ولم تعترك الظّنّون على معاقد يقينهم، ولا قدحت قادحة الإحن فيما بينهم، ولا سلبتهم الحيرة ما لاق من معرفته بضمائرهم، وما سكن من عظمته وهيبة جلالته في أثناء صدورهم، ولم تطمع فيهم الوساوس فتقترع برينها على فكرهم.

ومنهم من هو في خلق الغمام الدّلّح، وفي عظم الجبال الشّمّخ، وفي قترة الظّلام الأيهم، ومنهم من خرقت أقدامهم تخوم الأرض السّفلى، فهي كراياتٍ بيضٍ قد نفذت في مخارق الهواء، وتحتها ريحٌ هفّافةٌ تحبسها على حيث انتهت من الحدود المتناهية، قد استفرغتهم أشغال عبادته، ووصلت حقائق الإيمان بينهم وبين معرفته، وقطعهم الإيقان به إلى الوله إليه، ولم تجاوز رغباتهم ما عنده إلى ما عند غيره.

قد ذاقوا حلاوة معرفته، وشربوا بالكأس الرّويّة من محبّته، وتمكّنت من سويداء قلوبهم وشيجة خيفته، فحنوا بطول الطّاعة اعتدال ظهورهم، ولم ينفد طول الرّغبة إليه مادّة تضرّعهم، ولا أطلق عنهم عظيم الزّلفة ربق خشوعهم، ولم يتولّهم الإعجاب فيستكثروا ما سلف منهم، ولا تركت لهم استكانة الإجلال نصيباً في تعظيم حسناتهم، ولم تجر الفترات فيهم على طول دؤوبهم، ولم تغض رغباتهم فيخالفوا عن رجاء ربّهم، ولم تجفّ لطول المناجاة أسلات ألسنتهم، ولا ملكتهم الأشغال فتنقطع بهمس الجؤار إليه أصواتهم، ولم تختلف في مقاوم الطّاعة مناكبهم، ولم يثنوا إلى راحة التّقصير في أمره رقابهم، ولا تعدو على عزيمة جدّهم بلادة الغفلات، ولا تنتضل في هممهم خدائع الشّهوات.

قد اتّخذوا ذا العرش ذخيرةً ليوم فاقتهم، ويمّموه عند انقطاع الخلق إلى المخلوقين برغبتهم، لا يقطعون أمد غاية عبادته، ولا يرجع بهم الاستهتار بلزوم طاعته، إلاّ إلى موادّ من قلوبهم غير منقطعةٍ من رجائه ومخافته، لم تنقطع أسباب الشّفقة منهم، فينوا في جدّهم، ولم تأسرهم الأطماع فيؤثروا وشيك السّعي على اجتهادهم.

لم يستعظموا ما مضى من أعمالهم، ولو استعظموا ذلك لنسخ الرّجاء منهم شفقات وجلهم، ولم يختلفوا في ربّهم باستحواذ الشّيطان عليهم.

ولم يفرّقهم سوء التّقاطع، ولا تولاّهم غلّ التّحاسد، ولا تشعّبتهم مصارف الرّيب ولا اقتسمتهم أخياف الهمم، فهم أسراء إيمانٍ لم يفكّهم من ربقته زيغٌ ولا عدولٌ ولا

ونًى ولا فتور، وليس في أطباق السّماء موضع إهابٍ إلاّ وعليه ملكٌ ساجدٌ، أو ساعٍ حافدٌ، يزدادون على طول الطّاعة بربّهم علماً، وتزداد عزّة ربّهم في قلوبهم عظماً.

◎ في صفة الأرض ودحوها على الماء

كبس الأرض على مور أمواجٍ مستفحلةٍ، ولجج بحارٍ زاخرةٍ، تلتطم أواذيّ أمواجها، وتصطفق متقاذفات أثباجها، وترغو زبداً كالفحول عند هياجها، فخضع جماح الماء المتلاطم لثقل حملها، وسكن هيج ارتمائه إذ وطئته بكلكلها، وذلّ مستخذياً، إذ تمعّكت عليه بكواهلها، فأصبح بعد اصطخاب أمواجه، ساجياً مقهوراً، وفي حكمة الذّلّ منقاداً أسيراً، وسكنت الأرض مدحوّةً في لجّة تيّاره، وردّت من نخوة بأوه واعتلائه، وشموخ أنفه وسموّ غلوائه، وكعمته على كظّة جريته، فهمد بعد نزقانه، ولبد بعد زيفان وثباته.

فلمّا سكن هيج الماء من تحت أكنافها، وحمل شواهق الجبال الشّمّخ البذّخ على أكتافها، فجّر ينابيع العيون من عرانين أنوفها، وفرّقها في سهوب بيدها وأخاديدها، وعدّل حركاتها بالرّاسيات من جلاميدها، وذوات الشّناخيب الشّمّ من صياخيدها، فسكنت من الميدان لرسوب الجبال في قطع أديمها وتغلغلها متسرّبةً في جوبات خياشيمها، وركوبها أعناق سهول الأرضين وجراثيمها، وفسح بين الجوّ وبينها، وأعدّ الهواء متنسّماً لساكنها

وأخرج إليها أهلها على تمام مرافقها، ثمّ لم يدع جرز الأرض الّتي تقصر مياه العيون عن روابيها، ولا تجد جداول الأنهار ذريعةً إلى بلوغها، حتّى أنشأ لها ناشئة سحابٍ تحيي مواتها وتستخرج نباتها. ألّف غمامها بعد افتراق لمعه، وتباين قزعه، حتّى إذا تمخّضت لجّة المزن فيه، والتمع برقه في كففه، ولم ينم وميضه في كنهور ربابه، ومتراكم سحابه، أرسله سحّاً متداركاً، قد أسفّ هيدبه، تمريه الجنوب درر أهاضيبه ودفع شآبيبه.

فلمّا ألقت السّحاب برك بوانيها، وبعاع ما استقلّت به من العبء المحمول عليها، أخرج به من هوامد الأرض النّبات، ومن زعر الجبال الأعشاب، فهي تبهج بزينة رياضها، وتزدهي بما ألبسته من ريط أزاهيرها، وحلية ما سمطت به من ناضر أنوارها، وجعل ذلك بلاغاً للأنام، ورزقاً للأنعام، وخرق الفجاج في آفاقها، وأقام المنار للسّالكين على جوادّ طرقها.

فلمّا مهد أرضه، وأنفذ أمره، اختار آدم عليه السلام، خيرةً من خلقه، وجعله أوّل جبلّته، وأسكنه جنّته، وأرغد فيها أكله، وأوعز إليه فيما نهاه عنه، وأعلمه أنّ في الإقدام عليه التّعرّض لمعصيته، والمخاطرة بمنزلته، فأقدم على ما نهاه عنه ـ موافاةً لسابق علمه ـ فأهبطه بعد التّوبة ليعمر أرضه بنسله وليقيم الحجّة به على عباده، ولم يخلهم بعد أن قبضه، ممّا يؤكّد عليهم حجّة ربوبيّته، ويصل بينهم وبين معرفته، بل تعاهدهم بالحجج على ألسن الخيرة من أنبيائه، ومتحمّلي ودائع رسالاته، قرناً فقرناً، حتّى تمّت بنبيّنا محمّدٍ صلى الله عليه وآله حجّته، وبلغ المقطع عذره ونذره.

وقدّر الأرزاق فكثّرها وقلّلها. وقسّمها على الضّيق والسّعة فعدل فيها ليبتلي من أراد بميسورها ومعسورها، وليختبر بذلك الشّكر والصّبر من غنيّها وفقيرها. ثمّ قرن بسعتها عقابيل فاقتها، وبسلامتها طوارق آفاتها، وبفرج أفراحها غصص أتراحها. وخلق الآجال فأطالها وقصّرها، وقدّمها وأخّرها، ووصل بالموت أسبابها، وجعله خالجاً لأشطانها، وقاطعاً لمرائر أقرانها.

عالم السّرّ من ضمائر المضمرين، ونجوى المتخافتين، وخواطر رجم الظّنون، وعقد عزيمات اليقين، ومسارق إيماض الجفون، وما ضمنته أكنان القلوب وغيابات الغيوب، وما أصغت لاستراقه مصائخ الأسماع، ومصائف الذّرّ، ومشاتي الهوامّ، ورجع الحنين من المولهات، وهمس الأقدام، ومنفسح الثّمرة من ولائج غلف الأكمام، ومنقمع الوحوش من غيران الجبال وأوديتها.

ومختبأ البعوض بين سوق الأشجار وألحيتها، ومغرز الأوراق من الأفنان، ومحطّ الأمشاج من مسارب الأصلاب، وناشئة الغيوم ومتلاحمها، ودرور قطر السّحاب في متراكمها، وما تسفي الأعاصير بذيولها، وتعفو الأمطار بسيولها، وعوم نبات (بنات) الأرض في كثبان الرّمال، ومستقرّ ذوات الأجنحة بذرا شناخيب الجبال، وتغريد ذوات المنطق في دياجير الأوكار، وما أوعبته الأصداف، وحضنت عليه أمواج البحار، وما غشيته سدفة ليلٍ، أو ذرّ عليه شارق نهارٍ، وما اعتقبت عليه أطباق الدّياجير، وسبحات النّور؛ وأثر كلّ خطوةٍ، وحسّ كلّ حركةٍ، ورجع كلّ كلمةٍ. وتحريك كلّ شفةٍ، ومستقرّ كلّ نسمةٍ.

ومثقال كلّ ذرّةٍ، وهماهم كلّ نفسٍ هامّةٍ، وما عليها من ثمر شجرةٍ، أو ساقط ورقةٍ؛ أو قرارة نطفةٍ، أو نقاعة دمٍ ومضغةٍ، أو ناشئة خلقٍ وسلالةٍ؛ لم يلحقه في ذلك كلفةٌ، ولا اعترضته في حفظ ما ابتدع من خلقه عارضةٌ، ولا اعتورته في تنفيذ الأمور

وتدابير المخلوقين ملالةٌ ولا فترةٌ، بل نفذ فيهم (نفذهم) علمه، وأحصاهم (عدده) عدّه، ووسعهم عدله، وغمرهم فضله، مع تقصيرهم عن كنه ما هو أهله.

◎ دعاء

اللّهمّ أنت أهل الوصف الجميل، والتّعداد الكثير، إن تؤمّل فخير مؤمّلٍ (مأمولٍ)، وإن ترج فأكرم مرجوٍّ. اللّهمّ وقد بسطت لي فيما لا أمدح به غيرك، ولا أثني به على أحدٍ سواك، ولا أوجّهه إلى معادن الخيبة ومواضع الرّيبة، وعدلت بلساني عن مدائح الآدميّين، والثّناء على المربوبين المخلوقين.

اللّهمّ ولكلّ مثنٍ على من أثنى عليه مثوبةٌ من جزاءٍ، أو عارفةٌ من عطاءٍ، وقد رجوتك دليلاً على ذخائر الرّحمة وكنوز المغفرة.

اللّهمّ وهٰذا مقام من أفردك بالتّوحيد الّذي هو لك، ولم ير مستحقّاً لهٰذه المحامد والممادح غيرك، وبي فاقةٌ إليك لا يجبر مسكنتها إلاّ فضلك، ولا ينعش من خلّتها إلاّ منّك وجودك، فهب لنا في هٰذا المقام رضاك، وأغننا عن مدّ الأيدي إلى سواك، ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[١].

◎ الأرض وكيفيّتها

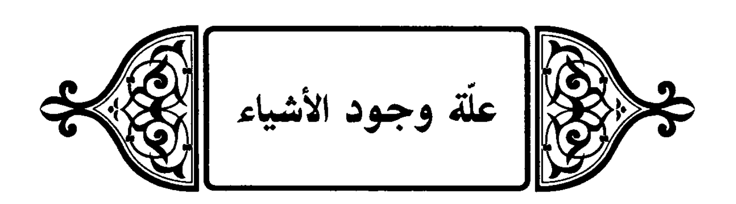
العيون والعلل: في خبر الشاميّ أنّه سأل أمير المؤمنين عليه السلام عن الأرض ممّ خلق؟ قال: من زبد الماء[٢].

النهج: قال أمير المؤمنين عليه السلام في خطبة التوحيد: لا يجري عليه السكون والحركة، وكيف يجري عليه ما هو أجراه ويعود فيه ما هو أبداه، ويحدث فيه ما هو أحدثه؟ إذاً لتفاوتت ذاته، ولتجزأ كنهه، ولأمتنع من الأزل معناه، ولكان له وراء إن وجد له أمام، ولالتمس التمام إذ لزمه النقصان[٣].

وهكذا يتضح لنا من هذه الملاحظات - على اختصارها - أنه ليس من الممكن القول بأن المادة متحركة بذاتها وأن هذه المادة المتحركة هي بنفسها سبب تنوعها واختلافها، وإنما لا بدّ من القول بأن في المادة الأولى قابلية الحركة وامكانها فقط وأن سبب فعلية الحركة وسبب التنويع والتصنيف فيها شيء فوقها وليس منها مطلقاً.

---

(١) نهج البلاغة، ١٤٠ - ١٨١، البحار ج٥٤ ص١٠٦ - ١١٤، ح٩٠.
(٢) العيون: ج١، ص٢٤١، علل الشرائع: ج٢، ص٢٨٠، البحار ج٥٧ ص٨١، ح٥
(٣) نهج البلاغة: ج١، ص٣٥٦، البحار ج٥٦ ص٩٥، ح٣١.



علّة وجود الأشياء

لقد سبق منا القول أن العلية والسببية من القواعد العقلية البديهية التي لا غنى عنها، في تعليل وجود الأشياء، وحتى لو حدث الشيء ولم يعرف السبب فإنه يقال: بأن السبب مجهول ولا يصح أنه وجِد من دون سبب، لأن عدم اكتشاف السبب والعلّة في وجود شيء ما لا يصح أن يكون حافزاً لإنكار فكرة العليّة، بل إن إنكار السببية والعليّة - وهما أساس كل النظريات العلمية - يؤدي بنا إلى رفع اليد عن كل تلك النظريات والقواعد مهما جلّت وعظمت.

وليس القول بالسببية مقتصراً على ذوي المنهج العقلي وحدهم، بل إن الديالكتيكيين كذلك لم يجدوا بدأً من الاقرار بالسببية والعلية، وفي ذلك يقولون:

«إن العلاقة السببية للظواهر تتسم بطابع الشمول والعموم. فكل ظواهر العالم وكل التبدلات تنشأ في أعقاب تأثير السبب ولا وجود لظواهر من دون أسباب، وقد لا نعلم حتى الآن أسباب بعض الظواهر إلا أن هذه الأسباب موجودة موضوعياً. فالطب مثلاً لم يتمكن بعد من معرفة سبب الأمراض السرطانية، إلا أن هذا السبب قائم»[١].

ويقول الديالكتيكيون في الدفاع عن السببية:

«إن الواقع القائم على أن وجود الأسباب لا ينتج دائماً النتائج المتوقعة، ولا يدحض السببية الموضوعية، بل على العكس يؤكدها، فالضغط على زناد البندقية لا يؤدي دائماً إلى اطلاق النار، لكن هذا الحادث لا يطعن في موضوعية السببية، بل ينبهنا إلى وجود سبب آخر كرطوبة البارود أو عطل الكبسولة»[٢].

ويقولون أيضاً:

«العلوم جميعها، عندما تدرس الظواهر، تحاول كشف أسباب نشوئها وتطورها

---

(١) المادية الديالكتيكية: ١٨٨. (٢) المصدر نفسه: ١٩٠.

والتغيرات التي تطرأ عليها ثم معرفتها. فمعرفة الظواهر والعمليات هي قبل كل شيء، معرفة أسباب نشوئها وتطورها»(١).

والغريب في كل ذلك أن هؤلاء الماديين مع صراحتهم الجلية الواضحة في ضرورة وجود السبب وترتُّب المسببات على ذلك قد وقعوا في الالتباس العجيب بين السبب والنتيجة حتى قال بعضهم ما نصّه:

«إن التأثير المتبادل بين السبب والنتيجة يعني تأثير أحدهما على الآخر تأثيراً متواصلاً، مما يؤدي إلى حدوث تبدّل في السبب والنتيجة».

«لقد تمكنت المادية الديالكتيكية من التغلب على المفهوم الميتافيزيكي الضيق للسببية، فأظهرت أن الرابطة بين السبب والنتيجة تحمل طابع التأثير المتبادل. فليس السبب فقط هو الذي يؤثر على النتيجة مولداً إياها، بل إن النتيجة أيضاً تؤثر على السبب تأثيراً فعالاً وتبدله. وفي عملية التأثير المتبادل يتبادل السبب والنتيجة مكانيهما، فالأمر الذي نعتبره الآن، أو هنا، سبباً، يصبح، هناك، أو في وقت آخر، نتيجة، والعكس صحيح»(٢).

ولعلّ نظرة سريعة يلقيها القارىء على هذا النص ترجع إليه بكشف نقاط الالتباس الحاصل في هذه الحلقة.

إن معنى ما يقولون من التأثير المتبادل بين السبب والنتيجة يمكن تجسيده للقارىء بمثالٍ هو: أن (أ) سبب في وجود (ب) حيث يكون (ب) نتيجة لـ(أ) الذي هو السبب، ومع ذلك فإن (ب) سبب في وجود (أ) حيث يكون (أ) نتيجة لـ (ب) الذي هو السبب.

إنهم هكذا يقولون، فهل هو معقول؟

كلا وألف كلا.

ولذلك فإن المسألة بحاجة إلى تحديد دقيق قائم على تثبيت سائر الشروط والظروف المعيّنة لكل سبب ولكل نتيجة ليتضح المقصود بشكله المعقول.

وكمثال على ما نعنيه نفرض: أن سداً معيناً ولنسميه السد رقم (١) كان سبباً في تطور الزراعة في بلدٍ ما حيث يكون التطور الزراعي في ذلك البلد نتيجة لذلك السد، وإن تطور الزراعة هذا - وهو نتيجة السّد رقم (١) - سيكون سبباً في تحسن الأوضاع

(١) المصدر نفسه: ١٨٦.

(٢) المادية الديالكتيكية: ١٩٦.

الاقتصادية في ذلك البلد فيؤدي ذلك إلى انشاء السد رقم (٢) فيكون هذا السد الثاني نتيجة للتطور الزراعي.

فهل معنى ذلك أن السبب والنتيجة قد تبادلا مكانيهما كما يقول النص السابق.

لا.

وإنّما السد الأول سبب في شيء هو التطور الزراعي، فيكون السد سبباً والتطور نتيجة.

ثم كان التطور سبباً في شيء هو بناء السدّ الثاني، فيكون التطور سبباً والسد نتيجة.

ولكن السبب الأول هو السدّ الأول، والنتيجة في الفرض الثاني هو السدّ الثاني.

ولذلك لم يتبادل السبب والنتيجة مكانيهما كما يتخيل النص الديالكتيكي السالف الذكر.

ومهما يكن من أمر:

فإذا كانت السببية أمراً واقعاً و «لا وجود لظواهر من دون أسباب»، وإذا كانت كل حركة بحاجة إلى علّة وسبب، لضرورة وجود سبب لأي موجود، فإن تسلسل العلل والأسباب في الوجود يجب أن ينتهي إلى سبب لا سبب لوجوده، لبطلان فكرة التسلسل الذي لا ينتهي، وبهذا نصل إلى القول بضرورة وجود العلّة الأولى التي لا علّة لها.

ولا بدّ أن يكون هذا السبب خارج الإطار المادي للطبيعة والحركة، بل لا يمكن إلا أن يكون سبب الحركة خارجاً عنها لأن المحرّك غير المتحرك قطعاً ولأن الشيء لا يكون علّة لنفسه.

وتصبح خلاصة ذلك في جملة واحدة: إن سبب الحركة يجب أن يكون خارج حدود الطبيعة واطارها الكبير وإليه تنتهي سلسلة الأسباب والمسببات في كوننا العظيم.

وهذا أمر واضح لا يحتاج إلى كثير بيان.

وعندما يتجلى أمام القارىء ما سلف بيانه لا يبقى أي مجال لسؤال المشككين عندما يقولون: ولماذا لا نفترض أن المادة الأولى غير معلولة الوجود.

فقد ثبت أن صانع المادة الخام «أي العلة الفاعلة للشيء» يجب أن يكون غير المادة

الخام نفسها «العلة المادية للشيء» وإن الحركة - كما مرّ - بحاجة إلى محرّك ينقل الشيء من مرحلة الإمكان والقوة إلى مرحلة الفعل والوجود، وإن تسلسل العلل والأسباب يجب أن يصل إلى نهاية محددة، وهذا كله مما ساقنا إليه البحث والدليل وعرفنا بضرورته وحتميته، وجعلنا - تبعاً لذلك - ندرك مدى الصعوبة التي يعانيها بعض الماديين في محاولة الخروج من هذا المأزق بالاعتراف بالجهل الكامل في فهم المسألة إذ يقول: «عندما تسألني: وما علّة وجود المادة الأولى؟ فإن أقصى ما أستطيع الإجابة به: لا أعرف إلا أنها غير معلولة الوجود»!!.

وحيث قد ثبت - مما مر - إن المادة معلولة الوجود فلا بدّ أن يكون لها مصدر أول غير معلول هو واجب الوجود وضروري الوجود، كما لا بدّ أن يكون هذا المصدر الأول عاقلاً وواعياً وحكيماً، وتلك صفات لا يمكن تحققها في المادة العمياء العشواء الصمّاء المتخطبة؛ كما اعترف بذلك الماديون الديالكتيكيون عندما قالوا:

«إن الطبيعة لا تضع أهدافاً»[١] وصرحوا: «في الطبيعة حيث تعمل قوى عمياء عفوية»[٢].

«إن الطريقة العلمية تقوم على أساس انتظام الظواهر الطبيعية والقدرة على التنبوء بها في ظل هذا الانتظام، ونستطيع أن نقول بكل دقة إن هذا الانتظام في ظواهر الكون والقدرة على التنبؤ بها - وهما الأساسان اللذان تقوم عليهما الطريقة العلمية - هما في الوقت ذاته أساس الإيمان»[٣].

ولا يمكننا ازاء هذه الطبيعة العمياء العفوية وحركتها العشوائية أن نتنبأ بنتائجها أو بأي شيء يرتبط بها ما لم يكن هناك إيمان باستناد كل ذلك إلى مهيمن أكبر هو الخالق الموجد والمصمم والواضع لكل القوانين القائمة على الانتظام الدقيق، ذلك الانتظام الباعث على القدرة على التنبؤ بها بشكل يقنع العالم والباحث.

والغريب أن الماديين الديالكتيكيين مع تصريحهم بالقوى العمياء العفوية العاملة في الطبيعة كما مرّ فإنهم يقولون: «إن العلاقات بين مختلف ظواهر العالم ليست من وضع وعي الإنسان، وإنما هي موجودة موضوعياً أي مستقلة عن الوعي، ولذا فإن الماديين

(١) المادية الديالكتيكية: ٢٠٨.
(٢) المصدر نفسه: ٢٧٨.
(٣) الله يتجلى في عصر العلم: ٣٣.

يعترفون بالقوانين الموضوعية التي تخضع لها كل الظواهر والعمليات في العالم المحيط بنا»[١].

فكيف يمكن الجمع بين الإيمان بالقوى العمياء العفوية في الطبيعة وبين انتظام الظواهر وخضوع كل العمليات في العالم المحيط بنا للقوانين الموضوعية المنظمة؟.

«إن غائية تنظيم الطبيعة، وما يتصف به هذا التنظيم من عقلانية، إنما هما شاهدان على عقلانية السبب الذي أوجده، أي شاهدان على وجود كائن مفكر عاقل هو الإلّه».

ولكن المادية الديالكتيكية مع اعترافها بصحة هذه «الغائية» في «تلاؤم النبات والحيوان مع الوسط المحيط، والأعضاء مع بعضها» لا ترى كل ذلك «أكثر من التلاؤم مع الوسط، وهذا التلاؤم نتيجة مقنونة لتأثير العوامل الفيزيائية والكيميائية والبيولوجية»[٢].

وهذه إحدى المغالطات الكبرى في المادية الديالكتيكية.

ف «النتيجة المقنونة» المشار إليها، من وضع قانونها؟ ومَنْ صنف أنواعها ونوّع تراكيبها ونظّم عملها؟ وهل يكون بمقدرة الحركة المادية العمياء أن تصنع هذه القوانين بهذه الدقة العظيمة والترتيب العجيب؟

فإن كان ذلك عن صدفةٍ فلنا ألف دليل ودليل على عدم إمكان الصدفة، «ولا يمكننا أن نقيم مبادىء عامة للوصول إلى آراء مدروسة على أساس الصدفة» على حد تعبير أحد الماديين.

وإن كان ذلك بسبب قوة واعية مدركة فتلك هي الكائن الأوّل الذي تنتهي إليه سلسلة العلل والأسباب في الكون، ويطلق عليه الفكر الديني اسم «الإلّه».

وهكذا نجد أن الفكر الديني هو الذي يؤمن إيماناً حقاً بالعلاقة القانونية بين الموجودات وبمتانة هذه العلاقة، باعتبار إيمانه بالخالق الواحد الذي انطلق منه كل شيء، فوحدة العالم وعلاقاته القانونية إنما هي فرع وحدة الموجد وكونه مصمماً واعياً منزهاً عن العمى والعشوائية، ولو كان الموجد الأول «مادة» غير واعية ولا مدركة لما أمكن الإيمان بهذه العلاقة لإمكان وقوع الارتباك والخلل والفوضى في هذه العلاقات، لأن «الشيء» العشوائي لا ينتج نتيجة مقنّنة ومضبوطة في كل حين وعلى الدوام.

(١) المادية الديالكتيكية: ٤.
(٢) المادية الديالكتيكية: ٢٠٨.

ومن هنا نجد مقدار البعد عن الدقّة في النص المادي الذي يقول:

«كان من غير الممكن من مواقع الطريقة الميتافيزيكية التي تعالج الطبيعة كمجموعة من الأشياء الجامدة غير المتبدلة، تفسير وحدة العالم والعلاقة القانونية»[١].

والصحيح أن الطريقة الميتافيزيكية - وحدها فقط - هي التي تفسر وحدة العالم والعلاقة القانونية، دون غيرها من الأفكار والطرق[٢].

● **عن محمد بن النعمان أو غيره، عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه ذكر هذه الخطبة لأمير المؤمنين عليه السلام يوم الجمعة: الحمد لله أهل الحمد ووليّه، ومنتهى الحمد ومحلّه، البديء البديع - إلى قوله - الّذي كان في أوّليّته متقادماً وفي ديموميّته متسيطراً[٣] خضع الخلائق لوحدانيّته وربوبيّته وقديم أزليّته، ودانوا لدوام أبديّته[٤].**

● **عن أبي الحسن الموصلّي، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: جاء حبر من الأحبار إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقال: يا أمير المؤمنين! متى كان ربّك؟**

فقال له: ثكلتك أمُّك! ومتى لم يكن حتّى يقال متى كان؟ كان ربّي قبل القبل بلا قبل، وبعد البعد بلا بعد، ولا غاية ولا منتهى لغايته، انقطعت الغايات عنده، فهو منتهى كلّ غاية[٥].

● **الكافي**: محمّد بن يحيى ومحمّد عبد الله جميعاً رفعاه إلى أبي عبد الله عليه السلام **إنّ أمير المؤمنين عليه السلام قام خطيباً فقال:**

الحمد لله الواحد الأحد الصمد المتفرّد الّذي لامن شيء كان ولامن شيء خلق ما كان - إلى قوله - ولم يتكأده صنع شيء كان إنّما قال لما شاء كن فكان، ابتدع ما خلق بلا مثال سبق، ولا تعب ولا نصب وكلّ صانع شيء فمن شيء صنع، والله لامن شيء صنع ما خلق، وكلّ عالم فمن بعد جهل تعلّم، والله لم يجهل ولم يتعلّم، أحاط بالأشياء علماً قبل كونها، فلم يزدد بكونها علماً، علمه قبل أن يكوّنها كعلمه بها بعد

---

(١) المصدر نفسه: ٦١.
(٢) المادة بين الأزلية والحدوث: ٨٩.
(٣) المتسيطر: المتسلّط.
(٤) روضة الكافي: ١٧٣، البحار ج٥٤ ص١٥٩ - ١٦٠، ح٩٢.
(٥) الكافي، ج١، ص٨٩، البجار ج٥٤ ص١٦٠، ح٩٤.

تكوينها - إلى قوله - الواحد الأحد الصمد، المبيد للأبد، والوارث للأمد، الذي لم يزل ولا يزال وحدانياً أزلياً قبل بدء الدهور، وبعد صروف الأُمور (الخبر)[١]

● عن محمّد بن أبي عبد الله، رفعه عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام لذعلب: إنّ ربّي لطيف اللطافة، لا يوصف باللطف، قبل كلّ شيء لا يقال شيء قبله - إلى قوله - لا تحويه الأماكن، ولا تضمّنه الأوقات - إلى قوله - سبق الأوقات كونه، والعدم وجوده، والابتداء أزله - إلى قوله - ففرّق بين قبل وبعد ليعلم أن لا قبل له ولا بعد له، وشاهدة بغرائزها أن لا غريزة لمعززها، مخبرة بتوقيتها أن لا وقت لموقّتها، حجب بعضها عن بعض ليعلم أن لا حجاب بينه وبين خلقه كان ربّاً إذ لا مربوب، وإلهاً إذ لا مألوه، وعالماً إذ لا معلوم، وسميعاً إذ لا مسموع[٢].

● عن أبي إسحاق السبيّعي، عن الحارث الأعور، قال: خطب أمير المؤمنين عليه السلام فقال: الحمد لله الّذي لا يموت ولا تنقضي عجائبه لأنّه كلّ يوم هو في شأن من إحداث بديع لم يكن - إلى قوله - ليست له في أوّليّته نهاية، ولا لآخريّته حدّ ولا غاية الّذي لم يسبقه وقت ولم يتقدّمه زمان - إلى قوله - الأوّل قبل كلّ شيء ولا قبل له، والآخر بعد كلّ شيء ولا بعد له - إلى قوله - أتقن ما أراد خلقه من الأشباح كلّها لا بمثال سبق إليه، ولا لغوب دخل عليه، في خلق ما خلق لديه، ابتدأ ما أراد ابتداءه، وأنشأ ما أراد إنشاءه على ما أراد من الثقلين ليعرفوا بذلك ربوبيّته (الخطبة)[٣].

● وبإسناده إلى الصدوق، وبإسناده إلى عبد الله بن المبارك، عن جعفر بن محمّد، عن آبائه عليهم السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: إنّ الله خلق نور محمّد صلى الله عليه وآله قبل المخلوقات بأربعة عشر ألف سنة، وخلق معه اثني عشر حجاباً[٤].

● كتاب الوصيّة للمسعوديّ، بإسناده عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: خطب فقال: الحمد لله الذي توحّد بصنع الأشياء، وفطر أجناس البرايا على غير أصل ولا مثال سبقه في إنشائها، ولا إعانة معين على ابتدائها، بل ابتدعها بلطف قدرته فامتثلت بمشيّته خاضعة ذليلة مستحدثة لأمره، الواحد الأحد الدائم بغير حدّ ولا أمد، ولا زوال ولا نفاد.

---

(١) الكافي: ج١، ١٣٤، البحار ج٥٤ ص١٦٤، ح١٠٣.
(٢) الكافي، ج١، ص١٣٨، البحار ج٥٤ ص١٦٥ - ١٦٦، ح١٠٤.
(٣) الكافي: ج١، ص١٣١، التوحيد: ١٣، البحار ج٥٤ ص١٦٧ - ١٦٨، ج١٠٧.
(٤) البحار ج٥٤ ص١٧٠، ح١١٥.

وكذلك لم يزل ولا يزال، لا تغيّره الأزمنة، ولا تحيط به الأمكنة، ولا تبلغ صفاته الألسنة، ولا تأخذه نوم ولا سنة لم تره العيون فتخبر عنه برؤية، ولم تهجم عليه العقول فتوهّم كنه صفته، ولم تدر كيف هو إلاّ بما أخبر عن نفسه، ليس لقضائه مردّ ولا لقوله مكذّب، ابتدع الأشياء بغير تفكّر ولا معين، ولا ظهير ولا وزير، فطرها بقدرته، وصيّرها إلى مشيّته، فصاغ أشباحها، وبرأ أرواحها، واستنبط أجناسها، خلقاً مبروءاً مذروءاً في أقطار السماوات والأرضين، لم يأت بشيء على غير ما أراد أن يأتي عليه ليري عباده آيات جلاله وآلائه، فسبحانه لا إلّه إلاّ هو الواحد القهّار، وصلى الله على محمد وآله وسلم تسليماً، اللّهمّ فمن جهل فضل محمّد صلى الله عليه وآله فإنّي مقر بأنّك لا سطحت أرضاً ولا برأت خلقاً حتّى أحكمت خلقه من نور سبقت به السلالة، وأنشأت له آدم جزما فأدعته منه قراراً مكيناً، ومستودعاً مأموناً (إلى آخر الخطبة الطويلة)[1].

● وعن أمير المؤمنين عليه السلام: الحمد لله الّذي لا من شيء كان، ولا من شيء كوّن ما كان، مستشهداً بحدوث الأشياء على أزليّته، وبفطورها على قدمته، كفى بإتقان الصنع له آية، وبحدوث الفطر عليه قدمة[2].

◎ نور محمد صلى الله عليه وآله

● **الخصال ومعاني الأخبار**: بإسناده المتّصل إلى سفيان الثوريّ، عن الصادق، عن آبائه، عن عليّ عليهم السلام **قال: إنّ الله تبارك وتعالى خلق نور محمّد قبل أن يخلق السماوات والأرض والعرش والكرسيّ واللوح والقلم والجنّة والنار، وقبل أن يخلق آدم ونوحاً وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وموسى وعيسى وداود وسليمان، وقبل أن يخلق الأنبياء كلّهم بأربعمائة ألف سنة وأربع وعشرين ألف سنة (إلى آخر الخبر)**[3].

◎ خلق السماوات والارض

● **الإمام علي عليه السلام في النهج**: فمن خطبة له يذكر فيه ابتداء خلق السماوات والأرض وخلق آدم عليه السلام:

---

(١) البحار ج٥٤ ص١٧١، ح١١٨.

(٢) البحار ج٥٤ ص١٧٥، ح١٣٠.

(٣) معاني الأخبار: ٣٠٩، البحار ج٥٤ ص١٧٥، ح١٣٣.

الحمد لله الّذي لا يبلغ مدحته القائلون، ولا يحصي نعمه العادّون، ولا يؤدّي حقّه المجتهدون، الّذي لا يدركه بعد الهمم، ولا يناله غوص الفتن، الّذي ليس لصفته حدّ محدود، ولا نعت موجود، ولا وقت معدود ولا أجل ممدود، فطر الخلائق بقدرته، ونشر الرياح برحمته، ووتّد بالصخور ميدان أرضه.

أوّل الدين معرفته، وكمال معرفته التصديق به، وكمال التصديق به توحيده وكمال توحيده الإخلاص له، وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه، لشهادة كلّ صفة أنّها غير الموصوف، وشهادة كلّ موصوف أنّه غير الصفة، فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه، ومن قرنه فقد ثنّاه، ومن ثنّاه فقد جزّأه، ومن جزّأه فقد جهله، ومن أشار إليه فقدحدّه، ومن حدَّه فقد عدّه.

ومن قال: «فيم؟» فقد ضمّنه، ومن قال «علام؟» فقد أخلى منه، كائن لا عن حدث، موجود لا عن عدم، مع كلّ شيء لا بمقارنة، وغير كلّ شيء لا بمزايلة، فاعل لا بمعنى الحركات والآلة، بصير إذ لا منظور إليه من خلقه متوحّد إذ لا سكن يستأنس به ولا يستوحش لفقده، أنشأ الخلق إنشاءً وابتدأه ابتداءً، بلا رويّة أجالها، ولا تجربة استفادها، ولا حركة أحدثها، ولا همامة نفس اضطرب فيها أحال الأشياء لأوقاتها ولاءم بين مختلفاتها، وغرّز غرائزها وألزمها أشباحها، عالماً بها قبل ابتدائها، ومحيطاً بحدودها وانتهائها، عارفاً بقرائنها وأحنائها، ثمّ أنشأ سبحانه فتق الأجواء، وشقّ الأرجاء، سكائك الهواء فأجرى فيها ماءً متلاطماً تيّاره، متراكماً زخّاره، حمله على متن الريح العاصفة والزعزع القاصفة، فأمرها بردّه، وسلّطها على شدّه، وقرنها على حدّه:

الهواء من تحتها فتيق، والماء من فوقها دفيق ثمّ أنشأ سبحانه ريحاً اعتقم مهبّها وأدام مربّها وأعصف مجريها، وأبعد منشأها، فأمرها بتصفيق الماء الزخّار وإثارة موج البحار فمخضته مخض السقاء، وعصفت به عصفها بالفضاء، تردّ أوَّله على آخره، وساجيه على عائره حتّى عبَّ عبابه ورمى بالزبد ركامه، فرفعه في هواء متفتق، وجوّ منفهق فسوّى منه سبع سماوات جعل سفلاهنّ موجاً مكفوفاً، وعلياهن سقفاً محفوظاً وسمكاً مرفوعاً بغير عمد يدعمها، ولا دسار ينتظمها، ثم زيّنها بزينة الكواكب، وضياء الثواقب فأجرى فيها سراجاً مستطيراً، وقمراً منيراً، في فلك دائر، وسقف سائر، ورقيم مائر، ثمّ فتق ما بين السماوات العلى، فملأهنّ أطواراً من ملائكته.

منهم سجود لا يركعون، وركوع لا ينتصبون، وصافّون لا يتزايلون، ومسبّحون لا يسأمون لا يغشاهم نوم العيون، ولا سهو العقول، ولا فترة الأبدان، ولا غفلة النسيان.

ومنهم أُمناء على وحيه، وألسنة إلى رسله، ومختلفون بقضائه وأمره.

ومنهم الحفظة لعباده، والسدنة لأبواب جنانه، ومنهم الثابتة في الأرضين السفلى أقدامهم، والمارقة من السماء العليا أعناقهم، والخارجة من الأقطار أركانهم، والمناسبة لقوائم العرش أكتافهم، ناكسة دونهم أبصارهم، متلفّعون تحته بأجنحتهم مضروبة بينهم وبين من دونهم حجب العزّة، وأستار القدرة، لا يتوهّمون ربّهم بالتصوير، ولا يجرون عليه صفات المصنوعين، ولا يحدّونه بالأماكن ولا يشيرون إليه بالنظائر(١).

● الإمام علي عليه السلام في النهج: في وصّية أمير المؤمنين للحسن عليه السلام قال: ولكنّه إله واحد كما وصف نفسه ولا يضادّه في ملكه أحد، ولا يزول أبداً، ولم يزل أوّلاً قبل الأشياء بلا أوّليّة، وآخراً بعد الأشياء بلا نهاية(٢).

◎ وحدانية الرحمن

● عن أحمد بن حميد، عن أبي حمزة الثمالي، عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: إنّ الله تباركَ وتعالى أحد واحد تفرّد في وحدانيّته، ثمّ تكلّم بكلمة فصارت نوراً، ثمّ خلق بذلك النور محمّداً صلى الله عليه وآله وخلقني وذرّيّتي، ثمّ تكلّم بكلمة فصارت روحاً، فأسكنه الله في ذلك النور، وأسكنه في أبداننا، فنحن روح الله وكلماته، وبنا احتجب عن خلقه فما زلنا في ظُلّة خضراء، حيث لا شمس ولا قمرة، ولا ليل ولا نهار، ولا عين تطرف نعبده، ونقدّسه، ونمجّده، ونسبّحه قبل أن يخلق الخلق (الخبر)(٣).

◎ أول خلق الله

● قال أبو الحسن البكريّ أستاذ الشهيد الثاني رحمه الله في كتاب الأنوار: روي عن أمير المؤمنين أنّه قال: كان الله ولا شيء معه فأوّل ما خلق نور حبيبه محمد صلى الله عليه وآله قبل

---

(١) نهج البلاغة ج١ ص١٤ - ٢٠.
(٢) نهج البلاغة ج٢ ص٤٤.
(٣) البحار ج٥٤ ص١٩٢، ح١٣٨.

خلق الماء والعرش والكرسيّ والمساوات والأرض واللوح والقلم والجنّة والنار والملائكة وآدم وحوّاء بأربعة وعشرين وأربعمائة ألف عام.

فلمّا خلق الله تعالى نور نبيّنا ﷺ بقي ألف عام بين يدي الله عزّ وجلّ واقفاً يسبّحه ويحمده والحقُّ تبارك وتعالى ينظر إليه ويقول:

يا عبدي أنت المراد والمريد، وأنت خيرتي من خلقي، وعزّتي وجلالي لولاك ما خلقت الأفلاك، من أحبّك أحببته ومن أبغضك أبغضته، فتلألأ نوره وارتفع شعاعه، فخلق الله منه اثني عشر حجاباً أوّلها حجاب القدرة، ثمّ حجاب العظمة، ثمّ حجاب العزّة، ثمّ حجاب الهيبة، ثمّ حجاب الجبروت، ثمّ حجاب الرحمة، ثمّ حجاب النبوّة، ثمّ حجاب الكبرياء، ثمّ حجاب المنزلة، ثمّ حجاب الرفعة، ثمّ حجاب السعادة، ثمّ حجاب الشفاعة.

ثمّ إنّ الله تعالى أمر نور رسول الله ﷺ أن يدخل في حجاب القدرة، فدخل وهو يقول: سبحان العليّ الأعلى وبقي على ذلك اثني عشر ألف عام.

ثمّ أمره أن يدخل في حجاب العظمة، فدخل وهو يقول: سبحان عالم السرّ وأخفى، أحد عشر ألف عام، ثمّ دخل في حجاب العزّة وهو يقول: سبحان الملك المنّان، عشرة آلاف عام.

ثم دخل في حجاب الهيبة وهو يقول: سبحان من هو غني لا يفتقر، تسعة آلاف عام.

ثمّ دخل في حجاب الجبروت وهو يقول: سبحان الكريم الأكرم، ثمانية آلاف عام.

ثم دخل في حجاب الرحمة وهو يقول: سبحان ربّ العرش العظيم، سبعة آلاف عام.

ثمّ دخل في حجاب النبوّة وهو يقول: سبحان ربّك ربّ العزّة عمّا يصفون، ستّة آلاف عام.

ثمّ دخل في حجاب الكبرياء وهو يقول: سبحان العظيم الأعظم، خمسة آلاف عام.

ثمّ دخل في حجاب المنزلة وهو يقول: سبحان العليم الكريم، أربعة آلاف عام.

ثمّ دخل في حجاب الرفعة وهو يقول: سبحان ذي الملك والملكوت، ثلاثة آلاف عام.

ثمّ دخل في حجاب السعادة وهو يقول: سبحان من يزيل الأشياء ولا يزول، ألفي عام.

ثمّ دخل في حجاب الشفاعة وهو يقول: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم، ألف عام.

قال الإمام عليُّ بن أبي طالب عليه السلام: ثمّ إنّ الله تعالى خلق من نور محمد صلى الله عليه وآله عشرين بحراً من نور، في كلّ بحر علوم لا يعلمها إلا الله تعالى.

ثمّ قال لنور محمد صلى الله عليه وآله: انزل في بحر العزّ فنزل، ثمّ في بحر الصبر، ثمّ في بحر الخشوع، ثمّ في بحر التواضع، ثمّ في بحر الرضا، ثمّ في بحر الوفاء، ثمّ في بحر الحلم، ثمّ في بحر التّقى، ثمّ في بحر الخشية، ثمّ في بحر الإنابة، ثمّ في بحر العمل، ثمّ في بحر المزيد، ثمّ في بحر الهدى، ثمّ في بحر الصيانة، ثمّ في بحر الحياء، حتّى تقلب في عشرين بحراً.

فلمّا خرج من آخر الأبحر قال الله تعالى:

يا حبيبي ويا سيّد رسلي ويا أول مخلوقاتي ويا آخر رسلي، أنت الشفيع يوم المحشر فخرّ النور ساجداً، ثمّ قال: فقطرت منه قطرات كان عددها مائة ألف وأربعة وعشرين ألف قطرة، فخلق الله تعالى من كلّ قطرة من نوره نبيّاً من الأنبياء، فلمّا تكاملت الأنوار صارت تطوف حول نور محمد صلى الله عليه وآله كما تطوف الحجّاج حول بيت الله الحرام، وهم يسبّحون الله ويحمدونه ويقولون:

سبحان من هو عالم لا يجهل، سبحان من هو عليم لا يعجل، سبحان من هو غنيّ لا يفتقر.

فناداهم الله تعالى: تعرفون من أنا؟ فسبق نور محمد صلى الله عليه وآله قبل الأنوار ونادى:

أنت الله الّذي لا إلّه إلا أنت وحدك لا شريك لك، ربّ الأرباب، وملك الملوك، فإذا بالنداء من قبل الحقّ: أنت صفيّي، وأنت حبيبي، وأنت خير خلقي. أمّتك خير أمّة خرجت للناس.

ثمّ خلق من نور محمد صلى الله عليه وآله جوهرة وقسّمها قسمين، فنظر إلى القسم الأوّل بعين الهيبة فصار ماء عذباً، ونظر إلى القسم الثاني بعين الشفقة فخلق منه العرش فاستوى على وجه الماء، فخلق الكرسيّ من نور العرش، وخلق من نور الكرسيّ اللوح، وخلق من نور اللوح القلم، وقال له:

اكتب توحيدي، فبقي القلم ألف عام سكران من كلام الله تعالى، فلمّا أفاق قال:

اكتب.

قال: يا ربّ وما أكتب؟

قال: اكتب: لا إلّه إلا الله، محمد رسول الله.

فلمّا سمع القلم اسم محمد ﷺ خرّ ساجداً.

قال: سبحان الواحد القهّار، سبحان العظيم الأعظم، ثمّ رفع رأسه من السجود وكتب: لا إلّه إلا الله، محمّد رسول الله.

ثّم قال: يا ربّ ومن محمّد الّذي قرنت اسمه باسمك، وذكره بذكرك؟

قال الله تعالى له: يا قلم، فلولاه ما خلقتك، ولا خلقت خلقي إلاّ لأجله، فهو بشير نذير، وسراج منير، وشفيع وحبيب، فعند ذلك انشق القلم من حلاوة ذكر محمّد.

ثّم قال القلم: السلام عليك يا رسول الله.

فقال الله تعالى: وعليك السّلام منّي ورحمة الله وبركاته، فلأجل هذا صار السّلام سنّة والرّد فريضه.

ثمّ قال الله تعالى: اكتب قضائي وقدري وما أنا خالقه إلى يوم القيامة.

ثمّ خلق الله ملائكة يصّلون على محمّد وآل محمّد، ويستغفرون لأُمّته إلى يوم القيامة.

ثمّ خلق الله تعالى من نور محمّد ﷺ الجنّة وزينتها بأربعة أشياء: التعظيم والجلالة والسخاء والأمانة، وجعلها لأوليائه وأهل طاعته.

ثمّ نظر إلى باقي الجوهرة بعين الهيبة فذابت.

فخلق من دخانها السماوات، ومن زبدها الأرضين.

فلّما خلق الله تبارك وتعالى الأرض صارت تموج بأهلها كالسفينة، فخلق الله الجبال فأرساها بها، ثمّ خلق ملكاً من أعظم ما يكون في القوّة فدخل تحت الأرض، ثمّ لم يكن لقدمي الملك قرار، فخلق الله صخرة عظيمة وجعلها تحت قدمي الملك، ثم لم يكن للصخرة قرار، فخلق لها ثوراً عظيماً لم يقدر أحد ينظر إليه لعظم خلقته وبريق عيونه، حتى لو وضعت البحار كلّها في إحدى منخريه ما كانت إلاّ كخردلة ملقاة في أرض فلاة، فدخل الثور تحت الصخرة وحملها على ظهره وقرونه واسم ذلك الثور: «لهوتا» ثمّ لم يكن لذلك الثور قرار، فخلق الله له حوتاً عظيماً واسم ذلك الحوت: «بهموت» فدخل الحوت تحت قدمي الثور فاستقرّ الثور على ظهر الحوت فالأرض كلها على كاهل الملك، والملك على الصخرة، والصخرة على الثور، والثور على الحوت،

والحوت على الماء، والماء على الهواء، والهواء على الظلمة، ثمّ انقطع علم الخلائق عمّا تحت الظلمة.

ثمّ خلق الله تعالى عرشاً من ضيائين:

أحدهما: الفضل، والثاني: العدل، ثمّ الضيائين فانتفسا بنفسين فخلق منهما أربعة أشياء: العقل.

والحلم، والعلم، والسخاء، ثمّ خلق من العقل الخوف، وخلق من العلم الرضا، ومن الحلم المودّة، ومن السخاء المحبّة.

ثم عجن هذه الأشياء في طينة محمّد صلى الله عليه وآله ثمَّ خلق من بعدهم أرواح المؤمنين من أُمّة محمّد صلى الله عليه وآله.

ثمّ خلق الشمس، والقمر، والنجوم، والليل، والنهار، والضياء، والظلام، وسائر الملائكة من نور محمّد صلى الله عليه وآله.

فلمّا تكاملت الأنوار سكن نور محمّد صلى الله عليه وآله تحت العرش ثلاثة وسبعين ألف عام، ثمّ انتقل نوره إلى الجنّة فبقي سبعين ألف عام، ثمّ انتقل إلى سدرة المنتهى، فبقي سبعين ألف عام، ثمَّ انتقل إلى السماء السابعة، ثم إلى السماء السادسة، ثمَّ إلى السماء الخامسة، ثمّ إلى السماء الرابعة، ثمّ إلى السماء الثالثة، ثمّ إلى السماء الثانية، ثمّ إلى السماء الدنيا، فبقي نوره في السماء الدنيا إلى أن أراد (الله) أن يخلق آدم عليه السلام إلى آخر ما مرّالحديث[1].

◎ تقدير الخليقة وذرء البرية

مروج الذهب للمسعوديّ، عن أبي عبد الله جعفر بن محمد عن آبائه عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: إن الله حين شاء تقدير الخليقة، وذرء البريّة، وإبداع المبدعات، نصب الخلق في صور كالهباء، قبل دحو الأرض ورفع السماء، وهو في انفراد ملكوته، وتوحّد جبروته، فأتاح نوراً من نوره فلمع، وقبساً من ضيائه فسطع، ثمّ اجتمع النور في وسط تلك الصور الخفيّة، فوافق ذلك صورة نبيّنا محمّد صلى الله عليه وآله فقال الله عزّ من قائل:

أنت المختار المنتخب، وعندك أستودع نوري وكنوز هدايتي، ومن أجلك أُسطّح البطحاء وأرفع المساء، وأمزج الماء وأجعل الثواب والعذاب، والجنّة والنار، وأنصب

(١) البحار ج٥٤ ص١٩٨-٢٠٢، ح١٤٥. الحديث الكامل في البحار ج١٥ ص٢٦-١١٠، ح٥٣.

أهل بيتك بالهداية وأوتيهم من مكنون علمي ما لا يخفى عليهم دقيق، ولا يغيبهم خفيّ، وأجعلهم حجّة على بريّتي والمنبّهين على علمي ووحدانيّتي،

ثمّ أخذ الله سبحانه الشهادة للربوبيّة، والإخلاص للوحدانية، فبعد أخذ ما أخذ من ذلك شاء ببصائر الخلق انتخاب محمّد، وأراهم أنّ الهداية معه، والنور له، والإمامة في أهله تقديماً لسنّة العدل، وليكون الأعذار متقدّماً، ثمّ أخفى الله الخليقة في غيبه، وغيّبها في مكنون علمه، ثمّ نصب العوالم، وبسط الزمان، ومرج الماء، وأثار الزبد، وأهاج الدخان، فطفى عرشه على الماء، وسطح الأرض على ظهر الماء، ثمّ استجابهما إلى الطاعة، فأذعنتا بالاستجابة، ثمّ أنشأ الملائكة من أنوار نبوّة قد ابتدعها، وأنوار اخترعها، وقرن بتوحيده نبوّة نبيّه محمد ﷺ فشهرت نبوّته في السماء قبل بعثته في الأرض.

فلمّا خلق الله آدم أبان له فضله للملائكة، وأراهم ما خصّه به من سابق العلم، من حيث عرفهم عند استنبائه إيّاه أسماء الأشياء، فجعل الله آدم محراباً وكعبة وقبلة، أسجد إليها الأنوار والروحانيّين والأبرار، ثمّ نبّه آدم على مستودعه وكشف له خطر ما ائتمنه على أن سمّاه إماماً عند الملائكة، فكان حظّ آدم من الخبر إنباءه ونطقه بمستودع نورنا، ولم يزل الله تعالى يخبأ النور تحت الزمان إلى أن فضل محمّداً ﷺ في طاهر القنوات فدعا الناس ظاهراً وباطناً، وندبهم سرّاً وإعلاناً، واستدعى التنبيه على العهد الّذي قدّمه إلى الذّر قبل النسل ومن وافقه قبس من مصباح النور المتقدّم اهتدى إلى سرّه، واستبان واضح أمره، ومن ألبسته الغفلة استحقّ السخطة لم يهتد إلى ذلك.

ثمّ انتقل النور إلى غرائزنا، ولمع مع أئمّتنا، فنحن أنوار السماء وأنوار الأرض، فينا النجاة، ومنّا مكنون العلم وإلينا مصير الأمور، وبنا تقطع الحجج، ومنّا خاتم الأئمّة، ومنقذ الأمّة وغاية النور، ومصدر الأمور، فنحن أفضل المخلوقين، وأكمل الموجودين وحجج ربّ العالمين، فلتهنأ النعمة من تمسّك بولايتنا وقبض عروتنا[1].

◎ ما سئلت عن شيء دون العرش إلا أجبت

● كتاب المحتضر للحسن بن سليمان، ممّا رواه من كتاب الخطب لعبد العزيز بن يحيى الجلوديّ، قال: خطب أمير المؤمنين عليه السلام فقال: سلوني فإنّي لا أسأل عن شيء دون العرش إلاّ أجبت فيه لا يقولها بعدي إلاّ جاهل مدّعٍ أو كذّاب مفتر.

(١) مروج الذهب، ج١، ١٧ و١٨. البحار ج٥٤ ص٢١٢ - ٢١٤، ح١٨٣.

فقام رجل من جانب مسجده في عنقه كتاب كأنّه مصحف وهو رجل آدم ضرب[1] طوال، جعد الشعر. كأنّه من مهوّدة العرب، فقال رافعاً صوته لعليّ: أيّها المدّعي ما لا يعلم والمقلّد ما لا يفهم! أنا السائل فأجب.

فوثب به أصحاب عليّ وشيعته من كلّ ناحية فهمّوا به فنهرهم عليّ عليه السلام فقال لهم: دعوه ولا تعجلوه! فإنّ الطيش لا تقوم به حجج الله ولا به تظهر براهين الله. ثمّ التفت إلى الرجل وقال له: سل بكلّ لسانك وما في جوانحك فإنّي أجيبك، إنّ الله تعالى لا تعتلّ عليه الشكوك ولا يهيجه وسن.

فقال الرجل: كم بين المغرب والمشرق؟

قال عليّ عليه السلام: مسافة الهواء. قال: وما مسافة الهواء؟

قال [علي عليه السلام]: دوران الفلك؟

قال الرجل: وما قدر دوران الفلك؟

قال: مسيرة يوم للشمس.

قال الرجل: صدقت.

قال: فمتى القيامة؟

قال: على قدر قصور المنيجة وبلوغ الأجل.

قال الرجل: صدقت،

فكم عمر الدنيا؟ قال عليّ: يقال سبعة آلاف ثمّ لا تحديد.

قال الرجل: صدقت، فأين بكّة من مكّة؟

قال عليّ: مكّة من أكناف الحرم، وبكّة موضع البيت.

قال: فلم سمّيت مكّة مكّة؟

قال: لأنّ الله مكّ الأرض من تحتها.

قال: فلم سمّيت بكّة؟

قال: لأنّها بكّت رقاب الجبّارين وعيون المذنبين.

قال: صدقت.

وأين كان الله قبل أن يخلق عرشه؟

قال عليّ: سبحان من لا تدرك كنه صفته حملة العرش، على قرب زمراتهم من

(١) الآدم هو الأسمر، والضرب - بسكون الراء - أي الخفيف الظريف.

كراسيّ كرامته، ولا الملائكة المقرّبون من أنوار سبحات جلاله. ويحك! لا يقال أين، ولا ثمّ، ولا فيم، ولا لم، ولا أنّى، ولا حيث، ولا كيف.

قال الرجل: صدقت.

فكم مقدار ما لبث الله عرشه على الماء من قبل أن يخلق الأرض والسماء؟

قال: أتحسن أن تحسب؟

قال: نعم.

قال: لعلّك لا تحسن!

قال: بلى، إنّي لأحسن أن أحسب.

قال عليّ عليه السلام: أفرأيت لو كان صبّ خردل في الأرض [حتّى] سدّ الهواء ما بين الأرض والسماء، ثمّ أذن لمثلك على ضعفك أن تنقله حبّة حبّة من مقدار المشرق إلى المغرب، ثمّ مدّ في عمرك وأعطيت القوّة على ذلك حتّى تنقله وأحصيته لكان ذلك أيسر من إحصاء عدد أعوام ما لبث عرشه على الماء من قبل أن يخلق الأرض والسماء، وإنّما وصفت لك ببعض عشر عشير العشير من جزء مائة ألف جزء، وأستغفر الله من القليل في التحديد.

قال: فحرّك الرجل رأسه وشهد أن لا إلّه إلا الله وأنّ محمّداً رسول الله(١).

◎ كان خلق قبل خلق آدم

● عن عمرو بن أبي المقدام، عن جابر، عن أبي جعفر عليه السلام قال: سئل أمير المؤمنين عليه السلام: هل كان في الأرض خلق من خلق الله تعالى يعبدون الله قبل آدم وذرّيّته؟

فقال: نعم، قد كان في السموات والأرض خلق من خلق الله يقدّسون الله ويسبّحونه ويعظّمونه بالليل والنهار لا يفترون، فإنّ الله عزّ وجلّ لمّا خلق الأرضين خلقها قبل السماوات.

ثمّ خلق الملائكة روحانيّين لهم أجنحة يطيرون بها حيث يشاء الله، فأسكنهم فيما بين أطباق السماوات يقدّسونه الليل والنهار، واصطفى منه إسرافيل وميكائيل وجبرئيل.

---

(١) البحار ج٥٤ ص٢٣١ - ٢٣٢، ح١٨٣.

ثمّ خلق عزّ وجلّ في الأرض الجنّ روحانيّين لهم أجنحة فخلقهم دون خلق الملائكة، وحفظهم أن يبلغوا مبلغ الملائكة في الطيران وغير ذلك، فأسكنهم فيما بين أطباق الأرضين السبع وفوقهنّ يقدّسون الله الليل والنهار لا يفترون.

ثمّ خلق خلقاً دونهم لهم أبدان وأرواح بغير أجنحة يأكلون ويشربون «نسناس» أشباه خلقهم، وليسوا بإنس، وأسكنهم أوساط الأرض على ظهر الأرض مع الجنّ يقدّسون الله الليل والنهار لا يفترون.

قال: كان الجنُّ تطير في السماء فتلقى الملائكة في السماوات فيسلّمون عليهم ويزورونهم ويستريحون إليهم ويتعلّمون منهم (الخبر).

ثمّ إنّ طائفة من الجنّ والنسناس الّذين خلقهم الله وأسكنهم أوساط الأرض مع الجنّ تمرّدوا وعتوا عن أمر الله، فمرحوا وبغوا في الأرض بغير الحقّ، وعلا بعضهم على بعض في العتوّ على الله تعالى حتّ سفكوا الدماء فيما بينهم، وأظهروا الفساد وجحدوا ربوبيّة الله تعالى.

قال: وأقامت الطائفة المطيعون من الجنّ على رضوان الله وطاعته، وباينوا الطائفتين من الجنّ والنسناس الّذين عتوا عن أمر الله تعالى.

قال: فحطّ الله أجنحة الطائفة من الجنّ الّذين عتوا من أمر الله وتمرّدوا فكانوا لا يقدرون على الطيران إلى السماء وإلى ملاقاة الملائكة لما ارتكبوا من الذنوب والمعاصي.

قال: وكانت الطائفة المطيعة لأمر الله من الجنّ تطير إلى السماء الليل والنهار على ما كانت عليه، وكان إبليس واسمه «الحارث» يظهر للملائكة أنّه من الطائفة المطيعة.

ثمّ خلق الله [تعالى] خلقاً على خلاف خلق الملائكة وعلى خلاف خلق الجنّ وعلى خلاف خلق النسناس، يدبّون كما يدبّ الهوامّ في الأرض يأكلون ويشربون كما تأكل الأنعام من مراعي الأرض كلّهم ذكران ليس فيهم إناث، لم يجعل الله فيهم شهوة النساء، ولا حبّ الأولاد، ولا الحرص، ولا طول الأمل ولا لذّة عيش، لا يلبسهم الليل ولا يغشاهم النهار [و] ليسوا ببهائم ولا هوامّ، لباسهم ورق الشجر، وشربهم من العيون الغزار والأودية الكبار، ثمّ أراد الله أن يفرقهم فرقتين.

فجعل فرقة خلف مطلع الشمس من وراء البحر، فكوّن لهم مدينة أنشأها تسمّى: «جابرسا» طولها اثنا عشر ألف فرسخ في اثني عشر ألف فرسخ، وكوّن عليها سوراً من حديد يقطع الأرض إلى السماء، ثمّ أسكنهم فيها.

وأسكن الفرقة الأخرى خلف مغرب الشمس من وراء البحر، وكوّن لهم مدينة أنشأها تسمّى: «جابلقا» طولها اثنا عشر ألف فرسخ في اثني عشر ألف فرسخ، وكوّن لهم سوراً من حديد يقطع إلى السماء، فأسكن الفرقة الأخرى فيها، لا يعلم أهل «جابرسا» بموضع أهل «جابلقا» ولا يعلم أهل «جابلقا» بموضع أهل «جابرسا» ولا يعلم بهم أهل أوساط الأرض من الجنّ والنسناس، فكانت الشمس تطلع على أهل أوساط الأرضين من الجنّ والنسناس فينتفعون ببحرها ويستضيئون بنورها، ثمّ تغرب في عين حمئة فلا يعلم بها أهل جابلقا إذا غربت، ولا يعلم بها أهل جابرسا إذا طلعت، لأنها تطلع من دون جابرسا، وتغرب من دون جابلقا.

فقيل: يا أمير المؤمنين فكيف يبصرون ويحيون؟ وكيف يأكلون ويشربون وليس تطلع الشمس عليهم؟

فقال: إنّهم يستضيئون بنور الله، فهم في أشدّ ضوء من يعرفون شيئاً غيره.

فقيل: يا أمير المؤمنين فأين إبليس عنهم؟

قال: لا يعرفون إبليس ولا سمعوا بذكره لا يعرفون إلا الله وحده لا شريك له. لم يكتسب أحد منهم قطّ خطيئة، ولم يقترف إثماً، لا يسقمون ولا يهرمون ولا يموتون إلى يوم القيامة، يعبدون الله لا يفترون، الليل والنهار عندهم سواء.

وقال: إنّ الله أحبّ أن يخلق خلقاً، وذلك بعدما مضى للجنّ والنسناس سبعة آلاف سنة، فلمّا كان من خلق الله أن يخلق آدم للّذي أراد من التدبير والتقدير فيما هو مكوّنه في السماوات والأرضين كشط عن أطباق السماوات، ثمّ قال للملائكة:

انظروا إلى أهل الأرض من خلقي من الجنّ والنسناس هل ترضون أعمالهم وطاعتهم لي؟ فاطّلعت ورأوا ما يعملون فيها من المعاصي وسفك الدماء والفساد في الأرض بغير الحقّ أعظموا ذلك وغضبوا لله وأسفوا على أهل الأرض ولم يملكوا غضبهم وقالوا:

يا ربّنا أنت العزيز الجبّار القاهر العظيم الشأن وهؤلاء كلّهم خلقك الضعيف الذليل في أرضك كلّهم يتقلّبون في قبضتك ويعيشون برزقك ويتمتّعون بعافيتك وهم يعصونك بمثل هذه الذنوب العظام، لا تغضب ولا تنتقم منهم لنفسك بما تسمع منهم وترى وقد عظم ذلك علينا وأكبرناه فيك!

قال: فلمّا سمع الله تعالى مقالة الملائكة قال:

إنّي جاعل في الأرض خليفة، فيكون حجّتي على خلقي في أرضي.

فقالت الملائكة: سبحانك ربّنا! أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبّح بحمد ونقدّس لك؟!

فقال الله تعالى:

يا ملائكتي إنّي أعلم ما لا تعلمون، إنّي أخلق خلقاً بيدي، وأجعل من ذريّته أنبياء ومرسلين وعباداً صالحين، وأئمّة مهتدين، وأجعلهم خلفائي على خلقي في أرضي، ينهونهم عن معصيتي، وينذرونهم من عذابي، ويهدونهم إلى طاعتي ويسلكون بهم طريق سبيلي، أجعلهم حجّة لي عذراً أو نذراً، وأنفي الشياطين من أرضي، وأُطهّرها منهم، فأسكنهم في الهواء وأقطار الأرض وفي الفيافي فلا يراهم خلقي، ولا يرون شخصهم ولا يجالسونهم ولا يخالطونهم ولا يؤاكلونهم ولا يشاربونهم وأنفر مردة الجنّ العصاة من نسل بريّتي وخلقي وخيرتي، فلا يجاورون خلقي وأجعل بين خلقي وبين الجانّ حجاباً فلا يرى خلقي شخص الجنّ، ولا يجالسونهم ولا يشاربونهم، ولا يتهجّمون تهجّمهم، ومن عصاني من نسل خلقي الّذي عظّمته واصطفيته لغيبي أسكنهم مساكن العصاة، وأوردهم موردهم ولا أبالي.

فقالت الملائكة: لا علم لنا إلاّ ما علّمتنا إنك أنت العليم الحكيم.

فقال للملائكة: إنّي خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون، فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين.

قال: وكان ذلك من الله تقدمة للملائكة قبل أن يخلقه احتجاجاً منه عليهم وما كان الله ليغيّر ما بقوم إلا بعد الحجّة عذراً أو نذراً، فأمر تبارك وتعالى ملكاً من الملائكة فاغترف غرفة بيمينه فصلصلها في كفّه فجمدت، فقال الله عزّ وجلّ: منك أخلق[(١)].

● عن محمّد بن الحسين، عن صفوان بن يحيي، عن بعض رجاله، عن أبي عبد الله، عن أبيه، عن عليّ بن الحسين، عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: إنّ لله بلدة خلف المغرب يقال لها: «جابلقا» وفي جابلقا سبعون ألف أمّة ليس منها أمّة إلاّ مثل هذه الأمّة، فما عصوا الله طرفة عين، فما يعملون عملاً ولا يقولون قولاً إلاّ الدعاء على الأوّلين[(٢)] والبرائة منهما، والولاية لأهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله[(٣)].

---

(١) البحار ج٥٤ ص٣٢٢ - ٣٢٥، ح٥. (٣) البحار ج٥٤ ص٣٢٩، ح١١.
(٢) يعني الجبت والطاغوت.

● **وروى عن ابن عبّاس، عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: إنّ من وراء قاف عالماً لا يصل إليه أحد غيري، وأنا المحيط بما رواءه، وعلمي به كعلمي بدنياكم هذه، وأنا الحفيظ الشهيد عليها، ولو أردت أن أجوب الدنيا بأسرها والسماوات السبع والأرضين في أقلّ من طرفة عين لفعلت لما عندي من الإسم الأعظم، وأنا الآية العظمى، والمعجز الباهر[1].**

◎ الكون

الكون هو كل شيء في هذا الوجود من مادة، والمادة صورة مكافئة للطاقة وهي ليست إلا الجسيمات الأولية التي تخلقت منها الذرات فكونت لنا الأسدام والمجرات.

وهذا الكون الذي نعيش فيه ليس إلا مخلفات تولدت من الإنفجار العظيم وأخذت هذه المخلفات تترابط وتنفصل حتى كونت لنا هذا الكون.

بقاء الجزء يحتم علينا بقاء الكل وانعدام الجزء يحتم علينا انعدام الكل، فمن الناحية العلمية أن الكون من النجوم والكواكب والأسدام حتى البشر هو جزء لا يتجزأ من هذا الكون.

وإننا نناقش في بحثنا أنّ الطبيعة ليست هي الله، فالطبيعة (حادث)، والله (قديم). والطبيعة يعتريها الذبول، أما الله فلا يعتريه الذبول، وإن ما ذهب إليه فلاسفة اليونان من قدم العالم وأن النجوم لا تصل لمرحلة الذبول فهذا خطأ من الناحية الدينية والعلمية.

عدم شعورنا بالذبول الذي يحصل للشمس لا يعني أننا نلغي هذا الذبول فهذا الذبول لا يمكن ملاحظته حتى بالأجهزة الحديثة إلا على فترات زمنية طويلة[2].

ومن الناحية الدينية قد أخبر الله في كثير من آياته عن فناء هذه النجوم، وقد خص الله النجم (الشمس) الذي اتخذه البعض إلّهاً فعبدوه من دون الله بقوله: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ﴾[3].

---

(١) البحار ج٥٤ ص٣٣٦، ح٢٦.

(٢) نستطيع أن نتخيل أن أحد الأغنياء يملك الملايين الملايين من الدولارات وينفق دولاراً واحداً في كل يوم منها، فهذا الدولار لا يؤثر في ثروته الطائلة إلا على مدى الملايين الملايين من السنين.

(٣) سورة التكوير، الآية: ١.

والتكور هو لف الشيء وضمه إلى بعضه ويكون في حالة حركة، وهي شبيهة بالعمامة التي يلفها الشيخ على رأسه.

فالشمس في نهاية حياتها سوف تتكور، وتلف نفسها بنفسها ويخفت ضوؤها وتتحول إلى قزم أبيض: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ ۝٨﴾[1]. والطمس هو ذهاب النور وهذه آخر مرحلة تصل إليها النجوم.

نعم بعد خمسة مليارات سنة ستستنفذ الشمس وقودها من الهيدروجين، وسوف تنتفخ متحولة إلى نجم عملاق أحمر أكبر من حجمها الحالي بـ (مئة) مرة، وسوف تبتلع كوكبي عطارد والزهرة، وربما بلغت مدار الأرض[2].

---

(١) سورة المرسَلات، الآية: ٨.

(٢) بطبيعة الحال سوف تموت الأفلاك بقانون طبيعي، وليست قدرة خارقة، وجميع من على الأرض سوف يشاهدون هذه التغيرات، إذا فرضنا أنه يوجد بشر على وجه الأرض بعد خمسة مليارات سنة، وقد ذكر الله سبحانه أن الشمس سوف تبلع القمر حينما يدخل القمر في جاذبية الشمس من حيث الإقتراب النسبي للقمر [بسبب قوى المد والجزر (احتكاك المد والجزر في جَرِّهما الماء جيئة وذهاباً)] تتباطأ الأرض في دورانها، ونتيجة لهذا التباطؤ فإن القمر يتسارع ويبتعد عن الأرض (قانون كبلر الثالث) [بالتأكيد أن القمر كان أقرب إلى الأرض قبل ملايين السنين، والأرض كانت أسرع قبل ملايين السنين]، وسوف تستمر الأرض في التباطؤ والقمر في الابتعاد عن الأرض حتى يخرج عن جاذبيتها ويدخل في جاذبية الشمس.

يُخمِّن العلماء تباطؤ الأرض في اليوم بمعدل (2.2) (2.2 seconds every 100,000 years) ثانية كل مئة ألف سنة! http//:novan.com/earth.htm

معنى هذا الكلام أن اليوم يطول بمعدل (0.002) (0.002 seconds every century)، ثانية كل قرن! وقد استنتج العلماء أن القمر يبتعد عن الأرض بمقدار (3cm per year) (3) سم، في كل سنة!

http//.athene.as.Arizona.edu^lclose/teaching/a202/lect.6.html.

قال تعالى: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ﴾. [والمستفاد من ظاهر الآية المقدسة أن الحياة سوف تكون موجودة على الأرض وعلى الأخص (البشر)]: قال تعالى: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ ۝٩ يَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذٍ أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ ۝١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ ۝١٢﴾. لأن الإنسان سوف يشعر بعد أن تبلع الشمس القمر بدنو موت الأرض، ربما يحاول الهرب إلى كوكب غير الأرض، ولكن ماذا سيفعل في تلك اللحظات، الكواكب بأكملها سوف تموت والشمس سوف تموت وصدق الله العلي العظيم حينما قال: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ ۝٩ يَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذٍ أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ ۝١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ ۝١٢﴾ [سورة القيامة، الآيات: ٩-١٢]. سوف تكون تلك اللحظات التي يختل فيها النظام الكوني أحلك=

. . . .

=اللحظات التي تمر على الأرض! بعد أن تستنفذ الشمس وقودها متحولة إلى نجم عملاق أحمر. من تعاسة حظنا أننا لن نستطيع أن نشهد تلك اللحظات لأنها سوف تقع بعد خمسة مليارات سنة!!. الاختلال في نظام الكون سوف يحدث بالتأكيد بعد خمسة مليارات سنة، لكن قد ينقرض البشر من على سطح الأرض في أقل من تلك الفترة بكثير (بسبب التلوث أو الجفاف أو الإشعاعات أو ما شاكلها فهي تشترك بأجمعها في الفتك بالكائنات الحية):
هذا تقرير سوف انقله بالكامل [B.B.C ONLINE NETWORK] بتاريخ ٢١/ ٢/ ٢٠٠٠م؟
المحيطات ستجف بعد خمس مئة مليون سنة:
رجح عالم أمريكي متخصص في الجيوفيزياء أن تكون الأرض قد دخلت المرحلة الأخيرة من عمرها، إذ لم يتبق منه سوى نحو ١٠٪ فقط.
وأشار البروفسور جيمس كاستنج، بجامعة بنسلفانيا إلى أن حساباته تؤكد أن المحيطات الموجودة على سطح الأرض حالياً يمكن أن تختفي خلال حوالي مليار سنة بسبب ارتفاع درجة حرارة الشمس وازدياد نشاطها.
وقد جاء هذا الإعلان خلال مؤتمر للجمعية الأمريكية للتطور العلمي في واشنطن وقال كاستنج: إن المشكلة ستبدأ عندما يرتفع متوسط درجة حرارة الأرض إلى ستين درجة مئوية، وعندها ستبدأ الأرض في فقدان الماء الموجود على سطحها، وقال كاستنج إنه خلال خمس مئة مليون سنة لن يتوفر ثاني أكسيد الكربون اللازم لنمو الزراعات والأشجار. مما سيؤدي إلى تدمير أسس دورة إنتاج الغذاء، وأضاف كاستنج: أن الشمس مثل جميع النجوم، تزداد وهجاً ولمعاناً بمرور الوقت وأن درجة حرارتها سترتفع تدريجياً لتؤثر على الأرض بحيث تتبخر المحيطات، فعند ستين درجة مئوية يصبح الماء أحد المكونات الرئيسية للغلاف الجوي، ومعظم هذا الماء ينجرف صاعداً إلى طبقة الستراتوسفير ثم يفقد في الفضاء، وبهذا الأسلوب ستجف المحيطات تدريجياً.
أدرك العلماء منذ فترة طويلة أن المحيطات ستتبخر في النهاية ولكنهم ظنوا أن ذلك سيحدث عندما يختل النظام الكوني بعد نحو خمسة آلاف مليون سنة وتخرج الشمس عن مدارها عندما تتوقف عن حرق الهيدروجين، وتصبح الشمس كرة من اللهب الأحمر وتلتهم كوكب عطارد ويفقد كوكب الزهرة غلافه الجوي ويصبح كوكباً محترقاً.
إلا أن حسابات البروفيسور كاستنج توضح أن المحيطات ستتبخر قبل ذلك بكثير، وفي غضون خمس مئة إلى ألف مليون سنة، وهي لا تزال بالطبع فترة طويلة حسب قوله، ولكنه يشير إلى أن هذه الحسابات ستساعد العلماء على إدراك عمر الأرض بطريق أقرب إلى الحقيقة. (انتهى المقال).
في الحقيقة هل البروفيسور كاستنج على صواب أم خطأ، هذا شيء نتركه للأيام، كل ما يجب أن نعتقده أن الكائنات الحية والبشر والأرض بأكملها سوف يزولون بأكملهم بقانون طبيعي، وهذا القانون يتعلق بطبيعة الكون. والكون بأكمله سيموت بقانون طبيعي، وسيُخلق من جديد=

هذه المرحلة التي ستحصل للشمس سيجعلها تملأ الفضاء بلونها الأحمر أو الوردي، وهذه الحالة يرسمها الله لنا بقوله: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾[1]. هذه الشمس سوف تمر بمراحل كثيرة من التغيير وعدم الاستقرار، حتى يحصل لها التكوير الأخير وتلف نفسها بنفسها وتنكمش بنفسها على نفسها، حتى تتقلص إلى نجمٍ قزمٍ أبيض بحجم الأرض. وبعد مضي آلاف ملايين السنين سيبرد هذا النجم وتنتهي حياته كجسم أسود يُدعى قزماً أسود.

إذا سلمنا بفناء الجزء ستتقبل حينها فناء الكل، هذا ما سوف نركز عليه في هذا البحث، ونثبت أن الكون له بداية وسوف تكون له نهاية.

وسوف نركز في بحثنا على نظريتي الانفجار العظيم والانطواء العظيم، وسنكررها مرات عديدة.

سوف نركز - أيضاً - في هذا البحث على أن الصدفة تختلف عن الله. والله سبحانه وتعالى صرف هذا الكون وفق قوانين محكمة وليست لعبة نرد أخذ يلعبها الله فكونت لها هذا الكون.

◎ مدخل للانفجار العظيم:

إذا كان الكون يتوسع، يتحتم علينا أن نعتقد أن:

- الكون كان أصغر من هذا الحجم في الزمن الماضي.
- هناك بداية لهذا الكون. لم يكن الكون يتوسع قبلها.
- بداية الكون بداية لكل زمان ومكان وبذلك يكون أوجد نفسه بنفسه وبهذا يكون هو الإله وهذا الإله كوّن نفسه بنفسه وأصبح يدور في عمليات معقدة في المادة حتى هذه اللحظة، وأما أن يكون قبل البداية إله أوجد بداية الكون من العدم، فلم يكن يوجد عندنا شيء وفجأة ولد من العدم المكان والزمان والمادة.

=بقانون طبيعي، إذا تقبلنا هذه المفاهيم بشكلها البسيط سوف نتقبل الأمور الغيبية كيوم القيامة والجنة والنار بشكل منطقي. صحيح أن الله هو المتصرف، لكن علينا أن نعتقد أن للطبيعة قوانين تسير وفقها، وهذه القوانين هي التي خلقت هذا الكون وهي التي ستميته وهي التي ستخلقه من جديد.

(١) سورة الرحمن، الآية: ٣٧.

◎ الانفجار العظيم:

نظرية الانفجار العظيم ليست نظرية بسيطة كما يعتقدها كثير من البشر، إنها نظرية معقدة ولا زال علماء الفيزياء يتباحثون فيها.

الكثير من علماء الفيزياء اعتقد بها ولا توجد عندنا في هذا المقام إلا نظرية واحدة تترجم لنا ولادة هذا الكون.

صحيح أن الكثير من البشر أيضاً أنكر هذه النظرية، في عام ٢٠٠٢م. قدم تقرير (بجامعة كامبردج) مفاده أن الكون لا بداية له ولن تكون له نهاية.

الكثير اعتبر أن الزمان والمكان توالدا بولادة هذا الانفجار لأنه من المستحيل أن يحدث هذا الانفجار في مكان ما أو زمان ما! لأنه حدث في كل مكان وفي كل زمان!

يقول شتاينهاردت: «من المفترض أن الضربة الكبرى هي بداية الزمن والمكان؛ وأنه كان هناك عدم، وبعد ذلك فجأة ولد من العدم المكان الزمن، المادة، والإشعاع، الخ».

◎ بداية الكون:

كانت بداية هذا الكون نقطة صغيرة جداً أصغر من أن يتصورها عقلنا، هذه النقطة وجدت قبل خمسة عشر مليار سنة[1]، هذه النقطة كانت ذات كثافة عالية وحارة في الذات نفسه.

---

(١) حددت شركة ناسا قبل سنوات قليلة عمر الكون (13.7 BILLON YEARS) دراسة عمر الكون اعتمدت على أطياف الضوء الصادرة من النجوم القديمة.

بالنسبة للناحية الدينية قد أخبر الله في كثير من آياته أن خلق السموات والأرض قد تم في ستة أيام، واليوم هنا يختلف عن اليوم الذي نعرفه (حقبة تاريخية تكونت خلالها السموات والأرض)، السؤال الذي يدور في عقل القارئ: ما هو مقدار اليوم الذي قصده الله في قوله: ﴿سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف: ٥٤]، لا أحد منا يستطيع أن يعرف مقدار هذا اليوم لأن الله لم ينسب هذا اليوم إلى شيء كقوله: ﴿مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧]. بل قال: ستة أيام دون أن ينسبها إلى شيء، وبما أن الله لم ينسب أيامه إلى شيء، فلا نستطيع أن نقول ما هو مقدار اليوم الذي يقصده الله!
نلاحظ أن الله أخبر عن خلق الأرض في يومين: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ٩].

اليومان هنا لم ينسبهما الله إلى شيء، لكن حسب مفهومنا البسيط نستطيع أن نتخيل أن خلق=

الكثير منكم يتساءل هل يمكن حشد مادة الكون داخل هذه النقطة، دعونا نأخذ كثافة النواة، يمكننا أن نعطي هذه الكثافة بالعلاقة التالية:

$$\rho = \frac{m}{V} = \frac{1.67 \times 10^{-27}A}{\frac{4}{3}\pi(1.5 \times 10^{-15})^3A} \cong 1.2 \times 10^{17}Kg.m^{-3}$$

$(\rho = \text{density} \ast = \text{mass} \ \ast \ V = \text{volume})$

كثافة عالية جداً، ومن هذا المنطلق فليس من المستحيل أن تنحشد كثافة عظيمة في هذه النقطة الصغيرة. الانفجار حدث في كل مكان، لأنه لا يوجد لدينا مكان يحدث فيه الانفجار، هذه النقطة هي الكون بأكمله، فعلينا أن نعلم أن الانفجار لم يحدث في مكان ما، بل إنه حدث في كل مكان.

الزمان هنا نسبي، ولا نستطيع أن نلغي الزمان، ولا يمكننا أن نجزم أن هناك زماناً، لأنه لا يوجد لدينا لا شمس ولا قمر!.

نستطيع أن ننسب الانفجار إلى بداية الزمان، وهذا يكون خطأ، فيجب أن يكون هناك زمن معين تنسب له حادثة الانفجار (لحظة خلق الزمان).

=الأرض يعادل ثلث خلق الكون (هذا التفكير أقرب إلى الخطأ من الصواب)، لأننا لا نستطيع أن نجزم بأن هذين اليومين هما نفس الحقبة التاريخية للأربعة الأيام.

إذا تعاملنا بهذا الأسلوب سوف نقول: إن خلق السماوات السبع قد تم في يومين أيضاً: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ١٢].

الأرض خلقت في يومين! السماوات السبع بأكملها خلقت في يومين! ألا يثار التساؤل من قبل القارئ: اليومان المتبقيان أين هما؟ وهل من المنطق أن تتساوى عظمة السماوات في الخلق بهذه الأرض التي لا تعادل إلا مقدار ما تعادل حبة الرمل في صحراء مترامية؟!!! دعونا نتمعن في هذه الآية القرآنية: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [فصلت: ١٠]. يومان لخلق الأرض! يومان لخلق السماوات! أربعة ايام للرواسي والأقوات! المجموع ثمانية أيام! وهذا أقوى الأدلة على أن الأيام مختلفة تماماً! لأن مجموع خلق السموات والأرض في ستة أيام! رجّح صاحب الميزان أن الأيام الأربعة هي الفصول الأربعة [شتاء، ربيع، صيف، خريف]، قال صاحب الميزان في تفسيره:

(والأنصاف أن الآية أعني قوله: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [فصلت: ١٠] ظاهرة في غير ما ذكروه والقرائن الحافة بها تؤيد كون المراد بها تقدير أقواتها في الفصول الأربعة التي يكونها ميل الشمس الشمالي والجنوبي بحسب ظاهر الحس فالأيام الأربعة هي الفصول الأربعة).

جميع المعلومات التي وصلتنا لم تبين ما الذي حدث في اللحظات الأولى لوجود الكون. بدأ الزمان والمكان في اللحظة (10^{-43}sec)، وكانت درجة الحرارة في هذه اللحظة (10^{32}K).

هذه اللحظة هي لحظة الزمان والمكان عند الفيزيائيين، بعد هذه اللحظة أخذ الكون يتكون. [قبل هذه اللحظة عند (t=0)، يجب أن تكون الدرجة (oo)].

طبعاً هذه النقطة التي لا ترى بالعين المجردة، تقع في حدود (10^{-32}cm) (أصغر من نواة الذرة بعشرة مليون تريليون مرة!).

وذكر أن قطر النواة يقع في حدود (10^{-13}cm)، دعونا نقارن الرقمين:

$$\frac{10^{-13}}{10^{-32}} = 10^{19} = 10.000.000.000.000.000.000$$

في طبيعة الحال ستبقى الفيزياء عاجزة على هذا التصور! وتلك الدرجة الهائلة من الحرارة!.

1.000.000.000.000.000.000.000.000.000.000.000 k

نلاحظ أن كل القوى موحدة (القوة النووية الشديدة. القوة النووية الضعيفة. القوة الكهرومغناطيسية. القوة الجاذبية)[١].

في اللحظة (10^{-34}sec). درجة حرارة (10^{27}K). (هذه الفترة تعرف بفترة التضخم الكوني حيث تضخم الكون بمعدل كبير جداً)!.

نستطيع أن نتصور أنه كان في دائرة لا يتجاوز قطرها (10^{-32}cm)، إلى حجم تفاحة قطرها (10cm)!!

(١) قوة الجاذبية: القوة التي تعمل على إسقاط الأجسام في الأرض وتعمل أيضاً على تنظيم مدارات الأقمار والكواكب والنجوم. . .
القوة الكهرومغناطيسية: القوة المسؤولة عن تجاذب وتنافر الشحنات الكهربائية.
القوة النووية الضعيفة: القوة المسؤولة عن انحلال الأنوية المشعّة.
القوة النووية الشديدة: القوة التي تعمل على ترابط مكونات النواة.

في هذه اللحظة انفصلت قوة الجاذبية عن القوى الثلاث الأخرى.

في اللحظة (10^{-10}sec) من الثانية ودرجة الحرارة (10^{15}K) بدأت تتمايز القوى الأربع، وأصبحت قوى منفصلة عن الأخرى بعد أن كانت قوة واحدة لحظة الانفجار.

في اللحظة (10^{-5}sec) من الثانية ودرجة الحرارة (10^{10}K) بدأ تشكل البروتونات والنيترونات بواسطة اتحاد الكواركات.

بعد ثلاث دقائق من الانفجار ودرجة حرارة (10^{19}K) اتحدت البروتونات والنيترونات وكونت الهليوم والديتربوم (الهيدروجين الثقيل) وكمية صغيرة جداً من الليثيوم.

بهذا نقول إن الكون تألف من (٧٥٪ هيدروجين). (٢٥٪ هليوم). (نلاحظ سيطرة الهيدروجين على النجوم).

بعد (٣٠٠,٠٠٠) سنة من لحظة الانفجار وكانت درجة الحرارة (6000K)، تكونت الذرات الأولى وتجمعت الذرات المتعادلة مكونة غيوماً غازية (دخاناً) تطورت لتكون هذه النجوم، وهذه اللحظة شبيهة بالدخان أو الضباب الكثيف.

بعد ألف مليون سنة من لحظة الانفجار بدأت المادة بالتكون، تشكلت المجرات، مجرتنا درب التبانة تشكلت (١٠،٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ - ٥٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠) سنة من الانفجار العظيم

بالنسبة إلى الشمس والأرض تشكلت بعد (١٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠) سنة من لحظة الانفجار العظيم. ظهرت الحياة على وجه الأرض بعد الانفجار بحوالي (١٥,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ - ١٢,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠) سنة.

◎ ظهور الحياة على وجه الأرض (السلالات البشرية):

الحياة ظهرت على وجه الأرض بعد أن تكونت هذه الأرض (بعد عشرة مليارات سنة من الانفجار) هذه الحياة ظهرت بعد الانفجار بحوالي (١٢ - ١٥ مليار سنة)، وبطبيعة الحال فإن الأرقام التي نذكرها أرقام تقريبية وليست محسومة بشكل نهائي.

الديناصورات ظهرت على وجه الأرض منذ (١٩٠,٠٠٠,٠٠٠) سنة، والجنس البشري ظهر منذ مليوني سنة.

إذا سلمنا بهذه النظرية فإننا لا نستطيع أن نقول إن آدم عليه السلام هو أول جنس بشري!

يجب أن يكون هناك حياة قبل آدم بآلاف السنوات، لا سيما أن العصر منذ زمن آدم حتى زماننا قصير جداً إذا ما قوبل بظهور أول سلالة بشرية على الأرض!

ذكر ابن الأثير في كامله عدة أقوال في الفترة الزمنية منذ خلق آدم عليه السلام إلى الهجرة، وقد اطلعت عليها فوجدتها قصيرة جداً فهي لا تتجاوز التسعة آلاف سنة!.

هنا أستطيع أن أقول إن هناك سلالات بشرية قبل آدم، لكن هذه السلالات انقرضت وكان ظهور آدم عليه السلام هو أول ظهور لسلالاته التي ينتمي إليها البشر بأكمله الآن.

جميع من على الأرض في هذه اللحظة يجب أن ينتموا إلى (آدم أبو البشر).

هناك نظريات كثيرة وضعت في تطور الجنس البشري، كنظرية دارون (١٨٠٩ - ١٨٨٢)، الذي رأى أن الإنسان انحدر من القرد، هناك الكثير من أبطل هذه النظرية. ولا أريد أن أشغل هذه الصفحات في مثل هذه الاحتمالات.

لا أحد ينكر أن هناك تطوراً في الجنس البشري، وعلى الجميع أن يؤمن بتطور الجنس البشري، طبيعة البشر منذ ستة آلاف سنة تختلف عن طريقتهم الآن في الأكل والشرب والسكن، هذا هو التطور أما من حيث التركيب الفسيولوجي للإنسان فمن المستحيل أن يحدث له تغير، لأن الجينات تنتقل من شخص إلى آخر.

يجب أن يكون لآدم يدان ولكل يد خمسة أصابع، هذا مؤكد لأنه أبونا!

قبل ثلاث سنوات كان هناك جدل كبير جداً حول أصل البشر وقد نشر هذا الجدل بالتفصيل في (BBC ARABIC) تاريخ ٢٤/ ١٢/ ٢٠٠٢م.

كان يعتقد أصحابه أن السلالة البشرية الموجودة الآن منحدرة من البشر الذين غادروا أفريقيا قبل مئة ألف سنة!!

هناك تقرير نشرته (Middle East Online)، بتاريخ ٥/ ٣/ ٢٠٠٥م. حول (هوبيت) سلالة بشرية لإنسان عاش قبل ١٨ ألف سنة. مهما بحثنا فلن نصل إلى أول كائن حي عاش على الأرض! كيف ظهر؟ كيف نظر إلى هذه الدنيا؟ ماذا يأكل؟ كيف تزوج؟ كيف... وكيف؟

في هذا المقام لا يمكننا أن نصدق أن هناك بشراً عاشت قبل آدم بصورة آدم، لكن لا يعني أننا ننكر وجود بشر قبل آدم، ما أريد أن أقوله إن الكائنات الحية عاشت قبل آدم هذا شيء لا جدل فيه! لكن هل هذه الكائنات كانت كصورة آدم هذا شيء يطول بحثه.

ويجب أن نؤكد أن البشر الموجودين على وجه هذه الأرض ليسوا من إنسان أفريقي، هؤلاء كلهم ينتمون إلى آدم، وصفة خلق آدم ذكرها أميرنا في نهج البلاغة في خطبته.

◎ نظرية الانفجار العظيم في ظلال نهج البلاغة:

نظرية الانفجار العظيم نظرية صحيحة لا مجال لنكرانها، ذكرها الله في كتابه حيث قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾[١].

أميرنا تطرق لمفهوم الانفجار في كثير من خطبه، هذه الخطبة التي سنذكرها تكلم فيها عن نظرية الانفجار، وتخلق النجوم والكواكب بعد الانفجار، وبعد أن تكونت هذه السماوات وهذه النجوم والكواكب، خلق الله الملائكة وبثهم في سماواته، ثم بعد أن خلق الملائكة بعد أن تكونت السماوات والأرض بجميع الأسدام والمجرات خلق آدم من خليط معقد من تراب الأرض. هذا الخليط المعقد من التراب كوّن آدم بقدرته تعالى.

◎ نظرية الانطواء العظيم:

انقسم علماء الفيزياء إلى قسمين:

القسم الأول: يتعلق بنظرية الكون المفتوح.

ويتعلق القسم الثاني بنظرية الكون المغلق، بعضهم - أعني أصحاب نظرية الكون المفتوح - اعتقدوا أن الكون يتوسع إلى ما لا نهاية، وأصحاب نظرية الكون المغلق يعتقدون أن الكون سينطوي ثم يرجع في التراص من جديد (كتلة صغيرة جداً ذات كثافة عالية) ثم يحدث انفجار آخر يخلق لنا كوناً ثانياً.

نظرية الانطواء العظيم نظرية صحيحة ولا مجال لنكرانها مع أن الفيزياء لم تحسمها حتى هذه اللحظة، فليس من المعقول أن الشمس تفقد في كل ثانية طاقة هائلة وهي في الوقت نفسه لن تموت!

درسنا في الفيزياء أن الحرارة تنتقل من الأجسام الساخنة إلى الباردة. فلو كانت حرارة الأرض أعلى من الشمس، لانتقلت الحرارة من الأرض إلى الشمس.

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٣٠.

تخيلوا أن إناءين أحدهما يوجد فيه ماء درجة حرارته (٥٠) درجة مئوية، والثاني درجة حرارته (١٠٠) درجة مئوية. لو خلطنا الإناءين ماذا تعتقدون، ألا تعتقدون أن درجة الخليط سوف تكون أكبر من خمسين وأقل من مئة. معنى هذا أن الخمسين اكتسبت وال (مئة) فقدت. إذاً الحرارة تنتقل من الأجسام الساخنة إلى الباردة.

في يوم ما ستفقد الشمس جميع طاقتها، مما يعني أن التباعد ما بين المجرات سوف يتوقف! لهذا يجب أن نؤمن أن الكون سوف يتقلص وينطوي تدرجياً قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥۚ وَعْدًا عَلَيْنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾[1].

أكد الإمام علي عليه السلام أن الدنيا سوف تزول: «**ثم هو يفنيها بعد تكوينها**».

◎ ماذا بعد الانفجار العظيم؟؛

حتى هذه اللحظة لم تحسم الفيزياء هذا الموضوع والأقرب إلى الصحة قد يعود الكون إلى التراص مجدداً (الانطواء العظيم) ثم يحدث انفجار عظيم آخر يخلق كوناً ثانياً.

هذا الكلام كله صحيح وأنا أعتقد بحدوث انفجار آخر سيخلق لنا كوناً آخر، كاعتقادي بأن أصابع يدي الواحدة خمسة أصابع!! يجب على كل البشر أن يؤمنوا بأن الكون سينفني ثم يخلق من جديد!

الإمام علي عليه السلام أوضح هذه النظرية التي لم تحسمها الفيزياء حتى هذه اللحظة فقد أكد أن الدنيا سوف تعود بعد الفناء!!

قال الإمام علي عليه السلام: «**ثُمَّ يُعِيدُهَا بَعْدَ الْفَنَاءِ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ مِنْهُ إِلَيْهَا**».

◎ ماذا وراء الكون المحدب؟!![2]

كان الرأي الديني مسيطراً على جميع العلوم الطبيعية، وخلال القرنين المنصرمين انفصل الفلاسفة عن علماء الدين، وأصبح لكل فريق نظريته الخاصة.

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٤.

(٢) من الصعوبة علينا كبشر أن نعرف ماذا وراء هذا الكون، لأن عقلنا متجانس مع الكون المحدب، دعونا نتخيل أن أحد الأجسام (طول، عرض) هل يستطيع أن يصف هذا الجسم الارتفاع الذي يقف بجانبه؟ هو لا يصدق لو قلت له: أن هناك ارتفاعاً لهذا الجسم، لأن عقله لا يتصور جسماً بإبعاد ثلاثة. =

هذا السؤال صعب الإجابة! لماذا؟ إذا فرضنا أن وراء الكون المحدب هو العدم أو الفراغ أو اللاشيء؟ كيف خلقت هذه الأشياء قبل الكون المحدب؟ وإذا انطوى الكون المحدب هل سينطوي معه العدم الذي يحيط به؟

اعتقد الكثير من علماء الفيزياء أن ما وراء الكون المحدب هو اللاشيء أو العدم، وحين حدوث تضخم في الكون يُخلق من هذا العدم فضاءٌ ليتوسع فيه كوننا المحدب.

هذا هو الكلام الصحيح إن الكون يخلق فضاءً ليتوسع فيه!! علماء الدين اختلفت آراؤهم فبعضهم ذهب إلى أن ما وراء هذا الكون المحدب سماء ثانية كبيرة جداً مقارنة بالسماء الأولى وبطبيعة الحال سوف تكون محدبة! والسماء الثانية تحيط بها سماء ثالثة كبيرة ومحدبة وهكذا حتى نصل إلى السماء السابعة التي تحيط بالسماوات الست وهذه كبيرة جداً!!

وبعضهم ذهب إلى أن السماوات السبع هي الكواكب السيارة أو النجوم أو مساكن الملائكة، وهناك أقوال كثيرة جداً حول هذا الموضوع من أراد فعليه مراجعة كتب التفسير كتفسير الزمخشري وتفسير الميزان.

◎ جاء في تفسير الميزان للعلامة الطبطبائي:

إن المستفاد من ظاهر الآيات الكريمة - وليست بنص - أن السماء الدنيا من هذه السبع هي عالم النجوم والكواكب فوقنا.

وثانياً: أن هذه السماوات السبع المذكورة جميعاً من الخلق الجسماني فكأنها طبقات سبع متطابقة من عالم الأجسام أقربها منا عالم النجوم والكواكب، ولم يصف القرآن شيئاً من السماوات الست الباقية دون أن ذكر أنها طباق.

وثالثاً: أن ليس المراد بالسماوات السبع الأجرام العلوية أو خصوص بعضها كالشمس والقمر أو غيرهما.

= ولتقريب الصورة نحن غير قادرين على تخيل زوايا المثلث أكثر من (١٨٠) درجة، لأننا عشنا مع الأجسام المسطحة، لكن لا غرابة أن تكون زوايا المثلث (٢٧٠) درجة!

دعونا نتخيل نملة محبوسة في صندوق منذ خروجها من البيضة هل تستطيع هذه النملة أن تتصور أن هناك شمساً وقمراً يوجدان خلف الصندوق؟ هي لن تستطيع أن تتخيل أنه يوجد شيء خلف هذا الصندوق لأن تفكيرها لن يتعدى حدود الصندوق.

ورابعاً: أن ما ورد من كون السماوات مساكن للملائكة وأنهم ينزلون منها بأمر الله حاملين له ويعرجون إليها بكتب الأعمال، وأن للسماء أبواباً لا تفتح للكفار وأن الأشياء والأرزاق تنزل منها وغير ذلك مما تشير إليه متفرقات الآيات والروايات، يكشف عن أن لهذه الأمور نوعاً تعلق بهذه السماوات لا كتعلق ما نراه من الأجسام بمحالها وأماكنها الجسمانية الموجبة لحكومة النظام المادي فيها وتسرب التغير والتبدل والدثور والفتور إليها.

وذلك أن من الضروري اليوم أن لهذه الأجرام العلوية كائنة ما كانت كينونة عنصرية جسمانية تجري فيها نظائر الأحكام والآثار الجارية في عالمنا الأرضي العنصري والنظام الذي يثبت للسماء وأهلها والأمور الجارية فيها مما أشرنا إليه يباين هذا النظام العنصري المشهود.

أضف إلى ذلك ما ورد أن الملائكة خلقوا من نور، وأن غذاءهم التسبيح، وما ورد من توصيف خلقهم، وما ورد في توصيف خلق السماوات وما خلق فيها إلى غير ذلك.

فللملائكة عوالم ملكوتية سبعة مترتبة سميت سماوات سبعاً ونسبت ما لها من الخواص والآثار إلى ظاهر هذه السماوات بلحاظ ما لها من العلو والإحاطة بالنسبة إلى الأرض تسهيلاً للفهم الساذج[١].

إن ما يجعل علماء الفيزياء ينكرون السماوات السبع هو أنه لا توجد قوانين طبيعية قادرة على تفسير هذه السماوات!

دعونا نسلم أن العدم أو الفراغ أو اللاشيء (مصطلحات لمفهوم واحد أو أشياء متفرقة لمفهوم واحد) هي التي تحيط بالكون المحدب! ألا يحق لنا أن نسأل: إلى أين يمتد هذا الفراغ أو العدم أو اللاشيء الذي يحيط بالكون المحدب؟ هل يمتد إلى ما لا نهاية؟!. دعونا نسلم أيضاً أن هناك سبع سماوات، نتخيل السماء الأولى المحدبة بالونة، تحيط بها بالونة أكبر منها بكثير..! لكن ماذا يوجد خلف البالونة السابعة؟ لتوضيح المسألة، ما الذي يحيط بالسماء السابعة التي تحيط بالسماوات الست؟!

هناك بحوث معقدة طرحت في هذا المقام لا يتسع المقام لذكرها وكان من ضمن البحوث التي اطلعت عليها بحث في ما وراء الكون الأحدب تأليف غفوري محمد

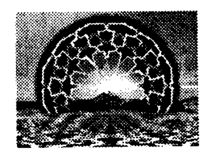
---

(١) يراجع تفسير الميزان.

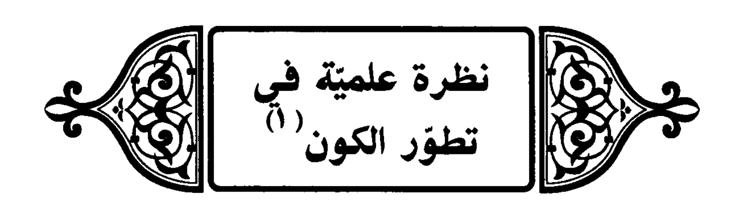
حسين إن الجنة تحيط بالسماء السابعة ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1]، إذا كانت الجنة تحيط بالسماء السابعة، فأين توجد النار؟؟ هل تحيط بالسماء السابعة أو في عالم آخر وما هو المقدار الذي يفصل بين الجنة والنار؟؟!!

صحيح إننا نجتهد أن نفسير القرآن بتفسير علمي، لكن علينا أن نعترف بجهلنا أمام هذا الكون المحدب وماذا يحيط به؟ علينا أن نمرغ كل يوم أنفنا في التراب ونصرخ بهذه الآية: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[2]. لن تشرق شمس ذاك اليوم الذي يقول فيه البشر: نحن الآن نعلم كل شيء!!!

يقول أنشتاين: (. . . إن أرضنا بتاريخها الجيولوجي وعمر إنسانها القصير بالنسبة إلى الكون الفسيح أقرب شيء إلى ذرة رمل من رمال (ريورا) الكثيفة). هذه الأرض لا تشكل إلا أقل من أقل ما يتصوره عقلنا بالنسبة للكون المحدب!. هذا الكون المحدب يجب أن نقف أمامه باستسلام يجب أن نعترف أن العلم الذي توصلنا إليه في القرن الواحد والعشرين عن هذا الكون المحدب ليس إلا أقل من نقطة في مياه هذا الكون؟ الثقوب السوداء. . . الثقوب البيضاء. . . الثقوب الأولية. . . لحظة الانفجار. . . ماذا كان قبل الانفجار؟؟



(١) سورة آل عمران، الآية: ١٣٣.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.



نظرة علميّة في تطوّر الكون[١]

قبل نحو ١٢ بليون سنة، انبثق الكون من خضمّ من مادة وطاقة بالغ السخونة والكثافة، وبينما كان الكون يتوسع ويتبرّد كان يُفرخ مجرات ونجوماً وكواكب وكائنات حيّة.

في لحظة معينة قبل نحو ١٢ بليون سنة، كانت المادة والطاقة اللتان يمكن رصدهما، مركّزتين في منطقة أصغر من قطعة نقود صغيرة أخذت تتوسع وتتبرد بسرعة مذهلة. وبانخفاض حرارة الكون إلى نحو مئة مليون ضعف حرارة قلب (لب) الشمس[٢]، صارت قوى الطبيعة تتمتع بخصائصها الحالية، وأخذت الجسيمات الأولية[٣]، المرفوعة بالكواركات quarks، تسرح بحرية في خضم الطاقة. وعندما ازداد توسع الكون إلى ألف ضعف إضافي، صارت جميع المادة التي يمكن قياسها، تملأ حجماً بنحو حجم المنظومة الشمسية.

في ذلك الوقت، صارت الكواركات محصورة في النيوترونات neutrons

---

(١) عن مجلة العلوم ٧/٨/ ٢٠٠٠ والمؤلفون:
P.J.E. Peebles - D.N. Schramm -E.L Turner - R.G. Kron
حاز كل منهم مرتبة شرف عالية على أعماله في مجال تطور الكون، «بيليز» هو أستاذ الفيزياء في جامعة برنستون، وفيها بدأ عام ١٩٥٨ بحوثه الشهيرة في الفيزياء التثاقلية، ويقضي معظم أوقات فراغه مع أحفاده، «ترنر» هو رئيس قسم الفيزياء الفكلية في جامعة برنستون ومدير المقراب ARC (٣،٥متر) المقام في نيومكسيكو، وله اهتمامات شخصية وثقافية ودينية باليابان. أما «كرون» فيعمل في قسم الفلك والفيزياء الفلكية بجامعة شيكاغو، وهو أيضاً عضو في فريق الفيزياء الفلكية التجريبية بمختبر فرمي الوطني، يمتع نفسه برصد المجرات النائية، وأما «شرام» فكان أستاذ العلوم الفيزيائية ونائب رئيس جامعة شيكاغو للأبحاث، وقد توفي إثر حادث تحطم طائرة وقع أثناء الإعداد لنشرها هذا العدد الخاص.

(٢) sun's core.

(٣) elementary particles. ticles.

والبروتونات protonsوبعد أن تضاعف حجم الكون ألف مرة أخرى، اتحدت البروتنات والنيوترونات لتشكل نوى ذرية atomic nuclei، متضمنة معظم الهليون helium والدوتريوم deuterium الموجودين اليوم. قد حدث هذا كله خلال الدقيقة الأولى من توسع الكون، ولكن الحرارة الهائلة التي اكتنفت الكون حينذاك لم تسمح للنوى الذرية بأن تمسك بإلكترونات. لذا لم تظهر الذرات الحيادية neutral atoms بغزارة إلاّ بعد أن استمر التوسع لمدة ٣٠٠,٠٠٠سنة، وعندها كان الكون أصغر مما هو عليه الآن بألف مرة، وعندئذ بدأت الذرات الحيادية بالتجمع مشكلة غيوماً غازيّة، تطورت لاحقاً وصارت نجوماً، وقبيل توسع الكون ليبلغ خمس حجمه الحالي، كانت النجوم قد شكّلت مجموعات تُعرف بالمجرات الفتية young galaxies.

وعندما بلغ الكون في توسعه نصف حجمه الحالي، كانت التفاعلات النووية في النجوم قد أنتجت معظم العناصر الثقيلة التي تكوّنت منها الكواكب الأرضية[١] terrestrial planets. أما منظومتنا الشمسية فإنها فتية نسبياً، لقد تشكلت قبل نحو خمسة بلايين سنة، عندما كان الكون في ثلثي حجمه الحالي، وبمرور الزمن استهلكت عملية تشكل النجوم ذخيرة الغاز في المجرات، ومن ثمّ خارت قوى النجوم، وبعد خمسة عشر بليون سنة من الآن سيكون من النادر وجود نجوم متشابهة لشمسنا، الأمر الذي سيجعل الكون حينها مكاناً أقل ملاءمة إلى حد كبير لكائنات مثلنا.

إن ما نعرفه عن تشكل الكون وتطوره هو أحد أعظم إنجازات العلم في القرن العشرين وهذه المعرفة هي حصيلة تجارب ونظريات مبتكرة على مدى عقود من السنين. فالمقاريب[٢] الحديثة المقامة على الأرض وتلك التي تسبح في الفضاء، تستكشف ضوء مجرات تبعد عن كوكبنا بلايين السنين الضوئية، مبيّنة لنا هيئة هذا الكون عندما كان فتياً. كما تسبر المسرّعات الجسيمية[٣] غور الأسس الفيزيائية للبيئة العالية الطاقة والتي كانت تكتنف الكون في شبابه. وتستشعرالسواتل[٤] إشعاع الخلفية الكونية[٥] المتبقي من المراحل المبكرة من توسع الكون، مزودة إيانا بصورة عن الكون في أوسع مدى يمكننا رصده.

---

(١) كواكب على شاكلة أرضنا.
(٢) telescopes.
(٣) particel accelerators.
(٤) satellites أو الأقمار الصنعية.
(٥) cosmic background rasiation.

إن أفضل جهودنا لتفسير هذه الثروة من البيانات تندرج ضمن نظرية تُعرف بالنموذج الكوسمولوجي المعياري model the standard cosmology ical أو كوسمولوجيا الانفجار الأعظم the big bang cosmological وأهم ما تقوله هذه النظرية: هو أن الكون- في المتوسط على النطاق الواسع[١] - أخذ في التوسع انطلاقاً من حالة كثيفة ولا يوجد في الوقت الحاضر ما يناقض بشكل أساسي نظرية الانفجار الأعظم، مع أنه بالتأكيد ما زالت هناك قضايا ضمن النظرية ذاتها لم تحل بعد. فمثلاً ما زال الكوسمولوجيون، غير متأكدين من الكيفية التي تشكلت بها المجرات، لكن ليس ثمة سبب للاعتقاد بأن السيرورة لم تحدث ضمن إطار الانفجار الأعظم والواقع إن تنبؤوات نظرية الانفجار الأعظم حققت حتى الآن جميع الاختبارات التي أخضعت لها.

ومع ذلك فإن نموذج الانفجارالأعظم لا يذهب أبعد من ذلك، وما زال هناك العديد من الأسرار الغامضة فكيف كان الكون قبل أن يبدأ توسعه؟ (ليس في أرصادنا ما يمكننا من معرفة أي شيء عن حالة الكون قبل لحظة بدء توسعه) وماذا سيحصل في المستقبل البعيد عندما تستنفد آخر النجوم ذخيرتها من الوقود النووي؟ لا أحد يعرف بعد الأجوبة عن مثل السؤالين.

يمكن النظر إلى كوننا من عدة منطلقات: صوفي، ديني، فلسفي، أو علمي في العلم نتبنى أسلوباً متأنيّاً، فلا نقبل إلا ما تمّ اختباره أو رصده. لقد زوّدنا (ألبرت أينشتاين) بنظرية النسبية العامة، وهي الآن مجربة جيداً ومقبولة، وهذه النظرية تُعبّر عن العلاقات بين الكتلة، الطاقة، الفضاء، والزمن، قد بيّن أينشتاين أن توزّع المادة في الفضاء توزّعاً متجانساً يتفق بشكل جيد مع نظريته. وقد افترض من دون إثبات أن الكون سكوني static وهو لا متغير في التوسط على النطاق الواسع.

في عام١٩٢٢ - تحقق الباحث الروسي (.A.A فريدمان) من أن كون أينشتاين[٢] غير مستقر unstale، إذ أن أي اضطراب مهما صغر يسبب توسع هذا الكون أو انكماشه وفي ذلك الوقت، كان (V.M سلايفر) (الباحث في المرصد lowell) قد جمع الدليل الأوّل على أن المجرات تتباعد بالفعل بعضها عن بعض، وبعد ذلك في عام١٩٢٩، أثبت الفلكي اللامع (P.E هَبْل) أن ابتعاد مجرة عنا يجري بسرعة تتناسب تقريباً مع بُعدها عنا.

---

(١) in the large - scale average.

(٢) Einstein's universe

إن وجودها كون يتوسع يقتضي أن هذا الكون كان قد تطور من كتلة مادية بالغة الكثافة إلى المجرات المنتشرة حالياً انتشاراً بعيد المدى، وكان الكوسمولوجي البريطاني (F. هويل) أول من دعا هذه السيرورة (الانفجار الأعظم) big bang، وذلك تهكماً من النظرية التي تكهنت بحدوثها ، لكن هذه التسمية كانت من النوع الذي يعلق بأذهان الناس لدرجة أنها اكتسبت شعبية كبيرة. بيد أنه من المضلّل إلى حدّ ما أن يوصف التوسع وكأنه نوع من انفجار كتلة مادية مركزة في نقطة معينة في الفضاء.

وهذه ليست الصورة على الإطلاق، ففي كون أينشتاين يترابط مفهوم الفضاء ترابطاً وثيقاً بمفهوم توزع المادة، ذلك أن توسع نظام المجرات[١] الذي تم رصده، إنما يُبين أن الفضاء نفسه ينتشر[٢] من وضع كان فيه مطوياً أكثر، وللنظرية سمة جوهرية وهي أن الكثافة الوسطية[٣] في الفضاء تتناقص مع توسّع الكون، فتوزع المادة لا يشكل حدّاً[٤] يُرصد في انفجار عادي تنطلق أسرع الجسيمات إلى فضاء خال، لكن في كوسمولوجيا الانفجار الأعظم[٥] فإن الجسيمات تملأ الفضاء كله على نسق واحد، وقد كان لتوسع الكون تأثير ضئيل في حجم المجرّات وحتى في حجم مجموعات المجرات المترابطة بالثقالة gravitỹ فالفضاء فقط هو الذي يتفتح فيما بينها وبهذا المعنى يشبهه توسع الكون انتفاخ رغيف من خبز الزبيب[٦]، فالعجينة تشبه الفضاء، وحبات الزبيب فيها تشبه مجموعات المجرات وبانتفاخ العجينة تتباعد حبات الزبيب بعضها عن بعض، إضافة إلى ذلك فإن سرعة هذا التباعد بين أية حبتين تتعلق مباشرة وبكل تأكيد بكمية العجين التي تفصل بينهما.

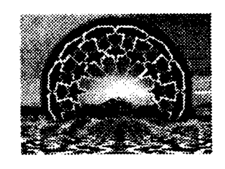
وقد استغرق تجميع الدلائل على توسع الكون قرابة٦٠ عاماً، وكان الانزياح الطيفي نحو الأحمر[٧] أول دليل مهم من هذه الدلائل. فالمجرات تصدر أو تمتص الضوء تبعاً لأطواله الموجية[٨]. فإذا كانت المجرة تبتعد عنا، ينزاح طيفا[٩] الإصدار والامتصاص نحو الأطوال الموجية الكبيرة وهذا الانزياح يزداد مع ازدياد سرعة ابتعاد المجرّة عنا.

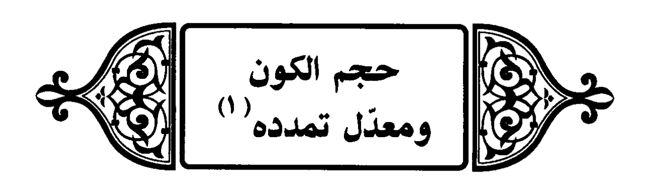
---

(١) system of galaxies.
(٢) unfolding.
(٣) average density.
(٤) edge.
(٥) the big bang cosmology.
(٦) raisin bread
(٧) redshifts.
(٨) wavelengths.
(٩) spectrum طيف.

◎ قانون هبل

لقد دلّت القياسات التي أجراها هَبْل على أن الانزياح الطيفي نحو الأحمر لمجرة بعيدة هو أكبر من الانزياح المقابل لمجرة أقرب إلى الأرض. وهذه العلاقة، المعروفة الآن بقانون هبل، هي تماماً ما يتوقعه المرء في كون يتوسع بانتظام وينص قانون هبل على أن سرعة تراجع مجرة تساوي المسافة التي تفصلها عن الأرض مضروبة بعدد ثابت يسمى ثابت هبل Hubble's constant. هذا وإن الانزياح الطيفي نحو الأحمر لمجرة قريبة منا ضعيف نسبياً ويتطلب كشفه أجهزة جيدة الدقة. أما الانزياح المقابل لجرم سماوي بعيد جداً عن الأرض - كالمجرات الراديوية والكوازارات - فهو ظاهرة رائعة؛ فبعض هذه الأجرام يبدو أنه يبتعد عن الأرض بسرعة تبلغ نحو ٩٠ في المائة من سرعة الضوء.





حجم الكون ومعدّل تمدده[(١)]

تتباعد مجرة درب التبانة، وجميع المجرّات الأخرى بعضها عن بعض نتيجة الانفجار الأعظم big bang أو الميلاد الناري للكون ولقد اكتشف الكوسمولوجيون (علماء الكونيّات) cosmologists هذا التمدد خلال القرن العشرين، وسجلوا إشعاع الخلفية المكروي الموجه من الانفجار الأصلي واستخلصوا أصل العناصر الكيميائية في الكون، ثم رسموا خريطة بعيدة المدى لبنية المجرات وحركتها، وعلى الرغم من هذه الانجازات، والعديد غيرها، تبقى الأسئلة الأولية بلا إجابة، فمتى بدأ التمدد الهائل؟ وهل سيستمر تمدد الكون إلى الأبد؟ أو أنه سيتوقف بفعل الثقالة في النهاية، فينهار على نفسه ثانية؟.

وعلى مدى عشرات السنين حاول الكوسمولوجيون الإجابة عن مثل هذه التساؤلات بقياس حجم الكون ومعدل تمدده، وعلى الفلكيين، لإنجاز هذه المهمة، أن يعينوا سرعات تحرك المجرّات والمسافات التي تفصلنا عنها، إن تقنيات قياس سرعات المجرات قد تحققت بصورة جيدة، أما حساب المسافات إلى المجرات، فقد ثبت أنه مهمة تنطوي على تحد كبير وخلال العقد الماضي ابتكرت عدة مجموعات من الفلكيين، كل على حدة، طرقاً أفضل لقياس المسافات إلى المجرات، وأدى هذا إلى تقديرات جديدة تماماً لعدل التمدد، ومنذ عهد قريب أدى الميز resolution الاستثنائي لمقراب هَبْل الفضائي إلى توسيع وتقوية معايرة مقياس المسافات خارج مجرتنا، مما أدى إلى تقديرات أحدث لمعدل التمدد.

وفي وقتنا الحالي، تشير شواهد عديدة إلى معدل تمدد مرتفع وهو ما يعني أن الكون فتي نسبياً وربما يكون عمره١٠ بلايين سنة فقط، وتوحي هذه الشواهد أيضاً بأن تمدد

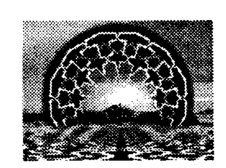
---

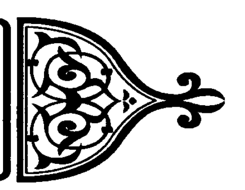
(١) The Expansion Rate and Size of the Universe، وهذه نسخة معدلة من مقالة نشرت بعنوان: (معدل تمدد الكون وحجمه) في والعددين ٦/٧ (١٩٩٤) من العلوم.

الكون قد يستمر إلى ما لا نهاية، ومع ذلك، فإن كثيراً، من الفلكيين والكوسمولوجين لا يؤمنون بحتمية هذه الشواهد، وإننا، حقاً، لفي جدل دائم حول كفاءات تقنياتنا.

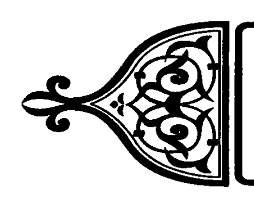
إن القياس الدقيق لمعدل التمدد أمر أساسي، لا لتحديد عمر الكون ومصيره فقط، وإنما أيضاً لضبط نظريات الكوسمولوجيا (علم الكونيّات) cosmology ونماذج تكون المجرات، إضافة إلى أن ذلك ضروري لتقدير الكميات الأساسية بدءاً من تعرّف كثافة أخف العناصر (كالهدروجين والهليوم) إلى تحديد كمية المادة المعتمة nonlominous في المجرات وفي الحشود المجرية أيضاً، ولما كانت القياسات الدقيقة للمسافات مطلوبة لحساب ضيائية (تألق) luminosity الأجرام الفلكية وكتلها وحجومها، فإن موضوع مقياس المسافة الكونيّة، أو معدل التمدد، يؤثر في حقل علم فلك خارج المجرة بكامله.

بدأ الفلكيون قياس معدل تمدد الكون منذ نحو ٧٠ سنة ففي عام١٩٢٩ أبدى الفلكي البارز (p. p. هبل) (من مراصد معهد كارنيكي) ملاحظة لافتة للنظر هي أن سرعة تراجع recession مجرة ما تتناسب مع المسافة التي تفصلنا عنها، وأمدّتنا هذه الملاحظة بأول برهان على أن الكون كله دائم التمدد.





خواصّ الكون واحدة «المبدأ الكوني»



تمكن العلماء أن يحددوا العديد من خصائص الكون، فعرفوا أنها واحدة في كل مكانٍ منه، مما يشهد لخالقها بالألوهية، والوِحدانية.

١- **التجانسية** (Homogeneity): أي أن المادة ليست متجمعةً كلها في مكانٍ واحد من الكون، أو في تجمعاتٍ عظيمة في مواضعَ دون غيرها، بل إنها منتشرة فيه بصورةٍ متجانسةٍ تقريباً.

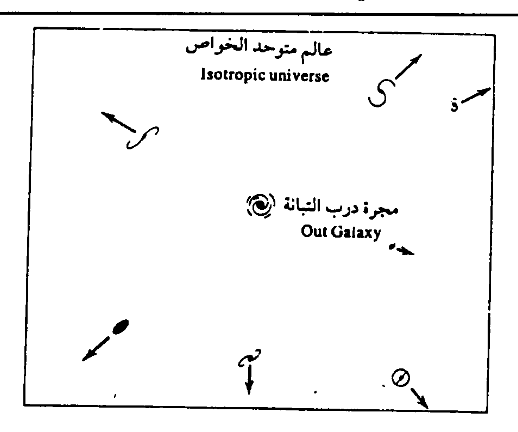
٢ - **توحّد الخواص** (Isotropy): إن الخواص التي يتصف بها الكون واحدة. فالمجرّات والأجرام الموزعة في أرجائه، ورغم اختلاف سرعاتها، إلاّ أنها متجانسة في أسلوب حركاتها وتناسقها على نحوٍ مُحكمٍ واحد بديع، وبكل ما فيه، وعلى الرغم من المسافات الشاسعة التي تفصل مكوناته عن بعضها.

٣ - **التماثلية** (Uniformity): إنّ الكون متماثلٌ ومتجانس في صفاته، والمجرّات لا تختلف عن بعضها البعض إلاّ في مظاهرَ سطحية، وتتماثل خواصها مع بعضها، وكا الاختلافات الموجودة فيما بينها تُعزى إلى مراحل تطورها المختلفة. وتدعم ذلك الخواص الفيزياوية والكيماوية الموجودة في المجرّات، وفي أيّ مكانٍ أو زمانٍ وُجدت.

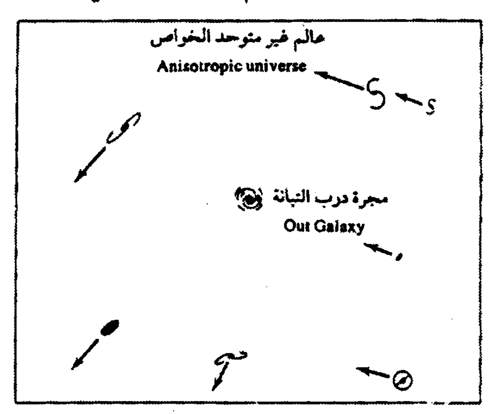
٤ - **الشمولية** (Universality): إن القوانين الفيزياوية المكتشفة والمنطبقة على الأرض هي هي نفسها القوانين الفيزياوية التي تحكم أرجاء الكون بأسره، وحدةً واحدةً متكاملة (انظر الشكل في الصفحة التالية).

السرعات التناظرية في الكون. مقارنة بين عالمٍ متوحّد الخواص وآخر مختلف الخواص.

وفي المسافات البعيدة، حيث تكون القياسات بملايين السنين الضوئية، فإن الكون يتميز بكونه متجانساً ومتماثلاً، وهي حقيقةٌ قد أسميت بـ«المبدأ الكوني» (Cosmological Principlè). وهكذا فإن الخصائص الكونية الخاضعة للمقاييس الكبيرة هي هي في كل مكان. ورغم وجود تغيرات موضعية فإن الناس كلهم، وعلى



مقارنة بين التجانسية وعدم التجانسية في الكون

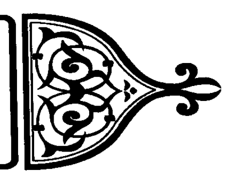


جميع الكواكب، يرون الخصائص العامة عينها ممّا يشمل المقاييس الكونية. وكل مخلوق، على أي كوكبٍ كان، يشاهد مجرّاتٍ، وعناقيد مجرّاتٍ معينة ومنتشرة في أعماق الفضاء كالتي نراها نحن(١).

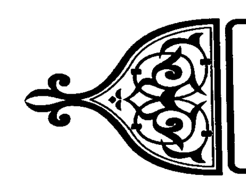
والخَلْق الواحد آيةٌ تدل على الخالق الواحد.

---

(١) مصادر:
«هذا الكون العجيب، من الذرة إلى المجرة».
«المجرات والكوازرات»، وليم ج. كاوفمان. ص١٠٥.
«قصة نشوء الكون»، د. مخلص الريس ود. علي موسى، الفصل العاشر: نماذج الكون.



نظام وجمال في كلِّ مكانٍ وزمان في الكون



لو تصادف أنك رأيت، في مكانٍ ما، في زمن ما، مزرعة صغيرة، أو أحجاراً على شكل كوخٍ صغير بسيط، يُريك الواحد منها نظاماً واتّساقاً، وجمالاً وسحراً، فإن المصادفة البحت قد تكون هي السبب في حدوث مثل ذلك، في مكانٍ وزمانٍ بعينهما.

لا مكان للمصادفة في وجودهما بل هما آيةٌ على صنع الصانع وخلق الخالق

لكن العلماء يقولون بأن وجود النظام، والجمال، عامَّيْنِ، شامليْن، مستمرَّين، في الكون كله، فإنّ ذلك يدلّ، لا محالة، وبالبداهة على صُنع الصانع، وتنظيم المُنظِّم، وإبداع المُبدِع.

وأنْ ترى التدبير المُتقَن، والسُّنَن المحكمة التي لا حياد عنها، والجمال الرائع، والنظام الفائق، تسود الكون كله، فَلَعمري لإنّه الدليلُ الذي لا يُنقَض على قدرة القادر، وخَلْق الخالق، مِنْ إلَهٍ واحد في ملكوته الذي لم نعرف له حدوداً في الزمان والمكان.

جاء في كتاب «العالم في منظوره الجديد»[1]:

---

(١) لروبرت أوغروس وجورج ستونكيو (١٩٨٤)، وأحدهما متخصص في فلسفة العلم، والآخر رئيس كلية الرياضيات والعلوم في إحدى الجامعات الكندية. ترجمة الدكتور كمال خلايلي.
والهدف الذي يرمي إليه المؤلفان حسب قول مترجمه هو «هدم أركان الماديّة العلمية، تلك النظرة الكونية التي استهلت في مطلع القرن ١٧ واستمرّت إلى العقود الأولى من القرن الـ٢٠، ثم إثبات وجود الله تعالى وبيان الحكمة والغاية من إبداع الكون وخلق الإنسان، وذلك بالاستناد إلى النتائج التي انتهى إليها أقطاب العلماء والباحثين والمعاصرين في مجالات الفيزياء والكوزمولوجيا (الكون) وبحوث الأعصاب وجراحة الدماغ وعلم النفس الإنساني.
وقد سمّى المؤلفان المذهب الماديّ النظرةَ العلمية القديمة، وأسميا نتائج أبحاث واكتشافات الفيزياء الحديثة والكوزمولوجيا الحديثة، النظرة العلمية الجديدة».

«إننا جميعاً نحسّ بالنفور من إيديولوجية لا ترى الوجود، وهي تغرس في النفوس اليأس الدائم (ويقصد الإيديولوجية المادّية). أمّا جاذبية النظرة الجديدة المضادّة للمادية، فهي تستبدل بهذه القسوة الفظيعة غائيّة - أي غاية - الوجود وخالق الكون والجمال والثروات الروحية وكرامة الإنسان.

وترى النظرة العلمية الجديدة أن الكون بمجموعه - بما في ذلك المادة والطاقة والمكان والزمان - حَدَثٌ وقع في وقتٍ واحد، وكانت له بداية محدّدة، ولكن لا بدّ من أنّ شيئاً ما كان موجوداً على الدوام، لأنّه إذا لم يوجد أي شيء من قبل على الإطلاق، فلا شيء يمكن أن يوجد الآن، فالعَدَم لا يُنتج إلاّ العَدَم. والكون الماديّ لا يمكن أن يكون ذلك الشيء الذي كان موجوداً على الدوام، لأنه كان للمادّة بدايةٌ، وتاريخ هذه البداية يرجع إلى ما قبل ١٢ إلى ٢٠ مليار سنة، ومعنى ذلك أنّ أيَّ شيء وُجِدَ دائماً هو شيءٌ غير مادّي. ويبدو أنّ الحقيقة غير المادّية الوحيدة هي الخالق، فإذا كان الخالق هو الشيء الذي وُجِدَ دائماً فلا بدّ من أن تكون المادة من خَلْقِ خَالِقٍ أزلي الوجود، وهذا يُشير إلى وجود خالقٍ أزلي خَلَقَ كل الأشياء، وهذا الخالق هو الذي نعنيه بعبارة «الله».

إن خواصّ المادة تبدو ملائِمةً للحياة ملاوَمَةً فَذَّة، بل إنّ حدوث أدنى زيادة أو نقصان في الكمية الثابتة يجعل من الحياة في كل حالةٍ أمراً مستحيلاً، وهو ما يدلّ على العناية المستهدَفة - لا على المصادفة.

والنظرة العلمية الجديدة لا تقتصر على تأكيد أوّليَّة (الخالق) للكون، بل هي تؤكِّد أيضاً أنّ الجمال جزءٌ من بُنية العالَم.

هناك، دائماً، عقلٌ مسؤول عن جمال الطبيعة، وهذ الخالق القائم وراء الطبيعة يُطلِق عليه كل الناس اسم الله.

والبشر يلحظون يد الله من ندفة الثلج، ومن غروب الشمس، وفي حقل الأعشاب، وعظمة الجمال تحملُ توقيع الله لا تَشبهَةَ فيه.

يقول «توماس مان»: الجمال وحده إلَهيٌّ ومرئيٌّ في آنٍ معاً. أمّا «أمرسون» فيقدم لنا النصيحة التالية: إيّاك أن تُفوِّت أية فرصة لمشاهدة أي شيءٍ جميل، لأنّ الجمال خُطَّ بيد الله، إنه قُدّاسٌ يُقام على جانب الطريق. رَحِّبْ بالجمال في كلِّ سماءٍ صافية، ومن كلِّ زهرةٍ جميلة، وأشكر الله على ذلك، إنّه كأس بركة.

---

(١) واجب الوجود: هو الذي يكون وجوده من ذاته، وهو الله عزَّ وجلَّ.

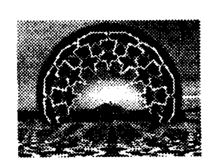
وهكذا ففي النظرة العلمية الجديدة نجد أنّ أصل الكون وبُنْيَتَهُ وجماله تُفضي جميعاً إلى النتيجة نفسها، وهي أن الله واجب الوجود»[١].

إن كل المخلوقات، من حيوانٍ ونبات، توحي بالجلال، والاحترام لها، بالجمال، وكمال الخَلْقِ، وهي تبدو «مبرمجة» أو مخلوقة هكذا، لا تحيد عن ذلك. فهل قد رأيت طيراً لا يبني عشّه أو يُطعِمُ فراخه؟ أم رأيتَ حيواناً لم يهبه الله الذكاء والمقدرة على تحصيل رزقه، أو الدفاع عن نفسه؟ حقّاً إنّ هذه المخلوقات لا تعرف الهزل، فهي جدّيّةٌ ولكن في وداعة، غريبةٌ ولكن في جمال، وبسيطةٌ ولكن في جلالٍ آسِر.

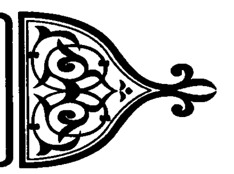
إنّ كلاًّ منها تسير على الطريق التي اختطّها الخالقُ لها طائعةً ملبّيةً، وهي تسبّح بحمد ربّها كلها. إنها لا تعرف الكذب أو المصانعة، بل هي متّسقةٌ مع نفسها ومع ما حولها، بل ومع الكون جميعاً، في تناغمٍ عجيب وجمالٍ بديع. فتعالى الله الظاهر بعجائب تدبيره للناظرين، والباطن بجلال عزّته عن فكرة المتوهمين».

● **عن عمرو بن شمر، عن سلمة بن كهيل، عن أبي الهيثم بن التيّهان، أنّ أمير المؤمنين عليه السلام خطب الناس بالمدينة فقال:**

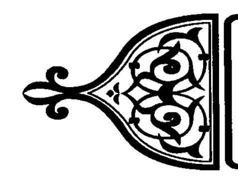
الحمد لله الّذي لا إلَه إلاّ هو، كان حيّاً بلا كيفٍ، ولم يكن له كان - إلى قوله - ولا قوي بعد ما كوَّن شيئاً، ولا كان ضعيفاً قبل أن يكوّن شيئاً، ولا كان مستوحشاً قبل أن يبتدع شيئاً، ولا يشبه شيئاً، ولا كان خلواً من الملك قبل إنشائه، ولا يكون خلواً منه بعد ذهابه، كان إلَهاً حيّاً بلا حياة، ومالكاً قبل أن يكون ينشيء شيئاً، ومالكاً بعد إنشائه للكون[٢].



(١) روضة الكافي: ٣١، البحار ج٥٤ ص١٥٩، ح٩١.



متى وكيف وجدت المادّة؟



عندما ينتهي الحديث عن هذه المرحلة ينتقل الكلام إلى المرحلة الثانية، فيقفز السؤال التالي إلى الذهن على الفور: هذه المادة، الطبيعة، متى وجدت وكيف؟.

يقول هيجل: «لا شيء أزلي سوى المادة»[١].

ويقول الكتّاب السوفييت في بحثهم الموسع عن المادة:

«الفلاسفة الذين يعترفون بأولويّة المادة يدعون بالماديّين، وهم يعتبرون أن العالم الذي يحيط بنا لم يخلقه أحد وأن الطبيعة موجودة أزلياً»[٢].

ثم يقولون:

«وكل تطور علم الطبيعة يبرهن على أن الطبيعة ليست مخلوقة ويدل على أزلية المادة»[٣].

ويقول كتاب سوفييت آخرون:

«تثبت الخبرة البشرية على مرّ العصور، عدم إمكان نشوء أهداف مادية من لا شيء، وهذا يعني أن المادة وُجدت منذ الأزل وستبقى إلى الإبد»[٤].

---

(١) النظرة المادية في المعرفة: ١٢٠، ومن المناسب هنا أن نروي ما ذكره ولتر ستيس في تحديد معنى الأزل إذ قال:
«إن الأزل ليس امتداداً لا حد له، أو استمراراً لا نهاية له وللزمان، فهو لا يمت بأدنى صلة إلى الزمان...».
ثم يقول:
«الحق أن هناك نظامين: النظام الطبيعي الذي هو نظام الزمان، والنظام الإلّهي الذي هو نظام الأزل». عن كتاب الزمان والأزل: ١٧٣ - ١٧٤.

(٢) المادية الديالكتيكية: ٣.

(٣) المصدر نفسه: /٨.

(٤) الناس والعلم والمجتمع: ١٤.

ويقول الكاتبان السوفييتيان سبيركين وياخوت:

«إنها وجدت دائماً ومنذ الأزل»، ثم يتساءلان: «كيف إذن تثبت هذه النتيجة الهامة»؟. ويستشهدان في الجواب بما يرويانه عن العالم الروسي م.ف. لومونوسوف إذ يقول:

«في الطبيعة لا ينشأ شيء من لا شيء ولا يختفي أبداً بلا أثر. ولكن إذا كان الأمر كذلك فإن المادة الطبيعة قد وجدت دائماً، لأننا إذا سلّمنا بأنه في وقت من الأوقات لم يكن هناك شيء في العالم أي لم تكن توجد مادة فمن أين لها أن تنشأ. ولكن ما إن توجد المادة، فهذا يعني أنها لم تنشأ في أي وقت من الأوقات، بل وجدت دائماً وستوجد دائماً»[1].

إن المتأمل في هذه النصوص يجد أنها مجموعة أحكام بلا برهان، بل بلا إشارة إلى لمحة دليل أو قبسة تبرير، ولعل النص الأخير يكشف لنا فراغ هؤلاء من الدليل إلى درجة الصفر، لأنّهم يرون أن عدم الاعتراف بأزلية المادة معناه التساؤل: «من أين لها أن تنشأ»، وحيث أن الفرار من هذا التساؤل ضروري فلا بدّ أنها أزليّة!.

وهل يرى إنسان له فهم وشعور أن في طي هذه الجمل دليلاً أو كلاماً منطقياً مقبولاً؟.

ومن هنا نجد أن اعتراف ذلك الكاتب المادي كان أكثر صراحة ووضوحاً عندما قال:

«لماذا لا نفترض أن المادة الأولى غير معلولة الوجود، وبذلك يحسم النقاش دون اللجوء إلى عالم الغيبيات»[2].

وهكذا تنتهي المسألة وتتبخر المشكلة!.

وعلى كل إنسان - كما يريد الماديون - أن يذعن ويرضخ ولا يحتج.

«افتراض» أن المادة الأولى غير معلولة الوجود.

و«افتراض» أن هذه المادة - بحكم أزليتها - هي الموجد الأول.

ثم «التأكيد» على ضرورة الإقرار بهذا «الافتراض»، لأنه لو «لم تكن توجد مادة فمن أين لها أن تنشأ».

---

(١) أسس المادية: ٣٠ - ٣١.
(٢) نقد الفكر الديني: ٢٨.

ولا مانع أن تبنى مسألة خلق العالم على هذه «الافتراضات»! ما دام ذلك حاسماً للنقاش، ومنقذاً للناس من اللجوء إلى عالم الغيبيات!.

وهكذا تتجلى الحجة، ويسدل الستار على المشكلة.

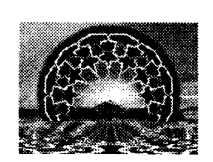
وقد نسي هؤلاء «أن الكلام على أنه في مبدأ الكون كانت المادة ولا شيء غير المادة، وأن المادة سابقة في الظهور إطلاقاً» هو لجوء إلى عالم الغيبيات بل اقتحام لجة الغيب إلى أعمق الأعماق.

وما أجمل ما علّق به الدكتور (فرانك ألن) أستاذ الطبيعة الجوية بكندا على مثل هذا الكلام إذ يقول:

«من يذهب إلى أن هذا الكون أزلي ليس لنشأته بداية يشترك مع الرأي القائل بوجود خالق لهذا الكون، في عنصر الأزلية. ونحن في هذا إمّا أن ننسب صفة الأزلية إلى عالم ميت أن ننسبها إلى إلة حي»[١].

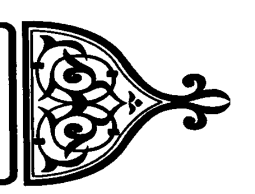
ويقول أحد الكتاب المسلمين معلقاً على زعم أزلية المادة:

ولقد «بدأوا من افتراض خاطىء وهو أزليّة المادة، اعتباراً من أن تسلسل الزمن في الماضي إلى آجال سحيقة يمكن أن يوصلنا إلى الأزل أو اللا نهاية، وهو خطأ، فالزمن كمية محدودة، ومهما أضيفت كميات محدودة إلى كميات محدودة، فالنتيجة لا تكون إلا كمية محدودة، ولا نصل مهما استرسلنا في الجمع والإضافة إلى اللا نهاية وبالتالي إلى الأزل»[٢].

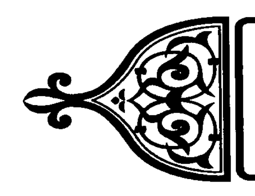


(١) الله يتجلى في عصر العلم: ٦.

(٢) راجع كتاب الله، للدكتور مصطفى محمود: ١٠٦ - ١٠٧.



هل الحركة أسبق من المادة...؟



ومهما يكن من أمر، فقد أكد هؤلاء الماديون أن المادة أزلية. ومعنى ذلك بصريح العبارة أنها موجودة منذ الزمن اللانهائي و «ولم يخلقها إله ولا إنسان» على حد تعبيرهم.

وإذن. فكيف صحّ من هؤلاء الماديين أن يقولوا في مكان آخر من بحوثهم: «إن الحركة هي وسيلة وجود المادة»[1].

بل إن هذا هو التناقض المفضوح الذي لا يمكن علاجه بأي طريقة من طرق اللف والدوارن.

إن الحركة إن كانت وسيلة وجود المادة، فمعناه أن الحركة أسبق من المادة في الزمان، لأن ما كان وسيلة لوجود شيء متقدم على ذلك الشيء زمنياً في الوجود، وبذلك تصبح الحركة هي الموجود الأول - حسب الادّعاء - وتكون المادة متأخرة في الوجود والظهور.

ولكن، هل يعتبر القول بأزلية الحركة وحدوث المادة معقولاً؟.

والجواب: كلا، وألف كلا...

ونزولاً عند أهمية الحديث عن الحركة من الناحية العلمية والفلسفية نرى ضرورة التفصيل الأوفى في هذا الجانب من البحث - وإن استعرضنا ذلك بشكل مجمل في دراسات أخرى - فنقول:

إن أوّل ما يسترعي النظر ويجلب الانتباه لكل قارىء للكتب المادية - على اختلاف أساليبها واتجاهاتها - ذلك الاهتمام الكبير الذي أحاط به الماديون اكتشافهم للحركة

---

(١) المادية الديالكتيكية: ٩١.

على أساس أنها اللبنة الأولى في صرح «الصورة» التي تبنتها الفلسفة المادية للكون والعالم، وأنها المنطلق الذي يسير منهجهم الفكري على ضوه نحو غايته المرسومة.

وعلى الرغم من كل ما أحيطت به مسألة «الحركة» من أهمية وتأكيد لدى سائر الديالكتيكيين من الغربيين والتابعين، فإن الموضوعية تلزمنا بضرورة التنبيه على أن ديناميكية المادة ليست من مخترعات الفكر الدياليكتيكي، وإنّما هي من بنات أفكار الفلسفة اليونانية أولاً ثم تبلورت وتشذّبت واتّضحت معالمها التفصيلية على يد الفيلسوف المسلم الكبير صدر الدين الشيرازي «من رجال القرن الحادي عشر الهجري».

لقد ذهب الشيرازي إلى : «أنّ العالم متجدد الوجود والهوية، وإنّ حقيقته عين التغير، وكل موجود زماني مسبوق بالعدم الصريح الزماني بحسب ذاته وجوهره. وكل وجود وتعيّن يتبدل وجوده ويتعيُّنه في كل آن»(١).

ويشرح الشيرازي في بعض مؤلفاته تفاصيل «حركته» فيقول:

إن «الجسم ما دام في مكانه الأول مثلاً ساكناً فهو متحرك بالقوة وواصل إلى مكانه المقصود بالقوة، فإذا تحرك حصل فيه كمال أو فعل لكنه بعد بالقوة في المعنى الذي هو المقصود من الحركة».

«فالحركة - إذن - كمال أول للشيء لا من حيث هو إنسان أو فرس أو نحاس، بل من حيث هو أمر بالقوة، فهي وجود بين قوة محضة وفعل محض».

«وظن قوم: إن الحركة هي الطبيعة، إعني جوهر الشيء الصوري، وليس كذلك بل هي متحركية الطبيعة وحالها، لا نفسها، فإن الحركة هي نفس الخروج من القوة إلى الفعل، لا ما به يخرج الشيء منها إليه، كالإمكان ونظاره».

«فالتسود ليس سواداً اشتد، بل اشتداداً لموضوع في سواديته، فليس في الموضوع سوادان: سواد أصل مستمر وسواد زائد عليه، لاستحالة اجتماع مثلين في موضوع واحد، بل يكون له في كل آن مبلغ آخر، فتكون هذه الزيادة المتصلة هي الحركة لا السواد، فالاشتداد يخرجه من نوعه الأول ويدخله في نوعه الثاني»(٢).

وبثبوت هذه «الحركة الجوهرية» للمادة في الفكر الديني الفلسفي يتجلى مقدار البعد

---

(١) المادة بين الأزلية والحدوث: ٤٨. (٢) الشواهد الربوبية: ٩٥ - ٩٦.

عن الواقع فيما يقوله ستالين: «إن الديالكتيك خلافاً للميتافيزية لا يعتبر الطبيعة حالة سكون وجمود، حالة ركود واستقرار، بل يعتبرها حالة حركة وتغير دائمين، حالة تجدد وتطور لا ينقطعان»[١].

فقد ثبت بما لا مزيد عليه - كما أسلفنا - أن الميتافيزية الواعية مؤمنة بالحركة كل الإيمان، وقبل أن يتكوّن «الديالكتيك» بعهد طويل.

وتشكل هذه التهمة حلقة في سلسلة التهم التي توجّه إلى الميتافيزية الفلسفية بهدف تشويه أفكارها والتضبيب على منهجها العقلي الدقيق.

وتذكرنا هذه التهمة بما نسبه عدد من الكتاب السوفييت إلى العلماء الطبيعيين ذوي التفكير الميتافزيكي من قولهم: «بأن المادة لا وجود لها»[٢]. في حين أن التفكير الديني الميتافيزيكي يؤمن بوجود المادة الموضوعي.

ولعل سائلاً يسأل: إذا كانت «الحركة» محل اتفّاق الفكرين الديني والديالكتيكي فأين يقع الاختلاف؟

والجواب: إن خلاصة ما فهمناه من الحركة الجوهرية في الفكر الفلسفي أن المادة في كل مرحلة من مراحلها - وبحكم كونها متحركة - ذات شقين:

الحالية: باعتبار الشيء المرحلي موجوداً.

والتجدد: باعتبار أن في الشيء قوة الانتقال وامكانية التطور إلى مراحل أخرى، وهذا هو القانون الطبيعي الذي أشار إليه القرآن الكريم في بيان خلق الإنسان وانتقاله من مرحلة إلى مرحلة: نطفة، علقة، مضغة، جنين، طفل، صبي... الخ.

فهو في المرحلة الأولى نطفة بالفعل، وعلقة بالقوة. ثم يكون بعد ذلك علقة بالفعل ومضغة بالقوة... وهكذا، وتكون النتيجة: إنه يوجد في كل مرحلة جانب فعلي هو الواقع الموجود وجانب إمكاني هو قوة التطور إلى مرحلة ثانية.

أما الديالكتيك فقط خلط بين جانبي القوة والفعل وإطلق على هذا الخليط اسم «التناقضات» ثم أكّد أن التطور إنما يتم بنتيجة الصراع بين هذه «التناقضات الداخلية»، وبذلك سقط في دوامة التناقضات ولم يستطع الخروج منها بمحصل فلسفي مقبول.

---

(١) المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية: ٢٤ - ٢٥.

(٢) المادة الديالكتيكية: ٩٨.

إن الحركة الجوهرية كما ارتضيناها حركة تطورية من المرحلة إلى مرحلة حيث يلتقي في كل مرحلة جانب الفعل وجانب القوة بلا صراع ولا تناقض.

والحركة في المادية الديالكتيكية - وبدافع من العمل السياسي لا الفكر الفلسفي - حركة قائمة على تناقضات داخلية متصارعة تؤدي بحكم تناقضها وصراعها إلى الانتقال إلى مرحلة أخرى.

إنّ الكتّاب الماديين يقولون:

«إنّ الحركة هي تناقض واضح»(١).

«صراع الأضداد هو المحتوى الداخلي للحركة»(٢).

«إنّ دراسة الحركة. . . تظهر لنا أنّ النمو هو صراع الأضداد، وتساعدنا على فهم مصدر الحركة الذاتية للمادة»(٣).

«أمام النظرة الميتافيزيقية عن العالم، التي تنكر المتناقضات كمصدر للتطور في العالم الموضوعي يقف الديالكتيك الماركسي، يؤكد أن جميع الأشياء والظواهر ذات تناقضات داخلية»(٤).

«لقد أسس أرسطو القانون المنطقي الشكلي للتناقضات، وبموجب هذا القانون لا يمكن أن نقول أحكاماً متناقضة عن الشيء المأخوذ في علاقة واحدة، وفي زمن واحد، هذا القول لا شك في صحته. فالإنسان الذي يؤكد بأن هذا النمط موجود وغير موجود يحق لنا تماماً أن نقول عنه إنه غير صحيح التفكير، إلا أن أرسطو ذاته الذي عبّر بصحة عن هذا المبدأ للتفكير المستقيم منطقياً، والذي لا تناقض فيه، توصل إلى نتيجة خاطئة مفادها أن التناقضات الداخلية في الأشياء الموجودة موضوعياً غير ممكنة، إنه يقول: «إذا كان ليس بالإمكان أن نكون صادقين في قولنا، عندما نؤكد وننفي في وقت واحد شيئاً ما، كذلك فليس بالإمكان إعطاء تعريفين متناقضين في وقت واحد لشيء واحد».

لا شك أننا [وما زال الحديث لبعض الكتاب الدياليكتيكيين] لا نستطيع القبول بذلك، فلا ينبغي إطلاقاً أن نستنتج من قولنا بأن الاعتراف في وقت واحد، بوجود شيء

(١) المادية الدياكتيكية: ٢٦٢.
(٢) النظرة المادية في المعرفة: ٦٩.
(٣) المصدر نفسه: ٩٤.
(٤) المادية الديالكتيكية: ٢٦١.

معين، ونفي وجوده هو فكرة غير صحيحة، أن نستنتج بأن الشيء الموجود حقيقة لا يتمتع بخصائص داخلية متناقضة»[١].

إن هذه النصوص بأجمعها - على رغم تأكيدها اللفظي للتناقضات الداخية - تعني في واقعها شيئاً واحداً هو الفعل والقوة أو وجود الشيء الفعلي ووجوده في المرحلة الثانية بالقوة، ولكن الديالكتيك بخلطه بين الإثنين - جهلاً أو تجاهلاً - لم يجد بدّاً من استعمال كلمة «التناقضات» لتبرير المسألة.

ولتوضيح ما قلناه نروي النص الديالكتيكي التالي:

«صحيح أننا لا نخطىء إطلاقاً عندما نقول مثلاً: إن القطار المتحرك موجود في فترة معنية، في نقطة معينة، وفي فترة زمنية أخرى في نقطة أخرى. هذا التأكيد كاف لفهم شيء بسيط كمكان وجود القطار، إلاّ أنه غير كاف للتعبير عن جوهر الحركة ذلك التأكيد يصف نتيجة الحركة لا جوهر الحركة ذاتها. وعندما نحاول فهم الحركة نصطدم بالتناقض: فالجسم المتحرك موجود في برهة معينة، في نقطة معينة من المكان، ولكنه لم يعد في هذه النقطة، أو موجود في هذا المكان المعين وفي غيره»[٢].

وهذا النص يوضح لنا التهافت الذي سقط فيه الديالكتيك عندما خلط بين الفعل والقوة، «فالجسم المتحرك موجود في برهة معينة، في نقطة معينة من المكان» وهذا صحيح. أما كونه «لم يعد في هذه النقطة» فليس في تلك البرهة المعينة نفسها وإنّما في برهة أخرى بعدها، لأنّ الجسم المتحرك ما دام متحركاً فهو منتقل من نقطة إلى نقطة، ويكون في كل نقطة موجوداً فيها بالفعل، ثم منتقلاً عنها إلى غيرها، وتتابع الحركة من نقطة إلى نقطة لا يعني أنه «موجود في هذا المكان المعين وفي غيره» كما زعم هذا النص. فوجوده في اللحظة المعينة في المكان المعين قطعي وانتقاله عنه ولكن في لحظة أخرى قطعي أيضاً، لوجود القوة فيه على الانتقال واستمرار الحركة.

ولنقرأ أيضاً نصاً ديالكتيكياً آخر بهذا الصدد:

«لقد حاول نقاد الديالكتيك أكثر من مرة دحض هذا الطابع التناقضي للحركة، إنهم يقولون: بأنّ الجسم المتحرك موجود عملياً في فترة زمنية معينة في مكان معين، وفي فترة أخرى في مكان آخر، أي أنهم لم يأخذوا إلا جانباً واحداً من الحركة «الانقطاع»

(١) المادة الديالكتيكية: ٢٥٨ - ٢٥٩. (٢) المادة الديالكتيكية: ٢٦٢ - ٢٦٣.

ليجعلوه مطلقاً، فالمكان الذي عبره الجسم قسموه إلى عدد من النقاط والقطع المنفصلة بعضها عن بعض، وقالوا بأن الجسم المتحرك موجود إما في هذه النقطة من المكان أو في تلك».

أما في الواقع فالحركة ليست توقفاً فقط، بل واستمراراً، وإلاّ لما أمكن انتقال الجسم المتحرك من نقطة إلى أخرى، فنقاط المكان المنفصلة ليست مستقلة عن بعضها بعضاً - انقطاع -، بل ومرتبطة فيما بينها، وهذا الارتباط ليس غير استمرار المكان، فكلّ من الواضعين المتناقضين، الانقطاع والاستمرار، يفترض الآخر ويوجد فقط في وحدة معه.

يقول لينين: إن الحركة هي وحدة الاستمرار الزمني والمكاني والانقطاع الزمني والمكاني، إن الحركة هي تناقض، هي وحدة التناقضات».

«إن القول بأن الجسم المتحرك يوجد، في كل فترة معينة، فقط في نقطة معينة من المكان، يميت الحركة، وتتحول هذه إلى عدد من حالات السكون، في حين أن الحركة في الواقع هي وحدة السكون والتبدل، فلا شك أن الجسم المتحرك هو قائم في مكان معين، وفي الوقت نفسه غير قائم فيه. هذان المتناقضان - سكون وحركة - مرتبطان فيما بينهما، وينفي أحدهما الآخر».

وخلاصة ما نفهمه من هذا النص هو التناقض الذي سقط فيه الديالكتيك ولم يستطع التملص منه.

إننا لا نقول بأن الحركة توقف، بل نقول بأن الحركة انتقال من مرحلة إلى أخرى، وهذا الانتقال ليس «انقطاعاً»، وإنما هو ارتباط بين وجود الشيء الآن في نقطة معنية ووجوده بعد آن في نقطة أخرى، وهو ما عبّرنا عنه باستمرار الفعل والقوة وارتباطهما وتشابكهما، ولو كان الجسم المتحرك قائماً في مكان معين وفي الوقت نفسه غير قائم فيه، أي في مكان آخر، لما كانت هناك حركة أبداً، لأن وجود كل المراحل في وقت واحد يجمّد الحركة ويميتها، بل لا يمكن أن نقول بوجود الحركة إلاّ إذا قلنا بوجود المادة في مرحلة معينة وإمكان انتقالها إلى المرحلة الأخرى، وعندما يلتقي الحال والإمكان أو الفعل والقوة يمكن للحركة أن تؤدي دورها بالانتقال من درجة إلى درجة.

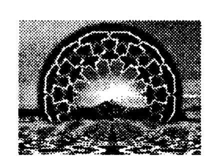
إن الديالكتيك لم يجد تعبيراً يصلح للاستعمال في هذا السياق سوى جملة «انتقال الجسم المتحرك». والانتقال معناه السير في طريق طويلة ينتقل فيها هذا الجسم من

نقطة إلى أخرى، حيث يكون في الأولى بالفعل ثم ينتقل إلى غيرها لما فيه من إمكان الانتقال وقوته، وهذا هو الصحيح.

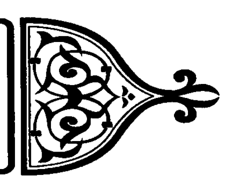
ولعل النص الديالكتيكي الآتي يوضح للقارئ ما نعنيه بقولنا، فهو يقول:

«بما أن التطور عبارة عن سلسلة من الأحداث، فإن كل حلقة في هذه السلسلة هي نقطة انطلاق بالنسبة إلى أحد الحوادث، ونتيجة بالنسبة إلى حادث آخر»[١].

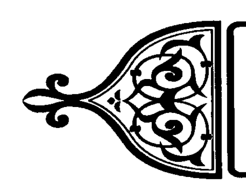
فقد عبّر هذا النص عمّا قلناه أوضح تعبير، وليس فيه من مدلول سوى تشابك الفعل والقوة فقط بلا تناقضات ولا صراع، فإن كون «كل حلقة في هذه السلسلة هي نقطة انطلاق بالنسبة إلى أحد الحوادث» معناه أنها تحمل إمكانية الانتقال إلى حلقة أخرى، وإن كونها في نفس الوقت «نتيجة بالنسبة إلى حادث آخر» معناه وجودها الفعلي المتحقق، ومن هنا يكون الأمر عبادة عن اجتماع الفعل والقوة لا اجتماع المتناقضات.



(١) المادة الديالكتيكية: ٢٦٣.



العلاقة بين الحركة والسكون



الغريب أن هؤلاء الماديين مع كل تأكيداتهم على ضرورة الحركة ولابديتها وملازمتها للمادة، قد ذهبوا إلى القول بوجود فترات من السكون تقد فيها المادة عن الحركة.

إن كتّاب بحث «المادة الديالكتيكية» يقولون:

«لا يمكن للمادة أن توجد إلاّ في الحركة، ولكن هذا لا ينفي إمكان حدوث فترات من السكون والتوازن أثناء السير العام المتواصل باستمرار للتبدلات المادية»[١].

ويقول هؤلاء أيضاً:

«لا بدّ من ملاحظة أن الحركة من حيث جوهرها عبارة عن تبدل، ولكنه تبدل يحتوي في ذاته على لحظات عدم تبدل، واستقرار وثبات»[٢].

كما يقول هؤلاء أيضاً:

«إن الحركة مطلقة، من حيث الجوهر، ولكنها نسبية، من حيث شكل ظهورها الحسي»[٣].

ويقول كتاب سوفييت آخرون:

«صحيح أن الأجسام قد تكون في حالة سكون ولكن السكون نفسه نسبي دائماً، فالحجر على الطريق مثلاً ساكن بالنسبة للأرض، ولكن الحجر والأرض يقومان معاً بدورة كل يوم حول محور الأرض»[٤].

ويقول روجيه غارودي:

«السكون حالة خاصة من حالات الحركة»[٥].

---

(١) المادة الديالكتيكية: ٢٢١.
(٢) المادة الديالكتيكية: ٩٣.
(٣) المصدر نفسه: ١٠٣.
(٤) الناس والعلم والمجتمع: ١٦.
(٥) النظرية المادية: ٦٨.

ويقول أيضاً:

«إن جسماً ما مثلاً يمكن أن يوجد على سطح الأرض في حالة توازن ميكانيكي، أن يكون من وجهة النظر الميكانيكية في حالة سكون، بيد أن ذلك لا يمنعه من الاشتراك في حركة الأرض، وكذلك في حركة النظام الشمسي. السكون حالة خاصة من حالات الحركة»[١].

وما أدري كيف استطاع هؤلاء أن يجمعوا هذه التناقضات الغريبة في فكرة واحدة؟.

كيف أصبحت الحركة سكوناً والسكون حركة؟.

وكيف صارت الحركة في ذاتها لحظات استقرار؟.

وكيف أمكن نسبة الحركة إلى الشيء لأنه على الأرض - والأرض متحركة طبعاً -؟ وهل يصح أن نسمّي النائم متحركاً لأن الأرض التي ينام عليها تتحرك باستمرار؟ بل هل نجد في العالم مَن يسمي الحجر الملقى على الطريق متحركاً لأن الأرض تتحرك؟.

وهكذا أصبح على المادي أن يؤمن بالسكون، وبفترات من الاستقرار والثبات وعدم التبدل في المادة مع إيمانه بحتمية الحركة وبأن «المادة لا تنفصل عن الحركة» وبـ«الوحدة غير قابلة للانفصام بين المادة والحركة»[٢]!

ولو أردنا أن نقول كلمة الفصل في هذا الموضوع لأيّدنا - بكل حرارة - ما ذهبت إليه المادية من الإيمان بفترات من السكون وعدم التبدل ومن عدم منافاة ذلك للحركة الجوهرية في المادة، باعتبار وجود إمكانية الحركة فيها وفعلية السكون. وحينذاك لا يكون هناك أي تضاد أو عجب أو استغراب، بل هذه الامكانية والفعلية هي الحقيقة الفلسفية التي لا مناص من القول بها والدعوة إليها واعتبارها الأمر الواقع الذي لا واقع غيره.

ولنقرأ نصاً مادياً آخر يعني فكرة السكون عسى أن يزيد المسألة إيضاحاً وجلاءً، يقول روجيه غارودي:

«في الحقيقة عندما يكون نقل الحركة معقداً، وعندما تتضمن سلسلة من الواسطات، نستطيع تأخير النقل بالمعنى الحقيقي إلى لحظة نختارها، فعندما نحشو بندقية، نحتفظ باللحظة التي سيحصل فيها الانفجار، بانفراج النابض المؤتمر بالزناد،

(١) المصدر نفسه: ٧٤.
(٢) النظرية المادية: ٦٦.

أي نقل الحركة التي يطلقها احتراق البارود، وعندما سنحمل على اعتبار أن المادة كانت في حالة سكون ثم حُركت بفعل ضغط الزناد، فإذا وسّعنا هذا التمثيل الوهمي، نتصور أن العالم كله في حالة سكون وإن حركته تتعلق بدفعة أصلية، لكن هذا التوسّع سخيف لأننا ننقل إلى العالم على أنها مطلقة حالة هي نسبية بطبيعتها، ولا يمكن، بالتالي، أن يخضع لها سوى جزء من الطبيعة»[١].

إن التعمّق في قراءة هذا النص يكشف لنا التخبط الذي وقع فيه هذا الفيلسوف الكبير! لتبرير - أو تمرير - تلك الأفكار التي يفرض عليه المبدأ ضرورة الإيمان بها على كل حال.

وإن من يقف على تأكيد حتيمة الحركة في كلمات الماديين وارتباطها الذاتي بالمادة لا يجد منهم استثناءً لمادة من غيرها أو اقتصاراً على حالة دون سواها، فكيف ساغ لغارودي - هنا - أن يعترف بأنّ«جزءاً من الطبيعة» ليس ذاتي الحركة وإنّما هو في استقرار وسكون لا يخرج منه إلاّ ب«دفعة أصيلة»تطلق فيه الحركة.

ولن يهمنا في هذا المقام تصحيح أو تخطئة ما ذكره من أنّ «التوسع سخيف» في المسألة. بل يكفينا الاعتراف من هذا المادي الخبير بأن هناك حالة - وأنّ تكن نسبية وغير مطلقة - في الطبيعة والمادة بحاجة إلى محّرك ودافع.

وفي هذا - كما هو واضح - تحطيم للقاعدة الكلية المزعومة واقرار بكونها حالة جزئية لا يصح تطبيقها على كل شيء.

ثم يقول غارودي في مكان آخر من كتابه: « لانستطيع أن ندرك بوضوح مفهوم الحركة إلاّ بطرد أشباح القوى المزعومة(الميكانيكية، الحرارية، الكيميائية، الكهربائية، المغناطيسية، البيولوجية، الخ). فكل قوة من هذه القوى المزعزمة ليست، كما سنرى، سوى حثالة للنزعة التشبيهية الغيبية»[٢].

ولا ندري - في هذه الحالة - كيف تصبح هذه الحركة المزعومة وكيف نستطيع إدراك مفهومها ومعناها؟

وإذا لم تكن الحركة قوّة ميكانيكية ولا حرارية ولا كيميائية ولا كهربائية ولا مغناطيسية ولا بيولوجية ولا أية قوة أخرى فما هي إذن؟.

---

(١) النظرية المادية: ٧٥ - ٧٦.

(٢) النظرية المادية: ٧٩.

وما أدري كيف أصبحت هذه القوى «مزعومة» و «حثالة للنزعة الغيبية»، في حين أن العالم كله - بحقائقه وبفرضياته - عبارة عن هذه القوى بالذات، وإن كل الطاقات العلمية المبذولة إنّما تتجه نحو مزيد من المعرفة بهذه القوى المذكورة.

نعم. ربما يريد غارودي من نفي هذه القوى أن يقول: إن الحركة ليست إلا الخروج من عالم الإمكان إلى عالم الوقوع مرحلة بعد مرحلة، على الشكل الذي شَرَحَتُه كلمات بعض المفكرين المسلمين كما مرّ - وليس لذلك أيّ شبه بأية قوة من تلك القوى المشار إليها، لأن المسألة تصبح فلسفية محضة لا يصح تشبيهها بهذه الأمور.

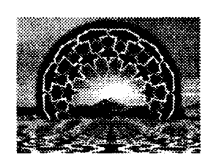
إذا كان هذا هو مراد غارودي فهو الصحيح، ولكنه لم يحسن التعبير عنه أو لم يرد الإفصاح الكامل.

وإن لم يكن هذا هو المراد، فما قاله عبارة عن ضرب مجهول في مجهول.

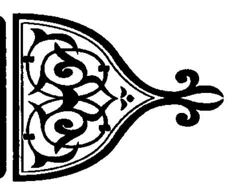
وخلاصة القول:

إن الحركة في كتابات الماديين لم يتضح لها مفهوم محدّد أبداً، فهي تارة أزليّة أزليَةَ المادة، وهي تارة وسيلة وجود المادة - أي أسبق من المادة - وهي تارة ثالثة ملازمة للمادة[١]، أي غير ذاتية لها.

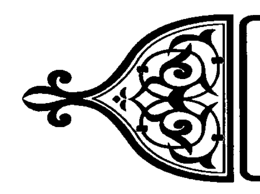
والحركة بعد ذلك - كما يقولون - لا تنفك عن المادة أبداً لأن «كل شيء يتحرك ويتبدل في هذا العالم»[٢]. ومع ذلك وعلى الرغم من الـ «كل شيء» ولا «تنفك» فإن هنالك فترات سكون ولحظات استقرار وعدم تبدل.



(١) المادة الديالكتيكية: ٩٠.
(٢) المصدر نفسه.



مصدر الحركة



وهنا يحين وقت إيراد السؤال المهم والأساس في المسألة:

إذا كان وجود الطبيعة هو حركتها، وكانت هذه الحركة هي نفس الخروج من القوة إلى الفعل - كما بيّنا - وليست شيئاً آخر، فإن هذه الحركة بحاجة إلى مصدر لوجودها. ولا بدّ للبحث العلمي أن يعيّن المصدر أو السبب الذي أوجد الحركة التي هي بدورها وسيلة وجود المادة كما يقول الماديون، والذي جعل من إمكان الانتقال من مرحلة إلى مرحلة أمراً واقعاً بالفعل؟.

تجيب المادية على هذا السؤال: بأنّ الحركة ذاتية للمادة فلا تحتاج إلى سبب، لأنه «لا توجد مادة ولا يمكن أن توجد من دون حركة. والمادة لا تنفصل عن الحركة»[1]. أي «إن مفهوم الحركة الذاتية يعني أن الأشياء والظهواهر تحوي في نفسها دوافع أو مصادر هذا التطور»[2]. وترى المادية: «إن الطبيعة غير الحية خلَقت - عن طريق الحركة الذاتية - الشيء المغاير لها نقيضها - أي الطبيعة الحية. أما أسباب أو مصادر هذه الحركة الذاتية والتحول، فهي التناقضات الداخلية»[3]، و «إن التناقض الداخلي هو تناقض في جوهر الشيء بالذات بحيث أن الشيء لا يمكن أن يوجد بدون هذين الضدين»[4].

ويقول كتاب سوفييت في هذا الصدد:

«من الطبيعي، عندما تشاهد الحركة في الطبيعة والمجتمع، أن تطرح هذا السؤال: ما هو مصدرها؟ وتتبادر إلى الذهن أبسط فكرة عن الدافعة التي تنقل الحركة من شيء إلى شيء. ولكن لا بدّ عندئذ من افتراض فكرة الدفعة الأولى التي كانت بداية الحركة. وينتج من ذلك أن المادة كانت في البدء ميتة ثم ظهرت قوةٌ ما من وراء الطبيعة ودفعتها.

(١) المادية الديالكتيكية: ٩١.
(٢) المصدر نفسه: ٢٧٢.
(٣) المصدر نفسه: ٢٧٢.
(٤) المصدر نفسه: ٢٧٤.

وبالضرورة تؤدي فكرة الدفعة كمصدر عام للحركة، إلى الفكرة الدينية عن خلق العالم».

«إن الدفعات الخارجية موجودة في الطبيعة، ولكنها لا تفعل غير أن تنقل الحركة من جسم إلى آخر، دون أن تكون هي مصدرها، وإذن فإنّ مصدر الحركة يجب البحث عنه في داخل الظواهر المادية» وهو التناقض وصراع الأضداد[1].

ويقول كتاب سوفييت آخرون في الجواب على هذا السؤال:

«يقال أحياناً: نسلّم جدلاً بأن المادة وُجدت منذ الأزل. ولكن حتى في هذه الحالة، هناك الكثير الذي لا تستطيع المادية أن تفسره، مثال ذلك، من أين نشأت حركتها، يقال في هذه الحالات، لنتصور عصراً بعيداً بشكل لا نهائي، وجدت فيه بدلاً من الكون الحالي مادةٌ ما لا شكل لها ولا حركة، وقد وجدت على هذه الحالة لوقت طويل إلى ما لا نهاية. ولكن حلت اللحظة التي تعيّن فيها على المادة أن تخرج من هذه الحالة التي وجدت فيها حتى ذلك الوقت. ولكن إذا كانت المادة قد ظلت حتى ذلك الوقت بلا حركة فما الذي جعلها فجأة تتحرك»[2].

ويتساءل هؤلاء الماديون قائلين:

«ولكن هل تحتاج المادة في الواقع إلى قوة عليا، حتى تحصل على هذه الدفعة؟ هل يمكن في الواقع أن تكتسب المادة الحركة من الخارج فقط»؟.

وأجاب هؤلاء الماديون على تساؤلهم:

«توجد في الطبيعة أنواع مختلفة من الحركة، فهناك.

أولاً: انتقال جسيمات المادة أو الأجسام من مكان إلى آخر أي الشكل الميكانيكي للحركة.

ثانياً: العمليات الحرارية والكهربائية أن الشكل الفيزيائي للحركة.

ثالثاً: التفاعلات الكيميائية وتركيب الأيونات وهو الشكل الكيميائي من الحركة.

رابعاً: التغيرات التي تجري في الكائنات الحيّة أو الشكل البيولوجي.

خامساً: الشكل الاجتماعي من الحركة، أي التغيرات التي تجري في الحياة الاجتماعية»[3].

---

(١) الناس والعلم والمجتمع: ١٧ - ١٨.
(٢) أسس المادية: ٣١.
(٣) أسس المادية: ٣٣.

«والآن نستطيع أن نجيب على السؤال المطروح أعلاه: هل كان يمكن أن توجد المادة في وضع لا يحدث فيها أي تغيرات؟ كلا بالطبع. وحتى في العصر البعيد الذي لم يكن يوجد فيه بعد في العالم إنسان ولا حيوانات ولا خلية حيّة، حتى في هذا الوقت كانت تتم التغيرات في المادة. وفي واقع الأمر أن الأجسام تتكون من ذرات وجزيئات وهي تتحرك باستمرار. وبالتالي لم يوجد أبداً جسم واحد متجمد لا يتحرك بشكل مطلق، ثم أنه إذا وجدت الذرات والجزئيات والألكترونات فما كان يتم الأمر دون تفاعلات كيميائية. ينتج من ذلك أن الشكل الكيميائي لحركة المادة أيضاً كان موجوداً، وبذلك فلم توجد حالة أبداً وجدت فيها المادة بلا حركة»(١).

وحينئذ «لا داعي لوضع السؤال التالي: من أين حصلت المادة على هذه الحركة، لأنها موجودة منذ الأزل، ولهذا لا داعي للسؤال الذي يقول: مَنْ الذي أكسب المادة الحركة الذي أكسب المادة الحركة ما دامت لا تنفصل عنها وتعتبر شكلاً من أشكال وجودها»(٢).

ولا نريد - هنا - أن نعلق على التضارب الذي يحمله هذا النص الأخير مع النصوص المادية التي سلف منّا البحث فيها قبل صفحات، حيث نفى النص وجود حالة تجردت فيها المادة عن الحركة خلافاً لتلك النصوص التي أكدت فترات السكون ولحظات الاستقرار، وحيث جعل النص الأخير تلك الحركة ذات شكل ميكانيكي أو فيزيائي أو كيميائي أو بيولوجي أو اجتماعي خلافاً لنصوص سابقة اعتبرت هذه القوى «مزعومة» و «حثالة للنزعة الغيبيّة».

لا نريد التعليق على هذه الجوانب، ولكننا نتساءل: هل هذه الجوابات التي شحن بها الماديون كتاباتهم صحيحة ومقبولة؟.

وستتضح لنا حقيقة الصواب أو الخطأ في هذه الأجوبة بعد عرض الملاحظات الآتية:

الملاحظة الأولى: أن المستفاد من الدراسات الفيزيائية الحديثة ونتائج البحث العلمي المعاصر أن المادة في أصلها البعيد حقيقة واحدة لا تعدد فيها ولا تنوع، وهي التي يُعبّر عنها في بعض النصوص المادية بـ «المادة المسحوقة»(٣).

---

(١) المصدر نفسه: ٣٣ - ٣٤.
(٢) المصدر نفسه: ٣٤.
(٣) النظرية المادية: ١١٢.

وإن جميع الخواص والصفات التي تتميز بها المركبات المادية والعناصر البسيطة إنّما هي صفات طارئة عرضت على المادة الأصلية، فجعلت من كل واحد منها شيئاً متميزاً عن غيره.

وإذا كانت المادة الأصلية حقيقة واحدة، فكيف يمكن أن ينسب لها أو لحركتها سببية هذا التنوع والاختلاف في التراكيب والحركات.

وإذا قلنا بأنّ الحقيقة الواحدة قد تتناقض وتختلف وتتنوع في حركاتها وأحكامها فمعنى ذلك تجميد جميع الحقائق العلمية وإلغاء كل قوانين العلوم الطبيعية، لأن الأفراد التي يحكمها قانون واحد قد تتناقض أو تختلف - نتيجة لحركتها الذاتية المدعاة - وبهذا يتبخر القانون ويفقد قيمته ومجاله العملي.

وإذن، فلا بدّ من أن يكون المنوّع لأفراد هذه الحقيقة الواحدة، والمعدّد لتراكيبها وحركاتها، شيئاً فوق المادة وفوق الحركة ترجع إليه كلّ هذه الاختلافات والتراكيب المادية.

الملاحظة الثانية: إذا كانت حركة المادة هي السبب في وجود الأشياء وتطورها من مرحلة إلى أخرى، وكانت الحركة ذاتية للمادة و «ليست حالة عرضية»[١]، فلماذا تتطور ذرات معينة من عنصر ما وتبقى ذرات أخرى منه على حالها الأولى، وهل هناك في داخل الحركة قوة عاقلة مدركة تقوم بتقسيم العنصر إلى قسمين، فتجمّد قسماً منه في مرحلته الأولى وتطوّر قسماً آخر إلى مرحلة ثانية، ثم تقسّم العنصر في مرحلته الثانية كذلك فتجمّد قسماً منه وتطور آخر. . . وهكذا.

إن وجود كمية من الماء المسماة «يورانيوم» - وهو قمة التطور المادي - مع بقاء كميات هائلة أخرى من المادة لم تنل شرف هذه الدرجة من التطور، دليل على أن سبب الحركة والتطور ليس ذاتياً للمادة، وإنّما هو فوقها وخارج عن حدودها، يكون هو المحرّك والمصنّف والمقسّم لها في كل مراحلها السارية مع الزمان.

الملاحظة الثالثة: إن الماديين الديالكتيكيين يعترفون - كغيرهم - بأن المادة ليست «شيئاً وحيد الصورة ومن نوعية واحدة. أنها تبرز في أجسام متباينة لا حصر لتباينها، وهذه الأنواع المتباينة للمادة تتميز بالتعقيد إلى هذا الحد أو ذاك، وهي مواضيع بحث

---

(١) المادية الديالكتيكية: ٩٠.

مختلف العلوم من الفيزياء إلى الكيمياء والبيولوجيا . . الخ. أما الأنواع البسيطة نسبياً منها فهي الصغيريات الأولية: كالفوتون، والالتكرون، والبوزيترون، والبروتون، والميزون، والأنتي بروتون، والنترون، والفترون، والأنتي نترون. . . الخ. أما التعقيد الواسع فهو من نصيب الذرات والجزئيات، ثم تليها في التعقيد الغازات والسوائل والأجسام الصلبة، وكذلك الأجرام السماوية المختلفة كالكواكب والنجوم والمجموعات النجمية. وتتميز أجسام الطبيعة العضوية، بدرجة عالية من التعقيد»[١].

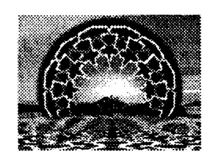
كما أنّهم يقولون:

«يحيط بنا عدد لا حصر له من الكائنات المتباينة أعظم تباين في خصائصها بعضها يحشر في عداد الكائنات الحيّة. وبعضها لا يتوفرب فيه أي دليل على الحياة، بعضها قاس وبعضها طري أو سائل. بعضها متناهٍ في الصغر وخفيف وبعضها ذو أجسام هائلة وثقيلة جداً، بعض الأجسام مشحونة بالكهرباء وبعضها غير مشحون بها. . . إلخ. كل هذا بمجموعه يشكّل ما يدّعي بالطبيعة»[٢].

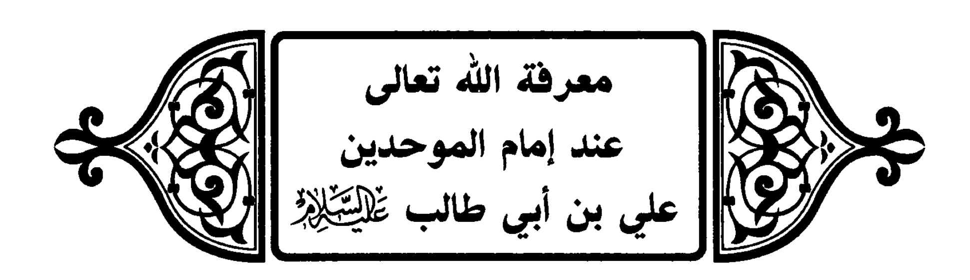
وإذا كانت المادة على هذه الشاكلة من التباين العجيب المعقد فهل تكون «الحركة الذاتية» المدّعاة هي السبب في كل هذه التنوعات؟.

طبعاً: لا.

بل لا بد أن يكون لذلك سبب فوق المادة تعود إليه كل اختلافات المادة وتنّوعات عناصرها وذراتها المتباينة.



(١) المادية الديالكتيكية: ٨٩. (٢) المصدر نفسه.



معرفة الله تعالى عند إمام الموحدين علي بن أبي طالب عليه السلام

إنّ معرفة الله تعالى تختلف تماماً عن باقي المعارف، بل هي عكسها تماماً، ذلك لأن المتعرف إلى أي شيء إنما يجعله موضوع دراسة ليبلغ حقائق تتعلق بذلك الموضوع، ترى أما الذي يبدأ بالله تعالى، فإنه يبدأ بالحق ليجعله موضوعاً، فما عساه يحصل؟! وإلى أين يريد أن يصل؟! والله سبحانه يقول:

﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ﴾[1].

فغاية كل علم هو بلوغ حقائقه، أي الإحاطة بثوابت الصدق، بمعاني وجوده والذي تبقى الإحاطة به بعيدة المنال، حيث لا سبيل علمياً إلا الله سبحانه وتعالى وهو الحق المبين المحيط، بل السبيل العلمي إلى الله تعالى يبدأ منه حيث هو الحق جلّ وعلا. فالذي يمتلك حب الله تعالى بصدق يكون قد امتلك العلم كله.

وكان هذا هو نهج سيّد الموحّدين من قبل إبراهيم الخليل عليه السلام، كما يحكيه لنا القرآن العظيم، حيث تظاهر إبراهيم عليه السلام بسلوك السبل من ذاته وفكره إلى الله تعالى تعليماً للبشر وتوجيهاً، حيث نظر في النجوم، فقال: إني سقيم: «أي أن الإنسان الذي لم يحقّق هدف وجوده ولم يعرف رسالته يبقى غير سوي لشعوره بالضياع والتيه».

قال تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ

(١) سورة يونس، الآية: ٣٢.

هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾[١].

فقد امتلك إبراهيم عليه السلام بصدق حبه لله تعالى رؤيا ملكوت السماوات والأرض، فكان من الموقنين، فقد رست نفسه على الحق، وصار بذلك يحاجّ قومه بما امتلك من علم وهداية: وقال سبحانه وتعالى على لسان إبراهيم عليه السلام:

﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾[٢].

لقد كان إبراهيم عليه السلام ذا قلب سليم وفطرة نقيّة، ولكنه حين رأى من ذاته لذاته أنّه كلما وجّه نفسه لشيء يظن أنه ربّه، ثم يجد أنه فقير بذاته محتاج لغيره، لأنه يأفل وهو عليه السلام قد امتلك قلبه السليم بحب الغني الفاطر الذي لا يصبه الأفول، لذا فهو لا يحب الآفلين، مما جعله عليه السلام يلتفت إلى أنه إنّما يبحث عن الذي ليس كمثله شيء، أي يبحث عن علّة البحث عنده، بل علّة كلّ شيء موجودة مثله، فوجّه عليه السلام وجهه إليه سبحانه وتعالى: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[٣].

إذن فإبراهيم عليه السلام أحب الله تعالى ربّه وامتلك قلبه بهذا الحب، فلا وجود لغيره في قلبه، فهو عليه السلام بدأ بالحق الذي بدأ به الوجود كلّه ويقوم عليه ويستمر معه، إنه عليه السلام امتلك الحقيقة التي تشع منها كل العلوم.

ولذا فإن الذي يظنّ أنه يعرف الله تعالى مقدار من العلم إنما هو جاهل متجرّىء، ولذا غضب الإمام من السائل الذي يريد وصف معاينة لله تعالى علواً كبيراً، ولأن هذا السائل ألبس جهله بسؤاله هذا ثوب العلم حين ظن واهماً أن الله تعالى يمكن وصفه من

(١) سورة الأنعام، الآيات: ٧٥-٧٩.
(٢) سورة الأنعام، الآيات: ٨٠-٨٣.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ٧٩.

قبل عالم عظيم كعلي بن أبي طالب عليه السلام، وغضبه عليه السلام فيه إظهار لجديّة عبوديته لله تعالى، ففيه بيان لقبح الجرأة في التفكير في وصف الله تعالى، فإنه سبحانه وتعالى الجليّ الذي لا يتجلى، الذي يدرك الأبصار ولا تدركه الأبصار.

◎ المعاني العلميّة للجلاء والتجلّي

يقول الإمام علي عليه السلام: «الحمد لله المعروف من غير رؤية»[1].

ويقول في خطبة أخرى: «لم يطلع العقول على تحديد صفته، ولم يحجبها عن واجب معرفته»[2].

ويقول عليه السلام في خطبة ثالثة في معنى كون الله جلّ وعلا جلي دون تجلي: «الحمد لله الّذي بطن خفيّات الأمور، ودلّت عليه أعلام الظّهور، وامتنع على عين البصير؛ فلا عين من لم يره تنكره، ولا قلب من أثبته يبصره: سبق في العلوّ فلا شيء أعلى منه، وقرب في الدّنوّ فلا شيء أقرب منه. فلا استعلاؤه باعده عن شيءٍ من خلقه، ولا قربه ساواهم في المكان به»[3].

هذا التوجيه من لدن أمير المؤمنين عليه السلام يجعل التعرف إلى الله سبيلاً لا بدّ منه في حين يمنع سبيل التعرف عليه، وهنا لا بدّ من التفريق بين التجلّي والجلاء من وجهة نظر علمية صرفة.

◎ الجلاء

هو الوضوح، والوضوح هو نتيجة لتمام الإدراك، والإدراك هو انطباق السنة التكوينية للنفس مع السنة الكونيّة في موضوعها.

والسنن التكوينية تبرز لنا في ثمانية أنماط للتعلم نرى النفس تمارسها في التعلم، أما السنن الكونيّة فتعرف في ثمانية بديهيات معروفة هي:

كوّن النفس الإنسانية تميل للحسن والجمال، وكوّن الرحمة ومظاهرها علّة أم في كل حادث، وكوّن الموت سنة لا بدّ منها، وكون الحق والعدل أساس كل خلق، وكون

(١) شرح نهج البلاغة (محمد عبده) ١/ ١٥٨.
(٢) شرح نهج البلاغة (محمد عبده) ١/ ٩٩.
(٣) شرح نهج البلاغة (محمد عبده) ١/ ٩٨ - ٩٩.

الإمامة معنى الحسن في كل خلق، وكوّن البلاء ناموس الخلق، وكوّن كل الموجودات مربوبة لله تعالى الواحد، وكون التطور للأحسن دافع لكل الموجودات.

أما أنماط التعلم التي تبرز في النفس محاكية لمواضيع السنن الكونيّة فهي:

نمط التسليم: يبدو في تسليم النفس بثوابت الأسماء مقابل معانيها في الواقع.

ونمط التعليل: ويبرز في بحث النفس عن التعليل والأسباب، فعلّة مقابل كل حادث.

ونمط التصديق: هو واضح في بحث النفس عن العدل والحق، وهما مواقع الصدق الثابت في الواقع.

ونمط القياس: وهو يتوضح دوماً في سعي النفس للمفاضلة بين الحسن والأحسن، وبين القبيح والأقبح، من خلال المطابقة لمعايير ثابتة من أصل ثوابت الأسماء لمعانيها، وثوابت العلل لمعلولاتها، وبثوابت مواقع العدل والصدق في الواقع.

ونمط التعميم: الذي يبرز في ميل النفس للتوحيد التوحد، كما هو واضح في واقع الناس اليوم وعلومهم.

ونمط التكامل: ويبرز في انجذاب النفس للحسن، والأحسن، والأجمل، وهو واضح عند الجميع بدون استثناء، ويكون أوضح في النفس الراقية في قيمها الإنسانية.

ونمط الإيمان: ويبرز في ميل النفس للاستعداد ما بعد الموت الذي لا بدّ منه.

ونمط التجريب: ويبرز في ميل النفس للتجريب، والملاحظة، والممارسة والتطبيق للقوانين المعروفة.

ونلاحظ بوضوح أن كل سنة تكوينيّة في نفس الإنسان إنّما تبرز بسبب التكوين الإنساني الذي يضم في خلقته كل مكونات الكون، وهي المادة والطاقة والحياة ومميزاتها والروح ومميزاتها الظاهرة للعقل.

فنمط التسليم في النفس: وليد سنة الطاعة الكونيّة، حيث كل ما في الكون حادث مربوب لرب واحد، مدبر حكيم، قوي متين... له الصفات الحسنى؛ فكل ما في الكون طائع مسبّح لله تعالى.

نمط التعليل في النفس: وليد سنة الرحمة الواسعة، حيث كل ما في الكون حادث معلول في حدوثه لمظاهر رحمة الله الواسعة في المحبة والألفة، والعاطفة الأبوية أو الود.

ونمط التصديق في النفس: وليد سنة الحق والعدل الكونيّة، حيث كل ما في الكون بدأ بالحق ويقوم بالعدل ويستمر معها.

ونمط القياس في النفس: وليد سنة الإمامة الكونيّة، حيث كل ما في الكون لا بدّ له من ذاته لذاته إمام، ولا بدّ له من صنفه لصنفه إمام، يبدو به حسن تلك الذات أو ذلك الصنف، إذ بدون الإمام لا معنى جميل لخلق تلك الذات أو ذلك الصنف.

ونمط التجريب في النفس: هو وليد سنّة البلاء الكونيّة حيث كل ما في الكون هو بذاته بلاء ومبتلى بغيره في آن واحد.

ونمط التعميم في النفس: وليد سنة التوحيد الكونيّة، حيث كل ما في الكون مترابط بوحدة الثوابت ووحدة الشورط، فهو مربوب لقوة واحدة هي قوة الله تعالى الواحد الأحد، الفرد الصمد.

ونمط الإيمان في النفس: وليد سنة الموت الكونيّة التي لا يفلت منها كائن مادي أو حي أو عاقل لا في الأرض ولا في السموات.

ونمط التكامل في النفس: وليد سنة التطور للأحسن، حيث كل ما في الكون يسير للأحسن وينجذب إليه، ويسر ويبتهج لوجوده.

◎ التجلّي

أما التجلّي: فهو إحاطة الحواس الخمس بالموجود، إحداها أو كلها... ولذا فإن التجلّي غير ممكن إلاّ مع الشروط التالية:

١ - كون الموجود في حدود قدرة الحاسة على الإحاطة به، ذلك لأن كل حاسة لها حدود، ولا يمكنها الإحساس بالموجود إلاّ من خلال تلك الحدود، فإذا كان الموجود خارج تلك الحدود، فلا تجلّي.

أمثلة ذلك: حدود البصر في حدود الضوء المرئي Vi isible ligh الذي يقع بين (٤٠٠٠^{A0} – ٧٥٠٠^{A0}) إنكلستروم لطول موجته، أما خارج هذه الحدود فلا رؤيا ولا تجلي لأي موجود للباصرة.

أما حدود السمع: فتقع في حدود (20 - 20000) ذبذبة/ ثانية للأجسام المصوتة أقل من هذه الحدود أو أكبر فلا تجلّي لأي موجود للسامعة.

أما حدود الذوق: فيعتمد على إمكان اللّعاب على إذابة المادة المتذوقة إلى شوارد (إيونات) تؤثر على النهايات العصبية الحسية، وإلاّ فلا تجلّي للذوق.

كذلك حدود الشم: فتعتمد على إمكان المخاط من إذابة الغازات المحيطة بها وإلاّ ففي حال الرشح يقل الشم أن ينعدم، فلا تجلّي.

ويبدو هنا أن حاستي السمع والبصر فيزياويتان لاعتمادهما الضوء والصوت، أما حاستا الذوق والشم، فكيمياويتان لاعتمادهما التفاعل في أوساط مائعة على نهايات العصب الحسي، حيث يتم نقل حاصل التفاعلات إلى الفصوص الحسيّة في الدماغ، يتم بعدها التجلّي.

أما حاسة اللّمس: فحدودها تجاوز المحسوس في درجة حرارته، حرارة اللامسة وقدرته في تغير واقع بناء اللامسة، وفي عدا ذلك لا تجلي.

٢ - **كون الحواس سليمة**: فإن علّة تصيب الحاسة، أو في حال فقدانها فإن النفس تفقد إحدى نوافذها لتجلّي الموجودات من حولها.. وفي حالة مرض الحاسة قد يحصل خلل في استجلاء الأشياء كمرض العين بالانحراف، الذي يفقدها تجلّي الخطوط الطولية دون العرضية في المربعات.

٣ - **أن يكون المتجلّي حاضراً في وسط التجلي**: حتى في فرض وقوع الموجود في حدود الحس للحاسة، وفي شرط سلامة الحاسة، فلا بدّ أن يقع المتجلّي في وسط التجلّي كي يحصل التجلّي.

مثال ذلك: لتجلي الموجود في الباصرة الضوء المرئي، فمع الباصرة السليمة وجود الشيء لا يمكن رؤيته في الظلام، فلا تجلي.

مثال ذلك أيضاً: لتجلي الموجود المصوت في السامعة، لا بدّ من وجود الوسط الناقل كالهواء مثلاً، ففي الفراغ لا يتجلى الجسم المصوت.

مثال ذلك أيضاً: لتجلي الموجودات أن المشمومة كالعطور أو المتذوقة، لا بدّ من وجود السائل المؤين كاللعاب أو المخاط.

مثال ذلك أيضاً: لتجلي الموجودات ذات الطاقة، الحركية أو الكامنة، أو الحرارية، لا بدّ من وجود وسط ناقل، وإلا فلا تجلّي للامسة.

٤ - **أن تكون النفس منتبهة ومتوجهة للكائن الذي تطلب تجلّيه، فحتى إذا توفرت كل شروط التجلّي دون أن تكون النفس متوجه ومنتبهة لما تريد، فإنه لا تجلّي.**

فمثلاً: قد تدخل مكاناً ما وتخرج منه دون أن تنتبه لوجود شيء، فلا يتجلى لك،

بعكس ما لو كنت تبحث عن شيء وتقصده فأنت منتبه له، فإنه إن كان موجوداً يتجلى لك.

٥ - ملاءمة البيئة والحدود والنظام لتجلي الموجود على حقيقته، فقد تخدع الحواس بالبيئة المصطنعة فلا يتم التجلّي، وقد يكون للبيئة حدود تمنع تجلّي الموجود مع وجوده بشروط التجلّي.

وهذا ما نراه في مظاهر التمويه الذي تبرزه بعض الكائنات في الطبيعة كحالة دفاع غريزية والذي يمنع غالباً من تجلّيها، أو ما نراه في ما يمارسه القانون الكوني في خفاء بعض الموجودات، كالحرارة الشديدة، أو الجاذبية الشديدة، أو البرودة الشديدة، أو اللون الواحد (mono coulour) في حدود مسيطرة والذي يبدو فيما يستعمله تجار الأقمشة في وضع مصابيح أحادية اللون في متاجرهم؛ حيث لا يتجلّى اللون الحقيقي للقماش في اللون المسيطر الأحادي.

◎ موجبات عدم التجلّي

إن من موانع تجلّي الله تعالى هي: وحدانيته الصمدية، ثم إحاطته وسعته سبحانه ثم هيمنته وإستطالته، ثم إستدامته وثابته، فالله سبحانه وتعالى جليّ لا يتجلّى، لأنه كما يقول الإمام علي عليه السلام: **«واحد لا بعدد»**.

◎ الوحدانية

تفرد الله سبحانه وتعالى بالوحدانية، الجليّة بوحدة خلقه، المتميّزة بوحدة الثوابت والشروط النافذة في كون خلقه، المميزة بإدراك أن وحدانيته هي الوجود كله.

يقول الإمام علي عليه السلام في هذا المعنى: «الحمد لله الذي لم يسبق له حالٌ حالاً، أفيكون أولاً قبل أن يكون آخر، ويكون ظاهراً قبل أن يكون باطناً، كل مسمى بالوحدة غيره قليل...».

ذلك معناه أن الواحد كما هو في نمط تعلمنا حيث هو عكس نمط معرفة الله التي أشرنا إليها، في معرفتنا أن الواحد هو أقل العدد ومبتدأه، ومن كان واحداً متفرداً عن الشريك محروماً من المعين، كان محتقراً لضعفه ساقطاً لقتله، أما الوحدانّية لله تعالى، فتعني:

أ - **الصمدية**: وهي الإمتناع على التجزئة والتركيب.

ب - **الاستطالة**: وهي الهيمنة بالسلطان والقوة والعظمة.

ج - **الثبات**: لم يسبق له حال حالا، كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام.

د - **الاستدامة**: وهي الديمومة.

هـ - **الإحاطة**: وهي الاحتواء الحكيم لكبره اللاّمحدود.

وفي حديث أنه سأل ذعلب اليماني أمير المؤمنين عليه السلام: «هل رأيت ربّك؟».

فقال عليه السلام: أفأعبد ما لا أرى!

فقال ذعلب: وكيف تراه؟

فقال عليه السلام: لا تراه العيون بمشاهده، ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان.

قريب من الإشياء غير ملامسٍ، بعيد منها غير مباين، متكلم لا بروية، مريد لا بهمة، صانع لا بجارحة، لطيف لا يوصف بالخفاء، كبير لا يوصف بالجفاء، بصير لا يوصف بالحاسة، رحيم لا يوصف بالرقة، تعنو الوجوه لعظمته، وتجب القلوب من مخافته»[1].

كان قول أمير المؤمنين عليه السلام هذا تقويماً لما سيأتي من بيان عن معاني التجلّي والجّلاء بما يوافق لا تراه العيون بمشاهدة ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان.

من هنا نبدأ مسيرة البحث في موجبات عدم التجلّي التي هي انعكاس لمعاني وحدانيته، وكما يأتي:

١ - الوحدانية في الصمدية:

قال أمير المؤمنين عليه السلام:

«ما وّحده من كيّفه، ولا حقيقته أصاب من مثّله، ولا إياه عني من شبّهه، ولا صمّده من أشار إليه وتوهّمه»[2].

ومعنى لا صمّده من أشار إليه وتوهمه بمعنى أنه، قصده على ذات هيئة، عند الإشارة إليه، توهماً، إذ مع وهمه في تلك الهيئة التي أشار إليها، يكون قد ركّبه أو جزّأه، وهو ما يتنافى مع معاني الصمدية في الوحدانية، التي تمتنع على التجزئة مثلما تمتنع على التركيب.

(١) شرح نهج البلاغة (محمد عبده) ٢/ ٩٩ - ١٠٠.

(٢) شرح نهج البلاغة (محمد عبده) ٢/ ١١٩.

وهذا ما يتوضح في قوله عليه السلام في خطبة أخرى لبيان معاني التوحيد: «**كمال توحيده، الإخلاص له، وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه، لشهادة كل صفةٍ أنها غير الموصوف وشهادة كل موصوفٍ أنه غير الصفة. فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه، ومن قرنه فقد ثناه، ومن ثناه فقد جزأه، ومن جزأه فقد جهله، ومن جهله فقد أشار إليه، ومن أشار إليه فقد حده. ومن حده فقد عده...**»[(١)].

ففي هذا الحديث توضيح لمعنى الإشارة في حديثه الأول عليه السلام، فالصمديّة: هي الامتناع على التعدد في التجزئة، أو في التركيب على حد سواء؛ هذا لأن أساس الإحساس أصلاً يعتمد التعدد والتغير، وحين لا تعدد ولا تغير في تركيب أو تجزئة فلا إحساس، فكيف إذن يحيط الأحساس القاصر بالله تعالى الصمد!!.

من أجل البيان نأخذ الأمثلة التالية من واقع الأشياء في تجلّيها وعدمه مع أنها مادية: فالموجود بمقدار ما يكون مركباً يكون الإحساس به سهلاً، وكلّما كان بسيطاً يكون الإحساس به صعباً، مثال ذلك: وجود القوة.

فالقوة موجودة لا ينكرها أحد إلاّ أن تجلّيها بذاتها صعب جداً، وإنّما نحن نحسها من خلال أثرها في إزاحة الأشياء ولولا الإزاحة فلا إحساس ولا تجلي للقوة بذاتها، وإن وجدت، كأن تضغط على حائط دون إزاحته.

ومثال آخر: الحركة، فالحركة موجودة طاقة لا ينكرها أحد، إلاّ أن تجلّيها بذاتها صعب جداً، وإنما نحن نحسها فقط من خلال الأجسام المتحركة، ولولا هذه الأجسام فلا إحساس ولا تجلّي للحركة بذاتها وإن وجدت، كأن نضع جسماً على مرتفع، فإن فيه حركة كامنة لا تبدو إلاّ عند سقوطه.

فالقوة والحركة موجودات بسيطة جزئية البساطة يمكن تجليها للإحساس بذاتهما إنّما من خلال آثارهما، فنحن لا ندرك الحركة إنّما ندرك المتحرك، وكذا لا ندرك القوة بل نرى الإزاحة... فكيف بالواحد الصمد، كيف يمكن أن يتجلى؟ ونحن الذي يصعب علينا استجلاء الحركة بذاتها أو القوة بذاتها... كيف نطلب بأوهامنا تجلي خالق القوة ومبدع الحركة؟!.

إذن فنحن نستجلي بحواسنا الموجود البسيط بصعوبة، ومن خلال آثاره ندركه

---

(١) شرح نهج البلاغة (محمد عبده) ١/ ١٥.

بعقولنا، وكلما كان الموجود في بساطته كمال ويقترب من الصمدية، كلما كان الإحساس به يقترب من الاستحالة، حتى إذا كان الصمد سبحانه كان تجليه للإحساس مستحيلاً، ولكنه يدرك بالعقول من خلال آثاره في خلقه، وتلك هي معرفة الله تعالى تبدأ من صمديته في تركيب كونه وأجزاء خلقه.

٢ - الوحدانية في الاستطالة:

وهي التفرد بالملك، والهيمنة بسلطان القوة والعظمة سبحانه وتعالى.

يتجلى الموجود للحواس كلما كان صغيراً مقدوراً عليه محدوداً لا سلطان له؛ حيث هذه الصفات وغيرها من صفات التبعية تجعلها متحركاً بسلطان غيره، مسخراً لقدرة من هو أقدر منه، فالإحساس كما قلنا هو أصلاً يعتمد التغير والتبدل... أما إذا كان الموجود يتمتع بالاستطالة؛ أي أنه مهيمن بسلطان ما؛ فإن تجلّيه يكون صعب بمقدار هيمنة سلطانه في وجوده.

مثال ذلك: استطالة النوم على النائم؛ فإن تجلّي الحال للنائم أنّه نائم صعب جداً، ولذلك تجده أن رأى في نومه مثلاً رؤيا مخيفة فإنه ينفعل ويخاف، حتى إذا استيقظ وجد أن قلبه يخفق بشدة من الخوف وأنّ عرقه يتصبب، ولولا سلطان النوم عليه واستطالته على نفسه لتجلى له أنه مجرد حلم.

ومثال آخر: استطالة الرائحة أو العطر على حاسة الشخص الذي يعيش في غرفة مثلاً لها رائحة مميزة مهما كانت قوية فإنه إذا عايشها لمدة طويلة دون أن يخرج منها، فإنه لا يستجلي تلك الرائحة في حاسته إلاّ أن يدخل عليه أحد، فينبهه عليها أو أن يخرج هو ثم يعود للغرفة فيباشر التغير على حاسته، فيحصل له التجلّي.

ومثال ثالث: استطالة التقاليد والعادات على الإنسان قد تجعله يفعل أشياء لا يستجلي معانيها إلاّ إذا خرج من استطالة تلك العادات والتقاليد.

ومثال رابع: استطالة الحب، أو استطالة الغضب، تعمي العيون وتُصم الآذان، وكل الحواس عن استجلاء الموجودات بما يناسب تلك الاستطالة، فلا يستجلي المحب أو الساخط شيء من الحقائق الموجودة حتى يقول الشاعر:

[البحر الطويل]

وعينُ الرّضا عن كلِّ عيبٍ كليلةٌ ولكنَّ عينَ السخطِ تُبدي المساوِئا

فالتجلّي للموجود إذن رهن عدم استطالته، أما إذا كان له خط من الاستطالة والهيمنة بسلطان ما على النفس، فإن خطه من عدم التجلّي يساوي خطه من الاستطالة، وهكذا كلما امتدت استطالته استحال على التجلي للحس.

على هذا، فكيف إذن بالله سبحانه وتعالى المهيمن بالسلطان الذي لا يقهر!!

يقول الإمام علي عليه السلام: **«كل شيء خاشع له، وكل شيء قائم به»**[١].

بهذا يكون تجلّيه سبحانه وتعالى مستحيل، مثلما يكون جلاؤه أوضح من فلق الصبح. فسبحان **«المتجلّي لخلقه بخلقه، والظاهر لقلوبهم بحجته»**[٢].

٣ - الاستدامة (الدائم في وحدانيته):

قال أمير المؤمنين عليه السلام:

«الحمد لله الأول فلا شيء قبله، والآخر فلا شيء بعده، والظاهر فلا شيء فوقه، والباطن فلا شيء دونه»[٣].

هذا تعبير عن صدق الديمومة وثباتها لله تعالى والذي يعبر عنه عليه السلام في مكان آخر بقوله: **«تبارك الله الذي لا يبلغه بُعد الهمم، ولا يناله حُسن الفطن، الأوّل الذي لا غاية له فينتهي، ولا آخر له فينقضي»**[٤].

وفي نفس المعنى يقول عليه السلام: **«الأوّل قبل كل أوّل والآخر بعد كل آخر، بأوّليته وجب أن لا أول له، وبآخريّته وجب أن لا آخر له»**[٥].

وفي بيان أوضح يقول الإمام عليه السلام في معنى ديمومته سبحانه:

«ليس لأوّليّته ابتداء، ولا لأزليّته انقضاء، هو الأوّل لم يزل، والباقي بلا أجل»[٦].

ويقول عليه السلام في هذا المعنى:

«واحد لا بعدد، ودائم لا بأمد، وقائم لا بعمد، تتلقاه الأذهان لا بمشاعره، وتشهد له المرائي لا بمحاضره، لم تحط به الأوهام، بل تجلى لها بها، وبها امتنع منها، وإليها حاكمها»[٧].

---

(١) شرح نهج البلاغة (محمد عبده) ١/ ٢٠٩.
(٢) شرح نهج البلاغة (محمد عبده) ١/ ٢٠٦.
(٣) شرح نهج البلاغة (محمد عبده) ١/ ١٨٦.
(٤) المصدر نفسه: ١/ ١٨٤.
(٥) المصدر نفسه: ١/ ١٩٤.
(٦) المصدر نفسه: ٢/ ٦٥.
(٧) المصدر نفسه: ٢/ ١١٥.

ونحن نجد على صعيد الواقع أن الموجود كلما اكتسب من عناصر الاستدامة في وجوده، كلما صعب تجلّيه، وكلما كانت استدامته جزئية كلما كان تجليه ممكناً في حين يكون الموجود سريع التغير، يكون شديد التجلّي واضح الحواس بل يجذب الحواس جذباً.

مثال: وجود مصباح مستديم في إضاءته، وآخر يشتعل ثم ينطفىء بالتناوب؛ فإن الذي يلفت الإحساس بالنظر لوجوده هو المصباح الذي لا يتمتع بالاستدامة في اضائته؛ أما المستديم الإضاءة فإنه لا يلفت النظر كثيراً.

ولهذا السبب توضع في الأماكن العالية والأبراج مصابيح تضيء وتنطفىء لتجلّب النظر أثناء الليل للطيارين تحذيراً لهم من الارتطام.

ومثال آخر: الجاذبية الأرضية بما لها من عناصر الاستدامة على جسم الإنسان، فإنه يكاد يتجاهلها.

إنّ وجود الجاذبيّة أقوى من وجود الإنسان وأدوم، ولكنه بسبب حيازته لعناصر من الاستطالة والديمومة يصعب جداً على الإنسان الإحساس بها وإن كان له حظ من العلم فإنه يدركها ولا يحسها، لأنه يلاحظ تأثيرها غير المباشر من خلال حركة الأجسام وسقوطها، وقد يحصل أنه بحساب درجات السلّم وهو يصعد فيعطي قوة إضافية لقدمه، فيضحك لأنه يعلّل ذلك بخطأه، وليس لاستدامة الجاذبية عليه، وعندما يهرم أو يمرض ويتحتم عليه صعود سلّم يحس بتجلّي الجاذبية.

إن الإنسان بل والكون كله يعيش في بحر مستديم من الجاذبية لكن لا تجلي لهذا المحيط المذهل، ويكلفنا مئات الأطنان يومياً وفي كل لحظة دون أن نشعر به، بل أنّ رواد الفضاء يتدربون على الحركة في أجواء من انعدام الجاذبية كي يتعلموا كيف يتصرّفون؟ فلربّ حركة إعتادها في وجود واستدامة الجاذبية تفقده يده أو رجله أو تكلفه كثيراً.

والجاذبية مخلوق موجود باستدامة جزئية يصعب تجلّيها للحواس، فكيف يتجلى المستديم المطلق!! الذي يقول عنه الإمام عليه السلام:

«الدائم بلا أمد».

فسبحانه الجلّي الذي لا يتجلّى، والدائم الذي لا غاية له، فينتهي ولا آخر له، فينقضي.

٤ - الثبات في الوحدانية:

الثبات كما يعبّر عنه أمير المؤمنين عليه السلام إذ يقول:

«الحمد لله الذي لم يسبق له حالٌ حالاً...»(١)، فالثبات هو الاستقرار دون الجمود، وهو في الموجودات حالة عدم تغير الطور الوجودي لها مع الزمن، وهناك من الموجودات من يتمتع بالثبات الجزئي في هذا المعنى، فالموجود إذا لم يتغير طوره، يصعب تجلّيه للحواس لدرجة الاستحالة.

والطور: هو النمط الوجودي للمخلوق، كأن يكون محض طاقة، فالطاقة الكامنة مثلاً وجود لا يتجلّى مع أنه كائن في كل جسم، أو يكون إشعاع لموجة كهرمغنطيسية، أو يكون ذات لون أحادي - أي غير متحد مع جسم - أو محض سائل لا يتحمل إلى صلب أو غاز، أو غاز مطلق لا يتحول إلى سائل أو صلب، أو مثل حالة البلازما، حيث تتمتع بشكل ثابت وحجم متغير.

إنّ تمتع الموجود بالثبات الجزئي يصعب معه تجلّيه للحواس، فكيف بالله سبحانه وتعالى الذي يصف الإمام علي عليه السلام ثباته المطلق بقوله:

«لا يشغله شأن، ولا يغيره زمان، ولا يحويه مكان، ولا يصفه لسان»(٢).

ويقول في معنى ثباته عليه السلام في مكان آخر:

«الدال على قدمه بحدوث خلقه، وبحدوث خلقه على وجوده»(٣).

ويصف عليه السلام ثبات الله تعالى بقوله: **«واحد لا بعدد»**. أو يقول عليه السلام: **«الأحد لا بتأويل عدد»**(٤).

لأن في التعدد خروجاً على الطور، فلا ثبات.

مثال: من الثابتات الجزئية من الموجودات هو الضغط الجوي، وهو قوة تسلط على السنتيمتر المربع الواحد ثقل يساوي عمود من الزئبق طوله ٧٦ سم زئبق عند سطح البحر.

---

(١) شرح نهج البلاغة (محمد عبده): ١/ ١١٢.
(٢) شرح نهج البلاغة (محمد عبده): ٢/ ٩٧.
(٣) شرح نهج البلاغة (محمد عبده): ٢/ ١١٥.
(٤) المصدر نفسه: ٢/ ٤٠.

والآن لو قلت لأي شخص أنك تحمل على جسمك حوالي ٦أطنان، فعليه من موجود اسم الضغط الجوي، فإن كان من أهل العلم فإنه يصدقني ولكن لا بحواسه بل بعلمه، أما إذا لم يكن من أهل العلم، فلا يصدقني.

والسبب: هو أن الضغط الجوي من الثوابت الذي يولد به الأنسان ويعيش حتى منتهى أجله، نعم قد يتغير عند الناس الذين يغوصون إلى أعماق عميقة في البحر أو عند الطيارين الذي يجازفون بارتفاعات هائلة، ولذا فهذا التغير يصير مبعثاً للإحساس بالضغط الجوي كوجود حقيقي عند هؤلاء المجازفين فقط.

والضغط الجوي موجود ذو ثبات جزئي، فكيف بالمطلق في ثباته سبحانه؟ هل يمكن تجلّيه!!.

«سبحان الرادع أناسي الأبصار عن أن تناله أوتدركه»(١).

وأناسي الأبصار: هو البؤبؤ، ربما عن عظمتها مع صغرها نسبةً إلى عظمة الله، وهو الكبير المتعال.

٥ - السعة في وحدانيته سبحانه:

السعة: هي الكبر والامتداد في ابعاد الموجود الوجودية، فكلّما كبرت وامتدّت ابعاد الموجود في وجوده، كلما صار ممتنعاً على الحواس أن تستجليه.

مثال ذلك: كبر سعة الموجه الصوتية كلما ابتعدت عن مصدرها لا يعدم وجودها، ولكن يعدم تجلّيها للسامعة.

مثال آخر: اتساع وجود الجاذبية على الأرض بعد تجلّيها، وكذا اتساع وجود الضغط الجوي في محيط الأرض بعدم تجلّيه للحواس.

وعلى العموم فمن الواضح أنّ الاتساع في كل شيء يتنافى مع محدوية الحواس في قدراتها على الإحاطة بالمحسوس.

والله سبحانه وتعالى وكما يقول الإمام عليه السلام: **«لا يشمل بحد ولا يحسب بَعِدّ، وإنما تحدّ الأدوات أنفسها، وتشير الآلاتُ إلى نظائرها، منعتها منذ القدميّة، وحمتها (قد) الأزلية، وجنبتها (لولا). التكملة، بها تجلى صانعها للعقول، وبها امتنع عن نظر العيون، لا يجري عليه السكون والحركة...»**(٢).

---

(١) المصدر نفسه: ١/ ١٦١.

(٢) نهج البلاغة: الخطبة ١٨٦/ ٢٧٣.

إنه سبحانه وتعالى وسع برحمته وعلمه وسلطانه... كل شيء فلا حدود لسعته، وإذا كانت الحواس قاصرة عن استجلاء مخلوقاته لسعتها فكيف تدركه وتحيط به!!.

٦ - الأحاطة في وحدانيته جلّ وعلا:

الإحاطة: هي شمول الموجود بوجوده لموجودات أخرى، وكلما كان الموجود، محيطاً كلما صعب تجلّيه.

فمثلاً: إحاطة الماء بحياة الأحياء المائية، فالسمكة لا تدرك أنها في الماء، حتى إذا خرجت منه بقيت تدير حركاتها وكأنها لا زالت في الماء.

واحاطة الهواء بنا تجعلنا لا نستجلي حقيقة ما نحمل من قوته على أجسامنا، واحاطة قوة الجذب الشاقولي لمركز الأرض بنا تعدم، والماء والهواء والجاذبية، بل والكون كله، هي موجودات احاطتها جزئية ومع هذا يصعب تجلّيها، فكيف بالمحيط المطلق!!.

سبحان الله الذي لم يتجلّ مع جلائه وبيان آياته.

هذه هي موجبات عدم التجلّي في واقعها، وخارج وجود الإنسان وطبيعة معرفته وتعلّمه، باعتبار العلم - كما قدمنا - ناتج المطابقة بين السنن التكوينية في نفسه مع السنن الأم في الكون، فإذا كانت المطابقة جزئية، كذلك تكون معرفته جزئية، وتكون المعرفة تامة بتمام المطابقة، وهي التجلّي عند السعي بالحواس أو الجلاء عند السعي بأنماط التعلم.

وإنّ موجبات عدم الجلي هذه لا تعني شيئاً أمام قدرة الله تعالى بعيداً عن حقائق المعرفة في الوجود الكلي والموجودات، وإنّ عدم تجلّيه هومن فصول سنّة رحمته الواسعة التي كتبها على نفسه، فإن شاء الله تعالى التجلّي فإن لا شيء في الوجود يقوم لتجلّيه، ويبدو ذلك واضحاً من طلب موسى عليه السلام رؤية ربّه.

قال تعالى:

﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(١).

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٤٣.

وهو بيان واضح للرحمة الواسعة، والحكمة والتدبير الحسن، في التعليق على المحال بين استقرار الكون وبين تجلّي الخالق لخلقه.

◎ الله تبارك وتعالى ظاهر باطن

نقل العلامة المجلسي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال:

«ما دلّنا باضطرار قيام الحجة على معرفته، وظهرت البدائع التي أحدثها آثار صنعته، واعلام حكمته، فصار كل ما خلق حجة له ودليلاً عليه، وإن كان خلقاً صامتاً فحجته بالتدبير ناطقة، ودلالته على المبدع قائمة، فأشهد أن من شبّهك بتباين أعضاء خلقك، وتلاحم حقاق مفاصلهم المحتجبة لتدبير حكمتك لم يعقد غيب ضميره على معرفتك، ولم يباشر قلبه اليقين بأنه لاندَّ لك، وكأنه لم يسمع بتبرّؤ التابع من المتبوعين، إذ يقولون: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾[(١)] . . .»[(٢)].

إنّ توجيه أمير المؤمنين عليه السلام هذا يشير إلى معرفة الله تعالى ابتداءً من آثاره الظاهرة البارزة في خلقه إليه جلّ وعلا، ويبدو ذلك في الملاحظات التالية طبقاً للسنة الحسنة في خلقه، وهي بديهيات كونيّة بارزة، وظاهرة يراها الجميع:

أوّلاً: نرى أن كل الموجودات مستجيبة لأنظمة وجودها، ولولا استجابتها لنظام وجودها لما وجدت ولا ظهرت للعيان، حتى وإن اختلت استجابتها لنظام وجودها لسبب من الأسباب انهارت أن انعدمت. والاستجابة لنظام الوجود من قبل الموجود هو طاعة لمصمم ذلك النظام ومبدعه، فنحن إذاً نرى ظاهر الطاعة من خلال ظاهر الوجود وتوجهاته، ونرى ظاهر الاستجابة للكائن من خلال حسن أدائه لوظائفه الوجودية، كذلك نرى ظاهر سخرية المخلوقات الحية بأداء وظائفها، أو تسخرها بإنجاز وظائف الحياة وفق نظامها نباتية كانت أو حيوانية. كل هذه الظواهر في الطاعة التي نراها إنما يبطن معانيها مضمون نظام هو تعبير عن مشيئة الخالق المبدع، الباريء الحكيم، المصور المحسن.

فالاستجابة الطوعية من لدن الموجودات والأحياء والناس هي الطاعة، والتوجه الحسن منها هو التسبيح والخضوع لإرادة الخلاّق العظيم هو السجود.

---

(١) سورة الشعراء، الآية: ٩٧ - ٩٨.   (٢) بحار الأنوار: ٥٤/ ١٠٧ - ١٠٨.

وقد أشار سبحانه وتعالى في كتابه العزيز إلى ذلك في آيات كثيرة منها، قوله:
﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾(١).
ومنها قوله:
﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾(٢).
ومنها قوله:
﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾(٣).
فالطاعة والتسليم والسجود ظاهر لمضمون باطن هو: مربوبية الموجودات والأحياء والناس لله تعالى الواحد الأحد، الذي لا معبود سواه في الواقع الصادق.

ثانياً: نرى كل الموجودات تتكون في بنائها من وحدات بنائية متشابهة، فالمادة تبنى من الذرات والجزئيات، وتلك الوحدات البنائية تشدها أواصر المحبة التي يسمونها الألفة الكيماوية (Chemical ettenetty) وتجمعها وتربط بين وحدات بنائها قوة المحبة التي يسمونها الآصر الكيمياوي (Chemical Bond).

أمّا في الكائنات الحية، فإننا نى مظاهر المحبة واضحة جداً، تبدو في محبة الأنثى للذكر أو الذكر للأنثى، ومحبة الوالدين للأبناء، ومظاهر محبة واسعة بين أجزاء النظام البيئي الحي الواحد، وفي التعاون والتنسيق والتعايش التي تبديه النظم الحيّة والحياتية فيما بينها.

وأجمل الظواهر الحسنة التي نراها بارزة للحواس، إنّما هي حاصل لباطن الرحمة التي كتبها الله تعالى على نفسه فهي أصل مشيئته سبحانه وتعالى في خلقه. لماذا تغرد الطيور؟! لماذا تتلون الورد والأزهار؟! ولماذا تتعطر؟!. لماذا تعطي الأشجار الأوكسيجين وتنتج التمر الحلو والطيب والغذاء؟ لماذا تعطي النحل العسل، والأنعام اللبن، والقز الحرير...؟! لماذا ترى كل الأحياء في دأب دائم على مظاهر الحب والمحبة؟ أعشاش تبنى؟! وصغار تزق وترضع؟! بيض يحتضن على مضض؟! صغار تخدع وتربى؟!.

أنها ظواهر المحبة والود والعطف لباطن الرحمة التي هي أصل الوجود، وأصل الحياة، وأصل العقل.

---

(١) سورة فصلت، الآية: ١١.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ٨٣.
(٣) سورة الرعد، الآية: ١٥.

والتساؤل الذي لا بد منه هو:

ما هي الرحمة؟ لماذا الرحمة؟ وإلى أين تتوجه الرحمة؟ ومن أين مصدرها؟.

الرحمة: علّة في ذاتها لذاتها، فهي أم العلل كلها، جعلها الله تعالى أصلاً لباطن أسمائه وصفاته، فوسعت كل شيء ظاهر، يقول تعالى:

﴿قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾[1].

﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا﴾[2].

وخزائن الرحمة عنده ما دامت تتسبب بها الأسباب كلها، وقد قال سبحانه في ذلك:

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ۝٩ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ۝١٠﴾[3].

والارتقاء في الأسباب يؤدي إلى بلوغ كونها أمُّ العلل والأسباب كلها، فالرحمة أصل وسبب في بدء الخلق يقف الكون عليها ويقوم بها ويستمر بها، ولولا الرحمة فلا وجود ولا حياة ولا عقل، وكل ما نرى من خلق وحوادث هو ظاهر لباطن رحمته جلّ وعلا.

ثالثاً: نرى أيضاً أن هناك ثوابت كونيّة في أعداد وأرقام معروفة ومعلومة ومحددة مثلها، في صدق.. وثبات... النسب بين المعاني والعلّل.. وكالقوى الكونيّة التي تضبط الوجود وتحكمه وتتحكم فيه وهي محددة ومرجعها واحد، والحوادث كلها معلولة لأسباب محدودة وأصلها واحد هو الرحمة، وأصل التكوين المادي واحد، وتصميم البنائي واحد سواء في الذرة المتناهية في الصغر أو في المجموعات الشمسية المتناهية الكبر.

ونرى كل ذلك من خلال العقل، فالعقل بأصل سعيه، إنما يقصد الحقيقة، فالحق غاية كل علم، وعند الحق يقف العقل.

فلماذا الحق؟ وما هو الحق؟ ولماذا السعي إليه؟ لماذا نطلب العدل والحق والصدق؟!.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٥٦.

(٢) سورة غافر، الآية: ٧.

(٣) سورة ص، الآيتان: ٩-١٠.

إنّ الحق علّة في ذاته، وإن كل ما في الكون بما فيها العقل، إنما تبطنه الحقيقة، وغايته في سعي الحق بدأ به الكون ويقف عليه ويدوم ويستمر به.

فالحق باطن لظاهر الوجود ومظاهره، وهو باطن لظاهر الحياة ومظاهرها، وهو باطن لظاهر العقل، ونحن إنّما ندرك العاقل من خلال مشاهداتنا له وهو يصيب الحق، وكذلك فنحن ندرك كمال العقل ونراه ظاهراً من كمال إحاطته بالعدل وقوله وفعله الصدق.

فالوجود والحياة والعقل ظواهر لباطن الحق والعدل والصدق.

وكلاهما آثار لمعاني أسمائه الحسنى جلّ وعلا، وسبيل لمعرفته جلّ وعلا، كما يشير الإمام علي عليه السلام في قوله: **«فصار كل ما خلق حجة له، ودليلاً عليه»**(١).

رابعاً: نرى أن الوجود والحياة والعقل معاني بارزة واضحة ظاهرة ضمن نظم (Systemes) ولا يكتمل معنى الحسن في خلق تلك المجاميع المعزولة في ذواتها أو في أصناف خلقها، إلاّ من خلال خلق معين في ذاتها لمعاني الحسن في ذاتها، أو خلق لمعنى الحسن من صنفها لصنفها، وبدون ذلك الخلق في ذلك النظام، فلا معنى للحسن لذلك الخلق ذلك هو الإمام.

فمثلاً من الذات للذات في النظام المادي (Material System)، يكون البروتون هو الإمام للمادة، ولا معنى للوجود المادي بدون خلق البروتون، بل لا يمكن نظام مادي للكون بدون البروتون على الإطلاق، حيث هو إمام المادة.

وبالنسبة للنبات أو الحيوان أو الأحياء المجهرية - الأحياء عموماً - فلا يمكن تصور نظام حياة (Life System) بدون الـ (DNA) وهو الإسم المختصر للحامض الدوكسي النووي الريبوزي - - Deoxy Ribo Nucleic Acid) حيث هذا الـ DNA هو إمام الحياة أو كما يسمونه شفرتها ومعانيها.

وبالنسبة للحيوان وحده والنبات وحده، لا يمكن تصور معنى للنبات بدون منطقة اتصال الساق بالجذر، كما لا يمكن تصور معنى للحيوان بدون الدماغ، كما لا معنى لخلق الإنسان بدون عقل، حيث العقل هو إمام خلق الإنسان، وهذا معنى الإمام في

(١) نهج البلاغة: الخطبة ٩١ج/١٢٦.

خلق الذات للذات، وأما في الصنف للصنف فهو واضح ظاهر بارز في كل نظام خلق، حيث لا بدّ من إمام من صنفه لصنفه.

ففي النحل ملكة، وفي النمل ملكة، وفي الظباء الوعل، وفي الضأن الكبش وفي النمور والأسود القوي، وفي الطير القائد في الهجرة الذي هو على رأس الزاوية كما يظهر، وفي السمك الرائد الذي يظهر في رأس المثلث في سعيها للتكاثر. وفي الإنسان يظهر أكثر وضوحاً في العائلة الرب، وفي الأسرة العميد، وفي القبيلة زعيم القبيلة، وفي الشعب القائد، وفي الحكومة الحاكم... الخ.

وهذه حقائق نظم الوجود والحياة والعقل، إنّما هي باطن الإمامة، حيث الإمامة باطن لمضمون مشيئة الله في خلقه الذي يقود لظاهر التنظيم والسيادة والقيادة التي لا بدّ منها.

والآن لماذا لا بدّ من إمام؟ لماذا لا بدّ من نموذج خلق باطن لحسن الخق الظاهر في ذات كل وجود أو في صنف كل صنف؟!

إنه مضمون مشيئة الله تعالى الباطن لظاهر الخلق الرباني، سبحان الذي جعل الخلق الظاهر دليلاً لمعاني وجوده، وأثراً لأسرار عظمته التي يشير إليها إمام البلغاء عليه السلام:

«ما دلّنا باضطرار قيام الحجة على معرفته، وظهرت البدائع التي أحدثها آثار صنعته، وأعلام حكمته».

خامساً: الموت ظاهر بارز وهو حتماً على كل خلق، فما الموت؟ ولماذا الموت؟ وكيف صار سنة وحتماً؟

الموجودات الماديّة تموت بالتحول إلى ثقوب سوداء، والأحياء تموت وتعود إلى المادة، والإنسان يموت كذلك، والموت ظاهر لباطن معنى الحياة والتواصل فيها، مثل الولادة والصيرورة، فهي ظواهر لباطن الحياة الحقيقة واستمرارها باتجاه الأحسن، فالحسن لازم لرفع القصور المادي، فيكون الإنسان في طوره النطفي أفضل من وجوده المادي الميت قبل الصيرورة، وعندما تلجه الروح وهي من أمر الله تعالى في حالة أوسع من رفع القصور عن المادة، ولذا فإنه يكون أحسن في خلقه من خلق النطفة... وهكذا يستمر يتنقل من حال إلى حال أحسن في خلقه، جنين، فطفل رضيع، فصبي، فشاب، فكهل، حتى إذا مات انتقل إلى حالة أحسن من رفع القصور بغض النظر عن الثواب أو العقاب الذي يتلقاه، فبعد الموت يصير بصره حديداً يقول في

ذلك العزيز الحكيم: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾[1].

فالحسن لازم لرفع القصور المادي والحيوي والعقلي، مثلما القبح لازم للقصور الكلي. والحياة هي خيار الله تعالى لآدم وذريته، والجنّة هي خيار الله تعالى لتلك الحياة، ولذا يقوم الإمام علي عليه السلام في دعاء كميل بن زياد:

«فباليقين اقطع لولا ما حكمت به من تعذيب جاحديك، وقضيت به من إخلاد معانديك، لجعلت النار كلها برداً وسلاماً، وما كان لأحد فيها مقراً ولا مقاماً. . .»[2].

ولذا فإن الصيرورة والموت والبعث والنشور والحساب والثواب والعقاب كلها موصّلات باتجاه الدار الآخرة التي يسميها الله سبحانه وتعالى الحياة الحقيقة (الحيوان). قال تعالى في إشارة لمعاني هذه الحياة الدنيا والحياة الأخرى:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾[3].

فهذه الظواهر البارزة المترتبة من معاني الحياة والموت هي باطن خيار الله تعالى في حقيقة الحياة، ومضمون مشيئته بالتوجه من الحسَن إلى الأحسن حتى اللانهاية في حسنه جلّ وعلا لخاصته في مقعد صدقٍ عند مليك مقتدر.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾[4].

سادساً: التغيير والحدوث، ظاهر نطّلع عليه ونشهده ونعيشه فهو نفسنا، وهو معنى الوجود ومعنى الحياة، ووجهة العقل، وهو الأصل الذي تعتمد عليه حواسنا. والحدوث هو واقعنا في كل لحظة من لحظات حياتنا وفي كل حَيز من مكان وجودنا، فهو وجود ظاهر لباطن حقيقة البلاء وسنته الحسنة في الكون، فكل شيء في الوجود، وكل جزء من أجزاء الكون لا بدّ أن يكون مبتلى ومبتلى به في آن واحد وفي اتجاهين متضادين.

---

(١) سورة ق، الآيات: ١٩ - ٢٢.
(٢) دعاء كميل بن زيادة النخعي.
(٣) سورة العنكبوت، الآيتان: ٦٣ - ٦٤.
(٤) سورة القمر، الآيتان: ٥٤-٥٥.

وقد أبطن الله تعالى سنة البلاء، فكانت مضمون مشيئته في تجلي حسن مخلوقاته وتمايزها، وقد مضى من ذلك الباطن في خلق الناس ثوابت ثلاث هي:

الإستخلاف في الأرض، وبلاء الدين، وبلاء عداوة الشيطان.

وقد يكون البلاء مختاراً لنقمة الله تعالى وعذابه والتعجيل بفناء خلق أغضبوه وهو الملك الحق المبين.

وقد يكون البلاء مختاراً لرحمته ليرفع درجات من يشاء، أو قد يكون لتثبيت الموقف الذي يجلّي حسن الآدمي أو سوءه وهو الذي يسميه القرآن التمحيص وهو خاص بالمؤمنين، حيث قال تعالى:

﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾(١).

ويقول تعالى في التّمحيص في ذات المعنى:

﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾(٢).

أو يبتلي في سبيل التمايز والظهور والوضوح إذ يقول سبحانه:

﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾(٣).

أو هو فتنة الإبتلاء لتعزيز ملكة الصبر التي بها ترفع الإمان:

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾(٤).

﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾(٥).

فالحدوث والتغير في أحوال الوجود وأحوال الحياة والأحياء، وأحوال العقل والعقلاء ظاهر لباطن سنة الله تعالى الحسنة في البلاء.

سابعاً: يبرز واضحاً ظاهراً في هذا الكون الرائع العجيب من خلق الله تعالى تناغماً وتوافقاً وتناسقاً بين أجزائه ومتراكباته ومكوناته، بصرامة فائقة وبحسابات دقيقة، وبتداخل مدروس في كل نهاياته وحدوده الزمانية والمكانية، وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام في ذلك:

«وقدّر خلقه تقديراً حسناً جميلاً كاملاً، وصوّر كل شيء، فأحسن صورته قبل أن

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٤١.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٥٤.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٧٩.
(٤) سورة الأنبياء، الآية: ٣٥.
(٥) سورة الفرقان، الآية: ٢٠.

ينفذ مشيئته، ويصدر فيه حكم فضائه، . . . وقبل أن يلزم ميعاده ورقته، ويصرف فيه دهوره وحقبه، ويلبسه أيامه التي فيها بيان وجوه خلقه».

وفوق هذا نجد توافقاً وتناسقاً وتناغماً بين المادّة المجردة في ذراتها وجزئياتها وفي عناصرها ومركباتها ومخاليطها، وبين الحياة في معانيها ومميزاتها، وبين العقل في ميزاته وتوجهاته وأحكامه، وكذا فإن هناك توازناً دقيقاً جداً وصارماً بين البيئات المختلفة، فبيئة تتكامل مع بيئة أخرى، وهناك حسابات دقيقة جداً ومدروسة مسبقاً، كالنسب المادية التي تبني الكون في ذاته، وفي أشكال الحياة وأدائها، يظهر ذلك واضحاً بارزاً في النسب التي يتكون منها الهواء الذي يحيط، بنا مثلاً: فنسبة الخمس التي يتكون منها الأوكسيجين (٢١٪)، لو زادت تلك النسب أو نقصت فلا حياة، أو لا حياة كما هي التي نراها ظاهرة.

ثم التناسق والتركيب المتناغم بين هذه النسب وفعاليات الوجود والحياة، فالذي يستهلك في الحياة تعوضه الحياة، فالتنفس والاحتراق يستهلك الأوكسيجين ويزيد في ثاني أوكسيد الكاربون، في حين أن عملية التركيب الضوئي تستهلك ثاني أوكسيد الكاربون وتنتج الأوكسجين لتبقى ما قدّر الله سبحانه وتعالى ثابت.

وهناك ظواهر أخرى بارزة يمكن أن نأخذها كأمثلة على تقديرات لنسب أخرى، كنسب كميات العناصر في القشرة الأرضية، وكذا المركبات والمخاليط متناسقة مع نسب كمياتها في بناء الأجسام الحية بحكمة تفوق كل حكمة لا تقدير المحسن الحكيم.

وهناك ظواهر أخرى بارزة لرحمة الله تعالى تبدو في شذوذ الماء عن قوانين الطبيعة بسبب باطن تركيب وتقدير بناء الماء.

وهناك ظواهر أخرى بارزة تتمثل في مقاربة نسبة كمية، أي عنصر في بناء جسم الإنسان مع نسبته في القشرة الأرضية في تقدير هو غاية في الحسن والحكمة.

فالماء الذي يغطّي (٤/٥) سطح الأرض له نسبة مماثلة في تكوين الأجساد الحيوانية الحيّة، وكذا نسب العناصر الفلزية، مثل الذهب، فلو زادت نسبته كنسبة الحديد، وصار الحديد افتراضاً بنسبة كنسبة الذهب في القشرة الأرضية، لتغير وجه الأرض.

ولو فقد الحديد مثلاً خاصيته المغناطيسية، فلا محرك يدور ولا كهرباء ولا أي

مظهر من مظاهر الحضارة الحالية، فكل ظاهر جميل نجده اليوم له باطن من تقدير الله تعالى ومشيئته.

إنّ قيم الثوابت الكونيّة الفيزياوية منها والفلكية، هي مقادير ثابتة لا تتغير في كل الحسابات العلمية الفيزياوية والكيمياوية والرياضية والفلكية وعلم الفضاء والجيولوجيا... وكذا وحدة القوى الأربع التي تحكم الطبيعة، ووحدة الشروط التي يتطلبها الوجود... كلها ظواهر تدل على الدقة والحكمة والحسابات المدروسة بعناية وبحكمة فائقة.

إذن فالوجود بحسنه وجماله والحياة بروعتها ودقتها، والعقل بكبريائه واتّساعه هي مظاهر بارزة ظاهرة لباطن حكمة الخالق المبدع، والبارىء الحكيم، والمصور المحسن، وهي في كل ذلك مربوبة لوحدانية هذه الصفات.

ثامناً: ظاهرة إرسال الرسل وإنزال الكتب وقيام المعجزات ظاهرة تاريخية، سيما معجزة القرآن العظيم القائمة الآن وإلى الأبد والتي تتحدى العقول أن تأتي بمثلها، فلا يتسطيع أحد أن ينكرها وأن يجحدها، والجحود خلق سوء ينال من النفوس التي يحكمها قدر الشيطان وشركه.

هذه الظاهرة البارزة هي لباطن مضمون دعوة المحسن جلّ وعلا لإحسانه فلقد صمم وأحسن، وبرأ وأبدع، وأحكم وقدر، ثم خلق فكوّن، ثم أرسل الرسل يدعون لحسن ما خلق، وكوّن ويدلونهم على فعل الحسنات، ويحذرون من فعل السيئات، ويعدون بحسن الثواب، ويتوعدون بسوء العقاب.

فمنذ أن خلق الله آدم جعله نبياً، ثم كانت بعده رسله تعالى إلى الناس تترى.

ونعود إلى الحقيقة التي تقول أنّ الحسن لازم لرفع القصور في أصل الخلقة للمخلوق، وأنّ القبح لازم للقصور في أصل خلقة المخلوق.

فالوجود أحسن من العدم، والحياة أحسن من مجرد الوجود، والعقل الحسن من مجرد الحياة أو القول بعبارة أخرى:

إنّ الكائن الحي العاقل (الإنسان) أحسن من الحيوان أو النبات، وأنّ الحيوان أو النبات أحسن من الحجارة، وأنّ الحجارة كوجود أحسن من العدم.

إن القول بالأحسن بديهية عقلية، كما أن الحسن هدف في ذاته في هذا الخلق، فكل

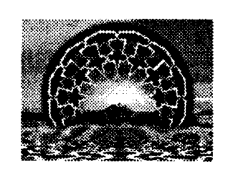
شيء ينجذب للحسن ويسعى إليه، فهو سنّة في أصل الخلقة لكل كائن، والحسن مضمون مشيئة الله تعالى في خلقه.

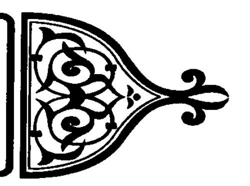
وبما أنّ العلم هو تطابق السنّة التكوينيّة للنفس الأنسانة في سعيها لإصابة الحسن مع السنة الكونيّة مضمون مشيئة الله تعالى في خلقه، لذا فإن الطابق السنّتين وبمقداره في النفس يحصل لها العلم، وبمقداره يكون سرورها واتجذابها حيث تعلم، وحيث لا حسن إلاّ مع العلم.

ولذا فإن تقرير القول بأن الإنسان أحسن من القرد مثلاً لا يثير جدلاً باعتبار ذلك بديهية، ولكن قد تكون شبهة مقابل بديهية للجدال في هذه البديهية تتسرب من خلال اعتبار بعض مصاديق الإنسان بديلاً عن مفهوم الإنسان، فالجهل له أبواب غير محدودة، تدخل منها الشبه مقابل البديهيات في نفوس الجهال، لكن بديهية الحُسن الكوني لا أحد ينكرها أو يجحدها، وهذا من لطف الله تعالى الباطن بالناس، وإلاّ فلا علم، فكل نفس تنجذب للحسن وتسربه وتسعى إليه، وهو سنة في كل خلقه، وإن سلسلة التوجه للإحسن ابتداءً من العدم إلى الوجود إلى الحياة إلى العقل إلى المحسن جلّ وعلا ظاهر لباطن مضمون مشيئة المحسن سبحانه بكل صفاته الحسنى.

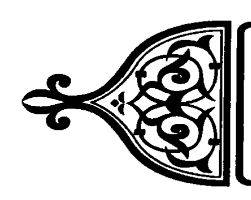
ولو تساءلنا لماذا السعي للحسن الظاهر؟! وما يبطن هذا السعي؟! ولماذا يقع الحسن في تطورات متسلسلة؟ وبماذا يتعلق مقدار الحسن، ومقدار جاذبية النفس إليه وسرورها به؟!.

للإجابة على هذه التساؤلات: هناك موضوع لا بدّ أولاً من فهمه، ففي فهمه جزء من الإجابة، وهو موضوع تعلق القصور واللاقصور في القبح والحسن ورؤيتهما.





القصور والحسُن



◎ مبدأ القصور الذاتي في المادة

من الثوابت الأولية في علم الفيزياء وهو قانون القصور الذاتي : الذي ينص على أن الجسم المادي عاجز عن التأثير في ذاته ما لم تؤثر عليه قوة خارجية تخرجه من قصوره، فتحركه مثلاً إذا كان ساكناً أو توقفه عن الحركة إذا كان متحركاً.

مقابل هذا المبدأ في الجوامد هناك في الأحياء مبدأ القصور الذاتي الحيوي، فالكائن الحي قاصر عن التأثير في ذاته الحيّة، ما لم تؤثر عليه قوة حية خارجية تخرجه من قصوره، فالحياة في الكائن بما يميزها تخضع لقوانين صارمة ودقيقة تتضمنها شفرة ينم عنها تركيب الحامض النووي الـ(DNA) في نواة الخلية لكل صنف من أصناف الحياة، مما يجعل الكائن الحي يتميز عن أقرب المقربين إليه.

وقد بدا اليوم وإلى حد ما، أن الإنسان كقوة حية خارجية يستطيع أن يرفع القصور الحيوي من بعض الكائينات الحيّة، وذلك لأنه استطاع أن يغير تركيبة الـ(DNA) لتلك الكائنات الحية من خلال هندسة الجينات.

وبهذا أصبح الإنسان القوة الخارجية الحيّة التي أثرت على قانون القصور الحيوي جزئياً لتأثيره على الحياة من خارج الذات الحيّة.

فمقابل القصورين الذاتي المادّي، والذاتي الحيوي يوجد قصور ذاتي عقلي، يكون الآدمي عاجزاً عن التأثير في عقله للتوجيه باختباراته، دون خطل لإصابة الأحسن وفق سنن الكون في تمام الطاعة والإحسان والرحمة، والعدل والصبر على البلاء، والإمامة والدعوة إلى الأحسن، دون قوّة عاقلة خارجية عن ذاته تؤثر فيه وعليه، وتخرجه من قصوره الذاتي العقلي.

فالعقل بذاته عليه حجب، تدخل في تكوينه، المادة بقصورها الذاتي، أو الحياة

بقصورها الذاتي، حتى العقل بذاته كما يقول الإمام علي عليه السلام: **«العقل غريزة تربّيها التجارب»**، فيخطىء مرّة ويصيب مرّة أخرى.

من أجل هذا كان الوحي الربّاني، (وهو روح من أمر الله تعالى)، يعتبر قوة عاقلة خارجية (محض عقل) لتخرج عقل الرسول من قصوره الذاتي ضمن سنة كونيّة حسنة للتكامل في الدعوة الإسلامية، فالرسل عليهم السلام والكتب المنزلة والمعجزات التي قامت والقائمة الآن وإلى الأبد المتمثلة بالقرآن العظيم، كلها إنّما هي قوائم لسنة الحسن من لدن المحسن لدعوة عباده إليه، فهم عليهم السلام معصومون، يقولون ويفعلون دون خطأ أو خطل، يصيبون الحق ويجسدونه عدلاً يلمس وينظر، ينتقلون بمعاني الحسن الباطن إلى مظاهر الجمال البارز الظاهر، فيصير فعلهم وقولهم جذاباً مسراً، ويكونون بذلك أسوة حسنة للناس فهم أئمة واقعيون دون تكلف، وبذلك فهم مع الكتب المنزّلة لا يفترقون في تكامل الناس وفي اعتصامهم عن الخطل دون ريب.

فعن هذه الحقائق البديهية الظاهرة نجد أن الحسن يرتبط بفهم مضمون مشيئة الله تعالى، ففي الوقت الذي يغرق فيه المعصوم في الانجذاب لربّه ويذوب في حبّه، وهو بما هو عليه من ورع وتقى يبطنه في ذاته يظهر جزعاً وفرقاً في دعائه وصلاته، فقد اطّلعوا عليهم السلام على الحسن الحقيقي وانجذبوا إليه واشتاقوا إليه، إذ الوحي كما يصفه القرآن:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1].

فالوحي روح من أمر الله تعالى، قوة عاقلة محض حق نور من أمر الله تعالى، يرفع القصور والحجب عن عقل الرسول باتجاه الكمال في رؤية الحسن من مواقعه وفي ثوابته الكونيّة.

إن الحسن الذي يجسده المعصومون، ويمثل وسائل جذب للناس في عصور قيمها القبح والظلم والشرك، ثم في قصص يستحليها الناس في مجالسهم، إن هذا الظاهر الجميل الحسن والنور الذي يستبصر به التائهون، إنّما هو ظاهر لباطن رفع القصور بأمر الله وروحه ومشيئته في الوحي الذي يستلهمه الرسل عليهم السلام ويباشر عقولهم.

---

(١) سورة الشورى، الآية: ٥٢.

فكل ظاهر حسن من خلق الله تعالى، وكل خلق الله حسن يبطنه ظاهر حسن من مضمون مشيئة الله تعالى.

فالتقدير والتدبير والتصميم مضمون يبطن ظاهر الطاعة، والرحمة باطن ظاهره المحبة والعاطفة، والحق باطن ظاهره العدل والصدق، والإمامة باطن ظاهره السيادة والحكم والقيادة، والبلاء باطن ظاهره كل الفعاليات للتغير والحدوث، والوحدانية باطن ظاهره التناسق والتعاون والتناغم في نواميس الكون، والدعوة للأحسن باطن ظاهره إرسال الرسل وإنزال الكتب وقيام المعجزات.

فسبحان الله الظاهر الباطن.

◎ سنُن الله الحَسَنة في الكون

من خلال سنن الله تعالى في الحسن التي ضمنها الخالق سبحانه نظام مخلوقاته نرى بديهيات الكون وعلله الذاتية التي لا ينكرها أحد مثل:

١ - **الطاعة**: فهي أمر لازم لكل وجود، فلا وجود بلا طاعة الموجود لنظام وجوده، حيث تعرف الطاعة بأنها استجابة الموجود لنظام وجوده.

٢ - **السعي للحسن**: إنه بديهية تحرك سلوك الموجودات، ونظام حياة لكل الأحياء (سنة التطور للأحسن)، بل هو أصل فعل وحكم كل عقل، فكل حكم عقلي لا يستند إلى الحسن ولا يسعى إليه إنما هو خطل وقبح.

٣ - **السعي للحق والعدل**: إنه بديهية لقيام كل وجود ولبدئه واستمراره، فلا وجود خارج على الحق مطلقاً، والحياة بدؤها واستمرارها مع الحق، ولا حياة بدون الحق، والعقل يسعى للحق ويطلبه، وحكم العقل رهين الحق، فمن لا يصيب الحق في أحكامه، إنّما هو أهبل وقبيح، وغاية عقلية الإنسان وعلمه أن يبلغ الحق.

٤ - **الرحمة**: إنها بديهية الوجود بدأ بها وقام عليها ويستمر معها، ولو حلّت البغضاء والتنافر بين أجزاء الوجود فلا وجود، فهي علّة في ذاتها، بل هي أم العلل كلها، وكذا الحياة تبدأ بالرحمة وتقوم عليها وتستمر معها، ولو حلّت البغضاء والقسوة بين عناصر ومعاني الحياة فلا حياة... وكذا العقل، فكل حكم لا يكون معلولاً للرحمة وساعياً إليها إنّما هو قبح وخطل.

٥ - **البلاء**: إنها بديهية الوجود بدأ بها وقام عليها ويستمر معها، ولولا البلاء فلا قرار ولا استقرار، ولا وجود، وقد وصف ذلك الرسول الأعظم ﷺ في حديثه عن

الصادق عليه السلام: **«ما خلق الله عزّ وجلّ خلقاً إلاّ وقد أمر عليه آخر يغلبه فيه. . . إلى آخر الحديث»**[١].

٦ - **الإمامة**: إنها أيضاً بديهية الوجود بدأ بها ويقوم عليها ويدوم معها، فكل وجود له من ذاته إمام، بل ومن ذات صنفه إمام، وكذا الأحياء وكذا الإنسان.

٧ - **الموت**: إنها أيضاً بديهية الوجود، بدأ الوجود بخلق الموت، ويستمر بحمله ثم ينتهي به، وكذا الحياة وكذا العقل، إن خلق الموت حتمي لا يفلت منه خلق.

٨ - **التوحيد**: بديهية كل ما في الكون مترابط وبشروط في وحدة الخلق ترجمة لوحدانية الخالق، وفي كل توجهات العقل السليم إلى الوحدانية والتوحد.

إن كل بديهية من بديهيات الخلق هذه هي وجه للبديهيات الأخرى، وهي أيضاً معنى من معاني تداخل البديهيات الأخرى في كل خلق.

ومن خلال هذه السنن الواضحة بات مؤكداً لنا أن الله سبحانه وتعالى، خلق في تقديره وعلمه قبل إيجاده للخلق أول ما خلق النور، كما يقول أمير المؤمنين علي عليه السلام في حديثه عن ابن عباس:

«خلق نوراً ابتدعه من غير شيء، ثم خلق منه ظلمة (وهي مادة الفوتون في المصطلح العلمي)، وكان قديراً أن يخلق الظلمة لا من شيء كما خلق النور من غير شيء»[٢].

وهي إشارة علمية من أمير المؤمنين تحتاج إلى تأمل ودراسة في أصل بدء الخلق، قد تكون هي الجسيم الموجي الذي يسمونه الفوتون، وهو الذي يحمل كم الطاقة.

ثم قال علي عليه السلام: **«وخلق من الظلمة نوراً»** وهو بعد الظلمة لا شك يكون الضوء وطاقته الضوئية المرئي منه وغير المرئي.

ثم قال علي عليه السلام: **«وخلق من النور ياقوتة غلظها كغلظ سبع سموات وسبع أرضين»**.

أي أن كل المادة التي تكوّن العوالم السبع والأرضين السبع تجمعت في هذه الياقوتة، وهو تعبير واضح عن الـ (Black hole) الذي سبق الانفجار العظيم (Big Band).

ثم قال الإمام علي عليه السلام: **«ثم زجر الياقوتة فماعت لهيبته»**، وهو ما يسمونه الانفجار العظيم.

---

(١) بحار الأنوار: ٥٤/ ٩٩.

(٢) بحار الأنوار: ٥٤/ ٩٠.

ثم قال الإمام عليه السلام: **«فصارت ماء مرتعداً ولا يزال مرتعداً إلى يوم القيامة»**. وهو تعبير واضح عن الصخير المرتعد في النجوم كشمسنا إلى يوم القيامة.

إنه صار واضحاً في قول الأمير عليه السلام، مراحل بدء الخلق الوجودي ولو قرّنا ما بيّنه الأئمة عليهم السلام في معاني الخلق التقديري، كقول أمير المؤمنين عليه السلام: **«أحب أن يخلق خلقاً يعظّمون عظمته، ويكبّرون كبرياءه، ويجلّون جلاله. فقال: كونا ظلّين فكانا»**(١).

وهذا يشير إلى معاني خلق التقدير قبل خلق الوجود أي خارج ملازمة الزمن، وإنما قال سبحانه وتعالى بخلق السموات السبع وخلق الأرض في ستة أيّام هو تعبير عن بدء الخلق الوجود لما تعنيه الأيام من كونها زمن.

فالله سبحانه وتعالى: **«أحب أن يخلق خلقاً يعظمون عظمته ويكبرون كبرياءه ويجلون جلاله... الحديث»**.

ومن خلال هذا الحديث لنتعمق قليلاً في معاني الخلق التقديري.

تتساءل: هل خلق الوجود من العدم؟ والوجود قطعاً أحسن من العدم، فهو تعالى طبقاً لسنة الحسن أتى بالأحسن فهي سنته سبحانه وتعالى.

ثم إنه تعالى: هل خلق الحياة في الوجود؟ والحياة أحسن من مجرد الوجود، إذن سبحانه أتى بالحياة في المادة طبقاً لسننه في الحسن، ثم إنه تعالى هل خلق العقل في الحياة فكان الإنسان؟ والإنسان هو أحسن مخلوق في الوجود، وهو أيضاً طبقاً لمعاني سننه في الحسن سبحانه وتعالى.

والخلق كله وجود مجرد ووجود حي ووجود حي عاقل، وهو الإنسان ولا شك أن معنى الحسن في خلق الإنسان هو العقل، فلا معنى مطلقاً لخلق الإنسان بدون عقل.

إذن لا شك أيضاً أن أكمل العقول أحسنها، وأحسن العقول هم أحسن الناس وأئمتهم، فإن غاية الحسن في الخلق كله وفي الوجود كله هو الإمام الحق.

إذن فالأئمة هم علّة الوجود، لأنهم غاية الخلق التقديري أصلاً، هذا من ناحية النظر والمنطق، ومن الناحية العملية، هل يجد أي منصف في بني آدم أحداً أحسن وأكمل عقلاً من محمد صلى الله عليه وآله. وعترته عليه السلام في الوجود، ثم هل تكتمل علّة الخلق التقديري في قول الإمام عليه السلام: **«إن الله أحب أن يخلق خلقاً يعظمون عظمته...»** مع أناس غير أهل البيت يعظّمون عظمته...؟ وفيهم عليهم السلام نزلت سورة الدهر؟.

---

(١) بحار الأنوار: ٥٤/٥٢.

من كل ما سبق وغيره، صار من المؤكد أن المعنى المقصود من الخلق سواء لغة أو اصطلاحاً، هو خلق التقدير والعلم، ثم هو خلق الإيجاد والواقع، وهو إذن عند الله تعالى معنى واحد، ويمكن إيضاح هذا المعنى من خلال الملاحظات التالية:

١ - أنّ الله سبحانه وتعالى خالق كل شيء والمحيط بكل شيء، وعليه فإننا لكي نحسن الفهم لمعاني الخلق والخالق، علينا أن ندرك أن الزمن الذي يشكل بعداً أساسياً من أبعاد الوجود لا ينفك عن تفكيرنا، إن هذا الزمن هو مربوب لله تعالى يقلبه الله تعالى لمشيئته وتقديره في أي خلق، ولا بد إذن أن لا يتطرق لأذهاننا إحاطة الزمن بمعاني خلق الله تعالى إلاّ ضمن نواميس تقديره في ذلك الخلق، كما قال هو سبحانه في خلق السموات والأرض في الأيام الستة، كما سيأتي بيانه.

٢ - من معاني الحسن وبديهياته التي علمناها من الواقع، أنه إنما يتحكم في الكون (أي الحسن) وينفذ فيه من خلال سنن ثمانية هي غايات في ذاتها، لا تتبدل ولا تتغير، تلك هي السنن الكونيّة، وباعتبار أن الإنسان هو جزء من هذا الكون يحتوي في كيانه على كل أجزاء الكون، فإنّ هذا السنن الكونيّة، تكون في ذات الإنسان ونفسه سنناً تكوينية، وجاء هذا المعنى عن أمير المؤمنين عليه السلام بقوله:

«أحَبَّ أن يخلق خلقاً يعظّمون عظمته، ويكبّرون كبرياءه، ويجلّون جلاله فقال: كونا ظلّين فكانا»[1].

وهذا يشير إلى أن خلق التقدير سبق خلق الإيجاد خارج معاني ملازمة الزمن لمعنى الخلق، وأن خلق محمد صلى الله عليه وآله وعترته سبق كل خلق، وطبقاً لسنة الحسن الكونيّة، إذا كانت الإمامة هي معنى الحسن في كل خلق، وأنّ لا معنى لأي خلق بدون معنى حسنه، فإن ذلك داعي للتصديق بما جاء عن أمير المؤمنين في حديثه من الناحية العلمية.

فمثلاً: إذا كان العقل هو معنى الحسن في خلق الإنسان، يكون إذن لا معنى لخلق الإنسان بدون عقل، أو خلق الناس كلهم مجانين مثلاً.

وإذا كان العقل تعبيراً عن معنى الإمام في خلق الإنسان، فإن محمّداً وأهل بيته هم معنى الحسن في خلق الناس كلهم، ولذا فلا معنى لخلق الناس بدون خلق محمد وآله صلى الله عليه وآله، وإنّ أحسن الخلق بعد محمد وآل محمد في هذا الاعتبار هم من شايعهم وتابعهم والتزم نهجهم في الحياة الدنيا وعليه يكون قول الإمام أبي جعفر عليه السلام: «. . .

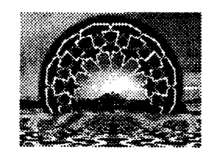
(١) بحار الأنوار: ٥٤/ ٥٢.

فكان مما خلق الله عزّ وجلّ أرضاً طيبة، ثم فجّر منها ماءً عذباً زلالاً . . الخ الحديث» تعبيراً عن معنى التقدير للفظ الخلق.

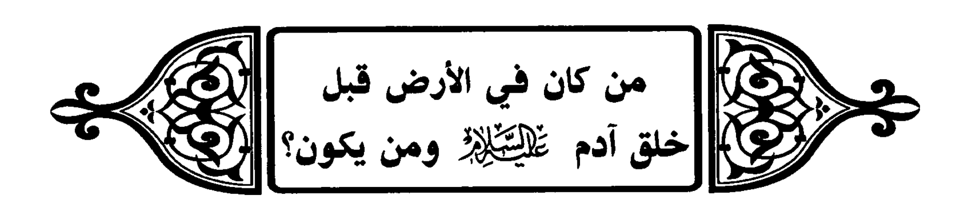
ومثله يكون معنى حديث أمير المؤمنين عليه السلام عن ابن عباس قال:

«إن الله تعالى أوّل ما خلق خلق الخلق خلق نوراً ابتدعه من غير شيء، ثم خلق منه ظلمة، وكان قديراً أن يخلق الظلمة لا من شيء كما خلق النور من غير شيء، ثم خلق من الظلمة نوراً، وخلق من النور ياقوتة غلظها كغلظ سبع سموات وسبع أرضين، ثم زجر الياقوتة فماعت لهيبته، فصارت ماءً مرتعداً، ولا يزال مرتعداً إلى يوم القيامة، ثم خلق عرشه من نوره، وجعله على الماء، وللعرش عشرة آلاف لسان يسبح الله كل لسان منها بعشرة آلاف لغة، ليس فيها لغة تشبه الأخرى، وكان العرش على الماء، من دون حجب الضباب[1].

إذن فقد خلق النور لا من شيء، ثم خلق من النور الظلمة أو العتمة، أي الجسم المادي، ثم خلق منه الطاقة (النور).



(١) بحار الأنوار: ج٥٤/ ٩٠.



من كان في الأرض قبل خلق آدم عليه السلام ومن يكون؟

● في البحار: وجدت في كتاب من كتب قدماء الأصحاب في نوادر المعجزات، بإسناده إلى الصدوق، عن محمّد بن الحسن الصفّار، عن محمّد بن زكريّا، عن أبي - المعافا، عن وكيع، عن زاذان، عن سلمان، قال: كنّا مع أمير المؤمنين عليه السلام ونحن نذكر شيئاً من معجزات الأنبياء.

فقلت له: يا سيدي أحبّ أن تريني ناقة ثمود وشيئاً من معجزاتك.

قال: أفعل ثمّ وثب فدخل منزله وخرج إليّ وتحته فرس أدهم، وعليه قباء أبيض وقلنسوة بيضاء، ونادى: يا قنبر اخرج إليّ ذلك الفرس فأخرج فرساً أغرّ أدهم، فقال لي: اركب يا أبا عبد الله.

قال سلمان: فركبته فإذا له جناحان ملتصقان إلى جنبه، فصاح به الإمام فتحلّق في الهواء، وكنت أسمع خفيق أجنحة الملائكة تحت العرش، ثمّ خطرنا على ساحل بحر عجاج، مغطمط الأمواج، فنظر إليه الإمام شزراً، فسكن البحر.

فقلت: يا سيّدي سكن البحر من غليانه من نظرك إليه.

فقال: يا سلمان، حسبني أنّي آمر فيه بأمر، ثمّ قبض على يدي وسار على وجه الماء، والفرسان يتبعاننا لا يقودهما أحد، فوالله ما ابتلّت أقدامنا ولا حوافر الخيل، فعبرنا ذلك البحر ووقعنا إلى جزيرة كثيرة الأشجار والأثمار والأطيار والأنهار، وإذاً شجرة عظيمة بلا ثمر بل وزهر، فهزّها بقضيب كان في يده فانشقّت وخرج منها ناقة طولها ثمانون ذراعاً وعرضها أربعون ذراعاً خلفها فصيل.

فقال لي: ادن منها واشرب من لبنها، فدنوت وشربت حتّى رويت، وكان أعذب من الشهد، وألين من الزبد، وقد اكتفيت.

قال: هذا حسن؟

قلت: حسن يا سيّدي.

قال: تريد أن أريك أحسن منها؟

فقلت: نعم يا سيّدي.

قال: يا سلمان نادِ: «اخرجي يا حسناء» فناديت، فخرجت ناقة طولها مائة وعشرون ذراعاً وعرضها ستّون ذراعاً من الياقوت الأحمر وزمامها من الياقوت الأصفر، وجنبها الأيمن من الذهب، وجنبها الأيسر من الفضّة، وضرعها من اللؤلؤ الرطب.

فقال: يا سلمان اشرب من لبنها.

قال سلمان: فالتقمت الضرع فإذا هي تحلب عسلاً صافياً محضاً.

فقلت: يا سيّدي هذه لمن؟

قال: هذه لك ولسائر الشيعة من أوليائي. ثمّ قال لها: ارجعي فرجعت من الوقت وسار بي في تلك الجزيرة حتّى ورد بي إلى شجرة عظيمة وفي أصلها مائدة عظيمة عليها طعام تفوح منه رائحة المسك، وإذاً بطائر في صورة النسر العظيم، قال: فوثب ذلك الطير فسلّم عليه ورجع إلى موضعه.

فقلت: يا سيّدي ما هذه المائدة؟

قال: هذه مائدة منصوبة في هذا الموضع للشيعة من مواليّ إلى يوم القيامة.

فقلت: ما هذا الطائر؟

فقال: ملك موكّل بها.

فقلت: وحده يا سيّدي.

فقال: يجتاز به الخضر في كلّ يوم مرّة.

ثمّ قبض علي يدي فسار بي إلى بحر ثانٍ، فعبرنا وإذا بجزيرة عظيمة فيها قصر لبنة من الذّهب، ولبنة من الفضّة البيضاء، وشرفه العقيق الأصفر وعلى كلّ ركن من القصر سبعون صنفاً من الملائكة فجلس الإمام على ذلك الركن وأقبلت الملائكة تأتي وتسلّم عليه، ثمّ أذن لهم فرجعوا إلى مواضعهم.

قال سلمان: ثمّ دخل عليه السلام إلى القصر، فإذا فيه أشجار وأنهار وأطيار وألوان النبات، فجعل الإمام يمشي فيه حتّى وصل إلى آخره، فوقف على بركة كانت في البستان، ثمّ صعد إلى سطحه، فإذا كراسيٌّ من الذهب الأحمر، فجلس عليه وأشرفنا منه، فإذا بحر أسود يغطمط بأمواجه كالجبال الراسيات، فنظر إليه شزراً فسكن من غليانه، حتّى كان كالمذنب.

فقلت: يا سيّدي سكن البحر من غليانه لمّا نظرت إليه.

قال: حسبني أنّي آمر فيه بأمر، أتدري يا سلمان أيُّ بحر هذا؟

فقلت: لا، يا سيّدي.

فقال: هذا البحر الّذي غرق فيه فرعون وقومه، إنّ المدينة حملت على معاقل جناح جبرئيل، ثم رمى بها في هذا البحر، فهويت لا تبلغ قراره إلى يوم القيامة.

فقلت: يا سيّدي هل سرنا فرسخين؟

فقال: يا سلمان لقد سرت خمسين ألف فرسخ، ودرت حول الدنيا عشرين مرّة!

فقلت: يا سيدي فكيف هذا؟

فقال: يا سلمان، إذا كان ذو القرنين طاف شرقها وغربها وبلغ إلى سدّ يأجوج ومأجوج فإنّى يتعذّر عليّ وأنا أخو سيّد المرسلين وأمين ربّ العالمين، وحجّته على خلقه أجمعين.

يا سلمان، أما قرأت قول الله تعالى حيث قال: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾[1]؟

فقلت: بلى، يا سيّدي.

فقال: يا سلمان، أنا المرتضى من الرسول الّذي أظهره على غيبه، أنا العالم الربّانيّ، أنا الّذي هوّن الله عليّ الشدائد وطوى لي البعيد.

قال سلمان: فسمعت صائحاً يصيح في السماء نسمع الصوت ولا نرى الشخص.

يقول: صدقت صدقت، أنت الصادق المصدّق، ثمّ وثب فركب الفرس وركبت معه وصاح به فتحلّق في الهواء، ثمّ حضرنا بأرض الكوفة هذا وما مضى من الليل ثلاث ساعات!

فقال: يا سلمان، الويل ثمّ الويل على من لا يعرفنا حقّ معرفتنا وأنكر ولايتنا!

يا سلمان أيّهما أفضل محمّد أم سليمان بن داود؟

قلت: بل محمّد.

فقال: يا سلمان، فهذا آصف بن برخيا قدر أن يحمل عرش بلقيس من اليمن إلى بيت المقدس في طرفة عين وعنده علم الكتاب، ولا أفعل ذلك وعندي علم مأة ألف كتاب وأربعة وعشرين ألف كتاب أنزل منها على شيث بن آدم خمسين صحيفة، وعلى إدريس ثلاثين صحيفة، وعلى إبراهيم عشرين صحيفة، والتورية والإنجيل والزبور؟

---

(١) سورة الجن، الآيتان: ٢٦، ٢٧..

فقلت: صدقت يا سيّدي.

قال الإمام عليه السلام: اعلم يا سلمان أنّ الشاكّ في أُمورنا وعلومنا كالممتري في معرفتنا وحقوقنا، وقد فرض الله عزّ وجلّ ولايتنا في كتابه، وبيّن فيه ما أوجب العمل به وهو غير مكشوف[١].

◎ إختار الصعب عليه السلام

عن أبي بصير، عن أبي جعفر عليه السلام أنّه قال: إنّ عليا عليه السلام ملك ما في الأرض وما تحتها، فعرضت له السحابان: الصعب، والذلول فاختار الصعب، وكان في الصعب ملك ما تحت الأرض، وفي الذلول ملك ما فوق الأرض، واختار الصعب على الذلول فدارت به سبع أرضين، فوجد ثلاث خراب وأربع عوامر[٢].

◎ أجيبوا علياً ليعرفوا الحق من الباطل

● من بعض مؤلّفات القدماء، عن القاضي أبي الحسن الطبريّ، عن سعيد بن يونس المقدّسي، عن المبارك، عن خالص بن أبي سعيد، عن وهب الجمّال، عن عبد المنعم بن سلمة، عن وهب الرائدي، عن يونس بن ميسرة، عن الشيخ المعتمر الرقيّ، رفعه إلى أبي جعفر ميثم التمّار قال: كنت بين يدي مولاي أمير المؤمنين عليه السلام إذ دخل غلام وجلس في وسط المسلمين فلمّا فرغ من الأحكام، نهض إليه الغلام، وقال: يا أبا تراب! أنا إليك رسول، جئتك برسالة تزعزع لها الجبال من رجل حفظ كتاب الله من أوّله إلى آخره، وعلم علم القضايا والأحكام، وهو أبلغ منك في الكلام، وأحقّ منك في الكلام، وأحقّ منك بهذا المقام، فاستعدّ للجواب، ولا تزخرف المقال!

فلاح الغضب في وجه أمير المؤمنين عليه السلام وقال لعمّار: اركب جملك وطف في قبائل الكوفة وقل لهم: أجيبوا عليّاً ليعرفوا الحقّ من الباطل والحلال والحرام، والصحّة والسقم، فركب عمّار فما كان إلاّ هنيئة حتّى رأيت العرب كما قال الله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾[٣] فضاق جامع الكوفة وتكاثف

---

(١) البحار ج٥٤ ص٣٣٩ - ٣٤١ ح٣١.

(٢) أقول: الخبر في غاية الغرابة، ولا أعتمد عليه لعدم كونه مأخوذاً من أصل معتبر، وإن نسب إلى الصدوق رحمه الله.

(٣) سورة يس، الآية: ٥١.

الناس تكاثف الجراد على الزرع الغضّ في أوانه، ونهض العالم الأروع، والبطل الأنزع، ورقى في المنبر وراقى ثمّ تنحنح فسكت جميع من في الجامع.

فقال: رحم الله من سمع فوعى، أيّها الناس من يزعم أنّه أمير المؤمنين؟ والله لا يكون الإمام إماماً حتّى يحيي الموتى، أو ينزل من السماء مطراً أو يأتي بما يشاكل ذلك ممّا يعجز عنه غيره وفيكم من يعلم أنّي الآية الباقية، والكلمة التامّة، والحجّة البالغة، ولقد أرسل إليّ معاوية جاهلاً من جاهليّة العرب عجرف في مقاله، وأنتم تعلمون لو شئت لطحنت عظامه طحناً، ونسفت الأرض من تحته نسفاً، وخسفتها عليه خسفاً، إلاّ أنّ احتمال الجاهل صدقة، ثمّ حمد الله وأثنى عليه وصلّى على النبيّ صلى الله عليه وآله وأشار بيده إلى الجوّ فدمدم، وأقبلت غمامة وعلت سحابة، وسمعنا منها نداءً يقول: السلام عليك يا أمير المؤمنين، ويا سيّد الوصيّين ويا إمام المتّقين، ويا غياث المستغيثين، ويا كنز المساكين، ومعدن الراغبين وأشار إلى السحابة فدنت!

قال ميثم: فرأيت الناس كلّهم قد أخذتم السكرة، فرفع رجله وركب السحابة.

وقال لعمّار: اركب معي وقل: «بسم الله مجريها ومرسيها» فركب عمّار وغابا عن أعيننا، فلمّا كان بعد ساعة أقبلت سحابة حتّى أظلّت جامع الكوفة، فالتفتّ فإذا مولاي جالس على دكّه القضاء؟ وعمّار بين يديه، والناس حافّون به، ثمّ قام وصعد المنبر وأخذ بالخطبة المعروفة بالشقشقيّة، فلما فرغ اضطرب الناس! وقالوا فيه أقاويل مختلفة. فمنهم من زاده الله إيماناً ويقيناً! ومنهم من زاده كفراً وطغياناً.

قال عمّار: قد طارت بنا السحابة في الجوّ، فما كان هنيئة حتّى أشرفنا على بلد كبير حواليها أشجار وأنهار، فنزلت بنا السحابة وإذا نحن في مدينة كبيرة، والناس يتكلّمون بكلام غير العربيّة، فاجتمعوا عليه ولاذوا به، فوعظهم وأنذرهم بمثل كلامهم، ثمّ قال: يا عمّار اركب ففعلت ما أمرني، فأدركنا جامع الكوفة ثمّ قال لي: يا عمّار تعرف البلدة الّتي كنت فيها.

قلت: الله أعلم ورسوله ووليّه.

قال: كنّا في الجزيرة السابعة من الصين أخطب كما رأيتني. إنّ الله تبارك وتعالى أرسل رسوله إلى كافة الناس، وعليه أن يدعوهم ويهدي المؤمنين منهم إلى الصراط المستقيم وأشكر ما أوليتك من نعمة، واكتم من غير أهله، فإنّ لله تعالى ألطافاً خفيّة في خلقه، لا يعلمها إلاّ هو ومن ارتضى من رسول، ثمّ قالوا: أعطاك الله هذه القدرة الباهرة وأنت تستنهض الناس لقتال معاوية؟

فقال: إنّ الله تعبّدهم بمجاهدة الكفّاروالمنافقين، والناكثين، والقاسطين، والمارقين، والله لو شئت لمددت يدي هذه القصيرة في أرضكم هذه الطويلة، وضربت بها صدر معاوية بالشام، وأجذب بها من شاربه - أو قال من لحيته - فمدّ يده وردّها وفيها شعرات كثيرة، فتعجّبوا من ذلك.

ثمّ وصل الخبر بعد مدّة أنّ معاوية سقط من سريره في اليوم الّذي كان عليه السلام مدَّ يده وغشي عليه، ثمّ أفاق وافتقد من شاربه ولحيته شعرات[١].

◎ لِم سميت الدنيا دنيا والآخرة آخرة

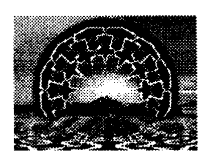
● عن محمّد بن يعقوب، عن عليّ بن محمّد، باسناده رفعه قال: أتى عليّاً بن أبي طالب عليه السلام يهوديٌّ فسأله عن مسائل، فكان فيما يسأله لم سمّيت الدنيا دنيا؟ ولم سمّيت الآخرة آخرة؟

فقال عليه السلام: إنّما سمّيت الدُّنيا دنيا: لأنّها أدنى من كلّ شيء.

وسمّيت الآخرة آخرة: لأنّ فيها الجزاء والثواب[٢].

◎ القلم واللوح المحفوظ والكتاب المبين

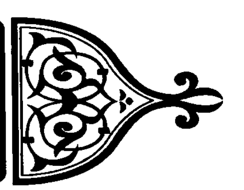
● الدر المنثور: عن أبي في الحلية، عن عليّ عليه السلام مرفوعاً قال: الكرسيّ لؤلؤ، والقلم لؤلؤ، وطول القلم سبعمأة سنة، وطول الكرسيّ حيث لا يعلمه إلاّ العالمون[٣].



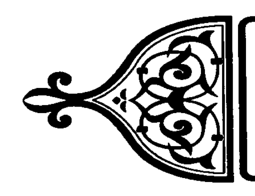
(١) البحار ج٥٤ ص٣٤٤ - ٣٤٦، ح٣٦.

(٢) علل الشرائع: ج١، ص٢، البحار ج٥٤ ص٣٥٥، ح١.

(٣) الدر المنثور: ج١، ص٣٢٨، البحار ج٥٤ ص٣٧٠ - ٣٧١، ح١٢.



الظواهر الطبيعية



◎ علم طبقات الأرض وحركة الجو وظيفة الجبال في الأرض

● الإمام علي عليه السلام: عدّل حركاتها بالراسيات من جلاميدها، وذوات الشناخيب الشمّ من صياخيدها[1]. فسكنت من الميدان لرسوب الجبال في قطع أديمها، وتغلغلها متسرّبة في جوبات خياشيمها، وركوبها أعناق سهول الأرضين وجراثيهما[2].

● عنه عليه السلام: أنشأ الأرض فأمسكها من غير اشتغال، وأرساها على غير قرار، وأقامها بغير قوائم، ورفعها بغير دعائم وحصّنها من الأود والأعوجاج، ومنعها من التهافت والانفراج، أرسى أوتادها، وضرب أسدادها[3].

● عنه عليه السلام - في عجيب صنعة الكون -: جبل جلاميدها ونشوز متونها وأطوادها، فأرساها في مراسيها، وألزمها قرارتها فمضت رؤوسها في الهواء، ورست أصولها في الماء، فأنهد جبالها عن سهولها، وأساخ قواعدها في متون أقطارها ومواضع أنصابها، فأشهق قلالها، وأطال أنشازها، وجعلها للأرض عماداً، وأرّزها فيها أوتاداً، فسكنت على حركتها من أن تميد بأهلها أو تسيخ بحملها أو تزول عن مواضعها[4].

● عنه عليه السلام: فطر الخلائق بقدرته، ونشر الرياح برحمته، ووتّد بالصخور ميدان أرضه[5].

---

(١) الصَيخُود: الصخرة الملساء الصُلْبة لا تحرّك من مكانها ولا يعمل فيها الحديد (لسان العرب: ٣/ ٢٤٥).

(٢) نهج البلاغة: الخطبة ٩١، عن مسعد بن صدقة عن الإمام الصادق عليه السلام، بحار الأنوار: ٥٧/ ١١٢/ ٩٠.

(٣) نهج البلاغة: الخطبة ١٨٦، الاحتجاج: ١/ ٤٧٧/ ١١٦، بحار الأنوار: ٤/ ٢٥٥/ ٨.

(٤) نهج البلاغة: الخطبة ٢١١، بحار الأنوار: ٥٧/ ٣٨/ ١٥.

(٥) نهج البلاغة: الخطبة ١، الاحتجاج: ١/ ٤٧٣/ ١١٣، بحار الأنوار: ٧٧/ ٣٠٠/ ٧ وج ٤/ ٢٤٧/ ٥.

يؤكّد الإمام عليه السلام على أنّ الله سبحانه حين خلق الجبال في الأرض، جعل لكل جبل منها جذراً في الأرض هو الوتد، ولهذا الوتد وظيفتان:

الأولى: أنّه يحفظ الجبل من التهافت والانزلاق، كما حدث لجبل السلط قرب عمان، الذي انزلق من مكانه وسار. يؤكّد الإمام عليه السلام **على أنّ الله سبحانه حين خلق الجبال في الأرض، جعل لكل جبل منها جذراً في الأرض هو الوتد، ولهذا الوتد وظيفتان:**

الأولى: أنّه يحفظ الجبل من التهافت والانزلاق، كما حدث لجبل السلط قرب عمان، الذي انزلق من مكانه وسار.

والثانية: أنّ الوتد المغروس في أديم الأرض يمسك طبقات الأرض نفسها، بعضها ببعض، فيمنعها من الاضطراب والمَيَدان، تماماً كما نفعل عندما نمسك الصفائح المعدنيّة ببعضها عن طريق غرس مسامير قويّة فيها.

هذه وظيفة الجبال بالنسبة لاستقرار الأرض، أمّا وظيفتها بالنسبة لاستقرار الأرض، أمّا وظيفتها بالنسبة لاستقرار حياة الإنسان فوجود الجبال على الأرض يحافظ على التربة والصخور الموجودة على سطح الأرض من الزوال والانتقال، ويحفظها من تأثير الرياح العاصفة بها، فيتسنّى بذلك إقامة حياة إنسانيّة رتيبة في الجبال والسهول والوديان ولو كان سطح الأرض مستوياً بدون جبال لكان عرضة للتغيّر (تصنيف نهج البلاغة: ٧٨٣).

◎ الجبال مخازن مياه الأنهار

● **الإمام علي عليه السلام: فلمّا سكن هيج الماء من تحت أكنافها، وحمل شواهق الجبال الشمّخ البذّخ على أكتافها، فجّر ينابيع العيون من عرانين أنوفها، وفرّقها في سهوب بيدها وأخاديدها**[١].

● **عنه عليه السلام: أرسى أوتادها، وضرب أسدادها، واستفاض عيونها، وخدّ أوديتها، فلم يهن ما بناه، ولا ضعف ما قوّاه**[٢].

عندما تسقط الأمطار على الجبال ترتوي تربتها فتنمو فيها الأشجار والزروع،

(١) نهج البلاغة: الخطبة ٩١، عن مسعدة بن صدقة عن الإمام الصادق عليه السلام، بحار الأنوار: ٥٧/١١٢/٩٠.

(٢) العيون: ج١ ص٢٤١، العلل ج٢ ص٢٨٠، البحار ج٥٧ ص١٢٠، ح٦.

وتزدهر حياة الإنسان الحيوان. أمّا المياه الفائضة فتمتصّها الجبال لتخزنها في جيوب كبيرة نقيّة باردة. حتى إذا جاء الصيف وقلّت مياه الأنهار، تفجّرت تلك المياه من الينابيع معيناً عذباً سلسبيلاً، وقد أشار القرآن إلى هذه الحقيقة العلميّة التي تفيد أنّ الجبال مخازن مياه الينابيع، كما أشار إليها الإمام علي عليه السلام في عدّة مواضع (تصنيف نهج البلاغة: ٧٨٧).

◎ تسيير سحب الأمطار إلى أعالي الجبال

● **الإمام علي عليه السلام: وفسح بين الجوّ وبينها، وأعدّ الهواء متنسّماً لساكنها، وأخرج إليها أهلها على تمام مرافقها، ثمّ لم يدع جرز[1] الأرض التي تقصر مياه العيون عن روابيها، ولا تجد جداول الأنهار ذريعة إلى بلوغها، حتى أنشأ لها ناشئة سحاب تحيي مواتها وتستخرج نباتها. ألّف غمامها بعد افتراق لمعه وتباين قزعه، حتى إذا تمخّضت لجّة المزن فيه، والتمع برقه في كففه[2]، ولم ينم وميضه في كنهور ربابه ومتراكم سحابه، أرسله سحّاً متداركاً، قد أسفّ هيدبه، تمريه الجنوب درر أهاضيبه ودفع شآبيبه، فلمّا ألقت السحاب بربك بوانيها، وبعاع[3] ما استقلّت به من العبء المحمول عليها أخرج به من هوامد الأرض النبات، ومن زعر الجبال الأعشاب، فهي تبهج بزينة رياضها، وتزدهي بألبسته من ريط أزاهيرها، وحلية ما سمطت به من ناضر أنوارها، وجعل ذلك بلاغاً للأنام ورزقاً للأنعام، وخرق الفجاج في آفاقها وأقام المنار للسالكين على جواد طرقها[4].**

يبيّن الإمام علي عليه السلام في الخطبة ٩١ نعمة من نِعَم الله على عباده، تتصّل بتحريك الجوّ وما فيه من هواء ورياح وغيوم. ففي تقدير الله تعالى أنّه أجرى في السهول أنهاراً ليشرب منها الناس والدوابّ والنبات، أمّا المناطق العالية في الجبال فلم يتركها بدون ماء وحياة، بل سيّر لها نصيبها من الماء عن طريق حركة الرياح التي تنشأ عن اختلاف

---

(١) الجرز: الأرض التي لا نبات بها ولا ماء (النهاية: ١/ ٢٦٠).

(٢) كُفَّة كلِّ شيء بالضم: طُرته وحاشيتُه (النهاية: ٤/ ١٩١).

(٣) بعاع السحب: ثقله بالمطر وألقى السحاب بقاعة: أمطر كل ما فيه، و«بعاع» معطوف على «برك».

(٤) نهج البلاغة: الخطبة ٩١، عن مسعدة بن صدقة عن الإمام الصادق عليه السلام، بحار الأنوار: ٥٧/ ١١٢/ ٩٠.

الحرارة بين سطح البحر وسطح الجبل، فإذا تبخّر ماء البحر علا في الجوّ لخفّته، وانحدر من الجبل هواء بارد يملأ فراغه، فتحدث بذلك دورة للرياح، تحمل بموجبها سحب الأمطار إلى أعالي الجبال، فإذا وصلت إلى هنالك فوجئت ببرودة جوّ الجبال، فتكاثفت وانعقدت أمطاراً، تجري على رؤوس الجبال، مشيعة الحياة والخصب والنضارة والرزق للنبات والأنعام والأنام (تصنيف نهج البلاغة: ٧٨٥).

● العيون والعلل: سأل أمير المؤمنين عليه السلام مِمّ خلقت الجبال؟

قال: من الأمواج[1].

● عن أبي بصير، عن أبي جعفر عليه السلام أنّه قال: إنّ علياً عليه السلام ملك ما في الأرض وما تحتها، فعرضت له السحابان: الصعب، والذلول، فاختار الصعب، فكان في الصعب ملك ما تحت الأرض وفي الذلول ملك ما فوق الأرض، واختار الصعب على الذلول فدارت به سبع أرضين فوجد ثلاث خراب وأربع عوامر[2].

◎ الجبال تحفظ الأرض من الميلان

● وفي قول أمير المؤمنين عليه السلام: «ووتد بالصخور ميدان أرضه».

● وفي خطبة أخرى: «وعدل حركتها» أي: الأرض «بالراسيات من جلاميدها».

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «فدحا الله الأرض» أي حركها من موضع البيت - الكعبة - من تحتها فمادت ثم مادت فأوتدها الله بالجبال...[3].

قال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾[4] [5].

أنظر أيها العاقل إلى الجبال التي خلقها الله تعالى أوتاداً للأرض، هل ركزت في نفس كرة الأرض أم في الخارج؟

لا يرتاب الإنسان العاقل في كون الجبال أوتاداً داخلية في الأرض، خلقت فيها لتربط الأجزاء بعضها ببعض، وتحفظ صورة اتصالها عن التفرق والانفصال، ولم تخلق

---

(١) العيون: ج١ ص٢٤١، العلل ج٢ ص٢٨٠، البحار ج٥٧ ص١٢٠، ح٦.
(٢) البحار ج٥٧ ص١٢٠، ح٧.
(٣) شرح نهج البلاغة: ١/ ٥٧.
(٤) سورة النحل، الآية: ١٥.
(٥) بحار الأنوار: ٥٤/ ٢٠٧، عن الدر المنثور: ١/ ١٣.

فيها لتمنعها عن السير والحركة، فلو خلقت لتسكينها في مقر - كما يزعمه القدماء - لركزت في جرم آخر ثابت غير الأرض.

وبالتأمل يتّضح لك أن الجبال وأصولها والمواد الصخرية إنما خلقت في الأرض لتمنع سلطان المياه والرياح عنها، فإنها لو كانت رمالاً محضاً، لنسفتها الزوابع، وجرفتها الرياح، والأمواج على الدوام.

ولو تتبعت أقوال القدماء واضطرابهم في شرح هذه الآيات والروايات، لما برحت عن هذا الاستنتاج.

يقول العلامة المجلسي في تفسير قوله تعالى: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ أي: منع الأرض أن تميد، وقيل: لئلا تميد، وقيل: كراهية أن تميد، وقال بعضهم: الميد الاضطراب في الجهات الثلاث ليمنع من جوفها.

والحقيقة العلمية التي ذكرها القرآن الكريم في دور الجبال في حفظ توازن الأرض من الاضطراب والميدان وأنها كالأوتاد «هذه الحقيقة أدركها علماء طبقات الأرض (الجيولوجيا) في العصر الحديث، وقالوا:

لو كانت الأرض بحجمها الحالي مكونة من الماء لبلغ وزنها خمس ما هي عليه، ولما أمكنها حفظ نسبة بعدها عن الشمس بل لانجذبت إليها، ولو كانت مكوّنة كلها من اليابس لبلغ ضعف ما هي عليه ولبعدت عن الشمس البعد الذي لا يتحقق معه الحياة.

ولكل قارة جبالها التي تتميز بها، وهناك سلسلة من الجبال موزعة على سطح الأرض توزيعاً دقيقاً محكماً، وارتفاع الجبل يتناسب ومكانه من الكرة الأرضية، ونوع الصخور المكونة له وطبيعة الأرض من حوله، والجبال الثقيلة يتكون أسفلها من مواد هشة خفيفة وتحت المياه توجد المواد الثقيلة الوزن، وذلك حتى تتوزع الأوزان في المناطق المختلفة للكرة الأرضية. ووجدالعلماء أن هذا التوزيع يتماشى مع مرونة القشرة الأرضية ودرجة حرارتها، وكذلك اتفق العلماء أنه عندما تذكر الجبال في القرآن تذكر معها المياه العذبة كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا﴾(١).

فوجد العلماء المياه العذبة خصوصاً أعذب المياه وأغرزها ما كانت ينابيعها من الجبال وسفوحها»(٢).

---

(١) سورة المرسلات، الآية: ٢٧.

(٢) مباحث في إعجاز القرآن: ١٨١ (بتصرف).

◎ جيولوجيا الأرض قشرة الأرض

تحدثنا في إيجاز عن جوف الأرض، فتحدثنا بذلك عن الكثرة الكبرى من الأرض؛ لأن أكثر الأرض جوف؛ فالسطح الذي نستطيع أن نلمسه باليد، أو نراه بالعين، أو نكشف عنه حفراً؛ شيء من حيث السمك يتضاءل كل التضاؤل إذا قارناه بسمك الأرض، بقطرها. ومع هذا فعلى هذه القشرة، الكبيرة السمك فيما تعودنا نحن بني الناس أن نقدره من سموك، الضئيلة السمك بالقران بالذي يتصل بالأرض من سموك وأبعاد، على هذه القشرة نحيا، ومنها نستمد العيش، وعليها ومنها يحيا كل حيوان ويستمد عيشه، وفي تربتها ينبت النبات، غذاء لكل من درج على هذه القشرة من كل ذي حياة وذات حياة.

وإن تكن في جوف الأرض حركة، ففي هذه القشرة ألف حركة وحركة، ولا أقصد حركة الأحياء، ولكن أقصد حركة الجماد.

إن هذه القشرة الأرضية في حركة دائمة، ففي تغير دائم. يهتز البحر بالموج فيؤثر فيها، ويتبخر ماء البحر، تبخره الشمس، فيصعد إلى السماء فيكون سحباً تمطر الماء عذباً، فينزل على الأرض متدفقاً، فتكون السيول وتكون الأنهار، تجري في هذه القشرة الأرضية فتؤثر فيها، تؤثر في صخرها فتحله، فتبدل فيه من صخر صخرا، وهي من بعد ذلك تفتته وتسحقه، وهي من بعد ذلك تحمله وتنقله، ويتبدل وجه الأرض على القرون ومئات القرون وآلافها، وتعمل الثلوج الجامدة بوجه الأرض ما يفعل الماء السائل، وتفعل الرياح بوجه الأرض ما يفعل الماء، وتفعل الشمس بوجه الأرض ما يفعله الماء والريح، بما تطلق على هذا الوجه من نار ومن نور، والأحياء على الأرض تغير من وجهها كذلك، ويغير منها ما ينبثق فيها من جوف الأرض من براكين[1].

◎ صخور الأرض والأصول السابقة

وتسأل عالم الأرض، العالم الجيولوجي، عن صخور هذه القشرة فيعدد لك من صخورها الشيء الكثير، ويأخذ يحدثك عن أنواعها الثلاثة الكبرى.

يحدثك عن:

الصخور النارية، تلك التي خرجت من جوف الأرض إلى ظهرها، صخراً منصهراً،

---

(١) مع الله في السماء: ٩٩.

ثم برد. ويضرب لك منها مثلاً بالجرانيت والبازلت، ويأتيك بعينة منها يشير لك فيها إلى ما احتوته من بلورات، بيضاء وحمراء أو سوداء، ويقول لك إن كل بلورة من هذه تدل على مركب كيماوي، له كيان بذاته، فهذه الصخور أخلاط، ويلفت فكرك إلى أنه من هذه الصخور النارية ومن أشباهها تكونت قشرة هذه الأرض عندما تمت الأرض تكوناً في القديم الأقدم من الزمان.

ثم قام يفعل فيها الماء، هابطاً من السماء أو جارياً في الأرض، أو جامداً في الثلج، وقام يفعل الهواء ويفعل الريح، وقامت تفعل الشمس، قامت جميعها تغير من هذه الصخور، من طبيعتها ومن كيميائها، فولدت منها صخوراً غير تلك الصخور حتى ما يكاد يجمعها في منظر أو مخبر شيء.

وقد يزيد العالم البيولوجي حديثاً فيذكر لك أن قاعدة القارات، تلك القاعدة التي لا تبين لأنه غطاها وجه الأرض المتغير، هذه القاعدة من جرانيت، ثم هو يذكر لك أنه في قاع البحار والمحيطات يوجد البازلت، فهو من تحت الجرانيت قابع، وهو منه أثقل وقد يقول لك: «لأنه منه أثقل» ضاغطاً على «لأنه» يريد أن ينبهك أن ثقله هو السبب في هبوطه يوم كانت مادة الأرض منصهرة مائعة.

وينتقل بك الجيولوجي إلى الصنف الأكبر الثاني من الصخور، إلى الصخور التي أسموها بالمترسبة أو الراسبة. وهي تلك الصخور التي اشتقت، بفعل الماء والريح والشمس أو بفعل الأحياء، ومن صخور أكثر في الأرض أصالة، وأعقد، وأسموها راسبة لأنّها لا توجد في مواضعها الأولى، إنها حملت من بعد اشتقاق من صخورها الأولى، أو وهي في سبيل اشتقاق، حملها الماء أو حملتها الريح، ثم هبطت ورسبت واستقرت حيث هي من الأرض.

ويضرب لك الجيولوجي مثلاً للصخور الراسبة بالحجر الجيري الذي يتألف منه جبل كجبل المقطم، ومن حجره تبنى القاهرة بيوتها، ويقول لك إنه مركب كيماوي يعرف بكربونات الكالسيوم، وأنه اشتق في الأرض من عمل الأحياء أو عمل الكيمياء، ويضرب لك مثلاً بالرمل ويقول لك: أن أكثره أكسيد السيلسيوم، وأنّه مشتق كذلك.

ومثلاً آخر بالطفل والصلصال، وكلها من أصول سابقة.

وتسأل عن هذه الأصول السابقة التي منها اشتقت تلك الصخور الراسبة، على اختلافها، فتعلم أنها الصخور النارية، بدأت الأرض عندما انجمد سطحها من بعد

انصهار، في قديم الأزل، ولا شيء على هذا السطح المنجمد غير الصخر الناري، ثم جاء الماء وجاءت البحار وتفاعل الصخر الناري والماء، وشركهما الهواء، شركهما غازات متفاعلة، وشركهما رياحاً عاصفة، وشركتهما الشمس، ناراً ونوراً، وتفاعلت كل هذه العوامل جميعاً، وفقاً لما أودع فيها من طبائع، فغيرت من صخر ناري صلد غير نافع، إلى صخر نافع، صخر ينفع في بناء المساكن، وصخر ينفع في استخراج المعادن، وأهم من هذا، وأخطر من هذا، أنّها استخرجت من هذا الصخر الناري الصلد الذي لا ينفع لحياة تقوم عليه، استخرجت تربة، رسبت على سطح الأرض، مهدت لقدوم الأحياء والخلائق.

إن الجرانيت لا ينفع لحرث أو زرع أو سقياً، ولكن تنفع تربة هشة لينة خرجت منه ومن أشباه له، وبظهور التربة ظهر النبات، وبظهور النبات ظهر الحيوان، وتمهدت الأرض لقيام رأس الخلائق على هذه الأرض، ذلك الإنسان.

ولو شئنا لزادنا العالم الجيولوجي حديثاً، وزاد علماً ممتعاً طريفاً.

ولكن هذه التفاصيل سوف تزحمنا ونزحمها وسوف تنسينا الغاية التي نستهدفها من إيضاح ما في هذا الكون من وحدة[١].

◎ عناصر الكون من عناصر الأرض

إن الأرض بعض الكون، وليس أظهر في وحدة الأشياء وما نبغي من إبانة الوحدة في أصولها، كالبحث في وحدة تركيبها، ونحن نبغي الآن التعرف على أصول منها تركبت الأرض، لنقرنها بعد ذلك بأصول منها تركب سائر الكون لنقول بعد ذلك أنها أصول سواء، في تركيب أرض أو تركيب سماء.

والذي يهمنا الساعة من تركيب الأرض، ليس هو صخور تركبت منها، ومركبات تألفت منها هذه الصخور، ولكن عناصر تركبت منها هذه المركبات وتألفت منها بعد ذلك الصخور.

إن العناصر التي تألفت منها قشرة الأرض، بلغت نحواً من التسعين عنصراً، ولكن الكثير من هذه العناصر غير ذي بال، فهو في الأرض قليل الوجود نادر. وبلغ الشائع في الأرض من العناصر نحواً من عشرين عنصراً، يتقدمها جميعاً من حيث الكثرة

(١) مع الله في السماء: ١٠٠ - ١٠٢.

الأكسيجين، يتبعه عنصر السلكون، ومن السلكون والأكسجين تتركب أكثر رمال الصحراء، ويتبعهما في الانتشار عنصر الألمنيوم، السيليسيوم وهذه العناصر الثلاثة تؤلف، متركبة، أكثر تربة الأرض، يجيء من بعد ذلك الحديد فالكالسيوم والصديوم فالبوتاسيوم فالمغنسيوم فالأدروجين، وهلم جرا.

ولسوف نذكر هذا، وأكثر من هذا، عندنا نتحدث عن عناصر يتألف منها الكون أجمع.

ولسوف نرد مواد الكون جميعاً إلى عناصر واحدة.

ولسوف نرد حتى هذه العناصر جميعاً، إلى أصل أو أصول واحدة.

فهل شيء، في معنى الوحدة، أبلغ من هذا؟.

ولكن صبراً صبراً[١].

◎ طبقات الهواء والاختلاف في نهاياتها

إن كرة الأرض بالاتفاق والعيان يحيط بها الهواء من كل مكان، واتّفق أيضاً الحكماء قديماً وحديثاً، على أن الحرارة المتوجهة إلى أرضنا من الشمس، بمصاحبة الأشعة، تنعكس عن سطوح الأرض بانعكاس الأشعة إلى كل جهة، وكلّما تعلو تلك الحرارة المنعكسة، وتبعد عن الأرض تضعف وتقل ناريتها حتى تتلاشى وتنعدم. واختلفوا في منتهى مسير تلك الحرارة ومحل تلاشيها. وفي أوائل انعدام تلك الحرارة، تتجمد البخارات والأدخنة المرتفعة من الأرض، وتثبت الرطوبات الصاعدة من البحار والبخار ونحوها.

ومن هنا «قسموا الهواء المحيط بالأرض إلى طبقات مثل طبقة النسيم، وهي المتصلة بالأرض المتحرك هواؤها إلى الجهات وهذه آخر الطبقات وأصلحها للمعيشة وقدروا ارتفاعها بحوالي ستة عشر ألف ذراع فوق الأرض، وقيل أكثر، وكذلك طبقة الزمهرير الساكن هوائها، الممتلىء بالرطوبات المتجمدة، وهو غير صالح للمعيشة، والواصل إليها يرعد ويرعف ويضعف وينزف الدم من آذانه وعينيه ومنافذ جسمه»[٢].

والحكماء المتأخرون عن الألف الهجري، وافقوا القدماء إلى هنا، وخالفوهم في أمور:

---

(١) مع الله في السماء: ١٠٢.

(٢) عجائب المخلوقات والحيوانات وغرائب الموجودات ضمن (كتاب حياة الحيوان الكبرى): ٢٣.

(منها): إنكارهم لطبقة النار التي زعم القدماء أحاطتها بكرة الهواء.

و**(منها)**: إثبات الوزن للكرة الهوائية، والبخارية.

و**(منها)**: أن الأرض مع كرتها الهوائية والبخارية، تجول في الفضاء الخالي عن الأرضيات الممتلىء من سياق جوهر (أثير).

واختلف المتأخرون في منتهى طبقات الهواء المشايعة لأرضنا في الحركة، والعمدة في ميزان حسابهم معرفة مقدار انكسار النور في الفجر والشفق، عند نفوذه في الكرة الهوائية، ووصوله إلينا، وأن علو الجلد - أي الكرة المحيطة بأرضنا كالغلاف والقشر - وارتفاعها عن الحد الذي يتكسر فيه النور، فهو نحو خمسة وأربعين ميلاً ويعرف بواسطة الشفق، ولعله يمتد إلى علو مائتين ميل فوق سطح الأرض»[١].

«وذهب بعضهم إلى أن علوه نحو خمسمائة ميل، وعن نيوتن أنّه قال: بارتفاعه خمسين فرسخاً»[٢].

«وذكر مؤلف (حدائق النجوم): أدلّة قوية، على أن الكرة البخارية الأرضية فوق مائة ميل، غاية الأمر اختلاف طبقاتها في الكثافة واللطافة حتى يتصل بالملأ الأثيري، الذي لم نسمع بألطف منه»[٣].

● وهناك عدة أدلة تؤدي إلى أن السماء، ولفظتها كان يقصد بها الكرة البخارية المحيطة بالأرض، ومن هذه الأدلة:

جاء في بحار الأنوار مسنداً إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، أن الشامي سأله عن أول ما خلقه الله تعالى؟

فقال: خلق النور.
قال: فمم خلقت السماوات؟
قال: من بخار الماء»[٤].

---

(١) الهيئة والإسلام: ١٥٤ - ١٥٥.
(٢) الآيات البينات في عجائب الأرضين والسماوات ٣٥.
(٣) حدائق النجوم: ١٥٥.
(٤) بحار الأنوار: ٥٤/ ٧٣، عن عيون أخبار الرضا عليه السلام: ١/ ٢٤٠.

● **وكذا جاء في البحار ضمن خبر طويل، قال عليه السلام: «فثار من الماء بخار كالدخان فخلق منه السماوات»**(١).

وروى جماعة: «أن الله تعالى لما خلق الأرض، ثار منها دخان، فذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾(٢) (٣).

وفي البحار عن ابن عباس، وابن مسعود، صاحب النبي صلى الله عليه وآله: «أن الله عز وجل كان عرشه على الماء... إلى أن قال: «أخرج من الماء دخاناً، فارتفع فوق الماء فسمّى عليه، فسمّاه سماءً»(٤).

وهنا نقول: لعله من الظاهر أنه لا اختلاف بين الطائفتين في رجوع أصل السماء إلى أصلٍ معين، وذلك أن الظاهر من مجموع هذه الأخبار، أن المراد من هذا الدخان هو البخار، غايته أن البخار والدخان إذ كانا من منشأ واحد أو متشابهين في العرف.

ويؤيد ذلك قول أمير المؤمنين علي عليه السلام في خبر يذكره صاحب البحار، وعلل الشرائع، أنه عن حبة العرني قال: سمعت علياً عليه السلام ذات يوم يحلف: «والذي خلق السماء من دخان وماء»(٥).

وأنه قال أمير المؤمنين عليه السلام **في خبر آخر: «واسم الدنيا رفيعا، وهي من دخان وماء» الدنيا يعني: السماء الدنيا.**

وقال عليه السلام: **وسميّت السماء سماءً: لأنها وسم الماء يعني معدن الماء»**(٦).

ويؤيد ذلك أيضاً، ما قاله المسعودي في مروجه، والفاضل ابن ميثم في شرحه لنهج البلاغة: «أن المفسرين اتفقوا على أن الدخان الذي تكونت السماء منه، كان عن تنفس الماء وتبخيره بسبب تموجه»(٧).

وقال أبي البقاء في كلياته: أن كل دخان يسطع من ماء حار، فهو بخار وكذلك من

---

(١) بحار الأنوار: ٥٤/ ٢٠٤.
(٢) بحار الأنوار: ٥٤/ ٢٠٤.
(٣) سورة فصلت، الآية: ١١.
(٤) بحار الأنوار: ٥٤/ ٢٠٤.
(٥) المصدر نفسه: ٥٥/ ١٠٤.
(٦) بحار الأنوار: ٨٩/٥٥، عن علل الشرائع: ١٢.
(٧) الهيئة والإسلام: ١٦٠.

الندى، وهناك أيضاً أخبار في البحار بخروج بخار من الماء، فخلقت السماء منه، وأن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾[1] فكان ذلك الدخان من تنفس الماء.

إلى غير ذلك من الشواهد الواضحة، فتتضح إرادة البخار من اسم الدخان وقد نطقت جملة من هذه الأخبار على خلق السماء من البخار، أو من دخان الذي هو تنفس البخار والله أعلم.

وهناك طائفة من الأخبار، تدل على أن السماء معدن الماء، وطائفة أخرى، تصرح أن السماء تحت مدارات الكواكب، ومن أراد الزيادة فيمكنه استقراء ذلك في الكتب المعتبرة التي أشرنا إليها في هوامش البحث.

والنتيجة التي يمكن أن نتوصل إليها من مدار البحث، هو حقيقة كون غلاف الأرض الجوي، أو الهوائي كان يُعرف بالسماء الدنيا، فكانت هذه الآراء المتقدمة حول أصل عنصره. ولو عملنا مقارنة مع الرأي الشرعي القائل بحقيقة السماء، ومم تتكون، والنظريات الحديثة لهذه الحقيقة، لما وجدنا اختلافاً جوهرياً سوى إضافة بعض العناصر المكونة للطبقة الهوائية، والتي تم اكتشافها بالطرق العلمية الحديثة، وأن بيان الأئمة عليهم السلام والشارع المقدس حول جوهر السماء لا يختلف كلياً، بل ويتناسب مع قدرة العقل الإنساني في تلك الفترة على استيعاب الحقائق العلمية، بل إن حكماء الإسلام في تلك الفترة صرحوا ولأكثر من مرّة بوجود وزن هوائي، يمثل ثقلاً على جسم الإنسان.

«فقد ذكر صاحب كتاب حدائق النجوم: أن ثقل الكرة البخارية (يعني الغلاف الهوائي) هو ١٨٧٣٠٨٩. ١١٥٢٢٢١١٤٩٤٢ رطل بريطاني، وقيل: إن جملة بخار الماء المنتشر في هواء الأرض يبلغ ثقله حوالي ٦٩٢,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠»[2]. وقد عينوا ثقل مقدار من الهواء، يحاذي رأس الإنسان من لدنه إلى ٤٥ ميلاً، وأن معدل ما يحمله الإنسان من الهواء نحو ٦٢٢٤ رطل»[3].

ولنأخذ بعد ذلك الغياب العلمي الحديث، حول وزن الكرة الهوائية أو وزن الغلاف

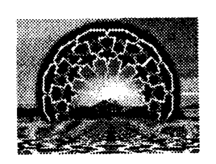
(١) سورة فصلت، الآية: ١١.

(٢) حدائق النجوم: ٦٧.

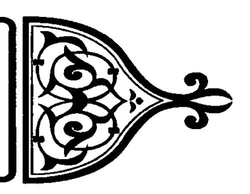
(٣) الآيات البينات في عجائب الأرضين والسماوات: ٧٧.

الجوي، والذي توصل إليه العلماء حالياً (هو ٥ مليون بليون طن)(١) ولا شك أن حالة التطابق بين الأرقام لا يمكن أن تتم لأن طرق الحساب قد اختلفت حديثاً عن طرق الحساب القديمة، ولكن قد يبدو أن الآراء متطابقة، حول ثقل هذا الغلاف، وما يشكله من ضغط على جسم الإنسان، وأن الشرق بنور الوحي كيف سبق الغربيين في كشف أسرار الوجود. وقد قال الأديب العربي ميخائيل نعيمة في عبارة له: «إن ما أدركه الشرق منذ أجيال بإيمانه واختباراته الروحية يحاول الغرب اليوم أن يتوّصل إليه بتلسكوبه ومكرسكوبه».

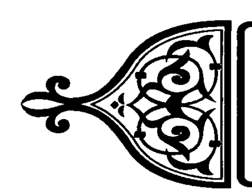
ومن العبر، أن الغربي كلما درس وتعمّق، عاد إلى الشرق، ونفض عن بعض تعاليمه غبار الدهر، وصقلها ثم عرضها على إخوانه، كأنها حقائق جديدة، فهو ينقّب هذه الآيام عن فلسفات الصين والهند والعرب والعجم، ليجد فيها مفاتيح لما أقفل في وجهه من أسرار الوجود»(٢).



(١) أسرار الكون في القرآن: ١٤٠.
(٢) الآيات البينات في عجائب الأرضين والسماوات: ١١٥.



الماء وأنواعه والبحار وغرائبها



● عن إبراهيم بن أبي يحيى المدني، عن أبي عبد الله عليه السلام مثله، إلاّ أنّه: قال اليهودي: أخبرني عن أوّل شجرة نبتت على وجه الأرض، وعن أوّل عين نبعت على وجه الأرض وعن أوَّل حجر وضع على وجه الأرض.

فقال أمير المؤمنين عليه السلام: أمّا أوّل شجرة نبتت على وجه الأرض فإنّ اليهود يزعمون أنّها الزيتونة وكذبوا، وإنّما هي النخلة من العجوة هبط بها آدم عليه السلام معه من الجنّة فغرسها وأصل النخل كلّه منها.

وأمّا أوّل عين نبعت على وجه الأرض فإنّ اليهود يزعمون أنّها العين الّتي ببيت المقدس وتحت الحجر وكذبوا، هي عين الحياة الّتي ما انتهى إليها أحد إلاّ حيي، وكان الخضر على مقدّمة ذي القرنين فطلب عين الحياة فوجدها الخضر عليه السلام وشرب منها ولم يجدها ذو القرنين.

وأمّا أوّل حجر وضع على وجه الأرض فإنّ اليهود يزعمون أنّه الحجر الّذي ببيت المقدس وكذبوا، إنّما هو الحجر الأسود هبط به آدم عليه السلام معه من الجنّة فوضعه في الركن، والناس يستلمونه وكان أشدَّ بياضاً من الثلج فاسودَّ من خطايا بني آدم[1].

● وعن عليّ عليه السلام قال: يا أهل الكوفة نهركم هذا ينصّب إليه ميزابان من الجنّة[2].

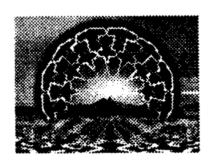
● كتاب الغارات: لإبراهيم بن محمّد الثقفيّ: رفعه عن الأصبغ بن نباته قال: سئل أمير المؤمنين عليه السلام عن أوّل شيء ضجّ على الأرض.

قال: وادٍ باليمن هو أوّل وادٍ فار منه الماء[3].

---

(١) البحار ج٥٧ ص٤٠، ٥ح.
(٢) البحار ج٥٧ ص٤١، ح٧.
(٣) البحار ج٥٧ ص٤٥، ح١٥.

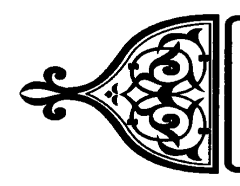
● كتاب النوادر لعليّ بن أسباط: عن عيسى بن عبد الله، عن أبيه، عن جدّه قال: قال عليه السلام: لو عدل في الفرات لسقى ما على الأرض كلّه[١] [٢].



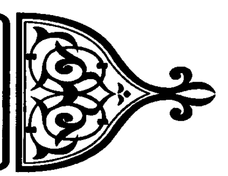
---

(١) يحمل أن يكون المراد بها الأراضي الّتي على شطّه وبالقرب منه.

(٢) البحار ج٥٧ ص٤٥، ح١٦.



السحاب والمطر والشهاب



﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا﴾ قال الطبرسيّ رحمه الله: روي أنّ ابن الكوّاء سأل أمير المؤمنين عليه السلام وهو يخطب على المنبر فقال: ما الذاريات ذروا؟

قال: الرياح.

قال: ﴿فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا﴾.

قال: السحاب.

قال: ﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا﴾؟

قال: السفن؟

قال: ﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾؟

قال: الملائكة.

وروي ذلك عن ابن عبّاس ومجاهد:

فالذاريات: الرياح تذور التراب وهشيم النبت أو تفرّقه.

فالحاملات: السحاب تحمل ثقلاً من الماء من بلد فتصير موقرة به.

والوقر - بالكسر -: ثقل الحمل على ظهر أو في بطن.

«فالجاريات يسراً»: أي السفن تجري في الماء جرياً سهلاً إلى حيث سيّرت، وقيل: هي السحاب تجري يسيراً إلى حيث سيّرها الله من البقاع.

وقيل: هي النجوم السبعة السيّارة.

«فالمقسمات أمراً» الملائكة يقسّمون الأمور بين الخلق على ما أمروا به، أقسم بالله تعالى بهذه الأشياء لكثرة ما فيها من المنافع للعباد ولما تضمّنته من الدلالة على وحدانيّة الله تعالى وبدائع صنعه، وقيل: التقدير القسم بربّ هذه الأشياء[1] (انتهى).

● العلل: عن أبيه، عن الحميريّ، عن هارون، عن ابن صدقة، عن جعفر ابن

(١) مجمع البيان: ج٩، ص١٥٢، البحار ج٥٦، ص٣٧٠.

محمد، عن أبيه عليه السلام قال: كان عليٌّ عليه السلام يقوم في المطر أوّل مطر يمطر حتّى يبتلّ رأسه ولحيته وثيابه.

فيقال له: يا أمير المؤمنين، الكنّ! الكنّ!

فيقول: إنّ هذا ماء قريب العهد بالعرش، ثم أنشأ يحدّث فقال: إنّ تحت العرش بحراً فيه ماء ينبت به أرزاق الحيوان، وإذا أراد الله تعالى أن ينبت به ما يشاء لهم رحمة منه أوحى الله عزّ وجلّ فمطر منه ما شاء من سماء إلى سماء حتّى يصير إلى السماء الدنيا فتلقيه إلى السحاب، والسحاب بمنزلة الغربال، ثمّ يوحي الله عزّ وجلّ أن اطحنيه وأذيبيه ذوبان الملح في الماء ثمّ انطلقي به إلى موضع كذا وكذا وعباباً وغير عباب، فتقطر عليهم على النحو الّذي يأمرها به، فليس من قطرةٍ تقطر إلاّ ومعها ملك [حتىّ] يضعها موضعها، ولم ينزل من السماء قطرة من مطر إلاّ بقدر معدود ووزن معلوم إلاّ ما كان يوم الطوفان على عهد نوح عليه السلام فإنّه نزل منها ماء منهمر بلا عدد ولا وزن(١).

● عن أبي إسحاق، عن حارث الأعور، عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: سئل عن السحاب أين يكون؟

قال: يكون على شجر كثيف على ساحل البحر يأوي إليها، فإذا أراد الله أن يرسله أرسل ريحاً فأثاره(٢).

● عن أبي البختريّ، عن جعفر، عن أبيه عليه السلام قال: السحاب غربال المطر، ولولا ذلك لأفسد كلَّ شيء يقع عليه(٣).

● وقال عليه السلام في قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾.

قال: من ماء السماء ومن ماء البحر، فإذا أمطرت فتحت الأصداف أفواهها في البحر فيقع فيها من ماء المطر، فيخلق اللؤلؤ الصغيرة من القطرة الصغيرة، واللؤلؤة الكبيرة من القطرة الكبيرة(٤).

◎﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾

المرجان واحدته مَرْجانة، وهو صغار اللؤلؤ .

---

(١) العلل: ج٢، ص١٤٨، الحبار ج٥٦ ص٣٧٢، ح٢.
(٢) تفسير القمي: ٦٠٣، البحار ج٥٦ ص٣٧٣، ح٤.
(٣) قرب الإسناد: ٨٣، البحار ج٥٦ ص٣٧٣، ح٥.
(٤) قرب الإسناد: ٨٣، البحار ج٥٦ ص٣٧٣، ح٦.

واللؤلؤ حِلية، وهو من أسباب الجمال والترف، وتَكْرِمَةٌ من الله للإنسان، ثم إنه ضرورة لمن يتعاش على صيده وبيعه، أو هكذا كانوا. ما هو اللؤلؤ وكيف يتكون؟ هو التحجّرات الكلسية التي تتكون كنموٍ غير طبيعي في داخل صدفات بعض أنواع الحيوانات الرخوية كالمّحار.

إن اللؤلؤ الطبيعي هو الحجر الكريم الوحيد الذي يتم استخراجه من البحر، وهو يتكون نتيجةً لدخول جسم غريب إلى داخل جسم المحارة التي تنتجه فيهيّجها، وهي لأنها لا يمكنها أن تلفظه فهي تحاول أن تقلّل من ذلك التهيّج، فتكسوه بمادةٍ لؤلؤيّة تفرزها طبقةً فوق طبقة.

وما هي المادة اللؤلؤية؟

إنها شبكةٌ من مادةٍ عضوية تسمى: «الكونكيولين» تترسّب فيها وحولها بلّوراتٌ من «كاربوت الكالسيوم» التي تكوّن أكثر من ٩٠٪ من مادة اللؤلؤ.

ليس كل اللؤلؤ الطبيعي ذا منشأٍ بحري، فهو يمكن أن ينتج في رخويات الماء العذب، وغالباً ما توجد بعض أنواع اللؤلؤ الطبيعي الممتاز، وبألوانٍ رهيفة، في هذه الأنواع من المحار النهري، ولقد قال تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا﴾[1]، أي من ماء البحار وماء الأنهار.

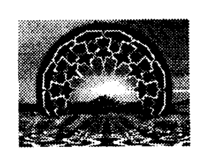
وينتج التّلون القزحي والبريق الأخّاذ، الذي يُطلَب اللؤلؤ من أجله ، عن انعكاس الضوء وانكساره على سطح هذا الحجر الكريم الشفاف. وأحسنُ أنواعه، وهو ذو اللون الوردي أو الأصفر الشاحب، ما يوجد في منطقة الخليج العربي، إذ هو يتكون في جسم محارةٍ صغيرة تسمّى «Pinctada Vulgaris» وتتميز كل منطقة في العالم بإنواعٍ مميّزة من اللؤلؤ يمكن أن يعرفها تجّار اللؤلؤ بيسر، وهم يثمّنونها بحسب نوعها، ويثمن لؤلؤ الخليج العربي الفاخر بأعلى الأسعار من بين أنواع اللؤلؤ الأصلي.

استنبات اللؤلؤ: قام اليابانيون، عام١٨٩٤، باستنبات اللؤلؤ، وهم يقومون، لأجل ذلك بوضع حبّات مصنوعة أسماؤها: «أم اللؤلؤ» داخل أجسام المحار، وبعد أن يُتْرَكَ فيها هذا العامل المهيّج فترةً من الوقت يكتسب طبقة لؤلؤية رقيقة، وقد وجد أن جزءاً كبيراً من هذا اللؤلؤ المستنبت يتكون من حبّة «أم اللؤلؤ» الصناعية هذه (أكثر من

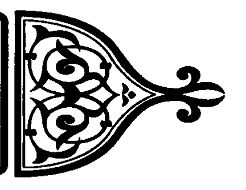
(١) سورة الرحمن، الآية: ٢٢.

٧٥ إلى ٩٠٪ من قطرها)، إذ إن جسم المحار يفرز حوالي المليمتر الواحد فقط من اللؤلؤ حول الحبّة، ويمكن للمتعاملين باللؤلؤ أن يميزوا، من طريق النظر، غالباً، اللؤلؤ الطبيعي عن ذلك المستنبت.

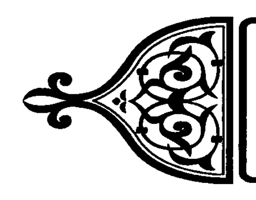
فانظر كيف قد سَخَّرَ الحقُّ تبارك وتعالى هذه المحرة الصغيرة تُنتجُ ذلك اللؤلؤ الرائع الجميل، ومن رزقٌ لمن يصطاده كثير، ثم تزدانُ به من بعد ذلك وتختال[1].



(١) مصدر: Collier's Encyclopedia, Vol. 18 (1983), p ٥١٧.



تسخير البحار



﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(١).

يرقد ما يقرب من سطح الأرض تحت مياه المحيطات التي يبلغ عمقها، في المعدل، ٤ كيلومترات، وتوجد أعمق بقعة في مياه البحر في «خندق تونغا» في جنوبي المحيط الهادىء حيث يزيد عمقها على الـ ١٠ كيلومتر، وهو ما يزيد على ارتفاع جبل «ايفرست» بحوالي كيلومترين اثنين، بينما يمتد الهواء الجوّي في غلافٍ حقيقي يحيط بالأرض، وبما يمتد إلى مئات الكيلومترات، وكلاهما مسؤولٌ عن المحافظة على بيئة الأرض.

فهواء الجوّ يسوق دورات المحيط العظيمة، كما يؤثر بقوةٍ في خصائص البحر، وبالمِثل فإن الغلاف الجوّي يدين بطبيعته إلى المحيطات، وهو يستمد طاقته منها، وإن الرياح، ودوران الأرض حول نفسها، والموانع الأرضيّة الطبيعة كلها عوامل تؤثر في دورة الحياة في المحيطات، وبطريقةٍ لم تُفهَم جيّداً بعد. إن كثافة ماء البحر هي أكبر بقليل من كثافة الماء العذب (١,٠٣ مقابل ١ غم/ سنتمتر مكعب)، وهو ما يجعل السباحة في مياه البحر أكثر يُسْراً، كما أن لزوجته المنخفضة وتوتره السطحي العالي يساعدان على انسياق السفن والسباحين فيه، كما أن ماء البحر لا يلتصق بالأسطح، بل هو يبتعد عنها بسهولة. ويرجع لون سطح الماء الأزرق إلى بعثرة ضوء الشمس الناتجة عن الدقائق المعلّقة في الماء.

تحتوي البحار على أكثر من ٢٠٠,٠٠٠ نوعٍ من مخلوقاتٍ لا يكاد أن يُتَصَوَّر مدى تنوّعها، وتوجد معظم أحياء البحر في مياهه الضحلة نسبياً حيث يصلها ضوء الشمس الذي يسمح للعملية «التركيب الضوئي» بالحدوث. تتراوح الأحياء في مياه البحار ما بين النباتات المجهرية ذات الخلية الواحدة، والحيوانات بالغة الغر، وبين الحيتان التي

(١) سورة الجاثية، الآية: ١٢.

قد يصل طولها إلى أكثر من ٣٠متراً، وهو ما يفوق طول الديناصورات التي وجدت على سطح الأرض سابقاً.

إن أبسط أنواع هذه المخلوقات هو «البلانكتن» (Plankton)، وهي نباتات وحيوانات مجهرية هُلامية القوام تتحرك عبر طبقات الماء المحيط المضاءة وكأنها عشبٌ طافٍ. يقوم «البلانكتن» النباتي الذي يكثر في طبقات المحيط العليا بتجهيز ما يزيد على ٩٠٪ من المادة العضوية التي هي أساس الحياة في الماء، وهو يصنعها باستخدام ضوء الشمس والمعادن ومواد مغذية أخرى. تقوم أنواع من «البلانكتن» الحيواني بالتهام هذه النباتات، ثم هي بدورها تصير طعاماً للحيوانات التي تعيش تحتها. وهكذا فإن هذه الدورة تتكرر في أعماق متعاقبة، وحتى قاع المحيط حيث تعتاش الحيوانات اللافقرية مثل «الاسفنج الزجاجي» على النُّثار المتواصل الذي يرتشح إليها من أعلى.

ومن فوائد البحار أنها مصادر ممتازةٌ للغذاء، ولقد اصطيد ٧٠ مليون طن من البحر عام ١٩٧٥، وأكثر من ٩٠٪ منها على شكل أسماك، والباقي منها حيتان، وقشريات كالسرطان والروبيان وجراد البحر، ومحار، وغيره.

وهي مصادر للمعادن، علماً بأن كل ما يوجد من المعادن في اليابسة يوجد في ماء البحر، ومن أكثرها وجوداً في البحر: ملح الطعام، والمغنيسيوم، والكبريت، والكالسيوم، والبوتاسيوم، والرومين، وكثيرٌ غيرها، كالذهب والفضة.

وهي مصدرٌ لطاقة الإنسان لا ينفد، إلا أن توفر النفط والفحم الرخيصين قد أدّى إلى إهمال استغلال البحار لهذا الغرض إهمالاً كبيرا، ويُحتمَل أن تلعب القوة الناتجة عن تَحَدُّر المدّ والجزر، والأمواج، والحرارة، دوراً متزايداً في تلبية بعضٍ من حاجة الإنسان إلى الطاقة في المستقبل.

ومصادر اللؤلؤ، والإسفنج، والأعشاب البحرية التي تستعمل كسماد، أو غذاء، أو كمواد تضاف إلى الغذاء، والأدوية، واليود، والصودا والپوتاس، والسماد المحضر من فضلات الطيور، والماء العذب من طريق تحلية ماء البحر.

وهي وسيلةٌ للنقل عظيمةٌ ورخيصة.

والإنسان على شاطىء البحر، وهو لا يرى له من حدٍّ إلاّ حيث هو يلتقي بالأفق، يدرك كم أن البحر كبير، ثم هو يعرف كم هوصغيرٌ صغير، وأنه في هذه الحياة ، أجيالاً

من بعد أجيال، لا يُخلِّف وراءه إلاّ كمِثل ما تترك الموجة بعد الموجة من آثارٍ على سِيف البحر سرعان ما تختفي، اللهم إلاّ بمقدار ما قد عمل من خيرٍ أو شرّ يجدهما في الآخرة حاضرينْ أمامه باقيَيْن في أثرهما، كمثل الموجة الصخّابة التي لا تقرّ إلى قرار، وبما لا يُدرك في لُجيِّ البحر العميق.

فسبحانك يا من سخّرت لنا البحار، وما فيها، على روائع الخَلْق وعجائبه التي لا تنقضي فيها[١].

◎ لو قد قام قائمنا

●عن أبي بصير ومحمد بن مسلم، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: ما أنزلت السماء قطرة من ماء منذ حبسه الله عزّ وجلّ ولو قد قام قائمنا لأنزلت السماء قطرها، ولأخرجت الأرض نباتها[٢].

◎ السحاب

●عن الحسين بن سعيد، عن ابن العرزميّ، رفعه قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام وسئل عن السحاب أين تكون؟

قال: تكون على شجر على كثيب على شاطىء البحر يأوي إليه، فإذا أراد الله عزّ وجلّ أن يرسله أرسل ريحاً فأثارته، ووكلّ به ملائكة يضربونه بالمخاريق وهو البرق فيرتفع، ثم قرأ هذه الآية: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ الآية -[٣] والملك اسمع الرعد[٤].

◎ المطر

●نوادر الراوندي: بإسناده عن موسى بن جعفر، عن آبائه عليهم السلام قال: قال عليّ عليه السلام: المطر الّذي منه أرزاق الحيوان من بحر تحت العرش[٥].

---

(١) مصدر: Collier's Encyclopedia, Vol 18 (1983), P. 58-64.

(٢) الخصال: ١٦٥، البحار ج٥٦ ص٣٧٩، ح١٧.

(٣) سورة فاطر، الآية: ٩.

(٤) روضة الكافي: ٢١٨، البحار ج٥٦ ص٣٨٢، ح٢٦.

(٥) البحار ج٥٦ ص٣٨٣، ح٢٧.

◎ بركة من السماء

●دعوات الراوندي: كان أمير المؤمنين عليه السلام إذا أصابه المطر مسح به صلعته وقال: بركة من السماء لم يصبها يد ولا سقاء(١).

◎ معنى: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا﴾

●كتاب الغارات: لإبراهيم الثقفيّ بإسناده، قال: سأل ابن الكوّاء أمير المؤمنين عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا﴾ قال: الرياح.

ويلك! قال: فما الحاملات وقرا؟

قال: السحاب.

ويلك! قال: فما الجاريات يسرا؟

قال: السفن.

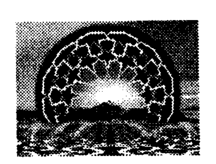
ويلك! قال: فما المقسّمات أمرا؟

قال: الملائكة.

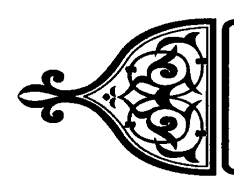
ويلك! قال: فما قوس قزح؟

قال: ويلك! لا تقل قوس قزح فإنّ قزحاً الشيطان، ولكنّها القوس، وأمان أهل الأرض، فلا غرق بعد قوم نوح(٢).

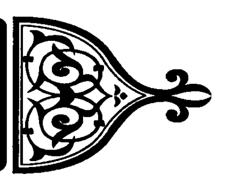
● الفقيه: قال عليّ عليه السلام: للريح رأس وجناحان(٣).



(١) البحار ج٥٦ ص٣٨٤، ح٢٩.
(٢) البحار ج٥٦ ص٣٨٤، ج٣٠.
(٣) البحار ج٥٧ ص٦، ح١.



السحاب وتكوينها



ما هي السحب. . . ؟

نقل العلامة المجلسي قدس سره قائلاً: «قال أهل الطبائع: إن تكون السحاب والمطر والثلج والبرد والطلّ والصقيع في أكثر الأمر يكون من تكاثف البخار، وفي الأقلّ من تكاثف الهواء، أمّا الأول فالبخار الصاعد إن كان قليلاً، وكان في الهواء من الحراة ما يحلل ذلك البخار فحينئذ ينحلّ وينقلب هواء، وأمّا إن كان البخار كثيراً ولم يكن في الهواء من الحرارة ما يحلّله، فتلك الأبخرة المتصاعدة إمّا أن تبلغ في صعودها إلى الطبقة الباردة من الهواء أو لا تبلغ، فإن بلغت فإمّا أن يكون البرد قويّاً أو لا يكون، فإن لم يكن البرد هناك قويّاً تكاثف ذلك البخار بذلك القدر من البرد؛ واجتمع وتقاطر، فالبخار المجتمع هو السحاب والمتقاطر هو المطر، والديمة والوابل إنّما يكون من أمثال هذه الغيوم.

وأمّا إن كان البرد شديداً فلا يخلو إمّا أن يصل البرد إلى الأجزاء البخاريّة قبل اجتماعها وانحلالها أو بعد صيرورتها كذلك، فإن كان على الوجه الأوّل نزل ثلجاً، وإن كان على الوجه الثاني نزل برداً، وأمّا إذا لم تبلغ الأبخرة إلى الطبقة الباردة فهي إمّا أن تكون قليلة أو تكون كثيرة، فإن كانت كثيرة فهي تنعقد سحاباً ماطراً أو قد لا تنعقد، أمّا الأول فذاك لأحد أسباب خاصّة:

أولها: إذا منع هبوب الرياح عن تصاعد تلك الأبخرة.

وثانيها: أن تكون الرياح ضاغطة لها إلى اجتماع بسبب وقوف جبال قدّام الريح.

وثالثها: أن تكون هناك رياح متقابلة متصادفة فتمنع صعود الأبخرة حينئذٍ.

ورابعها: أن يعرض للجزء المتقدّم وقوف لثقله وبطء حركته ثمّ تلتصق به سائر الأجزاء الكثيرة المدد.

وخامسها: لشدّة برد الهواء القريب من الأرض فقد يشاهد البخار يصعد في الجبال صعوداً يسيراً حتى كأنّه مكبّة موضوعة على وهدة ويكون الناظر إليها فوق تلك الغمامة، والذين يكونون تحت الغمامة يمطرون والذين يكونون فوقها يكونون في الشمس، أمّا إذا كانت الأبخرة القليلة الارتفاع قليلة لطيفة فإذا ضربها برد الليل وكثّفها وعقدها ما يكون محسوساً ونزل نزولاً متفرّقاً لا يحسّ به إلا عند اجتماع شيء يعتد به، فإن لم يجمد كان طلاً وإن جمد كان صقيعاً، ونسبة الصقيع إلى الطلّ نسبة الثلج إلى المطر»[١].

أما من الناحية العلمية فيمكن القول:

إن أي تحول طبيعي في الكون سواء كان فيزياوياً أو كيمياوياً، يحكم قانون اللانتظام (الانتروبي) أو كما يسمونه الاعتلاج، وهي أن من صفات المادة ميلها إلى الاعتلاج (اللا انتظام). وعلى العموم فإذا كان التغير في الاعتلاج موجباً فإن العملية تكون تلقائية، مثل سقوط الأشياء ومنها سقوط المطر.

وإن كان التغير في الاعتلاج مساوياً لصفر، فإن النظام يبقى متوازناً.

وإن كان الغير في الاعتلاج سالباً، فإن العملية لا تتم، وهي غير تلقائية.

وفي المطر وتكون السحب، فإن القانون الطبيعي يرينا رحمة الله تعالى متجلية.

فالماء له ثلاث حالات في الطبيعة، وهو البخار موجود في كل مكان من الأرض، والماء السائل وهو كذلك، والجليد وهو ينحصر في المناطق الباردة من الأرض.

إن السحاب، هو بخار الماء المتكاثف في أعالي الجو، وهو في ظاهره مخالف لقوانين الترموداينمك في الاعتلاج، ذلك لأنّ حرارة تكوين الماء، في حالته السائلة هي (- ٨، ٢٨٥) كيلو جول لكل مول، وحرارة تكوين الماء في حالته الغازية هي (- ٨، ٢٤١) كيلو جول لكل مول.

معنى هذا أن تحويل مول من السائل إلى البخار، يحتاج إلى ٤٤ كيلو جول لا بد أن يأخذها من الطبيعة، ثم إن هذا المول يحتاج إلى فقدان ٤٤ كيلو جول في الجو ليتكاثف إلى سائل.

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ٣٦٣ - ٣٦٤.

ΔH = ٤٤ كيلو جول / مول $H_2O \rightarrow H_2O$

(1) (9)

ΔH = - ٤٤ كيلو جول / مول $H_2O \rightarrow H_2O$

(9) (1)

وحسب قواني الاعتلاج في الترمودانيمك، إذا كانت العملية الأولى طبيعة وتلقائية، فإن الثانية غير ممكنة تلقائياً مطلقاً.

ولكن رحمة الله تعالى فوق الطبيعة، فالحرارة في العملية الأولى يأخذها الماء من المحيط ومن الشمس فتكون العملية تلقائياً، وعندما يرتفع البخار إلى أعالي الجو، يأخذ المحيط الحرارة التي اكتسبها الماء فيتكاثف.

وتأتي أسباب رحمة الله تعالى، لتسوق هذا الماء المتكاثف (السحاب) في المناطق الباردة إلى مناطق أكثر سخونة، فيعود الماء إلى درجة اعتلاجه في السائل، ويخضع لقانون السقوط الحر باعتباره عملية طبيعية اعتلاجها موجب، فيسقط المطر.

وتبرز رحمة الله تعالى، في السحب خلافاً للقانون الطبيعي ليس في تغير الأعتلاج، بل في توزيع الماء العذب من الملح الأجاج أولاً، وحتى المحيطات والبحار يساق إلى الأرض الجرز.

◎ السحاب الثّقال

- نقل المجلسي قدس سره - في معنى قوله تعالى: ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾[١].

السحاب اسم الجنس، والواحدة سحابة والثقال: جمع ثقيلة، أي الثقال بالماء واعلم أنّ هذا أيضاً من دلائل القدرة والحكمة، وذلك لأنّ هذه الأجزاء المائية إمّا يقال إنّها حدثت في جوّ الهواء، أو يقال إنّها تصاعدت من وجه الأرض، فإن كان الأوّل وجب أن يكون حدوثها بإحداث محدث حكيم قادر وهو المطلوب، وإن كان الثاني وهو أن يقال إنّ تلك الأجزاء تصاعدت من الأرض فلمّا وصلت إلى الطبقة الباردة من الهواء بردت فثقلت ورجعت إلى الأرض فنقول:

---

(١) سورة الرعد، الآية: ١٢.

هذا باطل، وذلك لأنّ الأمطار مختلفة، فتارة تكون القطرات كبيرة وتارة تكون صغيرة، وتارة تكون متقاربة وأخرى تكون متباعدة، وتارة تدوم مدّة نزول المطر زماناً طويلاً وتارة قليلاً، فاختلاف الأمطار في هذه الصفات مع أنّ طبيعة الأرض واحدة وطبيعة الأشعة المسخنّة للأبخرة واحدة لا بدّ وأن يكون بتخصيص الفاعل المختار، وأيضاً فالتجربة دلّت على أن للدعاء والتضرع في نزول الغيث أثراً عظيماً، ولذلك شرّعت صلاة الاستسقاء، فعلمنا أن المؤثر فيه هو قدرة الفاعل لا الطبيعة الخاصّة[1].

وفي قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾[2] قال قدس سره: سمي السحاب سحاباً لانسحابه في الهواء، ومعنى التسخير التذليل، وإنّما سماه مسخراً لوجوه:

أحدها: أن طبع الماء يقتضي النزول، فكان بقاؤه في جوّ الهواء على خلاف الطبع، فلا بدّ من قاهر يقسره على ذلك، ولذلك سمّاه بالمسخّر.

الثاني: أن هذا السحاب لو دام لعظم ضرره من حيث إنّه يستر ضوء الشمس ويكثر الأمطار، ولو انقطع لعظم ضرره لأنّه يفضي إلى القحط وعدم العشب.

الثالث: أنّ السحاب لا يقف في موضع معين بل يسوقه الله تعالى بواسطة تحريك الرياح إلى حيث أراد وشاء، وذلك هو التسخير[3].

هذا ولا يخفى أن الرحمة الالّهية تتدخل في تكوين السحب، وسوقها، وتوزيع الماء العذب وفي مخالفة الطبيعة هناك قانون مشهور وهو من مبادىء علم الترموداينمك، صاغه العالم (كلاوزويس) يلخص المبدأين الأول والثاني في الترموداينمك بعبارة مختصرة، وهي:

«تبقى طاقة الكون ثابتة، أما الاعتلاج فهو في زيادرة مستمرة وتتجه نحو نهاية عظمى». والمطر من السحاب، ووفق معادلات الاعتلاج وكما رأينا، لا تحكمه قوانين الطبيعة بل قوانين رحمة الله تعالى. ويبرز ذلك في الكميّة والنوعية للمطر، وفي كيفية التوزيع على الأرض وفي علاقة المطر بالدعاء.

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦ / ٣٥٦ عن مفاتيح الغيب: ٥ / ٢٧٩.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٦٤.
(٣) بحار الأنوار ٥٦ / ٣٥٠ عن مفاتيح الغيب: ٢/ ١٠٢.

ومن صفات المطر وأحواله قال قدس سره:

وثبت علمياً أن السحاب ما هو إلا ضباب متكون في الطبقات العليا للجو، بسبب ارتفاع الرياح الدافئة الرطبة نحو الأعلى، على شكل رياح تصاعدية، كما يحدث عند خط الاستواء وعند خط العرض (٦٠)، أو بسبب اصطدام الرياح بالمرتفعات حيث تضطر للارتفاع، أو بسبب اندساس رطوبة مع رياح باردة تحت الرياح الدافئة، تدفعها نحو الأعلى وارتفاع تلك الرياح الدافئة يؤدي إلى تبرّدها، ثم تكاثف ما فيها من بخار ماء على شكل قطرات دقيقة مائية، أو على شكل بلورات ثلجية صغيرة، تظل معلقة في الجو، لأنّها أخف ثقلاً من الهواء تحتها، وتتكاثف تلك القطرات حول نويات من الغبار تحملها إليها الرياح، فيكبر حجمها، وتتحد فيما بينها متحولة إلى قطرات من المطر، أو بلورات كبيرة من الثلج، تتساقط نحو سطح الأرض.

وقد قدّرت نسبة الغيوم فوق الكرة الأرضية، أي: المعدل السنوي لها ب ٥،٥ درجات أي أن ٥٥٪ من مساحة الأرض مغطاة بالغيوم كمعدل سنوي، إلاّ أن هذا المعدل هو ٤،٩ درجات فوق اليابسة و ٥،٨ درجات فوق البحار[1].

◎ أنواع السحب

تصنف السحب في عدة أصناف، حسب مظهرها العام، والارتفاع الذي تتشلك عنده، فالظواهر الجوية التي ترافق أو تؤدي إلى تشكلها، والآثار التي تنشأ عنها وأهم أنواع السحب:

◎ أولًا: السحاب السمحاقي أو القزعي (سيّروس)

أ - وهو أكثر أنواع السحب ارتفاعاً في الجو، إذ يصل ارتفاعه حتى ١٦ كم أحياناً، وله مظاهر متعددة، إذ يظهر أحياناً على شكل أذناب الخيل، أو على شكل خصلات من الشعر، كما يتخذ بعضه شكل الريش، أو القطن المندوف، ويتكون من جزئيات صغيرة من الثلج، وقلة كثافة مع شفافيته، لا تحجبان أشعة الشمس عن الأرض، وإنما تخففان منها، كما لا تترك أي ظل لها على الأرض، وهي لا تسبب أي هطول، وإنما تشير إلى حدوث تغيرات في الجو، وهناك عدّة أنواع من السحاب السمحاقي:

---

(١) المناخ والطقس: ١٨٦.

أ - السمحاق الطبقي (سيروستراتوس)

ويتألف من طبقة رقيقة جداً وشفافة، لا تحجب قرص الشمس أو القمر، وإنما يتكون فيه حولهما هالة مستديرة، ناتجة عن انعكاس نوريهما على جزيئات الثلج، الذي يتكون منها ذلك السحاب، مما يؤدي إلى التخفيف قليلاً من أشعتيهما.

ب - السمحاق الركامي (سيروكومولوس)

ولهذا السحاب مظهر الصفوف المتموجة، التي تعطي السماء منظراً جذاباً، وقد تكون تلك الصفوف متقاربة أو متصلة، كما تكون على شكل مجموعات متباعدة.

◎ ثانياً: الطبقي المرتفع (التوستراتوس)

وهو يظهر في السماء على شكل أشرطة متباعدة عن بعضها، ومتطبقة فيما بينها.

◎ ثالثاً: السحاب الركامي أو التراكمي (لومولوس):

وهي سحب تتراكم فوق بعضها كالقباب، وبسمك كبير يزيد أحياناً على ألف متر، كما تتخذ أحياناً شكل الروابي، والأبراج، وقد تنتهي في أعلاها، برؤوس منتفخة. وتعتبر من أهم السحب المنخفضة، إذ بتراوح ارتفاعها بني ألف وألف وخمسمائة متر. ويعود تشكل السحب (الركامية) إلى تيارات هوائية صاعدة، لذا فأغلبها يتكون في النهار، ولا سيما بعد الظهر.

وبسبب سمكها الذي يصل إلى أكثر من ٥كم أحياناً، فإن سطحها المواجه للشمس، يعطيها مظهر الجبال الثلجية ناصعة البياض، أما عندما تحجب الشمس فإنها تصبح ذت لون رمادي قاتم، مائل إلى الزرقة، ويصبح الجو عابساً عندما تحول بين نور الشمس وسطح الأرض، وغالباً ما تسبب هطول الأمطار على شكل همرات تتخللها فترات من التوقف. وعندما تتخذ هذه الغيوم شكل (السندان)، فإنها تدل على قرب حدوث جو عاصف راعد. وهناك عدة أنواع:

أ - المزن الركامي أو المعصرات (كومولو - نيمبوس)

يعتبر من أكثر أنواع الغيوم سمكاً إذ يصل سمكه إلى حوالي (٩ - ١٠) كم لذا يكون لونه رمادياً قاتماً مائلاً إلى الزرقة، يأخذ في بداية تشكله عند الأفق شكل (السندان)، ولكنه عندما يتكاثر يتصل حتى يغطي السماء بأكملها، ويجعل الجو قاتماً مكفهراً، لا يلبث أن يلمع فيه البرق، ويدوي الرعد وتهطل الأمطار بغزارة، وقد تهطل همرات من

البرد. ويعتبر المزن الركامي من أكثر أنواع السحب أمطاراً، ويتفق ظهوره وتكاثرة مع مرور المنخفضات الجوية، وتشكل جبهات باردة، حتى إذا ما تجاوزت تلك المنخفضات المنطقة أخذ بالتحول إلى سحب ركامية مبعثرة.

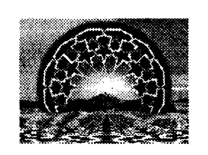
ب - السحاب (الركامي متوسط الارتفاع) (التوكومولوس)

وقد دعيت مثل هذه السحب (الركام متوسط الارتفاع)، لأن ارتفاعها يتراوح بين (٢-٤) كم فوق المناطق القطبية، وبين (٢-٧) كم في المناطق المعتدلة، وبين (٢-٨) كم في المناطق المدارية، ويبدو في السماء على شكل قزعات مبعثرة أو على شكل صفائح، أو طبقات، أو على شكل أمواج.

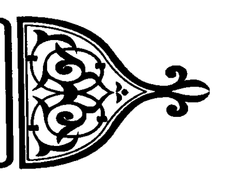
ج - السحب الطبقية الركامية (ستراتوكومولوس)

وقد دعيت بذلك، لأنّها تبدو على شكل طبقات تغطي السماء بأكملها، ويتراوح ارتفاعها بين (١-٥،١) كم. وتنشأ السحب الطبقية، بسبب مرور منخفضات جوية، تهاجمها مرتفعات جوية، تندس رياحها الباردة، تحت رياح المنخفضات الدافئة، وتدفعها للإرتفاع نحو الأعلى، كما يؤدي اصطدام الرياح بالمرتفعات وارتفاعها نحو الأعلى إلى تشكيل مثل هذا النوع من السحب. وعلى الرغم من دوام مثل هذه السحب عدة أيام، فإنها لا تسبب سقوط أمطار تذكر بسبب قلة سمكها[١].

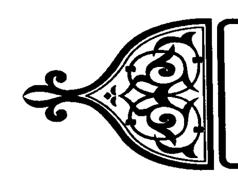
وهناك سحب أخرى تختلف عن السحب القطبية بارتفاعها، الذي يصل إلى ٤كم.



(١) المناخ والطقس: ١٨٨.



قوس الله (قوس قزح)



● الاحتجاج: عن الأصبغ قال: سأل ابن الكوّاء أمير المؤمنين عليه السلام فقال: يا أمير المؤمنين! أخبرني عن قوس قزح.

قال: ثكلتك أمّك [ياابن الكوّاء] لا تقل قوس قزح فإنّ قزحا اسم الشيطان، ولكن قل: قوس الله إذا بدت يبدو الخصب والريف(١).

إن من أجوبة الإمام الحسن بن علي عليه السلام على أسئلة ملك الروم حيث قال السائل: ما قوس قزح؟

قال عليه السلام: ويحك! لا تقل قوس قزح، فإنّ قزح اسم شيطان، وهو قوس الله، وعلامة الخصب، وأمان لأهل الأرض من الغرق(٢).

ومن الناحية العلمية يتألف من سبعة ألوان، ترى في السماء، على شكل قوس، أو نصف دائرة، أو أكثر من ذلك، حسب الارتفاع الذي تكون عليه الشمس فوق الأفق، وحسب اتّساع مدى جبهة المطر الهاطل. وتمثّل تلك الألوان الطيف الناتج عن تحلل أشعة الشمس، بسبب انكسارها فوق قطرات ماء المطر.

ولا يتشكّل (قوس قزح)، إلا ضحى، أو مساء، إذ يشترط في تشكّله، أن تكون أشعة الشمس ساقطة على قطرات المطر، بزاوية قدرها (٤٢)°، كي يتحقق انكسار أشعتها، وتحلّلها، على تلك القطرات، وهذا يعني أنه يجب أن تكون الشمس ساطعة في الشرق، وأن يقابلها في الجهة الغربية، أو في الجهتين الفرعيتين المجاورتين لتلك الجهة الأصلية، أمطار هاطلة.

أو أن تكون الشمس ساطعة في الغرب، وأن يقابلها في الجهة الشرقية، أو في الجهتين الفرعيتين المجاورتين لتلك الجهة، أمطار هاطلة، كي يتحقق تشكل (قوس

(١) الاحتجاج: ١٣٨، البحار ج٥٦ ص٣٧٧، ح١٣.
(٢) بحار الأنوار: ٥٦/ ٣٧٧ عن الاحتجاج: ١٤٤.

قزح). ويمثل مركز الدائرة التي لا نراها كلها، في (قوس قزح)، النقطة المواجهة لمركز الشمس. ولا نرى (قوس قزح) على شكل دائرة كاملة، لأن النصف السفلي لأشعة الشمس، التي تسقط بزاوية قدرها (٤٢)° إنما تسقط على سطح الأرض.

وعندما يكون (قوس قزح) على شكل قوس فقط، فإن هذا يعني أن جبهة المطر الهاطل في مواجهة الشمس، محدودة الاتّساع، ويدلنا طرفا ذلك القوس، على نهايتي تلك الجبهة المطرية، أي على طرفيها.

وضمن الشروط التي ذكرناها، حول تشكل (قوس قزح)، فإنه يمكن أن يتشكل في الليالي المقمرة، بفعل تحلّل أشعة القمر المستمدة من الشمس، على قطرات المطر، إنما تصعب رؤية ذلك القوس ليلاً، وإذا ما تمت رؤيته، فمن الصعب على الناظر إليه التمييز بوضوح بين ألوانه.

وإذا ما أطلق رذاذ دقيق من الماء، نحو الأعلى تحت أشعة الشمس، فإن المنطقة التي تلاقيها الأشعة بزاوية قدرها (٤٢)°، لا تلبث أن تنكسر عليها أشعة الشمس، لتظهر على شكل طيف، له ألوان (قوس قزح)، وبما أن حركة واتّجاه رذاذ الماء الذي ينطلق نحو الأعلى ليسقط نحو الأرض بعد ذلك، يخالف في حركته واتّجاهه، حركة قطرات المطر أثناء سقوطها من السحاب، فإنه قد لا تشكّل تلك الألوان جزءاً من دائرة أو قوساً منها، وإنما تظهر لأعيننا كألوان زاهية مختلطة[١]، وهذا ما يسمى بـ(قوس قزح) الصناعي.

◎ الهالة

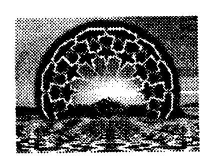
عندما تحجب السماء نهاراً، بطبقة من الغيوم المرتفعة الخفيفة، تبدو في تلك الغيوم حلقة بيضاء زاهية، وكأنها السوار المحيط بالشمس تدعى: (الهالة)، وهذه الهالة، ناتجة، عن انكسار أشعة الشمس، فوق البلورات الثلجية التي تتألف منها تلك الغيوم، والتي سقطت عليها تلك الأشعة بزاوية قدرها (٤٢) درجة.

وعدم ظهور طيف الشمس بالألوان المختلفة في هذه الدائرة، كما يحدث في (قوس عزح) يعود إلى طبيعة الثلج، المختلفة عن طبيعة قطرات الماء الشفّافة. لذا بدلاً من تحوّل ألوان الشمس إلى طيف، تتحول إلى ذلك اللون الأبيض الزاهي.

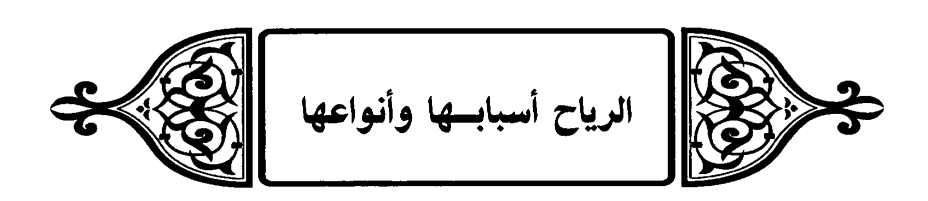
---

(١) المناخ والطقس: ٢١٩ - ٢٢٠.

وفي الليالي المقمرة، حين تكون السماء مغطاة، بذلك النوع من السحب المرتفعة الخفيفة، ترى فيها هالة، كأنها السوار المحيط بالقمر[١].



(١) المناخ والطقس: ٢٢١.



الرياح أسبابــها وأنواعها

● وقال عليّ عليه السلام: الرياح خمسة: منها العقيم فنعوذ بالله من شرّها، وكان النبي صلى الله عليه وآله إذا هبّت ريح صفراء أو حمراء أو سوداء تغيّر وجهه واصفرَّ، وكان كالخائف الوجل حتّى ينزل من السماء قطرة من مطر فيرجع إليه لونه، ويقول: جاءتكم بالرحمة[1] [2].

◎ الريح الصرصر

● وعن عليّ عليه السلام قال: لم تنزل قطرة من ماء إلاّ بمكيال على يد ملك إلاّ يوم الطوفان فإنّه أذن لها دون الخزّان فخرجت، وذلك قوله: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ﴾[3] ولم ينزل شيء من الريح إلاّ بمكيال على يد ملك إلاّ يوم عاد فإنّه أذن لها دون الخزّان فخرجت، فذلك قوله: ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾[4] عتت على الخزان[5].

◎ المد والجزر

● عن عبد الله بن أحمد بن عامر الطائي، عن أبيه، عن أبي الحسن الرضا، عن آبائه عليهم السلام قال: سأل رجل من أهل الشام أمير المؤمنين عليه السلام عن المدّ والجزر ما هما؟

(١) البحار ج٥٧ ص٦، ح٥.
(٢) سورة النازعات، الآية: ٣٧.
(٣) سورة الحاقة، الآية: ٦.
(٤) لعلّ الكلام مبنيّ على الاستعارة، أي يشبه الطائر في أنّها تطير إلى كلّ جانب، وفي أنّها في بدء حدوثها قليلة ثمّ تنتشر كالطائر الّذي بسط جناحه، والله يعلم.
(٥) الدر المنثور: ج٦، ص٢٥٩، البحار ج٥٧ ص٢٠، ح٤٥.

فقال: ملك موكّل بالبحار يقال له «رومان» فإذا وضع قدميه في البحر فاض، وإذا أخرجهما غاض(١).

◎ سخر لكم الماء

● شرح النهج لابن ميثم: قال لمّا فرغ أمير المؤمنين عليه السلام من حرب الجمل خطب الناس فحمد الله وأثنى عليه وصلّى على النبي صلى الله عليه وآله واستغفر للمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات، ثمّ قال: يا أهل البصرة -! يا أهل المؤتفكة ائتفكت بأهلها ثلاثاً وعلى الله تمام الرابعة!- وساق الخطبة إلى قوله عليه السلام - سخّر لكم الماء يغدو عليكم ويروح(٢) صلاحاً لمعاشكم والبحر سبباً لكثرة أموالكم(٣).

◎ أول قطرة دم وأول عين وأول شجرة

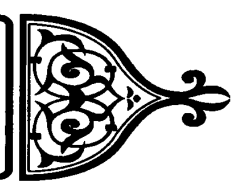
● أعلام الورى: بإسناده عن الكلينيّ، عن عدّة من أصحابه، عن أحمد بن محمّد بن خالد، عن أبيه، عن عبد الله ابن القاسم. عن حيّان السراج، عن داود بن سليمان الكسائيّ، عن أبي الطفيل قال: سأل في أوّل خلافة عمر يهوديٌّ من أولاد هارون أمير المؤمنين عليه السلام عن أوّل قطرة قطرت على وجه الأرض، وأوّل عين فاضت على وجه الأرض، وأوّل شجر اهتزّ على وجه الأرض.

فقال عليه السلام : يا هارونيّ أمّا أنتم فتقولون: أوّل قطرة قطرت على وجه الأرض حيث قتل أحد ابني آدم صاحبه وليس كذلك ولكنّه حيث طمثت حوّاء وذلك قبل أن تلد ابنيها، وأمّا أنتم فتقولون أوّل عين فاضت على وجه الأرض العين الّتي ببيت المقدس، ولس هو كذلك ولكنّها عين الحياة الّتي وقف عليها موسى وفتاه ومعهما النون المالح فسقط فيها فحيي، وهذا الماء لا يصيب ميتاً إلاّ حيي، وأمّا أنتم فتقولون: أوّل شجر اهتزّ على وجه الأرض الشجرة الّتي كانت منها سفينة نوح، وليس كذلك ولكنّها النخلة الّتي هبطت من الجنّة وهي العجوة، ومنها تفرّع كلّ ما ترى من أنواع النخل.

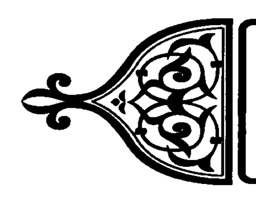
فقال: صدقت والله الّذي لا إلّه إلا هو، إنّي لأجد هذا في كتب أبي هارون عليه السلام كتابة يده وإملاء عمّي موسى عليه السلام (٤).

---

(١) العلل: ج٢، ص٢٤٠ والعيون، ج١، ص٢٤٢ البحار ج٥٧ ص٢٩، ح١.
(٢) إشارة إلى المدّ والجزر.
(٣) البحار ج٥٧ ص٣٩، ح٣.
(٤) أعلام الورى: ٣٦٨، البحار ج٥٧ ص٣٩ - ٤٠.



العرش والكرسي



● عن زاذان، عن سلمان الفارسيّ، قال: سأل الجاثليق أمير المؤمنين عليه السلام: أخبرني عن ربّك أيحمل أو يُحمل؟

فقال: إنّ ربّنا جلّ جلاله يحمل ولا يُحمل.

قال النصرانيّ: كيف ذلك ونحن نجد في الإنجيل: «ويحمل عرش ربّك فوقهم يومئذ ثمانية»؟

فقال عليّ عليه السلام: إنّ الملائكة تحمل العرش وليس العرش كما تظنّ كهيئة السرير، ولكنّه شيء محدود مخلوق مدبّر وربّك عزّ وجلّ مالكه، لا أنّه عليه ككون الشيء على الشيء، وأمر الملائكة بحمله فهم يحملون العرش ما أقدرهم عليه.

قال النصرانيّ: صدقت رحمك الله[1].

● عن أحمد بن محمّد البرقيّ، رفعه قال: سأل الجاثليق أمير المؤمنين عليه السلام فقال له: أخبرني عن الله عزّ وجلّ يحمل العرش أو العرش يحمله؟

فقال أمير المؤمنين عليه السلام: الله عزّ وجلّ حامل العرش والسماوات والأرض وما فيهما وما بينهما وذلك قول الله عزّ وجلّ: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾[2].

قال: فأخبرني عن قوله: ﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ﴾[3] فكيف ذاك وقلت إنّه يحمل العرش والسماوات والأرض؟

فقال أمير المؤمنين عليه السلام: إنّ العرش خلقه الله تبارك وتعالى من أنوار أربعة: نور أحمر منه احمرّت الحمرة، ونور أخضر منه اخضرّت الخضرة، ونور أصفر منه اصفرّت

---

(١) التوحيد: ٢٣٢، البحار ج٥٥ ص٩، ح٧.

(٢) سورة فاطر، الآية: ٤١.

(٣) سورة الحاقة، الآية: ١٧.

الصفرة، ونور أبيض منه ابيضّ البياض، وهو العلم الّذي حمّله الله الحملة، وذلك نور من نور عظمته، فبعظمته ونوره أبصر قلوب المؤمنين، وبعظمته ونوره عاداه الجاهلون، وبعظمته ونوره ابتغى من في السماوات والأرض من جميع خلائقه إليه الوسيلة بالأعمال المختلفة، والأديان المشتبهة فكلّ [شيء] محمول يحمله الله بنوره وعظمته وقدرته لا يستطيع لنفسه ضرّاً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً فكلّ شيء محمول والله تبارك وتعالى الممسك لهما أن تزولا، والمحيط بهما من شيء وهو حياة كلّ شيء، ونور كلّ شيء، سبحانه وتعالى عمّا يقولون علوّاً كبيراً.

قال له: فأخبرني عن الله عزّ وجلّ أين هو؟

فقال أمير المؤمنين عليه السلام: هو ههنا وههنا وفوق وتحت ومحيط بنا ومعنا، وهو قوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾[(١)].

فالكرسيّ محيط بالسماوات والأرض وما بينهما وما تحت الثّرى وإن تجهر بالقول فإنّه يعلم السرّ وأخفى، وذلك قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾[(٢)].

فالّذي يحملون العرش هم العلماء الّذين حمّلهم الله علمه، وليس يخرج من هذه الأربعة شيء خلق الله في ملكوته، وهو الملكوت الّذي أراه الله أصفياءه، وأراه خليله عليه السلام فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾[(٣)] وكيف يحمل حملة العرش الله وبحياته حييت قلوبهم وبنوره اهتدوا إلى معرفته؟![(٤)].

أقول: قد تخيّرت الأفهام في معنى تلك الأنوار التي هي من غوامض الأسرار فمنهم من قال:

هي الجواهر القدسيّة العقليّة التي هي وسائط جوده تعالى، وألوانها كناية عن اختلاف أنواعها الذي هو سبب اختلاف الأنواع الرباعيّة في هذا العالم الحسّيّ، كالعناصر والأخلاط وأجناس الحيوانات أعني الإنسان والبهائم والسباع والطيور،

---

(١) سورة المجادلة، الآية: ٧.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ٧٥.

(٤) الكافي: ج١، ١٢٩، البحار ج٥٥ ص٩ - ١٠، ح٨.

ومراتب الإنسان أعني الطبع والنفس الحسّاسة والنفس المتخيلة والعقل، وأجناس المولّدات كالمعدن والنبات والحيوان والانسان.

وقيل: إنه تمثيل لبيان تفاوت تلك الأنوار بحسب القرب والبعد من نور الأنوار، فالنور الأبيض هو الأقرب، والأخضر هو الأبعد، فكأنّه ممتزج بضرب من الظلمة، والأحمر هو المتوسّط بينهما، ثمّ ما بين كلّ اثنين ألوان أُخرى كألوان الصبح والشفق المختلفة في الألوان لقربها وبعدها من نور الشمس.

وقيل: المراد بها صفاته تعالى فالأخضر قدرته على إيجاد الممكنات وإفاضة الأرواح التي هي عيون الحياة ومنابع الخضرة، والأحمر غضبه وقهره على الجميع بالإعدام والتعذيب والأبيض رحمته ولطفه على عباده، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ﴾[1].

وقال صاحب البحار العلامة المجلسي: وأحسن ما سمعته في هذا المقام ما استفدته من والدي العلاّمة - رفع الله في الجنان مقامه - وملخّصه: أن لكلّ شيء شبهاً ومثالاً في عالم الرؤيا والعوالم التي تطّلع عليها الأرواح سوى عالم الحسّ، وتظهر تلك الصور والمثل على النفوس مختلفة بحسب اختلاف مراتبها في الكمال، فبعض النفوس تظهر لها صورة أقرب إلى ذي الصورة وبعضها أبعد، وشأن المعبّر الكامل أن ينتقل من تلك الصور إلى ما هي صور لها بحسب أحوال ذلك الشخص، ولذا لا يطّلع عليها كما ينبغي إلا الأنبياء والأوصياء عليهم السلام المطّلعون على مراتب استعدادات الأشخاص واختلافهم في النقص والكمال.

فالنور الأصفر: كناية عن العبادة وصورة لها كما هو المجرّب في الرّؤيا أنّه إذا رأى العارف في المنام صفرة يوفّق بعده لعبادة، كما هو المشاهد في وجوه المتهجّدين، وقد ورد في الخبر: أنّه ألبسهم الله من نوره لما خلوا به.

والنور الأبيض: العلم، كما جرّب أنّ من رأى في المنام لبناً أو ماء صافياً يفاض عليه علم خالص عن الشكوك والشبهات.

والنور الأحمر: المحبّة كما هو المشاهد في وجوه المحبّين عند طغيانها، وجرّب أيضاً في الرؤيا.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٠٧.

والنور الأخضر: المعرفة وهو العلم المتعلّق بذاته وصفاته سبحانه كما هو مجرّب في الرؤيا، ويومىء إليه ما روي عن الرضا عليه السلام أنه سئل عما يروى أنّ محمداً صلى الله عليه وآله رأى ربّه في صورة الشاب الموفّق في صورة أبناء ثلاثين سنة رجلاه في خضرة.

فقال عليه السلام: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله حين نظر إلى عظمة ربّه كان في هيئة الشابّ الموفّق وسنّ أبناء ثلاثين سنة.

فقال الراوي: جعلت فداك من كانت رجلاه في خضرة؟

قال: ذاك محمد صلى الله عليه وآله كان إذا نظر إلى ربّه بقلبه جعله في نور مثل نور الحجب حتى يستبين له ما في الحجب، إنّ نور الله منه أخضر، ومنه أحمر، ومنه أبيض، ومنه غير ذلك (تمام الخبر)[١].

لأنه صلى الله عليه وآله كان حينئذ في مقام كمال العرفان، وخائضاً في بحار معرفة الرحيم المنّان، وكانت رجلاه في النور الأخضر وقائماً في مقام من المعرفة لا يطيقها أحد من الملائكة والبشر وإنّما عبّروا بهذه العبارات والكنايات لقصور أفهامنا عن إدراك صرف الحقّ كما تعرض على النفوس الناقصة في المنام هذه الصور، ونحن في منام طويل من الغفلة عن المعارف الربّانيّة، والناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا، والأحوط في أمثال هذه الأخبار الإيمان بها مجملاً، وردّ علمها إليهم عليهم السلام.

ثم اعلم أنّه على الوجه الأخير الضمير في قوله: «وهو العلم» راجع إلى النور الأبيض، وعلى سائر الوجوه راجع إلى العرش، أي وقد يطلق العرش على العلم أيضاً، أو العرش المركّب من الأنوار الأربعة هو العلم.

«أبصر قلوب المؤمنين» أي ما أبصروا وعلموا.

«عاداه الجاهلون» لأنّ الجهل مساوي الظلمة التي هي ضدّ النور، والمعاداة إنّما تكون بين الضدّين كذا قيل، والأظهر أن المراد به أن غاية ظهوره صارت سبباً لخفائه كما قيل: **«يا خفيّاً من فرط الظهور»** فإنه لو لم يكن للشمس غروب وأُفول كان يشتبه على الناس أنّ ضوء النهار منها، ولما كان شمس عالم الوجود في نهاية الاستواء والكمال أبداً وفيضه جارٍ على الموادّ القابلة دائماً يتوهّم الملحد الجاهل أنّها بأنفسها موجودة غنيّة عن العلّة أو منسوبة إلى الدهر أو الطبيعة.

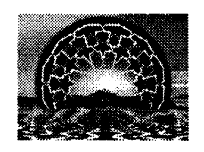
---

(١) البحار ج٥٥ ص١٢.

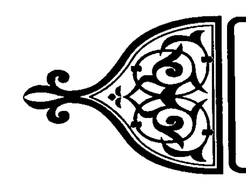
«**ابتغى**» أي طلب، ولعلّ المعنى أن نوره سبحانه لما طلع على عالم الوجود وآثاره سبحانه ظهر في كل موجود طلبه جميع الخلق، لكن بعضهم أخطؤوا طريق الطلب وتعيين المطلوب، فصاروا حيارى، فمنهم من يعبد الصنم لتوهّمه أن مطلوبه هناك، ومنهم من يعتقد الدهر أو الطبيعة لزعمه أن أحدهما إلهه ومدبّره، فكلّ منهم يعلمون اضطرارهم إلى خالق ورازق وحافظ ومدبّر، ويطلبونه ويبتغون إليه الوسيلة، لكنّهم لضلالهم وعماهم خاطئون وعن الحقّ معرضون، وهذا المعنى الذي خطر بالبال من غوامض الأسرار، وله شواهد من الأخبار، وإنما أومأنا إليه على الإجمال، إذ بسط المقال فيه يؤدّي إلى إبداء ما تأبى عنه الأذهان السقيمة لكن تستعذبه العقول المستقيمة.

«**الممسك لهما**» أي للسماوات والأرض «**والمحيط**» بالجرّ عطفاً على ضمير لهما و«**من**» بيان له أي الممسك للشّيء المحيط بهما، أو متعلّق بقوله: «**أن تزولاً**» وقوله «**من شيء**» للتعميم ويجوز رفعه بالعطف على الممسك، و«**من**» بيان لضمير «**بهما**» لقصد زيادة التعميم، أو بيان لمحذوف يعني المحيط بهما مع ما حوتاه من شيء «**وهو حياة كل شيء**» أي من الحيوانات أو الحياة بمعنى الوجود والبقاء مجازاً «**ونور كل شيء**» أي سبب وجوده وظهوره، فالكرسيّ يمكن أن يكون المراد تفسير الكرسي أيضاً بالعلم «**ولا يؤده**» أي لا يثقل عليه «**هم العلماء**» إذا كان المراد بالعرش عرش العلم كان المراد بالأنوار الأربعة صنوف العلم وأنواعه ولا يخرج عن تلك الأنواع أحد، وإذا كان المراد بالأنوار نور العلم والمحبّة والمعرفة والعبادة كما مرّ فهو أيضاً صحيح، إذ لا يخرج شيء منها أيضاً، إذ ما من شيء إلا وله عبادة ومحبّة ومعرفة وهو يسبّح بحمده.

وقال الوالد - ره -: الظاهر أن المراد بالأربعة العرش والكرسيّ والسماوات والأرض، ويحتمل أن يكون المراد بها الأنوار الأربعة التي هي عبارة عن العرش، لأنه محيط على ما هو المشهور[1].



(١) البحار ج٥٥ص١٣-١٤،



الكرسي والعرش في القرآن

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾[١].

في الوقت الذي كان الناس يحسبون فيه أن الأرض ثابتة فلقد بيّن تعالى حقيقة الأمر بقوله: ﴿كُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾[٢].

ولكن الناس ظلوا على اعتقادهم القديم هذا، ورغم ما جاء في كتاب الله، سبعة قرونٍ أخرى، أي حتى القرن الرابع عشر الميلادي، حتى جاء زكريا بن محمد القزويني (ت ٦٨٢هـ = ١٢٨٣)[٣]، وكوبرنيكوس (١٥٥٤)، وغاليلو (١٦٠٩)، قالوا بدوران الأرض.

وفي الوقت الذي اعتقد فيه العلماء، ومعهم الناس، أن الأرض هي مركز الكون، وأن الشمس والقمر والكواكب تدور حول الأرض الثابتة، داخل كرةٍ مرصوصة، أو حزام ضيّقٍ من النجوم، وأن تلك «الكرة» هي الكون كله، وهو اعتقادٌ ظل سائداً حتى القرنَ الرابع عشر الميلادي أيضاً، وبينما ظل العلماء يعتقدون بعد ذلك، وحتى عام١٩٢٣، بأن مجرتنا هي الكون كله.

فلقد جاء كتاب الله تعالى، ومنذ أكثر من١٤ قرناً، بحقيقة أن الكون هو أوسع من

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٣٣.

(٣) قال القزويني، في كتابه «عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات»: «والأرض متحرّكة دائماً على الاستدارة. والذي نراه من دوارن الفلك إنّما هو من دوران الأرض (على نفسها) لا دَوْر (لا من دوران) الكواكب» (١: ٢٤٨). انظر «تاريخ العلوم عند العرب» لعمر فروّخ، ط٤، ص١٧١ (١٩٨٤).

ذلك بكثير، بل إن المنظومة الشمسية كلها، بل مجرتنا كلها، لا تكاد أن تكون شيئاً بجانب سعة الكون، وإليك الدليل:

١- قال الحق سبحانه: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾[(١)].

قلنا بأن السماء الدنيا هي مجرة درب التبانة، وإن المصابيح التي تزينها هي النجوم. فانظر كيف أن وصفه تعالى لهذه السماء بـ «الدنيا» قد دلّ دلالةً واضحة لا لبس فيها على أن هناك ما هو أبعد منها بكثير، سماواتٍ غيرها كثيرات، وهو ما قد وصفة سبحانه بـ «السماوات العُلى»، والتي سبق وأن أشرنا إلى دلالتها على المجرّات الأخرى، أي على الكون الذي نعرفه كله.

ووصفهُ سبحانه للسماء الدنيا «مجرّة درب التّبانة» بأنها مزيّنةٌ بالنجوم قد دلّ على أنّ:

(أ) هناك سماواتٍ غير السماء الدنيا أبعدَ منها بكثير، فهي لا نراها، وهي أكبرُ وأبعد من كل النجوم التي يمكننا رؤيتها. فانظر كيف قد جاء كتابُ الله بما لم يُعرَف إلاّ في القرن العشرين، من وجود مجرّاتٍ أخرى عديدة ومنتشرة في الكون، وهو أمرٌ لم يحدث إلاّ عام١٩٢٣ على يد العالم الفلكي الأمريكي «هابل».

(ب) الزينة التي نراها في الفضاء المحيط بنا، أي زينة النجوم، محصورةٌ بالسماء الدنيا، أما السماوات العُلى الأبعد منها فهي غير مرئيةٍ بالعين المجردة، ولذا فهي لا ينطبق عليها، بالنسبة إلينا، وصف الزينة. وهذا الذي لا نبصره منها ممّا قد أقسم تعالى به في قوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾[(٢)].

٢- وقال سبحانه: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾[(٣)]...

جاء أناسٌ يسألون الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «هل إنَّ السماوات والأرض تَسعُ (تحتوي) الكرسي؟ أم إن الكرسي هو الذي يسع السماوات والأرض؟»، فإذا كانت السماوات والأرض، في ظن الناس يومئذٍ، هي الكون كله، فكيف يكون «الكرسي» أكبر منها ويحتويها؟! فأجابهم بأن «الكرسي» هو الذي يَسَعُ السماوات والأرض، في

---

(١) سورة الملك، الآية: ٥.
(٢) سورة الحاقة، الآيات: ٣٨، ٣٩.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.

إجابة لا شك، قد أدهشتهم، فإذا كانت «السماوات والأرض» هي الكون كله، في ظنّهم، فكيف هي إذاً يحتويها ما هو أكبرُ منها[١]؟!

◎ معاني كلمات آية «الكرسي»

وَسِعَ: اتَّسَعَ له ولم يَضِقْ عنه، فهو وسيع. ووسعت رحمتهُ كل شيء: شملته.

وأقول: إن ذلك يدل، بالبداهة، على أن الأول أكبر من الثاني وأعظم، أي أن الكرسي أوسع من السماوات والأرض، أو «المنظومة الشمسية».

لا يؤده: لا يشقُّ عليه.

◎ «الكرسي» - آراء الأئمة والعلماء

١- إنّ إضافة «الكرسي» إلى الله تعالى في قوله: «كرسيّه» هي كمثل إضافة «البيت» إليه سبحانه في قوله: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾[٢]، فالبيت المقصود هنا هو «البيت الحرام» في مكة، كما هو معروف، فهو ليس لسكنه بل لعبادته بالحج، كما أن «بيوت الله» ليست بيوتاً بالمعنى المتعارف عليه، فهي هي ليست مساكن له تعالى، بل هي المساجد التي لا يُقصد لها إلا تعبّد الناس لله تعالى وحده بالصلاة والدعاء.

ومثلما أن كلمة «البيت» ليس هنا بالمعنى المعروف لكلمة البيت، أي مسكن، فإن «الكرسيّ» هنا ليس هو الكرسي المعروف. فإذا عرفنا ذلك عرفنا أن الكرسي هنا ليس هو للجلوس مثلما أن البيت هنا ليس هو للسكنى

وكذلك هو «العرش»، في قوله تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ﴾.

قال القرطبي: «إضافة العرش إلى الله تعالى كإضافة البيت، وليس البيت للسكنى، فكذلك العرش».

ولو قد قال أحدٌ بأن «الكرسي» أو العرش، هنا هو للجلوس فذلك مُحال، لأن الله تعالى منزّهٌ عن كل ما خطر ببالك من شيء ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[٣].

● **قال الإمام علي في «نهج البلاغة»: إن الله لا ينزل ولا يحتاج أن ينزل، وإنما**

---

(١) أسرار الكون في القرآن ص١٧٥.
(٢) سورة الحج، الآية: ٢٦.
(٣) سورة الشورى، الآية: ١١.

يقول ذلك من ينسبه إلى نقصٍ وزيادة، وكل متحرّك يحتاج إلى من يحرّكه أو يتحرّك به، فاحذروا في صفاته من أن تقضوا على حدٍّ تحدُّونه بنقصٍ أو زيادة أو تحريك أو تحرّك أو زوال أو استنزال أو نهوض أو قعود»، وقال: **«إن الله لا يحدّه مكان»**.

وذكر الشيخ حسين محمد مخلوف، في **«صفوة البيان في تفسير القرآن»، «كمال تنزيهه تعالى عن الجسمية وعن مشابهة المحدثات»**[1].

◎ آراء علماء اللغة

٢ - وحتى نعرف دلالة، أو دلالات، كلمة «الكرسي» لا بدّ من أن نرجع إلى آراء علماء اللغة أولاً.

في «لسان العرب» لابن منظور: تكَرَّسَ الشيءُ وتكارسَ: تراكمَ وتلازب، أي تماسك. وتكَرَّس أسُّ البناء: صَلُبَ واشتد.

الكِرْسيّ: القلائد المضموم بعضها إلى بعض، والجمعُ كراسٍ.

وقلادةٌ ذات كِرْسَيْن: أي ذاتُ نظمين.

السماوات السبع مع الكرسي ليست إلا كحلقةٍ ملقاة في أرض فلاة، وفضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على الحلقة.

ونقل الدكتور أمير عبد العزيز في كتابه «تفسير سورة البقرة» أنه قد ورد عن أبي ذر الغفاري أنه سأل النبي ﷺ عن الكرسي.

فقال رسول الله ﷺ: **«والذي نفسي بيده ما السماوات السبع والأرضين السبع عند الكرسي إلّا كحلقةٍ مُلقاة بأرض فلاة، وإن فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة»**.

كما نقل المصدر نفسه عن ابن عباس قوله: «لو أن السماوات السبع والأرضين السبع بُسِطْنَ بعضهن إلى بعض ما كُنّ في سعة الكرسي إلّا بمنزلة الحلقة في المفازة».

٤ - نتائج من أحاديث رسول الله ﷺ مناقشة.

ليست السماوات السبع والأرض (= المنظومة الشمسية)، عند مقارنتها بـ«الكرسي»، إلّا كمثل حلقةٍ في فلاة، وهي الأرض الواسعة المقفرة. وهو أمرٌ

---

(١) المُشَبِّهَة هم الذين يُشبِّهون ربهم بمخلوقاته. والمُجَسِّمَة هم الذين يقولون إنه جسم.

يذكّرنا بما قد عرفه الإنسان في هذا القرن من أن النجوم هي شموس كشمسنا أو أكبر منها، وهي وصل ما قد عدّوه منها في مجرة «درب التبانة» إلى ٢٥٠ - ٥٠٠ ألف مليون نجم[١]. إن صغر جسم السماوات السبع، أو المنظومة الشمسية، بالنسبة إلى «الكرسي»، يذكّرنا بصغر حجمها المتناهي بالنسبة إلى المجرّة، مجرّتنا نحن.

◎ حديث للإمام علي عليه السلام عن «الكرسيّ»

ولقد نقل القرطبي[٢]، عن ابن عساكر في تاريخه، حديثاً للإمام علي عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «الكرسي لؤلؤة.. وطول الكرسي لا يعلمه إلّا الله تعالى». إذاً فالكرسي، حسب هذا الحديث، هو جسمٌ عظيم يشبه اللؤلؤة في شكله، ويصل طوله إلى ما لا يُعلَم، أو هو «جسمٌ نوراني».

وأقول: إنّ المجرّة، أية مجرّة، تبدو من بعيد، في المَراقب، كلؤلؤةٍ ضخمة تتلألأ فيها الأضواء، أضواء النجوم، وتزدحم فيها.

وما الذي يميّز اللؤلؤة، أية لؤلؤة، عمّا سواها من الأجسام؟ إنه الضوء الباهر واللمعان الذي يخطف الأبصار. وتقول عن الشيء بأنه يتلألأ وتعني بذلك أنّه يشعّ الضوء الباهر

وما الفرق بين قولك: يشِعّ، وقولك: يتلألأ؟ إن الأول قد يدلّ على انبعاث الضوء بشدة إضاءة ثابتة لا تتغير، وأما التلألؤ فهو ازديادٌ وانخفاض متواليان سريعان في شدة سطوع الضوء، ذلك الذي نراه في رأي العين، وهو وصف يعتبر، عند الكلام على ما في الكون من أجرام، وبأبعاده الواسعة، وقفاً على النجوم، أو على مجاميعها العظيمة، أي على المجرّات.

ووصفُ النبيّ صلى الله عليه وآله لـ«كرسيّ» بأنه «لؤلؤةٌ» لا ينطبق، في المستوى الكوني الواسع الذي نعرفه، إلّا على النجم، أو المجرّة. ولكن اللؤلؤة تنبعث منها، في العادة، متكسّرةً عنها، إشعاعاتٌ عديدة متلألئة، لا شُعاعٌ واحد.

وقوله: طول الكرسي لا يعلمه إلّا الله» يدلّ على أبعادٍ سحيقة أين منها قياستنا الأرضية الضئيلة والمتواضعة، إذ ما هو وُسْعُ أرضنا أو منظومتنا الشمسية بالنسبة إلى

---

(١) د. كارل ساغان، «الكون»، دار المعرفة، ص٢٥٦ (١٩٩٣).

(٢) القرطبي، «الجامع لأحكام القران»، جـ٢، ص٢٧٦، في تفسير سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.

مجرّة «درب التّبانة» التي يبلغ طولها ١٠٠,٠٠ سنة ضوئية، أو ما يعادل: ١٠٠,٠٠ × ٩٥٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ = ٩٥٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ كيلو متراً؟ لا تكاد أن تكون مِنْ شيءٍ أبداً!

ولا أرى في وصف رسول الله ﷺ هذا الكرسي بأنه شيء يتلألأ مما لا يعلم تأويله إلّا الله تعالى، لا أرى ما يشبهه، فيما قد عرفه العلم الحديث، إلّا المجرّة في صفاتها وأبعادها، وهي أعجوبةٌ من عجائب ما قد رواه الإمام علي عن رسول الله ﷺ.

● تفسير علي بن إبراهيم: عن أبيه عن إسحاق بن الهيثم، عن سعد بن طريف، عن الأصبغ بن نباتة، أنّ عليًّا عليه السلام سئل عن قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾(١).

قال: السماوات والأرض وما فيهما من مخلوق في جوف الكرسيّ، وله أربعة أملاك يحملونه بإذن الله.

فأمّا ملك منهم في صورة الآدميّين، وهي أكرم الصور على الله، وهو يدعو الله ويتضرَّع إليه ويطلب الشفاعة والرزق لبني آدم.

والملك الثاني: في صورة الثور وهو سيّد البهائم و[هو] يطلب إلى الله ويتضرّع إليه، ويطلب الشفاعة والرزق للبهائم.

والملك الثالث: في صورة النسر وهو سيّد الطير وهو يطلب إلى الله ويتضرَّع إليه ويطلب الشفاعة والرزق لجميع الطير.

والملك الرابع: في صورة الأسد وهو سيّد السباع وهو يرغب إلى الله ويتضرّع إليه ويطلب الشفاعة والرزق لجميع السباع، ولم يكن في هذه الصور أحسن من الثور، ولا أشدّ انتصاباً منه حتّى اتّخذ الملأ من بني إسرائيل العجل فلمّا عكفوا عليه وعبدوه من دون الله خفض الملك الّذي في صورة الثور رأسه استحياءً من الله أن عبد من دون الله شيء يشبهه، وتخوفّ أن ينزل به العذاب.

ثمّ قال عليه السلام: إنّ الشجر لم يزل حصيد أكله حتّى دعي للرحمن ولد، عزّ الرحمن وجلّ أن يكون له ولد، فكادت السماوات يتفطّرن منه، وتنشقّ الأرض، وتخرّ الجبال

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.

هدًّا، فعند ذلك اقشعرّ الشجر وصار له شوك، حذاراً أن ينزل به العذاب، فما بال قوم غيّروا سنّة رسول الله صلى الله عليه وآله وعدلوا عن وصيّه لا يخافون أن ينزل بهم العذاب؟!

ثمّ تلا هذه الآية: ﴿ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾[1] ثمّ قال: نحن والله نعمة الله الّتي أنعم الله بها على عباده، بنا فاز من فاز[2] [3].

● **العياشي: عن الأصبغ، قال: سئل أمير المؤمنين عليه السلام عن قول الله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾.**

فقال: إن السماء والأرض وما فيهما من خلق مخلوق في جوف الكرسيّ، وله أربعة أملاك يحملونه بإذن الله[4].

● **وفي تعقيب صلاة أمير المؤمنين عليه السلام: وأسألك باسمك الّذي خلقت به عرشك الّذي لا يعلم ما هو إلّا أنت - إلى قوله - وأسألك يا الله باسمك الّذي تضعضع به سكّان سماواتك، واستقرّ به عرشك - إلى قوله - وأسألك باسمك الّذي أقمت به عرشك وكرسيّك في الهواء - إلى قوله - وأسألك باسمك الّذي دعاك به حملة عرشك فاستقرّت أقدامهم، وحمّلتهم عرشك بذلك الاسم يا الله الّذي لا يعلمه ملك مقرّب ولا حامل عرشك ولا كرسيّك إلّا من علّمته ذلك[5].**

تحقيق وتوفيق: اعلم أنّ ملوك الدنيا لمّا كان ظهورهم وإجراء أحكامهم على رعيّتهم إنما يكون عند صعودهم على كرسيّ الملك وعروجهم على عرش السلطنة ومنهما تظهر آثارهم وتتبيّن أسرارهم، والله سبحانه لتقدّسه عن المكان لا يوصف بمحلّ ولا مقرّ وليس له عرش ولا كرسيّ يستقرّ عليهما، بل يطلقان على أشياء من مخلوقاته أو صفاته الكماليّة على وجه المناسبة، فالكرسيّ والعرش يطلقان على معان:

أحدها: جسمان عظيمان خلقهما الله تعالى فوق سبع سماوات، وظاهر أكثر

---

(١) سورة إبراهيم، الآيتان: ٢٨، ٢٩.

(٢) تفسير علي بن إبراهيم: ٧٥. البحار ج٥٥، ص٢١-٢٢ ح٣٨.

(٣) قد تحمل هؤلاء الحملة على أرباب الأنواع الّتي قال بها أفلاطون وأضرابه، وما يظهر من صاحب الشريعة لا يناسب ما ذهبوا إليه بوجه، كما لا يخفى على العارف بمصطلحات الفريقين.

(٤) البحار ج٥٥ ص٣٣، ح٥٢.

(٥) البحار ج٥٥ ص٣٦، ح٦٠.

الأخبار أنّ العرش أرفع وأعظم من الكرسي، ويلوح من بعضها العكس، والحكماء يزعمون أنّ الكرسيّ هو الفلك الثامن، والعرش هو الفلك التاسع، وظواهر الأخبار تدلّ على خلاف ذلك من كونهما مربّعين ذاتي قوائم وأركان، وربما يؤولان بالجهات والحدود والصفات التي بها استحقّا التعظيم والتكريم، ولا حاجة لنا إلى هذه التكلفات، وإنّما سميّا بالاسمين لبروز أحكامه وتقديراته من عندهما، وإحاطة الكرّوبيّين والمقرّبين وأرواح النبيّين والأوصياء بهما، وعروج من قرّبه من جنابه إليهما، كما أن أوامر الملوك وأحكامهم وآثار سلطنتهم وعظمتهم تبدو منهما، وتطيف مقرّبوا جنابهم وخواصّ ملكهم بهما.

وأيضاً لما كانا أعظم مخلوقاته الجسمانيّة وفيهما من الأنوار العجيبة والآثار الغريبة ما ليس في غيرهما من الأجسام فدلالتهما على وجوده وعلمه وقدرته وحكمته سبحانه أكثر من سائر الأجسام، فلذا خصّا بهذين الاسمين من بينهما، وحملتهما في الدنيا جماعة من الملائكة كما عرفت، وفي الآخرة إمّا الملائكة أو أولو العزم من الأنبياء مع صفوة الأوصياء عليهم السلام كما عرفت، ويمكن أن يكون نسبة الحمل إليهم مجازاً لقيام العرش بهم في القيامة وكونهم الحكّام عنده والمقرّبين لديه.

وثانيها: العلم كما عرفت إطلاقهما في كثير من الأخبار عليه، وقد مرّ الفرق بينهما في خبر معاني الأخبار وغيره، وذلك أيضاً لأنّ منشأ ظهوره سبحانه على خلقه العلم والمعرفة، وبه يتجلّى على العباد، فكانّه عرشه وكرسيّه سبحانه وحملتهما نبيّنا وأئمتّنا عليهم السلام لأنهم خزّان علم الله في سمائه وأرضه لا سيّما ما يتعلق بمعرفته سبحانه.

وثالثها: الملك، وقد مرّ إطلاقهما عليه في خبر «حنان» والوجه ما مرَّ أيضاً.

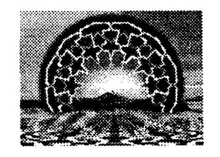
ورابعها: الجسم المحيط وجميع ما في جوفه أو جميع خلق الله كما ذكره الصدوق - ره - ويستفاد من بعض الأخبار، إذ ما من شيء في الأرض ولا في السماء وما فوقها إلا وهي من آيات وجوده وعلامات قدرته، وآثار وجوده وفيضه وحكمته فجميع المخلوقات عرش عظمته وجلاله، وبها تجلّى على العارفين بصفات كماله وهذا أحد المعاني التي خطرت ببالي الفاتر في قولهم عليهم السلام: «وارتفع فوق كلّ منظر» فتدبّر.

وخامسها: إطلاق العرش على كلّ صفة من صفاته الكماليّة والجلاليّة إذ كلٌّ منها مستقر لعظمته وجلاله، وبها يظهر لعباده على قدر قابليّتهم ومعرفتهم فله عرش العلم، وعرش القدرة، وعرش الرحمانيّة، وعرش الرحيميّة، وعرش الوحدانيّة، وعرش التنزّه

كما مرّ في خبر حنان وغيره. وقد أوّل الوالد - ره - الخبر الذي ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾[1] أنّ المعنى: استوى من كلّ شيء فليس شيء أقرب إليه من شيء، أنّ المراد بالعرش هنا عرش الرحمانيّة والظرف حال أي الربّ سبحانه حال كونه على عرش الرحمانيّة استوى من كلّ شيء، إذ بالنظر إلى الرحيميّة التي هي عبارة عن الهدايات والرحمات الخاصّة بالمؤمنين أقرب، أو المراد أنه تعالى بسبب صفة الرحمانيّة حال كونه على عرش الملك والعظمة والجلال استوى نسبته إلى كلّ شيء، وحينئذ فائدة التقييد بالحال نفي توهم أن هذا الاستواء مما ينقص من عظمته وجلاله شيئاً.

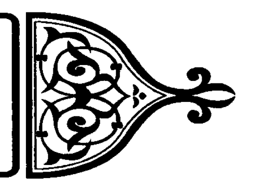
وسادسها: إطلاق العرش على قلب الأنبياء والأوصياء عليهم السلام وكمّل المؤمنين فإن قلوبهم مستقر محبّته ومعرفته سبحانه، كما روي: أنّ قلب المؤمن عرش الرحمن، وروي أيضاً في الحديث القدسيّ: «لم يسعني سمائي ولا أرضي ووسعني قلب عبدي المؤمن».

ثم اعلم أنّ إطلاقهما على بعض المعاني عند التصريح به أو إقامة القرائن عليه لا ينافي وجوب الإذعان بالمعنى الأوّل الذي هو الظاهر من أكثر الآيات والأخبار، والله المطّلع على الأسرار[2].

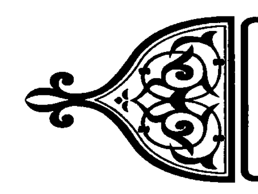


(١) سورة طه، الآية: ٥

(٢) البحار ج٥٥ ص٣٧-٣٩،



الحجب والاستار والسرادقات



● عن تميم بن بهلول، عن نصر بن مزاحم المنقريّ، عن عمرو بن سعد، عن أبي مخنف لوط بن يحيى، عن أبي منصور، عن زيد بن وهب، قال: سئل أمير المؤمنين عليه السلام عن الحجب، فقال: أوّل الحجب سبعة، غلظ كلّ حجاب منها مسيرة خمسمائة عام، وبين كلّ حجابين مسيرة خمسمائة عام، والحجاب الثاني سبعون حجاباً، بين كلّ حجابين مسيرة خمسمائة عام. حجبه كلّ حجاب منها سبعون ألف ملك، قوّة كلّ ملك منهم قوّة الثقلين، منها ظلمة[1]، ومنها نور، ومنها نار، ومنها دخان، ومنها سحاب ومنها برق، ومنها رعد، ومنها ضوء، ومنها رمل، ومنها جبل، ومنها عجاج، ومنها ماء، ومنها أنهار.

وهي حجب مختلفة غلظ كلّ حجاب مسيرة سبعين ألف عام، ثمّ سرادقات الجلال وهي ستّون سرادقاً، في كلّ سرادق سبعون ألف ملك، بين كلّ سرادق وسرادق مسيرة خمسمائة عام، ثمّ سرادق العزّ، ثمّ سرادق الكبرياء، ثمّ سرادق العظمة، ثمّ سرادق القدس، ثمّ سرادق الجبروت، ثمّ سرادق الفخر، ثمّ سرادق النور الأبيض، ثمّ سرادق الوحدانيّة وهو مسيرة سبعين ألف عام، ثمّ الحجاب الأعلى. وانقضى كلامه عليه السلام وسكت فقال له عمر: لا بقيت ليوم لا أراك فيه يا أبا الحسن[2]!

قال الصدوق رحمه الله: ليست هذه الحجب مضروبة على الله، تعالى عن ذلك لأنّه لا يوصف بمكان، ولكنّها مضروبة على العظمة العليا من خلقه الّتي لا يقدر قدرها غيره تبارك وتعالى.

● عن الحسن بن عليّ المدنيّ، عن عبد الله بن المبارك، عن السفيان الثوريّ، عن جعفر بن محمّد الصادق عن أبيه، عن جدّه عن عليّ بن أبي طالب عليه السلام قال: إنّ الله

---

(١) قوله عليه السلام: «منها ظلمة» لعلّ المراد من مطلق الحجب لا من الحجب المتقدمة كما يدل عليه قوله: «غلظ كل حجاب» الخ.

(٢) التوحيد ص٢٠١، الخصال ٣٦-٣٧ البحار ج٥٥ ص٣٩-٤٠، ح١.

تبارك وتعالى خلق نور محمّد صلى الله عليه وآله قبل أن خلق السماوات والأرض والعرش والكرسيّ واللوح والقلم والجنّة والنار.

وقبل أن خلق آدم ونوحاً وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وموسى وعيسى وداود وسليمان وكلّ من قال الله عزّ وجلّ في قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ إلى قوله: ﴿وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1].

وقبل أن خلق الأنبياء كلّهم بأربعمائة ألف وأربع وعشرين ألف سنة، وخلق عزّ وجلّ معه اثني عشر حجاباً:

حجاب القدرة، وحجاب العظمة وحجاب المنّة، وحجاب الرحمة، وحجاب السعادة، وحجاب الكرامة، وحجاب المنزلة، وحجاب الهداية، وحجاب النبوّة، وحجاب الرفعة، وحجاب الهيبة، وحجاب الشفاعة، ثمّ حبس نور محمّد صلى الله عليه وآله في حجاب القدرة اثني عشر ألف سنة وهو يقول: «سبحان ربّي الأعلى».

وفي حجاب العظمة أحد عشر ألف سنة وهو يقول: «سبحان عالم السّر وأخفى».

وفي حجاب المنّة عشرة آلاف سنة وهو يقول: «سبحان من هو قائم لا يلهو».

وفي حجاب الرحمة تسعة آلاف سنة وهو يقول: «سبحان الرفيع الأعلى».

وفي حجاب السعادة ثمانية آلاف سنة وهو يقول: «سبحان من هو دائم لا يسهو».

وفي حجاب الكرامة سبعة آلاف سنة وهو يقول: «سبحان من هو غنيّ لا يفتقر».

وفي حجاب المنزله ستّة آلاف سنة وهو يقول: «سبحان ربّي العليّ الكريم».

وفي حجاب الهداية خمسة آلاف سنة وهو يقول: «سبحان ذي العرش العظيم».

وفي حجاب النبوّة أربعة آلاف سنة وهو يقول: «سبحان ربّ العزّة عمّا يصفون».

وفي حجاب الرفعة ثلاثة آلاف سنة وهو يقول: «سبحان ذي الملك والملكوت».

وفي حجاب الهيبة ألفي سنة وهو يقول: «سبحان الله وبحمده».

وفي حجاب الشفاعة ألف سنة وهو يقول: «سبحان ربّي العظيم وبحمده».

ثمّ أظهر عزّ وجلّ اسمه على اللوح فكان على اللوح منوّراً أربعة آلاف سنة، ثمّ أظهر على العرش فكان على ساق العرش مثبتاً سبعة آلاف سنة، إلى أن وضعه الله عزّ وجلّ في صلب آدم عليه السلام إلى آخر ما مرّ في الحديث[2].

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٨٤ و٨٧.

(٢) الخصال: ٨١-٨٢ المعاني: ٣٠٦-٣٠٨. البحار ج٥٥ ص٤٠-٤٢، ح٢. الحديث الكامل في البحار ج١٥ ص٢٦-١١٠، ح٥٣

● **المتهجد: في تعقيب صلاة أمير المؤمنين عليه السلام: واسألك بنور اسمك الّذي خلقت به نور حجابك النور إلى قوله عليه السلام وأسألك باسمك الزكيّ الطار المكتوب في كنه حجبك، المخزون في علم الغيب عندك على سدرة المنتهى، وأسألك باسمك المكتوب على سرادق السرائر - إلى قوله - باسمك الّذي كتبته على حجاب عرشك، وبكلّ اسم هو لك في اللوح المحفوظ[١].**

قال المجلس في البحار: اعلم أنّه قد تظافرت الأخبار العاميّة والخاصيّة في وجود الحجب والسرادقات وكثرتها، وفي القاموس: السرادق الذي يمدّ فوق صحن البيت، والجمع سرادقات، والبيت من الكرسف، وبيت مسردق أعلاه وأسفله مشدود كلّه[٢].

وفي النهاية: السرادق كلّ ما أحاط بشيء من حائط أو مضرب أو خباء[٣] (انتهى).

وظاهر أكثر الأخبار أنّها تحت العرش ويلوح من بعضها أنّها فوقه، ولا تنافي بينها، وروي من طرق المخالفين عن النبي صلى الله عليه وآله أنّ لله تبارك وتعالى سبعين ألف حجاب من نور وظلمة لو كشفت لأحرقت سبحات وجهه ما دونه. وقال الجزريّ: فيه أن جبرئيل قال: لله دون العرش سبعون حجاباً لو دنونا من أحدها لأحرقتنا سبحات وجهه[٤].

وفي حديث آخر: حجابه النور أو النار لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه كل شيء أدركه بصره. سبحات الله؛ جلاله وغظمته، وهي في الأصل جمع «سبحة» وقيل: أضواء وجهه، وقيل: سبحات الوجه محاسنه، لأنك إذا رأيت الحسن الوجه قلت: سبحان الله، وقيل: معناه تنزيه له، أي سبحان وجهه، وقيل: إنَّ سبحات وجهه كلام معترض بين الفعل والمفعول، أي لو كشفها لأحرقت كلّ شيء بصره كما تقول:

لو دخل الملك البلد لقتل - العياذ بالله - كلّ من فيه، وأقرب من هذا كلّه أن المعنى: لو انكشف من أنوار الله التي تحجب العباد عنه شيء لأهلك كلّ من وقع عليه ذلك النور كما خرّ موسى صعقاً، وتقطّع الجبال دكّاً لما تجلّى الله سبحانه وتعالى[٥].

وقال النوويّ في شرح صحيح مسلم: سبحات - بضمّ السين والباء - أي نوره، وأراد بالوجه الذات، وبما انتهى إليه بصره جميع المخلوقات، لأنّ بصره محيط بجميعها، أي لو أزال المانع من رؤية أنواره لأحرق جلاله جميعهم.

(١) البحار ج٥٥ ص٤٣، ح٦.
(٢) القاموس، ج ٣، ص ٢٤٤.
(٣) النهاية، ج ٢، ص ١٥٧.
(٤) في المصدر، وجه ربنا.
(٥) النهاية: ج ٢، ص ١٤١.

والتحقيق أنّ لتلك الأخبار ظهراً وبطناً وكلاهما حقّ، فأمّا ظهرها فانه سبحانه كما خلق العرش والكرسيّ مع عدم احتياجه إليهما كذلك خلق عندهما أستاراً وحجباً وسرادقات، وحشاها من أنواره الغريبة المخلوقة له ليظهر لمن يشاهدها من الملائكة وبعض النبيّين ولمن يسمعها من غيرهم عظمة قدرته وجلال هيبته وسعة فيضه ورحمته ولعلّ اختلاف الأعداد باعتبار أن في بعض الإطلاقات اعتبرت الأنواع وفي بعضها الأصناف وفي بعضها الأشخاص أو ضمّ بعضها إلى بعض في بعض التعبيرات، أو اكتفي بذكر بعضها في بعض الروايات وأمّا بطنها فلأنّ الحجب المانعة عن وصول الخلق إلى معرفة كنه ذاته وصفاته أُمور كثيرة، منها ما يرجع إلى نقص المخلوق وقواه ومداركه بسبب الإمكان والافتقار والاحتياج والحدوث وما يتبع ذلك من جهات النقص والعجز، وهي الحجب الظلمانيّة. ومنها ما يرجع إلى نوريّته وتجرّده وتقدّسه ووجوب وجوده وكماله وعظمته وجلاله وسائر ما يتبع ذلك وهي الحجب النورانيّة، وارتفاع تلك الحجب بنوعيه محال، فلو ارتفعت لم يبق بغير ذات الحقّ شيء، أو المراد بكشفها رفعها في الجملة بالتخلّي عن الصفات الشهوانيّة والأخلاق الحيوانيّة، والتخلّق بالأخلاق الربّانيّة بكثرة العبادات والرياضات والمجاهدات وممارسة العلوم الحقّة، فترتفع الحجب بينه وبين ربّه سبحانه في الجملة، فيحرق ما يظهر عليهم من أنوار جلاله تعيّناتهم وإراداتهم وشهواتهم، فيرون بعين اليقين كماله سبحانه ونقصهم، وبقاءه وفناءهم وذلّهم، وغناه وافتقارهم، بل يرون وجودهم المستعار في جنب وجوده الكامل عدماً، وقدرتهم الناقصة في جنب قدرته الكاملة عجزاً بل يتخلّون عن إرادتهم وعلمهم وقدرتهم، فيتصرّف فيهم إرادته وقدرته وعلمه سبحانه، فلا يشاؤون إلا أن يشاء الله، ولا يريدون سوى ما أراد الله، ويتصرفّون في الأشياء بقدرة الله، فيحيون الموتى، ويردّون الشمس، ويشقّون القمر، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام:

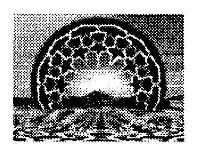
«ما قلعت باب خيبر بقوّة جسمانيّة بل بقوّة ربّانيّة».

والمعنى الذي يمكن فهمه ولا ينافي أُصول الدين من الفناء في الله والبقاء بالله هو هذا المعنى[1].

---

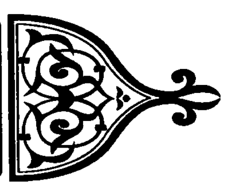
(١) الطريق الذي سلكه العلامة المؤلف رضوان الله عليه (أي المجلسي) في كلامه هذا أشبه بطرق أهل الذوق وبياناتهم فلا بأس بالاشارة إلى طريق أهل البحث والنظر ليكون النفع أعم والفائدة أتم والله المستعان. =

وبعبارة أُخرى: الحجب النورانيّة الموانع التي للعبد عن الوصول إلى قربه وغاية ما يمكنه من معرفته سبحانه من جهة العبادات كالرياء. والعجب والسمعة والمراء وأشباهها، والظلمانيّة ما يحجبه من المعاصي عن الوصول إليه، فإذا ارتفعت تلك الحجب تجلّى الله له في قلبه، وأحرق محبّة ما سواه حتى نفسه عن نفسه، وكلّ ذلك لا يوجب عدم وجوب الإيمان بظواهرها إلا بمعارضة نصوص صحيحة صريحة صارفة عنها وأوّل الإلحاد سلوك التأويل من غير دليل، والله الهادي إلى سواء السبيل[١].

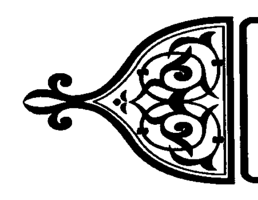


= العالم المادي عالم الحركة والتكامل، والنفس أيضاً لتعلقها بالبدن المادي بل اتحادها به محكوم بهذا الحكم فهي لا تزال تسير في منازل السير وتعرج على مدارج الكمال وتقترب إلى الحق المتعال حتى تصل إلى ثغور الامكان والوجوب فعندئذ ينتهي السير وتقف الحركة: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢] ومنازل السير هي المراتب المتوسطة بين المادة وبين اشرف مراتب الوجود وهي بوجه ينقسم إلى مادية وغير مادية والأولى هي المراحل التي تقطعها حتى تصل إلى حد التجرد والثانية هي المراتب الكمالية المالية التي فوق ذلك وحيث إن نسبة كل مرتبة عالية بالنسبة إلى ما تحته نسبة العلة إلى المعلول والمعنى الاسمى إلى الحرفي والمستقل إلى غير المستقل كانت المرتبة العالية مشتملة على كمالات المرتبة الدانية من غير عكس فكلما أخذ قوس الوجود في النزول ضعفت المراتب وكثرت الحدود العدمية، وكلما أخذ في الصعود اشتدت المراتب وقلت الحدود إلى أن تصل إلى وجود لا حد له أصلاً، ووصول النفس إلى كل مرتبة عبارة عن تعلقها بتلك المرتبة، وبعبارة أخرى بمشاهدة ارتباطها بها بحيث لا ترى لنفسها استقلالاً بالنسبة إليها، وإن شئت قلت، بفنائها عن ذاتها وخروجها عما له من الحدود بالنسبة إليها.

(١) البحار ج٥٥ ص٤٥-٤٧.



البيت المعمور



قال الطبرسيّ: البيت المعمور هو بيت في السماء الرابعة بحيال الكعبة تعمره الملائكة بما يكون منها فيه من العبادة عن ابن عبّاس ومجاهد.

● وروي أيضاً عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: **ويدخله كلّ يوم سبعون ألف ملك ثمّ لا يعودون إليه أبداً**[1].

● **محاسبة النفس للسيّد عليّ بن طاوس رحمه الله نقلاً من كتاب خطب أمير المؤمنين عليه السلام لعبد العزيز الجلوديّ بإسناده قال: سأل ابن الكوّاء أمير المؤمنين عليه السلام عن البيت المعمور والسقف المرفوع.**

قال عليه السلام: ويلك ذلك الضراح بيت في السماء الرابعة حيال الكعبة من لؤلؤة واحدة، يدخله كلّ يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إلى يوم القيامة، فيه كتّاب أهل الجنّة عن يمين الباب يكتبون أعمال أهل الجنّة، وفيه كتّاب أهل النار عن يسار الباب يكتبون أعمال أهل النار بأقلام سود، فإذا كان مقدار العشاء ارتفع الملكان فيسمعون منهما ما عمل الرجل، فذلك قوله تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾[2] [3].

● **وعن خالد بن مرة أنّ رجلاً قال لعليّ عليه السلام: ما البيت المعمور؟**

قال: بيت في السماء يقال له «الضراح» وهو بحيال الكعبة حرمته في السماء كحرمة البيت في الأرض، يصلّي فيه كلّ يوم سبعون ألف من الملائكة لا يعودون إليه أبداً[4].

---

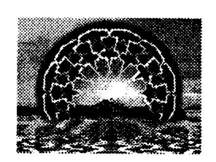
(١) البحار ج٥٥ ص٥٥.

(٢) سورة الجاثية، الآية: ٢٨.

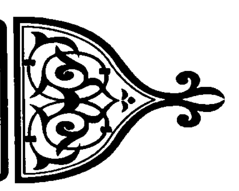
(٣) البحار ج٥٥ ص٥٦، ح١.

(٤) الدر المنثور: ج٤، ص١١٧، البحار ج٥٥ ص٦١، ح١٢ - ١٣.

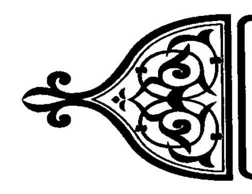
● وعن أبي الطفيل أنّ ابن الكوّاء سأل عليّاً عليه السلام عن البيت المعمور ما هو؟ قال: ذاك الضراح بيت فوق سبع سماوات تحت العرش يدخله كلّ يوم سبعون ألف ملك ثمّ لا يعودون إليه إلى يوم القيامة[١].



(١) المصدر نفسه.



السماء وكيفياتها وعددها



● العلل والعيون والخصال: في خبر الشامي، عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه سأله عن خلق السماوات؟

قال: من بخار الماء.

وسأله عن سماء الدنيا مِمّ هي؟

قال: من موج مكفوف.

وسأله كم طول الكواكب وعرضه؟

قال: اثنا عشر فرسخاً في اثني عشر فرسخاً.

وسأله عن ألوان السماوات السبع وأسمائها.

فقال له: اسم السماء الدنيا «رفيع» وهي من ماء ودخان، واسم السماء الثانية «قيدوم» وهي على لون النحاس، والسماء الثالثة اسمها «الماروم» وهي على لون الشبه، والسماء الرابعة اسمها «أرفلون» وهي على لون الفضّة، والسماء الخامسة اسمها «هيعون[١]» وهي على لون الذهب، والسماء السادسة اسمها عروس وهي ياقوتة خضراء، والسماء السابعة اسمها «عجماء» وهي درّة بيضاء[٢] (الخبر).

● عن عليّ بن أحمد بن محمّد، عن الكلينيّ، عن علاّن رفعه قال: سأل يهوديّ أمير المؤمنين عليه السلام لم سمّيت السماء سماءً؟

قال: لأنّها وسم الماء معنى معدن الماء[٣] [٤] (الخبر).

---

(١) في المخطوطة «هيفوف» وفي المصدر «هيفون».

(٢) الخصال: ٣، العيون، ج١، ص٢٣١، العلل ج٢، ص٢٨٠، البحار ج٥٥ ص٨٨، ح١.

(٣) فسّر الوسم بالمعدن لأنّ معدن كلّ شيء علامة حصوله، ولعلّه مبنيّ على الاشتقاق الكبير، لأنّ الوسم من معتلّ الفاء والسماء على المشهور من معتلّ اللاّم من السموّ، وهو الرفعة، أو هو على القلب كما أنّ الاسم أيضاً من السموّ.

(٤) علل الشرائع: ج١، ص٣، البحار ج٥٥ ص٨٩، ح٣.

● **العلل: عن أبيه، عن سعد بن عبد الله، عن أحمد بن أبي عبد الله البرقيّ، عن أبيه، عن أحمد بن النضر، عن محمّد بن مروان، عن جرير، عن الضحّاك بن مزاحم، قال: سئل عليّ عليه السلام عن الطارق.**

قال: هو أحسن نجم في السماء وليس يعرفه الناس، وإنّما سمّي الطارق لأنّه يطرق نوره سماءً سماءً إلى سبع سماوات ثمّ يطرق راجعاً حتّى يرجع إلى مكانه[1].

وقال أبي البقاء في كلياته: أن كل دخان يسطع من ماء حار، فهو بخار وكذلك من الندى، وهناك أيضاً أخبار في البحار بخروج بخار من الماء، فخلقت السماء منه، وأن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾[2] فكان ذلك الدخان من تنفس الماء.

إلى غير ذلك من الشواهد الواضحة، فتتضح إرادة البخار من اسم الدخان وقد نطقت جملة من هذه الأخبار على خلق السماء من البخار، أو من دخان الذي هو تنفس البخار والله أعلم.

وهناك طائفة من الأخبار، تدل على أن السماء معدن الماء، وطائفة أخرى، تصرح أن السماء تحت مدارات الكواكب، ومن أراد الزيادة فيمكنه استقراء ذلك في الكتب المعتبرة التي أشرنا إليها في هوامش البحث.

والنتيجة التي يمكن أن نتوصل إليها من مدار البحث، هي حقيقة كون غلاف الأرض الجوي، أو الهوائي كان يُعرف بالسماء الدنيا، فكانت هذه الآراء المتقدمة حول أصل عنصره. ولو عملنا مقارنة مع الرأي الشرعي القائل بحقيقة السماء، ومم تتكون، والنظريات الحديثة لهذه الحقيقة، لما وجدنا اختلافاً جوهرياً سوى بإضافة بعض العناصر المكونة للطبقة الهوائية، والتي تم اكتشافها بالطرق العلمية الحديثة، وأن بيان الأئمة عليهم السلام والشارع المقدس حول جوهر السماء لا يختلف كلياً، بل ويتناسب مع قدرة العقل الإنساني في تلك الفترة على استيعاب الحقائق العلمية، بل إن حكماء الإسلام في تلك الفترة صرحوا ولأكثر من مرّة بوجود وزن هوائي، يمثل ثقلاً على جسم الإنسان.

«فقد ذكر صاحب كتاب حدائق النجوم: أن ثقل الكرة البخارية (يعني الغلاف الهوائي) هو ١٨٧٣٠٨٩ ٠ ١١٥٢٢٢١١٤٩٤٢ رطل بريطاني، وقيل: إن جملة بخار

---

(١) العلل، ج٢، ص٢٤٣، البحار ج٥٥ ص٨٩، ح٤.
(٢) سورة فصلت، الآية: ١١.

الماء المنتشر في هواء الأرض يبلغ ثقله حوالي ٦٩٢،٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠»[١]. وقد عينوا ثقل مقدار من الهواء، يحاذي رأس الإنسان من لدنه إلى ٤٥ ميلاً، وأن معدل ما يحمله الإنسان من الهواء نحو ٦٢٢٤ رطلاً»[٢].

ولنأخذ بعد ذلك الغياب العلمي الحديث، حول وزن الكرة الهوائية أو وزن الغلاف الجوي، والذي توصل إليه العلماء حالياً (هو ٥ مليون بليون طن)[٣] ولا شك أن حالة التطابق بين الأرقام لا يمكن أن تتم لأن طرق الحساب قد اختلفت حديثاً عن طرق الحساب القديمة، ولكن قد يبدو أن الآراء متطابقة، حول ثقل هذا الغلاف، وما يشكله من ضغط على جسم الإنسان، وأن الشرق بنور الوحي كيف سبق الغربيين في كشف أسرار الوجود.

وقد قال الأديب العربي ميخائيل نعيمة في عبارة له: «إن ما أدركه الشرق منذ أجيال بإيمانه واختباراته الروحية يحاول الغرب اليوم أن يتوصّل إليه بتلسكوبه ومكرسكوبه.

ومن العبر، أن الغربي كلما درس وتعمّق، عاد إلى الشرق، ونقض عن بعض تعاليمه غبار الدهر، وصقلها ثمّ عرضها على إخوانه، كأنّها حقائق جديدة، فهو ينقّب هذه الآيّام عن فلسفات الصين والهند والعرب والعجم، ليجد فيها مفاتيح لما أقفل في وجهه من أسرار الوجود»[٤].

◎ الغلاف الهوائي في الخطب والأدعية

لا شك أن الأدعية التي تناولت مسألة الغلاف الهوائي كثيرة، وكذلك الخطب، وربما نتناول هنا بعض الأدعية والخطب، والتي تدل على مسألة وجود الغلاف، أو الطبقة الهوائية المحيطة بالكرة الأرضية، والتي تنتهي بالسماء، وهنا نود أن نشير إلى أن في تلك الجمل الشرعية، إشارة واضحة إلى فصل السماء عن الأرض بغلاف هوائي، أو بطبقة هوائية، وأن هذه الطبقة منتهاها إلى المساء ومن هذه الجمل الشرعية:

(١) حدائق النجوم: ٦٧.
(٢) الآيات البينات في عجائب الأرضين والسماوات: ٧٧.
(٣) أسرار الكون في القرآن: ١٤٠.
(٤) الآيات البينات في عجائب الأرضين والسماوات: ١١٥.

في دعاء النبي يعقوب عليه السلام المروي في تفسير سورة يوسف عليه السلام: «يا من شيد السماء بالهواء، وكبس الأرض على الماء»[١].

والكل يعلمون أن الكرة البخارية قائمة، ومشيدة بالهواء بخلاف السماء، المفسر عند القدماء، فإنه غير منوط لا مربوط بشيء من الهواء.

قول أمير المؤمنين عليه السلام في بعض خطبه المشهورة في صفة السماء عليه السلام: **«وأمسكها من أن تمور في خراق الهواء بأيده، وأمرها أن تقف مستسلمةً لأمره»[٢].**

وهذا يدل أيضاً على وقوف السماء وسكونها من الحركة، وهذا يناسب كونها الكرة البخارية الواقفة بنفسها الجارية بمتابعة الأرض، ولا يستقيم مع تفسير السماء بأفلاك القدماء، والتي لا تنفك عندهم من الحركة الذاتية، (المور) اضطراب الجسم السائل، كما أن (الميد) اضطراب الجسم الجامد.

● **وقال علي عليه السلام في أول خطبة في النهج: «في فلك دائر، وسقف سائر ورقيم مائر»[٣].**

فإن المراد من السقف هنا هو سماء الدنيا.

● **الاحتجاج: عن الأصبغ قال: سأل ابن الكوّاء أمير المؤمنين عليه السلام عن المجرّة الّتي تكون في السماء.**

قال: هي شرج السماء[٤]، وأمان لأهل الأرض من الغرق، ومنه أغرق الله قوم نوح بماء منهمر[٥] (الخبر).

● **عن ابن أبي عمير، عن بعض أصحابنا، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: هذه النجوم الّتي في السماء مدائن مثل المدائن الّتي في الأرض،**

(١) تفسير القمي: ١/ ٣٥٣.

(٢) نهج البلاغة: خطبة ٩١/ ١٢٨.

(٣) نهج البلاغة: خطبة١/ ٤١.

(٤) الشرج اسم للمجرّة، ولعلّهم شبّهوها بالعرى الّتي في الكيس والعيبة تشدّ بها، أو بمجرى الماء لأنّها مجراه حقيقة كما في الخبر، أو لأنّها شبيهة بالنهر في وسط الوادي، قال الفيروز آباديّ: الشرج - محرّكة - العرى، ومنفسخ الوادي ومجرّة السّماء، وانشقاق في القوس، والشرج: الفرقة، ومسيل ماء من الجرّة إلى السهل وشدّ الخريطة. وقال الجوهري: شرج العيبة بالتحريك عراها وقد أشرجت العيبة إذا داخلت بين أشراجها، ومجرّة السماء تسمّى شرجا.

(٥) الاحتجاج: ١٣٨، البحار ج٥٥ ص٩٠، ح٥.

مربوطة كلّ مدينة إلى عمود نور، طول ذلك العمود في السماء مسيرة مأتين وخمسين سنة[١].

◎ التصعيد في السماء

قال تعالى: ﴿... فَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ....﴾[٢].

من المعلوم الآن أنه كلما ارتفعنا عن سطح الأرض، خف الهواء، وقلّت كثافته وانخفض الضغط الجوي. إن ارتفاع بحوالي (٣٠٠٠) متراً، أو أكثر من سطح البحر، يصحبه انخفاض في الأوكسجين الموجود في الدم، بما يؤدي إلى عُسر النفس (البُهر) والزرقة، وعندما يصل ارتفاع الإنسان إلى (٦٠٠٠) متر فإنه يفقد وعيه في دقائق قليلة.

«إن كتاب الله قد جاء بمعجزة في ذكر ضيق النفس البالغ عند الارتفاع في الجو، وهو ما لم يكن معروفاً قطّ يومئذ، جاءت هذه الآية قبل أكثر من ألف وأربعمائة عام، ولكن لم يكتشف الإنسان ما جاء فيها علمياً وعملياً إلا منذ ثلاثة وتسعين عاماً، عندما حلّق الاخوان (رايت) بأول طائرة، وشعرا بالضيق في صدريهما، ثم جاء العلم ليكتشف من انخفاض كمية الأوكسجين وضغطه عند الصعود إلى الأعالي»[٣].

◎ الغلاف الجوي نفوذ بسلطان

قال تعالى في كتابه الحكيم: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾[٤].

لا يمكن للجن والإنس أن يخرجوا من السماوات والأرض، إلا بتمكن وقوة وقهر وإذا كانت السماوات هنا، وكما قد رأينا في الكثير من المشاهدات العلمية هي الكواكب السيارة، فإن الله يبيح لخلقه من الجن والإنس في أن ينفذوا إلى خارج المنظومة الشمسية، ونشير أولاً إلى تكرار لفظ (النفاذ) من أقطار السموات والأرض في الآية الكريمة، ثلاث مرات، والنفاذ ليس هو السير وحده أو الخروج وحده، كما أنه ليس الاقتراف وحده هو كل ذلك وفوقه الابتعاد والانفلات ضد قوة مانعة، كما هو

---

(١) تفسير القمي: ٥٥٣، البحار ج٥٥ ص٩١.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٢٥.
(٣) أسرار الكون في القرآن: ١١٠.
(٤) سورة الرحمن، الآية: ٣٣.

واضح من نص الآية الكريمة، وهو إشارة إلى الانفلات في قوة الجاذبية، كما هو إشارة إلى بُعد المسافات وقلة حيلة الإنسان حيالها.

وفي هذه الآية إشارة لمهمة أخرى إلى الكون ما بعد السموات والأرض وإلى الذين يعتقدون بأن القرآن الكريم لم يتكلم على ما هو أكثر أو ما هو أبعد من السموات السبع.

«إن الإباحة المشروطة لله تعالى في الآية الكريمة، تدل على أن النفاذ صعب جداً، ولكن هل هو مستحيل؟ إن النفاذ مشروط بالشرط الإلّهي، وهو وجود السلطان، أو الوسيلة والأداة المتمكنة القوية، ولقد كان النفاذ من الغلاف الجوي المحيط بالأرض في الأربعة عشر قرناً التي أعقبت التنزيل أمراً مستحيلاً، بل هو لم يخطر على قلب بشر.

وأما الآن وبوجود ما يبدو أنه الأداة المناسبة (الصاروخ) فالأمر مختلف عن ذلك، لكن يبقى أن نعرف بأن الصاروخ قد يستطيع أن يوصلنا إلى خارج حدود الأرض وإلى بعض الكواكب القريبة، ولكن هل يستطيع الوصول بنا إلى أبعد من ذلك، إلى النجوم مثلاً، التي تحتاج إلى سفينة فضائية، ذات سرعة قريبة من سرعة الضوء (٣٠٠,٠٠٠) كم/ ثانية بينما تبلغ سرعة السفينة الفضائية (الرحالة) (٦٥,٠٠٠) كم/ ساعة، أي أقل من ٢٠كم/ ثانية أي أنها سوف تحتاج إلى أكثر من (٧٠,٠٠٠) عام للوصول إلى أقرب نجم إلينا.

يتبين من خلال ذلك أن النفاذ خارج حدود الأرض، ممكن بفعل سلطان العلم، أما النفاذ إلى خارج المنظومة الشمسية، والوصول إلى نجوم وكواكب سيارة خارجها، هو أمر غير محتمل على الإطلاق في المستقبل المنظور، إلا أن الآية لا تنفي إمكانية وجود أداة أو (سلطان) بما قد يسمح بذلك، ولكن حتى لو تم ذلك، فإن النفاذ لن ينجح ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾[1].

ويقول العلماء بأن النيازك تجيء من خارج المنظومة الشمسية، وهي تتكون من صخور معدنية.

وقد تكون وأمثالها مما لا نعلم، من أجسام صغيرة لا نراها بالمراقبة، هي الحائل الذي يحول دون النفاذ، ويؤيد ذلك ما جاء في الاكتشافات الحديثة الفلكية أن هناك

(١) سورة الرحمن، الآية: ٣٥.

«حزام كويبر» وهو حزام يحيط بالمنظومة الشمسية، ويكون أكثر من (٢٠٠) مليون مذنب دليلاً آخر معجزاً على صعوبة النفاذ البالغة من المنظومة الشمسية»[١]. حقاً إن هذه الآية الكريمة لمحيرة جداً، وهي تنطق بالغيب بحقيقة التمكن من صنع الصواريخ الدافعة للسفن الفضائية، التي تُرسل غير مأهولة من الأرض إلى الكواكب السيارة، وأن الأمريكان يخططون للنزول إلى كوكب المريخ عام ٢٠١٩م.

قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾[٢].

قال العلامة المجلسي (قدس سره): يعني بالرجع: شمسها وقمرها، ونجومها، تغيب ثم تطلع، وقيل: رجع السماء اعطاؤها الخير يكون من جهتها حالاً بعد حال، على مرور الأزمان، فترجع بالغيث، وأرزاق العباد وغير ذلك[٣].

ولعله يمكننا أن نحسب الفوائد الأخرى للسماء ذات الرجع، التي تطرق إليها العلامة المجلسي (قدس سره) بقوله - وغير ذلك - وهو أن السماء تشكل درعاً واقيةً عظيمة للأرض، من حيث أن الهواء المحيط بالأرض، أو الغلاف الهوائي، يرق ويخف كلما ابتعدنا عن سطحها، ولقد حسب العلماء أن الغلاف الهوائي تقل كثافته بالابتعاد عن سطح الأرض تدريجياً، حتى يتداخل ما يسمى بـ «المادة ما بين الكواكب السيارة» (Interplonetroy Medin).

وظل هذا الاعتقاد سائداً حتى قامت أجهزة الاستشعار، والأقمار الصناعية باستكشاف الغلاف الهوائي الخارجي للأرض، بأبعاد تصل إلى أضعاف طول قطر الأرض، فعرفوا أن الغلاف الشمسي يُمطرنا بوابل مما يسمى بـ «الريح الشمسية» (Solar Win) التي تنهمر في الفضاء وتصل إلى ما هو أبعد بكثير من مدار الأرض حول الشمس، إذ هي تصل إلى الحدود الخارجية للمنظومة الشمسية.

إن هذه الريح الشمسية تجري حول المجال المغناطيسي للأرض محدثة فيه تجويفاً أو كهفاً مستطيلاً، يتحدد في داخله غلاف الأرض الجوي. إن هذا الغلاف الهوائي يقع بين سطح الأرض والفضاء بشكل ما يسميه العلماء بـ «الدرع الواقية» (Shiolding) ولولا الحماية التي تؤمنها هذه الدرع، ما كان يمكن للحياة أن تستمر على الأرض، بل ما كان لها أن تنشأ عليها، فهي تحمي الأرض من الإشعاعات القاتلة، وهي حاجز يمنع

---

(١) أسرار الكون في القرآن: ٥٧-٥٨.
(٢) سورة الطارق، الآية: ١١.
(٣) بحار الأنوار: ٥٥/ ٨٤.

كميات كبيرة من ضوء الشمس، وحرارتها من الوصول إلى الأرض مما يمكن أن يتسبب في احراق كل ما عليها، ولولا هذا الغلاف لاحترقنا (شيّاً) نهاراً، ولتجمدنا من البرد ليلاً، كما أن الرطوبة في الجو تمنع أشعة الضوء والحرارة، من أن تحرق العشب الأخضر وتجعل نمو النباتات وحياة الحيوان أمراً مستحيلاً، وتبعثُ الشمس مثل بقية النجوم بإشعاعات من موجات بأطوال مختلفة هي:

١ - الأشعة الكونية.

٢ - أشعة غاما.

٣ - الأشعة السينيّة أو (المجهولة).

٤ - الأشعة فوق البنفسجية.

٥ - الأشعة المرئية.

٦ - الأشعة تحت الحمراء.

٧ - الأشعة الصفراء.

٨ - الأشعة الراديويّة.

إن كل هذه الأنواع من الأشعة، تسير في الفضاء بسرعة الضوء، ويمكن لها أن تقتل الكائنات الحيّة، وهي تدخل الغلاف المحيط بالأرض بكميات مميتة، ولكنها توقف قبل أن تصل سطح الأرض، بمسافة بعيدة. ويصل إلينا ما يكفي لإفادتنا بالعمل على بشرة الجلد حتى تضع الفيتامين (د) من مادة «الارغوسترول» الموجود في الجلد[١].

إن مفعول هذه الدرع المكينة في ردّ هذه الإشعاعات القاتلة عن الأرض، قد يكون معنى من معاني (الرجع) في قسمه تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ﴾[٢]. وقد أسمى المولى سبحانه الغلاف الهوائي مرة أخرى، بالسقف المرفوع وأقسم به: ﴿وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ﴾[٣]. وهذا هو المعنى الأول من معاني السماء ذات الرجع.

◎ (المعنى الثاني)

«يوجد توازن معقّد بين كمية الطاقة الشمسية الواصلة إلينا، وبين التسخين الحاصل

(١) أسرار الكون في القرآن: ١١٦.
(٢) سورة الطارق، الآية: ١١.
(٣) سورة الطور، الآية: ٥.

في غلاف الأرض الجوي وسطحها، وبين إعادة إشعاع الطاقة الحرارية إلى الفضاء مرةً ثانية، هذا التوازن يحفظ الأرض دافئة بالحدود المناسبة، وبالقدر المحسوب منه تعالى لديمومة الحياة عليها لا هي باردة قارصة، ولا حارة حارقة، وهذا عمل الغلاف الجوي، ولولا هذا السقف المحفوظ من الغلاف الجوي، لاحترقت جميع الأشياء نهاراً، ولتجمّدت من البرد ليلاً، ويمكن على هذا أن يكون معنى من معاني الرجع في السماء.

◎ (المعنى الثالث)

«يقدّر علماء وزن غاز «الغلاف الجوي» بحوالي خمسة ملايين بليون طن، والضغط الجوي يعادل وزن الغاز هذا مقسوماً على وحدة المساحة، ويبلغ عشرة أطنان/ قدم. إنّ هذه الدرجة من كثافة الغلاف الجوي تحول دون وصول الملايين من الشهب القاتلة إلينا، منقضّة بسرعة خمسين كم في الثانية وصول الملايين من الشهب القاتلة إلينا، منقضّة بسرعة خمسين كم في الثانية بسبب ترجيع الغلاف الجوي لها، وإحراقها في بعض الأحيان وقد يكون هذا أيضاً من معاني الرجع للسماء، وهناك معانٍ أخرى لا يسع البحث للتطرق إليها وكلها تشير إلى معنى الرجع في السماء»[1].

◎ ما هو الغلاف الجوي؟

«نعني به مجموعة الغازات، والمواد العالقة الأخرى، التي تحيط بالكرة الأرضية إحاطة كاملة» وتتميز الأرض عن غيرها من المجموعة الشمسية بوجود هذا الغلاف وبمثل هذه الصورة. وإلى هذا الغلاف الجوي يرجع الفضل في وجود الظواهر البيئية، التي نجمت عنها الحياة بصورها المختلفة.

إن غازات هذا الغلاف الجوي ليس لها طعم ولا لون ولا رائحة، ولا يعرف لحد الآن المدى الذي ينتهي عنده الغلاف الجوي، إلا أن بعض الدراسات أثبتت أنه لا ينتهي بصورة حديّة، أو مفاجئة، وإنما يتضاءل بصورة تدريجية، وتقل كثافته بصورة سريعة إلى درجة أن نصف وزن الغلاف الجوي يقع تحت مستوى ٦,٣ كيلومتر. ويقع ثلاثة أرباع وزنه دون مستوى ١٢,٦ كيلومتر.

ويقوم الغلاف الجوي من جملة ما يقوم به إلى حماية الحياة من بعض أنواع

(١) أسرار الكون في القرآن: ١١٧.

الاشعاعات المضرة كالأشعة فوق البنفسجية، ويحمي الأرض من أن تكتسب كميات كبيرة من الحرارة الشمسية، وكذلك فإنه يحميها من أن تفقد قسماً كبيراً من حرارتها عن طريق الإشعاع الأرضي، فلولاه لارتفعت درجات الحرارة في النهار إلى أربع وتسعين درجة مئوية ولانخفضت أثناء الليل إلى ١٨٤ درجة مئوية تحت الصفر. إضافة إلى ما تقدّم فإن بخار الماء الذي هو أحد مكونات هذا الغلاف مسؤول عن وجود الماء العذب على هذا الكوكب.

ويقسم الغلاف الجوي إلى ثلاث طبقات متراصة من الأسفل إلى الأعلى:

١ - طبقة التروبوسفير: Troposphere

٢ - طبقة الستراتوسفير: Stratosphere

٣ - طبقة الايتوسفير: Ionosphere

والمعروف أن حوالي ٩٨٪ من كتلة الغلاف الجوي تتركز في الطبقتين الأولى والثانية، في حين يتركز الباقي ومقداره ٢٪ في الطبقة الثالثة.

◎ ١ - طبقة التروبوسفير Troposphere

وهي الطبقة السفلى من الغلاف الجوي، وتشكل ٧٥٪ من وزنه، ويبلغ سمك هذه الطبقة ثمانية عشر كيلومتراً في المناطق الاستوائية وثلاثة عشر كيلومتراً في المناطق المعتدلة وتسعة كيلومترات عند القطبين، عليه فإن معدل أحد عشر كيلومتراً ارتفاعاً، هو خير وحدة قياس لسمك هذه الطبقة على جميع خطوط العرض.

وليست هذه «الارتفاعات» سمك الطبقة «ثابتة بل تتغير بتغير الفصول، فهي تتناقص شتاءً وتزداد صيفاً، وتصبح حالية أيضاً حينما يكون الضغط الجوي عالياً وتنخفض بانخفاضه، والصفة التي تسود هذه الطبقة، أن درجات الحرارة تتناقص فيها بالارتفاع بمعدل ٦,٥ درجة مئوية لكل كيلومتر ارتفاعاً، وفيها تحدث كافة المظاهر الجوية، وهي تضم معظم الرطوبة والغبار، وثاني أوكسيد الكاربون، وتصل فيها التيارات الهوائية العليا إلى أقصى سرعتها. وتنتهي هذه الطبقة عند خط يعتبر الحد الأعلى لمعيشة الإنسان، ويطلق عليه Tropospause تروبوبوز الذي يكون الحد الفاصل بين طبقة التروبوسفير والطبقة التي تليها[1].

(١) الميترولوجية، ظواهر الجو: ١٢٥.

◎ ٢ - طبقة الستراتوسفير: Stratosphere

وتبدأ هذه الطبقة اعتباراً من خط التروبوبوز «الذي يرتفع أحد عشر فوق مستوى سطح البحر» حتى ارتفاع يتراوح بين ٥٥-٧٨ كيلومتراً. وصفة هذه الطبقة أنها لا تتأثر بالاشعاع الأرضي وهي لا تحوي إلا القليل جداً من الرطوبة والغبار الناتج عن الانفجارات البركانية العنيفة، وتضم هذه الطبقة من الغلاف الجوي طبقة الأوزون التي يبلغ سمكها ثلاثة ميلمترات، إذا كان الأوزون موجوداً تحت نفس الضغط الجوي الموجود على سطح الأرض، ولكنه يحتل طبقة سمكها حوالي عشرون كيلومتراً، لأنه يقع في منطقة يكون الضغط الجوي بها منخفض جداً. وصفة هذه الطبقة الأخيرة قدرتها على امتصاص الاشعاع الشمسي، خصوصاً الأشعة فوق البنفسجية، التي إذا ما وصلت الأرض، فإنها سوف تحرق أجسامنا، وتعمي أبصارنا ولكن لو كانت طبقة الأوزون هذه أكثر سمكاً، لما وصلت إلينا معظم الموجات القصيرة الضرورية للصحة والحياة.

وعند بداية هذه الطبقة لا تحدث تغيرات كبيرة في درجات الحرارة حتى ارتفاع ٢٠ كيلومتراً عن مستوى سطح البحر حيث تبدأ درجات الحرارة بالارتفاع بعد ذلك حتى تصل أقصاها عند ارتفاع ٥٠ كيلومتراً عن مستوى سطح البحر. ويعود السبب في هذا الارتفاع لدرجات الحرارة إلى وجود غاز الأوزون الذي يمتص الأشعة فوق البنفسجية، ويطلقها بشكل موجات حرارية، ويتركز هذا الغاز عند ارتفاع من عشرين - أربعين كيلومتراً ويطلق على هذه الطبقة اسم ميزوسفير Mesosphere. وبعد ذلك تأخذ درجات الحرارة بالانخفاض حتى تصل أدناها عند ارتفاع ٨٠ كيلومتراً عن مستوى سطح البحر حيث يطلق على ذلك المستوى اسم ميزوبوز Mesopause [1].

◎ ٣ - طبقة الاينوسفير: Ionosphere

لا زالت المعلومات المتوفرة عن هذه الطبقة قليلة، ولكن المعروف عنها أنها تضم الغازات الخفيفة خصوصاً الهيدروجين والهليوم، وتبدأ من ارتفاع ثمانين كيلومتر. وعند هذه الطبقة تبدأ درجات الحرارة بالارتفاع حتى تصل إلى حوال ١٠٩٣ درجة مئوية عند ارتفاع أربعمائة كيلومتر ويرجع السبب في ارتفاع درجات الحرارة هنا إلى أن الأوزون والأوكسجين يعملان على امتصاص الاشعاع الشمسي.

---

(١) الغلاف الهوائي: ٧١.

وأهمية هذه الطبقة عظيمة في مواصلاتنا اللاسلكية، فأمواج الراديو التي نسمعها من أجهزتنا تنعكس على الطبقات المتأينة هناك. ومن الظواهر التي تظهر في هذه الطبقة الوهج القطبي أو ما يعرف بالأورورا Aurora، وهو ضوء جميل اللون يظهر على شكل سحب براقة، أو ستائر مضيئة متعددة الألوان ويمكن رؤيته في خطوط العروض العليا المحصورة بين القطبين، وبين خطي عرض ستين درجة شمالاً وجنوباً إذ تشاهد هذه الظاهرة على ارتفاع بين ١٠٠-١٠٠٠ كيلومتراً من سطح الأرض، وبسبب ظهورها في هذه العروض اقتراب قوى المجال المغناطيسي من سطح الأرض، فيمكن لكهارب (الالكترونات) التي تطلقها الشمس من اختراق هذا المجال المغناطيسي[١].

◎ مكونات الغلاف الجوي

يتألف الغلاف الجوي من عدة مكونات لها تأثيرها الكبير على الحياة على وجه الأرض ومن هذه المكونات:

◎ ١ - النيتروجين

يشكل هذا العنصر أربعة أخماس الهواء، وتبلغ نسبته فيه ٧٨,٠٨٤٪، أما وزنه ٧٥,٥١٪ ويسمى أيضاً بالآزوت وهو غاز عديم اللون والطعم والرائحة، يصعب تفاعله مع المواد الأخرى، وفائدته الأساسية أنه عامل ملطف في الخليط الغازي الذي يكون الهواء، والذي يحتوي على غازات حادة التأثير كالأوكسجين، وإليه يرجع الجانب الأكبر من الضغط الجوي، ويعمل على انحراف أشعة الشمس أثناء اختراقها الغلاف الجوي، كما أنه يكون وقاءً عاماً لسطح الأرض تتحطم فيه الشهب الكثيرة المتساقطة.

◎ ٢ - الأوكسجين

يعتبر الأوكسجين أكثر العناصر انتشاراً على الأرض[٢]، إذ تبلغ نسبته في الهواء ٢٠,٩٤٪ ووزنه فيه ٢٣,١٥٪، وهو من الغازات الثابتة النسبة، وهو عديم اللون أيضاً؛ ويقال: إن زرقة السماء، راجعة في أصلها إلى اللون الحقيقي للأوكسجين، وهو عنصر

(١) الطبيعة الجوية: ١٨-٢٠.

(٢) رغم أن نسبة الأوكسجين، أقل من النتروجين في الغلاف الجوي، إلا أن كميته على الأرض بصورة عامة تكون أكبر منه كثيراً، لأن الأوكسجين ذو ألفة كيماوية عالية، ويدخل في معظم مكونات القشرة الأرضية والماء.

مهم للحياة على سطح الأرض، أما أثره على الناحية المناخية، فهو أقل بكثير من أثر النتروجين.

◎ ٣ - الأركون

وهو من الغازات الثابتة النسبة في الهواء، إذ تبلغ ٠,٩٣٪ ووزنه في الهواء ١,٢٨٪، ولا يختلف كثيراً في خواصه وتأثيراته عن النتروجين.

◎ ٤ - ثاني أوكسيد الكربون

وهو من الغازات المتغيرة النسبة إذ تبلغ ٠,٠٣٣٪ ووزنه في الهواء ٠,٠٤٦٪، وتختلف كميته من مكان لآخر، فتكون عالية في المدن، حيث تصل إلى حوالي عشرة أمثال ما عليه في المناطق الريفية، وقد أدى إسراف الإنسان في حرق الوقود في النصف الأخير من هذا القرن إلى إضافة ملايين الأطنان من غاز ثاني أوكسيد الكربون للهواء وأصبح من تأثير هذا الغاز على الجو أن متوسط درجة حرارة جو الأرض زاد بنسبة ٠,٠٠٥ درجة مئوية كل عام في الخمسين سنة الأخيرة نتيجة التوليد الصناعي لهذا الغاز(١).

وبالنظر لعدم ثبات نسبة تواجد هذا الغاز في الغلاف الجوي بصورة أفقية كما بينا قبل قليل وبالنظر لقابليته على امتصاص الموجات الحرارية فإنه يأخذ حيزاً كبيراً من اهتمام الجغرافيين وعلماء الطقس لأنه يساعد على إحداث بعض التغييرات المناخية، في حين لا يهتم المختصون بالدراسات المناخية بدراسة مكونات الغلاف الجوي الأخرى لثبات نسبتها وخاصة في طبقة التروبوسفير ما عدا بخار الماء وذرات الغبار.

◎ ٥ - بخار الماء

وهو من مكونات الغلاف الجوي التي يهتم بها من له علاقة بالدراسات المناخية الميتورولوجية، بسبب التباين المكاني لكمياته بشكل عمودي وأفقي، فقد دلّت الدراسات الميتورولوجية على أن ٩٠٪ من كمية بخار الماء تتركز في خمسة الكيلومترات الأولى من الغلاف الجوي، وأن الـ ١٠٪ الباقية منه تتواجد بين ٥-١٥ كيلومتر عن سطح الأرض، وبخار الماء مع ذلك لا يؤلف إلا نسبة قليلة جداً من

---

(١) الميترولوجية: ٦٩.

الغلاف الجوي وتبلغ ٠,٠٤ والجدول التالي يبين لنا تناقص كمية بخار الماء مع الارتفاع[١].

الارتفاع كم	النسبة المئوية لبخار الماء في الهواء
٠	١,٣
١	١
٢	٠,٦٩
٣	٠,٤٩
٤	٠,٣٧
٥	٠,٢٧
٦	٠,١٥
٧	٠,٠٩
٨	٠,٠٥

الشكل رقم - ٢ - يبين تناقص كمية بخار الماء بالارتفاع عن مستوى سطح البحر.

◎ ٦ - ذرات الغبار

وتكثر في القسم الأسفل من الغلاف الجوي، وتوجد بدرجة قليلة في أجزائه العليا ومصادره هي:

١ - الشهب التي تدخل الغلاف الجوي، وتبدأ باللمعان على بعد ١٢٦ كم من سطح الأرض، ويتحول معظمها إلى ذرات ترابية، نتيجة احتكاكها على بعد اثنين وسبعين كيلومتراً عن الأرض، نظراً لسرعتها الفائقة التي تبلغ ١٠٨,٠٠٠ كم/ساعة (٣٠ كم)/ ثانية)، وهي تضيف يومياً إلى الأرض ألفي طن من المواد تسقط على الأرض كغبار، أو رماد دقيق نعرفه بالغبار الكوني. وبالإضافة إلى ذلك يمكن أن ندمج تحت

(١) William L.Donn Meteorology, Mc Graw-Hill New York 1965, p.49.

هذا المصطلح الجسيمات المختلفة، التي تأتي على صور ذرات وسحب ورماد وأبخرة، تدخل الغلاف الجوي من الفضاء الخارجي وقسم منها آت من الشمس.

٢ - الغبار من المعادن، والصخور المكونة لسطح الأرض الذي ترفعه تيارات هوائية صاعدة، خصوصاً في المناطق الجافة، ويعرف بالغبار الأرضي.

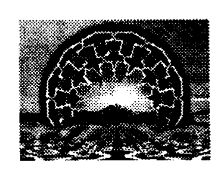
٣ - الغبار والدخان الذي تلفظه البراكين، وترفعه الرياح، ويعرف بالرماد البركاني.

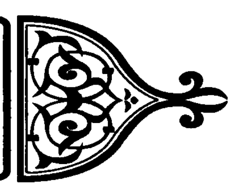
٤ - ذرات المواد العضوية المفتتة كالنباتات التي تتطاير ذراتها الخاصة بالتلقيح أو بعض أجزائها عقب الجفاف، ويعرف بالغبار العضوي. ويمكن أن نضم إليها البكتريا والجراثيم المختلفة.

٥ - الأملاح الدقيقة، التي تتطاير من مياه البحار أثناء تلاطم أمواجها، فتحملها الرياح والتيارات الهوائية المارة على السطوح المائية.

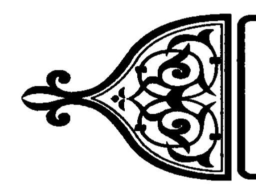
٦ - الغبار الصناعي المتطاير من مداخن المصانع، ويقتصر أثره على المدن الصناعية بنسبة عالية ويقل كثيراً فوق المناطق الريفية.

أما أثر الغبار على المظاهر المناخية، فله أثر ظاهر في انتشار أشعة الشمس وضوئها، وإنارة الغلاف الغازي، ولولا وجود هذه الذرات المتطايرة، لظهرت الشمس كبقعة وهاجة في سماء مظلمة، لا نور فيها ولتمكنا من رؤية النجوم في السماء المظلمة وسط النهار، ولانعدمت الإنارة غير المباشرة على الأجزاء التي لا تسقط عليها أشعة الشمس مباشرة وللغبار المتطاير وظيفة تشبه وظيفة ثاني أوكسيد الكاربون، وبخار الماء، إذ يعمل على الاحتفاظ بالحرارة التي تشعها الأرض، إلى الغلاف الجوي، ويلعب دوراً هاماً في تكاثف بخار الماء العالق في الهواء، إذ أن ذرات الماء الناتجة عن تكاثف بخار الماء، تتجمع عادة حول نواة صغيرة من هذا الغبار المتطاير.





من مكونات السماء[1]



◎ مجموعتنا الشمسية:

بالإضافة إلى الشمس تضم مجموعتنا الشمسية عدداً من الكواكب هي (قرباً من الشمس إلى الخارج):

عطارد، الزهرة، الأرض، المريخ، الكويكبات، (والتي يعتقد بأنها بقايا لكوكب منفجر) المشتري، زحل، يورانوس، نبتيون، بلوتو، ثم بروسوبينا، ثم مدارات المذنبات التي لم تعرف لها حدود بعد، هذا بالإضافة إلى عدد من التوابع (الأقمار) التي يقدر عددها بواحد وستين قمراً، تدور حول بعض من هذه الكواكب، وآلاف الشهب والنيازك، وكميات من الدخان.

والكواكب الأربعة الداخلية:

(عطارد، والزهرة، والأرض، والمريخ) هي كواكب صخرية، والكواكب الخارجية:

(من المشتري إلى بلوتو) هي كواكب غازية تتكون من عدد من الغازات المتجمدة على هيئة جليد (من مثل بخار الماء، ثاني أكسيد الكربون، الأمونيا، الإيدروجين والهيليوم) حول لب صخري. أما كوكب بروسوبينا فلم يتم رصده بعد، وإن قدر موقعه حسابياً.

وكواكب المجموعة الشمسية تدور كلها حول الشمس في اتجاه واحد، وفي مستوى واحد تقريباً ما عدا بلوتو، وذلك في مدارات شبه دائرية (إهليلجية) بحيث تقع الشمس في إحدة بؤرتيه.

---

(١) السماء في القرآن الكريم: ٢٨٢ - ٢٩٠ (للدكتور زغلول النجار).

وأبعد نقطة على المدار يصل إليها الكوكب تسمى الأوج، وأقرب نقطة تسمى الحضيض، ومتوسط مجموعهما يمثل متوسط بعد الكوكب عن الشمس، كذلك تزداد سرعة الكوكب بقربه من الشمس وتقل ببعده عنها بحيث يمس الخط الوهمي الواصل بينه وبين الشمس مساحات متساوية في وحدة الزمن. وتقدر المسافة بين الأرض والشمس بنحو المائة والخمسين مليون كيلو متر (١٤٩.٦ مليون كم) وقد اعتبرت هذه المسافة وحدة فلكية دولية واحدة.

وتقدر المسافة بين الشمس وأقرب كواكبها (عطارد) بنحو الثمانية والخمسين مليوناً من الكيلومترات (٥٧.٩ مليون كم) كما تقدر المسافة بين الشمس وأبعد الكواكب المعروفة عنها (بلوتو) بنحو ستة بلايين من الكيلومترات (٥,٥٩١.٣ مليون كم)، ويلي مدار بلوتو إلى الخارج سحابة ضخمة من المذنبات التي تدور حول الشمس في مدارات يقدر بعد بعضها عن الشمس بأربعين ألف وحدة فلكية (أي نحو ستة تريليونات من الكيلومترات)، ومن الممكن وجود مدارات حول الشمس أبعد من ذلك ولكنها لم تكتشف بعد، وإذا كان امتداد المجموعة الشمسية يعبر عنه بأبعد مسافة نعرفها حول الشمس تتم فيها حركة مدارية حول هذا النجم، فإن مدار بلوتو (أو مدار بروسوبينا) لا يمكن أن يعبر عن حدود مجموعتنا الشمسية، وعليه فإننا في زمن التقدم العلمي والتقني المذهل الذي نعيشه لم ندرك بعد الحدود الخارجية لمجموعتنا الشمسية...!!!

◎ مجرة الدرب اللبني (The Milky Way Galaxy):

تنطوي مجموعتنا الشمسية مع حشد هائل من النجوم يقدر بنحو التريليون (مليون مليون) نجم، فيما يعرف باسم مجرة الدرب اللبني (درب اللبانة) على هيئة قرص مفلطح يقدر قطره بنحو المائة ألف سنة ضوئية، ويقدر سمكه بعشر ذلك (أي حوالي العشرة آلاف سنة ضوئية)، وتقع مجموعتنا الشمسية على بعد يقدر بنحو الثلاثين ألف سنة ضوئية من مركزه، وعشرين ألف سنة ضوئية من أقرب أطرافه. وتتجمع النجوم حول مركز المجرة فيما يشبه النواة، وتلتوي الأجزاء الخارجية من قرص المجرة مكونة أذرعاً لولبية تعطي لمجرتنا هيئتها الحلزونية، وترتبط النجوم في مجرتنا (وفي كل مجرة) مع بعضها البعض بقوى الجاذبية، مشكلة نظاماً يتحرك في السماء كجسم واحد؛ وتتجمع النجوم في مجرتنا في أربع مستويات مجرية أو جمهرات نجمية (Stellar populations) على النحو التالي:

◎ ١ - انتفاخ النواة المركزية للمجرة (The Galaxy Nuclear Bulge)

ويوجد حول مركز المجرة بقطر يبلغ ٣٢,٠٠٠ سنة ضوئية محتوياً نواة المجرة (The Galactic Mucleus) التي يبلغ قطرها ١٦ سنة ضوئية، وتتكدس فيه أعداد هائلة من النجوم القديمة تكدساً شديداً مع قليل من الغاز والغبار اللذان يتواجدان عادة بين النجوم.

◎ ٢ - قرص المجرة (The Galactic Disc):

ويتكون من طبقتين:

قرص رقيق بسمك لا يتعدى الألف سنة ضوئية إلا بالقليل (١٠٦٠ سنة ضوئية) أي حوالي ١٪ من سمك المجرة المقدر بأكثر من عشرة آلاف سنة ضوئية، ويمتد إلى مسافة ٥٠,٠٠٠ سنة ضوئية من مركز المجرة إلى كل طرف من أطرافها.

ويحيط به قرص آخر سميك يبلغ سمكه أربعة أضعاف سمك القرص الرقيق (٤٢٣٨ سنة ضوئية من مستوى المجرة) وتقع شمسنا في منتصف أحد أطراف القرص الرقيق تقريباً (على بعد ٢٨,٠٠٠ سنة ضوئية من مركز المجرة). ويحتوي قرص المجرة على نجوم حديثة التكوين نسبياً بالإضافة إلى غازات وغبار ما بين النجوم.

ولما كان للمجرات الشبيهة بمجرتنا أذرع لولبية مكونة اساساً من الغاز الكوني والغبار ومن نجوم صغيرة نسبياً، يتوقع الفلكيون أن يكون لقرص مجرتنا أذرع مشابهة تماماً وذلك لوحدة البناء في الكون المدرك.

◎ ٣ - الهالة الداخلية للمجرة (The Inner Galactic Halo):

وتنتشر حول قرص المجرة بامتداد يصل إلى ١٣٠,٠٠٠ سنة ضوئية من مركز المجرة، وتختلط بقرصها السميك عند اتصالها به، وتشتمل على تجمعات كروية للنجوم (Globular clusters) وعلى العديد من الغازات والأتربة البينيّة للنجوم.

وتشير قراءات المركبة الفضائية المعروفة باسم: «المستكشف الدولي بواسطة الأشعة فوق البنفسجية» [The International Ultraviolet Explorer Spacecraft] (I.U.E.) إلى أن بعض الغازات في هذه الهالة المجرية هي غازات حارة تصل درجة حرارتها إلى مائة ألف درجة مطلقة. وتحتوي الهالة الداخلية للمجرة على عدد من النجوم القديمة نسبياً.

◎ ٤ - الهالة الخارجية للمجرة أو تاج المجرة (The Outer Galactic Halo or the Galactic Corona):

وهي حالة معتمة للمادة في هيئة غير معروفة قد تكون مكونة من أعداد كبيرة من النجوم المنكدرة، أو الثقوب السود، أو كميات مكدسة من النيوترينوات (Neutrinos)، تتركز على مسافات تتراوح بين مائتي ألف وثلاثمائة ألف سنة ضوئية من مركز المجرة مما يزيد في أبعاد مجرتنا من خمسة إلى ستة أضعاف ما كان معروفاً إلى أواخر السبعينيات من القرن العشرين.

ويوجد في تاج مجرتنا من خمسة إلى عشرة أضعاف ما في باقي أجزاء المجرة مجتمعة من كتلة، وهذه الكتل الإضافية الهائلة في مجرتنا توقعتها حسابات الجاذبية وعبرت عنها باسم: «مشكلة الكتل المفقودة» (The Missing Mass Problem)، وقد أدت هذه الحسابات إلى الحقيقة القائمة والتي مؤداها أن ٩٥٪ من كتلة مجرتنا مكون من مواد غير معروفة لنا تماماً وسبحان الذي أنزل من فوق سبع سماوات ومن قبل أربعة عشر قرناً قوله الحق:

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿٤٠﴾﴾[1].

وتنتشر بين النجوم سحب دخانية يغلب على تركيبها غاز الإيدروجين الحامل للغبار على هيئة هباءات متناهية في الدقة من المواد الصلبة مكونة ما يعرف باسم المادة بين النجوم (The Interstellar Matter) التي تمتص ضوء النجوم فتخفيها، ولذلك فإن الراصد لمجرتنا من الأرض لا يرى بوضوح أكثر من ١٥٪ من مجموع مكوناتها إلا باستخدام المقربات (التليسكوبات) الراديوية.

وبالمقارنة بالمجرات الشبيهة يعتقد كثير من الفلكيين بأن قرص مجرتنا يجرّ معه أذرعه اللولبية التي قد ترتفع فوق مستوى النواة، ويعتقدون كذلك بأن السحب الدخانية في تلك الأذرع تتحرك بسرعات تتراوح بين الخمسين والمائة كيلو متر في الثانية، وتتراكم هذه السرعات الخطية على سرعة دوران محورية تقدر بنحو ٢٥٠ كيلو متراً في الثانية دون أن تنفصل أذرع المجرة عن نواتها بسبب التفاوت في سرعة الأجزاء المختلفة منها.

---

(١) سورة الحاقة، الآية: ٣٨ - ٤٠.

وهذا الدوران التفاضلي (التفاوتي) يؤدي إلى تسارع المادة الدخانية بين النجوم، ثم إلى كبح سرعتها مما ينتج عنه تكثيفها بدرجة كبيرة وبالتالي تهيئتها لتخلق النجوم الابتدائية (The Pro-or Proto-stars) التي تتطور إلى ما بعد ذلك من مراحل. ومن نجوم مجرتنا ما هو مفرد، وما هو مزدوج، وما هو عديد الأفراد. وتدور نجوم مجرتنا في حركة يمينية أساسية منتظمة حول مركز المجرة في اتجاه القطر الأصغر لها، مع وجود الدوران التفاوتي لمختلف أجزائها.

◎ ٥ - تجمعات المجرات (Galactic Groups):

ويحصي علماء الفلك في الجزء المدرك من السماء الدنيا مائتي ألف مليون مجرة - على الأقل - بعضها أكبر من مجرتنا كثيراً، وبعضها الآخر أصغر قليلاً، والمجرات عبارة عن تجمعات نجمية مذهلة في أعدادها، يتخللها الدخان الكوني بتركيز متفاوت في داخل المجرة الواحدة، والتي قد تضم عشرات البلايين إلى بلايين البلايين من النجوم.

وتتباين المجرات في أشكالها كما تتباين في أحجامها، وفي شدة إضاءتها، فمنها الحلزوني، والبيضاني (الإهليلجي)، وما هو غير محدد الشكل، ومنها ما هو شديد الإضاءة، وما يبدو على هيئة نقاط باهتة لا تكاد تدرك بأكبر المناظير المقربة (المقاريب)، وتقع أكثر المجرات ضياء في دائرة عظمى تحيط بنا في اتجاه عمودي تقريباً على مستوى مجرتنا

وتبلغ كتلة الغازات في بعض المجرات ما يعادل كتلة ما بها من نجوم وتوابعها، في حين أن كتلة الغبار تقل عن ذلك بكثير، وكثافة الغازات في المجرة تقدر بحوالي ذرة واحدة لكل سنتيمتر مكعب بينما يبلغ ذلك ١٩١٠ ذرات/ سم٣ في الغلاف الغازي للأرض عند سطح البحر.

وتترتب المجرات في مجموعات تتعاظم في الكبر بالتدريج على النحو التالي إلى نهاية لا يعلمها إلا الله الخالق سبحان الله وتعالى:

◎ أ - المجموعة المحلية (The Local Group):

تحشد مجرتنا (درب اللبانة) في مجموعة من أكثر من عشرين مجرة في تجمع يعرف باسم المجموعة المحلية للمجرات (The Local Group of Galaxies) يبلغ قطرها مليون

فرسخ فلكي أي يساوي ٣,٢٦١,٥٠٠ سنة ضوئية «لأن الفرسخ الفلكي الواحد (Astronomical Parsec) يساوي ٣.٢٦١٥ من السنين الضوئية». وتحتوي المجموعة المحلية التي تتبعها مجرتنا على ثلاث مجرات حلزونية، وأربع مجرات غير محددة الشكل، وأعداد من المجرات البيضانية العملاقة والقزمة، وقد تحتوي على عدد أكبر من المجرات الواقعة في ظل مجرتنا ومن هنا تصعب رؤيتها.

◎ ب - الحشود المجرية والحشود المجرية العظمى: (Galactic Clusters and Superclusters)

هناك حشود للمجرات أكبر من المجموعة المحلية من مثل حشد مجرات برج العذراء (The Virgo Cluster of Galaxies) والذي يضم مئات المجرات من مختلف الأنواع، ويبلغ طول قطره مليوني فرسخ فلكي أي أكثر من ستة ملايين ونصف من السنين الضوئية (٦,٥٢٣,٠٠٠ سنة ضوئية)، ويبعد عنا عشرة أضعاف تلك المسافة (أي عشرين مليون فرسخ فلكي). وهذه الحشود المجرية تصدر أشعة سينية بصفة عامة، وتحوي فيما بينها دخاناً توازي كتلته كتلة التجمع المجري، وتتراوح درجة حرارته بين عشرة ملايين ومائة مليون درجة مطلقة.

ويحوي هذا الدخان الإيدروجيني نسباً ضئيلة من هباءات صلبة مكونة من بعض العناصر الثقيلة بما في ذلك الحديد (بنسب تقترب مما هو موجود في شمسنا) وقد يشير ذلك إلى اندفاع تلك العناصر من نجوم متفجرة وصلت فيها عملية الاندماج النووي إلى مرحلة انتاج الحديد (من مثل المستعرات العظمى)

وتحوي بعض الحشود المجرية أعداداً من المجرات قد يصل إلى عشرة آلاف مجرة، ويحصي علماء الفلك آلافاً من تلك الحشود المجرية التي ينادي البعض منهم بتكدسها في حشود أكبر يسمونها باسم الحشود المجرية العظمى (Galactic Superclusters) . وقد أحصى الفلكيون منها أعداداً كبيرة على بعد مليوني سنة ضوئية منا.

ومن المعتقد اليوم أن المجموعة المحلية (The Local Group) التي تنتمي إليها مجرتنا (درب اللبانة)، والحشود المجرية المحيطة بها من مثل حشد مجرات برج العذراء (The Virgo Cluster of Galaxies) تكون تجمعاً أكبر يعرف باسم الحشد المجري المحلي الأعظم (The Local Galactic Supercluster) يضم قرابة المائة من

الحشود المجرية على هيئة قرص واحد يبلغ قطره مائة مليون من السنين الضوئية، ويبلغ سمكه عشر ذلك (أي عشرة ملايين من السنين الضوئية) وهي نفس نسبة سمك مجرتنا (درب اللبانة) إلى طول قطرها، **فسبحان الذي بنى السماء على نمط واحد بهذا الانتظام الدقيق ليشهد له بالوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه.**

وتبدو الحشود المجرية والحشود المجرية العظمى على هيئة كروية تدرس في شرائح مقطعية تكون أبعادها في حدود(١٥٠ × ١٠٠ × ١٥) سنة ضوئية، وأكبر هذه الشرائح ويسمى مجازاً باسم الحائط العظيم (The Great Wall) يزيد طوله على ٢٥٠ مليون سنة ضوئية. وقد تم الكشف أخيراً عن حوالي المائة من الحشود المجرية العظمى التي تكون حشداً أعظم على هيئة قرص يبلغ طول قطره ٢ بليون سنة ضوئية، وسمكه مائتي مليون سنة ضوئية (وهي نفس نسبة سمك كل من مجرتنا إلى طول قطرها، وسمك الحشد المجري المحلي الأعظم الذي تنتمي إليه مجرتنا إلى طول قطره). ويعتقد عدد من الفلكيين المعاصرين بأن في الجزء المدرك من الكون تجمعات أكبر من ذلك.

والنجوم في مختلف تجمعاتها وحشودها، وعلى مختلف هيئاتها ومراحل نموها تمثل أفراناً نووية كونية يخلق الله تعالى فيها مختلف صور المادة والطاقة اللازمة لبناء الجزء المدرك من الكون بعمليات الاندماج النووي بين نوى العناصر الخفيفة كالإيدروجين والهيليوم لإنتاج العناصر الأعلى في وزنها الذري.

وبالإضافة إلى النجوم وتوابعها المختلفة هناك السدم (Nebulae) على تعدد أشكالها وأنواعها، وهناك المادة بين النجوم (The Inter-Stellar Matter) ، وهناك المادة الداكنة (The Dark Matter)، وغير ذلك من مكونات الكون المدرك، المحسوس منها وغير المحسوس من مختلف صور المادة والطاقة المدسوسة في ظلمة الكون.

ويقدر الفلكيون كتلة الجزء المدرك من السماء الدنيا بمائة ضعف كتلة المادة والطاقة المرئية والمحسوسة فيه، بمعنى أننا - في زمن تفجر المعرفة الذي نعيشه - لا ندرك إلا عشرة في المائة فقط من الجزء الذي وصل إليه علمنا من السماء الدنيا، **وسبحان الذي أنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة قوله عز وجل:** ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[١].

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.

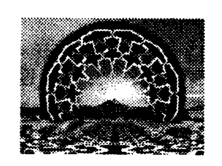
وقوله عز وجل:

﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾(١).

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾(٢).

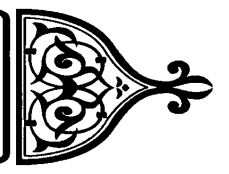
ومن هنا تتضح أهمية القسم بالسماء وما بناها في الآية الخامسة من سورة الشمس، هذا القسم التفخيمي الذي جاء تعظيماً لشأن السماء وتقديساً لخالقها سبحان الله تعالى، وتنبيهاً لنا للتفكر في عظم اتساعها، ودقة بنائها، وانضباط حركتها، وإحكام كل أمر من أمورها، وغير ذلك من جوانب الإعجاز في خلقها، وإشارة ذلك كله إلى شيء من صفات خالقها، وبارئها، ومصورها، والممسك بها وحافظها من أن تقع على الأرض أو أن تزول إلا بإذنه، وهي قضايا لم يدركها الإنسان بشيء من التفصيل إلا منذ عشرات قليلة من السنين، وورود القسم بها في كتاب الله، مما يشهد للقرآن الكريم بأنه كلام الله الخالق، ويشهد لخاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ بأنه كان موصولاً بالوحي ومعلماً من قبل خالق السمٰوات والأرض

وذلك مما يزيد المؤمنين تثبيتاً على إيمانهم، ويدعو غيرهم من المشركين والكفار إلى الإيمان بالله الخالق، وطاعته وعبادته وحده بغير شريك ولا شبيه ولا منازع، ففي ذلك النجاة والنجاح في الدنيا والآخرة، ولا نجاة ولا نجاح في غير ذلك. ولما كانت السماء شاسعة الاتساع، دقيقة البناء، ومنضبطة الحركة فهي شاهدة على عظمة الله خالقها وخالق كل شيء سبحان الله تعالى...!!!

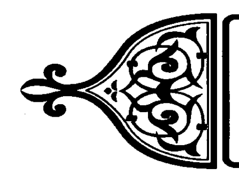


(١) سورة غافر، الآية: ٥٧.

(٢) سورة الحاقة، الآيتان: ٣٨، ٣٩.



تحديد مواقع نجوم السماء[1]



نظراً لتعاظم أبعاد مواقع النجوم عنا، كان لا بد من وضع نظام مساحي يمكن بواسطته تحديد تلك المواقع على **القبة السماوية** باستخدام مجموعة إحداثيات مشابهة لتلك الإحداثيات الموظفة في المساحة الأرضية، وذلك بإسقاطها على القبة السماوية، فكما أن هناك خط استواء للأرض تم اقتراح خط إستواء للقبة السماوية، ينطبق على خط الاستواء الأرضي ويقع فوقه بارتفاع هائل، وكما أن هناك قطبين للأرض شمالي وجنوبي تم اقتراح قطبين مماثلين للقبة السماوية يقعان على امتداد محور دوران الأرض، وكما أن هناك خطوط طول وخطوط عرض للأرض تبدأ من خط طول أساسي ومن خط الاستواء (على التوالي) تم اقتراح خطوط مماثلة للقبة السماوية، وبواسطة تلك الخطوط يمكن تحديد مواقع النجوم.

ولما كانت الأرض تدور حول محورها من الغرب إلى الشرق دورة كاملة كل ٢٤ ساعة تقريباً (كل ٢٣ ساعة، ٥٦ دقيقة) فإن كلاً من النجوم وإحداثيات القبة السماوية تبدو بالنسبة لراصد من الأرض وكأنها هي التي تدور من الشرق إلى الغرب بنفس المعدل في نفس الفترة الزمنية.

وبينما النجوم ثابتة في مواقعها من السماء الدنيا ثباتاً نسبياً لتعاظم أبعادها عنا، والشمس تبدو لنا وكأنها تجري على مقربة نسبية منا (مائة وخمسين مليون كيلو متر)، فإن مواقع الشمس تظهر للراصد الأرضي متحركة حركة ظاهرية في صفحة السماء، ويسمى مدار الشمس السنوي الظاهري على القبة السماوية (أي ممر مواقع الشمس في قبة السماء بالنسبة إلى النجوم البعيدة عنا) باسم دائرة البروج (The Zodiac or The Ecliptic) وهي دائرة تميل بمقدار (٢٣° ٢٧َ) على خط الاستواء السماوي، وتتقاطع الدائرتان في نقطتي الاعتدالين الربيعي والخريفي في نصف الكرة الشمالي (في حوالي

---

(١) السماء في القرآن ص٣٢٦ - ٣٣٤ (للدكتور زغلول النجار).

٢١ من مارس، ٢٣ من سبتمبر على التوالي) وفي هذين الاعتدالين يتساوى طول كل من الليل والنهار.

وفي حوالي ٢١/٦، و٢١/١٢ من كل عام تصل الشمس إلى أقرب نقطتين إلى الشمال وإلى الجنوب (على التوالي) وهما بدايتا كل من الصيف والشتاء (على التوالي أيضاً) وتسميان نقطتي الانقلاب الصيفي والشتوي، وتحسب إحداثيات السماء باستخدام دوائر الساعة، وهي دوائر عظمى تمر بأقطاب القبة السماوية وتقطع خط استوائها عمودياً، وحيث أن الأرض تتم دورتها حول محورها في أربع وعشرين ساعة تقريباً، فإن كل ساعة تساوي خمس عشرة درجة (٣٦٠ درجة ÷ ٢٤ ساعة = ١٥ درجة)، وتقسم الدرجة إلى ستين دقيقة، وتقسم الدقيقة إلى ستين ثانية، وتشرق نجوم السماء وتغرب بزوايا على أفق السماء كما تشرق الشمس وتغرب بزوايا على أفق الأرض.

◎ (البروج) في علوم الفلك

البروج هي تجمعات للنجوم البعيدة عنا، تصورها الناس منذ القدم على هيئة أشكال معينة كوسيلة من وسائل التعرف المبدئي عليها، والتمييز بينها، وأعطوا لهذه الأشكال أسماء محددة، تباينت من دولة لأخرى، ومن حضارة إلى حضارة، ولكنها أجمعت كلها على تقسيم الحزام المحيط بوسط الكرة السماوية إلى اثني عشر برجاً بعدد شهور السنة، من مثل (برج الحمل) الذي يبدأ في الظهور في حدود الحادي والعشرين من شهر مارس، ثم (برج الثور) في حدود الحادي والعشرين من شهر أبريل، وهكذا لكل شهر زمني برج من هذه الأبراج بالترتيب التالي: **الحمل، الثور، الأسد، الجوزاء، السرطان، العذراء (السنبلة)، الميزان، العقرب، القوس، الجدي، الدلو، الحوت.**

وتسمى هذه باسم كوكبات حزام البروج (Zodiacal Constellations). وهي تشكل شريطاً ممتداً على جانبي خلفية مدار الأرض حول الشمس، بامتداد تسع درجات على كل من جانبيه، ويقسم إلى اثنتي عشرة منطقة أساسية يشغل كل منها حوالي ٣٠ درجة من درجات خطوط الطول السماوية بزيادة أو بنقص قليل في كل منطقة.

وتمثل هذه البروج الخلفية النجمية التي تجري عبرها المجموعة الشمسية على صفحة السماء خلال السنة الشمسية، وهذه البروج غير متساوية تماماً في الطول، ولا في تاريخ بداياتها، فبرج الحمل مثلاً لا يمثل نقطة بداية الاعتدال الربيعي التي تحدث

حول الحادي والعشرين من مارس في كل عام. ومن المعروف: أن الدائرة المتوسطة لحزام البروج تميل على خط الاستواء السماوي بمعدل ثلاث وعشرين درجة ونصف تقريباً (٢٧َ °٢٣) وتعرف هذه الدائرة: باسم دائرة البروج (The Zodiac or the Ecliptic) وتتقاطع مع دائرة خط الاستواء في نقطتين: الأولى هي نقطة الاعتدال الربيعي، والثانية هي نقطة الاعتدال الخريفي.

والإنسان يمكنه من فوق سطح الأرض أن يرى بالعين المجردة حوالي ستة آلاف نجم في الأجواء الصافية، ومنذ القدم حاول الإنسان التعرف على تلك النجوم، ووصفها وتسميتها أو ترقيمها، ومعرفة موعد ظهورها، وحاول رسم خرائط للسماء بواسطتها وقد سجل ذلك في أغلب الحضارات القديمة من مثل الحضارات المصرية، والكلدانية والفارسية، والهندية والصينية، والإغريقية والرومانية وغيرها. وكان أول ما فعله هؤلاء هو تقسيم النجوم التي ترى من فوق سطح الأرض في القبة السماوية بقسميها الشمالي والجنوبي في زمن واحد إلى نطق يتميز كل منها بتجمع خاص من تجمعات النجوم عرفت باسم البروج أو التجمعات النجمية (Constellations)، وتركز ذلك في بادئ الأمر على التجمعات النجمية حول خط الاستواء الوهمي للقبة السماوية، وهي أيسر ما يرى بالعين المجردة من فوق سطح الأرض، وقد قُسِّمت تلك التجمعات النجمية إلى نطق محددة، يتميز كل منها بتجمع خاص من تجمعات النجوم عرفت باسم (البروج)، وسمي كل منها باسم خاص، وتعددت حولها الأسماء، وحيكت الخرافات والأساطير خاصة في ظل الوثنيات القديمة والحديثة.

وحقيقة هذه التجمعات النجمية (البروج)، أنها مساحات محددة من السماء الدنيا، يحوي كل منها في كل فترة زمنية محددة أعداداً من النجوم التي تبدو لنا متقاربة مع بعضها البعض رغم المسافات الشاسعة التي تفصلها نظراً لبعدها الشاسع عنا، ولوجودها في اتجاهات محددة، بالنسبة لنا، وهذه النجوم التي تبدو لنا من الأرض في نفس الاتجاه، قد تكون في مجموعات نجمية متفرقة تفرقاً بعيداً وليست في مجموعة واحدة.

وتبدو هذه التجمعات النجمية وكأنها تتحرك حركة ظاهرية بطيئة في صفحة السماء من الشرق إلى الغرب تماثل الحركة الظاهرية للشمس في جريانها، وتقابل حركة دوران الأرض من الغرب إلى الشرق، فتبدو لنا النجوم وكأنها تشرق من الشرق وتغرب في

الغرب، سواء في ذلك النجوم البطيئة (الثوابت) أو النجوم السيارة السريعة. لأن كل التجمعات النجمية ترى بتلك الهيئة في الحركة[١].

◎ من محاولات الإنسان لرصد نجوم السماء

في سنة ١٥٠م نشر أحد أبناء صعيد مصر وأحد تلامذة مدرسة الاسكندرية واسمه: بطليموس الفلوزي الاسكندري كتابه المسمى: باسم المجسطي (Almagest) الذي وصف فيه حوالي ٤٨ كوكبة من كوكبات السماء.

وبين القرنين الثامن والسادس عشر قام علماء المسلمين بنقد وتصحيح العلوم الفلكية التي وجدوها في الحضارات السابقة عليهم، وأضافوا إليها إضافات جوهرية عديدة كان أهمها تحويل علم الفلك من الحيز النظري المليء بالخرافات والأساطير إلى الحيز العملي التطبيقي، وطهروه من أدران التنجيم والشعوذة، وجعلوه علماً استقرائياً يعتمد على الملاحظة الحسية، والمقاييس العلمية، والحسابات الرياضية والهندسية، فعرفوا منازل الشمس بالنسبة للبروج، وقسموها إلى أربعة منازل تمثل فصول السنة: الربيع، والصيف، والخريف، والشتاء، وخصصوا لكل منزل ثلاثة بروج: (الحمل والثور والجوزاء) **للربيع** (السرطان والأسد والعذراء أو السنبلة) **للصيف**، و (الميزان والعقرب والقوس) **للخريف**، و(الجدي والدلو والحوت) **للشتاء**

والكثير من النجوم والبروج لا تزال تحمل أسماء عربية من مثل: سهيل، والجوزاء، والدب الأكبر، والدب الأصغر، والنسر الواقع، والنسر الطائر، والغول، وبيت الجوز، وغيرها، وكثير من التعبيرات الفلكية من مثل المجرة والسمت وغيرها هي تعبيرات عربية أصيلة. وكثير من الأجهزة الفلكية من مثل: البوصلة والمزولة، والاسطرلاب والمراصد كانت إبتكارات عربية خالصة

في سنة ١٦٠٣ م قام أليكسندر مير (Alexander Mair) بنقش فلك المجموعات النجمية في مرسمه للسماء، وأضاف اثنتي عشرة كوكبة جديدة إلى ما كان قد ذكره بطليموس. وفي سنة ١٦٦٤ م أضاف جاكوب بارتش (Jocob Bartsch) ثلاث كوكبات أخرى، وأضاف نيكولاس لويز (Nicolas Louis) كوكبة جديدة في نفس الفترة تقريباً، ثم أضاف ١٤ كوكبة أخرى بعد ذلك بسنوات قليلة.

(١) السماء في القرآن ٣٢٩ - ٣٣٠.

في سنة ١٦٩٠ م أضاف جوهان هيفيليوس (Johannes Hevelius) تسعة كوكبات جنوبية جديدة، وأصبح عدد الكوكبات المعروفة الآن ثمانية وثمانين كوكبة، يختلف ظهورها في السماء باختلاف خطوط العرض الأرضية، وباختلاف الفصول المناخية (أي باختلاف موقع الأرض في مدارها حول الشمس على مدار السنة)، وعلى ذلك فإن هناك كوكبات للصيف، وكوكبات للربيع، وكوكبات للخريف، وكوكبات للشتاء مع بعض التداخلات الزمانية والمكانية.

وفي سنة ١٩٢٨ م وافق الاتحاد الفلكي الدولي على تقسيم الكرة السماوية بنصفيها الشمالي والجنوبي إلى ثمان وثمانين مجموعة نجمية (كوكبة)، بحيث يمكن نسبة أي نجم في السماء إلى أي من هذه الكوكبات التي قد تختلف أسماؤها من بلد إلى آخر.

وكل كوكبة من هذه الكوكبات (أي كل برج من هذه البروج) تبدو لنا ثابتة لتعاظم بعدها عنا، كما تبدو لنا متقاربة حتى لتوحي لنا باتصالها فتعطي هيئة معينة، أو شكلاً محدداً، وقد أعطى كل منها اسماً معيناً يتفق مع الشكل أو الهيئة المستوحاة من تقارب نجومه. وفي المنظور الفلكي يعتبر البرج أو الكوكبة منطقة على الكرة السماوية تظهر بها مواقع للنجوم يعطي تقاربها إيحاء بالشكل أو الهيئة المستوحاة من هذا التقارب

وحسب موقعها بالنسبة لخط الاستواء الوهمي للقبة السماوية يمكن التمييز بين كوكبات نصف الكرة السماوية الشمالي (الكوكبات الشمالية)، وكوكبات المنطقة الاستوائية السماوية (كوكبات دائرة البروج)، وكوكبات نصف الكرة السماوية الجنوبي (الكوكبات الجنوبية)

ولما كانت الشمس في حركتها السنوية الظاهرية على البروج دائمة الانتقال إلى مناطق مختلفة من السماء، فإن الكوكبات التي ترى بعد غروب الشمس تتغير دورياً مع فصول السنة، وبذلك يمكننا أن نميز بين كوكبات صيفية (مثل السلياق والعقاب)، وكوكبات شتوية (مثل الجبار والكلب الأكبر).

ولا يدل الانتظام الظاهري لأفراد الكوكبة عند رؤيتها من الأرض على أنها تكون وحدة حقيقية في صفحة السماء الدنيا، فقد تكون هذه المواقع النجمية بعيدة جداً عن بعضها البعض، ولكنها تظهر لنا متقاربة لتعاظم أبعادها عنا، ولوقوعها في نفس الاتجاه بالنسبة للناظر إليها من فوق سطح الأرض، وترى تلك المواقع النجمية متساوية اللمعان تقريباً لتباين أبعادها عنا. ومع دوران الأرض حول محورها أمام الشمس يشاهد الراصد

الليلي تلك النجوم في حركتها الظاهرية ساعة بعد أخرى من مواقع مختلفة على سطح الأرض، أما في سبح الأرض عبر حركتها الانتقالية في مدارها حول الشمس فإن الراصد الليلي يشاهد مجموعات مختلفة من كوكبات النجوم في مواقع مختلفة من القبة السماوية حسب كل من موقع الراصد من الأرض وموقع الأرض في مدارها في كل شهر من شهور السنة.

◎ أهمية بروج السماء

البروج (أو الكوكبات) هي تجمعات للنجوم، وقد فَصَّل القرآن الكريم فوائد النجوم في كونها علامات يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، وزينة للسماء الدنيا، ورجوماً للشياطين، ومصدراً من مصادر الرزق في السماء، وجنداً مسخرة للإمساك بأطراف السماء الدنيا بما وهبها الله تعالى من قوى الترابط والتماسك والتجاذب وذلك على النحو التالي:

◎ البروج كوسيلة للاهتداء في ظلمات البر والبحر

يقول ربنا سبحان الله وتعالى في محكم كتابه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[1].

ومن معاني هذه الآية الكريمة أن الخالق سبحانه وتعالى رتب النجوم في مجموعات من الكوكبات (البروج) التي يمكن بواسطتها تحديد الاتجاهات الأربعة الأصلية لأهل الأرض كما هو الحال مع النجم القطبي الذي يستخدم في تحديد الشمال الحقيقي ولذلك يعرف باسم **نجم القطبية**، أو نجم الجدي، أو كوكبة الشمال، أو «مسمار الفلك» كما يحلو لعدد من الفلكيين أن يسموه (Polaris, Pole Star or Polar Star) وهو نجم ثلاثي من العماليق العظام ويعتبر ألمع نجم في كوكبة الدب الأصغر، يبعد عنا مسافة ٦٥٠ سنة ضوئية، ويقدر قطره بمائة مرة قدر قطر الشمس، وتقدر قوة إشعاعه بخمسة آلاف ضعف إشعاع الشمس، وقد أعطي هذا الاسم لقربه الشديد من قطب السماء الشمالي (الذي لا يبعد عنه إلا بأقل من درجة واحدة)، وتبلغ دورته حول محوره حوالي أربعة أيام (٣.٩٧ يوم) ولذلك فإنه يصنع دائرة صغيرة جداً حول القطب الشمالي

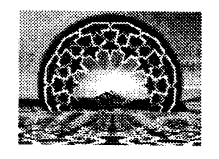
---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٩٧.

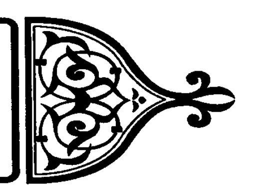
لقبة السماء خلال الدوران اليومي الظاهري لها، ومن هنا كان دوره في تحديد اتجاه الشمال الحقيقي.

ونظراً لدوران الأرض حول محورها من الغرب إلى الشرق فإن القبة السماوية تبدو وكأنها تدور من الشرق إلى الغرب في حركة ظاهرية بكافة نجومها فيما عدا النجم القطبي الذي وضعه الخالق سبحانه وتعالى على الامتداد الشمالي لمحور دوران الأرض فيبدو لنا ساكناً، ويحدد بموقعه اتجاه الشمال الحقيقي، ومن ثم يعين على تحديد الجهات الأربع الأصلية على الأرض وفي صفحة السماء مما يساعد على التوجه الصحيح في ظلمات البر والبحر، وفي تحديد إتجاه القبلة، وفي تحديد غيرها من المواقع والاتجاهات على سطح الأرض وفي صفحة السماء.

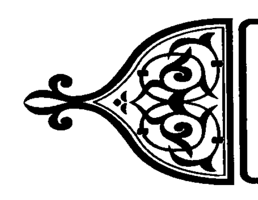
ويحدد موقع النجم القطبي في قبة السماء بواسطة العربة الكبرى (المغرفة) في كوكبة الدب الأكبر وذلك بمد الخط الواصل بين خلفيتي العربة الكبرى (أي الدليلتين اللتين تسبقان في أثناء الحركة اليومية الظاهرية) حوالي خمس مرات قدر المسافة بينهما، ولولا وجود النجم القطبي ما استطاع الإنسان تحديد الاتجاهات الأربعة الأساسية ولا استطاع التوجه في ظلمات البر والبحر أبداً[1].



(١) السماء في القرآن الكريم: ٣٣١ - ٣٣٤.



الشمس ومجموعتها الشمسية



تتراوح المسافة بين الشمس والكواكب السيارة المرتبطة بها والدائرة في فلكها بين٥٨ مليون كيلو متر وأكثر من٦٠٠٠ مليون كيلو متر. وتختلف الظروف الطبيعية على الكواكب في مجموعتنا الشمسية تبعاً لقربها من الشمس أو بعدها عنها، وتبعاً لحجم كل منها، وبالتالي حجم الغلاف الغازي المحيط بها.

والكواكب - في مجموعها - تدور حول الشمس في أفلاك شبه دائرية في الاتجاه نفسه، وهي في مساراتها تلك تختلف المسافة بين كل منها والشمس، كما تختلف سرعة جري الكوكب الواحد باختلاف بعده عن الشمس، فتصل سرعة الكوكب أقصاها وهو أقرب ما يكون من الشمس، وتقل بالتدريج بابتعاده عنها حتى تصل سرعته أدناها وهو أبعد ما يكون عن الشمس.

وحركات الكواكب حول الشمس يحكمها توازن دقيق بين قوتين متضادتين هما قوة جذب الشمس للكوكب، والقوة الطاردة المركزية الناشئة عن دوران الكوكب حول الشمس، والتعادل الدقيق بين هاتين القوتين هو الذي حدد للكواكب أفلاكها الثابتة، وحدد جريها فيها وحفظها من الانطلاق إلى فسحة الكون أو السقوط في سعير الشمس، وذلك كله بتقدير من الخالق الحكيم الخبير سبحان الله وتعالى.

والكواكب في الوقت نفسه تتجاذب فيما بينها تجاذباً أقل من جذب الشمس لكل منها مما يعين على احتفاظها بأبعادها الثابتة فيما بينها. والنهار والليل يتعاقبان على كل كوكب في مجموعتنا الشمسية، ويتم ذلك في مدد متفاوتة تفاوتاً كبيراً لاعتماده على حجم وكتلة الكوكب، وعلى سرعة دورانه حول محوره. وكذلك تتفاوت سنة كل كوكب بتفاوت بعده عن الشمس، وبتفاوت سرعة جريه في مداره حولها حتى يتم دورة كاملة.

وبدوران الأرض حول محورها تتم الحركة الظاهرية لكل من الشمس والقمر

والنجوم والكواكب التي تتراءى لنا عبر السماء. وتتتابع الفصول على أرضنا بسبب ميل محور الأرض في دورانها حول الشمس(١).

◎ والسماء ذات الحبك

● **كتاب الغارات: لإبراهيم الثقفيّ، بإسناده عن أبي عمران الكنديّ قال: سأل ابن الكوّاء أمير المؤمنين عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾.**

قال: ذات الخلق الحسن.

قال: فما المجرَّة.

قال: يا ويلك سل تفقّهاً ولا تسأل تعنّتاً! يا ويلك سل عمّا يعنيك.

قال: فوالله إنّ ما سألتك عنه ليعنيني!

قال: إنّها شجر السماء، ومنها فتحت السماء بماء منهمر زمن الغرق على قوم نوح عليه السلام.

قال: فكم بين السماء والأرض؟

قال: مدّ البصر ودعوة بذكر الله فيسمع لا نقول غير ذلك(٢).

● **الغارات: بإسناده عن ابن نباته، قال: سئل أمير المؤمنين عليه السلام: كم بين السماء والأرض؟**

قال: مدّ البصر ودعوة المظلوم.

وسئل: كم بين المشرق والمغرب؟

قال: يوم طراد الشمس(٣).

---

(١) السماء في القرآن الكريم: ٤٤٤.

(٢) البحار ج٥٥ ص٩٢ - ٩٣، ح١٣.

(٣) يوم طراد» أي تامّ، أو قصير، أو يوم يجري فيه الشمس. قال في القاموس: الطريد من الأيّام الطويل كالطراد، والطريدان: الليل والنهار، وككتاب رمح قصير، ومطاردة الأقران حمل بعضهم على بعض وهم فرسان الطراد، واطّرد الأمر تبع بعضه بعضاً وجرى (انتهى).
واعلم أنّ الحكماء اختلفوا في المجرّة فقيل: احتراق حدث من الشّمس في تلك الدائرة في بعض الأزمان السالفة. وأورد عليه أنّه مخالف لقواعدهم الّتي منها عدم كون الشمس موصوفة بالحرارة والإحراق، ومنها عدم كون الفلك قابلاً للتأثّر. وقيل: بخار دخانيّ واقع في الهواء، وأورد عليه بأنّه لو كان كذلك لكان يختلف في الصيف والشتاء. وقيل: هي كواكب صغار متقاربة متشابكة لا تمايز حسّاً بل هي لشدّة تكاثفها وصغرها صارت كأنّها لطخات سحابيّة وهذا أقرب الوجوه.

وسئل عن المجرّة.

فقال: أبواب السماء فتحها الله على قوم نوح ثمّ أغلقها فلم يفتحها.

وسئل عن القوس فقال: أمان الأرض كلّها من الغرق إذا رأوا ذلك في السماء[١] (الخبر).

● النهج: قال عليه السلام: **اللّهم ربّ السقف المرفوع، والجوّ المكفوف، الّذي جعلته مغيضاً للّيل والنهار، ومجرًى للشمس والقمر، ومختلفاً للنجوم السيّارة، وجعلت سكّانه سبطاً من ملائكتك، لا يسأمون من عبادتك، وربّ هذه الأرض الّتي جعلتها قراراً للأنام، ومدرجاً للهوامّ والأنعام، وما لا يحصى ممّا يرى وممّا لا يرى، وربّ الجبال الرواسي الّتي جعلتها للأرض أوتاداً، وللخلق اعتماداً[٢].**

ومن كل ذلك يستطيع القارىء والباحث وطالب الحقيقة أن يلتقط الكثير من المعلومات والمفاجآت العلمية السابقة للعصر والعلم.

فإذا تجاوزنا القليل مما عرفه العلم عن السماء والسماوات، وجدنا الكثير الكثير مما لم يعرفه العلم، بل ذهب يتخبط في فهمه واستنتاجاته حولها. من هنا تكون للمعلومات واللمحات والإشارات التي بثها الرسول الأعظم وآل بيته الكرام عليهم السلام هنا وهناك قيمة عليا قيمة سامية، وتبقى الرموز والأرقام واللمحات للراسخين في العلم أو تبقى للزمن الآتي.

فقد تحدثوا عن أعماق السماء وأبعادها السحيقة في وقت كان الناس يتصورون أن السماء سقف قريب مُرصّع بالمسامير أو الأضواء ووصفوها بالبحر وهي فعلاً كالبحر شكلاً وهيئة، ووصفوا المسافات بينها، بين الأولى والثانية والثالثة بمئات السنين (خمسمائة سنة) (لعلها بالسنين الضوئية) ووصفوها بالموج المكفوف والسقف المحفوظ ونحن نعلم اليوم أن هذه السماء التي تضللنا حالة ثابتة من العلو لا يؤثر فيها مؤثر محفوظة بما أودع الله فيها من قوة ومنعة وحافظة في الوقت نفسه الأرض من مختلف الإشعاعات القاتلة والمؤذية.

ثم تحدثوا أنها ذات الحبك وتعنى الطرق والدروب الكثيرة وفي الوقت نفسه ذات الجمال والكمال والخلق البديع.

---

(١) البحار ج٥٥ ص٩٣، ح١٤.

(٢) النهج: ج١، ص٣١٨، ٣١٩.

● **ولعلّ من أروع الأجوبة لعمق السماء وامتداداتها، ما أجاب الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام حين سُئل: كم بين السماء والأرض؟**

فقال: مدّ البصر ودعوة بذكر الله.

وفي مكان آخر: مدّ البصر ودعوة المظلوم.

والحقيقة العلمية اليوم أنّ السماء هي مدّ البصر وليست تلك الأجسام البلّورية التي تحيط بالأرض، كما كان يقول اليونانيون والحكماء: إن هذه السماء هي هذا الخلاء المحدود والذي يمتد بامتداد البصر، وهذا عين ما قال به الإمام علي عليه السلام، فهو جواب علمي دقيق وإن كان مجملاً ليس فيه تفصيل.

وما أروع التعبر الأدبي الذي صرّح به الإمام علي عليه السلام حين قال: **(دعوة بذكر الله)** أو **(دعوة المظلوم)**، إنها فعلاً دعوة من الأرض إلى السماء قاطعة مسافات ومسافات لا نعرف مداها، ذكرها الإمام علي عليه السلام بأجمالها، ولم يستطع أن يعترض أحد على هذا الوصف أو التشبيه فهو لم يصدر من إنسان عادي، بل من باب مدينة العلم.

من هنا يتبين لنا ومن خلال الروايات الشريفة المعاني المختلفة للسماء، والتي أعطت لنا صورة واضحة لهذه المعاني من خلال نقل هذه الأحاديث والروايات.

◎ بحث في موضوع العرش والكرسي

لقد تحدثنا عن السماء في القرآن وعند أهل البيت عليهم السلام، وإكمالاً لموضوع السماء، نرى من المناسب، أن نستعرض مسألة العرش والكرسي فهما، على ما يبدو - لهما علاقة بالسماء.

وقد وردت كلمات (العرش والكرسي) في عدد من الآيات القرآنية الكريمة، فورد (العرش) في عدد من الآيات، وورد الكرسي في آية واحدة، والبحث في مضامين هاتين الكلمتين ليس سهلاً، فكل الذين بحثوا فيهما لم يصلوا إلى نتائج قطعية، وإنما هي احتمالات واستنتاجات، والمضمون الحقيقي المعنى القطعي هو عند الله، وليس للإنسان - في مثل هذه الأمور - سوى الاجتهاد إلى أقصى حدود الإمكان والباقي لله عزّ وجلّ، فهو أعرف بكلماته ومعانيها.

وفي هذا الجزء من الموضوع لا نريد أن نقدّم نتائج حاسمة في معاني العرش

والكرسي، وإنما هو استعراض الآيات والروايات وبعض الآراء والأفكار التي تحدثت عن معاني هاتين الكلمتين لتتوافر للقارىء صورة إجمالية واضحة على الأقل.

● **النهج: عن نوف البكاليّ عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال في خطبة: فمن شواهد خلقه خلق السماوات موطّدات بلا عمد، قائمات بلا سند، دعاهنّ فأجبن طائعات مذعنات، غير متلكّئات ولا مبطئات، ولولا إقرارهنّ له بالربوبيّة، وإذعانهنّ بالطواعية لما جعلهنّ موضعاً لعرشه، ولا مسكناً لملائكته، ولا مصعداً للكلم الطيّب والعمل الصالح من خلقه، جعل نجومها أعلاماً يستدلّ بها الحيران، في مختلف فجاج الأقطار، لم يمنع ضوء نورها ادلهمام سجف الليل المظلم، ولا استطاعت جلابيب سواد الحنادس أن تردّ ما شاع في السماوات من تلألؤ نور القمر**[1].

● وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام في خطبة مروية عنه في نهج البلاغة، والاحتجاج والبحار، وغيرها، عند توصيفه خلق الأرض: «**وأرساها على غير قرار، وأقامها بغير قوائم، ورفعها بغير دعائم**»[2].

● وقال الإمام علي عليه السلام: «**خلق السماوات والأرض موطّدات بلا عمد، قائمات بلا سند**»[3].

◎ منزلة الأرض عند الناس

مهما قلنا في السماء، وفي شمولها، وإن السماء هي الكون أجمع، فلن ينفعنا هذا، نحن بني الناس، ومساكننا على هذه الأرض، فمن تربة هذه الأرض، ومن هوائها، خرجت أجسامنا، وبظواهر هذه الأرض اشتغلت عقولنا، ومن الأرض كسبنا ما كسبنا من تجارب، وحصلنا ما حصلنا من معارف، فالوثبة التي نثبها، لنتعرف على السماء وهي الأعظم والأضخم لا بد أن تبدأ من ظهر هذه الأرض. فالإنسان، هو عند نفسه، مركز هذا الوجود، والأرض هي عنده المحور الذي يدور حوله الكون، تدور حوله قبة هذه السماء[4].

(١) النهج: ج١، ص٣٣٩، ٣٢٠، البحار ج٥٥ ص٩٥ - ٩٦، ح١٧.
(٢) بحار الأنوار: ٥٤/ ٣٠.
(٣) بحار الأنوار: ٥٥/ ٩٦.
(٤) مع الله في السماء: ٢٥.

● المتهجد: في تعقيب صلاة أمير المؤمنين عليه السلام: وأسألك باسمك الّذي أجريت به الفلك، فجعلته معالم شمسك وقمرك، وكتبت اسمك عليه[١].

وعن علي عليه السلام قال: اسم السماء الدنيا رفيع، واسم السابعة الضراح[٢].

● وعن حبّة العرنيّ قال: سمعت علياً عليه السلام ذات يوم يحلف: والّذي خلق السماء من دخان وماء[٣].

وعن عليّ عليه السلام قال: هي السماء السابعة[٤].

● وعن أبي الطفيل أنّ ابن الكوّاء سأل أمير المؤمنين علياً عليه السلام عن المجرّة فقال: هي شجر السماء، ومنها فتحت أبواب السماء بماء منهمر، ثمّ قرأ: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾[٥].

● وعن عليّ عليه السلام قال: السقف المرفوع السماء، والبحر المسجور بحر في السماء تحت العرش[٦].

● الدر المنثور: عن عليّ عليه السلام في قوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ﴾.

قال: في الكواكب تكنّس بالليل وتخنّس بالنهار فلا ترى[٧].

● وعن عليّ عليه السلام في قوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ﴾.

قال: خمسة أنجم: زحل، وعطارد، والمشتري، وبهرام، والزهرة، ليس في الكواكب شيء يقطع المجرّة غيرها[٨].

● عن سهل بن زياد جميعاً، عن محمّد بن عيسى، عن يونس، عن أبي الصباح الكنانيّ، عن الأصبغ بن نباتة، قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: إنّ للشمس ثلاثمائة وستّين برجاً، كلّ برج منها مثل جزيرة من جزائر العرب فتنزل كلّ يوم على برج منها فإذا غابت انتهت إلى حدّ بطنان العرش، فلم تزل ساجدة إلى الغد، ثمّ تردّ إلى موضع

---

(١) البحار ج٥٥ ص١٠٢، ح٢٤.
(٢) الدر المنثور ج١ ص٤٤، البحار ج٥٥ ص١٠٤، ح٣٢.
(٣) الدر المنثور ج١ ص٤٤، البحار ج٥٥ ص١٠٤، ح٣٥.
(٤) الدر المنثور: ج٤ ، ص١١٢، البحار ج٥٥ ص١٠٦، ح٤٦.
(٥) الدر المنثور: ج٤، ص١٣٢، البحار ج٥٥ ص١٠٦، ح٤٨. سورة القمر، الآية: ١١.
(٦) الدر المنثور: ج٤، ١١٨. البحار ج٥٥ ص١٠٧، ح٥٤.
(٧) الدر المنثور: ج٤، ص٣٢٠. البحار ج٥٥ ص١٠٦، ح٥٥.
(٨) الدر المنثور: ج٤، ص٣٢٠، البحار ج٥٥ ص١٠٨، ح٥٦.

مطلعها ومعها ملكان يهتفان معها، وإنّ وجهها لأهل السماء وقفاها لأهل الأرض، ولو كان وجهها لأهل الأرض لأحرقت الأرض ومن عليها من شدّة حرّها. ومعنى سجودها ما قال سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾[1].

إن الله سبحانه وتعالى خلق الشمس والقمر، وجعل لكل منهما فائدة جمة، وفائدة أحدهما تختلف عن الأخرى، بسبب طبيعة تكوينهما وإن المتعارف عليه عند الإنسان أن هوية النهار هي الشمس وهوية الليل هو القمر ولكل منهما حركة ذاتية وإن أي اختلاف في حركتهما ستؤدي إلى يوم لا نعلم ماذا جرى وما هي المعالم الجديدة؟

يدل الشكل المسطح للقرص على أن درب التبانة، كما تم شرحها سابقاً، تدور وهذا الدوران جعل السديم الشمسي مسطحاً، فقد قاس علماء الفلك ذلك الدوران، ووجدوا أنّ الشمس والنجوم المجاورة، تدور حول درب التبانة بسرعة تقارب ٢٢٠كم في الثانية، قال تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[2].

وهذا يعني أن القرص يدور بقربنا دورة كاملة كل ٢٤٠ مليون سنة تقريباً، ولتصوير هذا الامتداد الزمني الهائل، نذكر أن مجرتنا قد أتمت حوالي ربع دورة فقط منذ اندثار الديناصورات قبل ٦٥ مليون سنة[3].

إن من شأن هذه النتائج، إضافة إلى القوانين الفيزيائية، أن تساعد الفلكين على إدراك بنية درب التبانة، فمثلاً ووفقاً لقوانين نيوتن في الحركة، لا بدّ من وجود قوة ما، تحرف حركة الشمس والنجوم الأخرى، لتدور في أفلاك حول مركز درب التبانة، ويوفّر تلك القوة الجذب الثقلي المشترك للنجوم والغاز ضمن مجرتنا فيجذبها نحو المركز.

وواقع الأمر أن حركة الشمس حول درب التبانة تشبه حركة الأرض حول الشمس، ويشمل ذلك التشابه شكل أفلاك النجوم واتجاهها فكما تدور كافة الكواكب حول الشمس في اتجاه واحد وتقع في مستوى واحد تقريباً.

---

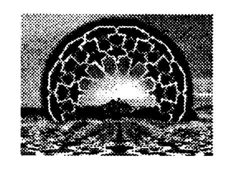
(١) البحار ج٥٥ ص١٤١ - ١٤٢، ح١. سورة الحج، الآية: ١٨.

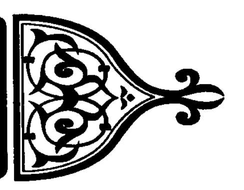
(٢) سورة يس، الآية: ٤٠.

(٣) استكشاف ومقدمة في علم الفلك: ٥٨٨.

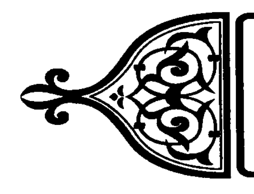
وكذلك الأمر بالنسبة إلى النجوم في القرص، فهي تتحرك جميعها في الاتجاه نفسه على طول أفلاك دائرية تقريباً في مستوى واحد. أضف إلى هذا، أنه كما أن الكواكب قرب الشمس تنجز رسم أفلاكها أسرع من الكواكب الأكثر بعداً عنها.

كذلك الأمر بالنسبة إلى النجوم قرب مركز المجرّة فهي تنجز دورتها أسرع من النجوم، التي تقع عند حافتها ومن ثم فإن الأجزاء الداخلية للمجرّة تدور بسرعة أكبر من أجزائها الخارجية، وهي ظاهرة للمجرّة تدور بسرعة أكبر من أجزائها الخارجية، وهي ظاهرة تسمى الدوران التفاضلي Ditterential rotration الذي يؤدي دوراً مهماً في تشكيل الأذرع اللولبية للمجرة.





طاقة الشمس

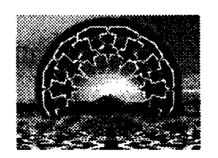


تطلق الشمس من الطاقة ما يقدر بنحو خمسمائة ألف مليون مليون حصان في كل ثانية، ويصل إلى الأرض من طاقة الشمس منها واحد في الألف فقط تقريباً، ويمثل ذلك مصدر كل من الحرارة والضوء وغيرهما من مختلف صور الطاقة على الأرض (باستثناء الطاقة النووية)، وتعتمد كل الأنشطة الطبيعية على سطح الأرض على الطاقة الشمسية، فقد أعطى الله (تبارك وتعالى) للشجر الأخضر القدرة على اختزان جزء كبير من طاقة الشمس على هيئة روابط كيميائية فيما تنتجه من سكريات ونشويات وزيوت وغيرها من المنتجات النباتية، وذلك بتفاعل أشعة الشمس مع كل من العصارة الغذائية للنبات (المكونة من معادن الأرض والماء) وثاني أكسيد الكربون مطلقاً الأوكسجين؛ كما أعطى ربنا (تبارك وتعالى) كلًّا من الإنسان والحيوان القدرة على الاستفادة بتلك الطاقة الشمسية المخزونة في المنتجات النباتية في جميع الأنشطة الحيوية التي يقوم بها، وذلك بإحراقها في أثناء عمليات التمثيل الغذائي فتتحول هذه المواد مرة أخرى إلى ماء وثاني أكسيد الكربون. ثم من فضلات كل من النبات والحيوان والإنسان تتكون مصادر أخرى للطاقة من مثل الخشب والقش وبقايا الحيوان التي تتكون منها أغلب مصادر الطاقة الطبيعية (من مثل الفحم النباتي، الفحم الحجري، النفط، الغاز الطبيعي، وغيرها).

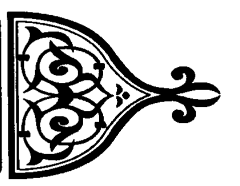
◎ القسم بالشمس إشارة إلى أهميتها:

مما سبق يتضح لنا جانب من جوانب أهمية الشمس، تلك الآية الكونية البديعة التي تشهد لخالقها سبحانه وتعالى بطلاقة القدرة، وبديع الصنعة، وعظيم الحكمة، وإحاطة العلم، ومن هنا كان قسم الله (تبارك وتعالى) بها وهو سبحانه غني عن القسم لعباده، وإنما جاء هذا القسم من أجل تنبيهنا إلى تلك الأهمية القصوى للشمس، التي بدونها ما قامت الحياة على الأرض، وذلك حتى لا نمر عليها ونحن غافلون عنها، لأننا لو

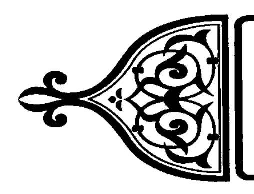
أدركنا أهميتها للحياة لأدركنا جانباً من جوانب العظمة المطلقة لخالقها، الذي أبدعها، وأبدع الكون كله في نظام بالغ الدقة والإحكام والتكامل مما يشهد له سبحانه وتعالى بالألوهية، والربوبية والوحدانية المطلقة فوق كل خلقه (بغير شريك، ولا شبيه، ولا منازع، ولا صاحبة ولا ولد، فقد تنزه جلت قدرته عن كل ذلك لأنها جميعها من صفات المخلوقين، والله تعالى منزه عن صفات خلقه)[١].



(١) السماء في القرآن الكريم ص٤٤٥ - ٤٤٦.



أحوال القمر



● **الخصال: عن عبد الله بن عمر، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله في** مرضه الذي توفّي فيه: أدعوا إليّ أخي. قال: فأرسلوا إلى عليّ عليه السلام فدخل، فولّيا وجوههما إلى الحائط وردّا عليهما ثوباً فأسرّ إليه والناس محتوشون وراء الباب فخرج عليّ عليه السلام فقال له رجل من الناس: أسرّ إليك نبيّ الله شيئاً؟

قال: نعم أسرّ إليّ ألف باب في كلّ باب ألف باب.

وقال: وعيته؟

قال: نعم، وعقلته.

فقال: فما السواد الّذي في القمر؟

قال: إنّ الله عزّ وجلّ قال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾[1].

قال له الرجل: عقلت يا عليّ[2].

● **الاحتجاج: عن الأصبغ: قال: سأل ابن الكوّاء أمير المؤمنين عليه السلام عن المحو الّذي يكون في القمر، قال عليه السلام:**

الله أكبر، الله أكبر[3]، رجل أعمى يسأل عن مسألة عمياء! أما سمعت الله تعالى يقول: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ (الخبر)[4].

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٢.

(٢) الخصال: ١٥٧، البحار ج٦٦ ص١٥٦ - ١٥٧، ح٧.

(٣) في المصدر: الله أكبر ثلاث مرات.

(٤) الاحتجاج: ١٣٨، البحار ج٥٥ ص١٥٩، ح١٠.

◎ القمر في علوم الفلك(١)

القمر تابع صغير للأرض يبعد عنها بمسافة تقدر في المتوسط بحوالي ٣٨٤،٤٠٠ كيلومتر، وهو على هيئة شبه كرة من الصخر غير كاملة الاستدارة إذ لها شكل البيضة التي تتجه بنهايتها الصغيرة تجاه الأرض، وتقدر كتلة القمر بحوالي ٧٣٥ مليون مليون مليون طن (أي حوالي ١٢.٢٥٪ أو ١/ ٨١ من كتلة الأرض)، ويقدر حجمه بحوالي٢٢ مليون مليون كيلو متر مكعب (أي حوالي (١/ ٥٠) من حجم الأرض)، ويقدر متوسط كثافته بحوالي ٣.٣٤ جرام للسنتيمترالمكعب (أي حوالي ثلثي متوسط كثافة الأرض)، ويقدر قطره بحوالي٣٤٧٤ كيلو متراً (أي حوالي ربع قطر الأرض تقريباً) وتقدر مساحة سطحه بحوالي ٣٨ مليون كيلو متر مربع (أي حوالي ٧.٤٥٪ من مساحة سطح الأرض) وتقدر جاذبيته بحوالي سدس جاذبية الأرض.

ويدور القمر حول الأرض في مدار شبه دائري يقدر بحوالي ٢.٤ مليون كيلو متر بسرعة متوسطة تقدر بحوالي كيلومتر واحد في الثانية، ويدور حول محوره الذي يميل على مستوى مداره بزاوية تتراوح بين (١٨.٣ و٢٨.٦ درجة) بنفس السرعة ليتم دورته الاقترانية حول الأرض في حوالي ٢٩.٥ يوم من أيام الأرض.

ولا يظهر لسكان الأرض من القمر إلا وجه واحد (ولكن نظراً لترنح القمر فإننا نستطيع رؤية حوالي ٥٩٪ من مساحة سطحه تقريباً) وذلك لأن القمر يدور حول الأرض في نفس الزمن الذي يكمل فيه دورته حول محوره، وبذلك يطول كل من الليل والنهار على سطح القمر إلى حوالي ١٤.٥ أيام من أيام الأرض. ويصعب إدراك الغلاف الغازي للقمر لقلة كثافته، حيث تقدر كثافة غلافه الغازي بحوالي الواحد من ألف (٠.٠٠١) من كثافة الغلاف الغازي للأرض. وتتراوح درجة حرارة سطح القمر في نصفه المواجه للشمس بين ١١٠ درجات مئوية نهاراً و١٢٠ درجة مئوية تحت الصفر ليلاً.

وسطح القمر معتم بصفة عامة، وعلى الرغم من ذلك فإن الله (تعالى) قد جعل له القدرة على عكس ما قيمته ٧.٣٪ من أشعة الشمس الساقطة عليه، وبذلك ينير القمر سماء الأرض بمجرد غياب الشمس بمراحله المتتالية من الهلال إلى التربيع الأول، إلى الأحدب الأول، إلى البدر الكامل، إلى الأحدب الثاني، إلى التربيع الثاني ثم إلى الهلال الثاني، ومن بعده إلى الاختفاء الكامل في فترة المحاق.

---

(١) السماء في القرآن الكريم: ٤٥٤.

ونظراً إلى قلة كثافة الغلاف الغازي للقمر فقد أصبح عرضة للرجم المستمر بواسطة كل من النيازك والتيارات الترابية وموجات الطاقة التي تصاحب الانفجارات الشمسية، ولذلك أصبح سطح القمر مليئاً بالحفر الدائرية العميقة والتي يصل قطر الواحدة منها إلى خمسة كيلو مترات، وهذه الحفر الناتجة عن اصطدام النيازك الضخمة بسطح القمر كان يظن قديماً أنها فوهات براكين، ولكن ثبت بعد ذلك أنها نشأت بواسطة تكرار اصطدام النيازك بنفس النقاط على سطح القمر مما أدى إلى تعميق بعضها إلى ما يقرب من عشرين كيلو متراً. ولا ينفي ذلك وجود فوهات بركانية على سطح القمر يعتقد أن بعضها لايزال نشيطاً نظراً لاكتشاف عدة نقاط ساخنة في بعض ما يعتقد بأنه فوهات بركانية على سطح القمر.

◎ منازل القمر:

لوحظ من القدم أن القمر في دورته حول الأرض يتحرك في كل ليلة من ليالي الشهر القمري بين ثوابت من النجوم التي يسمى كل منها منزلاً من منازل القمر، وعلى ذلك فإن عدد منازل القمر هو٢٨ بعدد الليالي التي يرى فيها القمر، ولما كان القمر في جريه مع الأرض حول الشمس يمر عبر البروج السماوية الاثني عشر التي تمر بها الأرض: فإن كل منزل من منازل القمر يحتل مكانا معيناً في كل برج من هذه البروج، والقمر يقطع في كل ليلة١٣ درجة تقريباً من دائرة البروج تلك (٣٦٠ درجة/ ٢٨ يوماً من أيام الأرض= ١٢.٨٦ درجة) وعلى ذلك فإن البرج الواحد يقع فيه أكثر من منزل من منازل القمر، ويعتمد ذلك على مساحة البرج في السماء.

وقد تعرف العرب على منازل القمر من قبل البعثة المحمدية المباركة (على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم)، وعرفوا أهميتها في تحديد الزمن، وفي إعداد التقاويم الزراعية، وسموا الشمالية منها باسم المنازل الشامية، والجنوبية منها باسم المنازل اليمانية.

ويشير القرآن الكريم إلى منازل القمر بقول الحق (تبارك وتعالى):

﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾(١).

ويتضح من تلك الآية الكريمة مدى تداخل مراحل نمو مساحة الإنارة على وجه

(١) سورة يس، الآية: ٣٩.

القمر المقابل للأرض (أي: مراحل تطور شكل القمر بالنسبة لأهل الأرض) مع منازل القمر حتى ليمكن التعبير بأحدها عن الآخر.

◎ مراحل شكل القمر بالنسبة للأرض:

يدور القمر حول الأرض في مدار شبه دائري يبلغ متوسط نصف قطره ٣٨٤,٤٠٠ كيلو متر، وفي أثناء هذه الدورة يقع القمر على خط واحد بين الأرض والشمس فيواجه الأرض بوجه مظلم تماماً، وتسمى هذه المرحلة مرحلة المحاق (Wane)، وتستغرق ليلة واحدة إلى ليلتين تقريباً، ثم يبدأ القمر في التحرك ليخرج من هذا الوضع الواصل بين مراكز تلك الأجرام الثلاثة فيولد الهلال الأول أو الهلال الوليد (The Nascent Crescent) الذي يحدد بمولده بدء الشهر القمري، ويقع هذا الهلال في أول منازل القمر، وتمكن رؤيته بعد ميلاده إذا أمكن مكثه لمدة لا تقل عن عشر دقائق بعد غروب الشمس، وكان الجو على قدر من الصفاء يسمح بتلك الرؤية. وباستمرار تحرك القمر في دورته حول الأرض تزداد مساحة الجزء المنير من وجهه المقابل للأرض بالتدريج حتى يصل إلى التربيع الأول (The First Quarter) في ليلة السابع من الشهر القمري، ثم الأحدب الأول (The First Gibbous) في ليلة الحادي عشر، ثم البدر الكامل (The Full Moon or The wax) في حدود ليلة الرابع عشر من الشهر القمري، وفيه تكون الأرض بين الشمس من جهة والقمر من الجهة الأخرى على استقامة واحدة، وبخروج القمر عن هذا الخط المستقيم في دورته حول الأرض تبدأ مساحة الجزء المنير من وجهه المقابل للأرض في التناقص بالتدريج حتى يصل إلى مرحلة الأحدب الثاني (The Second Gibbous) في حدود ليلة الثامن عشر من الشهر القمري، ثم التربيع الثاني (The Second Quarter) في ليلة الثالث والعشرين، ثم الهلال الثاني (The Second Crescent) في ليلة السادس والعشرين من الشهر القمري والذي يستمر لمدة يومين أو ثلاثة حتى المحاق في آخر ليلة من الشهر القمري حين يعود القمر إلى وضع الاقتران بين الأرض والشمس.

◎ من الظواهر المصاحبة لحركة القمر:

من الظواهر المصاحبة لدوران القمر في مداره حول الأرض ظاهرتان فلكيتان مهمتان هما: **ظاهرة كسوف الشمس، وظاهرة خسوف القمر.**

وينتج كسوف الشمس من توسط القمر بين الأرض والشمس مما يحجب الشمس لفترة زمنية محددة،

أما خسوف القمر فينتج من توسط الأرض بين القمر والشمس مما ينتج عنه إظلام القمر لوقوعه في منطقة ظل الأرض. وكسوف الشمس يتكرر في السنة من مرتين إلى ثلاث مرات، بينما يتكرر خسوف القمر لأكثر من أربع مرات في السنة نظراً لكبر حجم منطقتي ظل وشبه ظل الأرض بالنسبة لحجم القمر، وصغر حجم هاتين المنطقتين للقمر بالنسبة إلى حجم الشمس، ولذلك يرى خسوف القمر من جميع بقاع الأرض التي يكون فيها القمر فوق الأفق، ويبتدئ على الجانب الشرقي من القمر لأن القمر يدور حول الأرض من الغرب إلى الشرق، بينما يرى كسوف الشمس من نقاط محددة على سطح الأرض.

وقد يكون خسوف القمر كليًّا إذا دخل في منطقة ظل الأرض بالكامل، وقد يكون خسوفاً جزئياً إذا دخل في منطقة شبه الظل للأرض ويسمى هذا الخسوف الجزئي باسم **الاحتراق**، لأن القمر يبدو فيه أحمر نحاسي اللون.

كذلك فإن كسوف الشمس قد يكون **كسوفاً كلياً** إذا غطى ظل القمر كل قرص الشمس بالكامل، وقد يكون **كسوفاً جزئياً** حين يغطي ظل القمر جزءاً من قرص الشمس، وقد يكون **كسوفاً حلقياً** عندما يكون القمر في أبعد مواضعه عن الأرض فلا يستطيع ظله أن يغطي قرص الشمس بالكامل، بل يغطي جزءاً من وسطها ويترك الجزء الباقي من الشمس ظاهراً على هيئة حلقة مضيئة.

ويبتدىء الكسوف على جانب الشمس الغربي وذلك بسبب دوران القمر حول الأرض من الغرب إلى الشرق. ولا تتجاوز مدة الكسوف الكلي للشمس فترة (٧ دقائق، ٤٨ ثانية) بينما قد يصل الكسوف الحلقي إلى (١٢ دقيقة، ٢٤ ثانية). والكسوف الكلي نادر الحدوث، وعند وقوعه تصطبغ السماء باللون القرمزي قبل بدئها في الإظلام الذي قد يصاحبه شيء من الانخفاض في درجة الحرارة.

◎ البناء الداخلي للقمر:

يغطى سطح القمر بطبقة من الفتات الصخري يتراوح سمكها بين المتر والعشرين متراً، وتعرف هذه الطبقة باسم **(التربة القمرية)**، ويعتقد بأنها قد تكونت نتيجة لارتطام النيازك وجسيمات التراب الكوني القادمة مع الرياح الشمسية على سطح القمر، والعمر المطلق لهذه التربة القمرية يقدر بنحو ٤.٦ بليون سنة، وهو نفس العمر المقدر للأرض.

ويمتلىء سطح القمر بمناطق منخفضة عديدة تعرف باسم **(بحار القمر)** وإن كانت خالية تماماً من وجود الماء، وهذه المنخفضات عبارة عن أعداد لا حصر لها من الفوهات الدائرية العميقة التي يصل قطر الواحدة منها إلى أكثر من خمسة كيلو مترات، وتصل أعماقها إلى عدة كيلو مترات. وكان يعتقد قديماً بأنها فوهات بركانية.

ولكن دراسة الصخور التي أحضرت من عدد منها أثبتت أنها نشأت عن اصطدام النيازك بنفس النقطة من سطح القمر لمرات متتالية حتى وصل عمق بعضها إلى عشرين كيلو متراً

وبجوار هذه الحفر العميقة توجد سلاسل جبلية تتراوح ارتفاعاتها بين ثلاثة وخمسة كيلو مترات. وتمتلىء بحار القمر بطفوح من الحمم البازلتية. وتتكون الصخور القمرية وهي صخور قاعدية في غالبيتها من مثل (الجابرو ـ النورايت) من العناصر نفسها التي تتكون منها صخور الأرض باستثناء أن صخور القمر خالية تماماً من الماء، بينما تتراوح نسبة الماء في صخور الأرض بين ١٪ و٢٪ على الأقل، وأن صخور القمر تتميز بتركيز أكثر في عدد من العناصر من مثل التيتانيوم، والحديد، والألومنيوم، والكالسيوم، وبفقر في عدد آخر من العناصر من مثل الصوديوم، والكربون، والأوكسجين، ويقدر عمر صخور القمر بنحو ٣.٧ بليون سنة، وهو رقم قريب من عمر أقدم صخور الأرض.

وبتشابه كبير مع البناء الداخلي للأرض تشير الدراسات القمرية إلى تكون القمر من عدة نطق من الصخور متمركزة حول نواة غنية في عنصر الحديد على النحو التالي:

(أ) الغلاف الصخري للقمر: وهو نطاق خارجي يتكون من الصخور القاعدية من مثل البازلت والجابرو، ويبلغ سمكه حوالي٦٨ كيلو متر وينقسم إلى قسمين متميزين على النحو التالي:

(١) قشرة القمر المهشمة: ويبلغ سمكها نحو ٢٨ كيلو متراً وهي مهشمة بفعل الارتطامات المتكررة بالنيازك، وتيارات التراب الكوني المصاحبة للرياح الشمسية.

(٢) ما تحت القشرة القمرية: وهي قشرة قاعدية يبلغ سمكها نحو ٤٠ كيلو متراً، ويغلب على تكوينها معادن الأنورثوزايت Anorthosite.

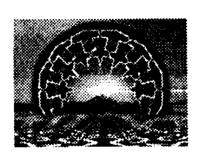
(ب) وشاح القمر: ويمتد من عمق ٦٨ كيلو متراً تحت سطح القمر إلى عمق ١٢٣٨ كيلو متر (وعلى ذلك يقدر سمكه بنحو ١١٧٠ كيلو متراً)، ويتكون من صخور قاعدية غنية بمعادن البيروكسين (Pyroxene).

(ج) لب القمر: ويمتد من عمق ١٢٣٨ كيلو متراً تحت مستوى سطح القمر تقريبا إلى مركز القمر الموجود على عمق ١٧٣٨ كيلو متراً (وعلى ذلك يقدر سمكه بنحو ٥٠٠ كيلو متر) وتشير الدراسات إلى إمكانية أن تكون المائة كيلو متر العليا منه في حالة منصهرة أو شبه منصهرة مما يعين على تقسيمه إلى:

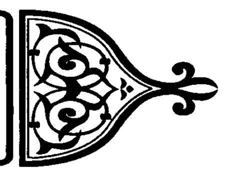
● **لب القمر الخارجي المنصهر**: وهو في حالة مائعة - سائلة أو شبه سائلة - ويغلب على تركيبه مركبات السيليكون (السيليكات) ويبلغ سمكه نحو المائة كيلو متر (من عمق ١٢٣٨ كيلو متراً إلى عمق ١٣٣٨ كيلو متراً).

● **لب القمر الداخلي الصلب**: ويقدر نصف قطره بحوالي ٤٠٠ كيلو متر (من عمق ١٣٣٨ كيلو متراً إلى مركز القمر على عمق ١٧٣٨ كيلو متراً) ويغلب على تركيبه عنصر الحديد.

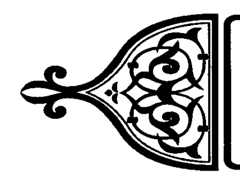
ويعتقد غالبية الفلكيين بأن القمر قد تكون كجزء منفصل من النظام الشمسي، وإن كان بعضهم يقترح فكرة انفصاله عن الأرض بسبب تباعده الحالي عنها بمعدل ثلاثة سنتيمترات في السنة، ويرى البعض الآخر احتمال تكونه بعيداً عن الأرض ثم أسره إلى موضعه الحالي بفعل جاذبية الأرض له[١].



(١) السماء من القرآن الكريم: ٤٥٤ - ٤٦١.



دوران الأرض حول محورها



نتيجة لدوران الأرض حول محورها من الغرب إلى الشرق دورة كاملة كل ٢٤ ساعة فإن الشمس تبدو طالعة في كل يوم من جهة الشرق، وغائبة في جهة الغرب.

ونتيجة لميل مستوى مدار القمر حول الأرض على مستوى مدار الأرض حول الشمس بمقدار (٥ درجات، ٨ دقائق) فإن المسار الظاهري لكل من الشمس والقمر على صفحة السماء من نقطة الشروق إلى نقطة الغروب يبدو متقارباً، وإن استمرا في تسابق دائم.

وبصرف النظر عن دوران الأرض حول محورها، فإننا نجد أن القمر يسير في اتجاه الشرق درجة واحدة كل ساعتين تقريباً (٣٦٠ درجة/ ٣٠ يوماً = ١٢ درجة في اليوم/ ٢٤ ساعة = نصف درجة في الساعة أو درجة واحدة في الساعتين) وأن الشمس تسير أقل قليلاً من درجة واحدة تقريباً كل يوم (أي كل٢٤ ساعة) (٣٦٠ درجة/ ٣٦٥,٢٥ يوماً).

ولذلك يبقى القمر في سباق دائم مع الشمس، ويلحق بها مرة كل شهر، فيولد الهلال الجديد في الأفق الغربي بعد غروب الشمس بقليل وبالقرب من المكان الذي تغرب فيه الشمس، وبعد ذلك يأخذ ظهور القمر في التأخر عن وقت غروب الشمس فيرى في طور التربيع الأول في وسط السماء بعد غروب الشمس، ويتأخر ظهوره لفترة أطول بعد الغروب في مرحلة الأحدب الأول ويرى وهو أقرب للأفق الشرقي، وفي مرحلة البدر يتفق شروق القمر من الأفق الشرقي مع غروب الشمس في الأفق الغربي لوجودهما على استقامة واحدة، وبعد ذلك يتأخر القمر في الشروق يومياً بمعدل خمسين دقيقة في المتوسط حتى يصل مجموع هذا التأخير إلى حوالي خمس ساعات بعد غروب الشمس في طور التربيع الثاني، ويستمر هذا التأخير في ظهور القمر حتى يرى الهلال الثاني في وضح النهار؛ وفي طور المحاق يغيب القمر مع غروب الشمس تماماً لوقوعهما على استقامة واحدة.

ولعل هذا هو المقصود من قول الحق (تبارك وتعالى):
﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾[(١)].

ويتم القمر دورته حول الأرض في ٢٧ يوماً، ٧ ساعات، ٤٣ دقيقة، ١١,٦ ثانية، ولكن نظراً لدوران الأرض حول محورها، ولجريها في مدارها حول الشمس، فإن القمر يحتاج إلى نحو يومين آخرين زيادة على هذه الفترة ليعود إلى نفس النقطة التي بدأ منها ولذلك فإن الشهر الاقتراني يطول إلى ٢٩ يوماً، ١٢ ساعة، ٤٤ دقيقة، ٢,٩ ثانية في المتوسط.

وحيث إن الشهر القمري يعد بالأيام الكاملة بدءاً من غروب شمس اليوم الذي يرى فيه الهلال بعد غروب الشمس، فإن الشهر القمري إما أن يكون٢٩ يوماً أو٣٠ يوماً، ولأن حركة القمر هي من الغرب إلى الشرق فإنه يتأخر كل يوم في غروبه من٤٠ إلى٥٠ دقيقة عن اليوم السابق تبعاً لاختلاف كل من خطوط الطول والعرض. وفي اليوم التاسع والعشرين قد يأتي غروبه قبل غروب الشمس ولذا تستحيل رؤيته، وقد يأتي غروبه بعد غروب الشمس فيمكن رؤيته تبعاً لمدة مكثه وللظروف الجوية المصاحبة لمكان إلتماس رؤية الهلال.

وللقمر عدد من الحركات الحقيقية والظاهرية والتي يمكن إيجازها فيما يلي:

◎ أولاً: الحركات الحقيقية للقمر:

١ - دورة القمر حول محوره وتتم في كل شهر عربي دورة واحدة ينتصفها ليل لمدة أسبوعين ونهار لمدة أسبوعين تقريباً.

٢ - دورة القمر حول الأرض وتتم في ٢٩.٥ يوماً بالنسبة للأرض (وفي ٢٧.٣ يوماً بالنسبة للنجوم).

٣ - دورة القمر مع الأرض حول الشمس بسرعة تقدر بنحو٣٠ كيلو متراً في الثانية وتتم في سنة شمسية مدتها اثنا عشر شهراً ينزل القمر فيها منازل الشمس الإثني عشر شهراً بعد شهر.

٤ - دورة القمر مع المجموعة الشمسية حول مركز مجرتنا (سكة التبانة أو درب اللبانة)، وتتم في حدود ٢٢٥ مليون سنة أرضية.

---

(١) سورة الشمس، الآية: ٢.

٥ - دورة القمر مع المجرة ومع التجمعات الأكبر من ذلك بالتدريج حول مراكز متدرجة في الكون الفسيح إلى نهاية لا يعلمها إلا الله.

◎ ثانياً: الحركات الظاهرية للقمر:

١ - دورة القمر الظاهرية حول الأرض مرة في كل يوم، نتيجة لدوران الأرض حول محورها.

٢ - دورة القمر الظاهرية في منازله التي بالسماء مرة كل شهر.

٣ - دورة القمر السنوية ووقوعه في برج من بروج السماء الإثني عشر واحداً بعد الآخر.

وقد شاءت إرادة الله وحكمته البالغة ألا تظلم سماء الأرض إظلاماً تاماً بمجرد غياب الشمس الظاهري عن الأرض، فأبقى لنا القمر والنجوم تنيرظلمة ليل الأرض.

فبمجرد غياب الشمس عنا يصلنا ضؤوها المنعكس من فوق سطح القمر نوراً لا حرارة فيه، ويرى نور القمر في مراحله المتتالية، من الميلاد إلى المحاق، ونظراً لقربه من الأرض فإن أثره في إنارة ظلمة ليل الأرض أبلغ من أثر النجوم حتى وهو في مرحلة الهلال.

وتصف هذه الآية الكريمة متابعة القمر للشمس في حركاتهما الظاهرية حول الأرض، وهي حقيقة لم تدرك إلا بعد نزول القرآن الكريم بقرون عديدة، فسبحان الذي خلق القمر، وأنزل في محكم كتابه هذا القسم الإلّهي بموالاة القمر لغروب الشمس فقال (عز من قائل): ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾ وهي موالاة في أمور عديدة وليس فقط في حركاته الحقيقية والظاهرية.

وورد ذلك في القرآن الكريم في زمن لم يكن لأحد من الخلق إدراك لحقيقة أن الشمس هي مصدر النور المنبعث من القمر هو من آيات الإعجاز العلمي في كتاب الله، فسبحان الذي أنزل القرآن بعلمه، على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه لنا في صفائه الرباني وإشراقاته النورانية بنفس لغة وحيه - اللغة العربية - على مدى أربعة عشر قرناً أو يزيد وإلى أن يرث الله (تبارك وتعالى) الأرض ومن عليها، فالحمد لله على نعمة القرآن، والحمد لله على نعمة الإسلام، والحمد لله في الآخرة والأولى، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين[1].

---

(١) السماء من القرآن ص٣٦٢ - ٤٦٥.

◎ منازل القمر في علم الفلك:

يدور القمر حول الأرض في مدار شبه دائري يبلغ طوله حوالي ٢.٤ مليون كيلو متر تقريباً، ويبلغ متوسط نصف قطره ٣٨٤،٤٠٠ كيلو متر، وفي أثنار الدورة يقع القمر على واحد بين الأرض والشمس فيواجه الأرض بوجه مظلم تماماً، وتسمى هذه المرحلة اسم **مرحلة الاقتران**، ويعرف شكل القمر فيها باسم المحاق، وتستغرق هذه المرحلة ليلة أو ليلتين تقريباً، ثم يبدأ القمر في التحرك ليخرج من هذا الوضع الواصل بين مراكز تلك الأجرام الثلاثة فيولد الهلال الذي يحدد بمولده بداية شهر قمري جديد، ويقع هذا الهلال أول منزل من منازل القمر، ويمكن رؤيته بعد ساعات من ميلاده إذا أمكن مكثه لمدة لا تقل عن عشر دقائق بعد غروب الشمس، وكان الجو على درجة من الصفاء تسمح بذلك.

وباستمرار تحرك القمر في دورته البطيئة حول الأرض تزداد مساحة الجزء المنير من وجهه المقابل لكوكبنا بالتدريج، حتى يصل إلى **التربيع الأول** في ليلة السابع من الشهر القمري، ثم إلى **الأحدب الأول** في ليلة الحادي عشر، ثم **البدر الكامل** في ليلة الرابع الشهر، وفيها تكون الأرض بين الشمس من جهة، والقمر من الجهة الأخرى على استقامة واحدة.

وبخروج القمر عن هذه الاستقامة مع كل من الأرض، والشمس تبدأ مساحة الجزء المنير من وجهه المقابل للأرض في التناقص بالتدريج فيتحول إلى مرحلة **الأحدب الثاني** في حدود ليلة الثامن عشر، ثم إلى التربيع الثاني في ليلة الثالث والعشرين، ثم إلى **الهلال الثاني** في ليلة السادس والعشرين من الشهر القمري، ويستمر في هذه المرحلة لليلتين حتى يصل إلى **مرحلة المحاق** في آخر ليلة أو ليلتين من الشهر القمري حين يعود القمر إلى وضع الاقتران بين الأرض والشمس من جديد.

ولما كان القمر يقطع في كل يوم من أيام الشهر القمري حوالي ١٢ درجة من درجات دائرة البروج (٣٦٠ درجة على ٢٩.٥ يوم = ١٢.٢ درجة) فإنه يقع في كل ليلة من ليالي الشهر القمري في منزل من المنازل التي تحددها ثوابت من النجوم أو من تجمعاتها الظاهرية حول دائرة البروج، وهذه المنازل ثمانية وعشرون منزلاً بعدد الليالي التي يرى فيها القمر، وتعرف باسم **منازل القمر**.

ولما كان القمر في جريه السنوي مع الأرض حول الشمس يمر عبر البروج السماوية

الاثني عشر التي تمر بها الأرض في كل سنة من عمرها، والتي تحدد بواسطتها شهور السنة الشمسية، فإن كل منزل من منازل القمر اليومية يحتل مساحة في برج من هذه البروج.

ونتيجة لميل مستوى مدار القمر حول الأرض على مستوى الأرض حول الشمس بمقدار (٥ درجات، ٨ دقائق) فإن المسار الظاهري لكل من الشمس والقمر على صفحة السماء من نقطة شروق كل منهما إلى نقطة غروبه يبدو متقارباً بصفة عامة، وإن تبع القمر الشمس في أغلب الأحوال.

وبصرف النظر عن دوران الأرض حول محورها من الغرب إلى الشرق أمام الشمس، ودوران القمر حول الأرض في نفس الإتجاه فإن كلا من الشمس والقمر يظهران في الأفق مرتفعين من جهة الشرق، وغائبين في جهة الغرب، وإن كان أغلب ظهور القمر هو بالليل لصعوبة رؤيته في وضح النهار.

والقمر يسير في اتجاه الشرق بمعدل ١٢ درجة تقريباً في كل يوم أي بمعدل نصف درجة تقريباً في المتوسط في كل ساعة (٣٦٠ درجة/ ٢٩.٥ يوم من أيام الشهر القمري = ١٢.٣ درجة). (١٢.٢ درجة/ ٢٤ ساعة في اليوم = ٠.٥١ درجة في الساعة)، بينما تقطع الشمس درجة واحدة في اليوم تقريباً: (مجموع زوايا دائرة لابروج = ٣٦٠ درجة على ٣٦٥.٢٥ يومن (من أيام السنة الشمسية) = ٠.٩٩ درجة/ يوم تقريباً).

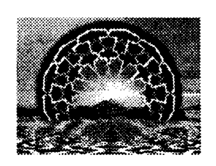
معنى ذلك أن القمر يبقى في سباق دائم مع الشمس، إلا أنه يتأخر كل يوم في غروبه من ٤٠ إلى ٥٠ دقيقة عن اليوم السابق، تبعاً لاختلاف ذلك من خطوط الطول والعرض.

فالهلال الجديد يولد ويرى في الأفق الغربي بعد غروب الشمس بقليل، ويأخذ ظهور القمر في التأخر عن غروب الشمس فيرى في طور التربيع الأول في وسط السماء، ويتأخر ظهوره لفترة أطول بعد الغروب في مرحلة الأحدب الأول، ويرى وهو أقرب إلى الأفق الغربي لوجودهما على استقامة واحدة على الأرض، وبعد الخروج عن هذه الاستقامة يأخذ القمر في التباطؤ في الظهور يوماً بعد يوم بمعدل خمسين دقيقة في المتوسط حتى يصل المجموع التأخير في ظهوره إلى حوالي خمس ساعات بعد غروب الشمس وذلك في طور ربيع الثاني، ويستمر التباطؤ في ظهور القمر حتى يرى الهلال الثاني في وضح النهار، وفي طور المحاق الذي لا يرى فيه القمر من فوق سطح الأرض

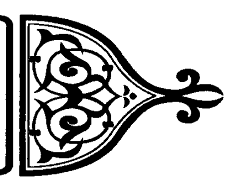
(لوقوعه بينها وبين الشمس) يغيب القمر مع مغيب الشمس تماماً لوجودهما على استقامة واحدة.

وبمجرد خروج القمر من مرحلة المحاق ورؤية الهلال الوليد بعد غروب الشمس يولد الشهر القمري جديداً مع بدء إشراق الشمس على جزء من وجه القمر المقابل للأرض، والذي كان يعمه ليل القمر في وقت الاقتران. ويتفاوت زمن اقتران النيرين (الشمس والقمر) بسبب استدارة بل على شكل بيضاني (أي على هيئة قطع ناقص)، ومن قوانين الحركة في مدار الزمن، وهذا القانون يقتضي اختلاف مقدار السرعة على طول المحيط، فعندما يقترب القمر من الأرض تزيد سرعته المحيطية فتزداد بالتالي القوة الطاردة (النابذة) المركزية بينهما لحيلولة دون ارتطام القمر بالأرض وتدميرهما معاً، وعلى العكس من ذلك فإنه عند ابتعاد القمر في مداره البيضاني عن الأرض فإن سرعته المحيطية تتناقص وإلا انفلت من عقال جاذبية الأرض إلى نهاية لا يعلمها إلا الله.

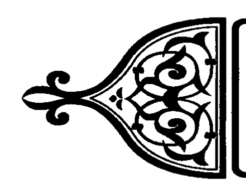
وتتراوح سرعة دوران القمر في مداره بين ٣٤٨٣ كيلو متراً في الساعة، ٣٨٨٨ كيلو متراً في الساعة (بمتوسط ٣٦٧٥ كيلو متراً في الساعة). كذلك تتفاوت سرعة سبح الأرض في فلكها حول الشمس بين ٢٩.٢٧٤ كيلومتراً في الثانية، ٣٠.٢٧٤، كيلومتراً في الثانية. يجمع الفرق بين أعلى وأقل سرعتين لكل من القمر في مداره، والأرض في مدارها اتضح أنه يقابل الفرق في أطول الأشهر القمرية بين (٢٧.٣٢١٥) يوماً في مدة الدورة النجمية للقمر، (٢٩.٥٣٠٦) يوماً في دورته الاقترانية. والدورة النجمية للقمر حول الأرض تحسب اعتباراً أن الأرض ثابتة لا تتحرك حتى يتم القمر دورته الكاملة حولها، والدورة الاقترانية للقمر تأخذ في الحسبان دوران الأرض حول محورها مع دوران القمر حول محوره[١].



(١) السماء من القرآن ص٥١٦ - ٥١٩.



من جوانب تسخير الشمس



إن الحقائق القاطعة بتسخير الشمس عديدة جداً نوجز منها ما يلي:

١ - الاتزان الدقيق بين تجاذب مكونات الشمس وتمددها:

الشمس هي أقرب نجوم السماء إلى الأرض التي تبعد عنها بمسافة مائة وخمسين مليون كيلو متر في المتوسط، والشمس نجم عادي، متوسط الحجم على هيئة كرة من الغاز الملتهب يبلغ قطرها ١،٤٠٠،٠٠٠ كيلو متر، وحجمها ١٤٢ ألف مليون مليون كيلو متر مكعب، ومتوسط كثافتها ١،٤ جرام للسنتيمتر المكعب، ولذلك تقدر كتلتها بنحو ألفي تريليون تريليون طن. ويمثل ذلك حوالي ٩٩٪ من كتلة المجموعة الشمسية كلها.

والشمس عبارة عن فرن نووي كوني عملاق عمره أكثر من عشرة بلايين من السنين، يرتفع الضغط في داخله إلى ما يساوي أربعمائة مليار ضغط جوي، وبذلك تبدأ عملية الاندماج النووي بين نوى ذرات الإيدروجين منتجة نوى ذرات الهيليوم، وتنطلق الطاقة التي ترفع درجة لب الشمس إلى أكثر من ١٥ مليون درجة مطلقة تتناقص بالتدريج إلى حوالي ستة آلاف درجة مطلقة عند سطحها، وإن تجاوزت المليون درجة في ألسنة اللهب مندفعة من داخلها.

والشمس تتكون أساساً من غازي الإيدروجين (١.٧٦٪) والهيليوم (١٨.١٧٪) بالإضافة إلى آثار يسيرة (لا تتعدى ٠.٠٧٪) من عدد من العناصر الأخرى، وعلى ذلك فإن الشمس عبارة عن خليط ملتهب من غازي الإيدروجين والهيليوم بنسبة حجمية تقدر بحوالي ٤ : ١ وهي نفس النسبة المطلوبة لاتحاد أربع من نوى ذرات الإيدروجين مع بعضها البعض لتكوين نواة ذرة هيليوم واحدة.

وتنطلق الطاقة، والشمس تحول في كل ثانية من عمرها الحالي حوالي ٦٥٥ مليون طن من الإيدروجين إلى حوالي ٦٥٠ مليون طن من الهيليوم، ويتحول الفرق بين

الكتلتين (والمقدر بحوالي ٤.٦ مليون طن إلى الخمسة ملايين طن) إلى طاقة تمثل الطاقة المنبعثة من الشمس في كل ثانية من وجودها.

ونظراً للجاذبية الرهيبة التي تحدثها كتلة الشمس الهائلة على مكونها فإنها تتجاذب كلها في اتجاه المركز تجاذباً تنتج عنه ضغوط هائلة ترفع درجة حرارة لب الشمس إلى المستوى الذي يسمح ببدء واستمرار عملية الاندماج النووي فيه.

ونظراً للتوازن الدقيق بين جاذبية الشمس لمكوناتها في اتجاه مركزها، ودفع تلك المكونات بعيداً عن المركز بواسطة القوى الناتجة عن تمدد الغازات المكونة لها بفعل الحرارة الفائقة في مركزها، فقد بقيت الشمس مستمرة في الوجود تحت هذا التوازن العجيب على مدى عشرة بلايين من السنين (على أقل تقدير) وإلى أن يرث الله (تعالى) الكون ومن فيه، ولولا هذا التوازن الدقيق لانفجرت الشمس كقنبلة نووية عملاقة، أو لانهارت على ذاتها تحت ضغط جاذبيتها خاصة أنها مجرد كرة ضخمة من الغازات.

وعلى ذلك فإن تقدير الخالق (سبحانه وتعالى) حجم وكتلة الشمس بهذه الدقة البالغة هو الذي مكّنها من تحقيق هذا التوازن الدقيق بين قوى الدفع إلى الخارج، وقوى التجاذب إلى الداخل، ومن البقاء في حالة غازية أو شبه غازية، ملتهبة، متوهجة بذاتها، ولو تغير حجم كتلة الشمس ولو قليلاً لتغير سلوك مادتها تماماً، أو انفجرت أو انهارت على ذاتها، وذلك لأن السبب في اندلاع عملية الاندماج النووي في قلب النجم وانطلاق الطاقة منه هو تكونه من كتلة وحجم معينين يحافظان على الاتزان الدقيق بين التمدد والتجاذب، وهل هناك من التسخير صورة أبلغ من ذلك؟

٢ - تسخير طاقة الشمس من أجل ضبط حركة الحياة على الأرض:

تطلق الشمس من مختلف صور الطاقة ما يقدر بحوالي خمسمائة ألف مليون مليون مليون حصان في كل ثانية من ثواني عمرها، ويصل إلى الأرض من هذا الكم الهائل من الطاقة حوالي الواحد في الألف، ومجموع ميزانيات دول العالم لا تكفي ثمناً لهذا الكم من الطاقة الشمسية التي تصل إلينا فتمثل كل مصادر الطاقة المباشرة وغير المباشرة على الأرض باستثناء الطاقة النووية)، وبدون هذه الطاقة الشمسية تستحيل الحياة على كوكبنا، لأن كلاً من النبات، والحيوان، والإنسان يعتمد في وجوده - بعد إرادة الله الخالق (سبحانه وتعالى) على قدر الطاقة الذي يصله من أشعة الشمس، كذلك فإن كل الظواهر الفطرية التي تحدث على الشمس ومن حولها تعتمد على الطاقة القادمة إلينا من

الشمس: فتصريف الرياح، وإرسال السحاب، وإنزال المطر وبقية ألأنهار والجداول من حجارتها، وخزن للماء تحت سطح الأرض، وتكوين للتربة والصخور الرسوبية، وتركيز للعديد من الركائز المعدنية، وحركات الأمواج في البحار والمحيطات وعمليات المد والجزر وغير ذلك من عمليات وظواهر تحركها طاقة الشمس بإرادة الله تعالى.

كذلك فإن الله (سبحانه وتعالى) قد أعطى الشجر الأخضر القدرة على خزن جزء من طاقة الشمس على هيئة من الروابطة الكيميائية التي تمثل المصدر الرئيسي لكل أنواع الطاقة الحرارية والضوئية والكهربائية والكيميائية من مثل الحطب والقش والخشب، وكلاً من الفحم النباتي والحجري، والنفط والغاز الطبيعي، والزيوت والدهون النباتية والحيوانية وكلها ترجع إلى الطاقة الشمسية.

٣ - تكوين نطق الحماية المختلفة للأض بفعل طاقة الشمس:

شاءت إرادة الله (تعالى) أن يحمي الحياة على سطح الأرض بعدد من نطق الحماية التي لعبت أشعة الشمس (ولا تزال تلعب) الدور الأول في تكوينها (بعد إرادة الله) وأولها من الخاج إلى الداخل:

أ - النطاق المغناطيسي للأرض (The Magnetosphere).

ب - وأحزمة الإشعاع (The Radiation Belts).

جـ - والنطاق المتأين (The Lonosphere).

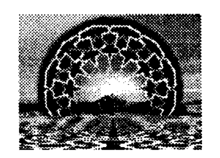
د - ونطاق الأوزون (The Ozonosphere).

وهذه النطق تتعاون في حماية الأرض من كل من الأشعات فوق البنفسجية والكونية، من العديد من الجسيمات الكونية الدقيقة والكبيرة والتي منها النيازك والشهب، ولو لم تكن هذه النطق موجودة لاستحالت الحياة على الأرض، ولو لم تكن الشمس موجودة ما تكونت تلك النطق على الإطلاق، ووجودها صورة من صور التسخير التي لم تكن معروفة في زمن لوحي بالقرآن الكريم، ولا بعد قرون متطاولة نم نزوله حتى نهايات القرن العشرين.

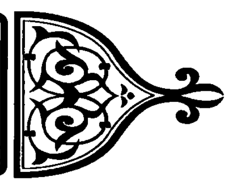
٤ - تحديد الزمن:

يتحدد كل من الليل والنهار ويوم الأرض وشهورها وفصولها وسنينها بدورة الأرض حول محورها، وبسبحها في مدارها حول الشمس، وبذلك يستطيع الإنسان إدراك

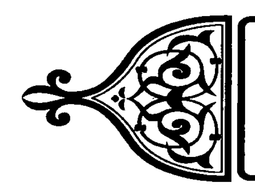
الزمن وتحديد الأوقات والتاريخ للأحداث، فبدورة الأرض حول محورها أمام الشمس يتبادل الليل والنهار، ويتحدد يوم الأرض، وبسبح الأرض في مداها حول الشمس بمحور مائل على الأفق تتحدد الفصول المناخية من الربيع والصيف والخريف والشتاء، كما تتحدد سنة الأرض التي يتقاسمها اثنا عشر شهراً شمسياً تحددها بروج السماء الاثنا عشر المتتابعة(١).



(١) السماء في القرآن ص٥٨٢ - ٥٨٤.



تسخير القمر



القمر تابع صغير للأرض يبعد عنها بمسافة تقدر بحوالي ٣٨٤،٤٠٠ كيلو متر في متوسط، وهو على هيئة شبه كرة من الصخر، يقدر قطرها بحوالي ٣٤٧٤ كيلو متراً، ومساحة سطحها بحوالي ٣٨ مليون كيلو متر مربع، وحجمها بحوالي ٢٢ مليون مليون كيلومتر مكعب، ومتوسط كثافتها بحوالي ٣،٣٤ جرام للسنتيمتر المكعب، وكتلتها بحوالي ٧٣٥ مليون مليون طن، ويتمثل تسخير القمر في النقاط التالية:

◎ ١ - تحديد الشهر القمري بدورة القمر حول الأرض:

يدور القمر حول الأرض في مدار شبه دائري يقدر طوله بحوالي ٢،٤ مليون كيلومتر بسرعة متوسطة تقدر بحوالي كيلو متر واحد في الثانية ليتم دورته الاقترانية حول الأرض في حوالي ٢٩،٥ يوماً من أيام الأرض، وهي الشهر القمري الاقتراني للأرض.

◎ ٢ - تسخير أطوار شكل القمر لتقسيم الشهر إلى أسابيع وأيام:

إن كلاً من منازل القمر، وأطواره المتتالية والتي يحددها مساحة وشكل الجزء المرئي من سطح القمر المنير وهو يتزايد سعة من الهلال الوليد حتى يصل إلى البدر الكامل، ثم بدأ في التناقص حتى يصل إلى الهلال الأخير، ومن بعده يدخل في طور المحاق لمدة يومن أو يومين إلى ميلاد الهلال الجديد، وبذلك يمكن تقسيم الشهر القمري إلى أسابيع متتالية، وتقسيم كل أسبوع إلى أيام متتابعة بدقة فائقة.

◎ ٣ - إضاءة سماء الأرض بمجرد غياب الشمس:

سطح القمر معتم تماماً، وعلى الرغم من ذل فإن الله (تعالى) قد أعطاه القدرة على عكس ما قيمته ٣,٧٪ من أشعة الشمس الساقطة عليه، وبذلك ينير سماء الأرض بمجرد غياب الشمس، وذلك بمراحله المتتالية من الهلال الوليد، إلى ميلاد الهلال الجديد في

أول الشهر التالي. وعلى ذلك فإن القمر فإن دورته الشهرية حول الأرض قد سخره ربنا (تبارك وتعالى) مصدراً للنور في ليل الأرض.

◎ ٤ - تسخير القمر وسيلة من وسائل إتمام عمليتي المد والجزر:

وهما قوتان من قوى الأرض يعملان على تفتيت صخور الشواطىء، وتكوين أنواع عديدة من الرسوبيات والصخور الرسوبية على طول تلك الشواطىء، كما تعملان على تركيز العديد من الثروات المعدنية في رمالها.

هذا قليل من كثير من صور التسخير التي أعدتها الإرادة الإلّهية بحكمة بالغة لكي يكون كل من الشمس والقمر لبنات صالحة في بناء الكون وفي انتظام حركة الحياة على الأرض[١].

● **العياشي: عن جابر، عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: تغرب الشمس في عين حامية في بحر دون المدينة الّتي تلي المغرب يعني حابلقا[٢].**

● **نقلاً من كتاب ابن جمهور أيضاً بإسناده أنّ أمير المؤمنين عليه السلام لمّا صعد المنبر وقال: سلوني قبل أن تفقدوني.**

قال: فقام إليه رجل فسأله عن السواد الّذي في القمر.

فقال عليه السلام: أعمى سأل عن عمياء! أما سمعت الله عزّ وجلّ يقول: ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾[٣]، والسواد الّذي تراه في القمر أنّ الله عزّ وجلّ خلق من نور عرشه شمسين فأمر جبرئيل فأمرّ جناحه الّذي سبق من علم الله جلّت عظمته لمّا أراد أن يكون من اختلاف الليل والنهار، والشمس والقمر وعدد الساعات والأيّام والشهور، والسنين والدهور، والارتحال والنزول، والإقبال والإدبار، والحجّ والعمرة، ومحلّ الدين، وأجر الأجير، وعدد أيّام الحبل، والمطلّقة، والمتوفّى عنها زوجها، وما أشبه ذلك[٤].

● **كتاب الغارات: لإبراهيم الثقفيّ رفعه إلى أبي عمران الكندريّ قال: سأل ابن الكوّاء أمير المؤمنين عليه السلام عن السواد الّذي في جوف القمر؟.**

---

(١) السماء في القرآن ص٥٨٤ - ٥٨٥.
(٢) البحار ج٥٥ ص١٦٢، ح١٩.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ١٢.
(٤) البحار ج٥٥ ص١٦٢، ح٢١.

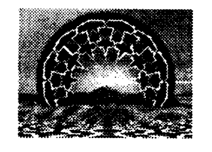
قال: إنّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾[1] السواد الّذي في جوف القمر.

قال: فكم بين المشرق والمغرب؟

قال: مسيرة يوم للشمس تطلع من مطلعها فتأتي مغربها، من حدّثك غير ذلك كذبك[2].

العلل: لمحمّد بن عليّ بن إبراهيم، قال العالم عليه السلام: علّة ردّ الشمس على أمير المؤمنين عليه السلام وما طلعت على أهل الأرض كلّهم أنه جلّل الله السماء بالغمام إلاّ الموضع الّذي كان فيه أمير المؤمنين عليه السلام وأصحابه، فإنّه جلاّه حتّى طلعت عليهم.

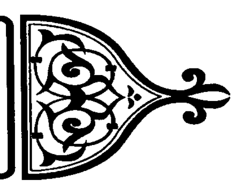
قال: والعلّة في قصر يوم الجمعة أنّ الله يجمع الأرواح أرواح الكفّار والمشركين فيعذّبهم تحت عين الشمس إلاّ يوم الجمعة، فإنّه ليس للشمس ركود ولا يعذّب الكفّار لفضل يوم الجمعة[3].



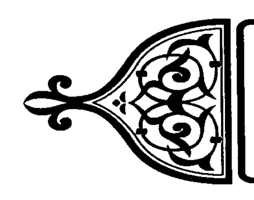
(١) سورة الإسراء، الآية: ١٢.

(٢) البحار ج٥٥ ص١٦٦، ح٢٥.

(٣) البحار ج٥٥ ص١٦٦، ح٢٦.



علم النجوم والعمل به



● الاحتجاج: عن سعيد بن جبير، قال: استقبل أمير المؤمنين عليه السلام دهقات ومن دهاقين الفرس فقال له بعد التهنئة: يا أمير المؤمنين! تناحست النجوم الطالعات وتناحست السعود بالنحوس، وإذا كان مثل هذا اليوم وجب على الحكيم الاختفاء ويومك هذا يوم صعب قد انقلب فيه كوكبان، وانقدح من برجك النيران، وليس الحرب لك بمكان!

فقال أمير المؤمنين عليه السلام: ويحك يا دهقان المنبىء بالآثار، المحذّر من الأقدار، ما قصّة صاحب الميزان وقصّة صاحب السرطان؟ وكم المطالع من الأسد والساعات من المحرّكات؟ وكم بين السراريّ والدراريّ؟

قال: سأنظر وأومأ بيده إلى كمّه وأخرج منه أسطرلاباً ينظر فيه.

فتبسّم عليه السلام فقال: أتدري ما حدث البارحة؟ وقع بيت بالصين، وانفرج برج ماحين، وسقط سور سرانديب وانهزم بطريق الروم بأرمنيّة، وفقد ديّان اليهود بإيلة، وهاج النمل بوادي النمل وهلك ملك إفريقيّة، أكنت عالماً بهذا؟

قال: لا يا أمير المؤمنين.

فقال: البارحة سعد سبعون ألف عالم، وولد في كلّ عالم سبعون ألفاً، والليلة يموت مثلهم وهذا منهم، وأومأ بيده إلى سعد بن مسعدة الحارثيّ، وكان جاسوساً للخوارج في عسكر أمير المؤمنين عليه السلام فظنّ الملعون أنّه يقول: «خذوه» فأخذ بنفسه فمات، فخرّ الدهقان ساجداً، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: ألم أروك من عين التوفيق؟

قال: بلى يا أمير المؤمنين.

فقال: أنا وصاحبي لا شرقيّ ولا غربيّ، نحن ناشئة القطب، وأعلام الفلك.

أمّا قولك: «انقدح من برجك النيران» فكان الواجب أن تحكم به لي لا عليّ أمّا

نوره وضياؤه فعندي، وأمّا حريقه ولهبه فذهب عنّي، فهذه مسألة عميقة أحسبها إن كنت حاسباً[١].

●عن نصر بن مزاحم، عن عمر بن سعد، عن يوسف بن يزيد، عن عبد الله بن عوف بن الأحمر، قال: لمّا أراد الله أمير المؤمنين عليه السلام المسيّر إلى النهروان أتاه منجّم، فقال له: يا أمير المؤمنين! لا تسر في هذه الساعة وسر في ثلاث ساعات يمضين من النهار.

فقال أمير المؤمنين عليه السلام: ولم ذاك؟

قال: لأنّك إن سرت في هذه الساعة أصابك وأصاب أصحابك أذىً وضرّ شديد، وإن سرت في الساعة الّتي أمرتك ظفرت وظهرت وأصبت كلّما طلبت!

فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: تدري ما في بطن هذه الدابّة أذكر أم أنثى!

قال: إن حسبت علمت؟

قال له أمير المؤمنين عليه السلام: من صدّقك على هذا القول فقد كذّب بالقرآن، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[٢]، وما كان محمد صلى الله عليه وآله يدّعي ما ادّعيت، أتزعم أنّك تهدي إلى الساعة الّتي من سار فيها صرف عنه السوء والساعة الّتي من سار فيها حاق به الضرّ؟! من صدّقك بهذا استغنى بقولك عن الاستعانة بالله عزّ وجلّ في ذلك الوجه، وأحوج إلى الرغبة إليك في دفع المكروه عنه، وينبغي له أن يولّيك الحمد دون ربّه عزّ وجلّ فمن آمن لك بهذا فقد اتّخذك من دون الله ندّاً وضدّاً.

ثمّ قال عليه السلام: اللّهم لا ضير إلاّ ضيرك، ولا خير إلاّ خيرك، ولا إلّه غيرك. بل نكذّبك ونخالفك ونسير في الساعة الّتي نهيت عنها[٣].

● عن زياد بن المنذر، عن قيس بن سعد، قال: كنت كثيراً أساير أمير المؤمنين عليه السلام إذا سار إلى وجه الوجوه، فلمّا قصد أهل النهروان وصرنا بالمدائن وكنت يومئذ مسائراً له إذ خرج إليه قوم من أهل المدائن من دهاقينهم معهم براذين[٤] قد

---

(١) الاحتجاج: ١٢٥، البحار ج٥٥ ص٢٢٢، ح٢.

(٢) سورة لقمان، الآية: ٣٢.

(٣) البحار ج٥٥ ص٢٢٣ - ٢٢٤، ح٤.

(٤) براذين: جمع «برذون» بكسر الباء الموحدة وفتح الذال المعجمة دابة الحمل الثقيلة.

جاؤوا بها هديّة[١] إليه فقبلها، وكان فيمن تلقّاه دهقان من دهاقين المدائن يدعى: «سرسفيل» وكانت الفرس تحكم برأيه فيما مضى وترجع إلى قوله فيما سلف، فلمّا بصر بأمير المؤمنين عليه السلام قال له: يا أمير المؤمنين لترجع عمّا قصدت!

قال: ولم ذاك يا دهقان؟

قال: يا أمير المؤمنين! تناحست النجوم الطوالع، فنحس أصحاب السعود، وسعد أصحاب النحوس، ولزم الحكيم في مثل هذا اليوم الاستخفاء والجلوس، وإنّ يومك هذا يوم مميت، قد اقترن فيه كوكبان قتّالان، وشرف فيه بهرام في برج الميزان، واتّقدت من برجك النيران وليس الحرب لك بمكان.

فتبسّم أمير المؤمنين عليه السلام ثمّ قال: أيّها الدهقان المنبىء بالأخبار، والمحذّر من الأقدار، ما نزل البارحة في آخر الميزان؟ وأيّ نجم حلّ في السرطان؟

قال: سأنظر ذلك، واستخرج من كمّه اسطرلاباً وتقويماً.

قال له أمير المؤمنين عليه السلام: أنت مسيّر الجاريات؟

قال: لا.

قال: فأنت تقضي على الثابتات؟

قال: لا.

قال: فأخبرني عن طول الأسد وتباعده من المطالع والمراجع وما الزهرة من التوابع والجوامع؟

قال: لا علم لي بذلك.

قال: فما بين السراريّ[٢] إلى الدراريّ؟ وما بين الساعات إلى المعجزات؟ وكم قدر شعاع المبدرات؟ وكم تحصل الفجر في الغدوات؟

قال: لا علم لي بذلك.

قال: فهل علمت يا دهقان أنّ الملك اليوم انتقل من بيت إلى بيت بالصين، وانقلب برج ماجين، واحترق دور بالزنج، وطفح جبّ سرانديب، وتهدّم حصن الأندلس، وهاج نمل الشيح، وانهزم مراق الهنديّ، وفقد ديّان اليهود بإيلة، وهدم بطريق الروم بروميّة، وعمي راهب عموريّة، وسقطت شرفات القسطنطينية أفعالم أنت بهذه الحوادث وما الّذي أحدثها شرقيّها أو غربيّها من الفلك؟

---

(١) الهدية كالعطية.
(٢) السواري (خ).

قال: لا علم لي بذلك.

قال: وبأي الكواكب تقضي في أعلى القطب؟ وبأيها تنحّس من تنحّس؟

قال: لا علم لي بذلك.

قال: فهل علمت أنّه سعد اليوم اثنان وسبعون عالماً، في كلّ عالم سبعون عالماً، منهم في البرّ، ومنهم في البحر، وبعض في الجبال، وبعض في الغياض وبعض في العمران، وما الّذي أسعدهم؟

قال: لا علم لي بذلك.

قال: يا دهقان: أظنّك حكمت على اقتران المشتري وزحل لمّا استنارا لك في الغسق، وظهر تلألؤ شعاع المريخ وتشريقه في السحر، وقد سار فاتّصل جرمه بجرم تربيع القمر[1] وذلك دليل على استحقاق ألف ألف من البشر كلّهم يولدون اليوم والليلة ويموت مثلهم - وأشار بيده إلى جاسوس في عسكره لمعاوية فقال -: ويموت هذا، فإنّه منهم فلمّا قال ذلك ظنّ الرجل أنّه قال: خذوه، فأخذه شيء بقلبه، وتكسّرت نفسه في صدره، فمات لوقته.

فقال عليه السلام: يا دهقان ألم أرك غير التقدير في غاية التصوير؟

قال: بلى يا أمير المؤمنين.

قال: يا دهقان! أنا مخبرك أنّي وصحبي هؤلاء لا شرقيّون ولا غربيّون، إنّما نحن ناشئة القطب، وما زعمت أنّ البارحة انقدح من برجي النيران فقد كان يجب أن تحكم

---

(١) قال بعض علماء العصر ما حاصله: أن هذا الكلام يدل على بطلان الفرضية البطلميوسية حيث إن الظاهر منه إمكان اقتراب الكواكب بعضها من بعض، واتصال جرم المريخ بتربيع القمر وهو مستحيل على تلك الفرضية، لأن كل واحد من الكواكب بناء عليها، مركوز في ثخن فلك من الأفلاك لا يتحرك من مكانه ولا يتغير وضعه لا يتبع فلكه، والأفلاك كرات متداخلة كطبقات البصل لا يتغير شيء منها عن مكانه، وفلك القمر هو الفلك الأول وفلك المريخ هو الفلك الخامس وبينهما ثلاثة أفلاك فيستحيل اقتراب أحدهما من الآخر، وأما على مباني الهيئة الجديدة فالأرض أحد السيارات، وأقرب الكواكب منها هو المريخ، والقمر يدور حول الأرض، ومدار الجميع على الشكل البيضي المستطيل، ومدار الأرض في داخل مدار المريخ، وعلى هذا يمكن للمريخ أن يقترب من القمر في بعض الأوضاع بحيث يتوهم اتصالهما من شدة قربهما، وعند ذلك يكون المريخ في غاية التلالؤ، لكونه في أقرب نقطة من الأرض ومن الشمس أيضاً، ومن هنا يظهر سر جملة أخرى من كلامه عليه السلام وهي هذه: «وظهر تلالؤ شعاع المريخ وتشريقه في السحر».

معه لي، لأنّ نوره وضياءه عندي، فلهبه ذاهب عنّي يا دهقان هذه قضيّة عيص[١]، فاحسبها وولّدها إن كنت عالماً بالأكوار والأدوار.

قال: لو علمت ذلك لعلمت أنّك تحصي عقود القصب في هذه الأجمة.

ومضى أمير المؤمنين عليه السلام فهزم أهل النهروان وقتلهم، وعاد بالغنيمة والظفر.

فقال الدهقان: ليس هذا العلم بما في أيدي أهل زماننا، هذا علم مادّته من السماء[٢].

● وروى السيّد الخبر أيضاً عن الأصبغ بن نباتة، قال: لمّا رحل أمير المؤمنين عليه السلام من «نهربين[٣]» أتينا النهروان وقد قطع جسرها وسمّرت سفنها فنزل - صلى الله على محمد وعليه - وقد سرَّح الجيش إلى جسر بوران ومعه رجل من أصحابه، وقد شكّ في قتال الخوارج، فإذا برجل يركض فلمّا رأى أمير المؤمنين عليه السلام قال: البشرى يا أمير المؤمنين!

قال له: وما بشراك؟

قال: لمّا بلغ الخوارج نزولك البارحة نهر بين ولّوا هاربين.

قال علي عليه السلام: أنت رأيتهم حين ولّوا؟

قال: نعم.

قال عليّ عليه السلام: كلاّ والله لاعبروا النهروان ولا تجاوزوا الأنثلات ولا النخيلات حتّى يقتلهم الله على يدي، عهد معهود، وقدر مقدور، ولا يقتلون منّا عشرة، ولا ينجو منهم عشرة، إذ أقبل عليه رجل من الفرس يقتدى برأيه في حساب النجوم لمعرفته بالطوالع والمراجع، وتقويم القطب في الفلك، ومعرفته بالحساب والضرب والجبر والمقابلة وتاريخ السنداباد وغير ذلك، وهو الدهقان، فلما بصر بأمير المؤمنين عليه السلام نزل عن فرسه وسلّم عليه فقال له: أيّها الأمير! لترجعنَّ عمَّا قصدت إليه - وكان اسم الدهقان: «سرسفيل سوار» وكان دهقاناً من دهاقين المدائن.

فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: ولم يا سرسفيل سوار؟!

قال: تناحست النجوم الطالعات، وتباعدت النجوم الناحسات، ولزم الحكيم في

---

(١) عويص (خ).

(٢) البحار ج٥٥ ص٢٢٩-٢٣٢، ح١٣.

(٣) نهر بين - بفتح النون وكسر الباء - طسوج من سواد بغداد، وهو الآن قرية بظاهرها (من مراصد الاطلاع).

مثل هذا اليوم الاختفاء والقعود، ويومك هذا مميت يقلّب فيه رجمان، وانكشفت فيه الميزان، واقتدح من برجك النيران، وليس الحرب لك بمكان.

قال له أمير المؤمنين عليه السلام: أخبرني يا دهقان عن قصّة الميزان، وفي أيّ مجرىً كان برج السرطان؟

قال: سأنظر لك في ذلك، ثمّ ضرب يده إلى كمّه فأخرج منها زيجاً وأصطرلاباً، فتبسّم أمير المؤمنين عليه السلام ثمّ قال له: يا دهقان! أنت مسيّر الثابتات؟

قال: لا.

قال: فأنت تقضي على الحادثات.

قال: لا.

قال له: يا دهقان! فما ساعة الأسد من الفلك؟ وما له من المطالع والمراجع؟ و ما الزهرة من التوابع والجوامع؟

قال: لا علم لي أيّها الأمير.

قال: فعلى أيّ الكواكب تقضي على القطب؟ وما هي الساعات المتحرّكات؟ وكم قدر الساعات المدبرت؟ وكم تحصل المقدّرات؟

قال: لا علم لي بذلك.

قال له: يا دهقان! إن صحّ لك علمك [علمت] أنّ البارحة انقلب بيت في الصين وانقلب بيتانسين (انسين) واترقت دور الزنج، وانحطم منار الهند، وطفح جبّ سرانديب، وهلك ملك إفريقيّة، وانقضّ حصن أندلس، وهاج نمل الشيح، وفقد ديّان اليهود، وجذم شطرنج الرومي بأرمنية، وعمي راهب عمّورية[1]، وسقطت شرافات القسطنطنيّة، وهاجت سباع البحر واثبة على أهلها، ورجعت رجال النوبة المراجيح، والتفت الزرق مع الفيلة، وطار الوحش إلى العلقين، وهاجت الحيتان في الأخضرين، واضطربت الوحوش بالأنقلين، أفأنت عليم بهذه الحوادث وما أحدثها من الفلك شرقيّة أو غربيّة؟ ومن أيّ برج سعد صاحب النحس؟ وأيّ برج انتحس صاحب السعد؟

قال الدهقان: لا علم لي بذلك.

---

(١) العمورية - بفتح العين وتشديد الميم-: بلدة من بلاد الروم، غزاه المعتصم ففتحه وكان من أعظم فتوح الإسلام، والعمورية أيضاً بليدة على شاطىء العاصي فيها آبار خراب ولها دخل وافر (مراصد الاطلاع).

قال: فهل دلّك علمك أنّ اليوم فيه سعد سبعون عالماً، في كلّ عالم سبعون ألف عالم، منهم في البحر، ومنهم في البرّ، ومنهم في الجبال، ومنهم في السهل والغياض والخراب والعمران؟ فأبن لنا ما الّذي من الفلك أسعدهم؟

قال الدهقان: لا علم لي بذلك.

قال له: يا دهقان! أظنّك حكمت على اقتران المشتري بزحل يحن لا حالك في الغسق قد شارفها واتصل جرمه بجرم القمر، وذلك دليل على استحقاق ألف ألف من البشر كلّهم مولدون في يوم واحد ومائة ألف من البشر كلّهم يموتون الليلة وغداً، وهذا منهم - وأومأ بيده إلى سعد ابن مسعود الحارثيّ وكان في عسكره جاسوساً للخوارج - فظنّ أنّ عليّاً عليه السلام يقول خذوا هذا، فقبض على فؤاده فمات في وقته.

فقال عليّ عليه السلام: لم أرك عين التوفيق، أنا وأصحابي هؤلاء لا شرقيّون ولا غربيّون، إنّما نحن نائشة القطت، وأعلام الفلك، وأمّا ما زعمت أنّ البارحة اقتدح من برجي النيران، فقد يجب عليك أن تحكم به لي، لأنّ ضياءه ونوره عندي، ولهبه وحريقه ذاه عنّي، فهذه قضيّة عميقة، فأحسبها عدد كلّ قصبة في هذه الأجمة وكانت عن يمينه أجمة قصب، فتشهّد الدهقان وقال: يا مولاي! الّذي فهَّم إبراهيم وموسى وعيسى ومحمّداً عليهم السلام مفهّمهم مفهّمكها يا أمير المؤمنين، فهو الله[1] المشار إليه، ولا أثر بعد عين، مدَّ يدك فأنا أشهد أن لا إلّه إلا الله وحده لا شريك له، وأنّ محمداً عبده ورسوله، وأنّك الإمام والوصيّ المفترض الطاعة[2].

● النجوم: رويت بعدّة طرق إلى يونس بن عبد الرحمن في جامعه الصغير بإسناده قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: جعلت فداك أخبرني عن علم النجوم ما هو؟

فقال: هو علم من علم الأنبياء.

قال: فقلت: كان عليّ بن أبي طالب عليه السلام يعلمه؟

فقال: كان أعلم الناس به[3].

● النجوم: وجدت في كتاب عتيق عن عطا قال: قيل لعليّ بن أبي طالب عليه السلام: هل كان للنجوم أصل؟

قال: نعم، نبيّ من الأنبياء قال له قومه: إنّا لا نؤمن بك حتّى تعلّمنا بدء الخلق

---

(١) كذا، لكن يظهر من البيان الآتي أن الصحيح «فهو الله» بلا واو.

(٢) البحار ج٥٥ ص٢٣٢، ح١٤.

(٣) البحار ج٥٥ ص٢٣٥، ح١٥.

وآجاله، فأوحى الله عزّ وجلّ إلى غمامة فأمطرتهم، واستنقع[1] حول الجبل ماءٌ صاف، ثمّ أوحى الله عزّ وجلّ إلى الشمس والقمر والنجوم أن تجري في ذلك الماء، ثمّ أوحى الله عزّ وجلّ إلى ذلك النبيّ أن يرتقي هو وقومه على الجبل فارتقوا الجبل فقاموا على الماء حتّى عرفوا بدء الخلق وآجاله بمجاري الشمس والقمر والنجوم وساعات الليل والنهار، وكان أحدهم يعلم متى يموت ومتى يمرض، ومن ذا الّذي يولد له من ذا الّذي لا يولد له، فبقوا كذلك برهة من دهرهم، ثمّ إنّ داود عليه السلام قاتلهم على الكفر، فأخرجوا إلى داود في القتال من لم يحضره أجله، ومن حضر أجله خلّفوه في بيوتهم، فكان يقتل من أصحاب داود عليه السلام ولا يقتل من هؤلاء أحد!

فقال داود عليه السلام: ربّ أقاتل على طاعتك، ويقاتل هؤلاء على معصيتك، يقتل أصحابي ولا يقتل من هؤلاء أحد فأوحى الله عزّ وجلّ: إنّي كنت علّمتهم بدء الخلق وآجاله، وإنّما أخرجوا إليك من لم يحضره أجله، ومن حضر أجله خلّفوه في بيوتهم، فمن ثمّ يقتل من أصحابك ولا يقتل منهم أحد.

قال داود عليه السلام: يا ربّ على ماذا علّمتهم؟

قال: على مجاري الشمس والقمر والنجوم وساعات الليل والنهار.

قال: فدعا الله عزّ وجلّ فحبس الشمس عليهم، فزاد النهار واختلطت الزيادة بالليل والنهار فلم يعرفوا قدر الزيادة فاختلط حسابهم.

وقال عليّ عليه السلام: فمن ثمّ كره النظر في علم النجوم[2].

● الدر المنثور: قال: قيل لعليّ بن أبي طالب عليه السلام: هل كان للنجوم أصلٌ؟

قال: نعم، كان نبيّ من الأنبياء يقال له: «يوشع بن نون»، فقال له قومه - وساق إلى قوله - ثمّ أوحى إلى يوشع بن نون أن يرتقي - إلى آخر الخبر -[3].

● النجوم: نقلاً من كتاب ربيع الأبرار، عن عليّ عليه السلام: من اقتبس علماً من علم النجوم من حملة القرآن ازداد به إيماناً ويقيناً، ثمّ تلا: ﴿إِنَّ فِي ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾[4] [5].

---

(١) استنقع الماء: اجتمع

(٢) البحار ج٥٥ ص٢٣٦، ح١٧.

(٣) الدر المنثور: ج٣، ص٣٥، البحار ج٥٥ ص٢٣٦ - ٢٣٧، ح١٩.

(٤) سورة يونس، الآية: ٤.

(٥) البحار ج٥٥ ص٢٥٤ - ٢٥٥، ح٤٣ - ٤٤.

● وفيه أيضاً عن عليّ عليه السلام: يكره أن يسافر الرجل أو يتزوّج في محاق الشهر، وإذا كان القمر في العقرب[(١)].

● وذكر الخطيب في تاريخ بغداد، حديثاً أسنده إلى تميم بن الحارث، عن أبيه، عن عليّ عليه السلام: أنّه يكره أن يتزوّج الرجل أو يسافر إذا كان القمر في محاق الشهر أو العقرب[(٢)].

● وفي كتاب ربيع الأبرار: فيما رواه عن مولانا عليّ عليه السلام: ويُروى أنّ رجلاً قال: إنّي أريد الخروج في تجارة لي وذلك في محاق الشهر.

فقال: أتريد أن يمحق الله تجارتك؟ تستقبل هلال الشهر بالخروج[(٣)].

● الاحتجاج والنهج: من كلام له قاله لبعض أصحابه لمّا عزم على المسير إلى الخوارج فقال له: يا أمير المؤمنين إن سرت في هذا الوقت خشيت أن لا تظفر بمرادك من طريق علم النجوم.

فقال عليه السلام: أتزعم أنّك تهدي إلى الساعة الّتي من سار فيها صُرف عنه السوء، وتخوّف الساعة الّتي من سار فيها حاق به الضرّ؟ فمن صدّقك بهذا فقد كذّب القرآن، واستغنى عن الاستعانة بالله [تعالى] في نيل محبوب ودفع المكروه، وتبتغي في قولك للعامل بأمرك أن يولّيك الحمد دون ربّه، لأنّك بزعمك أنت هديته إلى الساعة الّتي نال فيها النفع وأمن فيها الضرّ.

ثمّ أقبل عليه السلام على الناس فقال: أيّها الناس! إيّاكم وتعلّم النجوم إلاّ ما يهتدى به في برّ أو بحر، فإنّها تدعو إلى الكهانة، المنجّم كالكاهن ، والكاهن كالساحر، والساحر كالكافر، والكافر في النار، سيروا على اسم الله وعونه[(٤)].

● روى ابن أبي الحديد هذه الرواية [بوجه آخر] أبسط ممّا أورده السيّد رحمه الله نقلاً من كتاب صفّين لابن ديزيل مرسلاً قال: عزم عليّ عليه السلام على الخروج من الكوفة إلى الحروريّة، وكان في أصحابه منجّم.

فقال له: يا أمير المؤمنين لا تسر في هذه الساعة، وسر على ثلاث ساعات مضين

(١) البحار ج٥٥ ص٢٥٤، ح٤١.
(٢) البحار ج٥٥ ص٢٥٤، ح٤٢.
(٣) البحار ج٥٥، ص٢٥٤-٢٥٥، ح٤٤.
(٤) الاحتجاج: ١٢٥، النهج: ج١ ص١٢٨، البحار ج٥٥ ص٢٥٧ - ٢٥٨، ج٥٠.

من النهار، فإنّك إن سرت في هذه الساعة أصابك وأصحابك أذى وضرّ شديد، وإن سرت في الساعة الّتي أمرتك بها ظفرت وظهرت وأصبت ما طلبت.

فقال له عليّ عليه السلام: أتدري ما في بطن فرسي هذا أذكر أم أنثى؟

قال: إن حسبت علمت.

فقال عليه السلام: فمن صدّقك بهذا فقد كذّب القرآن، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ - الآية(١)-».

ثمّ قال عليه السلام: إنّ محمداً صلى الله عليه وآله ما كان يدّعي علم ما ادّعيت علمه، أتزعم أنّك تهدي إلى الساعة الّتي يصيب النفع من سار فيها، وتصرف عن الساعة الّتي يحيق السوء بمن سار فيها؟ فمن صدّقك بهذا فقد استغنى عن الاستعانة بالله جلّ وعزّ في صرف المكروه عنه، وينبغي للموقن بأمرك أو يولّيك الحمد دون الله جلّ جلاله، لأنّ بزعمك هديته إلى الساعة الّتي يصيب النفع من سار فيها، وصرفته عن الساعة الّتي يحيق السوء بمن سار فيها، فمن آمن بك في هذا لم آمن عليه أن يكون كمن اتّخذ من دون الله ضدّاً ونداً، اللّهمَّ لا طير إلاّ طيرك، ولا ضير إلّا ضيرك، ولا إلّه غيرك ثمّ قال: بل نخالف ونسير في الساعة الّتي نهيتنا، ثمّ أقبل على الناس فقال:

أيّها الناس! إيّاكم والتعلّم للنجوم، إلاّ ما يهتدى به في ظلمات البرّ والبحر، إنّما المنجّم كالكاهن، والكاهن كالكافر، والكافر في النار، أما والله إن بلغني أنّك تعمل بالنجوم لأخلّدنّك السجن أبداً ما بقيت، ولأحرّمنّك العطاء ما كان لي سلطان ثمّ سار في الساعة الّتي نهاه عنه المنجّم فظفر بأهل النهر، وظهر عليهم ثمّ قال: لو سرنا في الساعة الّتي أمرنا بها المنجّم لقال الناس سار في الساعة الّتي أمر بها المنجّم وظفر وظهر، أما إنّه ما كان لمحمّد صلى الله عليه وآله منجّم ولا لنا من بعده حتّى فتح الله علينا بلاد كسرى وقيصر، أيّها الناس توكّلوا على الله وثقوا به، فإنّه يكفي ممّن سواه(٢).

◎ في النهي عن الاستمطار بالأنواء والطيرة والعدوى

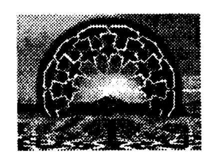
عن الحسن بن محمّد بن سماعة وأحمد بن الحسن القزّاز، جميعاً عن صالح بن خالد، عن ثابت بن شريح، عن أبان بن تغلب، عن عبد الأعلى الثعلبيّ، ولا أراني إلاّ

(١) سورة لقمان، الآية: ٣٤.

(٢) البحار ج٥٥ ص٢٦٤ - ٢٦٥.

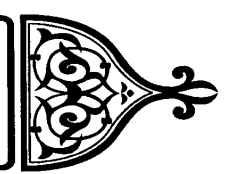
وقد سمعته من عبد الأعلى، عن أبي عبد الرحمن السلمي أنّ علياً عليه السلام قرأ بهم الواقعة: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾[1].

فلمّا انصرف قال: إنّي قد عرفت أنّه سيقول قائل: لم قرأ هكذا قراءتها، إنّي سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقرأها كذلك، وكانوا إذا مطروا قالوا: مطرنا بنوء كذا وكذا، فأنزل الله: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾[2].

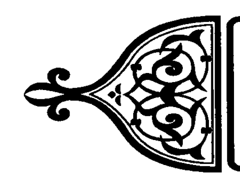


(١) سورة الواقعة، الآية: ٨٢.

(٢) تفسير علي بن إبراهيم القمي ٦٦٣، البحار ج٥٥ ص٣١٣ - ٣١٤، ح١.



سعادة الأيام ونحوستها



◎ الأيام والساعات والليل والنهار

● النهج: قال عليه السلام وقد سئل عن مسافة ما بين المشرق والمغرب: مسيرة يوم للشمس(١) (٢).

● ارشاد القلوب: بإسناده رفعه إلى الكاظم عليه السلام، عن آبائه عليهم السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: إن الله تعالى فرض على أمّة محمّد صلى الله عليه وآله في اللّيل والنّهار خمس صلوات في خمسة أوقات، اثنتان بالليل وثلاث بالنهار، ثمّ جعل هذه الخمس صلوات تعدل خمسين صلوةً، وجعلها كفّارة خطاياهم(٣) (الخبر).

● العلل والعيون والخصال: عن محمّد بن عمر والبصريّ، عن محمّد بن عبد الله الواعظ، عن عبد الله بن أحمد بن عامر الطائيّ، عن أبيه، عن الرضا، عن آبائه عليهم السلام قال: سأل الشاميّ أمير المؤمنين عليه السلام عن الأيّام وما يجوز فيها من العمل.

فقال عليه السلام: يوم السبت يوم مكر وخديعة، ويوم الأحد يوم عرس وبناء ويوم الاثنين يوم سفر وطلب، ويوم الثلاثاء يوم حرب ودم، ويوم الأربعاء يوم شوم فيه يتطيّر الناس، ويوم الخميس يوم الدخول على الأمراء وقضاء الحوائج، ويوم الجمعة يوم خطبة ونكاح(٤).

---

(١) نهج البلاغة: ج١، ص٢٠٧.

(٢) لعلّ عدوله عليه السلام عن الجواب الحقيقي إلى الإقناعيّ للإشعار بقلّة الفائدة في معرفة تلك المسافة نحو ما قيل في قوله تعالى: ﴿قُلْ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ أو لعسر إثباتها على وجه لا يبقى للمنافقين من الحاضرين سبيل إلى الإنكار، كما صرّح عليه السلام به في جواب من سأل عن عدد شعر لحيته، أو لعدم استعداد الحاضرين لفهمه بحجّة ودليل، وعدم المصلحة في ذكره بلا دليل.

(٣) البحار ج٥٦ ص٤، ح١٠.

(٤) العلل: ج٢، ص٢٨٦، العيون: ج٢، ص٢٤٧، البحار ج٥٦ ص٢٣، ح٤.

● في الديوان المنسوب إلى أمير المؤمنين عليه السلام:

[البحر الوافر]

لنعمَ اليومُ يومُ السبتِ حقّاً ... لصيدٍ إن أردتَ بلا امتراءِ
وفي الأحدِ البناءُ لأنّ فيه ... تبدّى اللهُ في خلقِ السماءِ
وفي الاثنينِ إن سافرتَ فيه ... ستظفرُ بالنجاحِ وبالثراءِ
ومن يُردِ الحجامةَ فالثلثاءُ ... ففي ساعاتِه هرقُ الدماءِ
وإن شربَ امرؤ يوماً دواءً ... فنعمَ اليومُ يومُ الأربعاءِ
وفي يومِ الخميسِ قضاءُ حاجٍ ... ففيه اللهُ يأذنُ بالدعاءِ
وفي الجمعاتِ تزويجٌ وعرسٌ ... ولذّاتُ الرجالِ مع النساءِ
وهذا العلمُ لا يعلمُه إلاّ ... نبيٌّ أو وصيُّ الأنبياءِ[1]

●عن أبي بصير ومحمد بن مسلم، عن أبي عبد الله، عن آبائه عليهم السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: في الجمعة ساعة لا يحتجم فيها أحد إلاّ مات[2].

◎ يوم الأربعاء

● العلل والعيون والخصال: عن محمّد بن عمر البصريّ، عن محمّد بن عبد الله الواعظ، عن عبد الله بن أحمد بن عامر الطائيّ، عن أبيه، عن الرضا، عن آبائه عليهم السلام في سؤالات الشامي، عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: أخبرني عن يوم الأربعاء والتطيّر منه وثقله وأيّ أربعاء هو.

فقال عليه السلام: آخر أربعاء [في الشهر] وهو المحاق وفيه قتل قابيل هابيل أخاه، ويوم الأربعاء ألقي إبراهيم عليه السلام في النار ويوم الأربعاء وضعوا المنجنيق، ويوم الأربعاء غرق الله فرعون، ويوم الأربعاء جعل الله عزّ وجلّ أرض قوم لوط عليها سافلها، ويوم الأربعاء أرسل الله عزّ وجلّ الريح على قوم عاد، ويوم الأربعاء أصبحت كالصريم، ويوم الأربعاء سلط الله على نمرود البقّة، ويوم الأربعاء طلب فرعون موسى ليقتله،

---

(١) البحار ج٥٦ ص٢٨ - ٢٩.

(٢) الخصال: ١٧١، البحار ج٥٦ ص٣٤، ح١٠. قد جرب مراراً في الحجامة يوم الجمعة أنه لم يرقأ الدم حتى مات وما ورد من فعلهم عليهم السلام لا ينافيه، لأنهم يعلمون تلك الساعة فيجتنبونها، أو هذا فيما إذا لم يقرأ آية الكرسي. ولما ذكره الصدوق رحمه الله من الفرق بين الضرورة وعدمها أيضاً وجه؟

ويوم الأربعاء خرّ عليهم السقف من فوقهم، ويوم الأربعاء أمر فرعون بذبح الغلمان، ويوم الأربعاء خرب بيت المقدس، ويوم الأربعاء أحرق مسجد سليمان بن داودو بإصطخر من كورة فارس، ويوم الأربعاء قتل يحيى بن زكريّا، ويوم الأربعاء أظلّ قوم فرعون أوّل العذاب، ويوم الأربعاء خسف الله عزّ وجلّ بقارون، ويوم الأربعاء ابتلى الله أيّوب عليه السلام بذهاب ماله [وولده] ويوم الأربعاء أدخل يوسف عليه السلام السجن، ويوم الأربعاء قال الله عزّ وجلّ: ﴿أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[١]، ويوم الأربعاء أخذتهم الصيحة، ويوم الأربعاء عقروا الناقة، ويوم الأربعاء أمطر عليهم حجارة من سجّيل، ويوم الأربعاء شجّ النبيّ صلى الله عليه وآله وكسرت رباعيّته، ويوم الأربعاء أخذت العماليق التابوت[٢] [٣].

● عن أبي بصير، عن أبي عبد الله، عن آبائه، عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: توقّوا الحجامة والنورة يوم الأربعاء، فإنّ يوم الأربعاء نحس مستمرّ، وفيه خلقت جهنّم[٤].

● عن محمد بن مسلم، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: ينبغي للرجل أن يتوقّى النورة يوم الأربعاء فإنّه يوم نحس مستمرّ[٥].

◎ سعادة أيام الشهور العربية ونحوستها وما يصلح في كل يوم منها من الأعمال

● عن أبي بصير ومحمّد بن مسلم، عن أبي عبد الله، عن آبائه عليهم السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: إذا أراد أحدكم أن يأتي أهله فليتوقّ أوّل الأهلّة وأنصاف الشهور، فإنّ الشيطان يطلب الولد في هذين الوقتين، والشياطين يطلبون الشرك فيهما فيجيئون ويحبلون[٦].

---

(١) سورة النمل، الآية: ٥١.

(٢) العلل: ج٢، ص٢٨٣، العيون: ج١، ص٢٤٧، البحار ج٥٦ ص٤١ - ٤٢، ح١.

(٣) قال الصدوق رحمه الله: من اضطرّ إلى الخروج في سفر يوم الأربعاء أو تبيّغ به الدم في يوم الأربعاء فجائز له أن يسافر أو يحتجم فيه ولا يكون ذلك شؤماً عليه لا سيما إذا فعل ذلك خلافاً على أهل الطيرة، ومن استغنى عن الخروج فيه أو عن إخراج الدم فالأولى أن يتوقّى ولا يسافر ولا يحتجم.

(٤) الخصال: ٢٨ -٢٩، البحار ج٥٦ ص٤٥، ح٩ - ١٠.

(٥) المصدر نفسه.

(٦) البحار ج٥٦ ص٥٤، ح١.

● وكان أمير المؤمنين عليه السلام يكره أن يسافر الرجل أو يتزوّج والقمر في المحاق(١).

◄ اليوم الخامس

● قال أمير المؤمنين عليه السلام : من ولد فيه يكون أخرس أو ألثغ(٢).

◄ اليوم السادس عشر

● قال مولانا أمير المؤمنين عليه السلام : من مرض فيه خيف عليه الهلاك(٣).

◄ اليوم التاسع عشر

● وقال أمير المؤمنين عليه السلام : من ولد فيه يكون مرزوقاً مباركاً(٤).

● قال مولانا أمير المؤمنين عليه السلام : من سافر فيه رجع سالماً غانماً، وقضى الله حوائجه وحصّنه من جميع المكاره(٥).

◄ اليوم الثالث والعشرون

● قال مولانا أمير المؤمنين عليه السلام : ولد فيه بنيامين أخو يوسف، ومن ولد فيه يكون مرزوقاً مباركاً(٦).

◄ اليوم الرابع والعشرون

● قال أمير المؤمنين عليه السلام : من ولد في هذا اليوم علا أمره إلاّ أنّه يكون حزيناً حقيراً، ومن مرض فيه طال مرضه(٧).

● وقال أمير المؤمنين عليه السلام : استعيذوا فيه بالله تعالى(٨).

● قال أمير المؤمنين عليه السلام : ولد فيه يعقوب عليه السلام من ولد فيه يكون مرزوقاً محبوباً عند أهله لكنّه تكثر أحزانه ويفسد بصره(٩).

---

(١) البحار ج٥٦ ص٥٤.
(٢) البحار ج٥٦ ص٦٧.
(٣) البحار ج٥٦ ص٦٩.
(٤) البحار ج٥٦، ص٧٣.
(٥) البحار ج٥٦ ص٧٥.
(٦) البحار ج٥٦ ص٧٩.
(٧) البحار ج٥٦ ص٨٠.
(٨) البحار ج٥٦ ص٨٢.
(٩) البحار ج٥٦ ص٨٥.

◄ اليوم الثامن والعشرون

● قال مولانا أمير المؤمنين عليه السلام من ولد فيه يكون صبيح الوجه مسعود الجدّ مباركاً ميموناً، ومن طلب فيه شيئاً تمّ له وكانت عاقبته محمودة[١].

◄ اليوم الثلاثون

● قال مولانا أمير المؤمنين عليه السلام: من ولد فيه يكون حليماً مباركاً صادقاً أميناً يعلو شأنه، ومن ضاع له شيء يجده بإذن الله تعالى[٢].

◄ يوم النيروز وتعيينه

● العلل والعيون: عن أحمد بن زياد الهمدانيّ، عن عليّ بن إبراهيم، عن أبيه، عن أبي الصلت الهرويّ، عن عليّ بن موسى الرضا، عن آبائه عليهم السلام قال: أتى عليّاً بن أبي طالب عليه السلام قبل مقتله بثلاثة أيّام رجل من أشراف تميم يقال له: «عمرو».

فقال له: يا أمير المؤمنين أخبرني عن أصحاب الرسّ في أيّ عصر كانوا؟ وأين كانت منازلهم؟ ومن كان ملكهم؟ وهل بعث الله عزّ وجلّ إليهم رسولاً أم لا! وبماذا أهلكوا؟ فإنّي أجد في كتاب الله عزّوجل ذكرهم ولا أجد خبرهم.

فقال له عليّ عليه السلام: لقد سألت عن حديث ما سألني عنه أحد قبلك ولا يحدّثك به أحد بعدي إلاّ عنّي، وما في كتاب الله عزّوجل آية إلاّ وأنا أعرف تفسيرها، وفي أيّ مكان نزلت من سهل أو جبل، وفي أيّ وقت من ليل أو نهار، وإنّ ههنا لعلماً جمّاً - وأشار إلى صدره - ولكن طلاّبه يسير، وعن قليل يندمون لو فقدوني!

كان قصّتهم يا أخا تميم أنّهم كانوا قوماً يعبدون شجرة صنوبر يقال لها: «شاه درخت» كان يافث بن نوح غرسها على شفير عين يقال لها: «وشناب» كانت أنبطت لنوح عليه السلام بعد الطوفان، وإنّما سمّوا أصحاب الرسّ لأنّهم رسّوا نبيّهم في الأرض، وذلك بعد سليمان بن داود عليه السلام، وكانت لهم اثنتا عشرة قرية على شاطىء نهر يقال له: «الرسّ» من بلاد المشرق، وبهم سمّي ذلك النهر، ولم يكن يومئذ في الأرض نهر أغزر منه، ولا أعذب منه، ولا قُرىً أكثر ولا أعمر منها، تسمّى إحداهنَّ: «أبان» والثانية: «آذر» والثالثة: «دي» والرابعة: «بهمن» والخامسة: «إسفندار» والسادسة: «فروردين» والسابعة: «أردي بهشت» والثامنة: «أرداد» والتاسعة: «مرداد» والعاشرة:

---

(١) البحار ج٥٦ ص٨٦.

(٢) البحار ج٥٦ ص٨٩.

«تير» والحادية عشرة: «مهر»، والثانية عشرة: «شهريور» وكانت أعظم مدائنهم: «اسفندار» وهي الّتي ينزلها ملكهم، وكان يسمّى تركوز بن غابور بن يارش بن سازن بن نمرود بن كنعان فرعون إبراهيم عليه السلام وبها العين والصنوبرة وقد غرسوا في كلّ قرية منها حبّةً من طلع تلك الصنوبرة، وأجروا إليها نهراً من العين الّتي عند الصنوبرة، فنبتت الحبّة وصارت شجرة عظيمة، وحرّموا ماء العين والأنهار فلا يشربون منها ولا أنعامهم، ومن فعل ذلك قتلوه، ويقولون هو حياة آلهتنا فلا ينبغي لأحد أن ينقص من حياتها، ويشربون هم وأنعامهم من نهر الرّس الّذي عليه قراهم، وقد جعلوا في كلّ شهر من السنة في كلّ قرية عيداً يجتمع إليه أهلها، فيضربون على الشجرة الّتي بها كلّه من حرير فيها من أنواع الصور، ثمّ يأتون بشاة وبقر، فيذبحونها قرباناً للشجرة، ويشعلون فيها النيران بالحطب، فإذا سطع دخان تلك الذبائح وقتارها في الهواء وحال بينهم وبين النظر إلى السماء خرّوا للشجرة سجّداً، ويبكون ويتضرّعون إليها أن ترضى عنهم فكان الشيطان يجيىء فيحرّك أغصانها ويصيح من ساقها صياح الصبّي أن قد رضيت عنكم عبادي فطيبوا نفساً وقرّوا عيناً فيرفعون رؤوسهم عند ذلك، ويشربون الخمر ويضربون بالمعزف، ويأخذون الدستبند، فيكونون على ذل يومهم وليلتهم، ثمَّ ينصرفون.

وإنّما سمّت العجم شهورها بأبان ماه وآذرماه وغيرهما اشتقاقاً من أسماء تلك القرى، لقول أهلها بعضاً لبعض هذا وعيد شهر كذا حتّى إذا كان عيد قريتهم العظمى اجتمع إليهم صغيرهم وكبيرهم، فضربوا عند الصنوبرة والعين سرادقاً من ديباج عليه من أنواع الصور، له اثنا عشر باباً كلّ باب لأهل قرية منهم ويسجدون للصنوبرة خارجاً من السرداق، ويقرّبون لها الذبائح أضعاف ما قرَّبوا للشجرة في قراهم، فيجيىء إبليس عند ذلك فيحرّك الصنوبرة تحريكاً شديداً، فيتكلّم من جوفها كلاماً جهوريّاً، ويعدهم ويمنّيهم بأكثر ممّا وعدتهم ومنتّهم الشياطين كلّها، فيرفعون رؤوسهم من السجود وبهم من الفرح والنشاط مالا يفيقون ولا يتكلّمون من الشرب والعزف، فيكونون على ذلك اثني عشر يوماف ولياليها بعدد أعيادهم سائر السنة؛ ثمّ ينصرفون.

فلمّا طال كفرهم بالله عز وجلّ وعبادتهم غيره بعث الله عزّ وجلّ إليهم نبيّاً من بني اسرائيل من ولد يهودا بن يعقوب، فلبث فيهم زماناً طويلاً يدعوهم إلى عبادة الله عزّ وجلّ ومعرفة ربوبيّته فلا يتّبعونه، فلمّا رأى شدّة تماديهم في الغيّ والضلال، وتركهم قبول ما دعاهم إليه من الرشد والنجاح، وحضر عيد قريتهم العظمى قال: يا ربّ إنّ عبادك أبوا إلاّ تكذيبي، والكفر بك، وغدوا يعبدون شجرة لا تنفع ولا تضرّ، فأيبس

شجرهم أجمع، وأرهم قدرتك وسلطانك، فأصبح القوم وقد يبس شجرهم كلّه، فهالهم ذلك، وقطع بهم وصاروا فرقتين:

فرقة قالت سحر آلهتكم هذا الرجل الّذي زعم أنّه رسول ربّ السماء والأرض ليصرف وجوهكم عن آلهتكم إلى إلّهه.

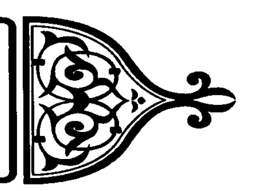
وفرقة قالت: لا، بل غضبت آلهتكم حين رأت هذا الرجل يعيبها ويقع فيها ويدعوكم إلى عبادة غيرها، فحجبت حسنها وبهاءها لكي تغضبوا لها فتنتصروا منه. فأجمع رأيهم على قتله، فاتّخذوا أنابيب طوالاً من رصاص واسعة الأفواه، ثمّ أرسلوها في قرار العين إلى أعلى الماء واحدة فوق الأخرى مثل البرابخ، ونزحوا ما فيها من الماء، ثمّ حفروا في قرارها بئراً ضيّقة المدخل عميقة، وأرسلوا فيها نبيّهم، وألقموا فاها صخرة عظيمة، ثمّ أخرجوا الأنابيب من الماء وقالوا: نرجو الآن أن ترضى عنّا آلهتنا إذا رأت أنّا قد قتلنا من كان يقع فيها، ويصدّ عن عبادتها، ودفنّاه تحت كبيرها، يتشفّى منه فيعود لنا نورها ونضرتها كما كان.

فبقوا عامّة يومهم يسمعون أنين نبيّهم عليه السلام وهو يقول: سيّدي قد ترى ضيق مكاني، وشدّة كربي، فارحم ضعف ركني، وقلّة حيلتي، وعجّل بقبض روحي، ولا تؤخر إجابة دعوتي. حتّى مات عليه السلام فقال الله جلّ جلاله لجبرئيل عليه السلام:

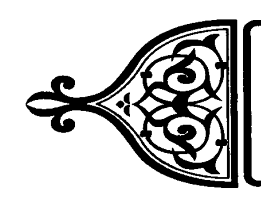
يا جبرئيل! أيظنّ عبادي هؤلاء الّذين غرّهم حلمي وأمنوا مكري وعبدوا غيري وقتلوا رسولي أن يقدموا لغضبي أو يخرجي من سلطاني؟! كيف وأنا المنتقم ممّن عصاني، ولم يخش عقابي. وإنّي حلفت بعزّتي وجلالي لأجعلنّهم عبرةً ونكالا للعالمين، فلم يدعهم - وهم في عيدهم ذلك - إلاّ بريح عاصف شديد الحمرة، فتحيّروا فيها وذعروا منها، وانضم بعضهم إلى بعض، ثمّ صارت الأرض من تحتهم حجر كبريت يتوقّد، وأظلّهم سحابة سوداء فألقت عليهم كالقبّة جمراً يلتهب، فذابت أبدانهم كما يذوب الرصاص في النار فنعوّذ بالله تعالى ذكره من غضبه ونزول نقمته ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم[١].

---

(١) العلل، ج١، ص٣٨ -٤١، العيون: ج١، ص٢٠٥ - ٢٠٩، البحار ج٥٦ ص١٠٩ - ١١٣، ح٧هـ.



الملائكة أطوارها ومهامها التدبيرية



◎ حقيقة الملائكة وصفاتهم وشؤونـهم

● تفسير القمي: عن بعض أصحابه يرفعه إلى الأصبغ بن نباته، قال: قال أمير المؤمنين: إنّ لله ملكاً في صورة الديك الأملح الأشهب، براثنه في الأرض السابعة وعرفه[1] تحت العرش، له جناحان: جناح بالمشرق، وجناح بالمغرب.

فأما الجناح الذي في المشرق فمن ثلج.

وأمّا الجناح الّذي في المغرب فمن نار، وكلّما حضر وقت الصلاة قام على براثنه ورفع عرفه من تحت العرش، ثمَّ أمال أحد جناحيه على الآخر يصفق بهما كما يصفق الديكة في منازلكم، فلا الّذي من الثلج يطفيء النار، ولا الّذي من النار يذيب الثلج، ثمَّ ينادي بأعلى صوته: أشهد أن لا إله إلاّ الله؟ وأشهد أنّ محمّداً عبده ورسوله خاتم النبيّين، وأنّ وصيّه خير الوصيّين، سبّوح قدّوس ربّ الملائكة والروح، فلا يبقى في الأرض ديك إلاّ أجابه، وذلك قوله: ﴿وَٱلطَّيْرُ صَـٰٓفَّـٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾[2] [3].

◎ النشاطات الحيوية للملائكة:

● قال أمير المؤمنين عليه السلام في خلقة الملائكة: وملائكة خلقتهم وأسكنتهم سماواتك، فليس فيهم فترة، ولا عندهم غفلة، ولا فيهم معصية هم أعلم خلقك بك، وأخوف خلقك منك، وأقرب خلقك إليك، وأعملهم بطاعتك ولا يغشاهم نوم العيون، ولا سهو العقول، ولا فترة الأبدان، لم يسكنوا الأصلاب ولم تضمّهم الأرحام، ولم تخلقهم من ماء مهين، أنشأتهم إنشاءً فأسكنتهم سماواتك وأكرمتهم بجوارك وائتمنتهم على وحيك، وجنّبتهم الآفات، ووقيتهم البليّات وطهّرتهم من الذنوب، ولولا قوتك لم

---

(١) العرف - كالقفل -: لحمة مستطيلة في أعلى رأس الديك.

(٢) تفسير القمي: ٣٥٩، البحار ج٥٦ ص١٧٣ - ١٨٤، ج٣.

(٣) سورة النور، الآية: ٤١.

يقووا، ولا تثبيتك لم يثبتوا، ولولا رحمتك لم يطيعوا، ولولا أنت لم يكونوا، أما إنّهم على مكانتهم منك وطواعيتهم إيّاك ومنزلتهم عندك وقلّة غفلتهم عن أمرك لو عاينوا ما خفي عليهم منك لاحتقروا أعمالهم، ولأزروا على أنفسهم؛ ولعلموا أنهم لم يعبدوك حقّ عبادتك، سبحانك خالقاً ومعبوداً! ما أحسن بلادك عند خلقك[1]

وفي هذا الحديث تفصيل لصورة الملائكة في جوانب مرّ بعضها ولكنها جاءت أكثر تفصيلاً، فأول ما بدأ الإمام بالإشارة إليه: هو أن الله خلقهم ليكونوا سكان السماء مثلما خلق البشر ليسكنوا الأرض وهم يتصفون بعدم الفتور والفترة في العادة تنشأ عن التعب والكلل، وهي حالة تصيب البدن، وهذا يدل على أن لهم أبداناً قادرة على التجديد واستعادة القوة دون أن تمر بحالة الفتور التي تعني طلب الراحة، ولهذا فإن أبدانهم قادرة على بذل الجهد واستعادة النشاط، فالتعب في العادة يعني نضوب الطاقة في العضلات والخلايا المكونة للبدن، ولهذا تحتاج إلى راحة تستعيد فيها الخلية ما فقدته من سكر.

أما بالنسبة للغفلة **«ولا عندهم غفلة»** فإنها تعني إما عدم الإحاطة أو عدم قدرة الذهن والحواس على مواصلة الانتباه، وهو الشكل الآخر من أشكال التعب، ولكنه تعب الحواس وليس جميع الجسم البشري وانعدامه يعني بالنسبة للملائكة امتلاكها لنمط من الحواس قادرة على مواصلة اليقظة والمتابعة بلا كلل، فهو طبعاً فيؤول إلى قدرة العقل الذي يقف وراء هذه الحواس على مواصلة بذل الجهد والمتابعة.

أما عدم ارتكابهم للمعصية فهو يدلل على عدم وجود نوازع المعصية أصلاً عندهم لانعدام أغلب الغرائز التي تدفع الإنسان إلى ارتكاب المعصية، فهم بلا شهوة للاقتراب إلى الإناث لأنهم لا يتكاثرون كالإنسان ثم إنهم بلا شهوة للطعام ولا يتنافسون في الحصول عليه لأنه متوفر لهم من خلال ما سبق ذكره من نسيم العرش وكذلك بالنسبة للشهوات الأخرى فضلاً عن أن عقولهم التي تحكم وجودهم كبيرة جداً.

وطبعاً إن لهذه الصفات آثاراً من جملتها: قدرة هذه الكائنات العالية على ضبط الأفعال والتصرفات بميزان العقل الذي إذا ما ضبط فعل أداه أحسن آداء، لأنه يوازن بين المصالح والمفاسد ويستخرج بالنتائج مضافاً عدم وجود الغواية أو الشهرة لديهم، مما يساعد بالتضامن مع هذا النمط من العقل الوصول إلى أفل النتائج بالنسبة للسلوك.

---

(١) تفسير القمي: ٥٤٣ - ٥٣٣، البحار ج٥٦ ص١٧٥ - ١٧٦، ح٦.

ولهذا السبب صار الملائكة من أعلم خلق الله به وهذا بدوره يدل على أن علمهم بالله متناسب مع قدرتهم وليس كعلم الله بنفسه أو علم بعض أوليائه به من الذين أطلعهم على مكنون غيبه وأسراره. فالملائكة يعلمون عن الله وعن العالم ما علمهم الله وأطلعهم عليه ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾(١) وهذا يؤيد ما ذهبنا إليه من كون التسبيح والتحميد والذكر ولزومهم له يعادل طريقتهم في رؤية الله واستحضار صفاته بواسطة عقولهم ونفوسهم المبرأة عن الشهوات والأوهام ولذلك صاروا أعلم خلق الله اعتماداً على ما يوحيه لهم عن ذاته.

ويترتب على عمق معرفتهم بالله تعالى بهذه الدرجة شدة خوفهم منه خوفاً يفوق ما عند بقية عباده، خوفاً يتناسب مع علمهم به، فهؤلاء الذين يرون الجحيم ويرون النعيم ويرون عجائب خلق الله ويرون أنفسهم وما تنطوي عليه يعتريهم الخوف من ذلك الجلال وذلك الجبروت الذي لا شبيه له فيكونوا أخوف عباد الله له.

أما قربهم من الله فهو قرب رتبي لأنّهم الأساس في بناء هذا الكون وهم المشرفون عليه وهم الوسائط بين الله وعباده، جعلهم كذلك بمشيئته ولهيمنته عليهم وعلى كل شيء، فهذا لا يعني أنهم الأعبد لله بل أن الله جعل أنبياءه وأولياءه من البشر أقرب خلقه إليه بما ابتلاهم من أنواع البلاء وخرجوا منه أطوع له حتى من الملائكة، ولكن هذا القرب هو قرب أفراد وليس قرب الجنس وبالتالي فإنّ جنس الملائكة يبقى الأقرب، رغم كون بعض البشر أكثر قرباً منهم.

وعن الطاعة فإنهم الأطوع، فالطاعة الشكل الإيجابي للعبارة السابقة التي تقول: «**وليس فيهم معصية**» فالمعصية هي حالة سلبية وعمدها يعني عدم السلب، والطاعة تعبر عن الشكل الإيجابي حيث ينعدم وجود أي دافع للمعصية في نفوسهم فهم كائنات معصومة سباقة إلى تنفيذ إرادة الله وأوامره.

ثم يعود الإمام عليه السلام فيصفهم بعدم النوم، والنوم هو صفة من صفات البشر حيث يفقد الإنسان سيطرته على بدنه ويستسلم إلى غيبوبة يرقد فيها ويستعيد حيويته وهي غير موجودة عند الملائكة كما يقول الحديث، وكذل بالنسبة لسهو العقول أو فترة الأبدان وكلها يعبر انعدامها عن شكل خاص من الحيوية المتواصلة التي لا تعرف الانقطاع، فنحن يمكننا أن نتصور أن عقل الإنسان عقل نبضي تماماً مثل بدنه الذي يشبه التيار

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٢.

المتناوب فكل فترة من التعب والفاعلية والنشاط تعقبها فترة أخرى من فترات الراحة والسكون وانقطاع عمل العقل والحواس، بينما تكون حالة الملائكة تشبه التيار المستمر الذي لا يعرف الانقطاع كما يقتضيه طبيعة دورهم في العالم، فإذا كانوا عصاة فإن النظام في الكون يختل وذكلك إذا أصابهم النوم والسهو فإذا نام الملائكة حدث ما لا يراد حدوثه أثناء النوم أو السهو وهذا جزء من حكمة الله الذي جعل وسائطه تعكس بعض صفاته ولكنها بقدرها كمخلوقات ويدل على سكونهم في الأصلاب.

(ولم تضمهم الأرحام) أي أن نظام التكاثر لديهم يختلف عن نظام البشر وطبعاً فهم لم يخلقوا من ماء مهين. وعليه فقد أنشأهم إنشاء أي أفراداً ونالوا الكرامة لأنه الله اختارهم وسائط بينه وبين مخلوقاته جميعاً.

وجعلهم أمناء على الوحي وهو ليس فقط الرسالات بل جميع ما يخص البشر والطبيعة وكما تمت الإشارة إلى جميع ما يوحيه الله إلى ملائكته لأن الله يبلغ الرسالات والخيرات والكرامات إلى الملائكة، فهم أوّل ما يعلم بالبشائر وبمكارم الله لعباده ثم يبلغونها إلى أنبيائه ونفس الشيء إذا اقتصر معنى الوحي على الرسالات السماوية فإنّهم أيضاً الأمناء عليه كذلك.

أما كونهم لا يصابون بالأمراض والآفات فإنها مشيئة الله فجعلهم أهلاً للمهمة العظيمة التي اختيروا لها، وهو أيضاً يعادل الطهارة من الذنب لأن الذنب هو الفساد ولا يعقل أنه يدب الفساد في أساس الكون لأنه عندئذ سيدب في الكون كله.

والإمام عليه السلام يشير أصلاً إلى أن الله شاء لهم أن يكونوا كذلك فكانوا كما شاء أقوياء ثابتون على الطاعة.

وأهم ما في الحديث أنهم رغم هذا الوصف يجهلون الكثير عن الله وعن عظمته وجهل الملائكة يؤكد أن العلم بالله ذا آفاق متعددة وأنه سبحانه وتعالى غير معروف بصورة مطلقة حتى من قبل الملائكة وذوي الأفق الخاص من الطاعة والمكانة والقرب، وهذا يدلنا على إمكان وجود معرفة تفوق معرفة الملائكة كما أن المعرفة بالله ممتدة إلى آفاق لا نهائية مثله الله سبحانه وتعالى.

ولعل كل طبقة من الملائكة تختلف في قربها ومعرفتها عن الطبقات الأخرى بالله تعالى، ولهذا فإن الملائكة المقربون غير سواهم وكما ينطبق على البشر كذلك فعلم أولياء الله به يختلف عن سواهم.

أما بالنسبة للحديث الذي تحدث عن طبيعة الملائكة جواباً لمن تسأل عنهم هل أنهم يشربون ويأكلون وينكحون؟ فجاء الجواب بنفي هذه الفعاليات عنهم فلا يأكلون أو يشربون إلا أنّهم يعيشون بنسيم العرش وهو المادة التي تهبهم القابلية على الحياة.

وطبعاً سيكون نوع من الأغذية ولكن طريقة الحصول عليها لا تشبه الطريقة التي يتبعها البشر في الحصول على الغذاء، ويمكن أن تشبه طريقة الشجر عندما تتعرض لنور الشمس والأوراق منها على وجه الخصوص، أو كما تتنفس بعض الأحياء حيث يقوم الجلد بوظيفة التنفس بنفس الطريقة التي تؤديها الرئتان في الإنسان.

أما بالنسبة للنوم فإنّه مرّ في بعض الأحاديث أنهم لا ينامون وجاء في أحاديث أخرى أنهم ينامون والتعليل لنومهم بأنه فرق بينهم وبين الله، فإن عدم نومهم لا يعني أنهم أصبحوا كالله تعالى فهم في كل حال مخلوقات لله معلوله لعلة وهم ضعفاء بالنسبة له حتى لو كانت أجسامهم عظيمة فهذا هو الفرق الأهم، فالمخلوق المحتاج إلى الله لا يمكن أن يكون كالله تعالى لنضع له فرقاً بينه وبين خالقه حتى لو تشابه في بعض جوانبه أو كلها لعظم الفاصلة بينهما فإن لنا بصر ولله بصر، ولكن هذا لا يعني أن نَحتاج إلى فرق بيننا وبينه لأن الفرق قائم وموجود أصلاً، ولهذا يمكن ترجيح عدم نومهم على نومهم لأنه أكثر اتساقاً مع مهامهم وأن النوم يضاد بقية صفاتهم.

لكن يبقى الوجهان جائزان لأن الحديث موجود وأن تأويله لا يلغي مضمونه كاحتمال، كما لا يمكن القطع به أو بضده.

وقد كانت أولى الإيضاحات التي نقلها الإمام عليه السلام هي أن الملائكة خلقت مختلفة، وهذا يلفت نظرنا إلى إمكان اختلاف البنى والأعضاء ونظام التغذية بوساطة ما سماه نسيم العرش، والنسيم، هو عبارة عن تيار هوائي هادىء الحركة ولكن هنا لا يمكن أن يكون من هواء لأن الملائكة لا تتغذى بالهواء فلا بد من افتراض تيار من مواد مغذية منطلق من العرش بصورة متواصلة، وهو يعادل الغذاء للبشر الذي يحصل عليه الإنسان من الشمس بواسطة النباتات التي تمتص أشعتها وتحولها إلى مواد سكرية.

إننا نفترض أن الملائكة هنا مزودة بأجهزة وتقوم بهضم نسيم العرش لتديم وجودها، أما بالنسبة للتكاثر فإن الحديث أشار إلى طريق في التكاثر شبيه بما عند الأحياء أحادية الجنس إذ يحصل التكاثر هناك بالانشطار، فجبرائيل ترتعد فرائصه فيخلق الله منه ملائكة في كل رعدة عدد من الملائكة، وهنا أيضاً احتمال أن عملية

التكاثر ليست لعموم الملائكة بل لبعضها كما في عالم النحل حيث تختص الملكة بوضع البيض دون بقية النحل، ولربما كان هذا حال الجميع ولا دليل يؤكد أيّا منها هو السائد.

مسكن الملائكة

◎ السّماء والملائكة

ثمة ترابط بين السّماء وبين الملائكة فمن المعروف أن الملائكة هم سكان السماء ولعل التعرف على مسكن الملائكة يساعدنا في معرفة طبيعتهم كذلك، وقد وردت تصورات قرآنية خاصة تحدد مفهوم السماء في القرآن والحديث، كما وردت تصورات عنها في العلوم الحديثة، فما مدى الاختلاف والاتفاق بين المفهومين؟

◎ مفهوم السّماء

استخدم مصطلح السّموات والأرض في آيات عديدة نذكر منها ما يلي:

﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ. . .﴾[١].

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾. . .[٢].

ولا يوجد مؤشر هنا على حدود معينة تبين لنا حدود السماء ومساحة امتدادها مكانياً، لكننا عموماً نعلم بواسطة الأحاديث وخصوصاً حديث الكساء، أن السماء هي عالم الملائكة الذي يقابل عالم الجن والإنس الذي هو الأرض أو الأرضين. وفي كل الأحوال يمكن من خلال المقارنة اكتشاف الأبعاد التقريبية لمفهوم السماء القرآني مقارنةً بمفهوم الكون المستخدم في العلوم الحديثة التي عرفت الكون بأنه «كل ما هو موجود وما وجد وما سيوجد»[٣].

ويلاحظ على هذا التعريف أنه أيضاً لا يعطي حدوداً للكون لا في الزمان ولا في المكان، فهو زمانياً الوجود الممتد من الماضي إلى المستقبل مع الاعتراف بإمكان وجود موجودات جديدة يمكن أن يضمها الكون. ومكانياً فإن التعريف كذلك خالٍ من أي تحديد.

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٢٠.

(٢) سورة فاطر، الآية: ١.

(٣) الكون: ٢١.

أمّا الوحي فيضع أمام أعيينا مشهداً للكون (للخلق) مغايراً للمشهد الذي نطالعه بحواسنا، فالذي نراه بأعيننا عالم صغير جداً بينما ترسم الآيات والأحاديث صورة ممتدة في الزمان والمكان تعجز العقول عن الإحاطة بها. وبعبارة أخرى أن الآية تطالبنا بدءاً بالخروج عن دائرة الحواس، فهنا بعد زماني يسبق ولادة الإنسان ويستمر إلى ما بعد يوم القيامة وهكذا يكون امتداداً لا يصل إليه الذهن بأي تحديد، ونفس الشيء بالنسبة للمكان الذي يمتد كذلك تصبح الأرض نقطة في بحر لا متناهٍ ويتظافر الدليل العلمي مع الدليل النقلي في تأكيد هذه الصورة، غير أن هذا الامتداد متماسك ويشكّل حالة عالية من الترابط من خلال نقطة ارتكاز قد تكون هي الأخرى تتجاوز الظاهر المعلوم في ذهن الإنسان ألا وهي الطاعة لخالق الكون التي تمنح الوجود التماسك ووحدة الطابع والانسجام.

فهنا ترابط بين مخلوقات حية عاقلة وفضاء زماني ذي أبعاد ممتدة إلى ما شاء الله ترتبط مع هذا الإنسان المحدود، الأمر الذي يدعونا إلى الاستغراب والتساؤل عندما يرسم لنا الوحي مسرحاً بهذا الامتداد يتحرك فيه الملاك والجن والإنسان، وكأنه يريد شدّنا إلى واقع بهذا الامتداد ويعيد انتماءنا إليه بعد أن ينتزعنا عن حدود المحسوس الضيقة، وهو حين يخاطب الإنسان يناغي الأبعاد الشاسعة التي ينطوي عليها وإلا فإنه خطاب بلا طائل إذ لا بد من افتراض تناسق بين الخطاب والمخاطب والأهداف المتوخاة من الخطاب وهذا هو بالفعل ما هو قائم.

وإذا أردنا البحث عن مصدر تفصيلي يصور لنا هذا الامتداد فإن حديث المعراج له أهمية على هذا الصعيد، إذ أنه يعرض لنا صورة عن عالم السماء توضح تفاصيلها التي لم تتعرّض لها الآيات.

◎ السّماء والملائكة في حديث المعراج

عن أبي عبد الله عليه السلام في خبر المعراج، قال النبي صلى الله عليه وآله: وصعد جبرائيل، وصعدت معه إلى السماء الدنيا وعليها ملك يقال له: «إسماعيل» وهو صاحب الخطفة الذي قال الله عز وجل: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾[1] وتحته سبعون ألف ملك تحت كل ملك سبعون ألف ملك، ثم مررت - وساق الحديث إلى قوله -: حتى

---

(١) سورة الصافات، الآية: ١٠.

دخلت السماء الدنيا فما لقيني ملك إلا ضاحكاً مستبشراً، حتى لقيني ملك من الملائكة لم أر خلقاً أعظم منه كريه المنظر ظاهر الغضب فقلت: من هذا يا جبرائل؟

قال: هذا مالك خازن النار - ثم ساق الحديث إلى قوله -: ثم مررت بملك من الملائكة جالس على مجلس وإذا جميع الدنيا بين ركبتيه. وإذا بيده لوح من نور مكتوب فيه كتاب ينظر فيه لا يلتفت يميناً ولا شمالاً مقبلاً عليه كهيئة الحزين.

فقلت: من هذا يا جبرائيل؟

فقال: هذا ملك الموت:

فقال رسول الله ﷺ: ثم رأيت ملكاً من الملائكة جعل الله أمره عجيباً، نصف جسده النار والنصف الآخر ثلج. فلا النار تذيب الثلج ولا الثلج يطفىء النار، وهو ينادي بصوت رفيع ويقول: سبحان الله الذي كف حرّ هذه النار فلا تذيب الثلج. وكفّ برد هذا الثلج فلا يطفىء حرّ هذه النار. اللهم يا مؤلف بين الثلج والنار ألف بين قلوب عبادك المؤمنين.

فقلت: من هذا يا جبرائيل؟

فقال: ملك وكلّه الله بأكناف السماء وأطراف الأرضين وهو أنصح ملائكة الله لأهل الأرض من عباده المؤمنين، يدعو لهم بما تسمع منذ خلق، ورأيت ملكين يناديان في السماء أحدهما يقول:

اللهم أعط كل منفق خلَفاً، والآخر يقول:

اللهم أعط كل ممسك تلَفاً، ثم مررنا بملائكة من ملائكة الله عز وجل خلقهم الله كيف شاء، ووضع وجوههم كيف شاء ليس شيء من أطباق أجسادهم إلا وهو يسبح الله ويحمده من كل ناحية بأصوات مختلفة، أصواتهم مرتفعة بالتحميد والبكاء من خشية الله، فسألت جبرئيل عنهم فقال:

كما ترى خلقوا، أن الملك منهم إلى جنب صاحبه ما كلمه كلمة قط، ولا رفعوا رؤوسهم إلى ما فوقها، ولا خفضوها إلى ما تحتها، خوفاً لله وخشوعاً - ثم صعدنا إلى السماء الثانية فإذا فيها من الملائكة وعليهم الخشوع، وقد وضع الله وجوههم كيف شاء ليس منهم ملك إلا يسبح الله ويحمده بأصوات مختلفة وكذا السماء الثالثة، ثم صعدنا إلى السماء الرابعة وإذا فيها من الملائكة الخشوع مثل ما في السماوات فبشروني بالخير

لي ولأمتي، ثم رأيت ملكاً جالساً على سرير وتحت يديه سبعون ألف ملك تحت كل ملك سبعون ألف ملك - وساق الحديث إلى قوله -:

ثم صعدنا إلى السماء السابعة، قال: ورأيت من العجائب التي خلق الله وصوّر على ما أراده ديكاً رجلاه في تخوم الأرضين السابعة ورأسه عند العرش، وهو ملك من ملائكة الله خلقها الله كما أراد رجلاه في تخوم الأرضين السابعة أقبل مصعداً حتى خرج في الهواء إلى السماء السابعة، وانتهى فيها مصعداً حتى انتهى قرنه إلى قرب العرش وهو يقول:

سبحان ربي حيث ما كنت لا تدري أين ربك من عظم شأنه وله جناحان في منكبيه إذا نشرهما جاوز المشرق والمغرب، فإذا كان في السحر نشر جناحيه وخفق بهما وصرخ بالتسبيح يقول:

سبحان الله الملك القدوس، سبحان الكبير المتعال لا إلّه إلا الله الحي القيوم، وإذا قال ذلك سبحت ديوك الأرض كلها، وخفقت بأجنحتها وأخذت بالصراخ، فإذا سكت ذلك الديك في السماء سكتت ديوك الأرض كلها، ولذلك الديك زغب أخضر، وريش أبيض كأشد بياض رأيته قط. وله زغب أخضر أيضاً تحت ريشه الأبيض كأشد خضرة رأيتها قط»[1].

لقد تطرقنا إلى بعض المقاطع من هذا الحديث في الصفحات السابقة، واخترنا هنا أن ننقله كاملاً كما نقله المجلسي (قدس سره) في هذا الجزء من كتاب بحار الأنوار تفادياً للتكرار ولأننا نريد أن نصف الامتداد الذي تم فهمه من خلال ما ورد فيه من إشارات.

◎ في رحاب حديث المعراج

يعتبر حديث المعراج من أهم الأحاديث التي نقلت صوراً كثيرة عن عالم الغيب بصورة مفصّلة وخصوصاً ما يتعلق بأحوال الملائكة وأشكالهم ومهامهم، ولهذا فإنه نقل ما يستحق الدراسة والعناية خصوصاً أن بعض الصور تتكرر في الأحاديث الأخرى، كما أنه يكشف الكثير من الأسرار والمجاهيل فيساهم في بناء التصورات عن هذا العالم الذي تفصلنا عنه الحجب. وعلى هذا الأساس فإن الكثير من الدقة تلزمنا

(١) بحار الأنوار: ٥٦/ ١٧٣.

للوصول إلى مرامي الحديث كما نحتاج إلى الابتعاد عن الفهم الحرفي والالتفات إلى العلاقات بين الدلالات ولو بصورة ظنية وغير قطعية.

◎ الدنيا والقصوى

إن أوّل ما يلفت النظر مفردة السماء الدنيا في الحديث التي يرد ذكرها في القرآن كثيراً مثل: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾[1]. أو ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًاۚ﴾[2]. فهل المنظور في دنّوها قربها من الأرض ومن الإنسان أم قربها من مركز معين لهذا الكون كأن يكون هو العرش فتكون السابعة هي القصوى أم العكس هو الصحيح؟ ثم ما هي الضوابط التي على أساسها حدد الوحي أن هذه السماء هي الدنيا فرقاً بينها وبين بقية السموات هل هي حدود خاصة تفصل كل سماء عن سواها أم توجد معايير أخرى وما هي؟

وللإجابة عن هذه التساؤلات يمكن لنا للإستعانة بفرضية الأكوان المتعددة العلمية.

◎ فرضيّة تعدد الأكوان

«لقد كنا نعتقد حتى زمن قريب أن الكون دائم ومطلق. وكنا نعتقد منذ سنوات معدودة أننا قد اكتشفنا كيفية تكوين الكون وأخذنا نناقش بشأن المستقبل على المدى البعيد. مثل ما إذا كان الكون سيتمدد ويبرد أم أنه سيعاني من الفناء بالحرارة إذ يتقلص. ولكننا اتفقنا على شيء واحد: إن كوننا هو الكون الوحيد الموجود. وقد تحدث كوارث المادة التي في داخل كوننا، أما الكون نفسه - أي المكان والزمان اللذان تدور الدراما فيهما - فسيظل مستمراً. والآن فإن هذه العقيدة أصبحت موضع شك. بل إن العالم السوفيتي البارز (أندريه لند) يرى أن كوننا يتكون من عدد لا يحصى من أكوان صغيرة منفصلة، قد تختلف قوانينها اختلافاً جذرياً عن الكون الذي اتّفق أننا نوجد فيه»[3].

وتعتمد هذه الفكرة على: «أن كوننا انتفخ في أول جزء من الثانية انتفاخاً هائلاً قبل أن يستقر على تمدده ببطء في العشرين بليون سنة الأخيرة. وهذه النظرية عن «الكون الانتفاخي» تفسر بعض الألغاز التي كانت مصدر إزعاج بالنسبة للنماذج المبكرة

---

(١) سورة الصافات، الآية: ٦.
(٢) سورة فصلت، الآية: ١٢.
(٣) النهاية - الكوارث الكونيّة وأثرها: ٢٨٧.

للانفجار الكبير كما تعطي النظرية تنبؤات قابلة للاختبار عن حالة الكون حالياً وهي تنبؤات ظلت ناجحة حتى الآن وحسب النظرية الانتفاخية»[(١)].

«إن النظرية التي تطرح ذلك تمثل حقيقة علمية يبدو أنها تدل أيضاً على أننا سنكون آمنين إذا كانت هناك أكوان جديدة تنشأ، فهذه الأكوان تصنع مكانها وزمانها الخاصين بها دون أن تتدفق بتدخل من مكاننا وزماننا وهكذا فإنها لن تدمرنا. وفي حدود علمنا الحالي فإن جدار الفقاعة سيكون مثل سطح ثقب أسود»[(٢)].

«والواقع أنّ من الصعب تخيل هذه الفكرة عن كون يظهر فيما يبدو من لا مكان، ومع هذا فإنه مفصول على نحو ما عن المكان والزمان اللذين نوجد فيهما، فهذا كله يحدث في أبعاد تتجاوز خبرتنا المباشرة»[(٣)].

ويمكن لهذا الفهم أن يقرب لنا فكرة وجود السماوات على أساس ما تفيده الآية: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾[(٤)]. فلعل وحيه سبحانه وتعالى لكل سماء أمرها يشير إلى هذا الانفصال، وبالتالي إن ما نطلق عليه لفظة كون والذي عرفناه سابقاً سيعادل سماء واحدة، لأنه فضاء متصل في الزمان والمكان وفي القوانين، ولكن ذلك سيبدو مختلفاً بالنسبة لزمان ومكان آخر مختلف.

◎ نظام الحراسة الكونيّة

كما يلفت النظر في حديث المعراج الحديث ما ورد عن الملك «إسماعيل عليه السلام» ومنحه لقب صاحب الخطفة الماعاً لما ورد في الآية: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾[(٥)] إشارة إلى منع الملائكة للشياطين من الاستماع وحين يخطف أحدهم خطفة فإن الشهاب الثاقب له بالمرصاد وفي الحديث دلالات أولها:

أن حركة الشياطين محصورة في السماء الدنيا فلا يتعدونها إلى الملأ الأعلى ويتحقق ذلك من خلال نظام حراسة هيكلي معتمد على طبقة من الملائكة عددهم «٤٩٠٠,٠٠٠,٠٠٠» ملك مسؤولون عنها، وبناءً على أن الرقم الوارد في الحديث ليس لمجرد بيان الكثرة بل إنه مقصود بحد ذاته، وفي كل الأحوال فإن عدد هؤلاء الملائكة

---

(١) المصدر نفسه: ٢٨٧.
(٢) المصدر نفسه: ٢٨٨.
(٣) المصدر نفسه: ٢٩٠.
(٤) سورة فصلت، الآية: ١٢.
(٥) سورة الصافات، الآية: ١٠.

عدد كبير جداً وموزع على خط أول يفصل بين الشياطين وبين الملأ الأعلى مؤلف من سبعين ألف من الملائكة، وخط ثاني مؤلف من ملائكة تحت إشراف الخط الأول، وكل واحد من هؤلاء يشرف على سبعين ألف ويرأس الجميع «إسماعيل عليه السلام». وبذلك يعطى الحديث فكرة عن وجود نظام حراسة هيكلي مخصص لحماية السماء من تجاوزات الشياطين ويهدف إلى بقائهم ضمن حدود السماء الدنيا وبدوره يعني امتلاك الشياطين قدرة على تجاوز هذه الحدود إلى الملأ الأعلى لو كانت بدون حماية.

وهنا يوجد أمر مسكوت عنه وهي طبيعة الملائكة ومدى ما يمتلكونه من قدرات للتلائم مع الغرض الذي وضعوا لتحقيقه فمثلاً كيف يمكن للملك أن يحافظ على المنطقة المكلف بحراستها من خروقات الشياطين؟ وكم هي المسافة التي يستطيع الملك الواحد حراستها؟ وما هي الأدوات التي يمتلكها لأداء هذا الغرض؟

وإذا لاحظنا المسافات الهائلة في الكون فإن ما تصفه الأحاديث من أبعاد الملائكة تجعل هذه المسافات صغيرة بالنسبة لأحجام الملائكة، كما تصف ذلك الأحاديث التي سنوردها وربما نتصور أن الملائكة أكبر من المكان كما في حديث **(أطت السماء)** الذي سيأتي لاحقاً.

وقد جاء ذكر نفس المضمون عن أبي سعيد الخدري إن رسول الله صلى الله عليه وآله حدّثهم عن ليلة أسري به، قال: «فصعدت أنا وجبرائيل إلى السماء الدنيا، فإذا أنا بملك يقال له «إسماعيل» وهو صاحب السماء الدنيا وبين يديه سبعون ألف ملك مع كل ملك جنده مائة ألف»[1]، وتلا هذه الآية: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾[2].

◎ انسجام المهام مع الصفات

وترد في حديث المعراج عبارة:

«دخلت السماء الدنيا فما لقيني ملك إلا ضاحكاً مستبشراً» التي توحي:

أولاً: أن الحديث لا يزال ينقل أحداثاً تدور في السماء الدنيا.

ثانياً: أن الملائكة مخلوقات سعيدة إما دائماً أو لأنها سعدت بلقاء الرسول صلى الله عليه وآله.

وهناك استثناء في مالك خازن النار ذو الهيئة الغاضبة والمنظر الكريه. ومما يدلك على أن صفات الملائكة ترتبط بمهامهم، ففي النموذج الذي أشار إليه الرسول صلى الله عليه وآله

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦/ ٢٠٠.

(٢) سورة المدثر، الآية: ٣١.

أي مالك عليه السلام جاءت الإشارة إليه لتميزه عن بقية الملائكة بغضبه وقبح منظره. ذلك أن الله أراد له هذه الصورة إمعاناً بالتنكيل بأهل النار ولأجل إحاطتهم بجميع وسائل الرعب، وهذا أبلغ في إيقاع الأذى بهم ثم إنه يؤدي إلى خلق التناسب بين مهمة هذا الملك المقرب وبين صفاته.

وقد جاءت هذه الصورة لتتّسق مع ما نقله القرآن عن ملائكة النار حيث ورد ذلك في الخطاب لمالك عليه السلام: ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَۖ﴾[1] وكذلك في الآية الأخرى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾[2]. وقد أورد المصنف عنها ما يلي:

قوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ قال الطبرسي رحمه الله: أي من الملائكة وهم خزنتها، مالك وثمانية عشر أعينهم كالبرق الخاطف أنيابهم كالصياصي. يخرج لهب النار من أفواههم. ما بين منكبي أحدهم مسيرة سنة. تسع كف أحدهم مثل ربيعة ومضر. نزعت منهم الرحمة، يرفع أحدهم سبعين ألفاً فيرميهم حيث أراد من جهنم[3].

وفي هذا إشارة إلى: إما إلى طبقات النار أو إلى أقسامها، فكل قسم يرأسه أحد الملائكة الثمانية عشر ويرأس الجميع مالك عليه السلام الذي ورد ذكره في آيات أخرى من الذكر الحكيم.

على أن تسمية ملك لا يعني بالضرورة قيامه بكل شيء بل ربما هو مشرف على عدد من زبانية النار، وهم من الملائكة الذين تصفهم الآيات بالغلاظ الشداد الذين ينفذون ما يؤمرون بلا أي تردد!.

وعلى هذا فإن النظام يكون هيكلياً حيث يكون مالك هو الرئيس الأعلى لملائكة النار فيشرف على ثمانية عشر ملكاً آخر، وكل ملك يشرف على عدد كبير من الملائكة الذين يباشرون تعذيب الكفار ومتابعة أحوالهم.

وهنا تدخل النار أيضاً ضمن سلطة الملائكة كما هي الجنة. والفارق بين ملائكة النار والجنة هو حسن المعاملة وخشونتها، وبذلك تكشف الآية عن مسؤوليات الملائكة فضلاً عن إشارتها إلى وجود النظام الهيكلي في الإدارة والذي يمكن استنتاج شموله لجميع أرجاء الكون بحسب تفصيلاته، ومزاياه هي شبيهة بالتخصّصات التي نراها في عالمنا الذي نعيشه حيث يمارس كل عمل فرد ملائم لمهام العمل وطبيعته.

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٧٧.
(٢) سورة المدثر، الآية: ٣٠.
(٣) بحار الأنوار: ١٦٦/٥٦.

وجاء عن رجل من بني تميم قال: كنا عند أبي العوام فقرأ هذه الآية: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ ألفاً؟ قلت: لا، بل تسعة عشر ملكاً. فقال: ومن أين أنت علمت ذلك؟

قلت: لأن الله يقول: ﴿... وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا...﴾[1]:

قال: صدقت هم تسعة عشر ملكاً بيد كل ملك منهم مرزبة من حديد لها شعبتان فيضرب بها الضربة يهوي بها سبعين ألفاً، بين منكبي كل ملك منهم مسيرة كذا وكذا»[2].

وهذا الحديث تفسير لآية تتحدث عن الملائكة الذين يشرفون على النار ورأسهم مالك خازن النار ولعلهم الطبقة الثانية من ملائكة النار، ولا دليل على عدم وجود سواهم، وقد يفهم منه الإشارة إلى وجود عدة طبقات في النار ككل طبقة ملك من هؤلاء ومعه عدد آخر يعملون تحت سلطته من الملائكة عظيمي البنية كما أكدت أحاديث أخرى.

◎ أهميّة السماء الدنيا

ينقل حديث المعراج تصوراً عن أهمية السماء الدنيا لأنه أشار:

أولاً إلى نظام الحراسة الدقيق فيها بقيادة «صاحب الخطفة».

وثانياً: أكد وجود اثنين من أعاظم الملائكة وهما عزرائيل ومالك خازن النار عليهما السلام.

ولعل هذا يجعلنا نعتقد بقرب هذه السماء إلى الملأ الأعلى خصوصاً أن وجود نظام حراسة فيها يركز هذا الانطباع.

كما يلفت النظر وجود إشارة غامضة إلى انشغال عزرائيل بكتاب بين يديه مقبل عليه. وهذا الإقبال يمكن أن يفسر بتفسيرات كثيرة منها: أهمية ما بين يديه، أو أنه أيضاً يستدعي المتابعة المتواصلة.

◎ التطوّر التقني

والحديث يشير إلى أن لوحاً من نور بين يدي عزرائيل واللوح كتاب وهذا يدل على أنه من نوعية خاصة من الكتب متداولة في ذلك العالم، وأن النور بدل عن الورق كما أن

---

(١) سورة المدثر، الآية: ٣١.

(٢) بحار الأنوار: ٥٦/ ٢٠٠.

الكتابة التي كتبت فيه من نور أيضاً، فالكتابة إذن على النور بالنور، وهنا نتساءل عن الكيفية التي تمت بها ويمكن تقريبها إلى أذهاننا بواسطة تصور كومبيوتر أكثر تطوراً من الكومبيوترات المعروفة عندنا.

وإذا اعتبرنا ذلك نموذجاً لبقية الأدوات، فإننا سنلاحظ نمطاً من الحياة المتطوّرة جداً عن حياتنا خصوصاً إذا جمعنا ذلك إلى الإشارات الأخرى من حيث التخصص ومطابقة الصفات للمهام، وغير ذلك من المبادىء التي تنم عن عالم غاية في التطور حتى لو كان شبيهاً بعالمنا من جهات معينة، فإن التشابه لا يدل على التطابق.

◎ غرابة التركيب

ويصف الحديث أشكالاً من الملائكة غريبة التركيب وخارجة عن المألوف لدى البشر حيث أن المألوف، هو أن تكون المواد المركبة لمخلوق ما غير متضادة في حين أن هذا الملك مؤلف من الثلج والنار، وهناك غرابة أخرى إذ أن هذا التضاد أنتج انسجاماً فجاء هذا الملك دائم الذكر لله والدعاء للمؤمنين حتى بات أنصح ملائكة الله لأهل الأرض من المؤمنين.

وهنا إشارة إلى علاقة الحب بين الملائكة وبين المؤمنين فضلاً عن وجود تخصص لم تُوضح طبيعته، وكيف أن هذا الملك وكِلٌ بأكناف السماء وأطراف الأرضين بالجمع، وما هو السبب الذي جعل التضاد فيه غير فعال وغير مؤثر فهل أن نفس التضاد غير مؤثر أم أن المواد المتضادة قادرة على استيعاب التأثيرات كأن تكون كتلة الثلج كبيرة جداً فيكون أثر النار فيها ضعيفاً سرعان ما تعود الكتل الذائبة منه إلى الانجماد مرة أخرى على غرار تحلل وتركب الهليوم في الشمس؟

وهذا يحدث في الكون بصورة عادية في المذنبات حيث تصل المواد التي تمر في المناطق المظلمة إلى درجات عالية من التجمد. وحين تمر قريباً من الشمس فإن بعض أجزائها تتبخر وتلتهب ولكنها تبقى مرتبطة بالجسم «ففي الظلام لما وراء الكواكب داخل الفضاء الذي بين النجوم وعندما يكون النجم التالي ما زال بعيداً وأنت تسافر خلال الظلام، إنه ليل أبدي، وليس هذا فراغاً خاوياً فهناك في أعماق الفضاء المتجمد مذنبات هي جبال ثلج عرضها عدة أميال، ولا تُرى من الأرض وليس لأي منها ضوء خاص به فهي تعكس كسائر المنظومة الشمسية ضوء الشمس فحسب. وهناك في هذا الظلام يكون من الصعب رؤيتها مثلما كان من الصعب رؤية جبل الثلج الذي أغرق

السفينة تيتانيك - هذا المستودع الذي يحوي ١٠٠ بليون جبل ثلج يسمى: «سحابة أورت» وعابرو السبيل الكونيون هؤلاء، أو تلك الشاحنات الموسوقة التي تجوب المنظومة الشمسية. تقوم بالدوران ببطء حول الشمس فيما وراء الكواكب على مسافة جداً بعيدة حتى أنها تظل ثابتة في مسارها بالكاد، وأوهى اضطراب في الفضاء يمكن أن ينحرف بملايين من جبال الثلج هذه للداخل متجهة إلينا»[١].

ولعل هذا النموذج يسهّل علينا تصور وجود ملائكة مكوّنين من ثلج ونار، ويمكن تصوره في حال وجود كتل كبيرة بالنسبة لفرضية تكونه من الماء بصورته المعروفة لدينا أو النار التي نعرفها لكن القضية تكون أسهل عندما نفترض وجود عازل سواء من الهواء أو أية مواد أخرى تمنع التواصل بين الثلج والنار وتديم بقاءهما معاً.

وإذا وضعنا في حساباتنا ما أسلفناه من أن تراكيب الملائكة تتناسب مع مهامهم، يمكننا أن نقول أن هذه التركيبة المتضادة لها علاقة بمهمة هذا الملاك المتعلّقة بأكناف السماء والأرض والتي يمكن أن نتصور أنها تتعلّق بحدود المكان إمّا لضبطه، أو لشيء آخر مجهول.

ولكننا بناءً على ما نعرفه من أن الملائكة مركبة من نور سنتصور أن هذا الثلج والنار من طبيعة مغايرة للثلج والنار الذي نعرفه نحن، والذي هو مؤلف من المواد الجامدة، وبالتالي فإن الثلج والنار يمكن أن يكونا ثلجاً وناراً مشابهين لما عندنا وليسا مطابقين له لأنهما مكونان من نور.

وهكذا نلاحظ عناية الملائكة المشتركة بالإنسان وبالطبيعة مع الارتباط بالله بواسطة التسبيح.

وفي المقطع التالي للحديث يرد ذكر عن ملكين يدعوان للمنفق بالخلف ويدعوان على الممسك بالتلف وفيه إشارة إلى ارتباط هؤلاء بالدعاء للإنسان. دون الإلماع إلى وجود مهمة أخرى أو أن هذه المهمة هي الأولى والأخيرة.

وهنا يجدر القول بعدم وجود ما يخصص الأحوال المذكورة بالمورد الذي ذكرت له فمثلاً، إن عدم ذكر ألواح النور عند ملائكة آخرين لا يعني أنها من خصوصيات ملك الموت بل وقد تكون مستخدمة عند آخرين. لكن الحديث اكتفى بذكر ذاك النموذج

---

(١) النهاية - الكوارث الكونية وأثرها: ٧٣ - ٧٤.

للإشعار بما يوجد في ذلك العالم الغيبي، ووجوده مرة يعني إمكان تكراره في أماكن أخرى بنفس الصورة أو بصورة أخرى.

◎ عجيب خلقة الملائكة

وحين يصل إلى وصف جنس الملائكة يتوصل إلى ذلك بوصفهم بالأشكال المتعارفة لدينا، ولهذا يقول: خلقهم كيف شاء ووضع وجوهم كيف شاء، مشيراً بذلك إلى وجود مبدأ شائع هو مبدأ وجود وجه وقفا رغم أنه ليس بالضرورة أن يكون بالشكل المألوف، فلو أخذنا مثلاً بعض المخلوقات البحرية كالأخطبوط أو نجم البحر فإننا نلاحظ وجود وجه وقفا، رغم غرابة الشكل ويشير الحديث بالعرض إلى أن أجسادهم فيها أطباق تتفاوت رغم ارتباطها لتكوين الكل وهذه الأطباق تصدر أصوات مختلفة تشترك بالتحميد والتسبيح.

◎ نظام الحراسة مرة أخرى

ثم ينقلنا إلى السماء الثانية فيشير إلى وجه الاشتراك فيها فقط مع السماء الدنيا، وهو وجود ملائكة يشبهون آخر ما وصفهم في السماء الدنيا يمارسون التحميد والتسبيح بنفس الكيفية لذا يمكن استنتاج أن آخر السماء الدنيا يشبه أول السماء الثانية ويستمر الحال على ما هو عليه في السماءين الثالثة والرابعة، وعندها يشير إلى ما به الامتياز في السماء الرابعة وهو وجود ملك على سرير. وتحت يديه سبعون ألف ملك تحت كل ملك سبعون ألف ملك وهو مشهد يشابه المشهد الذي نقله عن السماء الدنيا من صاحب الخطفة إلا أنه لم يذكر ما إذا كانت مهمتهم هي نفس المهمة وإذا كانت كذلك فإننا ستتخيّل خطين:

الأول: في السماء الدنيا.

والثاني: في السماء الرابعة يقومان بحماية المنطقة بين الخطين وهذا يذكرنا بطبقة الأوزون التي وضعت لحماية الأرض من الأشعة الضارّة بالطبيعة والإنسان.

وفي السماء السابعة يطلعنا على وجود عجائب من الخلق أهمها الملك الذي على صورة ديك رجله عند تخوم الأرضين، ولفظ أرضين يشعر بوجود العديد من الأجرام الأرضية في تلك السماء التي سمّاها بالسابعة، رأس الملك بعيد حتى يصل إلى تخوم العرش مخترقاً السماء السابعة.

◎ نظام السماوات

يمكن تخيل صورة كروية للسماوات لأن العرش كان قريباً من السماء الدنيا وهو أيضاً بعد السماء السابعة وهذا لا يمكن بغير النظام الكروي حيث تصبح كل سماء حلقة حول العرش أو أن العرش حلقة حول كل السموات المتحلقة حول بعضها، ويؤيد هذا ما جاء حول الملك الديك من أنه إذا فرش جناحيه جاوز المشرق والمغرب، وفي السحر يصرخ هذا الملك، بالتسبيح، فتصرخ كل ديوك الأرض، وهذا يفيد وجود الارتباط بين أفعال الأحياء ومنها الديوك، وبين هذا الملك. لكنه لا يذكر إذا كانت بقية أجزاء الكون، كذلك ترتبط به أم لا كما أننا يجب أن لا ننسى ما جاء في الحديث من وجود زغب أخضر شديد الخضرة وريش أبيض شديد البياض لهذا الديك.

وهكذا ينطوي حديث المعراج على تصورات حول العالم الغيبي، ومدى ارتباطه بعالمنا، فهناك الارتباط بين المؤمنين والملائكة، وهناك ارتباط الملائكة مع مفردات الطبيعة كما في الملك الديك، وهناك أيضاً أنظمة الحراسة الهرمية وفي كل هذا إلماعة إلى وحدة العالم وأن الاثنينيّة ناشئة عن وجود حجب وأستار في الأذهان وهي إما ناشئة عن ضعف الحواس وعدم قدرتها على التعامل مع عالم الغيب، أو أن الغيب صار غيباً لبعد المسافة التي تفصله عنا، وبالتالي لا بد من وجود وسائط للوصول إليه فيمسي مشهوداً أو غاب لوجود حاجب من نوع ما لا يمكن خرقه إلا بالتحول إلى كيفيات خاصة أيضاً.

ويمكن أن نفهم ما ورد في حديث المعراج عن الإسراء بالرسول ﷺ إلى المسجد الأقصى الذي يعني قطع مسافات كبيرة بزمن قصير بتصور الاستفادة من وسائط نقل خاصة والسفر في عالم الغيب بواسطة وسيلة هي البراق، وسميت كذلك مقارنة بالوسائل السائدة في ذلك الزمن كالخيل، وهنا يجب الالتفات إلى أن جبرائيل عليه السلام كان ينتقل دون الإفادة من أية وسائط مما يدل على وجود أهلية ذاتية لديه تمكنه من الحركة بينما كان رسول الله ﷺ انتفع من البراق لمرافقة جبرائيل عليه السلام.

ويلفت النظر أيضاً كثرة عدد الملائكة التي تقوم بمهمة متابعة الحراسة في الطبقتين الثانية والرابعة، وهذا يعكس سعة دائرة المنطقة المراد حمايتها لأننا لا نفترض هذه الكثرة بلا داعٍ، بل لا بد من أسباب موجبة. كما أن وجود الملك الديك يشبه الساعة الكونية التي تتأثر بها الديكة في الأرض.

وهكذا فإن جميع مقاطع الحديث مثلت تفسيراً لبعض الآيات القرآنية فالنسبة لذكر الملائكة المسبحين يذكرنا بالآية: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾(١). وفي الحديث تصوير لمالك ملك النار وهو أيضاً نوع من التوضيح لصوره ومهمة الملك وكذلك جبرائيل ونفس الشيء بالنسبة للآية: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ ...﴾(٢) ونفس الشيء بالنسبة للإنفاق والبخل وكذلك: ﴿... وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ...﴾(٣). وهكذا فإن الحديث في أغلب مقاطعة عبارة عن تفسير لبعض الآيات.

وفي النهاية يمكن إجمال ما ورد في هذا الحديث بما يلي:

١ - عجيب خلقة الملائكة.

٢ - عبادة الملائكة ودعاؤهم وتسبيحهم.

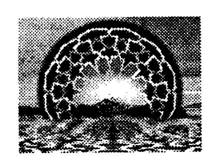
٣ - حبهم للمؤمنين ودعاؤهم لهم.

٤ - أنهم ذوو مهام وتخصصات.

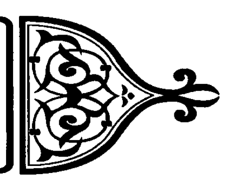
٥ - أنهم طبقات.

٦ - أن السماء مرتبة وفق نظم خاصة.

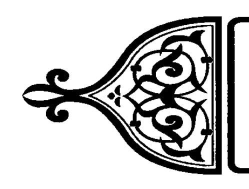
٧ - هناك تطور هائل من قبيل ألواح النور المكتوبة، وفيها دلالة على عدم وجود الاعتباط في الاجتهاد في السلوك والتصرف حتى بالنسبة للملائكة فضلاً عن احتمال وجود أشياء تجنب الحديث ذكرها. ولعل السبب يكمن في عدم وجود قدرة عقلية لاستيعابها وخصوصاً في ذلك الزمن.



(١) سورة الأنبياء، الآية: الآية ٢٠.
(٢) سورة الصافات، الآية: ١٠.
(٣) سورة الشورى، الآية: ٥.



امتداد الكون بين الوحي والعلم



نلاحظ أن هناك تفاوتاً بين العلم والدين في النظر إلى العالم من ناحية الامتداد المكاني والامتداد الزماني ووجود المخلوقات، كما يلاحظ فرقاً في المرئي وغير المرئي.

◎ أ - الكون علمياً

١ - الامتداد المكاني

إذا كان العلم لا يمد نظره إلا إلى الأشياء الموجودة بالفعل فإنّه أشار إلى أبعاد معينة لامتداد الكون حتى لو كانت مبهمة فكما يقول العلماء: «إن حجم الكون وعمره خارج إدراك الإنسان العادي ففي مكان ما بين اتساع الفضاء وخلود الزمن يضيع كوكبنا الأرض»[١].

«ولو افترضنا أننا وقفنا عند نقطة عُليا لنا بأوسع أفق للرؤية بين المجرات فسوف نرى أجزاءً متناثرة من الضوء تبدو كالزبد فوق الفضاء، وبأعداد لا تحصى، وتلك هي المجرات التي يجول بعضها وحيداً معزولاً، بينما يشكل أغلبها عناقيد مجمعة تتحرك معاً مندفعة إلى ما لا نهاية عبر الظلام الكوني الكبير ونرى أمامنا الكون في أكبر اتساع نعرفه فنحن الآن في عالم الغيم السديمي الذي يبعد عن الأرض ثمانية مليارات سنة ضوئية أي يقع في منتصف المسافة إلى حافة الكون المعروفة حالياً»[٢].

فهذا الكون «يوجد فيه $(١٠)^{١١}$ مليار مجرّة، وفي كل منها مائة مليار نجم في المعدل وهكذا يوجد في كل المجرات عدد من النجوم يبلغ تقريباً $١٠^{١١} \times ١٠^{١١} = ١٠^{٢٢}$ أو عشرة مليارات تريليون»[٣].

---

(١) الكون: ٢١.

(٢) الكون: ٢٢.

(٣) الكون: ٢٢.

٢ - الامتداد الزماني

فإن العلم يعتقد بوجود بداية لهذا الكون وهي التي تسمى بالانفجار الكبير لكن يتأرجح بين الاعتقاد بوجود نهاية والاعتقاد بالوجود الخالد على أن هذه النهاية ليست تلاشي وزوال بل هي حالة انتقال من وضع إلى آخر لأن الولادة والوفاة بالنسبة للكون دوريتان، فهناك تمدد وانكماش متواصلان والاستنتاج قائم على أساس الفرضية التي ترى أن الكون يتمدد و«إذا كانت المادة جميعها تبتعد عن بعضها بسرعات متناسبة مع المسافات النسبية فلا بد - ومنذ وقت طويل مضى - أن تكون هذه المادة منضغطة بشكل كبير إلى بعضها»[١].

«ولقد اتّضح وباختيار مناسب لهذه المقادير المتنوعة إمكانية وجود نماذج توسع متعددة. كأن يكون الكون قد ابتدأ بالتوسع اعتباراً من حالة الضغط الهائل أو اعتباراً من حالة «آينشتاين» أو أن الكون يمكن أن يتوسع بصورة لا نهائية، أو أن يتقلّص بعد مضي فترة زمنية معينة إلى الحالة المرتصّة ثم يعاود التوسع بما يسمى (الكون النائي)»[٢].

وهناك تقديرات لعمر الكون «لقد قدر هذا العمر في زمن نشرة ديراك الأولى بحدود (٢٠٠٠) مليون سنة ولكن التقديرات الحالية أعلى من ذلك بكثير»[٣].

٣ - أمّا بالنسبة للمخلوقات

فإن العلم لا يزال يحتمل وجود مخلوقات ولا يستطيع البت في هذه القضية فالعلماء يؤكدون أنه «يوجد في نظامنا الشمسي عدة أماكن يمكن أن تصلح لحياة من نوع ما»[٤] بناءً على دراسة الأطياف الواردة من مناطق في الكون حيث ساد الاعتقاد بوجود إمكانات لنشوء الحياة وهي طبعاً يمكن أن تكون مشابهة للحياة في الأرض وليست مطابقة لها إلا أنها قد تكون متقدمة عليها من ناحية التطور العلمي أو التقني أو بالعكس قد تكون في أبسط أشكالها.

ولكي يستطيع العلماء التوصل إلى أدلة تثبت هذه الفرضيات صار العلماء يبحثون «عن رسائل من حضارة سحيقة غريبة» فإذا تسلمنا رسالة راديو من حضارة خارج الأرض فكيف نفهمها؟.

---

(١) طبيعة الكون: ١١٨.
(٢) طبيعة الكون: ١٢٣.
(٣) طبيعة الكون: ١٢٣.
(٤) الكون: ٢٥٧.

ولذلك استخدم مرصد (اريسيبو) للبحث عن إشارات عاقلة قادمة من حضارات أخرى من الفضاء، بالإضافة إلى بث رسالة ولمرة واحدة فقط إلى «م-١٣» التي هي مجموعة نجوم كروية بعيدة وذلك لكي تكون إمكاناتنا التقنية في العمل على جانبي الحوار النجمي واضحة بالنسبة إلينا على الأقل[1].

ومن الواضح أن أقصى ما يمكن للعلماء تصوره بالنسبة لوجود حياة مشابهة للحياة الأرضية هو تصور نفس الحياة مع مقدار من الاختلاف بالزيادة أو النقصان وهذا يعني عدم افتراض وجود مبادىء للحياة مغايرة للمبادىء التي قامت عليها في الأرض.

الطبيعة وما فوق الطبيعة

تقوم نظرة العلم إلى العالم من وجهة الأبعاد الأربعة والتي يمكن حدها بالأبعاد (الزمانية والمكانية). وخارج هذه الأطر فإنه يدخل في إطار الميتافزيقيا (فوق الطبيعة) وهو عالم إن كان محسوس أو غير محسوس فإن العلم لا يستطيع إلا التعامل معه مخبرياً، ولا يستطيع التحقق من أي من الفرضيات بخصوصه، لأنه عالم يقع خارج دائرة الطبيعة، وهو وفق وجهة النظر هذه عالم غير موجود لأن جميع هذا العالم هو الطبيعة ولا سبيل للعبور إلى عالم خارج الطبيعة.

وإذا كان ثمة عالم آخر خارج الطبيعة فإنه عالم مغلق لا يستطيع الإنسان التواصل معه وحتى لو استطاع فإن الذي يتم التواصل معه سيكفي أن يكون جزءاً من عالم فوق الطبيعة وينتمي إلى عالم الطبيعة.

◎ ب - الامتداد في الوحي

١ - الامتداد المكاني

إنّ أحد المشاكل التي تواجهنا ونحن نسعى للوصول إلى حدود الكون في الرؤية الدينية، هي وحدات القياس القديمة حيث بقيت بشكلها القديم. وغالباً ما تعطي صورة تقريبية، لأنه لم يكن وارداً في تلك الفترة التوصل إلى حدود دقيقة بالصورة المعروفة في عصرنا الحاضر، خصوصاً أنه لم يكن هناك مبرر للدقة في هذه الأمور.

ومن المعروف أن الوحي استخدم مفردة السموات ومفردة الأرض للدلالة على

---

(١) الكون: ٢٥٣.

الامتداد المكاني فقد قال سبحانه وتعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً...﴾[1]. وقال أيضاً: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ...﴾[2]. وقال أيضاً: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ ... لِلْكُتُبِ﴾[3].

كما ذكر العرش فقال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾[4]. وقال: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[5]. وكذلك قوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾[6]. وهناك أيضاً سدرة المنتهى ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾[7].

فهذه المعالم جميعها هي ما يتركب منها العالم من ناحية الامتداد المكاني، ولسنا نعلم إن كان العرش والكرسي هو شيء واحد أم لا؟ كما أنّ القرآن لا يذكر هل أنّ سدرة المنتهى هي جرم أو أي شيء آخر؟ لكن السموات والأرض هي جزء يسير بالنسبة للكرسي، لأن الكرسي وسع السماوات والأرض.

غير أن هذه الأشياء ليست مجرد أماكن، بل هي عالم شبيه بالعالم الأرضي فيه سكان وعمار وفيه معالم تعمد الآيات والأحاديث إلى توضيحها بطريقة مثيرة سنمر عليها تباعاً.

ثم إن الوحي يؤكد أن الكون في حالة توسع كما جاء في الآية: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾[8]. وهذا التوسع سينتهي في يوم ما إلى حالة من الانطواء ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ...﴾[9]. ولكنه يذكر بأن الانطواء ليست حالة نهائية بل هي مقدمة لعودة أخرى أكثر ثباتاً لدرجة وصفه بالخلود ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ...﴾[10].

والسموات والأرض هي سبع سموات متفاوتة في بعض المعالم فإن كل سماء مختلفة عن الأخرى بحيث يمكن تصورها كطبقات بقول الوحي: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ...﴾[11]. وكذلك: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ...﴾[12].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٢.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٩.
(٣) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٤.
(٤) سورة طه، الآية: ٥.
(٥) سورة الأنبياء، الآية: ٢٢.
(٦) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.
(٧) سورة النجم، الآية: ١٤.
(٨) سورة الذاريات، الآية: ٤٧.
(٩) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٤.
(١٠) سورة إبراهيم، الآية: ٤٨.
(١١) سورة الطلاق، الآية: ١٢.
(١٢) سورة الملك، الآية: ٣.

ويمكننا أن نطل على حدود تقريبية أشارت إليها الآية: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾[١] فهذه الآية تشير إلى صورة مقطعية، فهنا عملية عروج وهي أصلاً عملية صعود والعروج خاص بالملائكة والروح ورغم أن الآية لم تشر إلى مبدأ الحركة لكنها تشير إلى نهايتها حيث حددت بكلمة إليه وهي تعني إلى الله، وإن كان الله غير محدود بمكان، لكن الإشارة تعني وجود موضع معين يكون الوصول إليه مساوياً للوصول إلى الله لأنه منسوب إلى الله مثل الأشياء التي ينسبها إلى نفسه سبحانه ولعلنا نفترض أنها نقطة اقتراب من عرش الله وإذا فرضنا أن مبدأ الحركة أيضاً من مكان مألوف فيه وجود الملائكة والروح فيه، فهذا المكان أي مبدأ الحركة إلى منتهاها يستغرق خمسين ألف سنة من سني الأرض.

فإذا كان هذا الزمن محدداً فإن سرعة الحركة لم تحدد مع العلم أن حركة الروح والملائكة ليست حركة اعتيادية وإذا أخذنا حديث المعراج معياراً، فإننا نلاحظ أن الذهاب والإياب من مكة إلى بيت المقدس ثم إلى السماوات السبع ثم إلى العرش وحتى سدرة المنتهى كان في جزء الليلة فأي مكان هذا الذي يستغرق الوصول إليه بسرعة الملائكة خمسين ألف سنة؟

وهناك مكان آخر أشارت الآيات إلى أن العروج إليه يستغرق ألف سنة فهنا موضعان في الكون.

أحدهما بعده يساوي خمسين ألف.

والثاني ألف سنة مع العلم أن الملائكة ليست ذات سرعة واحدة لأنها متعددة الأجنحة وأن زيادة الأجنحة لا يعني إلا زيادة السرعة.

كما أنّ هناك روايات كثيرة تشير إلى أبعاد الكون منها رواية تقول بوجود بحار في السماء عمق أحدها مسيرة خمسمائة عام، فهذه مواضع من الكون ذات أبعاد شاسعة فإذا كان عمقها بهذه الصورة فكيف هو طولها وعرضها فلا شك أنه أكثر اتساعاً.

وهكذا فإن الكون أو (الخلق) وفق الوحي بهذا الامتداد الهائل وأنه عالم غريب فيه معالم تشبه ما هو موجود عندنا لكنها تختلف عنه في معالم كثيرة.

---

(١) سورة المعارج، الآية: ٤.

وجاء في التفسير عن نفس الآية:

﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾(١) قيل: أي كان مقداره من عروج غيرهم خمسين ألف سنة، وذلك من أسفل الأرضين إلى فوق السماوات السبع، وقيل: امتداد ذلك اليوم على بعض الكفار كذلك، وقيل: ومعناه أن أول نزول الملائكة في الدنيا بأمره ونهيه وقضائه بين الخلائق إلى آخر عروجهم إلى السماء، وهو القيامة هذه المدّة.

لعلّ التغيير بالزمن إشارة إلى المسافات التي تفصل بين الأرض والأماكن التي تحفظ فيها أعمال البشر كما هو ثابت في الآيات والأحاديث، وهذا بواسطة حركة الملائكة بين الموضعين فهو معادل لخمسين ألف سنة من سنوات الأرض بينما هو بالنسبة للملائكة معادل ليوم واحد فعملية عروجهم تستمر يوم واحد لكن عروج سواهم إن إمكن يستمر خمسين ألف سنة وبطريقة من الطرق يمكن التوصل إلى المسافة الافتراضية لهذه الحركة التي تسمّى بالعروج.

على أن المطلوب فيه الكثير من الدقة إذ لا يمكن لنا هنا أن نفترض اتجاه وتحديد الأعلى والأسفل حتى يشار إلى الأماكن لأن العالم متحرك باستمرار ويمكن أن تنقلب فيه هذه الأماكن عدة مرات في كل مقطع زمني معين.

ولهذا فلا بد من تفسير العروج بصورة أخرى وهي صورة الخروج من قوانين الطبيعة بصورتها الحالية المعروفة والانتقال إلى صورة أخرى بواسطة معينة تتيح هذا الخروج وطبعاً لا علاقة لهذا بالتصورات الاعتبارية للمكان. وكما هي الإشارات في كثير من الآيات، فمثلاً إن الموت يتيح للإنسان الإطلاع على حقائق الغيب والموت ليس انتقالاً في المكان بل هو تحول في بنية الإنسان.

ويمكن أن يكون إشارة إلى وجود أفلاك متفاوتة يساوي أحدها خمسين ألف ضعفاً مثل الآخر وهذا ممكن في عالم النجوم والكواكب.

٢ - الامتداد الزماني

يشير الوحي إلى أزمان سحيقة فالله سبحانه وتعالى هو القديم الذي خلق الوجود، ولا يزال يضيف إلى مملكته موجودات جديدة وإن السموات والأرض التي نعيش عليها الآن ستنتقل من المرحلة المؤقتة وسرعان ما تدخل في الطور الدائم الذي يصفهُ الله

(١) سورة المعارج، الآية: ٤.

بالخلود ويوم القيامة هو المدخل إلى هذا الخلود، فالأرض حين تتبدل ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾(١). فإنها لا تتلاشى فحسب بل تتلاشى ليعاد تركيبها بصورة دائمة وهذا يعني وجود مراحل وأطوار وحركة متواصلة.

وعلى هذا الأساس إننا نفترض وجود إضافة عند التحول من العالم المؤقت إلى العالم الدائم وهذا التبدل ربما كان عملية متواصلة أي أن الوجود يمر بعدة أطوار ثم يصل إلى الطور المؤقت وأخيراً يلتحق بالعالم الدائم والذي ملحقاً بالعرش لأن وجود العرش سبق خلق السموات والأرض وربما كان العرش هو أول جزء من هذا العالم خلقه الله ثم تواصلت عملية خلق السموات والأرض من بعده.

وفي كل الأحوال إن عملية الانتقال ستكون قاعدة يسير على أساسها الوجود، فهناك بداية متجهة من الطور المؤقت إلى الدائم، وهذا يعني استمرار عملية الخلق والإيجاد، وهناك أدلة تؤكد الاستمرارية التي أشرنا إلى بعضها في ما سبق.

٣ - أما بالنسبة للمخلوقات

فإن الوحي يؤكد على أن السماء تعج بالمخلوقات وهي أصناف عديدة فإن أول موجود ظهر في الطبيعة هي المادة الجامدة وهي التي اعتمدت عليها عملية الخلق ومنها تركبت جميع المخلوقات.

ثم ظهر أول مخلوق سمي «الملائكة» وفي فترة مبكرة عندما كان الوجود كما تصفه الخطبة الأولى من نهج البلاغة في حال تخلق، ويشير القرآن أيضاً إشارة ضمنية إلى هذه القضية فيقول: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ . . .﴾(٢). وهذه القبل تعود على الإنسان فالجانّ سابق في الخلق على الإنسان، وإذا كان خلق الملائكة قبل خلق الإنسان هذا يدفعنا إلى احتمال خلق الملائكة والجن في فترة واحدة. وهذا ما لا يؤيده شيء بينما توجد أحاديث تؤكد أسبقية الملائكة في الوجود، أما بالنسبة لأسبقية النبي وأهل بيته، فإن وجودهم كان على شكل أنوار وهذا لا يناقض الترتيب الظاهري الذي نشير إليه قبل الخليقة وبعد الخليقة.

فتكون المحصّلة التي نصل إليها: أن المادة الجامدة هي الأسبق في الوجود، ثم إنّ الملائكة هي التي سبقت في عالم الأحياء، أما ما ورد من ذكر الروح والتي ذهبت بعض

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٤٨. (٢) سورة الحجر، الآية: ٢٧.

الآيات إلى أنه نوع من الخلق ليس من الملائكة، فهؤلاء لا دليل على أنهم أسبق من الملائكة أو خلقوا بعدهم، إذا صدق هذا المذهب وثبت أنهم ليسوا من الملائكة فهم ضمن الغيب الذي لم يخبر عنه الله سبحانه وتعالى. كما أن هناك احتمالاً أيضاً آخر بوجود أحياء من أجناس أخرى من طبقات متعددة أي: من طبقة الإنسان أو من طبقة الروح، الأمر الذي يعطي انطباعاً بأن الخلق أكثر امتداداً من التصور الذي يقوم على الشواهد رغم أن هذه الشواهد هائلة وتفوق الحصر، لكن الانطباع الذي نخرج منه من القرآن بأن حالة من الامتداد أكبر بكثير من الحدود الهائلة المعروفة، ويمكن أن نقول: إن الخلق من ناحية التنوع هو حالة قريبة من اللانهاية سواء بالنسبة للزمان والفضاء والقوانين.

وعلى هذا الأساس نفهم أن وجود الملائكة باحتمال مرتبط بجزء خاص من الخلق ويرتبط به ارتباطاً وثيقاً كما شاء الله له ذلك، ومن هنا جاءت الآيات لترسم هذا الدور والارتباط.

● **التوحيد والخصال: عن أحمد بن الحسين القطّان، عن محمد بن يحيى ابن زكريّا، عن بكر بن عبد الله بن حبيب، عن تميم بن بهلول، عن نصر بن مزاحم المنقريّ، عن عمرو بن سعد، عن أبي مخنف لوط بن يحيى، عن أبي منصور، عن زيد ابن وهب، قال: سئل أمير المؤمنين عليه السلام عن قدرة الله جلّت عظمته، فقام خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه، ثمّ قال:**

إنّ لله تبارك وتعالى ملائكة لو أنّ ملكاً منهم هبط إلى الأرض ما وسعته لعظم خلقه وكثرة أجنحته، ومنهم من لو كلّفت الجنّ والإنس أن يصفوه ما وصفوه لبعد ما بين مفاصله وحسن تركيب صورته، وكيف يوصف من ملائكته من سبعمائة عام ما بين منكبيه وشحمة أذنه ومنهم من يسدّ الأفق بجناح من أجنحته دون عظم يديه، ومنهم من في السماوات إلى حجرته، ومنهم من قدمه على غير قرار في جوّ الهواء الأسفل والأرضون إلى ركبتيه، ومنهم من لو ألقي في نقرة إبهامه جميع المياه لوسعتها، ومنهم من لو ألقيت السفن في دموع عينيه لجرت دهر الداهرين، فتبارك الله أحسن الخالقين[١].

● **عن محمد بن الحسن بن الوليد، عن محمد بن يحيى العطّار، عن الحسين بن**

(١) الخصال: ٣٦، التوحيد: ٢٠١، البحار ج٥٦ ص١٧٨، ح١٣.

الحسن بن أبان، عن ابن أورمة، عن أحمد بن الحسن الميثميّ، عن أبي الحسن الشعيريّ، عن سعد بن طريف، عن الأصبغ، قال: جاء ابن الكوّاء إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقال: يا أمير المؤمنين والله إنّ في كتاب الله تعالى آية قد أفسدت عليّ قلبي وشكّكتني في ديني!

فقال له عليه السلام: ثكلتهك أمّك وعدمتك وما تلك الآية قال: هو قول الله تعالى: ﴿وَٱلطَّيْرُ صَـٰٓفَّـٰتٍۢ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾[1].

فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: يابن الكواء إنّ الله تعالى خلق الملائكة في صور شتى، إلا إنّ لله تعالى ملكاً في صورة ديك أبج أشهب، براثنه في الأرضين السابعة السفلى، وعرفه مثنيّ تحت الرعش، له جناحان: جناح في المشرق، وجناح في المغرب واحد من نار، والآخر من ثلج، فإذا حضر وقت الصلاة قام على براثنه ثمّ رفع عنقه من تحت العرش ثمّ صفق بجناحيه كما تصفق الديوك في منازلكم، فينادي: أشهد أن لا إلّه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمّداً سيّد النبيّين، وأنّ وصيّه سيّد الوصيّين، وأن الله سبّوح قدّوس ربّ الملائكة والروح. قال: فتخفق الديكة بأجنحتها في منازلكم فتجيبه عن قوله، وهو قوله عزّ وجلّ: ﴿وَٱلطَّيْرُ صَـٰٓفَّـٰتٍۢ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ من الديكة في الأرض[2].

● **عن مروان بن معاوية، عن الأعمش، عن أبي حيّان التيميّ، عن أبيه، عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: ليس أحد من الناس إلاّ ومعه ملائكة حفظة يحفظونه من أن يتردّى في بئر، أو يقع عليه حائط أو يصيبه سوء، فإذا حان أجله خلّواً بينه وبين ما يصيبه (الخبر)[3].**

إذا كانت دموع عينيه تجري بها السفن إلى أبعاد بعيدة تستعصي على الحصر، فهذا يدل على أن الفضاء يمتد إلى آفاق بعيدة جداً أكبر من أن تحصر أو تحصى إلى جانب أن للملائكة عيوناً تدمع كعيون البشر.

ثم إن هذه الأحجام الكبيرة بهذا العد الهائل يجعل من الكون خارج حد التصور ويطرح سؤالاً كيف يمكن أن هذا الكون المادي المعروف بأبعاده الفعلية الهائلة مرتبطاً

---

(١) سورة النور، الآية: ٤١.

(٢) التوحيد: ٢٠٥. الاحتجاج: ١٢١، البحار ج٥٦ ص١٨٣، ح٢٤.

(٣) البحار ج٥٦ ص١٨٤، ح٢٥.

بذاك العالم الذي تكون أبعاده أكبر من الكون المادي؟ لكي نتصور هذا الأمر لا بد من افتراض انتظام الكون في طبعات وأن عالمنا الفعلي هو مجرد طبقة منه تشترك معه في بعض المعالم والصفات والقوانين وتتفاوت مع الطبقات الأخرى كذلك في الصفات الأخرى والقوانين بنسب مختلفة.

ويشترك العلم مع الوحي في تأكيد امتداد الفضاء إلى أبعاد لا متناهية ولكن ليس بالضرورة أن الأبعاد التي يشير إليها العلم هي نفس الأبعاد التي يشير إليها الوحي، فلعل العلم يشير إلى الأبعاد المحسوسة أو التي بحكم المحسوس مؤكداً وجود كوابك ونجوم أكبر من الشمس بملايين المرات، وتبعد عنا بملايين السنين الضوئية ومع ذلك فهو يؤكد أن خارج هذه الدائرة المقدرة، امتداداً هائلاً لا يصل إليه التقدير.

أما الوحي فإنه يصف لنا سعة الكرسي بأوسع من سعة السموات والأرضين، وهذا بلا شك بعد هائل ولا بد له من فضاء أوسع منه، فيكون فضاء الوحي بالصورة هذا فقط ضعف الكون المعروف، فضلاً عن أن الآيات تشير إلى أن السماء بحال توسع مستمر ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾[1] ونفس الأمر يؤكده العلم.

لكن الحديث يصور لنا ملكاً أكبر من الأرض وهو ليس ملكاً واحداً بل هم أصناف من الملائكة كما جاء في الروايات أكثر من تراب الأرض، كما أن منهم من لا تستطيع وصفه الجن والإنس مجتمعة لبعد مفاصله، وهو كذلك ليس واحداً بل أعداداً كبيرة. أو على فرض إمكان التداخل بين الأجسام الشفافة فإن الفضاء المادي المعروف، يمكن أن يحتوي الجميع وعلى فرض تداخل الشفافة مع الأجسام غير الشفافة فإن النتيجة ستكون كذلك، إما على فرض عدم التداخل فإن الامتداد أكبر من أي خيال.

● عن عبد الله بن سليمان بن الأشعث، عن إسحاق بن إبراهيم النهشلي، عن زكريّا بن يحيى، عن مندل بن عليّ، عن الأعمش، عن ابن جبير، عن ابن عبّاس، قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله يغدو إليه عليّ عليه السلام في الغداة، وكان يحبّ أن لا يسبقه إليه إحد، فإذا النبيّ صلى الله عليه وآله في صحن الدار وإذا رأسه في حجر دحية بن خليفة الكلبيّ، فقال:

السّلام عليك كيف أصبح رسول الله صلى الله عليه وآله؟

قال: بخير يا أخا رسول الله صلى الله عليه وآله.

فقال عليّ عليه السلام: جزاك الله عنّا أهل البيت خيراً.

---

(١) سورة الذاريات، الآية: ٤٧.

قال له دحية: إنّي أحبّك وإنّ لك عندي مديحة أهديها لك، أنت أمير المؤمنين، وقائد الغرّ المحجّلين، وسيّد ولد آدم إلى يوم القيامة ما خلا النبيّين والمرسلين، ولواء الحمد بيدك يوم القيامة، تزفّ أنت وشيعتك مع محمّد وحزبه إلى الجنان، فقد أفلح من والاك، وخاب وخسر من خلاّك بحبّ محمّد أحبّوك، وببغضه أبغضوك، لا تنالهم شفاعة محمّد ﷺ ادن من صفوة الله فأخذ رأس النبيّ ﷺ فوضعه في حجره، فانتبه النبيّ ﷺ فقال: ما هذه الهمهمة فأخبره الحديث.

فقال: لم يكن دحية، كان جبرئيل، سمّاك باسم سمّاك الله تعالى به، وهو الّذي ألقى محبّتك في قلوب المؤمنين، ورهبتك في صدور الكافرين[1].

● **النهج**: عن نوف البكاليّ، قال: أمير المؤمنين عليه السلام: **أيّها المتكلّف لوصف ربّك، فصف جبرئيل وميكائيل وجنود الملائكة المقرّبين في حجرات القدس مرجحنين متوالهة عقولهم أن يحدّوا أحسن الخالقين**[2].

وفي سياق عبادة الملائكة يأتي الحديث التالي:

عن ابن جبير، أن عمر سأل النبي ﷺ عن صلاة الملائكة فلم يرد عليه شيئاً، فأتاه جبرائيل، فقال: إن أهل السماء الدنيا سجود إلى يوم القيامة يقولون: «سبحان ذي الملك والملكوت، وأهل السماء الثانية ركوع إلى يوم القيامة يقولون: سبحان ذي العزة والجبروت، وأهل السماء الثالثة قيام إلى يوم القيامة يقولون: سبحان الحي الذي لا يموت»[3].

إن السجود طبعاً هو جزء من أفعال الصلاة، ولا يشير الحديث إلى أن أهل السماء الدنيا هم مقيمون على هذا الجزء من الصلاة، أو أنهم يصلون بالسجود دون غيره من الركوع والقيام أما بالنسبة للبقاء إلى يوم القيامة فهو بالنسبة للملائكة شيء قليل لأن أزمانهم طويلة وهذا أيضاً لا يشير إلى أن هؤلاء هم غير الملائكة الذين يكلفهم الله بأداء مهام في الأرض أو أنهم معهم، أما بالنسبة لما يرددونه فإنه أيضاً لا يعلم إن كان شيئاً ثابتاً أم أنه من مضامين التسبيح والتحميد، أو أن هذا جزء يسير يتغير قبل هذه الحالة أو بعدها؟

---

(١) البحار ج٥٦ ص١٩٢ - ١٩٣، ح٥٣.

(٢) نهج البلاغة ج١. ص٣٤١، البحار ج٥٦ ص١٩٣، ح٥٧.

(٣) المصدر نفسه.

عن نوف البكالي، قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**أيها المتكلف لوصف ربّك، فصف جبرئيل وميكائيل وجنود الله المقربين في حجرات القدس مرجحنّين متوالهة عقولهم أن يحدوا أحسن الخالقين**».

«التكلف» التجشم وارتكاب الشيء على مشقة، وحجرة القوم - بالفتح -: ناحية دارهم، والجمع حجرات كجمرة وجمرات، وفي بعض النسخ «حُجُرات» بضمتين، جمع حجرة بالضم وهي الغرفة، وقيل: الموضع المنفرد وارجحن الشيء كاقشعر أي مال من ثقله وتحرك. قال في النهاية: أورد الجوهري هذا الحرف في حرف النون على أن النونين أصلية، وغيره يجعلهما زائدة من رجح الشيء كمنع إذا ثقل. قال ابن أبي الحديد: أي مائلين إلى جهة التحت خضوعاً لله سبحانه. وقال الكيدري: الارجحنان الميل، وارجحن الشيء اهتز (انتهى).

ولعل المراد بحجرات القدس المواضع المعدة لهم في السماوات، وهي محال القدس والتنزه عن المعاصي ورذائل الأخلاق، والوله: الحزن والحيرة والخوف، و «متولهة عقولهم» على صيغة اسم الفاعل أي محزونة أو حائرة أو خائفة، وفي بعض النسخ على صيغة اسم المفعول والأول أظهر. «أن يحدوا أحسن الخالقين» أي يدركوه بكنهه أي يدركوا مبلغ قدرته وعلمه، أو مقدار عظمته[(١)].

في نفس الوقت الذي يشير فيه أمير المؤمنين إلى جزافية تجشّم وصف الله ومعرفة كنهه، لأن الإنسان عاجز عن وصف المخلوقات ومنها الملائكة فإنه يشير أيضاً إلى بعض الحقائق عن الملائكة فهم مثلاً عاجزون بدورهم رغم قرب المكانة عن معرفة كنه الله بل هم في خوف من التوهم، ولهذا يصفهم بالارجحنان على كل معانيه المذكورة، ومن الوله أو الخوف حذرين من توهم الله سبحانه بصورة تبتدعها عقولهم رغم أنهم أقرب إلى الله وأكثر اطلاعاً على حقائق الوجود من الإنسان، لكن هذا القرب يجعلهم في حالة من الحذر عن الخروج عما يوحيه الله لهم عن ذاته، فهذا الحذر يمثل حالة من الإدراك الأدق للذات إذ أن الإنسان لا يملك هذا الحذر وغالباً ما يتبع التوهمات والخطرات فينسب إلى الله تصورات من بنات خياله بينما تكون الملائكة في حالة حذر من أن يتوهموا ربهم ولو بالقليل مما ليس موحى به إليهم.

لكنه في معرض هذا الوصف يشير إلى معلومتين جديدتين هما وجود ما سماه جنود

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦/١٩٣-١٩٤.

الملائكة المقربين، وكذلك حجرات القدس، وإذا عدنا إلى البيان فإن حجرات القدس هي مواضع أو غرف لهؤلاء الملائكة، لكن الإمام وصفها بأنها حجرات القدس، وهذا يلفت النظر إلى أن هذه المواضع ذات خصوصية من الطهر والقرب، فهل أن هؤلاء الملائكة هم طبقة خاصة من الملائكة المقربين فيكون الملائكة المقربون عدة طبقات وليسوا طبقة واحدة، فهناك الجنود، وهناك الحملة، وهناك طبقات وصفتها الأحاديث الأخرى؟

ولعل الإمام عليه السلام حين ضرب لنا مثلاً بهؤلاء الملائكة لأنهم ذوو درجة عالية من القرب، وبالتالي من المفترض فيهم أن يكونوا الأكثر علماً بالله لكنهم مع كل ذلك في حالة من الاضطراب والخوف من توهم الله بما ليس فيه، وهذا يعني أنهم يجهلونه ولا يعرفون عنه إلا ما أوحي به إليهم من صفاته وهي أيضاً تقريبات وليست حقائق، كما أننا نعلم عن الله سبحانه وتعالى ما ذكره عن نفسه بواسطة الآيات والأحاديث التي أوحى بها إلى أنبيائه في كتبه ومثل هذا في الآية:

﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ...﴾[1].

فالتسبيح الذي هو واجب لجميع المخلوقات يؤديه الرعد الذي هو مخلوق قد لا تلتفت إلى كينونته، وكذلك الملائكة التي تخاف الله وتسبح بحمده فتكون الطبيعة برمتها مسبحة لله من خلال هذين المصداقين اللذين قد لا يلتفت إليهما الإنسان. لأن الأول وجوده عابر ووقتي والملائكة غير مرئية أصلاً.

فالملائكة جزء من مهامها غير التي تختص بالإنسان أنها كائنات مسبّحة لله ولعل التسبيح هنا يحتاج إلى نظر خصوصاً أن الرعد أو الملائكة كائنات خاصة فما أثر التسبيح عليها؟ كما تؤكد الآيات أنه لا يوجد شيء في الوجود يؤدي فعلاً إضافياً أو زائداً أو كمالياً، فكل شيء محسوب بدقة وذا آثار مطلوب لكثرة ما تورد الآيات من التأكيد على كون كل شيء بالحق وفيه إشارة إلى وجود العلل والأسباب الموجبة.

ولهذا فإن عدم تسبيح الإنسان هو حالة خروج على الضرورة، وآثار التسبيح تلك الآثار التي هي آثار حق ومطلوبة، وليست مجرد عبارات أو كلمات، بل التسبيح سوف لا يكون كلمة لأنه من الشجرة والنجم والملك والرعد وإن من شيء إلا يسبح بحمده.

فهذا الجامع هو الذي يعطي الإنسان آثاراً خاصة يحتاجها.

---

(١) سورة الرعد، الآية: ١٣.

◎ مهام الملائكة

أما بالنسبة للنوع الثاني من العبادة، وهي المهام التي يستعبد الله بها ملائكته فقد ذكرت الآيات والأحاديث طائفة منها، فهذه جملة آيات تشير صراحة إلى بعض المهام للملائكة على صعيد الحياة البشرية وعلى صعيد الطبيعة ومنها ما يلي:

قوله تعالى: ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا﴾(١) أي: الملائكة يقسمون الأمور بين الخلق على ما أمروا به. قال الطبرسي (رحمه الله): روي أن ابن الكوا سأل أمير المؤمنين عليه السلام وهو يخطب على المنبر، فقال: ما الذاريات ذرواً؟ قال: الرياح، قال: فالحاملات وقراً؟ قال: السحاب. قال: فالجاريات يسراً؟ قال: السفن. قال: فالمقسّمات أمراً؟ قال: الملائكة وروى ذلك عن ابن عباس ومجاهد(٢).

القسم هنا جاء بأشياء مختلفة فمرّة قسم بالذاريات ذرواً، وهي الرياح، والحاملات وقراً وهي السحب، والجاريات يسراً وأخيراً المقسّمات أمراً هي الملائكة.

غير أنه لا يوجد ما يمنعه أن يكون لها مصداقاً غير الملائكة ثم أن السحُب كما مر تتحرك بأمر الملائكة، وكذلك الرياح كما أن حركة السفن بواسطة الرياح، ولهذا فإن الحديث يمكن أن يؤول بحركة الملائكة بصورة مباشرة أو غير مباشرة.

وحين يكون المصداق غير الملائكة فإنها أيضاً تكون متعددة أو واحدة، فإذا كانت مجموعة الأقسام هذه بصفات متعددة لشيء واحد فإنه الذاريات هي نفسها الحاملات وقراً ثم تجري يسراً لكي تقسم أمراً فتكون كل المقاطع السابقة بمثابة مقدمات لنتيجة هامة هي تقسيم أمر. ويلفت النظر التعبير بالتنكير، فإن التنكير يشير إلى الأهمية ولو جاء بالألف واللام لكانت إشارة إلى أمر معروف أو معهود. وعدم المجيء بها يشير إلى أنه غير معروف وغير معهود وللأهمية أشار إليه القرآن وكأنها دعوة لنا لنتطلع إلى هذا المجهول إلهام.

غير أنه يمكن أن تكون الملائكة هي التي تجري هذه الأمور جميعاً بنفس التراتب السابق لكن لا يوجد شيء يمكن أن يؤكد أيّاً من المحتملات ومثله ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾(٣).

---

(١) سورة الذاريات، الآية: ٤.

(٢) بحار الأنوار: ٥٦/ ١٦٥.

(٣) سورة المرسلات، الآية: ١.

◎ وجود الملائكة

تعد مسألة وجود الملائكة مما أجمع عليه المسلمون وغير المسلمين، ولكن مع اختلاف في تفاصيل الصفات وما سوى ذلك من لوازم الوجود ولهذا فإن الإيمان بوجود الملائكة يكاد يكون من القضايا الشائعة عند بني البشر على صعيد تاريخي أو صعيد معاصر، ولا توجد فئة منكرة للملائكة سوى التيارات المادية التي تنكر أصلاً الديانات والعقائد والله وما يترتب على الإيمان بالله.

وبالنسبة للمسلمين فإن القرآن هو الأساس الذي يعتمدون عليه في عقائدهم وتصوراتهم وهو الذي أكد وجود الملائكة ثم جاءت الأحايث بعد القرآن لتؤكد أيضاً بأن الاعتقاد بالملائكة من أركان العقيدة الإسلامية، وتأتي تبعاً للإيمان بالله وكتبه ورسله وهذه المسألة مبحوثة في كتب العقائد أما إذا أردنا الوصول إلى تركيز الإيمان بالملائكة من خلال سبل أخرى فإننا يمكن أن نصل إلى هذا الإيمان عبر جملة استنتاجات منها:

أ - إن الطرح القرآني لوجود الملائكة لا يتناقض مع ثوابت المنطق.

فالقرآن يقول إن الملائكة كائنات حية غير مرئية ولا يوجد مانع عقلي يمنع عن افتراض هذا الوجود، كما أن عدم الرؤية ليست مانعاً أيضاً لعدم ربط الوجود بالرؤية فقد ثبت أن الرؤية محدودة وبالتالي فإنّ الجزء الأوسع من العالم لا تطاله العين وقدرتها.

وبما أن وجودها غير مستحيل فهو ممكن، وهذا الإمكان يضعنا أمام الرأي القائل بالوجود فإذا ثبت بأي طريقة فإنه يؤدي إلى ثبوت القول بوجود الملائكة.

أي لا بد من مراجعة الطرح القرآني الذي أشار إليهم بجملة من المعالم التي تقود في النهاية إلى الإيمان بها لأنّها خالية في جوهر فرضها من أي من الأفكار التي تدخل في دائرة الخرافة أو الأسطورة.

فالقرآن يساوق الأحاديث في طرح مفهوم دقيق عن الخلق وهومفهوم الهيمنة والهفية واستحالة الشذوذ أو الشرود عن الخط المرسوم له من قبل الإرادة الإلّهية ويتم التوصل إلى التوجيه عبر طريقين هما:

أ - القوانين الطبيعية.

ب - الملائكة الذين يوجهون القوانين من حيث أداء نتائج مقصودة بعينها.

فالقوى الموجودة في الطبيعة بما أنّها غر عاقلة وتفعل فعلها فإنّها قد تقود إلى نتائج غير مقصودة، وإذا أخذنا قوانين الوراثة فإنها قد تنتج إنساناً بستة أصابع لكي يصبح الإنسان مخلوق بأصابع ستة بدلاً عن خمسة أو أنساناً يملأ وجهه الشعر وبدنه كالقرد أو إنتاج أجناس أخرى من الإنسان إذا قدر لهذا القرد الانتشار والسيادة، ولذا لا بد من إشراف وأن الذي يشرف على منع ظهور هذه الأشياء هي الملائكة ونفس الشيء بالنسبة للطبيعة الجامدة إذ يمكن أن تكون كالعناصر مشبعة كالهليوم أو إنتاج مركبات غير قادرة على بث الحياة وبهذا الإنتاج للنبات والحيوان من الظهور.

ومعنى أن هذا العقل والإرادة التي تمثل لب الوجود هي المشرفة على حركة الطبيعة الجامدة فتكون الطبيعة محكومة بالقوانين وبالعقل والإرادة وهذا العقل عقل الله الذي يشرف على كل شيء وعقل الملائكة الذي هو عقل بالنيابة وله تفويض في أداء وظائف معينة، وهكذا فإن الملائكة هي شكل من أشكال الهيمنة الإلّهية على الخلق.

◎ صفات الملائكة

ويترجم مبدأ الإشراف هذا من خلال الصفات التي جعلها الله متصفة بها ويمكن لنا إيجاز بعض منها مما بما يلي:

١ - إنّها رسل للخلق.

٢ - الملائكة حفظة.

٣ - مشرفة على الفاعليات البشرية.

٤ - مشرفة على الطبيعة.

٥ - إنّها ذات وجود تنظيمي.

٦ - إنّها تشرف على الذاكرة الكونية.

٧ - تمثل ساعة كونيّة.

٨ - إنّها كائنات ضخمة وعظيمة وكثيرة العدد.

٩ - إنّها ذات أشكال مختلفة وأجناس كثيرة.

١٠ - إنّها عاقلة وبدرجة عالية من الذكاء.

١١ - إنّها ذات قوى وقدرات عالية جداً.

١٢ - سابقة على وجود البشر.

١٣ - إنّها ذات أنظمة حيوية (بيولوجية) مختلفة.

١٤ - إنّها أجسام لطيفة.

١٥ - قدرتهم على التشكل.

إن جميع هذه الصفات والمواصفات والمعالم تتصادم مع أحد الثوابت المنطقية مما يجعل وجودها أقرب للقبول من الرأي المقابل المنكر، لأننا في حال الرغبة في بناء معمل تحتاج إلى جهاز إداري وخبراء وإشراف فكيف بهذا الكون المترامي الأطراف الذي يعج بأنواع الموجودات الجامدة والحية والتي يمكن أن تتقاطع وتتصادم وتزول، فمن غير المعقول الإدعاء بأن عالماً بهذه الكيفية التي كشفها العلم الحديث متروكة لذاتها وللقوانين الطبيعية وحدها.

◎ الملائكة رُسل للخلق

ترتبط عملية كون الملائكة رسلاً بوجود ظاهرة الدين وما يتعلق به من الإيمان بوجود حياة أخرى، وأن وراء هذا الإيمان ملائكة يمثلون الرابط بين الحياة الغيبية والعالم المرئي والمشهور، وهذه الرسالة ذات بعد تنظيمي للطبيعة ولحياة الإنسان وتكون حقيقتها هي توجيه الوجود برمته إلى هدف يعلو على كل الكائنات وهي تسير إليه وبغض النظر عن إدراكها له أو عدم قدرتها على هذا الأمر.

ويأتي في طول هذه الرسالة عملية الحفظ التي هي كالآتي:

◎ الملائكة حفظة

والحفظ كما يلوح بأشكال عدة هي:

١ - الحفاظ على الإنسان من الأخطار.

٢ - مراقبته.

٣ - تسجيل تصرفاته، ويمكن أن ندرج ضمن هذه الفقرة كون الملائكة يحفظون ويراقبون الكائنات الأخرى كما ورد في بعض الأحاديث، فعملية المراقبة أوسع من مراقبة الإنسان وهو فعل كوني تقوم به الملائكة، وهي عملية بينت الأحاديث أنها بالنسبة للإنسان تعني تدوين أعماله وهذا التدوين يشمل الطبيعة، ويمكن أن تعمم أيضاً مفهوم الحفظ بمعنى الوقاية من الأخطار على الكائنات الأخرى لكي تكون مهمة الملائكة منسقة، وتعني وقاية الكائنات من الأخطار والاحتفاظ بسجل لأعمالها وهو طبعاً لا يمكن أداؤه ما لم يصار إلى الاحتفاظ برقابة مستمرة.

ومن وجهة نظر عقلية إن الوجود يحتاج إلى رعاية، والرعاية تحتاج إلى مراقبة والتدخل من حين لآخر لمنع طغيان بعض الموجودات على البعض الآخر وللحفاظ على التوازن اللازم للاستمرار أو لرعاية بعضها حتى تصل إلى طور معين يمكنها فيه الوقوف على أقدامها.

وحين تتأمل في الطبيعة التي هي ملك لله فإننا نرى ضرورة الحفظ والرعاية، فبالنسبة لعالم الأحياء الذي هو طبقة خاصة من الوجود يرتبط بعالم الجمادات، لأنه مؤلف من أجرام وذرات محسوبة ضمن الجوامد، وأن ما نطلق عليه أنه حي هو مجرد نمط خاص من العلاقة بين عدد من الجمادات، وهذه الجمادات تتفاعل فيما بينها، وبذلك فإنّه شبكة معقدة من العلاقات التي يجب أن تبقى منظمة وأن اضطرابها يؤدي إلى اضطراب الكائن الفرد وأحياناً إلى موته وزواله.

وليس بالإمكان الاعتماد على الأواصر الكيماوية فقط في هذه الناحية، بل لا بدّ من إشراف على سير هذه التفاعلات خصوصاً أنّها عشرات العمليات وإذا أمكن تكبير الإنسان، فإنّه سيلوح شبيهاً بالمجرات الكبيرة تتحرّك الأجرام داخله وتنفصل مجموعات منها وتدخل أخرى، ولعلنا نجد أن تبدّلات تحدث في الجسيمات ما دون الذرية، فإن هذه الحركة المتواصلة تحتاج إلى مراقبة للإطمئنان على حسن سيرها، حتى لو كانت قد وضعت عوامل تسيطر على هذه الحركة وتحفظ مسارها تماماً كالمعامل التي تدار بطريقة ذاتية، فهناك غرفة سيطرة ويوجد عليها مشرفون يراقبون سير العمليات ويتدخلون في حالات الطوارىء لإيقاف الحركة أو أصلاح عطب أو غير ذلك.

وبهذه الصورة يمكن وجود الملك وقيامه بعملية الحفظ ولا تناقض إطلاقاً بين هيمنة الله على كل شيء واشتراك الملائكة في نظام الهيمنة ويمكن تصور عدة طبقات من الضبط وضعها الله للحفاظ على بقاء العالم.

الأولى: هي الأواصر والقوانين التي تعمل في الأجرام الصغيرة وما يقع دون الذرة.

والثانية: الأواصر التي تعمل في الذرات.

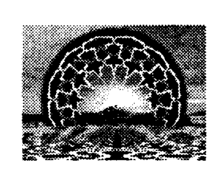
والثالثة: الإشراف على كل ذلك من قبل الملائكة وهذا يحافظ على بقاء الكون ويشكل عنصراً من عناصر كمال بقائه وصعوبة تفكك مكوناته إلاّ بالمقدار الذي يراد تفكيكه.

◎ إنّها ذات وجود تنظيمي

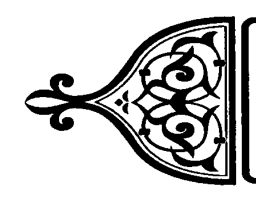
في العادة يحتاج إلى جهاز أو بناء أو أي تركيبة إلى نظام يجمع بين أجزائه وبين أجهزة حماية لهذا النظام وقد صرحت بذلك الكثير من الأحاديث بأن الملائكة على صعيد الكون تقوم بضبط حركة أجزاء الكون ضمن البرنامج فالدين كما هو معروف يتحدث عن وجود برنامج للكون وهو دون بقية الرؤى يرفض العشوائية منذ بدء الخلق وحتى نهاية الكون التي هي ليست نهاية كما يفسر بعض المفسرين آية: ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[1].

فهناك أهداف لحركة الوجود وبرنامج يتحرك في ضوئه نحو الأهداف وهذه الرؤية تتسق مع القول بوجود النظام والإشراف على النظام، والذي يشرف هو هيكل منظم من الملائكة الذين ينقسمون إلى طبقات ومنهم رؤساء ومرؤوسون وكل جماعة مكلفة بأداء معين، وهذا الإدعاء يصبّ في النظام الكوني، وأن مجموع هذا الإشراف هو النظام الكوني بحيث لا يقع الإفراط أو التفريط في أي جزء من الكون خصوصاً أنّه كون من حال حركة متواصلة وتفاعل بين أجزائه كما أن هناك حالات تفكك متواصلة فلو وقع اضطراب في حالات التفكك أو التركيب ولو من قبيل الخطأ لترتبت عليه نتائج هائلة وخصوصاً أن هناك قوى رهيبة مدمرة وأنّه عرضة للدمار رغم القوة والمتانة التي يتصف بها في الظاهر.

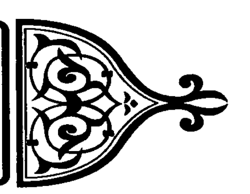
وعليه فإن الإشراف وتنظيم العمليات الذي تضطلع به الملائكة ذا أهمية حيوية بالنسبة لبقاء الوجود واستمراره إلى جانب أنّه استمرار هادف، فوجود الوجود وبمعزل عن الهدف كان يمكن أن يقال بأن يترك لشأنه ليعطي أي نتيجة ومع ذلك فإنّه غير ممكن لأن النتيجة غير المحددة يمكن أن تكون هي الدمار والزّوال، وحيث أن الدمار غير مطلوب حتماً ولذلك فإن حركة محددة النتائج والأهداف تفرض على الوجود وجود كوابح احتياطية تستعمل في أي لحظة لغرض استمرار الاتجاه واستمرار التفاعل.



(١) سورة ق، الآية: ١٥.



الملائكة: العلاقات والمهام



◎ خلق الإنسان بين الوحي والعلم

تفيد النظريات العلمية أن ظهور الإنسان لم يكن عملاً فجائياً بل جاء نتيجة تطورات طويلة. إذ ظهرت الحياة بشكل بسيط جداً ثم تنوّعت وكثرت أشكالها، وظهرت المخلوقات الحية تباعاً ويشير العلم إلى هذه النظرية فيقول:

إن الحياة مرتبطة بالمواد العضوية وهي تتألف بصورة رئيسية من عنصر الكربون والهيدروجين والأوكسيجين ولم تظهر الحياة حتى ولدت هذه العناصر بعد الانفجار الكبير الذي ظهر بعده العالم. «فالحياة في كوكبنا مؤلفة من جزئيات عضوية أو بنى ميكروسكوبية معقدة يؤدي الكربون فيها دوراً رئيسياً وقد مرّ زمن قبل الحياة ذاتها على الأرض وهي عارية ومهجور تماماً»[١].

وإذا كانت الحياة معدومة في زمن ما «فكيف صنعت الجزئيات العضوية ذات الأساس الكربوني في غياب الحياة؟ ثم كيف نشأت أولى المواد الحية؟ وكيف تطورت الكائنات الحية إلى وضعها الحالي الدقيق والمعقد الذي نمثله نحن الجنس البشري؟»[٢].

إنّ ما حدث هنا على الأرض يمكن أن يكون نموذجاً بدرجة أكبر أو أقل لتطور الحياة في عدة عوالم، ولكن إذا أخذنا التفاصيل من نوع كيمياء البروتينات أو طب الجهاز العصبي (الدماغ). فإن قصة الحياة على الأرض يمكن أن تكون فريدة من نوعها في مجرة التبانة كلها. فالأرض تتكثف من الغاز والغبار الموجودين بين المجرات منذ ٦,٤ مليار سنة تقريباً . ونحن نعرف من سجل الأحافير أن الحياة نشأت بعد ذلك فوراً. وربما قبل٤ مليارات سنة في مستنقعات ومحيطات الأرض الوليدة. كانت الأشياء

(١) الكون: ٣٧. (٢) المصدر نفسه: ٣٧.

الحية الأولى غير معقدة على غرار ما هي عليه وهي: العضوية ذات الخلية الواحدة التي تعد شكلاً معقداً من أشكال الحياة.

أما المتحركات الأولى فكانت أكثر تواضعاً، ففي تلك الأيام المبكرة كان البرق والأشعة فوق البنفسجية القادمة من الشمس تحطم جزئيات الجو الأولى الغنية بالهيدروجين. ثم لا تلبث هذه الشظايا أن تتحدد تلقائياً لتشكل جزئيات أكثر تعقيداً. وكانت نواتج هذه الكيمياء المبكرة تنحل في المحيطات مشكلة نوعاً من الماء العضوي يزداد تعقيداً بالتدريج إلى أن جاء يوم بمحص المصادفة نشأت أو تشكلت فيه تلك الجزيئة القادرة على صنع نسخ ممثلة لذاتها مستخدمة جزئيات الماء الأخرى (أحجار بناء).

ذاك كان هو الجد الأقدم للحمض النووي الريبي المنقوص الأوكسيجين الذي يعرف باسم: (دي آن أي) DNA ويشكل جزيئة الحياة الرئيسية على الأرض وهو في شكل السلم المطوي حلزونياً للرمز الوراثي تدعى هذه الدعائم النوكليوتيدات وهي التي تعطي التعليمات الوراثية لصنع عضوية معينة. ولكل شكل من أشكال الحياة على الأرض مجموعة مختلفة من التعليمات هو السبب في اختلاف الكائنات العضوية. والتحول أو الطفرة الوراثية هي تغير في النوكليوتيد يعاد نسخه في الجيل التالي الذي يولد فعلاً[١].

وهكذا يصور العلم تخلّق أوّل موجود حي وهو عبارة عن سائل هلامي مكون من أحماض نووية تم تطوره، وصار قادراً على تكرار نفسه خلال فترات زمنية طويلة كانت فيها الأرض تشهد تطوراً مشابهاً وفر الظروف الملائمة لظهور هذا الموجود الذي يمثل حلقة بين الأحياء والمواد الجامدة.

«فقد كانت الأرض قبل أربعة مليارات من السنين حديقة عدن مليئة بالجزيئات. ولم توجد حتى ذلك الوقت أي حيوانات مفترسة وعملت بعض هذه الجزيئات على التكاثر (التوالد الذاتي) دون مهارة وتنافست على «أحجار البناء» وبالتالي خلقت نسخاً غير متقنة من ذاتها»[٢].

فهناك إذن نقلة حصلت جعلت هذا الموجود قادراً على تكرار نفسه وهي أهم نقلة جعلت هذا الموجود يصنّف ضمن الأحياء لأنّها ميزة الحياة الرئيسية، فضلاً عن قدرته

---

(١) الكون: ٤٦ - ٤٧.

(٢) الكون: ٤٨.

على التغذية، ولربما بطريقة التمثيل الضوئي وهي أحد أهم مميزات الحياة النباتية.

«فقبل ثلاثة مليارات من السنين: أن عدداً من النباتات الوحيدة الخلية انضمت معاً، ربما بسبب أن أحد التحولات منع إحدى الخلايا من الانفصال بعد أن انقسمت إلى خليتين. وعن ذلك تطورت أولى العضويات المتعددة الخلايا»[(١)].

و«قبل مليار سنة استطاعت النباتات التي عملت متعاونة فيما بينها أن تحدث تغيراً مذهلاً في بيئة الأرض، فالنباتات الخضراء تولد الأوكسجين الجزيئي. وبما أن المحيطات كانت آنذاك مليئة بالنباتات الخضراء، فإن الأوكسجين بدأ يصبح مكوناً رئيسياً في جو الأرض»[(٢)].

«ولكن ظهرت عندئذ الحيوانات البحرية الثديية التي هي أجداد الحيتان والدلافين. وفي الفترة نفسها ظهرت الرئيسيات التي هي أجداد السعادين والقرود والبشر ومنذ أقل من عشرة ملايين سنة ظهرت المخلوقات الأولى التي تشبه البشر ورافقت ذلك زيادة ملموسة في حجم الدماغ، ثم ظهر أول إنسان حقيقي قبل بضعة ملايين فقط من السنين»[(٣)].

هذه ببساطة هي الفرضية العلمية لظهور الإنسان بعد أن مر بكل هذه الأطوار متطوراً من الأشكال البسيطة للحياة وسائراً معها حتى ظهر بصورته الفعلية في النهاية.

وهكذا تلوح جملة فروق بين هذه الرؤية والحقيقة القرآنية لخلق الإنسان، إلا أنّ هذه الفروق يمكن أن تعالج بواسطة جمع الرؤية القرآنية مع الرؤية العلمية من خلال ما يسمح به النص القرآني.

فوفق التدريج في الخلق يمكن النظر إلى ظهور أول إنسان بمواصفات قريبة من الإنسان الفعلي على أنه هو الإنسان الأول أو هو آدم.

فمن خلال عدم اعتناء القرآن ببيان الفواصل الزمنية يمكن أن تكون الأطوار التي مرت قبل ظهور الإنسان الأول، وهي مراحل الخلق ثم التسوية ثم مرحلة نفخ الروح هي نفس الأطوار التي أشارت لها النظرية العلمية ويساعد على هذا الفهم جملة آيات: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾﴾[(٤)].

---

(١) المصدر نفسه: ٤٨.
(٢) المصدر نفسه: ٤٩.
(٣) الكون: ٥١.
(٤) سورة المؤمنون، الآيتان: ١٢ - ١٣.

◎ الشّيطان ونبأ خلق الإنسان

هناك ملاحظة يمكن الالتفات إليها من خلال التمعّن في الآيات تؤثر في النتيجة التي نريد الوصول إليها، وهي أن الآيات التي نقلت الخطاب، لم تذكر الشيطان في هذا المقطع وهذا فيه احتمالات هي:

١ - أن يكون الشيطان لم يكن قد خلق في فترة الحوار، وأن الله خلقه فيما بعد بناءً على أن زمن الحوار والأخبار هوغير زمن السجود، وقد علم فيما بعد أنه سيخلق مخلوقاً ويجب عليه السجود له. وحين جاء زمن التنفيذ رفض وإذا كان حاضراً بدءاً فلماذا لم يأتِ منه اعتراض مثل الملائكة كما نقلت الآيات السابقة؟

٢ - أن يكون الشيطان جزءاً من الملائكة الذين خوطبوا وكان مع طبقة أخرى غير مشمولة بالخطاب لكنها مشمولة بالتكليف ولهذا عصى عندما جاءت لحظة التنفيذ.

٣ - أنه كان في جملة المخاطبين ولم يذكر تغليباً لأنه كان معهم ويشبههم من حيث الطبيعة المتقاربة، فالشيطان هو من الجان والجان خلقوا من نار والملائكة كما جاءت الأحاديث هم من نور وأن الجان أعطوا عهد الطاعة ونفذوا عهدهم إلا إبليس أبى ولذلك لعن وطرد وقد سماه الإمام علي عليه السلام في خطبة يذم بها المتكبرين في نهج البلاغة بالملك (بذنب طرد به ملكاً).

◎ الإخبار بخلق الإنسان

وفي هذا المقطع يلفت النظر أيضاً إخبار الله للملائكة بخلق الإنسان فلماذا يخبر جبّار السموات مخلوقاته بهذا الحدث وقبل حصوله؟

بالطبع نحن نعلم أن الله ليس في أفعاله أي فضول أو زيادة بل أن جميع أفعاله هي أفعال كمال وتأتي بالحق وبناءً على هذا فإننا سنتصور وجود حكمة ولهذا لابد من افتراض أسباب عميقة موجبة لهذا الأخبار.

وهنا يمكن أن نتصور:

أولاً: أهمية هذا الإنسان على صعيد الكون خصوصاً أنه مرشح لخلافة الأرض، كما يرجّح العلاّمة الطباطبائي هذا الأمر على الأقوال الأخرى التي تقول بأن الخلافة هي خلافة الإنسان لإنسان آخر أو خلافة كل جيل للجيل الذي يليه أو خلافة الإنسان للجان الذين عمروا الأرض ثم أفسدوا فحرمهم الله من الخلافة في الأرض.

ثانياً: لا بد من تصور ارتباط عملية الخلق بالملائكة خصوصاً أن الملائكة كما

سيتضح فيما بعد مسؤولة عن الملكوت برمته، وأن دورهم واسع وأن إضافة مخلوق جديد يرتبط حتماً بالملائكة التي تلعب دوراً واسعاً في تدبير الوجود.

أما سبب الأهمية فيبدو أنه العلاقة الخاصة بين الإنسان والملائكة فهي علاقة مميزة جداً كما يتجلّى من الأحاديث التي تصدّت لبيان هذه العلاقة والتي ستمر فيما بعد فتؤكد على أن الملائكة تلعب الدور الرئيسي في حياة الإنسان كفرد، وجماعة والتي تبدأ من السجود له وتتواصل إلى يوم القيامة وبعد القيامة إلى ما شاء الله.

فهو أمر يعادل الترابط الأبدي غير القابل للانفكاك فالإنسان في الحياة الدنيا يرتبط بالملائكة وفي القيامة هي التي تؤدي كافة ما يتعلّق بالإنسان وهي معه أيضاً بعد القيامة سواء في الجنة أو الجحيم.

◎ الاعتراض الملائكي

لا بد من تفهم دوافع الاعتراض من قبل الملائكة وهل هو اعتراض أو استفهام؟ ذلك أن الملائكة مخلوقات يصفها الله بالطاعة له ولا تعصي له أمراً إطلاقاً، فكيف يمكن أن تعترض؟ كما أن عصمة الملائكة ناشئة من انعدام الشهوة لديها بالتالي لا دافع يدفعها للاهتمام بالشهوات على اختلافها، ولهذا يجب أن يرجح تفسير الاعتراض بأنه استفسار وليس خروجاً على قضاء الله ولهذا فإن الله رد عليهم بأن العلة تكمن في علم الله ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾[1].

ويساوي هذا ما قالته الملائكة: ﴿سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ﴾[2] ذلك أن الملائكة معتادة على الاطلاع على قضايا الكون بالمقدار الذي يعلمهم الله لكن هناك الكثير من الأشياء التي لا تعلمها الملائكة، فهناك دائماً غيب ولهذا وصف الله نفسه بعلام الغيوب. وهو جمع غيب أي ما غاب عن العين أو الإدراك.

وأن ما ورد بصيغة اعتراض هو في الأصل استفهام عن طبيعة الاختيار مقارنةً بين طاعة الملائكة وطاعة الإنسان، فما معنى اختيار خليفة يفسق ويسفك الدماء، ولعل تشديد الله على طاعة مخلوقاته له يناقض اختياره خليفه يفسد ويسفك الدماء، إذ أن الخلافة تختلف عن الإيجاد المجرد لأن فيها معنى من التكريم، وبالتالي يمكن أن تكون الملائكة مستغربة من هذا الأمر، ولهذا فإن الردّ الإلّهي جاء متعلقاً بوجود جوانب

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٠.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٣٢.

خفية على الملائكة من خصوصيات هذه المخلوقات يعلمها الله فجاء بقوله تعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

أما حكم الملائكة على هذا المخلوق بالفساد وسفك الدماء فإنّه ربما جاء لأن الله شرح لهم طبيعة هذا المخلوق الذي سيخلفه الله وهذا هو الأرجح، ولكن الآية لم تتعرض لهذه القضية وأن القرآن أضمرها كعادته في اضمار الكثير من الجوانب، لكنه أكد أن الملائكة مطلعون على هذه القدرة لدى الإنسان، ومما يرجح هذا الأمر ارتباط الملائكة بالإنسان وخصوصاً في عملية منع الفساد حيث تقوم الملائكة بمنع الفساد عن طريق نقل رسالات الله إلى البشر أوعن طريق الإيحاء، وكما هو معروف أن الكثير من أفكار الخير والعزم على تنفيذها تأتي من الملائكة كما أن أفعال الشر وإثارتها في النفس تأتي من الشيطان.

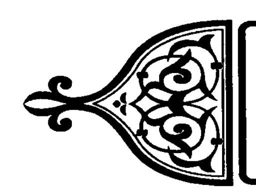
أو كما تقول بعض الروايات هناك دورات بشرية سبقت آدم وأن الملائكة شاهدت هذه الدورات، وهناك احتمال آخر أن الملائكة مطلعة أصلاً على اللوح المحفوظ وهو يعادل في حياة البشر بنك المعلومات، أو المشاريع المستقبلية حيث لدينا أحاديث تشير بدقة إلى هذا الأمر وهي التي تتحدث عن أن الأئمة عليهم السلام كانوا أنواراً في ساق العرش قبل خلق آدم بأزمنة بعيدة.

وكعادة القرآن يختم الحديث عن التداول بين الملائكة وبين الله سبحانه بخصوص الإنسان وينتقل إلى الحديث عنه، وهو حقيقة ماثلة بعد أن أضيف إلى الملكوت موجودٌ آخر إسمه الإنسان أو ابن آدم وهنا أيضاً لا يعتني القرآن بالتفاصيل أو الزمن، إما لأنها ليست موضع الغرض أو أنها مما لا يريد الله للإنسان الإطلاع عليه وهكذا نصل إلى المقطع الثاني.

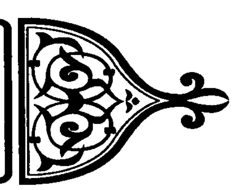
وقال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾[1].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٣١- ٣٤.



عصمة الملائكة وقصة هاروت وماروت



● عن زرارة، عن أبي الطفيل، قال: كنت في مسجد الكوفة فسمعت عليّاً وهو على المنبر وناداه ابن الكوّا وهو في مؤخّر المسجد فقال: يا أمير المؤمنين ما الهدى؟

قال: لعنك الله ولم يسمعه ما الهدى تريد ولكنّ العمى تريد، ثمّ قال له: ادن، فدنا منه، فسأله عن أشياء فأخبره.

فقال: أخبرني عن هذه الكوكبة الحمراء - يعني الزهرة - قال: إنّ الله اطّلع ملائكته على خلقه، وهم على معصية من معاصيه.

فقال الملكان هاروت وماروت: هؤلاء الّذين خلقت أباهم بيدك، وأسجدت له ملائكتك يعصونك.

قال: فلعلّكم إذا ابتليتم بمثل الّذي ابتلواهم به عصيتموني [كما عصوني].

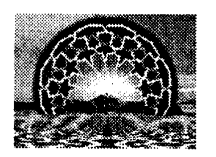
قالا: لا وعزّتك.

قال: فابتلاهما بمثل الّذي ابتلى به بني آدم من الشهوة، ثمّ أمرهما أن لا يشركا به شيئاً، ولا يقتلا النفس الّتي حرّم الله، ولا يزنيا، ولا يشربا الخمر. ثمّ أهبطهما إلى الأرض، فكانا يقضيان بين الناس، هذا في ناحية وهذا في ناحية، فكانا بذلك حتّى أتت أحدهما هذه الكوكبة تخاصم إليه وكانت من أجمل الناس، فأعجبته.

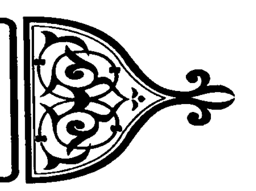
فقال لها: الحقُّ لك ولا أقضي لك حتّى تمكّنيني من نفسك، فواعدت يوماً، ثمّ أتت الآخر فلمّا خاصمت إليه وقعت في نفسه أعجبته كما أعجبت الآخر فقال لها مثل مقالة صاحبه. فواعدته الساعة الّتي واعدت صاحبه، فاتّفقا جميعاً عندها في تلك الساعة، فاستحيى كلّ واحد من صاحبه حيث رآه وطأطآ رأسيهما ونكسا، ثمّ نزع الحياء منهما، فقال أحدهما لصاحبه: يا هذا! جاء بي الّذي جاء بك.

قال: ثمّ راوداها عن نفسها، فأبت عليهما حتّى يسجدا لوثنتها ويشربا من شرابها، وأبيا عليها وسألاها فأبت إلاّ أن يشربا من شرابها فلمّا شربا صليّا لوثنها، ودخل

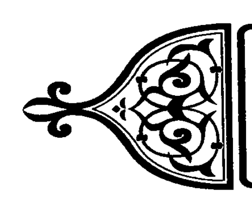
مسكين فرآهما، فقالت لهما: يخرج هذا فيخبر عنكما، فقاما إليه فقتلاه، ثمّ راوداها عن نفسها فأبت حتّى يخبراها بما يصعدان به إلى السماء، فأبيا وأبت أن تفعل، فأخبراها، فقالت ذلك لتجرّب مقالتهما وصعدت، فرفعا أبصارهما إليها فرأيا أهل السماء مشرفين عليهما ينظرون إليهما، وتناهت إلى السماء فمسخت، فهي الكوكبة الّتي ترى(١).



(١) البحار ج٥٦: ص٣٢٤ - ٣٢٥، ح٩.



في قسمة الأرض إلى الأقاليم



● عن يحيى الحلبيّ، عن عمر بن أبان، عن جابر، قال: حدَّثني تميم بن حذيم، قال: كنّا مع عليّ عليه السلام حيث توجّهنا إلى البصرة، قال: فبينما نحن نزول إذا اضطربت الأرض فضربها عليّ عليه السلام بيده ثمّ قال لها: مالك؟ ثمّ أقبل علينا بوجهه ثمّ قال لنا: أما إنّها لو كانت الزلزلة الّتي ذكرها الله عزّ وجلّ في كتابه لأجابتني ولكنّها ليست بتلك(١).

هذا إشارة إلى ما ورد في الأخبار أنّ «الإنسان» في سورة الزلزال هو أمير المؤمنين عليه السلام يقول للأرض: مالك؟ فتحدّثه الأرض أخبارها. كما روى في العلل عن فاطمة عليها السلام قالت: أصاب الناس زلزلة على عهد أبي بكر - وساقت الحديث إلى قولها - فقال لهم عليّ عليه السلام: كأنّكم قد هالكم ما ترون! قالوا: وكيف لا يهولنا ولم نر مثلها قط؟ قالت: فحرّك شفتيه ثمّ ضرب الأرض بيده ثمّ قال: مالك؟ اسكني. فسكنت، فقال: أنا الرجل الّذي قال الله: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣﴾ فأنا الإنسان الّذي يقول لها: مالك؟ ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤﴾ أيّاي تحدّث. فهذا معنى قوله عليه السلام: «إنها لو كانت الزلزلة الّتي ذكرها الله في كتابه» أي في سورة الزلزال وهي زلزلة القيامة «لأجابتني» أي لحدّثت وتكلّمت معي «ولكنّها ليست بتلك» أي زلزلة القيامة.

● كتاب الغارات: لإبراهيم بن محمّد الثقفيّ، عن الشعبيّ، قال: قال ابن الكوّاء لأمير المؤمنين عليه السلام: أيّ [شيء] خلق الله أشدّ؟

قال: أنّ أشدَّ خلق الله عشرة: الجبال الرواسي، والحديد تنحت به الجبال، والنار تأكل الحديد، والماء يطفيء النار، والسحاب المسخّر بين السماء والأرض تحمل الماء، والريح تقلّ السحاب والإنسان يغلب الريح يتّقيها بيديه ويذهب لحاجته،

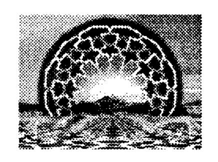
(١) العلل: ج٢، ص٢٤٢، البحار ج٥٧ ص١٢٩، ح٢٣.

والسكر يغلب الإنسان، والنوم يغلب السكر، والهمّ يغلب النوم، فأشدّ خلق ربّك الهمّ[(١)].

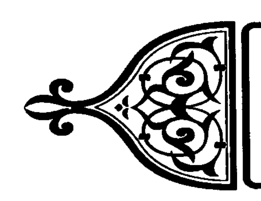
● العلل: عن أحمد بن محمّد العلويّ، عن محمد بن إبراهيم بن أسباط، عن أحمد بن زياد، عن أحمد بن عبد الله، عن عيسى بن جعفر العلويّ العمريّ، عن آبائه، عن عمر بن عليّ، عن أبيه عليّ بن أبي طالب عليه السلام أنّه سئل: ممّ خلق الله عزّ وجلّ الذرّ الّذي يدخل في كوّة البيت؟

فقال: إنّ موسى عليه السلام لمّا قال: ربّ أرني أنظر إليك.

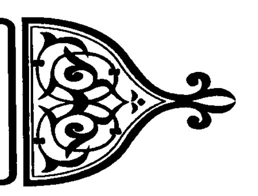
قال الله عزّ وجلّ: إن استقرّ الجبل لنوري فإنّك ستقوى على أن تنظر إليّ، وإن لم يستقر فلا تطيق إبصاري لضعفك، فلمّا تجلّى الله تبارك وتعالى للجبل وتقطّع ثلاث قطع: فقطعة ارتفعت في السماء، وقطعة غاضت تحت الأرض، وقطعة تفتّت، فهذا الذرّ من ذلك الغبار غبار الجبل[(٢)] [(٣)].



(١) البحار ج٥٧ ص٢٠٠، ح٣.
(٢) هذا الخبر على تقدير صحّته وصدوره عن الإمام، لعلّ المعنى أنّ له أيضاً مدخليّة في تلك الذرّات في بعض البلاد أو كلّها بأن تكون تفرّقت بقدرة الله تعالى في جميع البلاد.
(٣) علل الشرائع: ج٢، ص١٨٣، البحار ج٥٦ ص٢٠٠، ح٤.



الممدوح من البلدان والمذموم منها



● روى الشيخ في التهذيب، بإسناده عن الثماليّ، عن أبي جعفر عليه السلام قال: كان في وصيّة أمير المؤمنين عليه السلام أن أخرجوني إلى الظهر فإذا تصوّبت أقدامكم واستقبلتكم ريح فادفنوني، وهو أوّل طور سيناء. ففعلوا ذلك(١).

● في خبر الشاميّ، أنّه سأل أمير المؤمنين عليه السلام عن أكرم وادٍ على وجه الأرض.

فقال له: وادٍ يقال له: «سرانديب» سقط فيه آدم من السماء.

سأله عن شرّ وادٍ على وجه الأرض فقال: وادٍ باليمن يقال له: «برهوت» وهو من أودية جهنّم(٢).

● تفسير على بن إبراهيم: عن الحسين بن عبد الله السكينيّ، عن أبي سعيد البجليّ، عن عبد الملك بن هارون، عن أبي عبد الله، عن آبائه - صلوات الله عليهم - قال: لمّا بلغ أمير المؤمنين عليه السلام أمر معاوية وأنّه في مائة ألف، قال: من أيّ القوم؟

قالوا: من أهل الشام.

قال: لا تقولوا من أهل الشام، ولكن قولوا: من أهل الشوم، هم أبناء مصر لعنوا على لسان داود عليه السلام فجعل الله منهم القردة والخنازير - الخبر -(٣).

● من كلام له عليه السلام في ذكر الكوفة: كأنّي بك يا كوفة تمدّين مدَّ الأديم العكاظيّ،

---

(١) البحار ج٥٧ ص٢٠٥.

(٢) العلل: ج٢، ٢٨٢، البحار ج٥٨ ص٢٠٥ - ٢٠٦، ح٤.

(٣) يمكن الجمع بين الآيات والأخبار الواردة في مدح الشام ومصر وذمّه بما أومأنا إليه سابقاً من اختلاف أحول أهله في الأزمان، فإنّه كان في أوّل الزمان محلّ الأنبياء والصلحاء فكان من البلاد المباركة الشريفة، فلمّا صار أهله من أشقى الناس وأكفرهم صار من شرّ البلاد، كما أنّ يوم عاشوراء كان من الأيّام المتباركة - كما يظهر من بعض الأخبار - فلما قتل فيه الحسين عليه السلام صار من أنحس الأيّام.
تفسير القمى: ٥٩٦، البحار ج٥٧ ص٢٠٨، ح٨.

تُعركين بالنوازل، وتُركبين بالزلازل، وإنّي لأعلم أنّه ما أراد بك جبّار سوءاً إلاّ ابتلاه الله بشاغل، ورماه بقاتل(١).

● عن ثابت البنانيّ، عن أنس بن مالك قال: كنت ذات يوم جالساً عند النبيّ ﷺ إذ دخل عليه عليُّ بن أبي طالب عليه السلام فقال ﷺ: إليَّ يا أبا الحسن، ثمَّ اعتنقه و قبّل (ما) بين عينيه وقال: يا عليُّ إنَّ الله عزّ اسمه عرض ولايتك على السماوات، فسبقت إليها السماء السابعة فزيّنها بالعرش، ثمَّ سبقت إليها السماء الرابعة فزيّنها بالبيت المعمور، ثمَّ سبقت إليها السماء الدنيا فزيّنها بالكواكب، ثمَّ عرضها على الأرضين فسبقت إليها مكّة فزيّنها بالكعبة، ثمَّ سبقت إليها المدينة فزيّنها بي، ثمّ سبقت إليها الكوفة فزيّنها بك، ثمَّ سبق إليها قم فزيّنها بالعرب وفتح إليه باباً من أبواب الجنّة(٢).

وفي خطبة الملاحم لأمير المؤمنين عليه السلام الّتي خطب بها بعد وقعة الجمل بالبصرة قال: يخرج الحسنيّ صاحب طبرستان مع جمٍّ كثير من خيله ورجله حتّى يأتي نيسابور فيفتحها ويقسم أبوابها ثمّ يأتي إصبهان، ثمّ إلى قم، فيقع بينه وبين أهل قم وقعة عظيمة يقتل فيها خلق كثير فينهزم أهل قم، فينهب الحسنيّ أموالهم ويسبي ذراريهم ونساءهم ويخرب دورهم، فيفزع أهل قم إلى جبل يقال لها: «ورادهار» فيقيم الحسنيّ ببلدهم أربعين يوماً، ويقتل منهم عشرين رجلاً، ويصلب منهم رجلين ثمّ يرحل عنهم(٣).

● وقال أبو عبد الله الفقيه الهمدانيّ في كتاب البلدان: إنّ أبا موسى الأشعريّ روى أنّه سأل أمير المؤمنين عليّاً بن أبي طالب عليه السلام عن أسلم المدن وخير المواضع عند نزول الفتن وظهور السيف.

فقال: أسلم المواضع يومئذ أرض الجبل، فإذا اضطربت خراسان ووقعت الحرب بين أهل جرجان وطبرستان وخرجت سجستان فأسلم المواضع يومئذ قصبة قم تلك البلدة الّتي يخرج منها أنصار خير الناس أباً وجدّاً وجدّة وعمّاً وعمّة تلك الّتي تسمّى الزهراء. بها موضع قدم جبرئيلّ، وهو الموضع الّذي نبع منه الماء الّذي من شرب منه أمن من الداء، ومن ذلك الماء عجن الطين الّذي عمل منه كهيئة الطير، ومنه يغتسل الرضا عليه السلام، ومن ذلك الموضع يخرج كبش إبراهيم وعصا موسى وخاتم سليمان(٤).

● المجلسي في البحار: وجدت بخطّ الشيخ محمّد بن عليّ الجباعيّ- رحمة الله - : قال الشيخ محمّد بن مكّي - قدّس الله روحه - وجد بخط جمال الدين ابن المطهر:

---

(١) البحار ج٥٧ ص٢٠٩ ح١٢.
(٢) البحار ج٥٧ ص٢١٢ ح٢١٢.
(٣) البحار ج٥٧ ص٢١٥ ح٦.
(٤) البحار ج٥٧ ص٢١٧-٢١٨ ح٤٧.

وجدت بخط والدي رحمه الله قال: وجدت رقعة مكتوبة بخطّ عتيق ما صورته: بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أخبرنا به الشيخ الأجلّ العالم عزّ الدين أبو المكارم حمزة بن عليّ ابن زهرة الحسينيّ الحلبيّ إملاءً من لفظه عند نزوله بالحلّة السيفيّة - وقد وردها حاجّاً سنة أربع وسبعين وخمسمائة - ورأيته يلتفت يمنة ويسرة، فسألته عن سبب ذلك.

قال: إنّني لأعلم أنّ لمدينتكم هذه فضلاً جزيلاً.

قلت: وما هو؟

قال: أخبرني أبي، عن أبيه، عن جعفر بن محمّد بن قولويه، عن الكلينيّ قال: حدّثني عليُّ بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن أبي حمزة الثماليّ، عن الأصبغ بن نباته قال: صحبت مولاي أمير المؤمنين عليه السلام عند وروده إلى صفّين وقد وقف على تلّ عرير ثمّ أومأ إلى أجمة ما بين بابل والتلّ وقال: مدينة وأيُّ مدينة!

فقلت له: يا مولاي أراك تذكر المدينة، أكان ههنا وانمحت آثارها؟

فقال: لا، ولكن ستكون مدينة يقال لها: الحلّة السيفيّة يمدّنها رجل من بني أسد يظهر بها قوم أخيار لو أقسم أحدهم على الله لأبرّ قسمه[١].

● شرح النهج لابن ميثم: قال: لمّا فرغ أمير المؤمنين عليه السلام من حرب الجمل خطب الناس بالبصرة فحمد الله وأثنى عليه وصلّى على النبيّ صلى الله عليه وآله ثمّ قال: يا أهل البصرة! يا أهل المؤتفكة ائتفكت بأهلها ثلاثاً وعلى تمام الرابعة! يا جند المرأة وأعوان البهيمة، رغا[٢] فأجبتم، وعُقر فانهزمتم[٣] أخلاقكم دقاق، ودينكم نفاق، وماؤكم زعاق[٤] بلادكم أنتن بلاد الله تربة، وأبعدها من السماء، بها تسعة أعشار الشرّ المحتبس فيها بذنبه، والخارج منها بعفو الله، كأني أنظر إلى قريتكم هذه وقد طبّقها الماء حتّى ما يرى منها إلاّ شُرف المسجد كأنّه جؤجؤ طير في لجّة بحر - وساق إلى قوله: إذا هم رأوا البصرة قد تحوّلت أخصاصها دوراً، وآجامها قصوراً، فالهرب! الهرب! فإنّه لابصرة لكم يومئذ.

ثم التفت عن يمينه فقال: كم بينكم وبين الأبلّة؟

فقال له المنذر بن الجارود: فداك أبي وأمّي: أربعة فراسخ.

قال له: صدقت، فوالّذي بعث محمّداً صلى الله عليه وآله وأكرمه بالنبوّة، وخصّه بالرسالة، وعجّل بروحه إلى الجنّة لقد سمعت منه كما تسمعون منّي أن قال: يا عليّ هل علمت أنّ

---

(١) البحار ج٥٧ ص٢٢٢ - ٢٢٣.
(٢) أي صوت وضج.
(٣) فهربتم (خ).
(٤) أي مر لا يطاق شر به.

بين الّتي تسمّى البصرة والّتي تسمّى الأبلّة أربعة فراسخ وسيكون في التي تسمى الأيلة موضع أصحاب العشور، يقتل في ذلك الموضع من أمّتي سبعون ألف شهيد، هم يومئذ بمنزلة شهداء بدر.

فقال له المنذر: يا أمير المؤمنين، ومن يقتلهم؟ فداك أبي وأمّي.

قال: يقتلهم أخوان وهم جيل كأنّهم الشياطين، سود ألوانهم، منتنة أرواحهم، شديد كلبهم، قليل سلبهم، طوبى لمن قتلوه، ينفر لجهادهم في ذلك الزمان قوم هم أذلّة عند المتكبّرين من أهل ذلك الزمان، مجهولون في الأرض، معروفون في السماء، تبكي السماء عليهم وسكّانها، والأرض وسكانها - ثمّ هملت عيناه بالبكاء ثمّ قال:

- ويحك يا بصرة من جيش لارهج له ولا حسّ!

فقال له المنذر: يا أمير المؤمنين، وما الّذي يصيبهم من قبل الغرق ممّا ذكرت؟ وما الويح؟

فقال: هما بابان: فالويح باب رحمة، والويل باب عذاب ياابن الجارود. نعم، تارات عظيمة: منها عصبة يقتل بعضها بعضاً، ومنها فتنة يكون بها إخراب منازل وخراب ديار وانتهاك أموال وسباء نساء يذبحن ذبحاً، يا ويل أمرهنّ حديث عجيب!

ومنها أن يستحلّ بها الدجّال الأكبر الأعور الممسوح العين اليمنى والأخرى كأنّها ممزوجة بالدم لكأنّها في الحمرة علقة، ناتىء الحدقة كهيئة حبّة العنب الطافية على الماء، فيتبعه من أهلها عدّة من قتل بالأبلّة من الشهداء، أناجيلهم في صدورهم، يُقتل من يقتل، ويهرب من يَهرب، ثمَّ رجف، ثمَّ قذف، ثمَّ خسف ثمّ مسخ، ثمّ الجوع الأغبر، ثمّ الموت الأحمر وهو الغرق.

يا منذر إنّ للبصرة ثلاثة أسماء سوى البصرة في الزبر الأول لا يعلمها إلاّ العلماء: منها الخريبة، ومنها تدمُر، ومنها المؤتفكة - وساق إلى أن قال:

- يا أهل البصرة إنّ الله لم يجعل لأحد من أمصار المسلمين خُطّة شرف ولا كرم إلاّ وقد جعل فيكم أفضل ذلك، وزادكم من فضله بمنّه ما ليس لهم: أنتم أقوم الناس قبلة، قبلتكم على المقام حيث يقوم الإمام بمكّة، وقارئكم أقرأ الناس، وزاهدكم أزهد الناس، وعابدكم أعبد الناس، وتاجركم أتجر الناس وأصدقهم في تجارته، ومتصدّقكم أكرم الناس صدقة، وغنيّكم أشدّ الناس بذلاً وتواضعاً، وشريفكم أحسن الناس خلقاً وأنتم أكثر الناس جواراً، وأقلّهم تكلّفاً لما لا يعنيه، وأحرصهم على الصلاة في جماعة ثمرتكم أكثر الثمار، وأموالكم أكثر الأموال، وصغاركم أكيس

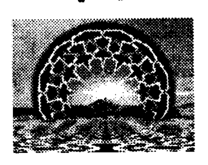
الأولاد، ونساؤكم أمنع النساء وأحسنهنّ تبعّلاً، سخّر لكم الماء يغدو عليكم ويروح صلاحاً لمعاشكم والبحر سبباً لكثرة أموالكم، فلو صبرتم واستقمتم لكانت شجرة طوبى لكم مقيلاً وظلاً ظليلاً، غير أنَّ حكم الله ماض، وقضاءه نافذ لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب. يقول الله: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾(١) - ثمّ ساق الخطبة إلى قوله - إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال لي يوماً وليس معه غيري:

إنّ جبرئيل الروح الأمين حملني على منكبه الأيمن حتّى أراني الأرض ومن عليها وأعطاني إقاليدها وعلّمني ما فيها وما قد كان على ظهرها وما يكون إلى يوم القيامة ولم يكبر ذلك [عليّ] كما لم يكبر على أبي آدم علّمه الأسماء كلّها ولم تعلمها الملائكة المقرّبون.

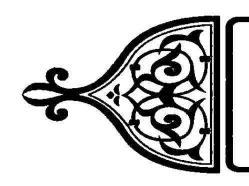
وإنّي رأيت بقعة على شاطىء البحر تسمّى: البصرة، فإذا هي أبعد الأرض من السماء وأقربها من الماء، وأنّها لأسرع الأرض خراباً وأخشنها تراباً وأشدّها عذاباً، ولقد خسف بها في القرون الخالية مراراً، وليأتينّ عليها زمان، وإنّ لكم يا أهل البصرة وما حولكم من القرى من الماء ليوماً عظيماً بلاؤه، وإنّي لأعلم موضع منفجره من قريتكم هذه، ثمّ أمور قبل ذلك تدهمكم عظيمة أخفيت عنكم وعلمناها، فمن خرج عنها عند دنوّ غرقها فبرحمة من الله سبقت له، ومن بقي فيها غير مرابط بها فبذنبه وما الله بظلام للعبيد(٢)..

● وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: صلوات الله على أهل قم، ورحمة الله على أهل قم، سقى الله بلادهم الغيث - إلى آخر ما مرّ عن الصادق عليه السلام (٣).

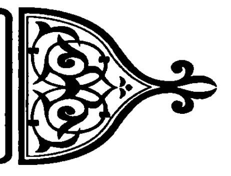
● كشف الغمة: عن ابن أعثم الكوفي، عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: ويحاً للطالقان فإنّ لله تعالى بها كنوزاً ليست من ذهب ولا فضّة، ولكن بها رجال مؤمنون عرفوا الله حقَّ معرفته وهم أنصار المهديّ في آخر الزمان(٤).



(١) سورة الإسراء، الآية: ٥٨.
(٢) البحار ج٥٧ ص٢٢٤ - ح٢٢.
(٣) البحار ج٥٧ ص٢٢٨ ح٦٣.
(٤) البحار ج٥٧ ص٢٢٩، ح٥٦.



فضل الإنسان وتفضيله على الملك



● كتاب تفضيل أمير المؤمنين: الكراجكيّ، عن عليّ بن الحسن بن مندة، عن الحسن بن يعقوب البزّاز، عن عليّ بن إبراهيم، عن أبيه، قال: لمّا حمل المأمون أبا هدية مولى أنس إلى خراسان بلغني ذلك، فخرجت في لقائه فصادفني في بعض المنازل، فرأيت رجلاً طويلاً خفيف العارضين منحنياً من الكبر وقد اجتمع عليه الناس، فقلت له: حدّثني - رحمك الله - فإني أتيتك من بلد بعيد أسمع منك، فلم يحدّثني من الزحمة الّتي كانت عليه، ثمَّ رحل فتبعته إلى المرحلة الأُخرى فلمّا نزل أتيته فقلت له: حدّثني - رحمك الله تعالى - قال: أنت صاحبي بالأمس؟

قلت: نعم.

◎ قصة الطائر

قال: إذاً والله لا أحدّثك إلاّ قائماً لما بدا منّي إليك، لأنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: من كان عنده علم فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار، ثمّ قام قائماً وقال: كنت رأيت مولاي أنس بن مالك وهو معصّب بعصابة بعصابة بيضاء، فقلت: وما هذه العصابة؟

قال: هذه دعوة عليّ بن أبي طالب.

فقلت: وكيف؟

فقال: أهدي إلى رسول الله ﷺ طائر ورسول الله ﷺ في بيت أمّ سلمة رضي الله عنها وأنا حيتئذ أحجب رسول الله ﷺ فأصلحته أمّ سلمة رضي الله عنها وأتت به رسول الله ﷺ وقالت أمّ سلمة: الزم الباب لينال رسول الله ﷺ منه، فلزمت الباب وقدّمته إلى النبي ﷺ، فلما وضعته بين يديه رفع رسول الله ﷺ يديه وقال:

اللّهمَّ ائتني بأحبّ خلقك إليك يأكل معي من هذا الطائر، فسمعت دعوة رسول

الله صلى الله عليه وآله وأحببت أن يكون رجلاً من قومي، فأتى عليّ بن أبي طالب، فقلت: إنّ رسول الله عنك مشغول فانصرف، ثمّ دعا رسول الله صلى الله عليه وآله ثانية وقال:

اللّهمَّ ائتني بأحبّ خلقك إليك يأكل معي من هذا الطائر، فأتى عليُّ بن أبي طالب، فقلت: إنّ رسول الله عنك مشغول فانصرف، ثمّ رفع رسول الله صلى الله عليه وآله رأسه ودعا ثالثة وقال:

يا ربّ ائتني بأحبّ خلقك إليك يأكل معي من هذا الطائر فأتى عليٌّ فقلت: رسول الله عنك مشغول، فقال: وما يشغل رسول الله صلى الله عليه وآله عنّي؟ ودفعني فدخل، فلمّا رآه رسول الله صلى الله عليه وآله قبّل ما بين عينيه وقال: يا أخي! من الّذي حبسك عنّي وقد دعوت الله ثلاثاً أن يأتيني بأحبّ خلقه إليه يأكل معي من هذا الطائر؟

فقال: يا رسول الله؟ قد جئت ثلاثاً كلّ ذلك يردّني أنس.

فقال: لم رددت عليّاً؟

فقلت: يا رسول الله إنّي سمعت دعوتك فأحببت أن يكون رجلاً من الأنصار فأفتخر به إلى الأبد.

فقال عليّ عليه السلام: اللّهمَّ ارم أنساً بوضح لا يستره من الناس، فظهر عليّ هذا الّذي ترى وهي دعوة عليّ[1] [2].

◎ علي عليه السلام سيّد الوصيين

● عن ابن شاذان، عن محمّد بن عبد الله، عن جعفر بن عليّ الدقّاق، عن عبد الله بن محمّد الكاتب، عن سليمان بن الربيع، عن نصر بن مزاحم، عن عليّ بن عبد الله، عن الأشعث، عن مرّة، عن أبي ذرّ، قال: نظر النبي صلى الله عليه وآله إلى عليّ بن أبي طالب عليه السلام فقال: خير الأوّلين والآخرين من أهل السماوات والأرضين، هذا سيّد الصدّيقين، وسيّد الوصيّين، وإمام المتّقين، وقائد الغرّ المحجّلين، إذا كان يوم القيامة

(١) في سائر الأخبار أنّ دعوة أمير المؤمنين عليه السلام عليه حين استشهده فأبى أن يشهد هذا من الأخبار المتواترة، وممّا احتجّ به يوم الشورى فصدّقوه، ويدلّ على أنّه عليه السلام أفضل [جميع] خلق الله، وخرج الرسول صلى الله عليه وآله بالأجماع والنصوص المتواترة فيدلّ على فضله على الملائكة، وكلّ من قال بفضله قال بفضل سائر الأئمّة وجميع الأنبياء عليهم السلام فثبت فضل الجميع.

(٢) البحار ج٥٧ ص٣٠٠ - ٣٠١، ح١١.

جاء على ناقة من نوق الجنّة، قد أضاءت القيامة من نورها، على رأسه تاج مرصّع بالزبدجد والياقوت، فتقول الملائكة: هذا ملك مقرّب.

ويقول النبيّون: هذا نبيٌّ مرسل، فينادي منادٍ من تحت بطنان العرش:

هذا الصدّيق الأكبر، هذا وصيُّ حبيب الله رب العالمين، هذا عليّ بن أبي طالب عليه السلام، فيجيء عليّ حتّى يقف على متن جهنّم، فيخرج منها من يحبّ، ويأتي أبواب الجنّة فيدخل فيها أولياءه بغير حساب(١).

◎ علي عليه السلام تحت العرش

● عن ابن شاذان، عن جعفر بن محمّد بن مسروق اللّحام، عن حسين بن محمّد، عن أحمد بن علويه، عن إبراهيم بن محمّد الثقفيّ، عن عبد الله بن صالح، عن حريز بن عبد الحميد، عن مجاهد، عن ابن عبّاس، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: لمّا أسري بي إلى السماء ما مررت بملأ من الملائكة إلاّ سألتني عن عليّ بن أبي طالب، حتّى ظننت أنّ اسم عليّ بن أبي طالب في السماوات أشهر من اسمي، فلمّا بلغت السماء الرابعة ونظرت إلى ملك الموت قال لي: يا محمّد! ما خلق الله خلقاً إلاّ وأنا أقبض روحه إلاّ أنت وعليّ، فإنّ الله جلّ جلاله يقبض أرواحكما بقدرته وجزت تحت العرش إذ أنا بعليّ بن أبي طالب واقفاً تحت العرش، فقلت: يا عليّ سبقتني؟

فقال جبرئيل: من هذا الّذي تكلّمه يا محمّد؟

فقلت: هذا عليّ بن أبي طالب.

فقال: يا محمّد! ليس هذا عليّ بن أبي طالب، ولكنّه ملك من الملائكة خلقه الله تعالى على صورة عليّ بن أبي طالب عليه السلام فنحن الملائكة المقرّبون كلّما اشتقنا إلى وجه عليّ بن أبي طالب عليه السلام زرنا هذا الملك، لكرامة عليّ بن أبي طالب على الله سبحانه(٢) (٣).

---

(١) البحار ج٥٧ ص٣٠٢، ح١٣.

(٢) دلالته أوّلاً وآخراً على فضله لا يخفى على المتأمّل، ودلّت عليه الأخبار المستفيضة الدالّة على مباهاة الله به عليه السلام ليلة المبيت ويوم أُحد، وقوله جبرئيل عليه السلام: أنا منكما.

(٣) البحار ج٥٧ ص٣٠٣، ح١٥.

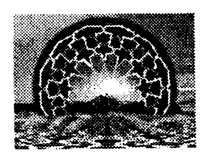
◎ الفضل بعدي لك يا علي

● عن الحسن بن محمّد بن سعيد الهاشميّ، عن فرات بن إبراهيم، عن ابن عقدة، عن العبّاس بن عبد الله البخاريّ، عن محمّد بن القاسم بن إبراهيم، عن أبي الصلت الهرويّ، عن الرضا، عن آبائه، عن أمير المؤمنين عليهم السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ما خلق الله عزّ وجلّ خلقاً أفضل منّي ولا أكرم عليه منّي.

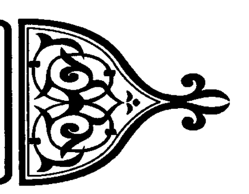
قال عليّ عليه السلام: فقلت: يا رسول الله فأنت أفضل أو جبرئيل؟

فقال صلى الله عليه وآله: يا عليّ إن الله تبارك وتعالى فضّل أنبياءه المرسلين على ملائكته المقرّبين، وفضلني على جميع النبيين والمرسلين، والفضل بعدي لك يا عليّ وللأئمّة عليهم السلام من بعدك، وإنّ الملائكة لخدّامنا وخدّام محبّينا، يا عليّ! الّذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربّهم ويستغفرون للّذين آمنوا بولايتنا، يا عليّ! لولا نحن ما خلق آدم، ولا حوّاء، ولا الجنّة، ولا النار، ولا السماء، ولا الأرض، فكيف لا نكون أفضل من الملائكة وقد سبقناهم إلى معرفة ربّنا وتسبيحه وتهليله وتقديسه؟ - وساق الحديث إلى قوله - فكيف لا نكون أفضل من الملائكة وقد سجدوا لآدم - كلّهم أجمعون لكوننا في صلبه؟ وإنّه لمّا عرج بي إلى السماء أذّن جبرئيل مثنى مثنى، وأقام مثنى مثنى، ثمّ قال لي: تقدّم يا محمّد، فقلت له: يا جبرئيل! أتقدّم عليك؟

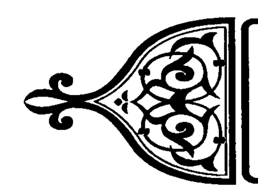
فقال: نعم، لأنّ الله تبارك وتعالى فضلّ أنبياءه على الملائكة أجمعين، وفضّلك خاصّة - إلى آخر الخبر بطوله -[١].



(١) علل الشرائع: ج١، ص٦، العيون: ج١، ص٢٦٢، البحار ج٥٧ ص٣٠٤ - ٣٠٥، ح١٦.



بدء خلق الإنسان في الرحم



● تفسير النعماني: بأسناده عن الصادق عليه السلام قال: سئل أمير المؤمنين عليه السلام عن مشابه الخلق.

فقال: هو على ثلاثة أوجه:

١ - فمنه خلق الاختراع كقوله سبحانه: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾(١).

٢ - وخلق الاستحالة، قوله تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾(٢).

٣ - وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾(٣) - الآية.

٣ - وأمّا خلق التقدير، فقوله لعيسى: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ﴾(٤) - الآية -»(٥).

● عن وهب، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال أمير المؤمنين عليه السلام: يعيش الولد لستّة أشهر ولسبعة أشهر ولتسعة أشهر، ولا يعيش لثمانية أشهر(٦).

● عن محمّد بن عبد الله بن زرارة، عن عليّ بن عبد الله، عن أبيه، عن جدّه، عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: تعتلج النطفتان في الرحم فأيّتهما كانت أكثر جاءت تشبهها، فإن كانت نطفة المرأة أكثر جاءت تشبه أخواله، وإن كانت نطفة الرجل أكثر جاءت تشبه أعمامه.

وقال: تحول النطفة في الرحم أربعين يوماً، فمن أراد أن يدعو الله عزّ وجلّ ففي

---

(١) الأعراف: ٥٣، يونس: ٣، هود: ٥٧، الحديد: ٤.
(٢) سورة الزمر، الآية: ٦.
(٣) سورة المؤمن، الآية: ٦٧
(٤) سورة المائدة، الآية: ١١٠.
(٥) البحار ج٥٧ ص٣٣٣ ح٢.
(٦) الكافي: ج٦، ص٥٢ البحار ج٥٧ ص: ٣٣٤ ح٤.

تلك الأربعين قبل أن تخلق، ثمّ يبعث الله عزّ وجلّ ملك الأرحام فيأخذها فيصعد بها إلى الله عزّ وجلّ فيقف منه ما شاء الله، فيقول:

يا إلٰهي أذكر أم أنثى؟ فيوحي الله عزّ وجلّ إليه من ذلك ما يشاء ويكتب الملك، ثمّ يقول:

إلٰهي أشقيّ أم سعيد؟ فيوحي الله عزّ وجلّ إليه من ذلك ما يشاء ويكتب الملك فيقول: إلٰهي كم رزقه؟ وما أجله؟ ثمّ يكتبه ويكتب كلّ شيء يصيبه في الدنيا بين عينيه، ثمّ يرجع به فيردّه في الرحم، فذلك قول الله عزّ وجلّ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾(١).

● الهيثم بن واقد، عن مقرن، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سأل سلمان رحمه الله علياً عليه السلام عن رزق الولد في بطن أُمّه.

فقال: إنّ الله تبارك وتعالى حبس عليها الحيضة فجعلها رزقه في بطن أُمّه(٢).

● الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة: جعل لكم أسماعاً لتعي ما عناها، وأبصاراً لتجلو عن عشاها، وأشلاء جامعة لأعضائها، ملائمة لأحنائها، في تركيب صورها ومدد عمرها، أبدان قائمة بأرفاقها، وقلوب رائدة لأرزاقها، في مجلّلات نعمه، وموجبات مننه، وحواجز بليّته، وحوائز عافيته وقدّر لكم أعماراً سترها عنكم، وخلف لكم عبراً من آثار الماضين قبلكم - إلى قوله عليه السلام - أم هذا الّذي أنشأه في ظلمات الأرحام وشغف الأستار نطفة دهاقاً، وعلقة محاقاً، وجنيناً وراضعاً، ووليداً ويافعاً، ثمّ منحه قلباً حافظاً ولساناً لافظاً، وبصراً لاحظاً، ليفهم معتبراً، ويقصر مزدجراً، حتّى إذا قام اعتداله واستوى مثاله، نفر مستكبراً - إلى آخر الخطبة(٣).

◎ دية الجنين

● عن ابن فضّال، ومحمّد بن عيسى، عن يونس، قالا: عرضنا كتاب الفرائض عن أمير المؤمنين عليه السلام على أبي الحسن الرضا عليه السلام ومّما فيه: أنّ أمير المؤمنين عليه السلام جعل دية الجنين مائة دينار، وجعل مني الرجل إلى أن يكون جنيناً خمسة أجزاء، فإذا كان جنيناً قبل أن تلجه الروح مائة دينار، وذلك أنّ الله عزّ وجلّ خلق الإنسان من سلالة

---

(١) علل الشرائع: ج١، ص٨٩، والآية في سورة الحديد: ٢٢. البحار ج٧ ص٣٤ - ٣٤١ ح٢.
(٢) علل الشرائع: ج١، ص٢٧٦، البحار ج٥٧ ص٣٤١ ج٢١.
(٣) نهج البلاغة: ج١، ص١٤٣، البحار ج٥٧ ص٣٤٩، ح٣٥.

وهي النطفة فهذا جزء، ثمّ علقه فهو جزءان، ثمّ مضغة فهو ثلاثة أجزاء، ثمّ عظماً فهو أربعة أجزاء، ثمّ يكسى لحماً فحينئذ تمّ جنيناً فكملت له خمسة أجزاء مائة دينار - إلى قوله - فإذا أنشىء فيه خلق آخر وهو الروح فهو حينئذ نفس فيه ألف دينار كاملة إن كان ذكراً، وإن كان أنثى فخمسمائة دينار(١).

◎ طرح النقطة

● عن أبي أيّوب الخزّار، عن محمّد بن مسلم، قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن الرجل يضرب المرأة فتطرح النطفة، فقال: عليه عشرون ديناراً.

فقلت: فيضربها فتطرح العلقة.

فقال: أربعون ديناراً.

قلت: فيضربها فتطرح المضغة.

قال: عليه ستّون ديناراً.

قلت: فيضربها فتطرحه وقد صار له عظم.

فقال: عليه الدية كاملة، بهذا قضى أمير المؤمنين عليه السلام.

قلت. فما صفة [خلقة] النطفة الّتي تعرف بها؟

فقال: النطفة تكون بيضاء مثل النخامة الغليظة، فتمكث في الرحم إذا صارت فيه أربعين يوماً ثمّ تصير إلى علقة.

قلت: فما صفة خلقة العلقة الّتي تعرف بها؟

فقال: هي علقة كعلقة الدم المحجمة الجامدة، تمكث في الرحم بعد تحويلها عن النطفة أربعين يوماً ثمّ تصير مضغة.

قلت: فما صفة المضغة وخلقتها الّتي تعرف بها؟

قال: هي مضغة لحم حمراء، فيها عروق خضر مشتبكة ثم تصير إلى عظم.

قلت: فما صفة خلقته إذا كان عظماً؟

فقال: إذا كان عظماً شقّ له السمع والبصر، ورتّبت جوارحه، فإذا كان كذلك فإن فيه الدية كاملة(٢).

---

(١) الكافي: ج٧، ص٣٣٢، البحار ج٥٧ ص٣٥٤، ح٣٧.

(٢) الكافي: ج٧، ص٣٤٥، البحار ج٥٧ ص٣٥٤، ح٣٧.

● عن حمّاد بن عيسى، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: يشبّ الصبيّ كلّ سنة أربعة أصابع بأصابع نفسه(١).

◎ الغلام الخير أو الشرير

● عن خليل بن عمرو اليشكريّ، عن جميل بن درّاج، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان أمير المؤمنين عليه السلام يقول: إذا كان الغلام ملتاث الادرة صغير الذكر ساكن النظر فهو ممّن يرجى خيره ويؤمن شرّه.

◎ الحق به ولده

قال: وإذا كان الغلام شديد الإدرة كبير الذكر حادّ النظر فهو ممّن لا يرجى خيره ولا يؤمن شرّه(٢).

● عن أبي البختريّ، عن وهب القرشيّ عن جعفر، عن أبيه عليه السلام أنّ رجلاً أتى عليّاً بن أبي طالب عليه السلام فقال: إنّ إمرأتي هذه جارية حدثة وهي عذراء وهي حامل في تسعة أشهر، ولا أعلم إلاّ خيراً، وأنا شيخ كبير ما افترعتها وإنّها لعلى حالها.

فقال له عليّ عليه السلام: نشدتك بالله هل كنت تهريق على فرجها؟

قال: نعم.

فقال عليٌّ عليه السلام: إنّ لكلّ فرج ثقبتين: ثقب يدخل فيه ماء الرجل، وثقب يخرج منه البول، وأفواه الرحم تحت الثقب الّذي يدخل منه ماء الرجل، فإذا دخل الماء في فم واحدة من أفواه الرحم حملت المرأة بولد واحد، وإذا دخل في اثنين حملت باثنين، وإذا دخل من ثلاثة حملت بثلاثة، وإذا دخل من أربعة حملت بأربعة وليس هناك غير ذلك، وقد ألحقت بك ولدها. فشقّ عنها القوابل، فجاءت بغلام فعاش(٣).

● وعن عليّ عليه السلام قال: إذا تمّت النطفة أربعة أشهر بعث إليها ملك فنفخ فيها الروح في الظلمات الثلاث، فذلك قوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾(٤) يعني نفخ الروح(٥).

---

(١) الكافي: ج٦، ص٤٦ البحار ج٥٧ ص٣٦٠، ح٦.
(٢) الكافي: ج٦، ص٥١، البحار ج٥٧ ص٣٦١، ح٥٣.
(٣) قرب الإسناد: ٩١، البجار ج٥٧ ص٣٦٧، ح٦٦.
(٤) سورة المؤمنون، الآية: ١٤.
(٥) الدر المنثور: ج٥، ص٧، البحار ج٥٧ ص٣٨٣، ح١١٠.

◎ معاني النطفة (الماء المَهين)

نتطرق إلى خلق الإنسان على ضوء آخر ما كشفه وأكده علم الجنين الوضعي، في النصف الأخير من القرن العشرين، يمكننا القول - والله أعلم - إن للنطفة قرآنيًّا ثلاثة معانٍ هي:

أ - **المعنى الأوّل**: النطفة أو «الماء المهين»، وهو ماء الرجل أو هو ما يخرج من أعضائه الجنسية وقت الاستمناء (un peu de sperme).

ب - **المعنى الثاني**: النطفة أو «الماء المهين». وهو أيضاً ماء المرأة أي حويصلة البويضة وهو ما ينضج في مبيضيها مرّة واحدة في كلّ شهر، في أواسط الدورة الشهريّة وقت الإباضة (ovulation). بمعنى آخر وباللغة العلمية المبسّطة النطفة في معناها الثاني هي بويضة المرأة غير الملقّحة، مع طبقتي الخلايا اللّتين تغلّفانها: التاج المشعّ (coronaradiata) والغلاف الشفّاف (pellucidazona) وقلي من الماء الأصفر الذي يصاحبها.

ملاحظتان:

١ - ليس ماء المرأة كما ظن بعضهم ما تفرزه الأعضاء الجنسية الخارجية عندها، كالمهبل، والغدد التابعة لها وقت الجماع، فالجنين لا يتخلّق من هذه الإفرازات التي تسهل عملية الجماع فقط، وتنشّط الحيوانات المنوية.

٢ - النطفة هي قليل من المني، وهي السائل الذي يفرزه الرجل حين الاستمناء ومبيضُ المرأة وقت الإباضة، ومن الخطأ أن نخصّ المني بالرجل كما يظن بعضهم، فالمولى يخاطب المرأة والرجل على حدٍّ سواء في الآيات الكريمة التالية: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝٥٨ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٥٩﴾[1]، ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾[2].

فالخطاب في هذه الآيات الكريمة هو للرجل والمرأة وليس للرجل فقط. والذكر والأنثى يتخلقان من المني أي من مني الرجل ومن مني المرأة، كذلك نستشفّ هذا المعنى لكلمة مني من الآية الكريمة التالية: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ۝٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٣٨ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣٩﴾[3].

---

(١) سورة الواقعة، الآيتان: ٥٨، ٥٩.

(٢) سورة يس، الآية: ٧٧.

(٣) سورة القيامة، الآيات: ٣٧ - ٣٩.

المعنى الثالث: النطفة الطور الأول في تخلّق الجنين بحسب التقسيم القرآني لأطوار الجنين. ويبدأ طور النطفة منذ بدء الحمل، وينتهي في الفي اليوم الخامس أو السادس منه مع بدء طور العلقة، ويبدأ تشريحيّاً منذ تلاقح البويضة مع الحيوان المنوي في الثلث الخارجي لأنبوب الرحم، ومنهما تنشأ البويضة الملقّحة - ovule feconde) (fertilized ovum - zygote التي سرعان ما تبدأ بالإنقسام إلى خليّتين، فأربع، فثمانٍ، فست عشرة وهكذا، إلى أن تصبح مجموعة كبيرة. ومن هذه الخلايا يتشكّل ما يسمّى بالتوتة (morula) ثم الكرة الجرثومية (blastula) التي تنزل من أنبوب الرحم إلى الرحم منذ اليوم الثالث تقريباً، لتتحوّل فيه بعد بضعة أيام إلى علقة.

فالنطفة هي إذاً، إما ماء الرجل، أو حويصلة البويضة، أو الطور الأوّل في تخلّق الجنين، وإذا درسنا الآيات الكريمة التي وردت فيها كلمة النطفة أو «الماء المهين»، نجد أن المعنى العلمي يستقيم بهذه المعاني الثلاثة للنطفة، شرط أن نفهم معاني أدوات العطف والتعقيب والتبعيض وهي الفاء، و«ثم»، و«من»، في الآيات الكريمة التي ورد فيها ذكر كلمة النطفة أو الماء المهين.

◎ أطوار الجنين

طور النطفة

﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾(١) ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾﴾(٢).

من معاني النطفة الطور الأول في تخلّق الجنين، وهذا الطور يمتدّ من اليوم الأوّل للحمل أي منذ تلقيح سلالة المرأة بسلالة الرجل بمعنى اتّحادهما وانصهارهما حتى اليوم السادس من بداية الحمل ويأتي بعده طور العلقة. وخلال الطور الأوّل، تنقسم البويضة الملقّحة، وهي خليّة واحدة وأكبر خلايا الجسم، إلى خليّتين ثم إلى أربع، فثمانٍ، فستّ عشرة خليّة ثم تأخذ شكل ثمرة التوت فتسمّى بالتوتة (morula).

وفي نهاية اليوم الخامس من الحمل تتحوّل التوتة إلى ما يسمّى علميّاً بالكرة الجرثومية وعدد خلاياها يصل إلى ما بين ٥٠ و٦٠ خليّة. وخلال عملية الانقسام والتكاثر تنتقل النطفة من أنبوب الرحم إلى الرحم (اليوم الخامس تقريباً) لتبدأ بالتعلّق

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ١٣.
(٢) سورة المرسلات، الآيتان: ٢٠، ٢١.

في جدار الرحم الداخلي منذ اليوم السابع من بدء الحمل. والجنين خلال طور النطفة لا يتجاوز قطره خمس الملميتر الواحد، والماء يؤلّف الجزء الأكبر منه ويحيط به. من هنا كانت التسمية القرآنية للنطفة بالماء المهين والنطفة لغويًا تعني الماء القليل: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾[1].

الخلاصة: مكن معاني النطفة في القرآن الكريم الطور الأوّل في تخلّق الجنين، وهذا الطور القرآني فصَّله وقسَّمه علم الجنين الوضعي إلى ثلاث مراحل: مرحلة التلقيح (fecondation) ومرحلة التوتة (morula) ومرحلة الكرة الجرثوميّة (blastula).

طور العلقة: {ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً}[2]

العلقة هي الطور الثاني في تخلّق الجنين، ويمتدّ من اليوم السابع من بدء الحمل وينتهي في الأسبوع الثالث منه، وخلاله يتعلّق الجنين بالطبقة الداخلية للرحم كي يتغذى من دم الحامل. وكما أن تسمية الطور الأول من تخلّق الجنين بالنطفة هي تسمية كيميائية، فتسمية هذا الطور الثاني من تطوّر الجنين بالعلقة هي تسمية تشريحية ومجهرية لا يمكن أن تصدر إلا ممّن هو بكل خلق عليم، أي المولى سبحانه وتعالى. فالمجهر لم يكتشف إلا في القرن السابع عشر، والجنين في طور العلقة، وقطره لا يتجاوز بضعة أجزاء من المليمتر، يتعلّق برحم أمّه ليتغذّى من دمها بواسطة شُعَيْرات آكلة وماصَّة كما تتعلّق علقة الحجّام بجسد المخلوقات التي تتغذّى عليها. والجنين منذ هذه المرحلة من حياته وحتى ولادته يعيش في الماء، والجنين في طور العلقة يشبه في شكله الخارجي العلقة، والنظر في الصورة يُغني عن الشرح.

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾

مع بدء مرحلة العلقة يبدأ تمايز الخلايا التي يتألّف منها الجنين أي اختلافها، فيصبح في نهاية هذا الطور أي في الأسبوع الثالث من الحمل، مؤلّفاً من ثلاث طبقات من الخلايا:

طبقة خارجية (ectoblaste): ومنها يتخلّق لاحقاً الجلد ومحتوياته، والجهاز العصبي، والنسيج المخاطي للفم والشفتين واللثة وشبكة العين، وغيرها من أعضاء لا سبيل لتعدادها، فهي تهمّ المختصّ.

---

(١) سورة النور، الآية: ٤٥.

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ١٤.

طبقة وسطى (mesoblaste): ومنها يتخلّق لاحقاً الهيكل العظمي، والعضلات، والجهاز البولي، والتناسلي، والدم، وغيرها من الأعضاء.

طبقة داخلية (entoblaste): ومنها يتخلق لاحقاً الكبد، والبنكرياس، والأغشية المبطّنة للجهاز الهضمي والتنفّسي، وغيرها من الأعضاء.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾.

هذا ما فصّله وبيّنه العلم لاحقاً في القرن العشرين، وهذا ما أجمله المولى في قوله عز وعلا: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾(١) أي أن بدء تخلق أعضاء الإنسان يبدأ منذ طور العلقة. وهنا إعجاز علمي قرآني، فالعلم لم يعرف إلا في القرن العشرين أن بدء تخلّق الأعضاء في الجنين - كالجهاز العصبي والقلب، والأوعية الدموية، والدم - يبدأ في طور العلقة ثم يكتمل لاحقاً في مرحلة التسوية. من هنا ندرك لماذا سمّى المولى أوّل سورة من كتابه الكريم بالعلق، ربما لنتوقّف عند المعاني الإعجازية لطور العلقة، والله أعلم.

طور المضغة: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾.

طور المضغة: يبدأ منذ الأسبوع الثالث من حياة الجنين ويمتدّ حتى الأسبوع السابع. وخلاله تظهر في الجنين الكتل البدنية (somites) وعددها **٤٢ - ٤٥** زوجاً، فتعطيه شكل اللحم الممضوغ والنظر إلى صور الجنين في هذا الطور من حياته يغني عن التعليق، ويؤكد مرّة أخرى أن تسمية هذا الطور من حياة الجنين بالمضغة، هي تسمية من خالق الجنين سبحانه وتعالى.

ولم يتوصّل الإنسان إلى تصوير الجنين في طور المضغة - وطوله لا يتجاوز السنتمترين الواحد - إلا في القرن العشرين. وهو يبدو تحت المجهر كقطعة لحم ممضوغة وغضروف، خاصّة في القسم الذي سيكون لاحقاً العمود الفقري وبقيّة العظام.

المضغة المخلّقة وغير المخلّقة:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾(٢).

---

(١) سورة الحج، الآية: ٥. (٢) سورة العلق، الآية: ٢.

لقوله تعالى: ﴿مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ معانٍ علميّة عدّة نوجزها بثلاثة والله أعلم:

المعنى الأول: خلال طور المضغة يكتمل تكوّن الأغشية (membranesles) والحبل السّري (cordon ombilical) وجزء من المشيمة (placenta - fetal) وهي أقسام من المضغة تحيط بالجنين وتحميه وتغذّيه، إلا أنها تسقط وتموت بعد ولادته، فهي تشكّل المضغة غير المخلّقة. أما القسم الآخر من المضغة فيكون الجنين نفسه أي المضغة المخلّقة .

المعنى الثاني: إن جملة: ﴿مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ تعني أيضاً: من مضغة تخلَّق بعض أعضائها ولم يتخلق بعضها الآخر، ذاك أن بعض أعضاء الجنين كالعينين والأذنين والقلب والجهاز العصبي وغيرها يبدأ تكوّنها في طور المضغة، إلا أن تخلّقها لا يكتمل إلا لاحقاً في مرحلة التسوية. وأما العظام واللحم (العضلات)، والأعضاء الجنسية وغيرها، فلا يبدأ تخلّقها إلا في طور العظام واللحم والتسوية، أي منذ الأسبوع السابع وما بعده. فالجنين في طور المضغة هو مخلّق وغير مخلّق، بمعنى أن تخلّقه قد بدأ ولكنه لم يكتمل بعد. ولمزيد من الإيضاح لقوله تعالى: ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾، نلحظ مثلاً أن تخلّق العينين يبدأ في الأسبوع الثالث للحمل، أي في طور المضغة، إلا أن اكتمال تخلّقهما لا يكون إلا في الشهر السادس من الحمل.

المعنى الثالث: في طور المضغة تتمايز الخلايا، فتظهر خلايا متخصّصة (cellules spécialisées) كالخلايا العصبية والقلبية والدموية وغيرها، لتشكّل الخلايا المُخلّقة التي ستكوّن مختلف أعضاء الجنين، وتبقى خلايا غير متخصّصة (cellules indifférenciées)، هي الخلايا غير المخلّقة أو ما ندعوه علميًّا بخلايا الاحتياط، وعملها أن تتحوّل إلى خلايا متخصّصة، تحلّ محلّ االمتخصّصة عندما تموت هذه. فالجسم يفقد في كلّ ثانية مليوني كرة من كريات الحمر، يعوّضها تلقائيّاً نِقْي العظام من خلايا الاحتياط غير المخلّفة الموجودة فيه، وكذلك بقيّة الأعضاءالتي تفقد كل يوم كثيراً من خلاياها المخلّفة، وتحلّ محلّها خلايا الاحتياط غير المخلّفة التي تتحوّل إلى خلايا مخلّقة.

المشكّكين بالله والقرآن الكريم والبعث. وهذه الطريقة في الدعوة والحوار والجدال هي ما أسميناه بالجدلية المنطقية العلمية في القرآن الكريم.

طور العظام

﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا﴾

وهو طور سريع يبدأ منذ الأسبوع السابع من الحمل، وفيه يتحول قسم من الكتل البدنية - أي sclérotomes التي أعطت الجنين شكل المضغة - من أنسجة غضروفية إلى أنسجة عظيمة، لتشكّل العمود الفقري وبقيّة الهيكل العظمي.

طور اللحم:

﴿فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا﴾

هذا الطور يبدأ في الأسبوع الثامن من الحمل، حيث يتحوّل القسمَ الباقي من الكتل البدنية (myotome) إلى عضلات تكسو العمود الفقري، كما أن عظام الأطراف تُكسى فيه بالعضلات.

منذ عشر سنوات، صوّر العالم الأسوجي (لينارد نلسون Nilsson Lennard) مخلتف مراحل تخلّق الإنسان، منذ بدء الحمل وحتى الولادة، ونال على عمله المتقن جائزة نوبل للتصوير الطبّي.

فقد استطاع هذا المصوّر العالم أن يلتقط صوراً رائعة للجنين في طور النطفة والمضغة والعلقة، وطور تكوّن العظام الذي يسبق بأسبوع فقط طور اكتساء العظام باللحم.

والتأمّل في الصُّوَرِ يغني القارىء عن الشرح. ولقد سأله محقّق صحفي: هل تعتقد بوجود الله بعد عملك الطويل الذي استغرق ثلاث سنوات في تصوير أطوار الجنين؟ فكان جوابه ما ترجمته الحرفيّة: «بعد أن تتبّعت بالصُّوَرِ مختلف مراحل تخلّق الجنين، منذ أن بدأ كخليّة واحدة إلى أن خرج بعد تسعة أشهر من رحم أمّه، أنا لا أستطيع إلا أن أُقرّ وأعترف بأن يد الله هي وراء عمل كلّ خليّة من خلايا الجنين».

وقفات علميّة مع آيات كريمة

◎ الوقفة الأولى:

﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾(١)

(١) سورة الطارق، الآية: ٥.

نظر الإنسان من خلال المجهر، منذ القرن السابع عشر ولا يزال، إلى الماء الذي يتخلّق منه الجنين، واكتشف ولا يزال يكتشف ما يذهل في هذه المليليترات القليلة التي تخلّق من بعضها. وهذه بعض التفاصيل العلمية المبسّطة لما يتألّف منه ماء الرّجل وماء المرأة:

١ - **ماء الرجل**: يقذف الرجل، حين الجماع أو الاستمناء، بضعة مليليترات (٣,٥ مليليتر) من المنّي الذي يتألف مما نسبته ٨٥٪ من الماء و٥٪ من عشرات المواد الكيميائية وهرمونات وأملاح معدنية وغيرها - وقد كشف العلم عن بعضها ولا يزال كل يوم يكشف الجديد عنها - و١٠٪ من السلالات، أي مجموعة الحيوانات المنويّة، وتعدادها عادة مئة مليون في المليليتر الواحد (علماً أن واحداً منها فقط يلقّح البويضة.

إلا أن البقية لها دورها في عملية التلقيح، حتى إذا كان المنيّ خالياً منها، أو قلّ عددها عن العشرين مليوناً في المليليتر الواحد، وكانت قليلة الحركة سريعة الموت، أصبح ماء الرجل عقيماً). فالنطفة إذاً لا تعطي نسلاً إلا إذا أمناها الله، بمعنى قدّرها خلقاً: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ ﴿٤٦﴾﴾[1] ولا نسل للرجل إلا بوجود السلالة في مائه.

ونذكر بأن علم الجنين لم يعرف دور السلالة الأساسي في عملية الإنجاب، إلا في القرن التاسع عشر.

أما التنزيل فقد أشار إلى هذا الدور في قوله تعالى: ﴿مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ﴾[2]، ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾[3].

٢ - **ماء المرأة**: نظر الإنسان إلى ماء المرأة لأول مرة في سنة ١٦٧٢، حين اكتشف الطبيب (دوغراف Degraff حويصلة البويضة (Follicule de Degraff) وهي جسيم يوجد في مبيضي المرأة، لا يتجاوز قطره المليمتر، تسبح في داخله سلالة المرأة محاطة بماء الحويصلة (Liquide folliculaire). ويحوي مبيضا الأنثى عادة مليوني سلالة (بويضة) عند ولادتها يبقى منها ثلاثون أو أربعون ألفاً عند بلوغها سن النضج الجنسي، ولا يخرج من المبيض في أواسط كل دورة شهرية إلا سلالة أو اثنتان، هو ما تمنيه (هنا

(١) سورة النجم، الآيتان ٤٥، ٤٦.
(٢) سورة النجم، الآية: ٤٦.
(٣) سورة السجدة، الآية: ٨.

بمعنى تفرزه) دوريًا، فتشكّل مع الخلايا التي تحيط بها والماء الذي تسبح فيه: ماء المرأة.

◎ الوقفة الثانية:

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾[١]

بعد أن رأى الإنسان حقيقة ما يمني في القرن العشرين من خلال المجهر والتحاليل الكيميائية الطويلة المعقّدة، لا يستطيع كل ذي عقل ومنطق إلا أن يقرّ ويعترف بوجود خالق قادر أنشأه وقدّره وخلقه وسوّاه من خليّة واحدة، نتجت عن اتّحاد سُلالة المرأة والرجل. وبما أن الخالق أمرنا بأن نرى حقيقة ما نمني ونرى بأعيننا مِمَّ تخلّقنا، فلابد من بعض التفاصيل العلمية المبسّطة عن سلالة المرأة والرجل، إذ ربما وجد بعضهم في هذا دليلاً إيمانيًّا لمن طلبه: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾[٢].

١ - **سلالة الرجل**: يوجد في منّي الرجل المُخْصب من ٥٠ إلى مئة مليون سلالة في المليليتر الواحد. لايصل منها إلى سلالة المرأة إلا بضع مئات أو آلاف، أما البقيّة فتموت لكنها تلعب دوراً في عملية التلقيح، لذا يكون ماء الرجل قليل الخصوبة أو غير مخصب إذا قلّ عدد السلالة عن عشرين مليوناً في المليليتر الواحد.

وسلالة الرجل تبدو تحت المجهر مثل جُسيم طوله ٥٠ مكروناً (كل ألف مكرون يساوي مليمتراً واحداً) ذي رأس مدبَّب منتفخ من طرفه الأمامي، تماماً كقذيفة خارقة، وله ذنب طويل ذو حركة شبه لولبية تمكّنه من السباحة في السائل المنوي والتحرك السريع في الأعضاء الجنسية عند المرأة، حتى يصل إلى الثلث الخارجي من أنبوب الرحم حيث يلتقي بسلالة المرأة، فيحصل التلقيح والحمل.

والتجارب الحديثة أثبتت أن السلالات المنويّة تقطع هذه المسافة الطويلة جداً في الأعضاء الجنسية عند المرأة في خمس دقائق، وبعضها في خمسين دقيقة. وأما المسافة ما بين مهبل المرأة حيث يقذف المنّي عادة، والمكان الذي يتمّ فيه التلقيح في أنبوب الرحم، فلا تتجاوز عشرين سنتيمتراً تقطعها عادة سلالة الرجل في خمس دقائق أو خمسين دقيقة حسب قوّتها وحيويّتها، فتكون سرعة السلالة في الدقيقة الواحدة بين ٤ -

---

(١) سورة الواقعة، الآيتان: ٥٨، ٥٩. (٢) سورة الذاريات، الآيتان: ٢٠، ٢١.

٤٠ مليمتراً، علماً أن طولها لا يتجاوز جزءاً من عشرين من المليمتر، فسبحان الخالق!!!.

٢ - **سلالة المرأة**: في أواسط الدورة الشهريّة يقذف مبيضا المرأة بالسلالة أي ببويضة المرأة، نتيجة نضوج ثم انفجار الحويصلات التي تحوي سُلالة المرأة، فيلقّفها بوق أنبوب الرحم. وسلالة المرأة خلية واحدة هي من أكبر خلايا الجسم، وتبدو تحت المجهر مستديرة الشكل كالبدر الكامل محاطة بطبقتين من الخلايا التي تحميها، كما تسبح في بضعة مليليترات من الماء الحويصلي الذي يُقذف معها نتيجة انفجار حويصلتها. والسلالة مع طبقتي الخلايا التي تحيط بها، والماء التي تسبح فيه تشكّل ماء المرأة أو نطفتها.

أما لماذا تنضج سلالة واحدة من بين آلاف السلالات الموجودة المبيض، وتخرج دوريًّا كل شهر، فالعلم لم يكشف أبعاد ذلك بعد.

وأما العمليّات الهرمونية الكيميائية المعقّدة التي تتدخّل في نضجها وانفجار حويصلتها وانتقالها إلى بوق الرحم، فهي من أجمل وأصعب وأعقد العمليّات الوظيفيّة وتهمّ المختصّين فقط. والعقلاء من علماء الأحياء اليوم يقرّون بأنه ليس باستطاعة العلم أن يخلق جزءاً من نواة خليّة رغم معرفتهم بكثير من دقائق تركيبها، ومن هنا نفهم معنى التحدّي القرآني القائم إلى يوم الدين في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾[1].

◎ الوقفة الثالثة:

﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾[2]

استمناء الرجل واضح (أي يشكّل ماءً دافقاً) ولا يتطلب المزيد من التعليق العلمي، لكن القلّة من غير أصحاب الاختصاص هي التي تعرف الخفايا العلميّة لنضوج سلالة المرأة وكيف أن المبيض يقذف السلالة دوريًّا كل شهر بشكل ماء دافق. والعلم لم يعرف هذه الحقائق إلا في القرن العشرين: فسلالة المرأة التي ستنضج في إحدى مبيضيها تسبح داخل جُريب البويضة الذي يحوي سائلاً يتزايد ضغطه تدريجيًّا حتى يصل، ما بين اليوم الثاني عشر والرابع عشر من الدورة الشهريّة، إلى درجة من الضغط

(١) سورة الواقعة، الآيتان: ٥٨، ٥٩.
(٢) سورة الطارق، الآية: ٦.

(١٥ مليمتراً زئبقياً) تنفجر عند حويصلة البويضة وقشرة المبيض في أضعف نقطة منهما، فيقذف بالسلالة، والخلايا الحامية لها والمحيطة بها، وقليل من ماء الحويصلة، إلى تلافيف بوق أنبوب الرحم، فيتلقّفها مثل بذور بعض النباتات التي يتفجّر غلافها عندما تبلغ مرحلة النضج.

◎ الوقفة الرابعة:

الصلب والترائب

﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧﴾[1]

الترائب جمع تريبة وهي الأضلاع الصدرية (cotes thoraciques).

والصُّلب هو مجموعة الفقرات التي تؤلف العمود الفقري (vertébrale colonne).

والترائب والصلب مع عظم القصّ (strenum) تشكّل ما يسمّى تشريحيًا بالقفص الصدري.

إن الآية الكريمة لا يمكن فهمها إلا على ضوء الأجنّة والتشريح، ووظيفة الأعضاء عند الرجل والمرأة. وهذه بعض التفاصيل العلمية، التي تشرحها:

١ - **تخلّق الأعضاء الجنسيّة**: في الأسبوع الثامن من الحمل تأخذ مجموعة الخلايا التي ستؤلّف لاحقاً الأعضاء الجنسية مكاناً في القسم العلوي من الجنين، حيث ستتكوّن لاحقاً عظام الصلب والترائب، أي في القفص الصدري. ولا تنزل الخصيتان إلى جرابهما، والمبيضان إلى حوض المرأة إلا في مراحل لاحقة.

٢ - **ومن الوجهة الوظيفة**: إن مصدر الأوامر العصبية التي تتحكّم بالانتصاب النفسي وعملية القذف عند الرجل، هو في النخاع الشوكي الظهري (moëlle dorsale D9 D10 D11)، وهو الموجود داخل عظام الصلب والترائب. (لاحظ الإعجاز الدقيق في قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ وليس من الصلب والترائب كما ظنّ بعضهم وذهب في تفسيره لهذه الآية مذاهب شتى. ذاك أن كلّ إصابة مرضيّة في النخاع الشوكي الصدري، في مركز الانتصاب والقذف الموجود بين الصلب والترائب، تجعل من الرجل عاجزاً جنسيًا وذلك بفقدانه الانتصاب النفسي والقذف.

---

(١) سورة الطارق، الآيتان: ٦، ٧.

٣ - **إن الأوعية الدموية** التي تمدّ الجهاز التناسلي بالغذاء عند الرجل والمرأة، تبدأ في مكان هو، تشريحياً، بين الصُّلب والترائب، أي من الشريان الأبهر (aorte) والوريد التجويفي السفلي (veine- cave inférieur)، وكلّ إصابة في هذه الأوعية الدموية تعيق أو تمنع عملّية القذف عند الرجل، والإباضة عند المرأة. فلا ماء دافق لدى أيّ إصابة أو تلف في المراكز العصبية، أو الأوعية الدّموية التي تمدّ الأعضاء الجنسية بالإحساس والتغذية، لأن الأعصاب والأوعية الدموية الخاصّة بالأعضاء الجنسية لها دور رئيسي في عملية قذف المنّي عند الرجل والمرأة على حدّ سواء. أما مصدر هذه الأعصاب والأوعية الدموية فهو من بين الصلب والترائب.

والآية الكريمة التي نحن بصددها، والتفاصيل العلميّة المبسّطة التي ذكرناها تشرح معنى الآية الكريمة التي هي من مثانيها: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ﴾(١) فكلّ شيء في الإنسان بدءاً من نطفته وإنتهاءً بدماغه ومروراً ببقيّة أعضائه، يشهده على وجود الخالق. وكلّما إزداد الإنسان العاقل علماً، ازداد إيماناً ويقيناً بوجود المولى. لذلك خاطب المولى في كثير من آياته قوماً يعلمون ويفقهون ويسمعون ويعقلون: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ﴾. . ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾(٢). . . ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(٣). . . ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾(٤). . . .

◎ الوقفة الخامسة:

الظلمات الثلاث

﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَـٰتٍ ثَلَـٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾(٥)

أولاً: في التوقّف عند كلمة ﴿بُطُونِ﴾، وجملة ﴿خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾.

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧٢.
(٢) سورة يونس، الآية: ٦٧. وسورة الروم، الآية: ٢٣.
(٣) سورة الرعد، الآية: ٤. وسورة النحل، الآية: ١٢. سورة الروم، الآية: ٢٤.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ٩٨.
(٥) سورة الزمر، الآية: ٩.

وعلى ضوء علم الجنين الوضعي، تتبيّن لنا الأبعاد العلمية الإعجازية في الآية الكريمة أعلاه وهي:

١- إن تخلّق الجنين كما تنصّ هذه الآية الكريمة يبدأ في بطون أمّهاتنا، والظلمات الثلاث يجب أن تكون في البطن وليس في الرحم فقط، كما فسّر بعضهم ممن تعرّض لشرح الآية الكريمة أعلاه.

٢- جملة ﴿خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ تضعنا في صورة تطوّرية ديناميكية متحرّكة للمراحل التي يمرّ فيها الجنين داخل الظلمات الثلاث، بمعنى أنه ينتقل من ظلمة إلى ظلمة خلال تطوّره.

٣- لذلك نرى أن قول بعضهم بأن الظلمات الثلاث هي ظلمة عضلات البطن كظلمة أولى، وظلمة تجويف الرحم كظلمة ثانية، وظلمة السائل الأمينوسي الذي يحيط بالجنين حتى الولادة كظلمة ثالثة، يعطي تفسيراً غير دقيق من الوجهة التشريحية. والقول بأن الظلمات الثلاث هي ظلمات الأغشية التي تحيط بالجنين داخل الرحم، يحمّل النصّ القرآني ما لم ينصّ عليه: فلقد حدّدت الآية أن تخلّق الجنين يمرّ في ظلمات ثلاث، في بطون أمّهاتنا، وليس في أرحام أمّهاتنا. والرحم جزء من البطن وليس البطن كلّه. كما أن للأغشية المحيطة بالجنين ظلمة واحدة وليست ظلمات ثلاث.

٤- نحن نرى - والله أعلم - أن الظلمات هي من حيث تسلسلها الزمني والمرحلي كالتالي:

أ- **الظلمة الأولى**: هي ظلمة تجويف أنبوب الرحم (obscurité de la cavite tubaire), حيث يبدأ الحمل عادة، إذ تلتقي، سلالة الرجل مع سلالة المرأة في الثلث الخارجي من الأنبوب ثم تنصهر بها. وهذه ظلمة مرحلة التلقيح (obscurité de la fécondation),

ب - **الظلمة الثانية**: هي ظلمة تجويف الرحم (obscurité de la cavité uterine), وهي ظلمة طور العلقة عندما تتعلّق البويضة الملقّحة التي بدأت بالتكاثر والانقسام بالغشاء الداخلي للرحم، ثم تختفي وراءه بعد اليوم السابع من الحمل.

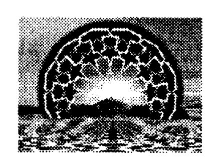
ج - **الظلمة الثالثة**: هي ظلمة الأغشية والسائل الأمينوسي التي تحويه (obscurité du liquide amniotique) حيث يسبح الجنين إلى حين الولادة. وتجدر الإشارة إلى أن

هذه الظلمات هي تجاويف لها تحديد تشريحي. بالإمكان رؤيتها اليوم بما توصّلنا إليه من كشوفات علمية بواسطة آلات التنظير الجوفي (endoscopie) بعد إنارتها.

ونشير هنا إل أن هذه الآية الكريمة لم تتبيّن أبعادها العلمية إلا في القرن العشرين، وهي من البراهين العلمية المنطقية العديدة في القرآن الكريم التي تثبت أنه من لدن الله الحكيم العليم. فمَن علَّم الرسول الكريم أهل بيته عليهم السلام علمَ التشريح وعلمَ الأجنّة؟ وفي أيّة كتبٍ في الطبّ عند الأقدمين توجد معلومات عن ظلمة الأنبوب وما يحصل في داخله، أو ظلمة طور العلقة؟ وكلُ هذه العلوم علوم تشريحية تتطلّب وجود مجهر وآلات تنظير جوفي، وهذه الحقائق العلميَّة لم يكتشفها الإنسان قبل القرن العشرين.

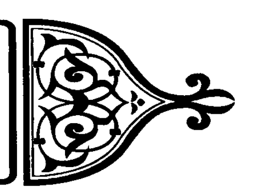
ثانياً: المولى سبحانه وتعالى يدلّنا على شيء من قدراته في آخر هذه الآية الكريمة: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾[1] فمن أراد أن يعرِف شيئاً عن قدرات الله، فليدرس تخلّق الإنسان من خلال علم الجنين الوضعي، وسيرى كيف يتطوّر الخلق في ظلمات ثلاث. ومن أراد اليقين بأن القرآن الكريم هو كلام الله، فليدرس تاريخ اكتشاف المعلومات في علم الجنين الوضعي، وسيعلم بأن الظلمات الثلاث التي يمرّ خلالها الجنين في بطن أمّه لا يعرفها منذ خمسة عشر قرناً إلا خالق الجنين سبحانه وتعالى. ومن تسرّب إلى نفسه الشكّ بأن الرسول الكريم صلى الله عليه وآله نقل معلومات الظلمات.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝١٣ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾[2].

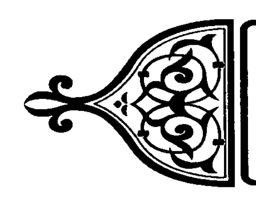


(١) سورة الزمر، الآية: ٦.

(٢) سورة المؤمنون، الآيتان: ١٣-١٤.



حقيقة النفس والروح وأحوالهما



● عن أبي بصير، ومحمّد بن مسلم، عن أبي عبد الله، عن آبائه عليهم السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: لا ينام الرجل وهو جنب، ولا ينام إلاّ على طهور، فإن لم يجد الماء فليتيمّم بالصعيد، فإنّ روح المؤمن ترفع إلى الله تبارك وتعالى فيقبّلها ويبارك عليها، فإن كان أجلها قد حضر جعلها في كنوز رحمته وإن لم يكن أجلها قد حضر بعث بها مع أمنائه من ملائكته فيردّونها في جسدها[1]

عن أبي هاشم داود بن قاسم الجعفريّ، عن أبي جعفر محمّد بن عليّ الثاني عليه السلام قال: أقبل أمير المؤمنين عليه السلام ذات يوم ومه الحسن بن علي عليه السلام وسلمان الفارسيّ - رحمة الله - وأمير المؤمنين متّكيء على يد سلمان، ودخل إلى مسجد الحرام، إذ أقبل رجل حسن الهيئة واللباس فسلّم على أمير المؤمنين عليه السلام فردّ عليه السلام فجلس، ثمّ قال: يا أمير المؤمنين أسألك عن ثلاث مسائل، إن أخبرتني بهنّ علمت أنّ القوم ركبوا من أمرك ما أقضي عليهم أنّهم ليسوا مأمونين في دنياهم ولا في آخرتهم، وإن تكن الأخرى علمت أنّك وهم شرع سواء.

فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: سلني عمّا بدالك.

فقال: أخبرني عن الرجل إذا نام أين تذهب روحه؟ وعن الرجل كيف يذكر وينسى؟ وعن الرجل كيف يشبه ولده الأعمام والأخوال؟

فالتفت أمير المؤمنين عليه السلام إلى أبي محمّد الحسن بن عليّ عليه السلام فقال: يا أبا محمّد أجبه.

فقال عليه السلام: أمّا ما سألت عنه من أمر الإنسان إذا نام أين تذهب روحه:

فإنّ روحه متعلّقة بالريح، والريح متعلّقة بالهواء إلى وقت ما يتحرّك صاحبها لليقظة فإن أذن الله عزّ وجلّ بردّ تلك الروح على صاحبها جذبت تلك الروح الريح وجذبت

(١) الخصال: ١٧٥، العلل: ج١، ص٢٧٩، البحار ج٥٨ ص٣١، ح٣.

تلك الريح الهواء، فرجعت الروح فاسكنت في بدن صاحبها، فإن لم يأذن الله عزّ وجلّ برد تلك الروح على صاحبها جذب الهواء الريح، فجذبت الريح الروح، فلم تردّ على صاحبها إلى وقت ما يبعث.

وأمّا ما ذكرت من أمر الذكر والنسيان:

فإنّ قلب الرجل في حُقّ وعلى الحُقّ طبق، فإن صلّى الرجل عند ذلك على محمّد وآل محمّد صلاة تامّة انكشف ذلك الطبق عن ذلك الحقّ فأضاء القلب وذكر الرجل ما كان نسي، وإن هو لم يصلّ على محمّد وآل محمّد أو نقص من الصلاة عليهم انطبق ذلك الطبق على ذلك الحقّ فأظلم القلب ونسي الرجل ما كان ذكره.

وأما ما ذكرت من أمر المولود الّذي يشبه أعمامه وأخواله:

فإنّ الرجل إذا أتى أهله فجامعها بقلب ساكن وعروق هادئة وبدن غير مضطرب فاستكنّت تلك النطفة في جوف الرحم خرج الولد يشبه أباه وأمّه، وإن هو أتاها بقلب غير ساكن وعروق غير هادئة وبدن مضطرب اضطربت النطفة فوقعت في حال اضطرابها على بعض العروق، فإن وقعت على عرق من عروق الأعمام أشبه الولد أعمامه، وإن وقعت على عرق من عروق الأخوال أشبه الولد أخواله.

فقال الرجل: أشهد أن لا إلّه إلاّ الله، ولم أزل أشهد بها، أشهد أنّ محمّداً عبده ورسوله ولم أزل أشهد بذلك، وأشهد أنّك وصيّ رسوله والقائم بحجّته - وأشار إلى أمير المؤمنين عليه السلام - ولم أزل أشهد بها، وأشهد أنك وصيّه والقائم بحجّته - وأشار إلى الحسن عليه السلام - وأشهد أنّ الحسين بن علي وصيّ أبيه والقائم بحجّته بعدك، وأشهد على عليّ بن الحسين أنّه القائم أمر القائم بأمر الحسين بعده، وأشهد على محمّد بن عليّ أنّه القائم بأمر عليّ بن الحسين، وأشهد على جعفر بن محمّد أنّه القائم بأمر محمّد بن عليّ، وأشهد على موسى بن جعفر أنّه القائم بأمر جعفر بن محمّد، وأشهد على عليّ بن موسى أنّه القائم بأمر موسى بن جعفر، وأشهد على محمّد بن عليّ أنّه القائم بأمر عليّ بن موسى، وأشهد على عليّ بن محمّد أنّه القائم بأمر محمّد بن عليّ، وأشهد على الحسن بن عليّ أنّه القائم بأمر عليّ بن محمّد، وأشهد على رجل من ولد الحسين بن عليّ لا يسمّى ولا يكنّى حتّى يظهر أمره فيملأها عدلاً كما ملئت جوراً أنّه القائم بأمر الحسن بن عليّ، والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، ثمّ قام ومضى، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: يا أبا محمّد اتبعه فانظر أين يقصد؟

فخرج الحسن بن عليّ عليه السلام في أثره، قال: فما كان إلاّ أن وضع رجله خارج

المسجد فما دريت أين أخذ من أرض الله عزّ وجلّ، فرجعت إلى أمير المؤمنين عليه السلام فأعلمته.

فقال: يا أبا محمّد أتعرفه؟

قلت: الله ورسوله وأمير المؤمنين أعلم.

فقال: هو الخضر(١).

كما أن النوم يفقد الإنسان الإحساس بالزمن، النائم ساعة كالنائم سنوات لا يدري حين يستيقظ كم قضى من الوقت نائماً، وقد قام أهل الكهف بعد نومهم ثلاثمائة سنة ﴿وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعًا﴾ ليتساءلوا بينهم ﴿قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ كَمۡ لَبِثۡتُمۡۖ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ قَالُواْ رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ﴾(٢) فلم يشعروا بمرور السنين، كل ما شعروا به أنهم جياع بصورة ملحة ولذلك ظنوا أنهم لبثوا ﴿يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ﴾ ثم انظر إلى هذا الذي تعجب من أمر القرية الخاوية على عروشها ﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٖ ثُمَّ بَعَثَهُۥۖ قَالَ كَمۡ لَبِثۡتَۖ قَالَ لَبِثۡتُ يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۖ قَالَ بَل لَّبِثۡتَ مِاْئَةَ عَامٖ﴾(٣) فهذا ميت يبعثه الله بعد مائة عام فلا يدرك كم من الوقت مر عليه وهو ميت.

وهكذا يتشابه النوم والموت من وجوه؛ فالنوم دليل على الموت وإشارة إليه(٤).

وهكذا يقضي كل إنسان فترة طويلة من حياته نائماً، ويرى ما يرى، وقد يتحقق بعض ما يراه، لا يشذ عن ذلك أحد، فهي آية من آيات الله في خلقه، ولغز مبهم وتحدٍ للبشر إلى أن يشاء الله سبحانه أن يري آياته للناس وكما قال تعالى في كتابه العزز: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ﴾(٥).

◎ فسيولوجية النوم:

ينام الإنسان فلا يشعر بما حوله، لا يرى ولا يسمع ولا يشعر في حدود معينة، إذ أنه يلزم تسليط مؤثر قوي عليه مثل صوت قوي أو تحريكه بشدة حتى يستيقظ، وتتراوح

(١) علل الشرائع: ج١ ص٩٠-٩٢، العيون: ج١ ص٦٥-٦٨، الاحتجاج: ص١٤٢-١٤٣، المحاسن: ص٣٣٢، البحار ج٥٨، ص٣٦-٣٨، ح٨.

(٢) سورة الكهف، الآية: ١٩.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٥٩.

(٤) الحاسة السادسة بين منظاري الباراسيكولوجيا والقرآن: ١٢٠.

(٥) سورة فصلت، الآية: ٥٣.

شدة المؤثر اللازمة لإيقاظ النائم من شخص إلى آخر من وقت لآخر بالنسبة لنفس الشخص وتختلف في الطفل عنها في الشاب عن الشيخ؛ وقد يأتي المؤثر من داخل الجسد نفسه، فحدوث تقلص في الأمعاء أو المعدة أو غيرها وامتلاء المثانة بالبول وضيق الشعبيات الهوائية معيقاً التنفس والضغط على بعض الأعصاب مثل حالات بروز الغضروف بين الفقرات وغير ذلك قد يؤدي في كثير من الحالات إلى إيقاظ النائم من نومه مهما كانت درجة استغراقه في النوم. .

فالحواس لا تنام تماماً أثناء النوم ولكن درجة حساسيتها تقل كثيراً ويرتفع المستوى المطلوب لتنبيه الجهاز العصبي المركزي أثناء النوم إذ يلزم أن تزداد شدة المؤثرات الواصلة إليه لتنبيهه وتنشيط استجابة الجسم لهذا المؤثر وذلك الإحساس. وعندما لا تصل شدة المؤثر إلى الدرجة المطلوبة للتنبيه قد تأتي استجابة الجسم على هيئة أفعال منعكسة أو حركات لا إرادية الغرض منها الابتعاد عن مكان المؤثر.

ينام الإنسان ويهدأ ويصل به النوم أحياناً إلى درجة من السبات أقرب إلى الغيبوبة فلا يستجيب لأقوى المؤثرات، ومع ذلك تظل أجهزة جسدة وأعضاؤه الداخلية تعمل بانتظام وبصورة طبيعية دون خلل أو اضطراب، فالقلب ينقبض وينبسط والدم يجري ويسري إلى كل خلايا الجسد، والرئتان تمتلئان بالهواء شهيقاً وتطردانه زفيراً، والمعدة والأمعاء والكليتان في نشاط دائم، والعمليات الحيوية داخل الخلايا على قدم وساق، بل إن عمليات نمو الجسم سائرة بصورة طبيعية بل أنشط، كذلك الدماغ في نشاط دائم كما يدل على ذلك نشاطه الكهربائي والذي يتم تسجيله الدماغ الكهربائي - Electro Encephalo gram والذي يسمى اختصاراً E.E.G.

ويسجل هذا الجهاز نشاط الدماغ على هيئة موجات كهربائية لها تردد خاص يختلف حسب درجة نشاط الدماغ، ويختلف في الغيبوبة عنه في النوم عنه في اليقظة، ويظل نشاط الدماغ الكهربائي مستمراً دون انقطاع وعند اختفائه يحكم على الشخص بأنه مات، وتلك هي العلامة الأساسية حالياً التي يقرر على أساسها الأطباء موت المرضى في غرف العناية المركزة وبذلك يقومون بفصل أجهزة الإنعاش عن المريض عند توقف نشاط الدماغ الكهربائي واختفاء موجات الـ .E.E.G تماماً.

وقد لوحظ أن الموجات الكهربائية لنشاط الدماغ يقل ترددها وتهدأ أثناء النوم وتمر بمراحل متتالية من زيادة النشاط وقلة النشاط، حيث تستغرق كل مرحلة زمناً يتراوح بين

الدقائق القليلة إلى نصف الساعة تقريباً، وبتتبع هذا النشاط الكهربائي للدماغ أمكن تقسيم مراحل النوم إلى مستويات أربعة بين النوم الخفيف والنوم الغرق أو العميق،

ويعنينا هنا تلك المرحلة والتي أطلقوا عليها لقب: «الحركة السريعة للعينين Rapid Eye Movement (REM) حيث يزداد نشاط الدماغ الكهربائي بدرجة ملحوظة ويصاحب ذلك حركة العينين بسرعة يميناً وشمالاً وفي نفس الوقت تهدأ حركات الجسم كله فلا يتقلب النائم ولا يحرك يديه أو رجليه. وقد يتسارع النبض والتنفس أثناء تلك المرحلة؛ وقد أشارت التجارب على تلك المرحلة بما فيها إيقاظ النائمين بعد بداية مرحلة الحركة السريعة للعينين واستجوابهم إلى أن الأحلام تحدث في تلك المرحلة وليس في غيرها من مراحل النوم الأخرى. على هذا الأساس بدأت دراسة التغيرات المختلفة الفسيولوجية وغيرها في الجسم في تلك المرحلة على أنها دراسة لحالة الجسم أثناء حدوث الأحلام[١].

◎ ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾

النوم ضرورة حياتية لجميع الأحياء، فكل مخلوق حي يفقد النوم أو نمنعه منه، لا يلبث عاجلاً أن يموت. ولقد بدأ العلم منذ مطلع القرن العشرين (١٩٣٧) يكتشف تباعاً الأبعاد العلمية والدقائق التشريحية والوظيفية والكيميائية التي تتحكم بعملية النوم. إلا أن العلم وحتى كتابة هذه السطور لم يتوصل بعد إلى معرفة المسبب الأول الذي يجعل أجسام المخلوقات الحية تفرز مواد كيميائية تؤثر على مراكز النوم الموجودة في الجهاز العصبي المركزي وتجعل من هذه المخلوقات تنام وتصحو، فالعلماء لن يدركوا الكثير من الحقائق التي يدرسونها، ومنها النوم إلا إذا سلموا بوجود الروح، سر الخالق وأمره في المخلوقات وعلة الحياة فيها.

◎ مراحل النوم كما كشفها العلم

منذ سنة ١٩٥٥، وبعد دراسة عشرات الآلاف من حالات النوم في مختبرات النوم العلمية حيث يسجل مخطط الدماغ الكهربائي للنائم مع حركة تنفسه وعينيه وغفلاته، قسم العلماء النوم إلى عدة مراحل:

---

(١) الحاسة السادسة بين منظاري الباراسيكولوجيا والقرآن: ١٢٢.

المرحلة الأولى: مرحلة الدخول التدريجي في النوم، وتؤلف ٢ - ٤٪ من مدة النوم الكامل.

المرحلة الثانية: مرحلة النوم الخفيف غير العميق الذي يؤلف ٥٠٪ من مدة النوم الكامل.

المرحلتان الثالثة والرابعة: مرحلة النوم البطيء العميق العادي الهادىء، وهي مرحلة النوم المريح أي نوم الأمنة والطمأنينة وتشكل ٢٠٪ من مدة النوم الكامل.

المرحلة الخامسة: مرحلة النوم العميق المصحوب بالأحلام والحركة أو النوم العجيب، لأن النائم خلال مرحلة نوم الأحلام يكون تخطيط الدماغ الكهربائي وحركة التنفس والدورة الدموية وحركات العين كما لو كان في حالة اليقظة رغم أنه في نوم عميق جداً. وربما كان هكذا نوم أهل الكهف والله أعلم ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ ومدة هذا النوم العميق العجيب نوم الأحلام تشكل ٢٥٪ من مدة النوم الكامل.

ولقد ثبت أن أكثر الناس لا يدخلون في مرحلة النعاس أي النوم العميق سواء كان النوم العميق العادي أو النوم العميق نوم الأحلام، إلا بعد المرور بمرحلة النوم التدريجي. كما ثبت أن مراحل النوم العميق وهي تشكل ٤٥٪ من مدة النوم الكامل هي مراحل النوم المريح لجميع وظائف أجهزة الجسم والقوى العقلية من ذاكرة وقوة استيعاب وقدرة على التفكير. ويختصر كل ذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾[١] أي إذ يغطيكم ويغلفكم في النوم العميق الذي يعطي الأمان والطمأنينة. (لغوياً: النعاس هو النوم العميق، وقد وصف المولى النعاس بأنه أمنة أي راحة جسدية ونفسية وعقلية: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ﴾[٢] وقد جاء العلم اليوم يثبت أن النعاس أي النوم العميق ويشكل نصف مدة النوم، هو النوع المريح من النوم للنائم...)[٣].

◎ الموتة الكبرى والموتة الصغرى

﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٤].

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ١١.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٥٤.
(٣) من علم النفس القرآني ١٤٤ - ١٤٥.
(٤) سورة الزمر، الآية: ٤٢.

لكلمة الوفاة قرآنياً معنيان:

أ - **الوفاة الكبرى**: أو مفارقة الروح كلياً للنفس والجسد إلى يوم البعث حيث تزوج الروح بالنفس والجسد من جديد ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾(١).

فالقرآن الكريم فرّق تفريقاً واضحاً بين النفس والروح والجسد كما أشرنا إلى ذلك في بحث سابق.

ب - **الوفاة الصغرى**: وهي النوم وفيه تفارق الروح النفس والجسد جزئيًا ولكي كلياً، وهذا المعنى لا يعرفه إلا القلة مع أنه واضح من خلال قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾.

ولقد بين العلم اليوم أن جميع أعضاء الجسم تعمل بصورة بطيئة خلال النوم، كما أن أكثر الثوابت في الدم من هرمونات ومواد كيميائية أخرى تتغير خلال النوم، وليس من تعليل علمي حتى الآن لهذه التغيرات، وقد لا يجد العلم تعليلاً لكثير من ظواهر النوم، ومنها الأحلام، إذا لم يسلم جدلاً بوجود الروح. ونحن نعتقد من زاوية إيمانية أن الروح، خلال النوم، تترك الجسد والنفس جزئياً وليس كليّاً وتنتقل إلى بارئها. فالنوم هو وفاة صغرى للجسد والنفس فقط وبرجوع الروح جزئياً إلى خالقها خلال النوم ترتاح النفس وكذلك مختلف أعضاء الجسم وتستعيد نشاطها خلال النوم، ذلك أن الروح وهي العلة الأولى أي المسير الأول للنفس والجسد، ومن خلال تواجدها فيهما تتعبهما، وبالنوم ترتاح دورياً أجسام المخلوقات من هذا السر الإلّهي الهائل القوة، علة الحياة في المخلوقات.

للقرآن الكريم صفات كثيرة، منها صفة الروح وقد وصفه المولى أيضاً بأنه: ﴿قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ أي يثقل حمله على من يتنزل عليه: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾(٢). ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾(٣).

إذن فالقرآن الكريم هو روح، بل أعلى درجات الروح، وقد كان يثقل حمله على من تنزل عليه، الرسول الحبيب صلى الله عليه وآله.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥٤.
(٢) سورة المزمل، الآيات: ١-٥.
(٣) سورة النحل، الآية: ٢.

وأرواحنا التي هي أمر المولى، أي قوله الذي به تحول الطين إلى إنسان يثقل حملها بصورة دائمة في أجسامنا وأنفسنا، وفي النوم يرتاح الجسم والنفس وقتياً من ثقلها!

ومن دون الأخذ بالناحية الروحية، في فهم أسرار النوم، لن يستطيع علماء النفس أن يفهموا في العمق أسرار النوم واضطراباته ومسبباته:

فبعض المرضى الذين يشكون من فقدان النوم أو اضطرابه لا يرتاحون نفسياً بتناول الأدوية المنومة أو إرغامهم على النوم بواسطة المواد الكيميائية لمدة أسبوع أو عشرة أيام، وعندما يرفع عنهم تأثير الأدوية المنومة يصرحون بأنهم لم يرتاحوا من نومهم الاصطناعي هذا بل ازدادوا تعباً ومرضاً! لماذا؟ ذلك بأنهم لم يفهموا بعد بأن النوم هو «آمنة» من الله أي نعمة ورحمة، وأن فقدان النوم عند بعض الناس قد يكون جزاءً لما اقترفته أيديهم من سوء، فليأخذوا ما طاب لهم من المهدئات والمنومات فلن يجعل الله في نوم اصطناعي كهذا هو من صنع يد الإنسان راحة وأماناً ما داموا لم يلتجئوا بقلوب تائبة مؤمنة إلى الذي بيده مفاتيح الرحمة والنوم رحمة من الله[(١)].

◎ الروح مفتاح الشعور والإحساس بالألم

ومن هذه الزاوية بالذات نفهم بعض الخوارق التي تتأتى علي يد الصوفيين الحقيقيين أي الروحانيين الذين يستطيعون أن يدفنوا أنفسهم بدون طعام أو شراب مع قليل من الهواء في توابيت زجاجية محكمة لمدة أسابيع، ثم يعودون من نومهم الطويل هذا أو موتتهم الصغرى إلى الحياة.

إنها مسألة إيمان بالله والروح، وممارسة يومية للطرح الروحي خارج الجسد

ولا ننصح العامة بسلوك هذه الرياضة الخطرة، إنها مسألة إيمان أولاً وتيسير من المولى الذي وهبهم هذه القدرة الخارقة. وسبحان الذي يزيد في الخلق ما يشاء، ليبين لبقية الخلق من عباده بعضاً من أسراره وقدراته!!

واليوم وقد تبين لعلماء التشريح وعلماء وظائف الأعضاء أكثر العوامل الفيزيائية والكيميائية التي تتحكم في الألم وتسببه، تبقى حلقة ضائعة لم ولن يتوصلوا إلى فهمها إلا من زاوية إيمانية روحية بحتة، فاختلاف الإحساس والشعور بالألم بين إنسان

---

(١) من علم النفس القرآني ١٤٤ - ١٤٨.

وآخر، بالرغم من أن العوامل المسببة للألم قد تكون واحدة، يرجع سببه إلى الروح، فهي التي تتحكم في مقدار الإحساس والشعور بالألم.

وبقدر ما يسمو الإنسان بروحه ويهذبها ويخلصها من التعلق بشوائب الجسد ومتطلبات النفس، يخف إحساسه بالألم وتكثر سعادته وطمأنينته.

ومن اطلع على حياة المرضى من المتألمين وأذهله الفرق الهائل في الإحساس والشعور بالألم بين مريض وآخر مع أن المرض واحد، يعي البعد الروحي الإيماني المؤثر بالإحساس لكل ما يؤلمنا، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾[1] [2].

◎ وقفة موجزة مع الأحلام

وكما أن العلم لن يفهم في العمق أسرار النوم ما دام لم يسلم بوجود الروح، كذلك بالنسبة للأحلام. فمن الوجهة الإيمانية هناك نوعان من الأحلام:

١ - الأحلام الغيبية الصادقة وهي إشارات من المولى إلى النائم ومنها أمر سماوي واضح لا يتطلب التأويل كرؤيا سيدنا إبراهيم الذي أمره المولى في المنام بذبح ابنه إسماعيل عليه الصلاة والسلام ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾[3].

- وكذلك رؤيا الرسول المصدق عليه الصلاة والسلام: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ﴾[4].

- ومنها أحلام غيبية صادقة غير واضحة تتطلب التأويل: كرؤيا سيدنا يوسف عليه السلام ورؤيا «صاحبي السجن» مع يوسف ورؤيا ملك مصر أيام كان يوسف مسجوناً ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[5] وتأويل هذا النوع من الرؤية هو عطاء من الله لا يعلمه إلا القليل: ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾[6].

(١) سورة الجن، الآية: ١٣.
(٢) من علم النفس القرآني ١٤٨ - ١٤٩.
(٣) سورة الصافات، الآية: ١٠٢.
(٤) سورة الأنفال، الآية: ٤٣.
(٥) سورة يوسف، الآية: ٣٦.
(٦) سورة يوسف، الآية: ٢١.

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ﴾[(١)].

والعلم لا يستطيع إلا أن يقر بوجود هذا النوع من الأحلام الغيبية الصادقة التي تحصل كل يوم، فالواقع والإحصاءات والتحقيقات الرزينة تؤكد صدق حصول ما أنبأت به لاحقاً، إلا أن العلم يبقى عاجزاً عن تعليل ذلك، ما دام لم يقر ويعترف بوجود الله والروح! أما تعليلها بنظرية الصدفة فهذا منطق الإفلاس العلمي والجدلي العاجز، لذلك كان النوم والأحلام يشكل ٢٥٪ منه ومن آيات الله أي من البراهين الدالة على وجوده ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبۡتِغَآؤُكُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾[(٢)].

- والعلم بالرغبة أنه درس الأحلام، وعرف شيئاً عن مراكزها العصبية في الدماغ وجذع الدماغ خاصة، يبقى عاجزا عن فهم آلياتها ومسبباتها ولماذا ينسى النائم عند اليقظة ما دام النائم يحلم ربع مدة نومه تقريباً.

- أما إذا أسلمنا بأن الروح خلال النوم تترك الجسد جزئياً وتصعد إلى خالقها فترتاح بلقائه فترى ما يسمح المولى برؤيته وتذكره وكما يرتاح الجسد وقتياً من ثقلها ووقعها عليه، ربما فهمنا شيئاً من أسرار النوم والأحلام بالعمق، وربما فهمنا خاصة معنى الأحلام الغيبية التي لا يستطيع الواقع والعلم إلا أن يقر بوجودها!!!

وكثير من المشاكل المستعصية والاكتشافات والأفكار والنظريات العلمية وجدت حلاً خلال النوم، ربما لأن الروح بتخلصها المؤقت خلال النوم من شوائب الجسد وأهواء النفس، ساعدت العقل على حل ما استعصى عليه خلال اليقظة!! فالروح هي علة فهم الأشياء التي يصعب حلها في الأحياء، ومنها مسألة النوم والأحلام... ومن هنا نشأ علم جديد هو «البارسيكولوجيا» الذي يدرس في الجامعات الغربية مع علم النفس منذ عشرات السنين فقط.

- والعلم من وجهة مادية بحتة لا يستطيع أن يشرح بالعمق الآليات والمسببات للعوارض الفيزيزلوجية التي تحصل في الأحلام كالتغيرات في المخطط الكهربائي الدماغي خلال النوم والأحلام، كذلك التغرات في الثوابت الفيزيولوجية، كنبضات

(١) سورة يوسف، الآية: ٤١.
(٢) سورة الروم، الآية: ٢٣.

القلب والضغط الشرياني ونسب المواد الكيميائية الموجودة في الدم وعمل سائر أعضاء الجسم، أما إذا سلمنا بوجود الروح وبأنها المحرك الأول الأساسي في كل حي، فربما استطعنا فهم الكثير عن النوم والأحلام، لذلك كان النوم من آيات الله، وما لم نسلم بوجود الروح وخالق الروح فلن نفهم في العمق شيئاً يذكر عن النوم والأحلام!

٢ - والنوع الثاني من الأحلام هو ما نسميه بالأحلام النفسية التي تنشأ عن المشاكل النفسية المستعصية سواء كانت معروفة واعية أو مدفونة في أعماق اللاوعي منذ السنوات الأولى من الطفولة. وهذا النوع من الأحلام يدرسه علماء التحليل النفسي لسبر أغوار المشاكل النفسية عند الناس والمرضى النفسيين، فالحلم حسب تعريف «فرويد» هو الطريق الملكية التي تقود إلى اللاوعي، إلا أن مشكلة المحللين النفسيين كفرويد وغيره، أنهم يدرسون الأحلام انطلاقاً من نظريات مسبقة عندهم ويستعملون الأحلام تأييداً لنظرياتهم هذه، من هنا تضارب الآراء بشأن الأحلام وقيمتها ككاشف للنوازع النفسية الدفينة عند المهتمين بهذا النوع من العلوم[1].

◎ الظواهر الغير طبيعية أو المرضية المصاحبة للنوم:

قد يصاحب النوم ظواهر غير طبيعية أو مرضية بعضها له علاقة بالنوم وبعضها لا علاقة له بالنوم ولكنها ترتبط به بشكل أو بآخر. وسنستعرض بعض تلك الظواهر بإيجاز للتعرف على أهم مظاهرها وعلاماتها.

◎ البكم أو الصُمات اللاحركي Akinetic Mutism:

وهذه الظاهرة عبارة عن صورة من صور السّبات والتي تشبه النوم إلى حد كبير مع اختلاف واضح بينهما، فالمصاب بتلك الحالة يظل متقلباً على الفراش مسترخي العضلات تماماً ولا يستجيب لأي مؤثر مهما كان قوياً، ولا يفيق من حالته تلك إلا بعد وقت طويل وبشكل تلقائي، وتختلف تلك الحالة عن النوم وغيره في أن عيني المريض تكونان مفتوحتين وتتابعان أي جسم يتحرك أمامها في أي اتجاه ولكن دون إبداء أي إشارة من الجسم تدل على فهم ما يحدث أو الاستجابة له بأي صورة غير تحرك العينين المفتوحتين فقط.

---

(١) من علم النفس القرآني ١٤٩ - ١٥١.

◎ المشي أثناء النوم Somnambulism:

يؤدي المصاب بتلك الحالة بعض الحركات التي تبدو وكأنها إرادية وذلك أثناء النوم، فيقوم من فراشه ويتحرك متجولاً في أنحاء الغرفة بطريقة تلقائية «أوتوماتيكية» ثم يعود إلى فراشه مرة أخرى، وحين يستيقظ فإنه لا يذكر شيئاً من ذلك ولا يدري مما حدث في أثناء نومه شيئاً، وتتسم حركاته أثناء مشيه وهو نائم بالبساطة والتلقائية وليس فيها عنف بالمرة.

وهذه الحالة تصيب الفتيان عادة، ويتميز المصابون بها بطبيعة عصبية غير مستقرة، وهي حالة ليست دائمة وإنما قد تحدث بصورة مؤقتة أو بشكل طارىء عند تعرض الفتى أو الشاب لظروف نفسية شديدة أو تجربة عنيفة مثل التقدم لامتحان صعب أو حدوث كوارث عائلية أو ما شابه ذلك، وعادة ما يعود الشاب إلى حالته الطبيعية تلقائياً دون علاج بمجرد انتهاء الظروف الصعبة التي يمر بها[1].

◎ النوم الغالب (فرط النوم) Narcolepsy:

تذكرنا هذه الحالة بـ(التنابلة) الذي لا عمل لهم غير الأكل والنوم، فالمصاب بتلك الحالة يتميز بقابلته الشديدة للنوم، حيث ينام طوال ساعات النهار وينام تحت أي ظروف كانت وفي أي وضع يكون فيه. وتتكرر نوبات النوم طوال النهار وقد تصل إلى ٢٠ أو ٣٠ نوبة تستمر كل منها ١٠ - ٢٠ دقيقة من المتوسط، وقد تستمر النوبة ساعات أو تقصر إلى دقائق معدودة.

وتكثر نوبات النوم بعد الطعام، وحين يكون الجو المحيط هادئاً أو دافئاً، وعند قيادة السيارة أو ركوب القطار، أو عند الاستماع إلى محاضرة أو حضور ندوة.

وهؤلاء الأشخاص رغم ذلك لا يستطيعون النوم باستمرار أثناء الليل حيث يضطرب نومهم أثناء الليل عادةً بصورة مقلقة فلا يستطيع أن يتمتع بنوم عميق هادىء ليلاً وإنما نوم متقطع قلق طوال الليل.

وقد يصاحب النوم الليلي القلق ظواهر أخرى غير طبيعية كمظاهر ثانوية لحالة فرط النوم، وأشهر تلك الظواهر شلل النوم Sleep Paralysis والجمود Cataplexỹ وهلوسة النوم Hypnagogic Hallucination وشلل الاستيقاظ Hypnapomic Paralysis.

---

(١)

وأحياناً ما يصاب المريض بأعراض أخرى مثل نوبات ضعف الذاكرة، وحالات من الإغماء وضعف الإبصار وعدم القدرة على المناقشات التي تستلزم تفكيراً عميقاً مستمراً، وقد يصاب المريض بحالة من القلق والاكتئاب النفسي.

وعادة ما تستمر حالات فرط نوم النهار طوال حياة المصاب بها، بينما تقل حدة الظواهر المصاحبة للنوم بإطراد العمر.

وحين يصاب المريض بنوبة من الشلل العام فإن ذلك يستمر لفترة وجيزة عند الانفعال الشديد، وقد يصيب الشلل عضلات الفك والرقبة فقط، ويظل المريض يقظاً أثناء النوبة، إلاّ أنه قد يصاب بازدواج الرؤية حيث يرى الشيء الواحد شيئين، وقد تطول النوبة لدقائق عديدة تصل إلى نصف الساعة، وأكثر ما يصاب بها المريض أثناء نوبة ضحك شديدة أو انفعال شديد مفاجىء لرؤية شيء أو سماع خبر ما، وأحياناً أثناء الجماع. وعادةً ما تتكرر النوبات بمعدل نوبة واحدة كل يوم ونادراً ما تزيد على ذلك المعدل.

◎ شلل النوم Sleep Paralysis:

ويحدث هذا النوع إما عند بداية النوم Hypnagogic Paralysis، أو عند الاستيقاظ من النوم مباشرةً Hypnapomic Paralysis حيث يكون الشخص ما زال يقظاً وواعياً لما حوله، ويسمع ما يدور حوله وما يقال له، ولكنه يفقد القدرة على الحركة الإرادية تماماً، فلا يستطيع أن يتكلم أو يتحرك أو أن يفتح عينيه رغم إحساسه بما حوله ووعيه التام، وتصيبه حالة من الرعب الشديد أثناء تلك النوبات ويشعر كأنه يدفن حياً وهو لا حول له ولا قوة. وهذه النوبات رغم ما تسببه من رعب إلاّ أنها لا تؤدي إلى آثار عضوية ضارة، وعادة ما تستمر النوبة لدقائق معدودة يعود بعدها المصاب طبيعياً تماماً[1].

◎ هلاوس النوم Hypnagogic Hallucination:

وحين يصاب المريض بفرط النوم أو غيره بهذه الهلاوس فإنها تأتي عادة على شكل هلاوس بصرية حيث يرى المصاب أشياء ذات أشكال مختلفة وملونة تتحرك أمام عينيه أو تظل ثابتة لا تتحرك، وقد يرى أشخاصاً أو حيوانات موجودة معه في الغرفة مما يسبب له الضيق والخوف أحياناً، وقد يزداد شعور المصاب بأن ما يراه حقيقي مما يزيد

(١) الحاسة السادسة بين منظاري الباراسيكولوجيا والقرآن: ١٣٠.

من حالة الرعب لديه، وخصوصاً إذا صاحب ذلك نوبة من شلل النوم في النوم المصاحب لبعض الحالات المرضية.

وهنا لا بد من ذكر بعض أعراض تلك الحالات المرضية:

١ - فرط النوم العرضي Symptomatic Hypersomnia:

ويقصد بهذا النوع من النوم الغالب هو ما يحدث للإنسان نتيجة لوجود مرض عضوي يؤدي إلى أعراض وعلامات مختلفة تشمل ضمن ما تشمل فرط النوم.

وهذا النوم يحدث للمصابين بأمراض عضوية بالدماغ مثل الالتهابات المختلفة لأنسجة الدماغ، وأورام الدماغ، وإصابات الرأس، وحالات التسمم المختلفة، وهنا يستمر النوم لفترات طويلة تستغرق معظم ساعات اليوم ليلا ونهاراً، ويمكن إيقاظ المريض لإعطائه الطعام أو الشراب أو الأدوية ولكنه يعود إلى حالة النوم بسرعة.

هذه الحالات لا يصاحبها نوبات من شلل النوم أو الجمود أو الهلاوس وإنّما يصاحبها العلامات الدالة على وجود المرض الأصلي بالدماغ أو التسمم والذي تسببّ في حدوث تلك النوبات الطويلة للنوم.

ويعود المريض إلى حالته العادية من النوم واليقظة إذا أمكن علاج الحالة المرضية المسببة لذلك بنجاح، وفي مثل تلك الحالات يجب ملاحظة المريض ملاحظة دقيقة لاكتشاف ما إذا كان يتعاطى خلسة أدوية وعقاقير مسببة للإدمان كسبب هام لتلك الحالات.

٢ - فرط النوم الوظيفي Functional Hypersomnia:

وهي حالات من النوم المستمر لعدّة ساعات تتكرّر يومياً، ويستمر ذلك لعدّة أشهر يعود بعدها المريض إلى حالته الطبيعية تماماً.

وحين يكون المصاب طبيعياً من الناحية النفسية والعصبية، فإن النوبات تتميز بحدوثها أثناء الليل حيث يصعب إيقاظ المصاب من النوم مع استمرار علامات النوم عليه بعد الاستيقاظ ولفترات طويلة، فيبدو المريض نصف نائم بينما ينام المصاب المذكور أثناء النهار ويظل هكذا ما لم يوقظه أحد، وهذا النوع يسمى فرط النوم الابتدائي Idipathic وهو نوع وراثي حيث يتم توارثه في أكثر من ثلث المصابين به.

وهناك نوع آخر يحدث في المرضى المصابين ببعض الأمراض العصبية والنفسية مثل الهستريا والعصاب Neurosis حيث يضيف إلى المريض إحساساً بالضعف الشديد والإرهاق، ويسمى هذا النوع بالنوع العصبي Neurotic Hypersomnia.

وتتميز بعض النوبات بزيادة كبيرة في شهية المصاب، حيث يأكل بشراهة وينام لفترات طويلة قد تصل إلى أسابيع عقب نوبات الأكل الشره، ولا يستيقظ المريض إلاّ لتناول الطعام أو الذهاب إلى دورة المياه لقضاء الحاجة.

وتستمر النوبة لأسابيع يعود بعدها المصاب إلى حالته الطبيعية من نوم ويقظة وطعام، وبالطبع فإن وزنه يزداد خلال تلك الفترات بصورة واضحة.

٣ - خناق النوم: Sleep apnea

تصيب تلك الحالات من الخناق أو توقف التنفس أثناء النوم بعض الناس دون سبب واضح، بينما تصيب بعض المصابين بضيق الممرات الهوائية نتيجة لضغط الغدة الدرقية المتضخمة أو لتضخم اللوزتين أو الغدد الليمفاوية بالحلق أو ضيق الحنجرة، وهناك نوع آخر من الناس يصابون بتلك الحالات ويتميزون بالسمنة المفرطة المصاحبة بنقص التهوية الرئوية وهبوط البطين الأيمن للقلب.

وتتميز تلك النوبات بتوقف التنفس أثناء النوم دون سابق إنذار مع حدوث غطيط شديد وحشرجة أثناء النوم، ويضطرب نوم المصاب ويزداد قلقه مما يؤدي إلى شعور عام بالإرهاق والاضطراب أثناء النهار[١].

◎ الرؤى وتفسير العلماء:

إن ما يراه النائم من الحقائق التي لا ينكرها أحد، والتي ما زالت من التحديات العلمية التي لم يصل إلى إدراك كيفيتها الإنسان، فالنائم مغمض العينين ولا يرى بهما حتى لو فتحنا عيني النائم فلن يرانا وهو نائم، ومع ذلك يرى الأحلام والمرائي بألوانها الطبيعية، ويرى في أحلامه الضوء والظلام والقريب والبعيد.

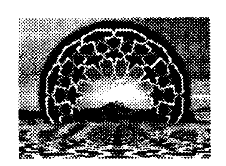
ولقد عجز العلماء وحار الفلاسفة في تفسير ما يحدث في المنام وأسسوا الجمعيات التي تبحث في ما وراء المحسوسات وذلك في مختلف أنحاء العالم، واستحدثوا من

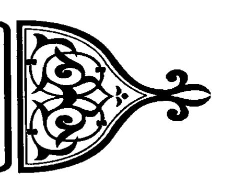
(١) الحاسة السادسة بين منظاري الباراسيكولوجيا والقرآن: ١٩٠.

التعبيرات في هذا المجال الكثير مثلما أسموه بظواهر انتقال الفكر، والاتصال على البعد، والاستشفاف، والجلاء البصري، والحاسة السادسة، والإدراك خارج الحواس وغير ذلك من المسميات لوصف ما يحاولون تتبعه من ظواهر خارقة للعادة على حد قولهم.

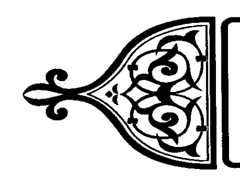
وقد انتهى العلماء إلى بعض ما يرونه من أدلة على أن للشخصية الإنسانية شقاً لا يخضع للقوانين المعروفة في علم الفيزياء أو الكيمياء وهو الشق الروحي في الإنسان، وحاولوا إخضاع هذا الشق الذي لا تدركه الحواس للبحث والتجربة والاستنتاج، فدخلوا بذلك في متاهات فكرية ونظريات متضاربة، وأعياهم تتّبع الحقيقة التي لا يدركها إلاّ خالقها سبحانه وتعالى.

فلندع كل هؤلاء في تخبطهم ومتاهاتهم، ولنرجع إلى منبع الحقيقة الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولنتدبر وحي الله سبحانه وتعالى قرآناً وسنة، لعلّنا ندرك بعض العطاء في هذا المجال.





النفس والروح وأحوالهما



● عن جعفر بن محمّد بن عمارة، عن أبيه، عن الصادق عن آبائه عليهم السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: أنّ للجسم ستّة أحوال: الصحّة، والمرض والموت، والحياة، والنوم، واليقظة، وكذلك الروح، فحياتها علمها، وموتها جهلها ومرضها شكّها، وصحّتها يقينها، ونومها غفلتها، ويقظتها حفظها(١).

● بإسناده عن حبّة العرنيّ قال: خرجت مع أمير المؤمنين عليه السلام إلى الظّهر، فوقف بوادي السلام كأنّه مخاطب لأقوام، فقمت قيامه حتّى أعييت، ثمّ جلست حتّى مللت، ثمّ قمت حتّى نالني مثل ما نالني أوّلاً، ثمّ جلست حتّى مللت ثمّ قمت وجمعت ردائي فقلت: يا أمير المؤمنين! إنّي قد أشفقت عليك من طول القيام فراحة ساعة، ثمّ طرحت الرّداء ليجلس عليه.

فقال لي: يا حبّة، إن هو إلاّ محادثة مؤمن أو مؤانسته.

قال: قلت: يا أمير المؤمنين وإنّهم لكذلك؟

قال: نعم، ولو كشف لك لرأيتهم حلقاً حلقاً محتبين يتحادثون.

فقلت: أجسام أم أرواح؟

فقال: أرواح، وما من مؤمن يموت في بقعة من بقاع الأرض إلاّ قيل لروحه: الحقي بوادي السلام، وإنّها لبقعة من جنّة عدن(٢).

● وقد روى بعض الصوفيّة في كتبهم عن كميل بن زياد أنّه قال: سألت مولانا أمير المؤمنين عليّاً عليه السلام فقلت: يا أمير المؤمنين أريد أن تعرّفني نفسي.

قال: يا كميل! وأيّ الأنفس تريد أن أعرّفك؟

قلت: يا مولاي هل هي إلاّ نفس واحدة؟

---

(١) التوحيد: ٢١٩، البحار ج٥٨ ص٤٠، ح١٠.

(٢) الكافي ج٣، ص٢٤٣، البحار ج٥٨ ص٥١، ح٣٤.

قال: يا كميل إنّما هي أربعة: النامية النباتيّة، والحسّية الحيوانيّة، والناطقة القدسيّة، والكليّة الإلّهيّة، ولكلّ واحدة من هذه خمس قوى وخاصيّتان.

فالنامية النباتيّة لها خمس قوى: ماسكة، وجاذبة، وهاضمة، ودافعة، ومربيّة.

ولها خاصيتان: الزيادة والنقصان، وابنعاثها من الكبد.

والحسيّة الحيوانيّة لها خمس قوى: سمع وبصر، وشمّ، وذوق، ولمس.

ولها خاصيّتان: الرضا والغضب، وانبعاثها من القلب.

والناطقة القدسيّة لها خمس قوى: فكر، وذكر، وعلم، وحلم، ونباهة، وليس لها انبعاث، وهي أشبه الأشياء بالنفوس الفلكيّة.

ولها خاصيّتان: النزاهة والحكمة.

والكليّة الإلّهيّة لها خمس قوى: بهاء في فناء، ونعيم في شقاء، وعزّ في ذلّ، وفقر في غناء، وصبر في بلاء.

ولها خاصيّتان: الرضا والتسليم، وهذه الّتي مبدأها من الله وإليه تعود، قال الله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾[1] وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾[2] والعقل في وسط الكلّ[3].

◎ معرفة النفس

منذ ما يزيد على ألف وأربع مائة وإثنين وعشرين عاماً والقرآن يدعونا إلى معرفة النفس، والتدبر في نظام خلقتها، والتفكر في مداخلها ومخارجها، والغوص في أسرارها، فقد جعل القرآن هذا النوع من المعرفة موازياً لمعرفة الكون وأسراره العميقة، فقد جاء في الذكر الحكيم: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾[4] وليست هذه المقارنة اعتباطية أو عبثية بل هي نتيجة طبيعية لإتحاد نظام الخلقة في إطار قانون واحد ابتدعها خالقٌ واحد.

فالنظام الذي خُلقت على أساسه النفوس هو ذات النظام الذي خُلق منه الكون، وذات القوانين التي تتحكم بالنفس البشريّة هي ذاتها تتحكم بمصير العالم بل الأعجب

(١) سورة الحجر، الآية: ٢٩.
(٢) سورة الفجر، الآيتان: ٢٧، ٢٨.
(٣) البحار ج٥٨ ص٨٤ – ٨٥.
(٤) سورة فصلت، الآية: ٥٣.

من ذلك وبسبب عمق الإرتباط والإتّصال بينهما، فإنّ الكون يتأثر بأحوال النفس البشريّة وبالعكس، فكيف تكون حالات النفوس يتأثر بها النّظام الكوني سلباً أو إيجاباً.

وبالتالي فإنّ ذلك ينعكس على وضع الطبيعة، من هواء ورياح وأمطار وشمس وأرض، ألا ترون أنّ الهواء الذي يستنشقه الإنسان يساعد على نقل المكروبات بين الناس في أحيان؟

ألا ترون أنّ الرياح التي تنقل السحاب من مكان إلى مكان تدمّر المدن والقرى في أحيان؟ الجهلاء يحسبون أنّ ذلك يحدث عبثاً ومن دون تدبير وحكمة! ألا ترون إلى الأمطار التي تُسقي الأرض تتحول في أحيان إلى سيول تجرف ما في طريقها؟

ألاّ ترون إلى الأرض التي ينبت فيها الزرع ومنها غذاء الإنسان تغضب في أحيان فتزلزل ما عليها فيتحول إلى ركام؟ هل يُعقل أنّ مثل هذه الأحداث الكُبرى التي تقع في الحياة هي عبثية. . . إذن الحياة كلها عبثية! والنظام الكوني هو أيضاً عبثٌ في عبث!!

هل عاقل من يعتقد بمثل هذه الأفكار الباطلة؟.

لقد جعل الله سبحانه وتعالى بتحويل وإرادةٍ منه جوهر الحركة نابعاً من النفوس البشريّة، وتتفاعل هذه الحركة مع حركة النظام الكوني بحيث كلّ واحدٍ منهما ينفعل بالآخر ويتأثر به، فظاهرة هطول المطر مثلاً تكون سبباً للحياة من خلال إرواء الأرض والزرع، ومرّة يصبح سبباً للموت عندما يتحول إلى سيلٍ جارف، فهل كان نظام الكون الذي ابتدعه الله سبحانه وتعالى أعمى بحيث لا يميّز بين قومٍ وقوم، وبين مدينة ومدينة، وبين مطر الموت ومطر الحياة؟ حاشا لله ولنظامه المتقن من العمى والعبثية، لنقرء آية من القرآن الكريم: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَۚ﴾[1].

إنّ مخالفة النفوس لقانون النظام الكوني يؤدي إلى خلخلة واضطراب في هذا النظام وعليه فلا ينبغي لبني البشر أن يأمنوا من العواقب الوخيمة التي ستلحق بهم نتيجة مخالفتهم لقانون الحياة، ونحن الآن أمام طريقين لا ثالث لهما، فإما أن نقول بشيوع الأمراض ومنها مرض (الإيدز) في العالم هو محض صدفة، أو نقول بأنّه كانت هناك أسباباً موضوعية لشيوعه بهذا الإتّساع بين الناس.

(١) سورة النساء، الآية: ٧٩.

خبراء الصحّة يؤكدون أنّ الأمراض لا تصيب البدن إلا لأسباب موضوعية، ونتيجة خللٍ في نظام الحماية داخل الجسم البشري، فإذا كان الأمر كذلك بالنسبة لبدن الإنسان فكيف الأمر بالنسبة لبدن المجتمع؟ أليس إنتشار مرض الإيدز بين أفراده هو نتيجة لمخالفة نظام الحماية؟ إنّ قانون الحياة الذي سنّة الله سبحانه وتعالى هو بمثابة نظام الحماية لبدن الإنسان والمجتمع، وإنّ مخالفته يستدعي عواقب وخيمة على كليهما.

إنّ هذه المخالفات تم إباحتها والتشريع بقانونيتها، فقد أصدرت المجالس التشريعية بتلك البلدان قانوناً يُبيح زواج الشذوذ الجنسي، على الرغم من تحذيرات الخبراء، أنّ الشذوذ سبب رئيسي لشيوع مرض (الإيدز) فهل هناك قانوناً مخالفاً للطبيعة أكثر من هذا القانون، إننا لا نشاهد خرقاً للعقل والمنطق من جانب واحد من الكرّة الأرضية، بل نلاحظ فروقاً لكلّ القيم والمقدرات العقليّة والإنسانيّة والدينية في كلّ أرجاء هذا الكوكب الذي تنشبّ فيه الحروب الطاحنة، فتؤدي بحياة ملايين الناس، ومجاعةٌ تأكل عُمر آلاف الآلاف من الأفارقة، واستعمارٌ ينهب ثروات الشعوب المستضعفة، والعنصرية جعلت من بعض البشر غنماً، ونظام اقتصادي عالمي يثري فيه الغني ثراءاً فاحشاً ويجوع فيه الفقير إلى حد الثمالية، والظلم يعبث بمقدرات الناس ويبث خيوطه في كلّ مكان... عالمٌ مليءٌ بالفساد والرجس!!.

للخروج من هذه العتمة وإعادة بناء حياة كريمة لهذا الإنسان الذي يعيش على هذا الكوكب، هناك طريق وحيد هو العودة إلى النفس، وكما ذكرنا سابقاً فإنّ (جوهر الحركة تنقدح أولاً من النفوس) وكلُّ تغيير في الحياة إيجاباً كان أو سلباً فإنّ مصدره هي هذه النفوس، وقد بيّنت هذه الحقيقة آيةً عظيمة هي: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[1] فقد علّق الله سبحانه وتعالى مصير الأقوام والشعوب والأمم مسلمة وغير مسلمة بنسبة التغيير التي تحدثها في أنفسها، فإنّ كان التغيير سلبياً فإنّ مستقبلها سيكون أسوداً، وإنّ كان إيجابياً فسيكون مصيراً وادعاً.

وحينما نقول بأنّ جوهر الحركة تنقدح من النفوس، فإننا لا ندعي خروجها عن دائرة الأمر الإلّهي، بل نؤكد أنّ حركتها في إطار نظامِ شرعه الله في الدنيا، وصفته أنّه يمنح الحرية للنفوس باتباع أي سبيل شاءت، ولكن بسبب الطبيعة الترابطية والمتداخلة لهذا

---

(١) سورة الرعد، الآية: ١١.

النظام، فإنّ أية حركة للنفس وأي تحولٍ فيها ستُحسب خطوة إمّا في الإتجاه الصحيح أو في الإتجاه الخطأ، ومن البديهيات أنّ من يسير في الإتجاه السليم سيجني ثمرة أتعابه، وأنّ من يسير في الإتجاه الخاطىء فلا يلومنّ إلا نفسه عندما يرى حصيلة عمله أمامه. فالإنسان يجب أنّ يعرف ما أودع الخالق جلّ وعلا فيه من طاقات، وعليه أنّ يسعى بهذه الطاقات نحو الكمال.

يقول المفكر الإسلامي الشهيد السيد حسن الشيرازي في تفسير للآية: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[1].

فزودناه بكل الطاقات التي تؤهله للقيام بدور الإنسان، عبر رحلة البلورة والنضوج، في الحياة الدنيا زودناه بكل الطاقات: الفكرية والروحيّة والعضلية التي يجمعها إطار اسمه (الشباب) ومن أبرز تلك الطاقات:

أولاً: الطاقة الفكريّة القادرة على التلقي والهضم والإنتاج المسماة بالذاكرة.

ثانياً: الطاقة الروحيّة الموحية بالأمل عبر العقبات والنكسات، لمواصلة السير التكاملي، ويمكن التعبير عنها بـ (الطموح).

ثالثاً: الطاقة الروحية التضحوية التي تلخص الإهتمام في الهدف، وتقلص الإهتمام بكل شيء دونه. ويعبر عنه بـ(الإيثار) بمحتواه الواسع.

رابعاً: الطاقة الجسدية على احتمال الخطوب برحابه، ويصح التعبير عنها بـ (الصمود) أو بـ (الصبر).

فالله تعالى خلق الإنسان من أول ما خلقه - مزوداً بهذه الطاقات - التي تمكنه من ممارسة الحياة، بالشكل المناسب لنداءات الحياة[2].

ولعل أبلغ كلام يوضح حقيقة الترابط بين النفس والنظام الكونيّ، وتأثر الإنسان على هذا النظام ما جاء على لسان أمير البلاغة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «**أتحسب إنك جرمٌ صغير وفيك انطوى العالم الأكبر**». فقد اختصرت هذه العبارة الصغيرة معنى الوجود البشري نسبة لخلق العالم، وكأنّ الإمام عليه السلام كان يريد القول: كيف تحسب نفسك أيّها الإنسان صغيراً وتجعل الآلة هي العامل المحرّك للتاريخ؟ أو

---

(١) سورة التين، الآية: ٤.

(٢) خواطري عن القرآن: ٣/ ٣٨٩ - ٣٩٠.

تعتبر رأس المال هو المحرّك للشعوب؟ بينما أودع الله قوة عظيمة في نفسك تستطيع بها تغيير وجه الكون؟.

فمنذ سجود الملائكة لك أيها الإنسان!!.. ومنذ سخر الله لك الشمس والقمر والكواكب أيّها الإنسان...! ومنذ أن ذللّ الله لك الأرض كي تطأها أيّها الإنسان...! ومنذ أطعمك الله من لحوم الحيوانات وذللّ لك ظهورها كي يركبها، ومنذ أن سخر الله لك شجر الأرض ونباته من دون عناء أو شقاء تأكله، ومنذ أنّ وهبك الله عقلاً نيّراً تستضيء به من ظلام الجهل، ومنحك الحريّة في أن تفعل ما تشاء فيما سخّر لك إياه من شجرٍ أو دواب أو حتى كواكب. بعد هذا كله تقول: أنّ الآلة، أو المال، أو... هي عوامل التغيير في الحياة!!.

◎ حقيقة النفس

النفس: هي الذات الإنسانية التي تتشعب منها الروح والجسد، وفي اللغة النفس: هي ذات الشيء، فإنّك عندما تقول هذا نفس الشيء، فإنّك تقصد ذاته أو عينه، وعندما تطلب من عمر أنّ ينادي لك زيداً، فإنّك تريد زيداً بروحه وجسده، فلو مات زيدٌ في الأثناء لما تمكن عمر من مناداة جسده بمفرده ولا روحه بمفردها، لأنّ حقيقة نفس زيد نابعة من إتحاد جسده مع روحه.

ولقد ذهب العلماء الماضون إلى مذاهب متعددة في النفس، فمنهم من اعتبرها في الروح، ومنهم من عدّها هي الدم الذي يجري في العروق، ومنهم من قال أنّها هي القلب، ومنهم من وصفها بأنّها هي المزاج المتولّد من الأخلاط الأربعة في البدن، ومنهم من ألمح إلى أنّها الدماغ، ومنهم من اعتقد أنها الماء، ومنهم من ذهب إلى أنّها الحرارة الغريزية، وبعضهم اعتبرها صورة نوعيّة قائمة بمادة البدن.

ولقرب اتصال هذا الموضوع بعالم الغيب، فإننا نرى من الضروري الاعتماد على مصادره لحلّ هذا اللغز الذي تحير فيه العلماء مدةً تزيد على آلاف السنين، فلنعرض هذه المشكلة على القرآن الكريم ونستطلع رأيه في هذا المجال الحيوي والحساس من عالم المعرفة، فنلقي نظرة على الآيات التي تتحدث عن عالم النفس.

سنجد أنّ معظم الآيات القرآنية التي أتت فيها كلمة النفس إستهدفت معنى الذات البشرية، وقليل منها أشار إلى الروح فقط أو إلى البدن، لكنّ أغلبها تطرق إلى معنى الذات الإنسانية، ومنها هذه الآيات:

١ - ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾[١] فالتكليف لا يقع إلاّ على الذات الكاملة، فمن الروح الحثّ على أداء الفعل ومن البدن السعي.

٢ - ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[٢] وثواب ما تكسبه النفس يقع على الروح والجسد، لأنّ الروح تتألم بالنار عن طريق الجسد.

٣ - ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[٣] فالرّوح تذوق ألم نزعها وإنتقالها للعالم العلوي عن الجسد، والبدن يموت بتفسخه.

٤ - ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ﴾[٤] فالقصاص لا يُجرى بحق بدن القاتل فقط ولا من روحه فحسب، بل من كليهما، وعندما يعدمون الجسد، فإنّ هدفهم هو نزع الروح منه.

٥ - ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾[٥] فالرّوح تتحدث عبر العقل، والبدن ينطق عبر اللسان.

٦ - ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾[٦] بدأ الخلق بتسوية البدن، ثمّ نفخ الروح فيه، وكذلك يكون البعث.

٧ - ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨﴾[٧] التسوية للبدن والإلهام للرّوح.

٨ - ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾[٨] القراءة تكون من جانب البدن، والمحاسبة من جانب العقل والرّوح.

٩ - ﴿قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾[٩] لو قلنا أن النفس شيءٌ كالرّوح، فإنّ ماهيتها ستكون من ماهية الباري عزّ وجلّ، لأنّ الله سبحانه وتعالى وكما في الآية يُبيّن أنّ له نفساً، تشبه نفس الإنسان، وهذا كلامٌ باطل والشرك فيه واضح، والمراد بالنفس الإلّهية في الآية الكريمة هي الذات المدسّة للباري عزّ وجلّ، كما أنّ المقصود بالنفس

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٣٣.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٨١.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٨٥.
(٤) سورة المائدة، الآية: ٤٥.
(٥) سورة النحل، الآية: ١١١.
(٦) سورة لقمان، الآية: ٢٨.
(٧) سورة الشمس، الآية: ٧ - ٨.
(٨) سورة الإسراء، الآية: ١٤.
(٩) سورة الأنعام، الآية: ١٢.

البشرية هي الذات الإنسانية، فنفس الله هي ذاته المقدّسة، ونفس الإنسان هي ذاته البشرية.

١٠ - ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾[١] الأسرار في القلب والبوح بها عن طريق اللسان.

١١ - ﴿قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾[٢] النفع والضرر يصيبان البدن والرّوح على حدٍ سواء.

١٢ - ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧﴾[٣] اتصالٌ للأبدان والتقاءٌ للأرواح.

١٣ - ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ﴾[٤] الإرهاق للبدن والملل للروح.

١٤ - ﴿قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾[٥] فالنار تُحرق البدن وتتألم الروح من ذلك، ولو كانت الرّوح منفكة عن الجسد لِما كانت قد تألمت أو أحترقت بالنّار، لأنّ الأرواح لا تحترق بهذه النيران.

١٥ - ﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً﴾[٦] فجهاد النفس على نوعين: جهاد الروح والعقل ضد الأهواء الشيطانية، وجهاد البدن عبر القتال في سبيل الله.

١٦ - ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾[٧] لو كانت النفس شيئاً نظير الرّوح، فما علاقة ذلك الشيء بانتظار المرأة المطلقة ثلاثة قروء؟ إلى هذا يؤكد أنّ النفس المقصودة هي الذات البشرية، وهذه الآيات هي غيض من فيض كثير، أوضح فيه الباري عزّ وجلّ أنّ النفس البشرية هي الذات الإنسانية المتكونة من الروح والبدن، ولو أردنا لأكتفينا ﴿فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾[٨] كدليل ناصع وحجة دامغة، ولو كانت النفس جوهراً مشابهاً للرّوح، فأين تذهب إذن عند خروج الرّوح من البدن؟ فلقد تظافرت الأدلة على أنّ الذي يخرج من الإنسان هي روح واحدة لا أكثر ولا أقل!.

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٧٧.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٨٨.
(٣) سورة التكوير، الآية: ٧.
(٤) سورة النحل، الآية: ٧.
(٥) سورة التحريم، الآية: ٦.
(٦) سورة النساء، الآية: ٩٥.
(٧) سورة البقرة، الآية: ٢٢٨.
(٨) سورة الأنعام، الآية: ٥٤.

من خلال هذا البحث حول حقيقة النفس والتي استعرضنا فيه ما ورد في القرآن الكريم من آيات، والتي توصلنا من خلالها إلى أنّ كلمة النفس تعني الذات البشرية.

هذا وقد أشار العلاّمة المجلسي قدس سره في البحار إلى آراء العلماء والحكماء في هذا الخصوص حيث ذكر قدس سره في موضوع النفس ما يلي:

اسم النفس مشترك بالإشتراك اللفظي بين معانٍ:

منها ذات الشيء (فعل ذلك بنفسه)،

ومنها الأنفة (ليس لفلان نفس)،

ومنها الإرادة (نفس فلان في كذا)،

ومنها العين قال ابن القيس:

[البحر الخفيف]

يتّقي أهلُها النفوسَ عليها فعلى نحرِها الرُّقى والتميمُ

قال الإمام علي عليه السلام: «**من عرف نفسه فقد عرف ربّه**»[1].

قال بعض العلماء: الرّوح لطيفة لاهوتية في صفة ناستوتية، دالّة من عشرة أوجه على وحدانيّة ربّانية:

١ - لمّا حرّكت الهيكل ودبرته علمنا أنه لا بدّ للعالم من محرك ومدبّر.

٢ - دلّ وحدتها على وحدته.

٣ - دلّ تحريكها للجسد على قدرته.

٤ - دلّ إطلاعها على ما في الجسد على علمه.

٥ - دلّ استواؤها إلى الأعضاء على استوائه إلى خلقه.

٦ - دلّ تقدمها عليه وبقاؤها بعده على أزله وأبده.

٧ - دلّ عدم العلم بكيفيتها على عدم الإحاطة به.

٨ - دلّ عدم العلم بمحلها من الجسد على عدم أينيته.

٩ - دلّ عدم مسها على امتناع مسّه.

١٠ - دلّ عدم إبصارها على استحالة رؤيته.

---

(١) غرر الحكم ودرر الكلم: ٢/ ١٦٤/ح٣٠١.

يظهر لدينا نظاماً نفسياً لحل مفردةٍ من مفرداته تؤثر في الأخرى بشكل موجب أو سالب، فصفة الحسد مثلاً تجلب الحقد كما نقرأ ذلك في غرر الحكم للإمام علي عليه السلام : «**الحقد شيمة الحسدة**»(١) وبعد أيضاً أن هناك صفاتاً حسنة تمنع صفات سيئة، فمن كانت صفته الكرم فإنه يعدم الحقد في نفسه، كما بين ذلك الإمام علي عليه السلام إذ قال: «**لا يكون الكريم حقوداً**»(٢).

وأيضاً نجد أنّ عادة الفضول تلازم الأحمق، كما في حديث الإمام علي عليه السلام : «**الحُمق يوجب الفضول**»(٣).

وهكذا نجد أنّ صفات الخير والشر تستدعي صفات وعاداتٍ من سنخها، وهو ما يؤكد لنا وجود نظام محصنٍ للنفس، فإذا اخترت فيروس أو مكروب نفسي داخل هذا النظام فإنّه سيضرب عدة مناطق فيه ولا يكتفي بمنطقةٍ واحدةٍ دون أخرى.

◎ النفس أمّارة أم مطيعة؟

ثار جدلٌ طويل عريض بين العلماء حول لمن الأفضلية: للإنسان أم للملائكة؟ فبعضهم ذهب إلى أنّ الملائكة هم أفضل خلق الله بسبب طاعتهم وعدم مخالفتهم لأمر الله بينما الإنسان يذنب مرة ويطيع أخرى، واحتج آخرون بأنّ الإنسان لولا وسوسة الشياطين لعبد الله وأطاعه ولم يعصه في شيء كما تفعل الملائكة، وفي وسط هذه المعمعة يبرز حديث الإمام علي عليه السلام في الرواية التالية: «**عن عبد الله بن سنان، قال: سألت أبا عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام فقلت: الملائكة أفضل أم بنو آدم؟**

فقال: قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام : **إنّ الله عزّ وجلّ ركّب في الملائكة عقلاً بلا شهوة، وركب في البهائم شهوة بلا عقل، وركّب في بني آدم كلتيهما، فمن غلب عقله شهوته، فهو خير من الملائكة، ومن غلبت شهوته عقله فهو شرٌّ من البهائم**»(٤).

فالإنسان المؤمن وفق هذا الحديث هو أفضل من الملك، ويُثاب على أعماله بالجزاء الأوفى بالجنة، ويتنعم بدنه ونفسه وروحه وعقله بنعيم أبدي، وهنا نسأل ونقول إذا كانت النفس أمارة بالسوء وأنّها سبب ابتلائه، وهي التي توردِه في مهاوي الذنوب، كيف يمكن لهذه النفس التي كلها شرّ أن تتنعم في الجنّة؟.

---

(١) غرر الحكم ودرر الكلم: ١/ ٢٧/ ح٤٧٧.
(٢) المصدر نفسه ٢/ ٣٤٨/ ح١٣٠.
(٣) المصدر نفسه ١/ ٤٦/ ح٩٧٩.
(٤) بحار الأنوار: ٥٧/ ٢٩٩.

إنّ هذا السؤال بحد ذاته يكشف أنّ النفس الأمارة بالسوء هي إحدى الحالات التي يمكن أنّ تكون عليها النفس، لأنّه إذا قلنا أنّ نفس الإنسان أو ذاته تأمره بفعل السوء إذن هو مجبر على فعل السيئات ونتيجة لذلك يسقط الثواب والعقاب، لأنّ الإنسان مجبر على فعل السيئات وذلك بسبب النفس الأمّارة، بينما لدينا أحاديث أخرى تُبين وتؤكد أنّ النفس جوهرة ثمينة. مثل هذا الحديث المنقول عن الإمام علي عليه السلام: «**إنّ النفس لجوهرة ثمينة من صانها رفعها، ومن ابتذلها وضعها**»(١) فإذا كانت النفس سيئة بل هي أمّ الشرور أو كما وصفها بأنها الأمّارة بالسوء فكيف تصبح جوهرة ثمينة؟.

فإذا قلنا بأنها أمّ السيئات وهي شريرة على الدوام إذن ينبغي أن تُلقى في نهاية المطاف في نار جهنم؟ لأنّ الذي يتطاول على الله ويأمر بعصيانه لا يستحق الجنّة!.

ونحن لا نريد هنا تنزيه النفس عن الخطايا فهذا خلاف ما ذهب إليه القرآن وخاصة في الآية الكريمة: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾(٢).

ولكننا نريد التأكيد أنّ الأمر بالسوء هي حالة من حالات النفس وهي ليست ثابتة أو جبرية، لأنّ الإنسان يستطيع أنّ يمسك زمام رغبات النفس وأهوائها بقيادة العقل، وعلى أثر ذلك تكون هذه النفس عزيزة وكريمة عند الله كما في الحديث الشريف عن الإمام علي عليه السلام: «**ليس على وجه الأرض أكرم على الله سبحانه من النفس المطيعة لأمره**»(٣) فإذا قلنا أنّ النفس هي أمّ السيئات وأمّ الشرور فكيف تكون هذه النفس مطيعة؟ فمعنى الأمارّة بالسوء هنا هو أنها تميل نحو الأهواء والرغبات مشروعة كانت أم غير مشروعة.

وقد وضع الله سبحانه وتعالى في مقابل ميلانها هذا نحو السيئات. وضع العقل لكي تتحقق العدالة ويمسك العقل بزمام النفس، فالعقل يردع الأهواء من التحكم في مقدرات النفس. ونقرأ في القرآن الكريم: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾(٤) وفي تفسير هاتين الآيتين جاء عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام أنهما قالا: بيّن لها ما تأتي وما تترك. فإذا كانت النفس سيئة وشريرة فما ضرورة أنّ يبين لها ما تأتي

---

(١) غرر الحكم ودرر الكلم: ١/ ٢٢١/ح١١٨.
(٢) سورة يوسف: ٥٣.
(٣) غرر الحكم ودرر الكلم: ٢/ ١٣٧/ح٧٩.
(٤) سورة الشمس، الآيتان: ٧، ٨.

وما تترك أو يكشف لها طريق التقوى والفجور ما ادمت هي ملازمة للطريق المعوج؟ إذن هي مختارة بين أنّ تنقاد إلى رغبات نصفها الأرضي والمادي أو تتبع نصفها الثاني وهو العقلي الروحاني، فالفجور من الأول والتقوى من الثاني.

◎ طبائع النفس

ومن طبع النفوس أنّها خُلقت (طليقة) حرّة في تفكيرها مخيرةً في تصرفاتها تفعل ما تشاء، وإذا فسح المرء المجال لها فإنّها ستأخذه إلى فضاء لا محطة فيه، فهي تطير بأجنحة خيالها إلى آخر العالم غير خائفة ولا وجلة مما يعترضها ولا تفكر بعاقبة أمرها، فخيالها غير محدود وهي حرةً في الدخول في كافة الموضوعات المحظورة، وهي على الرغم من عجزها عن الوصول إلى تلك الحقائق إلاّ أنها تقتحم أبواب الخيال المغلقة برسم لوحةٍ جميلةٍ أو قبيحةٍ على تلك الحقيقة المتخيلة، والنفس تقود الإنسان إلى فعل كل ما لا يخطر على باله وكل ما لم يفكر بفعله في يوم من الأيام، فالإنسان الذي يعتقد بسوء فعل في أحد أيّامه تجدهُ في يوم آخر يقوم بذلك الفعل ليس لأنّ السيء أصبح حسناً ولكن النفس جوزت فعل السيئات ولجمت لسان العقل عن النطق في ذمها أو في انتقادها. ومما ورد في السنّة الشريفة، عن الإمام علي عليه السلام قوله: **«النفوس طلقة ولكن أيدي العقول تمسك أعنّتها عن النّحوس»**[1].

وفي حديث ثانٍ قال الإمام علي عليه السلام: **«العلم قائد، والعمل سائق، والنفس حرون»**[2] والحرون: نوع من الخيل صعب الركوب، فالنفس طلقة ولا تنقاد بسهولة لصاحبها.

ومن طبع النفس أنّها تبقى شابة على الرغم من تقادم العمر، وكبر السن، ووهن البدن. وأول من أشار إلى هذه الحقيقة هو الدين، فهناك بعض الأحاديث المنقولة عن رسول الله صلى الله عليه وآله: تبين ذلك ومنها:

«نفس ابن آدم شابة ولو التقت ترقوتاه من الكبر، إلاّ من امتحن الله قلبه للتقوى وقليل ما هم»[3].

---

(١) غرر الحكم ودرر الكلم: ١/ ١٠٩/ح٢٠٧٠.

(٢) بحار الأنوار: ٧٥/ ٤٥.

(٣) كنز العمال: ٣/ ٩٧/ح٥٦٧١.

وفي حديث آخر، قال الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «**قلب الشيخ شاب في حب اثنتين: في حب الحياة وكثرة المال**»[١] ونحن نجد أنّ كبار السن تضعف أبدانهم وتنحل قواهم البدنيّة إلاّ أن رغباتهم وطموحاتهم وآمالهم وأهواءهم تبقى على قوتها وشبابها، لذلك لا عجب أن تشاهد في الحياة شيخاً عجوزاً يتصابى ويتصرف كما يفعل الشباب، وأنّ نفسه تميل للأشياء كما تميل نفوس الشباب وأشد في أحيان.

ومثلما كل شيء يميل إلى ما يحب ويهوى، فإنّ النفس أيضاً بطبعها ميالةً إلى ما تهوى وتحب، ولكنها أميل نحو الجانب الأرضي والمادي وهو ما يتضارب مع الجانب العقلي من ذاتها، لأنّ أهواء النفس التي تأتي أيضاً من جانب الأفكار السلبية فإنّها غير محدودة، وقد تقود الإنسان إلى خاتمة لا تحمد عقباها، وهنا نجد توصيات دينية وأخرى عقليّة بضرورة مراقبة الإنسان لنفسه لكي لا تأخذ بيده إلى طريق شاذ، فإنّ أكثر الشاذين في المجتمعات العربيّة والغربية هم من أولئك الذين تركوا قياد أمرهم لأهواء أنفسهم تجرهم إلى طريق اللذة وهو طريق الهلكة.

وللنفس عادات ضارية فإذا تحكمت فلن يسهل بعد ذلك تركها، فيكون المرء عبداً مطيعاً لعاداته لا يستطيع مخالفتها ولا الخروج عن دائرتها، لأنّها استحكمت في ذاته وتمكنت من إرادته، وعلى الرغم من معرفته بضررها النفسي والبدني إلاّ أنه يستمر عليها وذلك لقوّة سيطرتها على نفسه، فقبل أنّ يسقط المرء بين مخالب هذه العادات عليه أنّ يتوخى الحذر ويحسب ألف حساب لكل خطورة يخطوها.

وفي حديث للإمام علي عليه السلام: «**أيّها الناس تولوا من أنفسكم تأديبها، واعدلوا بها عن ضراوة عاداتها**»[٢].

وتميلُ النفس أيضاً إلى اللعب واللهو والإنفعالات من عالم الواقع والمثاليات، فأصعب ما يكون على المرء هو عندما يفكر في واقعه المؤلم دون أنّ يجد حلاً لمعضلاته، أو عندما يجد المفارقة بين عالم المثاليات وعالمه الواقعي الذي لا يستطيع أنّ يفتخر به، وبدل أنّ يرهق المرء رأسه بالتفكير وقد يصيبه الدوّار بعد ذلك، فإنّه أميل إلى ترك الأمور على عواهنها ليتخذ طريق اللعب واللهو، ويتناسى واقعه المؤلم ويهرب من المثاليات التي يؤمن بها.

---

(١) سنن ابن ماجة: ٢/ ١٤١٥/ ح٤٣٣٣.
(٢) نهج البلاغة: الحكمة ٣٥٩/ ٥٣٨.

وتحثه على تغيير واقعه، فلكل إنسان سببٌ في نزوعه إلى اللهو واللعب، ولكن السبب الرئيسي المشترك فيما بينهم هو الهروب من الواقع، فعندما تسأل شارب الخمر لماذا يفعل ذلك؟ يقول لك: من أجل الهروب من المشاكل ونسيان المصائب، وهو لا يدري بفعله هذا أنه لم يعالج مشكلته فحسب بل أضاف عليها مشكلة جديدة.

وبالطبع إنّ من يكرس عمره للعب واللهو لا يملك الفرصة المناسبة لتعليم نفسه وتأديبها بل ستقوده حالته تلك إلى حيث الغفلة والسهو، فهو مشغول عن عالم الواقع بخيالات وأوهام لا طائل منها، وهو أيضاً غافلٌ عن حقيقة وجوده وجدوى حياته وهدف بقائه، وهو يتصرف بعبثية تامة من دون حسيب أو رقيب، فهو لذلك جاهلٌ لموقعيته في الحياة وغافلٌ عن أداء تكليفه، وهو لا يخرج من محطة غفلة حتى يسارع إلى أخرى.

والنفس بطبعها تميل إلى الخطيئة وذلك بفعل الهوى ووسواس الشيطان، وتسرعُ في الطريق إليه متخطية الحواجز والعثرات غير آبهة بالمخاطر، وهي تفسح للعقل بالحجج والمبررات كي لا يعترض على سلوكها، ولكنها ترغبهُ باللذة والشهوة كي يتجاوز عن خطئها.

والنفس تأخذ من الدنيا صفتها، فهي تنظر إلى الأمور بمنظار مادي حسي، ذلك فما يكون أقربُ إلى حسّها فهو الأقرب إلى وجودها، وهو الأدنى من فهمها وإنّ كان مخالفاً للعقل، بينما هي تستبعد حقائق الغيب وإنّ كانت قريبة إلى العقل والفطرة، فهي لا تأخذ بما هو عقلي بل بما هو حسي، لأنّ الذي تحسّه أقرب إلى فهمها وإدراكها، لذلك فإنّ من طبيعة النفس أنّها طويلة الأمل، وذلك لأنّها تأخذ بالقريب العاجل وتترك البعيد الذي قد يحلّ في أي وقت من الأوقات. فالعقل يأمر بالاستعداد للموت والنفس تخالف ذلك وتقول: أنّ هناك أملاً بالبقاء أطول وأكثر، وهذا الأمل نابع من الطبيعة الدينوية الحسّة التي يكون فيها الإنسان منشغل الذهن بالعالم الحسّي دون العالم العقلي، فلكثرة إنشغالاته بذلك العالم تجده ينزعج عندما تثار أمامه مسألة هي الأكثر واقعية في الحياة وهي (مسألة الموت).

وهنا نصل إلى فكرةٍ مفادها أنّ الإنسان بعيد عن الحق بمقدار بعده عن العالم العقلي.

ومن طبع النفس أنّها قليلة الصبر في مواجهة المشاكل والآلام والمصائب، كثيرة التأفف والتأوه، فكلما دخل صاحبها في عسر أذلتهُ بكثرة التوجع والتألم، وقادته من

أجل لذاتها وشهواتها إلى طريق لا يرغب فيه. فهي لا تطيق قليلاً من العسر، فإنّ أصابها فقر جزعت وتململت وحرضت صاحبها على اقتحام الممنوع، وإنّ أصابتها مصيبة بكت ونحبت وتألمت كثيراً.

فهي غير قنوعة ترغب بالكثير وتأبى بالقليل، فإذا أصابت لذةً أو شهوةً فإنها لا ترضى باليسير من ذلك وإنّما ستسعى لتحصيل المزيد، فلا يحدها الطمع عند حدود معينة ولا يوقفها الأمل عن الاسترسال في جني الأهواء واللذات، فالنفس تتعجل قطف ثمار العمر قبل نفاذه، وهي توسوس للمرء بأنّك إنّ لم تجمع الكثير من المال فقد تصاب بنكسة أو أنّ الفقر سيهجم عليك فيأكل لحمك وعظمك، وهكذا يصاب المرء بالهلع والخوف نتيجة فكرة كسب المزيد من المال والثروة لكي تدفع عن نفسه شر الفقر، وهكذا يبقى هذا الكابوس يعذب الإنسان طيلة عمره، فلا هو الذي سعد بأمواله وثرواته ولا هي فسحت له المجال كي يفكر بشؤونه وأمواله وينقذ ما أمكن إنقاذه، فكروا للحظة بوضع شخصين أحدهما مليونيراً لديه مخاوف دائمية من ضياع أمواله ورجلٌ فقير مقتنعٌ بما قسمه الله له من رزق. من هو الأكثر بينهما شعوراً بالإطمئنان؟.

◎ حالات النفس البشريّة

تتقلب النفس البشرية بين ثلاث حالات رئيسية:

الحالة الأولى: هي النفس الأمّارة بالسوء.

الحالة الثانية: هي النفس اللوّامة.

الحالة الثالثة: هي النفس المطمئنة.

وما من إنسان في هذه الدنيا إلاّ وينتمي إلى واحدة من هذه الفئات الثلاث.

فعلامة الإنسان الأول: هو أنّ يجعل عقله في خدمة أهوائه وشهواته فهو يتبع الجهل.

وأما علامة الثاني: فهو يخطىء ويصيب ويميل نحو العقل مرة وأخرى نحو الهوى.

وأما علامة الثالث: فهو الذي أخضع رغباته وشهواته لقيادة العقل.

ويمكن أنّ نستفيد من هذا التصنيف في مجالات متعددة ومختلفة، ففي مجال علم الجريمة فإنّ الفئة الأولى هي الأكثر عُرضة لإرتكاب المخالفات القانونية، وذلك لأنّ من يُخضع العقل للرغبة واللذّة فقد يرتكب أيّة حماقة في سبيل تحقيق تلك الرغبة.

والتغيير يحدث لدى الناس على الرغم من تشابه ذواتهم، ذلك لأنّ درجة ميولهم ورغباتهم ومستوى استجابتهم لتلك الميول والرغبات متفاوتة بين فردٍ وآخر، وعلى هذا الأساس يختلف الناس بعضهم عن البعض الآخر، فمنهم من تكون رغباته شديدة إلى الحدّ الذي يعجز عن مقاومتها، بينما نجد أنّ شخصاً آخر تكون رغبته الجنسية مثلاً أقل حرارةً من الشخص السابق، فإنّ مستوى استجابة الفرد الأول للحاجة تختلف بطبيعة الحال عن مستوى استجابة الثاني، وبالطبع فإنّ هذه الوضعية كلها تنعكس سلباً أو إيجاباً على الحالة النفسية للشخص، وقد يأتي أحدهم ويقول: لا يجوز لأحد أنّ يحاسبني على تلبية حاجات غريزتي الجنسية، أولاً: لأنّها تمثل حاجة فطريّة، وثانياً: لا أستطيع مقاومتها وذلك بسبب شدّتها وقوّتها! وهذا كلامٌ باطل!.

لأنّه مع إيماننا بأنّ الغريزة الجنسيّة هي حاجة فطريّة لدى الإنسان، وأنّه يجب أن يلبي المرء هذه الحاجة بالصورة المشروعة، فإننا نؤمن أيضاً بأنّ لدى الإنسان القدرة على التحكم بقوة وضعف هذه الغريزة وباقي الغرائز الأخرى أيضاً، لأنّ من يثير حواسه الظاهرية والباطنيّة بأنواع من المهيّجات لهذه الغريزة فإنّه يساعد على تأججها ويقظتها، وعلى عكس ذلك يفعل من يغض الطرف عن المثيرات الحسيّة، وعندما يصل المرتاض (باليوغا) وغيرها إلى درجة التحكم العقلي بدورته الدموية وبمستويات ضربات قلبه كيف لا يستطيع التحكم بأحدى غرائزه؟ وعندما نشاهد كيف أنّ الإنسان الصائم يتحكم بغريزة الجوع لديه وهي واحدة من أقوى الغرائز لدى الإنسان، كما اعتبرها الكثير من علماء النفس، ندرك أنّه يمكن السيطرة على هذه الغرائز.

من هنا نصل إلى أنّ لكل فرد من أفراد البشرية طريقته الخاصة في التعامل مع المثيرات الحسيّة، وبمقدار تعدد هذه الطرائق بنفس المقدار، هناك اختلاف بين أبناء البشر في كفاءاتهم الشخصيّة وقدراتهم العقلية واستجاباتهم الغريزية، إلاّ أنّ العقيدة الإسلامية وضعت أمامنا تصنيفاً كُلياً في هذا المجال، وهو يضم كافة الاختلافات الإنسانية، ويحددها في إطار وصفٍ دقيق لحالات النفس وإنفعالاتها تجاه المؤثرات الحسيّة الداخلية والخارجية، وهذه الحالات هي:

١ - حالة انقياد النفس للهوى (وهي الأمّارة بالسوء).

٢ - حالة تذبذب النفس بين العقل والهوى (وهي اللّوامة).

٣ - حالة إنقياد النفس للعقل (وهي المطمئنة).

◎ أولاً: النفس الأمّارة بالسوء

النفس تتأثر بمحيطين:

محيط العالم الخارجي ومحيط العالم الداخلي، ففي محيط عالم النفس الداخلي.

هناك وقائع كُبرى تحدث كل يوم في أعماق النفس البشرية والكثير من الناس عنها غافلون، ولا يشعرون بالحرب التي تقع بين جنود العقل وجنود الهوى داخل قلوبهم، وهم لذلك في غفلة عن أمرهم وعن معرفة أنفسهم على حقيقتها وإدراك ما حولها، ولعلّ ما يزيد من هذا الغموض هو تقمص الهوى لرداء العقل والصلاح، فالنفس لهذا السبب لا تشعر بوجود التناقض الداخلي والصراع الأبدي الذي يستمر مع الإنسان إلى آخر يوم من حياته.

والأنسان أنانيٌ بطبعه لذلك فمن الطبيعي أنّ ينقاد إلى غرائزه وشهواته لأنّ في تلبيتها تحقيق للأنانية، وحتى العقائد السماوية لم تلغ دور الغرائز في الحياة وتأثيرها على شخصية الإنسان وحتى العقائد عندما شوقت الأنسان إلى فعل الخيرات والصالحات، فإنّها ربطت ذلك بثواب كبير يحصل عليه المرء بعد أدائه للفعل الحسن، ونحن نعرف بأنّ الثواب السماوي المذكور قد تعلّق أولاً بتلبية غرائز الإنسان وشهواته وأهوائه، وقد تم تصوير ذلك في القرآن الكريم وفي الكتب السماوية وما ينتظر الإنسان المؤمن من لذات في الدنيا محرماً بينما في الجنة ثواباً؟

المشكلة هي أنّ اللذات في الدنيا محدودة وقدرات الأنسان على تحقيقها هي أيضاً محدودة، كما أنّ طرق تلبيتها صعبة للغاية، والمفروض أنّه مع هذه الوضعية المتأزمة كلها ينبغي أنّ يسلك الإنسان طريق الحق والعدل لتحقيق تلك اللذات من دون الإعتداء على حقوق الآخرين، لأنّ جميع البشر هم في المواقع يتنافسون على تحقيق اللذة، فإذا لجأ المرء إلى أسلوب غير شرعي لتحصيلها فإنّه قد تعدّى على حق إنسان آخر، فالمنافسة ينبغي أنّ تكون شريفة وعادلة وعلى مقتضى قوانين واضحة، تُنظّم طرق استغلال اللذات المحدودة بشكل يرضي العقل ويرضي الغريزة في نفس الوقت.

وذلك لأنّ هناك من لديه المال الوفير وهو محروم من لذّة أخرى كالراحة أو السلامة، وآخر يحصل على مقدار هائل من لذة الأكل والطّعام لكنه يعجز عن توفير اللذة الجنسية، وقد يكون الحرمان بسبب خللٍ بدني أو بسبب عجزه عن تحصيل اللذة بالطرق الشرعية، وهنا قد يتوسل المرء إلى الطرق غير الشرعية لتحقيق الرغبة، على

الرغم من مخالفة ذلك للعقل وللنظام العام، وعندما يصل الأنسان إلى هذا المستوى يصبح مقوداً من قبل هواه وهذا هو حالة(النفس الأمّارة بالسوء). وقد تطرقنا في مقدمة موضوع الإصلاح النفسي إلى بعض خصائص النفس الأمّارة بالسوء بتفصيل أكثر.

◎ ثانياً: النفس اللّوامة

في إطار الصراع بين الهوى والعقل للإستيلاء على القلب تظهر في الوسط قوة سيستخدما كل من العقل والهوى أحسن استخدام في سبيل تحقيق غاياتهما، وهذه القوة هي قوة(النفس اللوامة) وعملها يقوم على أساس تقويم العون لقائدها العقل أو الهوى، وذلك لبسط نفوذه الكامل على القلب، ولأنّ أسلوب عملها وطريقتها واحدة إنّ كانت تعمل لحساب العقل أو إلى جانب الهوى، لذلك نحن جعلناها قوةً متفردةً ويمكن تجزئتها والفصل بين تلك المساندة للعقل والأخرى المساندة للهوى، لكن طبيعة عملها في الحالتين متشابهة أنها تقوم بمحاسبة المرء وتلومه على سلوكه وتصرفاته.

فإذا كان الهوى مسيطراً على القلب وبّخ الإنسان على فعل الخير وتضييع فرصة الشهوة واللذّة، بينما لو كان العقل هو المتحكم بالقلب فهو الذي سيوبّخ المرء على فعل السيئات.

فالنفس اللّوامة إذن تقف في موقع الوسط ما بين التحولات النفسيّة وقلما تجد من الناس من لم يشهد مثل هذه التحولات في داخله، فهذه التحولات قد تكون جزئية وآنية بمعنى أن يتحول المرء من سلوك سيء إلى سلوك حسن، أن تكون تحولات كلية بمعنى أنّ يكون التغيير شاملاً من الكفر إلى الإيمان، أو من الفسق إلى التقوى بالعكس، وهي تحولات تقع على عقائد الإنسان الراسخة في قلبه، وعند وقوع مثل هذه التحولات الكليّة أو الجزئية تبدأ النفس اللّوامة بعملها الشاق، فهي تلوم الإنسان على أفعاله السابقة وتؤنبه على سلوكه الماضي، وهي تفعل ذلك من أجل ترسيخ التحول الجديد الذي حدث في داخله لا فرق أنّ تكون مطيعة للهوى أو للعقل، فإنها تستخدم نفس الأسلوب في الملامة من أجل تثبيت التغيير الجديد، ولا يتخلص عمل هذه النفس بما ذكرنا فقط بل هي تقوم أيضاً بمحاسبة المرء على سلوكه وتصرّفاته التي تخالف التغيير الجديد الذي حصل في داخله حتى تمنعه من الأنجرار وراء القوة المعادية لها.

وما من عمل يقوم به الإنسان إلاّ ويحس بتشجيع أو تأنيب في داخله، فإذا كان

العمل حسناً صدر التشجيع من جانب العقل والتأنيب من جانب الهوى والعكس بالعكس، ومن ذلك يتبين أنّ النفس اللّوامة هي بالأساس قوّة يستخدمها كل من العقل والهوى في سبيل تثبيت سلطتهما على القلب، فتصبح سمة الذات البشرية، لذلك نجد المرء فيها متردداً بين العقل والهوى، فمثلما يقوم العقل بإرشاد الإنسان، ويقوم الهوى بدور الوسوسة قبل تنفيذ المرء للفعل، نجد أنّ النفس اللّوامة أو المحاسبة تتدخل عقب القيام بالفعل وتستخدم التوبيخ كوسيلة لمنع تكرار الفعل.

وتصور علماء النفس خطأ أنّ هناك قوةً تابعة للعقل تقوم بمحاسبة المرء على فعل السيّئات وأطلقوا عليها(تأنيب الضمير)، بينما القوّة التي تلوم الإنسان وتحاسبه لا تأتي من جانب العقل فقط كما بيّنا، وأنها لا تختص بالمحاسبة على الأفعال السيئة بل هي تشمل اللوم على الأفعال الحسنة أيضاً، وذلك إذا كانت الملامة صادرة من جانب الهوى.

فالنفس اللوّامة تقف في الوسط ما بين النفس المطمئنة والنفس الأمّارة بالسوء، فهي تلوم على الخير وعلى الشرّ، وقد جاء ذكرها في القرآن الكريم: ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾[1] وقيل: أنّها ستلوم الإنسان يوم القيامة على ما قدّم من أعمال، فإنّ كان مؤمناً تلومه على قلة عمله، وإنّ كان كافراً فإنّها تلومه على أفعاله السيئة.

◎ ثالثاً: النفس المطمئنّة

لقد بحث العلماء منذ قديم الأيام عن إكسير السعادة، وفتّشوا عنه في كلّ كهفٍ ومغارة، ونبشوا عن هذه الكلمة بين لغات الماجنيين وحروفهم المسمارية لعلهم يجدون المعنى الحقيقي لها، أو لعلهم يتوصلون إلى تعريف مقنع يُفضي بهم إلى المعرفة الكاملة بما تنطوي عليه هذه الكلمة من خبايا وأسرار، ونقّبوا عنها أيضاً بين الكتب والأفكار فلم يعثروا على حقيقة واحدة هي: (السعادة جوهرة ثمينة يفتش عنها كلّ الناس ولا يجدونها).

ونحن أيضاً سنسعى بقدر إمكاناتنا الضئيلة أنّ نفتش عن هذه الجوهرة الثمينة، فنسأل أنفسنا أولاً ما هي السعادة؟ هل تعني خلو الحياة من المشاكل؟ أم تعني خلوها من الآلام؟ أو تعني خلوها من الأمراض؟ أم أنها تعني اكتساب القدرة والسلطة؟ أو

(١) سورة القيامة، الآية: ٢.

أنها جمع الثروات الطائلة؟ أو أنّها تعني اكتساب محبة الآخرين ومودتهم؟ أو أنها تعني مساعدة الآخرين والعطف على الضعفاء منهم؟ أو أنها تعني كسب رضا أفراد الأسرة والأقرباء؟ أو أنها تعني العيش بسلام وأمان؟ أو أنها تعني أنّ يحقق المرء كل أهدافه وطموحاته؟ أو أنّ يلبي كلّ رغباته وشهواته أم أنّ تحقيق كلّ هذه الأمور يعني السعادة؟.

بالطبع إنّ تحقيق كل هذه الأمور هو ما يصبو إليه كل إنسان ويتمناه، وهو بالضبط يعني السعادة ولكن بالله عليك من يستطيع تحقيق كلّ رغباته في هذه الدنيا؟.

فلنفترض أنّ هذا الإنسان قادر على حيازة كافة القدرات والرغبات والشهوات بما في ذلك الثروة والسلطة والوجاهة والعلم والقدرة البدنية والنفسية، بأنّ يكون معافى من جميع الأمراض البدنية والنفسية على طول خط الحياة، وهذا مستحيل! فلو افترضنا محالاً أنها تحققت فهل هذا يعني أنّ الإنسان حقق السعادة؟.

إنّ فكرة الخشية من الموت وحدها قادرة على تنغيص حياة ذلك الإنسان وتقلب حياته إلى جحيم وإنّ كان يحوز على كل تلك القدرات التي ذكرناها، ولنا أنّ نتتبع محدوديات الإنسان على الرغم من امتلاكه لقدرات واسعة، حتى رئيس أعظم دولة في العالم وهي الولايات المتحدة الأمريكية على الرغم من أنه يتمتع بأوسع القدرات إلاّ أنه يظل عاجزاً عن تحقيق رغبة صغيرة، وهي أنّ يسير في الشارع كباقي الناس من دون حماية أو رجال أمن وذلك خوفاً من تعرضه لعملية اغتيال، انظروا إلى أنّ حق السير في الشارع والركوب في الحافلات العامة هو حق يتمتع به أبسط إنسان في الولايات المتحدة نجد أنّه يعجز عن تحقيقه رئيس هذا البلد، ولو أراد هذا الرئيس القيام بنزهة في إحدى الحدائق العامة عليه توفير عشرات المسلحين لحمايته، لأنّه قلّ ما تجد في تاريخ الولايات المتحدة رئيساً لم يتعرض لمحاولة اغتيال فاشلة أو ناجحة، وهو ما يبين أنّ الإنسان حتى وإنّ حصل على أعلى القدرات فإنّه لا يستطيع أنّ يهرب من فكرة الموت.

ولنعد إلى ذلك الرجل الأسطوري الذي تيمتع بكافة القدرات الجبّارة ونسأله هل يتمكن من تحقيق كل رغباته وأمانيه؟ ولا بد أن نعرف أنّ رغبات الإنسان غير محدودة بالزمان والمكان والواقع، فقد يتخيل المرء شيئاً غير موجوداً على الكرة الأرضية ويود أن يحوز عليه!! فهل يستطيع ذلك الإنسان أنّ يلبي كل رغباته من هذا النوع؟.

بالطبع كلا. لأنّه مع ذلك لا بدّ أن تتوفر لديه قدرات خارقة لتحقيق تلك الرغبات

والأماني، وأنّ ما نشاهده في الأفلام السينمائية من تلك القدرات الهائلة التي يتمتع بها السحرة ما هي إلاّ مثالاً لرغبات الإنسان الكامنة في داخله بأنّ تكون القدرة لديه على فعل أي شيء، فكل واحد منا وفق هذا المعنى يريد أن يصبح ذلك الساحر العظيم الذي نشاهده في الأفلام.

مع العلم إننا كبشر فشلنا في تحقيق واحدة من أهم رغبات الإنسان، وهي المتعلقة (بالخلود في الحياة) والكثير من هؤلاء البشر على استعداد أنّ يتقبلوا كلّ منغصات الحياة الأخرى، كالمرض والفقر وغيرها مقابل الخلود في الحياة الدنيا، وليست أمنية الخلود هي الوحيدة التي يقف أمامها الإنسان عاجزاً بل هناك عدداً لا يحصى من الأماني تبقى عالقة في الخيال دون أن ترى الواقع، منها الأماني الروحية والنفسية، كتمني الأب أنّ تكون علاقته حسنة مع ابنه.

وكانوا قد سبقونا إلى القول (ليس كل ما يتمناه المرء يدركه) فإذا كانت الأماني هي حاجات مكبوتة في خيال الإنسان، فإنّ عجزه عن إدراكها دليل على عجزه عن تحقيق السعادة. فالسعادة إذن ليست من جنس الدنيا وإنّما هي صفة لجنّة الخلود، تلك الجنة التي فيها كلّ ما تشتهيه الأنفس وتلتذ به، وكلما لا يخطر على بال بشر وكلما يتمناه يجده حاضراً أمامه بلمح البصر، تلك الجنّة الخالدة والخالية من الآلام والمشاكل النفسية والأوجاع البدنية والأمراض، تلك الجنّة التي صفتها الأمن والطمأنينة والسلام، فلا تعب ولا شقاء ولا عذاب، ولا حزن ولا قلق ولا اكتئاب، تلك الجنّة التي لا تُنغص فيها فكرة الموت سعادة الإنسان كما في هذه الدنيا، فالسعادة على ما قلنا هي كلمة من كلمات عالم الآخرة، وهذا هو السبب بعينه في إخفاق العلماء عن الوصول إليها.

◎ متطلبات السعادة:

١ - الخلود.

٢ - امتلاك القدرة على فعل كلّ شيء بما في ذلك تحقيق الرغبات والشهوات.

٣ - امتلاك ناصية العلوم.

٤ - أنّ تُبنى العلاقات الإنسانية على أساس المحبّة والوئام.

٥ - تحقيق اللذة بعيداً عن المنغصات الفكرية والنفسية.

٦ - أن يكون المرء سالماً من جميع الأمراض البدنية والنفسية.

وما من واحدة من المتطلبات المذكورة متوفرة لشخصٍ ما في عالمنا هذا!!.

لا بدّ أنّ نبحث عن معنى آخر للسعادة، وهو المعنى الذي يتلائم مع هذه الحياة، ويتفق مع مشاكلهاوآلامها وأحزانها وتعاستها ومصائبها، المعنى الذي يأخذ بنظر الاعتبار كلّ مساوىء هذه الدنيا من آلام وأوجاع، المعنى الذي يجعل الإنسان يحافظ على شخصيته واتزانه العقلي والنفسي، وهو يواجه صور الحياة المرة كموت الأحبّة وآلام الأمراض بإرادة صلبة وقويّة، المعنى الذي يساعد الإنسان على العبور من كافة الأزمات والعقبات والصعاب وهو يظلُّ إنساناً كريماً عزيزاً، فإذا كان طبع هذه الدنيا الألم والوجع، فالطريقة الصحيحة ليست أنّ نضحك على هذا الإنسان ونكذب عليه وندّعي بأنّه لا وجود للألم كما تفعل الحضارة الحديثة التي تغذّي الإنسان البسيط بفكرة (الأفراط في اللّذات والشهوات) وعندما يتألم هذا الإنسان البسيط نتيجة افراطه بهذه اللذات، نجد أن هذه الحضارة بدل أنّ تقدم له العلاج تدعوه بشكل فاضح إلى الإدمان على المخدرات والمسكرات كحلٍ للتخفيف من آلامه... وهيهات!!.

بينما الفكرة الإسلامية تضع الإنسان أمام واقع حياته والآلام التي سيواجهها في هذا الطريق، إلاّ أنها في نفس الوقت تعطيه البرنامج الحيوي الذي يؤهله لتحمل كافة الآلام والأوجاع البدنية والنفسية وعوامل النقص الأخرى.

وليس المفروض بك أنّ تعمل كما يقول المتفائلون: (أضحك للدنيا تضحك لك) لأنّ هناك أوقاتاً يعجز فيها الإنسان عن الضحك مثلاً في حالة موت حبيب، وقد يعجز الإنسان عن الضحك لسنين طويلة نتيجة المشاكل التي يعاني منها، فالضحك هنا ليس دواءً لحل هذه المشاكل العويصة، وقد يتطلب الأمر على العكس من ذلك أنّ يبكي المرء لأنّ البكاء في كثير من الأحيان يساعد الإنسان على تفريغ الهموم والآلام الداخلية كما إنّه يُجلي القلب.

فالإسلام يربي الإنسان على كيفية مواجهة المشاكل والمصائب والآلام ويحثه على التحمل والصبر وينمّي لديه العزم والإرادة، أضف إلى ذلك أنّ فكرة الثواب بحد ذاتها تساعد الإنسان كثيراً على تحمّل المصائب والمشاكل الكبيرة، فإنّ ما يخفف عن الإنسان المتألم أنّ تقول له بأنّ جائزة كبيرة ستحصل عليها لو صبرت وتحملت الألم الذي في نفسك أو في جسدك، فهو سيصب تفكيره على تلك الجائزة والثواب ويتلهى

عن الألم الذي في داخله، أما لو قلت له بأنّك إدعو الله لعله يفكُّ معضلتك ويعينك في مشكلتك أو مرضك، فإنّ دعاءه سيقوّي الأمل في نفسه بإمكانية الشفاء إضافة إلى إنه سيساعده على تحمل الآلام.

وأما بالنسبة للبرنامج العملي فإنّ الإسلام يحث الإنسان على الحياة البسيطة غير المتكلفة، وهو بمعنى أنّ (لا تملكك الأشياء) وأنّ تكون لديك القدرة على مواجهة كلّ عناصر الضغط المحيطة بك داخلية كانت أو خارجية، فالمال يضغط عليك بأن تكون عبداً له وأنّ تعمل ليل نهار من أجل جمعه وتكديسه حتى ترى نفسك في النهاية أنك ضيّعت عمرك وأتلفته في جمع الأموال من دون أنّ تسعد به (وهو حال البخيل) والشهوة تضغط علليك بأنّ تكون عبداً لها، والأصدقاء يضغطون عليك بأنّ تخضع لرغباتهم، والمجتمع يضغط عليك بأنّ تنقاد لعرفه وتقاليده، وهكذا يجد المرء نفسه بين شبكة من الضغوط التي لو انقاد لواحدةٍ منها فإنها ستفقده إرادته على اتخاذ القرار السليم، لأنّ المرء إذا انقاد إلى شهوة حب المال فإنّ البخل سيحرمه من السعادة به، وإذا تحكمت شهوة الغضب فيه فإنّها ستُزيل الحكمة من تصرفاته، وإذا مال الإنسان للعرف السيء فإنّه سيظلم عقله.

إنّ عدم الخضوع لعوامل الضغط الداخلية والخارجية هو الذي ينمي شخصية الإنسان، ويمنحه الإتزان في الحياة، فمثل هذا الإنسان لا تتأثر مواقفه ولا تتغير حسب تقلب المصالح والأهواء، وأنّ الشهوات لا تعميه عن رؤية المعقول واللامعقول، وأنّه لا يسمح للغضب أنّ يعمي عينيه عن رؤية الحق الباطل، وأنّه لا يتنازل عن كرامته وعزّته من أجل بطنه، وأن لا يخضع قيمه روحية للذة الجسد والمادة، فهو يملك الأشياء إلاّ أنّها لا تملكه!.

وقد يسأل أحدهم ويقول: إنّ حياة هذا الإنسان مليئة بالصراع والمواجهة فأين السعادة في ذلك؟.

كما أسلفنا من ذي قبل فإنّه لا أحد في هذه الدنيا يمكن أنّ يمتلك كلّ شيء في أنّ واحد، وإنّ عدم امتلاك الأشياء هو بمثابة عدم تحقق السعادة، ولأنّ هذه الحياة مليئة بالمشاكل والآلام، وأنّ الطريق الصحيح ليس هو الهروب منها بل هو في موجهتها والتخفيف من حدّتها.

ويقل علماء النفس: أنّ ما ينغص على الإنسان حياته هي مجموعة من المخاوف

التي تتعلق بصلب حياته، فهذا الإنسان الضعيف لديه مخاوف من احتمال نضوب أمواله، فيعجز عن توفير لقمة العيش.

وذاك لديه مخاوف من علاقته مع زوجته وأولاده وأنّ هذه العلاقة إذا لم تكن سوية فإنها قد تؤدي إلى الإنفصال وتشتت العائلة.

وآخر لديه مخاوف من السراق والمجرمين.

وشخص آخر لديه مخاوف من احتمال فقدان وظيفته.

وآخر يخشى من الإصابة بالمرض أو يهجم عليه الموت.

وهكذا الإسلام يأتي ويضع حلاً لكلّ هذه المخاوف جملةً واحدة، ويعالجها داخل الإنسان وذلك من خلال برنامجه التربوي والسلوكي، وكذلك من خلال القاعدة التي ذكرناها: (ليس المهم أنّ تملك شيئاً بل المهم أنّ لا يملكك شيء).

فلو اعتقد المرء بأن الله هو رازقه فهو لن يهاب من نضوب ماله.

ومن كان سلوكه متّفقاً مع الأخلاق الإسلامية فلا يخاف على مصير أسرته من الضياع.

ومن كان يرى بأنّ الأمراض تذيب الذنوب والخطايا كما تذيب الشمس الجليد فإنّه سيصبر على الألم.

ومن كان عمله صالحاً ويرى أنّه مقبلٌ على حياة النعيم في الآخرة فإنّه لا يهاب الموت، بل ويقدم عليه بكلّ شجاعة واقتدار.

ولمّا يتجرد الإنسان من كلّ متعلقات الدنيا، فإنّه سيشعر باطمئنان كامل لأنّه تخلص من جميع هواجسه ومخاوفه وعالجها في اللاشعور. لذلك لا يوجد ما يضغط عليه ويزعج نفسه المطئنة المذكورة في القرآن الكريم ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾[1] وقد يتخيل بعض الناس أنّ المؤمنين هم الأكثر حاجةً لحالة الإطمئنان، بينما هي في الواقع حالةٌ يحتاجها جميع الناس خاصة في هذا الزمن الذي تتقاذف الإنسان أمواج الفتن والمحن تحيط به براكين الهواجس والمخاوف، فكلما تعقدت الحياة كانت ضغوطها متزايدة على هذا الإنسان، وكلما ارتفعت ناطحات السحاب كلما هو أصبح أصغر وأصغر، وكأن المفروض أنّ

---

(١) سورة الفجر، الآيات: ٢٧-٣٠.

يكون الإنسان خادم هذه الآلة العظيمة وليس هي التي تخدمه، وقد يتحول هذا الإنسان الذي خُلقت السماوات والأرض من أجله مجرد قطعة صغيرة في مصنع كبير، فهو يهرول صباحاً ومساءً لتوفير لقمة عيشه.

هذا الإنسان هو أكثر ما يكون بحاجة إلى من يطمأنه على حياته ورزقه ومماته، وهو بحاجة إلى من ينبهه إلى أنك ترهق نفسك في طريق نهايته سراب، ويوضح له الطريق الذي يوصله إلى معين الماء، فيروي روحه ومعنوياته بماء الحياة، إنّ الهرولة وراء السلع الإستهلاكية يُرهق الروح ويجعلها تتعلق بتوافه الحياة، وهي في ذات الوقت تقتل عقل الإنسان وتغيبه عن الوجود، حتى لا يجد المرء فرصةً للتفكير في حاله كمن يركض وراء سراب كلما اقترب منه لم يجده شيئاً مذكوراً. وهكذا يكون الركض وراء شهوات الحياة كلما أخذت منها شيئاً ازددت جوعاً إليها.

بينما المؤمنون الذين هم أشدُّ بلاءً وعناءً في الدنيا، فعلى الرغم من كل المعاناة التي يواجهونها إلاّ أنهم أشدّ ثباتاً واستقراراً من الناحية النفسية، وكلما اشتدّ عليهم البلاء ازدادوا اطمئناناً بما وعدهم به ربهم، فمن أين يحصل المؤمنون على الإطمئنان؟.

الإطمئنان يأتي من العلم!! ولكن ليس أيّ علم! ذلك العلم الذي يبصر الإنسان بحقيقة نفسه وبفلسفة الحياة ويكشف للإنسان الأشياء على حقيقتها، ومن تلك المعرفة يستشف المؤمن أنّ هذه الدنيا زائلة وأنّها بمثابة جسر للعبور إلى عالم آخر، ومن تلك المعرفة يكتشف المؤمن أنّه عبدٌ لخالق عظيم يستوجب منا العبادة، ومجموعة تلك المعارف التي يصل إليها الإنسان المؤمن تجلب له الإطمئنان في القلب، ومن دونها يبقى القلب مضطرباً بالشكوك والأوهام ومتردد بين الحقيقة والسراب.

فالنفس المطمئنة على ما ذكرنا تقابل النفس الأمارة بالسوء، فتلك تبعث الاطمئنان والسكينة في الفرد بينما هذه تجلب الإضطراب والقلق إليه، والله يتعهد المؤمنين ويريهم سبيل الحق وينزل السكينة عليهم ليزدادوا اطمئناناً بما وعدهم به، فهو سبحانه لا يفعل ذلك تحيزاً وإنّما هم الذين اختاروا هذا الطريق المليء بالأشواك في الظاهر، وهم الذين اقتنوا هذه البضاعة التي لم يأبه لها الآخرون وهي بضاعة المعرفة، فاما لم يعطهم الأموال ولا القصور، ولم يُثبت قلوبهم بالذهب والجواهر كما يفعل الملوك والسلاطين مع حاشيتهم والمقربين لديهم، وإنّما هو ثبت قلوبهم بالمعرفة الحقيقية، معرفة سر الوجود وخلق الكون والحياة الأخرى، فهم استغنوا بهذه المعرفة عن الهرولة

وراء الذهب والفضة لأنّ ما لديهم أثمن بكثير، بينما الذين يركضون وراء الدنيا فصارت أكبر همهم، هؤلاء تركوا وراء ظهورهم كثيراً من المعارف التي تُثبت إيمانهم وتقوّي قلوبهم، لأنّهم اعتبروها شيئاً من البطر والتعرف الفكري، وحيثما تتابعهم الفتن وتحتوشهم الأفكار الضالة يسقطون الواحد تلو الآخر في منزلقاتها لا يعرفون طريق الهُدى فيتبعونه ولا مُرشداً ينقادون إليه.

إذن. . . الاختيار السليم هو الذي يضع الإنسان على الطريق السليم، ولكل طريق من هذه الطرق مزايا، ومزية طريق الإيمان هي المعرفة، وبها يستقيم القلب، ويتقد الفكر، ويصح العمل، وهذه كلها ثمار عدم الإسراف في الشهوات واللذّات، وعدم الخضوع لسلطان الهوى، فمن أزاح عن عقله وسواس الهوى أزال الغبار عن عيني بصيرته، فهو يرى الأشياء على حقيقتها من دون رتوش خارجية أو داخلية.

ولمواجهة الظروف الصعبة ومقاومة الابتلاءات والمحن، فإنّ المؤمن يكون أكثر حاجةً للمعرفة، فهو مثلاً لاعتقاده الراسخ بأنّه سيكون هناك يوم للقيامة وللحساب والكتاب لذلك فهو يصبّرُ نفسه على الابتلاءات والمصائب ولا يقترب من المحرمات، بينما مسألة الحساب بالنسبة للآخرين هي مجرد فكرة ضبابية وليست يقينية في قلوبهم، لذلك فهم غافلين عنها ولا يعيرونها تلك الأهمية التي تستحقها، وهم يعتقدون بأنّ التفكير في ذلك يسدّ شهية الإنسان عن الطعام، بينما هذه المعلومة هي يقينية بالنسبة للنفس المؤمنة وهي تعينها على تحقيق أفضل انجاز في هذا الطريق، ولو أجرينا تحقيقاً حول النتائج التي تتركها صعوبات الحياة ومشاكلها على شخصية النفس المؤمنة والنفس الأمّارة بالسوء فماذا ستكون النتيجة؟.

بالطبع نقصد (بالنفس الأمّارة) هي غير المؤمنة فلو أنها ابتليت بالفقر مثلاً ماذا يحصل لها؟ إنها ستفقد اتزانها العقلي والنفسي، وبدل أن تتخذ طريق الصبر نجدها تتبع أساليب مخالفة للعقل والأخلاق لتلبية حاجاتها وللخلاص من الفقر كالإختلاس وغيره، وأنّ مجرد شعورها بالضغط المادي يؤدي بها إلى هيجانات نفسية وانفعالات غير شعورية، تقودها إلى اتخاذ قرارات غير سليمة والإصابة بأمراض نفسية مستعصيّة.

بينما النفس المؤمنة تواجه ذات الضغوط وتتعرض لنفس الصعاب إلاّ أنها تبقى متزنة محافظة على قيمها ومبادئها، ومصدر هذه القوة ينبع من إيمانها الذي يلهمها فعل الخيّرات والصبر على المشقات.

ومن الطبيعي فإنّ الله سبحانه وتعالى يعين من يدعوه، وإعانته تكون عن طريق ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[1] فالله يعين عبده المؤمن بإنزال السكينة على قلبه، هذا القلب الذي هو محل الإضطراب والصراع بين قوى العقل والهوى يصبح للسكون والطمأنينة وراحة الضمير.

وهذه الطمأنينة تمنح الإنسان المؤمن فرصة إضافية لزيادة إيمانه من خلال التفكير في الخلق والتدبر في الكون، وفي المقابل نجد أنّ صاحب النفس الأمّارة يزداد كفراً وفسقاً كُلّما لبى رغبةً من رغبات نفسه السيئة، فهي لا تشبع ولا ترتوي جشعةً لا تقبل بالقليل، كُلما إزدادات غطرسة وسلطة إزداد صاحبها جهلاً وبُعداً عن الإيمان وإزداد قلبه اضطراباً وتوتراً.

وعلى النقيض من ذلك فإنّ صاحب النفس المطمئنة قد حسم الصراع في داخله لصالح العقل مقابل الهوى واستثمر نتائج هذا الحسم، فقد اقتبس من العقل اتساع الحكمة، وقوة الإرادة، وثبات الفكرة، وصلابة الرأي، وحُسن العمل... فهو سعيد لأنّه يشعر بالرضا عن نفسه وفكره وتصرفاته، لأنّ كلّ واحدة منها مكملة للأخرى بتوافق مُحكم، بينما صاحب النفس غير المطمئنة تتضارب أفكاره مع أفعاله وتتناقض مبادئه مع تصرفاته، لأنّه لا يستند على ميزان واحد ومبدأ واحد على توجيه تصرفاته، وإنّما الهوى هو الذي يوجهه ويُسيره، فيؤدي ذلك إلى صراعٍ داخلي لدى هذا الإنسان بين مبادئه وسلوكه، وينجم عن ذلك عدم رضا الشخص عن نفسه وعن تصرفاته، وهذه هي المرحلة الأولى من الحياة التعيسة. فمن يريد أن يحقق الاطمئنان في داخله عليه أولاً أنّ يحسم الصراع في قلبه لصالح العقل، لأنّه من العقل تأتي الطمأنينة.

◎ الإصلاح النفسي

ماذا ستفعل لو حذّرك أحدهم من السقوط في بئر عميقة؟ بالطبع إنّك ستكون ممتناً إليه لأنّه قد أنقذك من الموت أو الإصابة بجروح، وماذا سيكون ردّ فعلك إذا نبّهك أحدهم من عواقب الاستمرار على عادة غذائية سيئة تسبّب لك سوء التغذية أو القرحة أو غيرها؟ بالطبع ستشكره على تحذيراته! وماذا سيكون موقفك لو نصحك أحدهم

(١) سورة الفتح، الآية: ٤.

بالإقلاع عن عادة خُلقية سيئة مثل: (التقليل من حدة غضبك) قد تثور في وجهه وتوبخه بأنّ (الأمر لا يعنيك) وأنت لا تعلم بأن العادة السيئة التي حذّرك منها الرجل لا تضر بدنك فحسب بل تؤدي لك إلى أمراض نفسية هي أشد فتكاً وألماً.

وماذا لو حذرك أحدهم من مغبة الإنقياد لشهوة المال؟ ستعتبر الأمر مثالياً وأنّه يخالف الطبيعة البشرية وأنّ هذا النوع من الكلام هو أشبه ما يكون بموعظة دينية. وأنت لا تعلم أنّ سيطرة هذه الشهوة على مقدرات الإنسان قد تقودهُ إلى ارتكاب الجرائم مثل: السرقة والإختلاس والإرتشاء وغيرها... إذن مثلما الغذاء الفاسد يضر بدنَك، كذلك الأغذية الفاسدة التي تغذي بها نفسك مثل: (الشهوات والأهواء المتحررة) هي أيضاً تضرّك وتفسدُ تفكيرك وعقلك وتكون السبب في مرض قلبك.

وقد وضع علم النفس الإسلامي قائمة أمام الإنسان بالمحظورات التي ينبغي عليه اجتنابها حتى لا يُصاب بالأمراض النفسية، واقترح عليه مشروعاً تربوياً يكفل في حالة تطبيقه بناء شخصيةٍ مثالية فذة، فعلم النفس الإسلامي لا يعتني فقط بعلاقة الإنسان بربّه فحسب بل هو معني بشكل أساسي في تكوين شخصية راقية له، ويتوقف نجاح هذا المشروع على إرادة المرء وما يبذله من جهدٍ وتحدي في سبيل تنفيذه، فهذا البرنامج يضعنا على الطرق الصحيحة التي تنتهي إلى خاتمة واضحة هي الشخصية الفذة والحياة المطئنة والمبادىء الثابتة.

والهدف الأول سيكون صيانة النفس وحمايتها من الهوى ليكون هذا البرنامج التربوي مثل درعٍ واقٍ يحمي النفس من سهام الهوى ونباله الفتاكة، فالنفس مثل البدن بحاجة للحمايةٍ من الأمراض والأوبئة التي تضرب العقل وتشل الإرادة وتعكر الأخلاق، فالغرض هو حماية العقل من كلّ (الفيروسات) التي قد تتغلغل وتربك عملية التفكير فيه وحماية القلب من الجراثيم الخُلقية التي قد تأخذ لها حيزاً هناك، ويعتمد برنامج الإصلاح النفسي هذا على عدة أنظمة هي:

◎ أولاً: المعرفة النفسيّة

ليس المطلوب أنّ تعرف أسماء الكواكب أو المجرّات في الفضاء الواسع! وليس المطلوب أنّ تعرف أسماء الأسماك في قاع المحيطات! وليس المطلوب أنّ تتعرف على أسماء الحشرات! لكن المفروض أولاً أنّ تعرف نفسك والقدرات الكامنة في داخلك، وأنّ تتعرف على نقاط الضعف في شخصيتك، والصفات التي تميزك عن

الآخرين ومستوى ذكاءك وفهمك واستيعابك للعلوم والمعارف، ومدى تحملك المشاكل وصلابتك على مواجهة الصعاب، ودرجة إصرارك على تحقيق أهدافك الكُبرى، ونوع المهارات التي تتمتع بها، والمهارات التي يمكن أنّ تحوز عليها بالتدريب والمران، وأنّ تعرف نقطة ضعفك تجاه أي من الغرائز المعروفة: الغريزية الجنسية... أم غريزة الجوع... أو غيرها؟ وأنّ تعرف أيضاً القدرات البدينة التي لديك وكذلك نقطة الضعف الجسدية. فإنّ هذه المعرفة هي التي تساعدك على تحديد هويتك ومن ثمّ الإنطلاق في أول درجة من سُلّم تكوين الشخصية الراقية والفذة التي يطمح إلى تحقيقها أي إنسان في كل وقت.

وأنّ تتوفر لديك فرصة ثمينة لإعادة بناء حياتُك بشكل جديد وفق المعايير العلمية والدينية، فما عليك إلا استغلال هذه الفرصة وسترى، بعد ذلك أنّ النجاح الذي تحققه في حياتك الاجتماعية والمهنية إنّما هو نتيجة لتلك الفرصة التي أفدت منها ورممت من خلالها بعض نقاط الضعف في شخصيتك والتي عادةً ما تكون السب في فشلك في الحياة.

إنّ تضييع فرصة ثمينة لإعادة تقييم الشخص لنفسه ستعود عليه بالخسران والفشل المتكرر، ففي بعض الأحيان تتكرر التجربة الفاشلة لدى الشخص فيُلقي باللائمة على الظروف والزمان، بينما كان بمقدوره من خلال إعادة تقييمه لأفكاره وسلوكه، يستطيع وبسهولة اكتشاف نقطة الضعف التي تسبب له ذلك الفشل المتكرر، إذن معرفتنا بأنفسنا تساعدنا على تشخيص المشكلة وتفيدنا في حياتنا العامة والاجتماعية.

ولا بدّ أنّ تتوفر لدينا الشجاعة الكافية للاعتراف أمام أنفسنا بنقطة الضعف التي شخصناها، بأنّها هي السبب وراء تلك المشكلة العالقة أو ذلك الفشل المتكرر، ونسعى بكل ما أوتينا من قوّة أن نستأصل تلك الغدّة السرطانية التي تنغص علينا عيشتنا، ولا ينبغي أن نكتفي بالمعارف التي تتصل بشخصيتنا فقط، بل المفروض أنّ نزيد من معلوماتنا حول عدونا الأساسي وعدو عقلنا ألا وهو (الهوى) وإن كنا سنبين في موضوعات لاحقة الدور الذي يلعبه الهوى في الحياة الشخصية للإنسان وصراعه مع العقل، إلاّ أننا سنكشف هنا الأساليب التي تنفذ منها مكروباته وتسيطر على قلب الإنسان، تلك الأساليب الخبيثة التي بمكرها تسحق إرادة العقل على المواجهة، وتقوم النفس الأمّارة بتنفيذ هذا الدور الخبيث، وهنا ينبغي أنّ يتنبه الإنسان ويعرف هذه الأساليب بشكل جيد لكي لا يسقط في متاهاتها، فمن أساليبها:

١ - **إنّها تتملق كالمنافق:** فإذا أرادت شيئاً توددت وتلطفت وتصنّعت المعروف، وهدفها الإغواء، ومرادها إيقاع المرء في حبائلها، وقد جاء في حديث الإمام علي عليه السلام: **«النفس الأمّارة المسوّلة تتملّق وتملّق المنافق، وتتصنّع بشيمة الصديق الموافق»**(١).

٢ - **إنّها مخادعة وماكرة:** فهي لا تظهر عداءها صراحةً وتعود على نفسها بأساليب ملتوية لكي لا ينكشف أمرها. وفي حديث آخر للإمام علي عليه السلام بيّن صفتها وقال: **«كن أوثق ما تكون بنفسك، أخوف ما تكون من خداعها»**(٢).

٣ - **إنّها متسلطة:** فإذا استولت النفس الأمّارة على مقدرات القلب ستستعبده وتذله باطاعة وتملي عليه من الأفكار ما يكون خلاف القول والعلم. وفي هذا قال الإمام عليه السلام: **«النفس الأمّارة المسوّلة إلى أنّ يقول... حتى إذا خدعت وتمكنت تسلّطت تسلّط العدوّ، وتحكّمت تحكّم العتو، وأوردت موارد السوء»**(٣).

٤ - **إنها خائفة:** فهي تؤمّل الإنسان بالنصر والغلبة لكنها تقحمه في الهلكة، وتمنيه بالشهوة واللذة، لكنها تجره للمرض والخيبة، ففي حديث للإمام علي عليه السلام قوله: **«إن النفس الأمّارة بالسوء والفحشاء، فمن ائتمنها خانته، ومن استنام إليها أهلكته، ومن رضي عنها أوردته شر المورد»**(٤).

ومن عرف عدوه بهذه الصفة ينبغي أنّ يكون نبهاً ومتيقظاً، لأنّ الغفلة منه تساوي خسارة نفسه وحجب الرؤية عن عقله، لأنّ هدف النفس الأمّارة ليس حرف السلوك إلى الوجهة السيئة فقط بل الهدف أيضاً إرباك العقل بمجموعة من الأفكار والأوهام التي ترتدي لباس العلم، وتتزين بثوب العصرنة، وتتلون بلون التحضر، وهي في طبعها من كل هذه الأمور غريبة وبعيدة.

◎ ثانياً: المراقبة النفسيّة

من العجب أنّ القرويين من المزارعين والرعاة يراقبون خيولهم وأبقارهم كي لا تُصاب بمرض أو مكروب، وكذلك يفعل ابن المدينة عندما يراقب سيارته ويتعهدها

---

(١) غرر الحكم ودرر الكلم: ١/ ١١٤/ ح٢١٢٨.
(٢) غرر الحكم ودرر الكلم: ٢/ ١٠٦/ ح٣٩.
(٣) غرر الحكم ودرر الكلم: ١/ ١١٤/ ح٢١٢٨.
(٤) غرر الحكم ودرر الكلم: ١/ ٢٢١/ ح١١٥.

بالصيانة من زيت المحرّك وغيره كي لا تُصاب بعُطل، بينما لا يُراقب الإنسان نفسه ولا يتعهدها بالصيانة والحماية مع أنها أولى من كلّ شيء آخر بالحماية والرعاية، وقد يفسرُ البعض معنى الاهتمام بالنفس ورعايتها أنّ يوفروا وسائل الرفاهية والراحة لها، وأنّ يقدّموا لها أفضل الطعام، ويشتروا لها أفخر الملابس، ويسكنوها أفخم القصور، ونتيجة لتصورهم هذا فهم يعتقدون إذا وفروا لقمة العيش لأبنائهم فقد أدّوا حق الأبوّة.

بينما حاجات الإنسان لا تتوقف عن البطن فقط، بل لعقل الإنسان أيضاً حقٌ مثلما لبطنه، ولقلبه حقٌ مثلما لغريزته، لذلك فإنّ تلبية حاجات العقل والقلب هي من أهم الواجبات التي ينبغي أنّ يضطلع بها الإنسان الصالح في هذه الحياة، ومراقبة هذه الحاجات بدقة لكي لا يتم التفريط في جانب دون الآخر، لأنّ المستفيد من ذلك لن يكون أحدٌ سواه، فكم سيجني الإنسان من إصلاح نفسه وعقلنة سلوكه وتطهير قلبه من الأغلال والأحقاد؟

وعلم النفس الإسلامي عندما يحثّ على إتباع السلوك السليم فغرضه إصلاح حياة الفرد والمجتمع، وبناء هذه الحياة على أسس عقلانية قويمة.

فهذه الحياة لا تنصلح بالأماني والأحلام، وإنّما بالسعي والمثابرة على طريق تحقيق الأفضل، وبإمكانك أنّ تطلق العناء لنفسك، تفعل ما يحلو لها في هذه الحياة، ولكن تأكد بأنّ المتضرر الأول والأخير لن يكون سواك، فواحدة من سنن الكون والحياة هي من يزرع بذوراً صالحة يحصدُ ثمراً صالحاً، وبالطبع هذا المثل ينطبق أيضاً على شخصية الإنسان، فلا أحد يخرج من بطن أمه عظيماً أو بطلاً أو عالماً، ولا أحد يصبح كذلك بفعل سحر ساحر، إنّما يصل إلى تلك المرتبة الراقية من زرع في نفسه بذرة العلم والبطولة ونمّاها بماء الجهد والمثابرة حتى أصبح ذلك عالماً وهذا بطلاً، فلنزرع البذور الصالحة حتى تعطينا الثمرة الصالحة، وعملية بناء الذات لا تتم بين ليلة وضحاها، وهي ليست يسيرة كما الهدم (لأنّ صعود الجبل ليس كنزوله).

ولكن اللذة الحقيقية يتذوقها الإنسان عندما تطأ قدمه حافة القمة، وقتها تكون كل الأشياء تحت اختياره، لأنّه حاز على شيءٍ إذا تسلط عليه فإنّه سيحكم العالم بأسره ويملكه ذلك الشيء (النفس)، فالعالم لا يصبر عالماً إلاّ بعد مكابدةٍ وعناءٍ وشقاء، فهو تخلى عن راحته وأحلى سنين عمره طالباً للعلم، ولا يصبح الزعيم زعيماً إلاّ بعد سنين يقضيها في المنافي والمعتقلات وذلك في سبيل قضيته العادلة، فهؤلاء لم يحققوا أهدافهم إلاّ بعد تضحيات قدموها من أنفسهم وراحتهم. . . لكن السؤال المهم هو:

هل سنين الشقاء التي قضاها هؤلاء الرجال في السجن والإرهاق كانت أعظم أم لحظة الوصول إلى القمّة (لحظة تحقيق الهدف الكبير)؟!.

إنّ قيادة النفس في الظروف الحرجة والصعبة تتطب من المرء نظراً ثاقباً وقلباً صبوراً لمراقبة التحولات والتقلبات التي تحدث في داخله، فكل واحد فينا يتصور أنّه لم يتغير فيه أي شيء منذ عشرات السنين، وأنّ الذي يحدث هو مجرد تقدّم في العمر وضخامة في البدن، وقليل هم الذين يلاحظون التغييرات النفسية التي تحدث في داخلهم، فهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدل على أنّ التحولات النفسيّة تقع بشكل هادىء وبطيء ومن دون ضوضاء، وعليه فإنّ المرء عند ذلك سيكون بحاجة إلى مراقبة مشددة لنفسه حتى يتمكن من ملاحقة التغييرات التي تحدث في داخله.

والمراقبة تكون لثلاثة أشياء:

أ - الاعتقادات:

فهي المثال الذهني لشخصيتنا، وإليها يرجع القلب في إصدار أحكامه وتصريحاته وأفعاله، وإنّ حدوث التغيير فيها كفيل بإحداث انقلاب في شخصية الإنسان، وتترسخ هذه الاعتقادات في الجانب الأعمق من العقل وهو (القلب) والمرء يتصرف بإزائها تصرفاً لا شعورياً، وتنشأ هذه الإعتقادات نتيجة تآلف أفكار راسخة في الذهن تتأبد لدى الإنسان عن طريق العلم والتجربة، وتكون هذه الاعتقادات على رأس كلّ الأفكار الثانويّة، ومن خلالها يصدر المرء أحكامه عليها.

لذلك فإنّ الناس لا يؤمنون بسرعة بأية فكرة تمر أمام أذهانهم أو لمجرد سماعهم لها، فهم سيضعونها أمام محكمة اعتقاداتهم الراسخة فإن وافقت تلك الاعتقادات قبلتها عقولهم وإلا فستضرب عرض الحائط، إلاّ إذا كانت الأفكار الجديدة بالقوة التي تستطيع معها إزالة الاعتقادات الراسخة السابقة وهذا نادر الحدوث، لأنّ الاعتقاد الراسخ لا يبطله إلاّ اعتقاد راسخ مثله، والفكرة المجردة لا ترقى إلى مثل هذا المستوى، ومن هذا الباب فإنّ الانقلاب الذي يحدث في اعتقادات الشخص يستتبعه تغيير في نمط شخصيته، ولأجل اهتمامنا بموضوع مراقبة التغييرات الطارئة على شخصية الإنسان وتقلبات أحواله النفسية، ينبغي أنّ نركّز على هذا القسم بالذات لأهميته ولكونه يمثل رأساً لكل التحوّلات الأخرى، وينبغي أنّ نعرف أيضاً أنّ الاعتقادات على نوعين:

أ - ذات منشأ عقلي.

ب - منشأها الوهم والظن.

ومن المفيد جداً أنّ نميز نوعية الاعتقادات الراسخة في قلوبنا. هل هي من النوع العلمي الأول أم من النوع الوهمي الثاني؟ ومن الصعب جداً التمييز بين الصنفين ليس بعجز العلم عن الفصل بنيهما بل بسبب وجود توهم لدى الأشخاص، بأنّ جميع اعتقاداتهم ذات منشأ علمي وعقلي، ويبقى الدليل العلمي هو الحد الفاصل الذي يضع الإنسان أمام الحقيقة الناصعة التي لا مفرّ منها. ومن هنا تأتي أهمية المراقبة النفسية للكشف عن السير التصاعدي والتنازلي للإعتقادات الراسخة في قلب الإنسان.

ب - المنطوقات:

مراقبة الإنسان لكلامه ستدله على حقيقة قلبه، فإذا تعذر عليه كشف الإعتقادات في عقله الباطن، فإنّه يستطيع أن يعرف ذلك عن طريق ما يأتي على لسانه من آراء وأفكار، وكذلك سيعرف درجة صفاء قلبه وخلوه من الأحقاد والأضغان، لأنّ اللسان هو آلة القلب ومن يريد أنّ يرى ما في قلبه عليه أنّ يراقب ما يجري على اللسان، والأفكار التي يؤمن بها الإنسان قد لا تكون يقينية إلى حد كافي غير واضحة بالنسبة لسائر الأشخاص، كمن يؤمن بفكرةٍ بسبب كثرة ترددها على مسمعه من قبل محدثيه ولكنه عندما يبوح بها ستكون سمة شخصيته، وعلى أساس هذه السمة يصدر الناس أحكامهم على الفرد، ويوصينا علم النفس الإسلامي بعدم الإكثار من الكلام لأنه سيحملنا تبعاته، وأول تأثيرات ذلك ما يقع على قلب الإنسان نفسه، فالكلمة التي ينطقها المرء ومنشأها الوهم والظن ترهق الذاكرة بكثير من الخزعبلات التي ذات تأثيرات مباشرة على شخصية الإنسان،

وبدل الثرثرة في الكلام يوصينا علم النفس الإسلامي بالاستزداة من التفكير قبل التفوه بكلمة، لأنّ الإنسان مسؤول عما ينطق به، فمن الكلام ما أودي بحياة صاحبه، وكم من الكلمات التي زرعت الحقد والكراهية وفجّرت النزاع والاختلاف بين أفراد العائلة الواحدة، فاللسان مسؤول أمام المجتمع وأمام المبادىء وأمام الحياة. وكلّ شيء ينطق به الإنسانُ يُسجّل نقطةً صالحة أو ضده، لأنّ كل كلمة منطوقةٍ ستترك أثراً إيجابياً أو سلبياً في هذا الوجود، وكلّ شيء مؤثر في الوجود فيه روح وحياة، والكلمة

التي تمارس دور البناء في الحياة ليس من العدل أن توضع بنفس الميزان التي توضع فيه الكلمة ذات الدور الهدّام وشتان بين عمليتي الهدم والبناء.

لهذا كان لزاماً على المرء أنّ يراقب ما يتفوّه به لكي لا يخرج من فمه ما يكون سبباً للهدم، انظر مثلاً كيف سيستفيد الزوج أو الزوجة من تمتعها بهذه الخصلة خاصة إذا عرفنا أنّ أكثر المشاجرات التي تحدث بين الزوجين هي نتيجة التفوه بكلمات في حالة الغضب خارجة عن سيطرة الإنسان وقديماً قيل: (لسانك حصانك، إن صنته صانك، وإن هنته هانك).

ج - السلوك:

لكي يصلح المرء نفسه، عليه أنّ يبدأ أولاً باعتقاداته ثمّ بلسانه وثالثاً بسلوكه والمراقبة المشددة من جانب العقل على النفس وقوّاماً هو الذي سيعين الإنسان على سد نواقصه، فإذا كان الهدف هو أنّ يعيش الإنسان في حياة هادئة وهانئة، فإن الطريق لذلك لا يكون بإطلاق العنان للأهواء والشهوات وإنّما عن طريق ضبط السلوك بموازين قيميّة ثابتة تكفل للفرد وللآخرين جميع حقوقهم في ظل حياة سعيدة، لأنّ سعادة الآخرين ولا سيما المقربين منهم هي مرتبطة بشكل أو بآخر بسعادتك، فإذا كانت تصرفاتك تبعث على الأمل والتفاؤل فستشعر أنّ الجو الذي حولك سيتصف بذلك، ومن المؤكد أنّ ينعكس سلوكك على الآخرين. فلو تصورنا حياةً حرّة للإنسان يفعل ما يحلو له من دون ضابطة أو قيمة من المؤكد أنّ الفوضى ستسود العالم، لأنّ كل واحد من هؤلاء البشر سيتعدى على حقوق الآخرين من أجل تحقيق أنانيته.

وللسلوك تأثير غير مباشر على قلب الإنسان وعلى أفكاره، واعتقاداته الراسخة، فهو يُثبّت تلك الاعتقادات ويمنحها توهجاً أكثر من ذي قبل، فالإنسان الذي يقدم على ارتكاب جريمة السرقة مندفعاً باعتقاد زائف هو أنّ كلّ الناس سُرّاق وأنّهم غصبوا حقه في الحياة، فإنّ ارتكابه للجريمة سيثبّت لديه هذا الاعتقاد ويقوّيه، وكذلك بالنسبة إلى مرتكب الخطيئة فهو يبرر خطيئته بأمرٍ ما، وعندما يقدم على العمل يكون تبريره أكثر وضوحاً وثباتاً أمام قلبه.

◎ ثالثاً: المحاسبة النفسيّة

كل إنسان مسؤول أمام عقله وأمام الآخرين وأمام الحياة، ولكل حي في هذا الوجود له حقٌ عليك، حتّى الماء والتراب والهواء لهم حقٌ عليك، **فمن الأول**: تروي

عطشك، **ومن الثاني**: طعامك، (إذ النبات ينمو في التراب) **ومن الثالث**: تتنفس فلهم عليك حق الحياة. لذلك فأنت مضيٌ بالمحافظة على سلامة المياه والتربة والهواء من التلوث، لأنّ سلامة بدنك من سلامتها، فمثلها تعتني ببدنك ينبغي أنّ تعتني بها وتحافظ عليها، وهناك أشياء أخرى هي أيضاً ذات حقٍ عليك بالرعاية والصيانة وهما روحك وعقلك، وهو أنّ تصونهما من المساوىء والأخطاء، لأنّ كل خطأ يرتكبه الإنسان يكتب على صفحة من قلبه فيغلق منفذاً من منافذ نور العقل، فإذا أصلح المرء نفسه أضاء العقل مرةً أخرى الأرجاء المغمورة من المعرفة بنوره الوهّاج، ولكي يبقى العقل هكذا متوهجاً بالنور والمعرفة يتوجب على الإنسان أنّ يحافظ على قلبه سليماً من أية أخطاء أو كتابة سوء. ولدينا في القرآن الكريم: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[1] والقلب السليم لا يحصل اعتباطاً بل هو نتيجة لمجاهدات نفسيّة أحد مراتبها هو أن يقوم الإنسان بمحاسبة نفسه على ميلانها نحو الهوى ويعاقبتها على ارتكابها للأفعال السيئة، لأنّ الإسترسال مع الخطأ يتحول إلى عادة ومن اعتاد على ارتكابها للأفعال السيئة، لأنّ الارسترسال مع الخطأ يتحول إلى حسنة وليست قبيحة، وهذه مرحلة متقدمة من الحجاب الذي يضرب على العقل فيمنع من الرؤية السليمة، بينما من يحاسب نفسه على الخطيئة يُبقي على قبحها في نفسه، وهو بذلك يفتح الطريق سالكاً كي يرى العقل بشكل جيد حقيقة ذلك الفعل، حتى تتهيأ الفرصة للإرادة للتعبير عن نفسها وتمنع تكرار الفعل السيء، فالمحاسبة النفسية هي عملية يقوم بها الإنسان لخدمة عقله بالدرجة الأولى.

وللمزيد من التوضيح نقول: أنّ هناك صراعٌ دائميٌ بين العقل والهوى على تفسير الحسن والقبح بالنسبة للفعل، فإذا عزم المرء على القيام بفعلٍ حسنٍ بضغط من العقل، قال الهوى: بأنّ هذا الفعل سيء لأنّه يضرّ بالصلحة والآنا مثلما ينوي أحدهم على فك شجار وقع بين اثنين خاطبه الهوى وقال له: لا تفعل فقد يصيبك ضررٌ من ذلك، وبالعكس إذا نوى المرء عل القيام بفعلٍ سيءٍ بضغط من الهوى خاطبه العقل وقال له:

بأنّ هذا فعلٌ مشين ونحن هنا قد بسطنا المسألة إلى حد كبير، وفي الواقع هي معقدة ومتشابكة وتجري العملية كلها خلال ثوانٍ معدودة والناس فيها منقسمون: فمنهم من يؤيد العقل برأيه ومنهم من يؤيد الهوى وهنا يقع الإلتباس والتوهم، فمن ينقاد للهوى

(١) سورة الشعراء، الآية: ٨٩.

يتوهم وقوفه على جادة العقل لأنّه لا أحد في هذا العالم يعترف بمخالفة العقل والمنطق بتصرفاته.

وهنا يأتي دور القيم والمبادىء التي نؤمن بها، فهي في الواقع بمثابة الميزان الذي نشخص بها الحسن والقبح من الأفعال، وعلى أساس هذه الموازين يمكن أنّ نحاسب أنفسنا ونعاقبها على ما تجترحه من أخطاء، ونحن بمحاسبتنا الذاتية لا نقدم خدمةً لتلك الموازين والقيم الساميّة بقدر ما نقدم مثل هذه الخدمة لعقلنا الذي لا شك ستحجب عنه الرؤية بالاسترسال مع الأخطاء الذهنية والكلامية والفعلية.

◎ رابعاً: التربية النفسيّة

المراحل الثلاث الأولى التي ذكرناها مُسبقاً تصبُّ في خدمة الهدف الأساسي ألا وهو (تزكية النفس) وإصلاحها، فمعرفة المرء بنفسه تساعده على تكوين نظرةٍ عامة عن أحوالها، والمراقبة لها تعينه على تشخيص نقطة الضعف في شخصيته، ومحاسبتها تجعله يشعر بالندم، ومن خلال المرحلة الأخيرة وهي تربيته لنفسه سيوقف مسلسل الضعف في شخصيته ويصقل الإرادة في داخله حتى يتمكن من تنمية الصفات الحسنة في داخله.

فالتربية النفسية إذن، هي تشبه عملية البناء من حيث النتائج والصعوبات في نفس الوقت، فلا بد أولاً أن تتوفر لدى الفرد المؤهلات الكافية التي تعينه على بناء شخصيته وفق الموازين الثابتة والقيم السامية التي تحدد الإطار العام لسلوكه الحسن، والمُلفت أنّ البناء الوحيد الذي يقيمه الإنسان بمحض إرادته ومن دون تدخل الآخرين هو بناء شخصيته، فقد يحصل المرء على مساعدة فكرية أو معنوية من شخص خبير، إلاّ أنّ الإنسان هو بذاته الذي يضع أول لبنة في هذا البناء العظيم، فكم من البشر الذين تربوا في أحضان العظماء ولكنهم لم يتقبسوا شيئاً من عظمة مربيهم، لأنّ التحول في عملية البناء قد ينقلب في أحيان من عملية البناء إلى الهدم، فالأحمق مثلاً هو في سيرٍ نزولي تجاه بناء شخصيته لأنّه يريد أنّ يفعل حسناً لنفسه فيسيء إليها بجهله.

المهم أنّ التحولات جارية على شخصية الإنسان إما نحو الأعلى أو باتجاه الأسفل، فإذا كان المرء مُريداً لهذ التحولات وهي منسجمة مع قيمه ومبادئه فمن المؤكد أنّها تصبُ في عملية البناء، أما لو كانت من خارج السلطة الشعورية للإنسان فإنها ستكون هدّامة، ومن الضروري هنا معرفة الضابط الذي نقيس به تلك التحولات

الجارية على شخصيتنا، هل هي تحولات مستقيمة أو غير مستقيمة؟ فكل عاقل ينبغي أنّ يعرف هذا الطريق الذي يسلكه يوصله إلى هدفه أم لا؟

فمن الناس من يعرف الهدف وفي زحمة الطرق يسلك طريقاً آخر وينشغل عن هدفه الرئيسي، ومن الناس من كان مشغولاً بأهدافٍ صغيرة ثمّ يتوجه إلى هدفٍ كبير ويختار بموجبه الطريق الذي يوصله إلى ذلك الهدف، والمراد من هذا الكلام كله هو القول: بأنّ (لكل هدفٍ طريقاً) فإذا عرفنا الهدف فإنّه سيوضح لنا الطريق الذي يتعين علينا سلوكه، ولا يجوز لنا بعد ذلك أنّ نسلك طريقاً آخر لأنّه سيبعدنا عن هدفنا الأساسي، وكذلك الحال لمن يريد أنّ يبني شخصيته على أسس قويمة، فإنّه يتعين عليه أنّ ينظر إلى هدفه الأعلى ثمّ يسلك الطريق الذي يوصله لذلك الهدف، والمعرفة بالهدف تعين الإنسان على تشخيص هل هو على السكة الصحيحة أم لا؟

وللمثال على ذلك نقول: بأنّ الإسلام حدد لنا هدفاً راقياً ينبغي أن نصل إليه وهو تحقيق الشخصية النموذجية أي (الشخصية الإيمانية) ومن أجل الوصول إلى هذا الهدف علينا أنّ نسلك طريقاً واحداً لا غير هو (طريق الله) والصفات التي يُفترض أن نتحلى بها هي أيضاً واضحة ومعروفة مثل التواضع، والتعاون، والتآخي، والكرم، والشجاعة، والصبر.

وقد وضع الإسلام الحنيف حداً لكل واحدة من هذه الصفات، فلو تجاوز الشخص هذا الحد سيعتبر ذلك خروجاً عن إطار الشخصية الإيمانية، فالعقيدة هنا وضعت أمام الإنسان تصوراً عن الشخصية النموذجية وبيّنت له في نفس الوقت الطريق الذي يوصله لهذا الهدف، ومن اليسير بعد ذلك اكتشاف وعلاج أي انحراف عن السكة الصحيحة.
والسؤال الآن هو: ماذا يفعل المرء إذا اكتشف أي انحراف في سلوكه عن الوجهة التي حددتها له عقيدته؟

إنّ اكتشاف المرء لمستوى معين من الإنحراف في سلوكه هو بحد ذاته يساعده على العودة إلى السكة الصحيحة بمقدار درجة الإنحراف التي كان عليها، ويدعو الإسلام هنا كمرحلةٍ أولى إلى صيانة الفرد لنفسه وحماية عقله من الأمراض والصفات السيئة، ويحثّه أيضاً على تقوية إرادته وشحذ همته لسحق كافة (الفيروسات) النفسية التي تتغلغل إلى العقل وتربك جهاز التفكير فيه، فهناك علاقة متعاكسة بين القوة التي يتمتع بها العقل وبين قوة (الفيروسات) النفسية والشهوية، فإذا كانت قوة العقل تعادل ما نسبته ٨٠٪ فإن قوة الفيروسات النفسية ستكون بنسبة ٢٠٪ ونحن نحاول من خلال عملية الإصلاح

النفسي أنّ نرفع من مستوى قوة العقل والحزم إلى أعلى نسبة ممكنة، وذلك حتى لا ندع مجالاً لتلك المكبر وبات النفسية بالتأثير على شخصية الفرد وعلى مستوى تفكيره. ويعتمد نظام التربية النفسية على قاعدتين:

القاعدة الأولى: العلم

وهو النور الذي يخترق العقل به عالم المجهولات، وبه يتمكن من مواجهة المتغيرات والمتوقعات والظروف الصعبة، فللعلم دور أساسي في بناء شخصية الإنسان وتقويمها على أساس منطقي.

القاعدة الثانية: التزكية

فالعلم وحده لا يكفي لبناء شخصية متعادلة، إلى العلم إلى جانب التزكية بإمكانهما خلق الشخصية المثالية التي يطمح إليها كلّ إنسان، لأنّ العلم هنا يأخذ دور التوجيه بالنسبة لعقل الإنسان، بينما التزكية تُنقي قلبه من الصفات السيئة، والعلم أيضاً سلاح يكون مدمراً إذا سقط بأيدي أشخاص نفوسهم خبيثة.

وهناك أمور تساعد الإنسان على إصلاح نفسه منها:

١ - القناعة:

ودورها تخفيف الضغط من جانب الهوى على العقل والروح، فالقنوع قد عالج مشكلته النفسية من الجذور لذلك سيكون أكثر إطمئناناً وراحة من ذلك الذي لا يقنع بالقليل، والمفارقة أنّ الأول اكتفى نفسياً وليس مادياً بالذي يملكه، فهو لا يهلك نفسه لأجل الحصول على الرفاهية الماديّة لأنه أقنع نفسه بالكفاية، أما الآخر فهو لم يقتنع بالإكتفاء لذلك فهو يعمل ليل نهار لكي يحقق ذلك الإكتفاء ولن يصل إليه، لأنّ النفس لا تشبع حتى مع الكثير، وهكذا تكبر طموحات الإنسان تكبر وتكبر من دون توقف، لأنّه يعيش في دوامة الحاجة، وهو باستمرار يعيش في وضع قلق لأنّ طموحاته لم تتحقق.

بينما الإنسان القنوع فهو كما ذكرنا قد عالج مشكلته الماديّة من الناحية المركزية، من ناحية الجهاز القيادي والإداري في شخصيته، فهو لا يقول أنّ الإمكانات المالية والماديّة هي التي تحل مشكلته أو هي التي توفر له حياة راقية ومرفهة، ولكنه يؤمن بأنّ الامكانات التي لديه وهي على بساطتها تكفيه لتضاء يوم آخر من هذه الحياة، وبالطبع

مستحيل أنّ يؤمن إنسان عابد للشهوات بمثل هذه الفكرة التي تعني القناعة، لأنّ هدف هذا الإنسان هو تحقيق اللذة فكيف يمكنه أنّ يقنع بالنزر القليل منها؟.

والإنسان بطبعه الإنساني لا يميل نحو هذه الفكرة، فكل إنسان يسعى في الحياة إلى تحقيق الراحة والرفاهية لنفسه وأنّ يقتنص ما أمكن من اللذات والأهواء من دونها لا يمكن أنّ تتحقق السعادة، فمن أين جاءت فكرة القناعة؟.

في البداية لا بدّ أن نعرف حقيقة جوهرية وهي أنّه ليس كل فقير قنوع، فكثير من الفقراء يعيشون حياة البذخ والإسراف على الرغم من إمكاناتهم الضئيلة، مثل ذلك الفقر الذي يتكاسل عن العمل، أو ذلك العامل الذي يقصد أرقى مطعم في البلد، ويدفع مرتبه الأسبوعي دفعة واحدة ويعيش باقي أيامه في وضع ضنك، فهؤلاء ليسوا من أهل القناعة وإن كانوا فقراء.

وفكرة القناعة هي مقتبسة من العقائد الدينية، فقد جاء حث مباشر من جانب العقيدة الإسلامية بضرورة الصبر مع العدم، وجاءنا تحذير آخر من جانب الدين من مغبة الإفراط في اللذات والشهوات، لأنها ستكون مصدر عزاء الإنسان وعذاباته النفسية، لأنّ الشهوات والرغبات تقف دائماً أمام سمو الإنسان وتعاليه في شتّى المجالات العلميّة والروحيّة.

٢ - لا تحطّم نفسك من أجل الدنيا:

إنّ الصدام الذي يحدث بين الناس على توفير الموارد والإمكانات له عواقب وخيمة على شخصية الإنسان، لأنّه ينمي لديه صفات سيئة تقلب حياته إلى جحيم، تصور إنك ستأخذ انطباعاً سوداوياً عن الناس من حولك هؤلاء الذين يتنافسون معك للحصول على تلك الموارد، ستتخيلهم وكأنهم ذئاب يريدون أنّ ينهشوا لحمك ويشربوا من دمك!! كيف ستكون علاقتك معهم؟ على أقل التقادير أنّها ستكون باردة إذا لم نقل أنها ستكون علاقة شبه صرامية، فلو تمكنا من نزع الكوامن الداخلية المؤدية لمثل حالة الصدام هذه، فإننا سنكون قد نجحنا في نزع فتيل حرب تقع بين الأفراد يومياً ونرى آثار دمارها في الشارع وفي المقهى وفي السوق وفي كلّ مكان، وهي لا زالت حرباً مستعرةً بين الأفراد والجماعات على ملذات الدنيا.

والدين الإسلامي عندما يدعو أفراده المؤمنين إلى عدم التعلق بالدنيا، فإنّه في الواقع يحاول أن ينزع من قلوبهم الكوامن الداخلية المؤدية لإنحراف السلوك، فالدين

هنا يعالج من الجذور مشكلة الإنسان مع نفسه ومشكلته مع المجتمع، وفي المقابل نجده يحث الإنسان أيضاً على الإيثار والتعاون ومساعدة الآخرين، فبعد ما قلع الدين من قلب هذا الإنسان بذور الصدام والحرب زرع مكانها حب الناس والتضحية في سبيلهم وإعانتهم على فعل الخيرات، والإحسان للسيء فما عدا تأثير مثل هذه القيم العظيمة على تقوية أواصر الأمة الواحدة، فإنها في الواقع تساعد الإنسان على بناء شخصيته على أحسن وجه ممكن، وإذا أردنا أن نعرف كيف، فلنفكر قليلاً بحياة وسلوك شخصين أحدهما مبغضٌ للناس جميعاً والآخر محباً لهم ومن أيهما ستنتفع الحياة؟.

٣ - الإستعانة بالله:

دائماً ما يكون المرء بحاجة إلى دعم معنوي تنشط من خلاله إرادته على تحقيق الأهداف الكُبرى ومواجهة الظروف الصعبة التي تزخر بها الحياة، والإحباطات ولحظات الفشل التي تضرب صميم الإنسان وتقوّض بواعث الحياة والإستمار لديه، هنا يكون الإنسان بحاجة إلى من يتكلم معه وينصحه بضرورة التحدي والإستمرار وعدم الاستسلام للظروف والمشاكل التي يواجهها، إنّ المرء عندما يستمع إلى مثل هذا الكلام وهو في حالة إحباط شديدة، فإنّه سيستعيد ولو شيئاً قليلاً من معنوياته التي فقدها عند صراعه مع المشاكل والصعاب، لا سيما إذا كان الناصح هو محل ثقة واطمئنان من قبل المرء فإنّ تأثير كلامه سيكون مضاعفاً، فكيف سيكون هذا التأثير إذا شعر المرء أنّ هذا النداء يأتي على لسان ربّه من السماء؟.

بالطبع ما من أحد في هذه الدنيا إلاّ ويتكلم مع ربّه في وقت من الأوقات مسلماً كان أو مسيحياً أو يهودياً أو غير ذلك، فهو عندما يقرأ القرآن الكريم أو التوراة أو الإنجيل فإنه يريد أن يستمع إلى كلام الرب وإلى أوامره ونصائحه، وعلاوة على القوة التي تزخر بها كلمات الكتاب المقدس، فإنّ المرء عند تلاوته لآيات الرحمن سيستعيد قسماً من القوة التي فقدها في مجابهته لظروف الحياة الصعبة، وسيتجدد الاستعداد لديه لمواصلة مسيرة الجهاد في الحياة والتغلب على كل المعوقات التي في الطريق، لأنّ تلك الآيات تبعث الأمل في قلب الإنسان وتشحذ إرادته.

وليس القرآن وحده الذي يحقق مثل هذا الإنجاز وإنّما الدعاء وطلب العون من الله سبحانه هو أيضاً يمنح الإنسان الثقة بنفسه، وأنه قادر على اجتياز هذه الصعاب

والعثرات. هذا علاوة على ما نؤمن به بأنّ المولى عزّ وجلّ يتدخل أيضاً لصالح العبد عندما يطلب العون منه لنجاته.

وكلما فصّلنا في الحديث عن موضوع الإصلاح النفسي نجد أنفسنا مضطرين للإشارة إلى مصير من لا يسعى في صلاح نفسه وتربيتها ويهملها ويجعلها نهباً للأهواء والشهوات، فمن لا يصلح نفسه فقد:

١ - أضاعها:

لقد وصف الأمام علي عليه السلام في أحد أحاديثه النفس «**بأنّها جوهرة ثمينة من صانها رفعها ومن ابتذلها وضعها**»[١].

ولكنّ الذي لا يعرف قدرها ولا ثمنها كيف سيعطيها منزلتها؟ فهو قد يبيعها بثمن بخس؟ أو أنه قد يتلفها أو يرميها مع القاذورات، لأنّ الذي لا يعرف قدر نفسه لا يعرف أيضاً كيف يحافظ على هذه المنزلة، لذلك لا فرق لديه أنّ يرفعها مع منزلة العظماء أو يضعها موضع الأشقياء، والفارق بين المنزلتين هو مثل الفرق بين موقفين أحدهما شجاع ونبيل والآخر جبان وذليل فليس بمقدور الجبان أنّ يتخذ موقفاً شجاعاً لأنّه لا يعرف قدر نفسه، ولا أنّ يتخذ الشجاع موقفاً جباناً لأنّه يعرف قدر نفسه ومنزلتها فهو لا يهينها بالتصاغر والجبن، وإذا استولت إحدى الصفات السيئة على قلب المرء فإنها ستجره إلى أرذل الأعمال وتهدر عزته وتهين كرامته، لأنّه على طول خط حياته سيشعر أمامها بالضعف والنقص، فإصلاح النفس هنا يساعد الإنسان على إصلاح نقطة الضعف في داخله وتحويلها إلى عنصر قوة، أو أنه بتعبير آخر (مَلَك نفسه).

وفي حديث للإمام علي عليه السلام يقول فيه: «**من أصلح نفسه ملكها**»[٢].

وأيضاً عنه عليه السلام: «**من لم يؤسس نفسه أضاعها**»[٣].

وأيضاً عنه عليه السلام: «**من أهمل نفسه أفسد أمره**»[٤].

٢ - أهلكها:

كمن يسير في طريق وهو لا يعرف نهايته الهلكة، هذا هو حال من أهمل نفسه وعجز

---

(١) غرر الحكم ودرر الكلم: ١/ ٢٢١/ح ١١٨.

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم: ٢/ ١٥٥/ ح ١٣٩.

(٣) غرر الحكم ودرر الكلم: ٢/١٧٨/٥٤٨.

(٤) غرر الحكم ودرر الكلم: ٢/١٩٨/ح ٩٠١.

عن إصلاحها فهي تقوده إلى طريقٍ معوج تصدمه العثرات وتكسره الصدمات، ويتلقى الضربات من كل جهة دون معرفة منه، أنّ نفسه التي بين جنبيه هي المصدر لكلّ هذه الآلام والصدمات، فهي التي أوردته هذه المهالك وهي التي دفعته لاجتراح هذه المسالك. وهو قد خضع إليها من دون تفكير أو روية كمن سلّم قيادة نفسه لمجنون لا يعقل ولا يدرك فدفعه إلى الهاوية. وقد جاء في الحديث الشريف ما يؤكد ذلك، حيث قال عليه السلام: «**من أصلح نفسه ملكها**»[1]، و«**من أهمل نفسه أهلكها**»[2].

٣ - أرهقته:

فإذا عجزت عن إصلاح نفسك، أرهقتك في مطالبها ورغباتها وشهواتها لأنّها (قليل الشبع) فإذا بنيت لها طلباً أمرتك بآخر حتى لا تعطيك فرصةً للتفكير في مصيرك وحالك، وما يمكن أنّ تفعله لتغيير نمط حياتك لأنها تقتحمك في دوامة الأرباك والقلق والشرود الذهني عندما ستشعر أنّ هناك باباً واحداً مفتوحاً أمامك فإذا أُغلق فكأنما أطبقت الدنيا في وجهك نور الأمل، فهي تُشغلك في المشاكل والأزمات حتى لا يتسنى لك التفكير في ترتيب وضعك.

وقد جاء في الحديث الشريف: «**من سامح نفسه فيما يحب أتعبته فيما يكره**»[3].

٤ - غلبة الهوى:

إن من لا يسعى في صلاح نفسه أتاح الفرصة لهواه كي يتغلب على عقله وإرادته، لأنّ العجز أمام فساد النفس يصب في خانة قوة الهوى المسيطر والفارض لشروطه على الإنسان، وكلما كبر العجز ازداد الهوى قوة فوق قوته وانحسرت في مقابل ذلك قوة الإرادة.

وفي الحديث الشريف: «**من لم يتعاهد النقص من نفسه غلب عليه الهوى، ومن كان في نقص فالموت خير له**»[4].

٥ - ظلمها:

فمن أهمل نفسه فقد ظلمها، وهذا هو أول الظلم الموصوف في القرآن الكريم وهو

---

(١) غرر الحكم ودرر الكلم: ٢/ ١٥٥/ح ١٣٩.
(٢) غرر الحكم ودرر الكلم: ٢/ ١٥٥/ح١٤٠.
(٣) غرر الحكم ودرر الكلم: ٢/ ٢١٣/ ح ١١٢٨.
(٤) بحار الأنوار: ٦٧/ ٦٤.

أنّ يظلم الإنسان نفسه، وهو ظلم يتضاعف بالتدريج ويكبر في النفس حتى يقود الإنسان إلى ظلم الآخرين والتعدي على حقوقهم، فمن حق النفس على الإنسان أنّ يصونها ويحفظها ويزكيها ومن لم يفعل ذلك فقد قصّر في حق نفسه، ومن لا يستوفي حق نفسه لا يُعطي حقوق الآخرين؟

وقد بين الإمام علي عليه السلام ذلك بقوله: **«لا تُرخّصوا لأنفسكم فتذهب بكم الرّخص مذاهب الظّلمة، ولا تداهنوا فيهجم بكم الإدهان على المعصية»**[(١)].

٦ - فساد الدين:

يضفي الدين حالة من التوازن النفسي على شخصية الإنسان من خلال ما يشرعه من أحكام غايتها الأولى منفعة الإنسان، فهي تعينه على تحكيم سيطرته على أهوائه وشهواته، ونحن قد بينا من ذي قبل النتائج المهلكة لسيطرة الهوى على مقدرات الإنسان، ونأتي هنا للتأكد بأنّ الدين هو الذي يضع المكابح أمام تلك الأهواء من أجل الإرتقاء بالحياة الفردية والاجتماعية لهذا الإنسان. وفي البداية يرفع الدين من قدر الإنسان وينزهه عن القيام ببعض السلوكيات التي بها هلاكه، فهو مثلاً يحرّم عليه شرب الخمر والغاية واضحة هي المحافظة على سلامة العقل، فما من حكم في الدين إلا وله أثر في بناء شخصية الإنسان وتقويم حياته الاجتماعية.

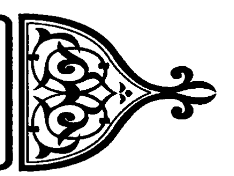
لذلك فإنّ الإنسان المؤمن عادةً ما يكون متميزاً على الرغم من موارده الضعيفة، وذلك لأنّه يقتبس قوته من الدين، فمفاهيم الدين هي لمنفعة الإنسان بالدرجة الأولى وغايتها هي إيصال الإنسان إلى أعلى درجة من التكامل والسمو، ومن يفشل في عملية إصلاح نفسه ويعجز عن سد منافذ تغلغل الهوى إلى ذاته، فإنّه سيخلق تناقضاً بين الاعتقادات الراسخة في قلبه أو (مفاهيم الدين) وبين سلوكياته المخالفة لهذه الاعتقادات والمفاهيم. ولن يخلو هذا التناقض من أثرٍ على شخصية الإنسان وما يسفر عنه من خلل في حالتي التوازن والإستقرار التي كان يتمتع بهما في وقت سابق.

فقد نُقل عن الإمام علي عليه السلام أنّه قال: **«لا تُرخّص نفسك في مطاوعة الهوى وإيثار لذّات الدنيا، فتفسد دينك ولا يصلح، وتخسر نفسك ولا تربح»**[(٢)].

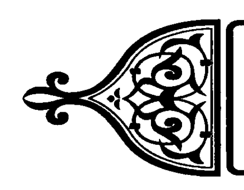
---

(١) نهج البلاغة: خطبة ٨٦/ ١١٧.

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم: ٢/ ٣٣٨ - ٣٣٩/ ح٢٤٨.



في خلق الأروح قبل الأجساد



● عن إسماعيل بن أبي حمزة، عمّن حدّثه، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: جاء رجل إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقال: والله يا أمير المؤمنين إنّي لأحبّك.

فقال: كذبت.

فقال الرجل: سبحان الله! كأنّك تعرف ما في قلبي.

فقال عليّ عليه السلام: إنّ الله خلق الأرواح قبل الأبدان بألفي عام ثمّ عرضهم علينا، فأين كنت ولم أرك[1]؟!

● عن سلام بن أبي عمير، عن عمارة، قال: كنت جالساً عند أمير المؤمنين عليه السلام إذا أقبل رجل فسلّم عليه، ثمّ قال: يا أمير المؤمنين والله إنّي لأحبّك، فسأله ثمّ قال له: إنّ الأرواح خلقت قبل الأبدان بألفي عام، ثمّ أسكنت الهواء، فما تعارف منها ثمّ ائتلف ههنا، وما تناكر منها ثمَّ اختلف ههنا، وإنّ روحي أنكر روحك[2].

● عن محمد بن الفضيل، عن أبي حمزة الثماليّ، عن أبي عبد الله عليه السلام: أنّ رجلاً قال لأمير المؤمنين عليه السلام: والله إنّي لأحبّك - ثلاث مرّات.

فقال عليّ عليه السلام: والله ما تحبّني، فغضب الرجل فقال: كأنّك والله تخبرني ما في نفسي!

قال له عليّ عليه السلام: لا، ولكنّ الله خلق الأرواح قبل الأبدان بألفي عام، فلم أر روحك فيها[3].

● عن عمرو بن شمر، عن جابر، عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: إنّ الله تبارك وتعالى خلق الأرواح قبل الأبدان بألفي عام فلمّا ركّب

(١) البصائر: ٨٧، البحار ج٥٨ ص١٣١، ح١.
(٢) البصائر: ٨٨، البحار ج٥٨ ص١٣١ - ١٣٢، ح٢.
(٣) البصائر: ٨٨، البحار ج٥٨ ص١٣٢، ح٣.

الأرواح في أبدانها كتب بين أعينهم: مؤمن أو كافر، وما هم به مبتلون، و ما هم عليه من سيّء أعمالهم وحسنها في قدر أذن الفأرة، ثمّ أنزل بذلك قرآناً على نبيّه فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾(١)، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله هو المتوسّم؛ وأنا بعده. والأئمّة من ذريتي هم المتوسّمون(٢).

● عن سعد بن طريف، عن الأصبغ بن نُباتة قال: كنت مع أمير المؤمنين عليه السلام فأتاه رجل فسلّم عليه ثمّ قال: يا أمير المؤمنين: إنّي والله لأُحبّك في الله، وأُحبّك في السّر كما أُحبّك في العلانية، وأدين الله بولايتك في السّر كما أدين بها في العلانية-وبيد أمير المؤمنين عود- فطأطأ رأسه ثمَّ نكت بالعود ساعة في الأرض ثمّ رفع رأسه إليه فقال: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله حدّثني بألف حديث، لكلّ حديث ألف باب، وأنّ أرواح المؤمنين تلتقي في الهواء فتشمّ وتتعارف، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف، وبحقّ الله لقد كذبت، فما أعرف في الوجوه وجهك، ولا اسمك في الأسماء.

ثمّ دخل عليه رجل آخر فقال: يا أمير المؤمنين إنّي لاحبّك في الله، وأُحبّك في السّر كما أُحبّك في العلانية.

قال: فنكت الثانية بعوده في الأرض ثمّ رفع رأسه إليه فقال له: صدقت، إنَّ طينتنا طينة مخزونة أخذ الله ميثاقها من صلب آدم، فلم يشذّ منها شاذّ، ولا يدخل فيها داخل من غيرها، اذهب فاتخّذ للفقر جلبابا، فإنّي سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: يا عليّ بن أبي طالب! والله الفقر أسرع إلى محبّينا من السيل إلى بطن الوادي(٣).

● عن إبراهيم بن هاشم، عن عمرو بن عثمان، عن أبي محمّد المشهديّ من آل رجاء البجليّ، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رجل لأمير المؤمنين عليه السلام: أنا والله لاحبّك.

فقال له: كذبت إنّ الله خلق الأرواح قبل الأبدان بألفي عام فأسكنها الهواء ثمّ عرضها علينا أهل البيت، فوالله ما منها روح إلاّ وقد عرفنا بدنه، فوالله ما رأيتك فيها فأين كنت؟ (الخبر)(٤).

---

(١) سورة الحجر، الآية: ٧٥.
(٢) البصائر: ٣٥٦، تفسير الفرات: ٨١، البحار ج٥٨ ص١٣٢ - ١٣٣، ح٥.
(٣) الاختصاص: ٣١١، البحار ج٥٨ ص١٣٤-٦١٣٥ ح٧.
(٤) بصائر الدرجات: ص٨٧، البحار ج٥٨، ص١٤٦، ح١٢.

● عن عباد بن سليمان، عن محمّد بن سليمان، عن هارون بن الجهم، عن محمّد بن مسلم: عن أبي جعفر قال: بينا أمير المؤمنين جالس في مسجد الكوفة وقد احتبى بسيفه وألقى ترسه خلف ظهره إذ أتته امرأة تستعدي على زوجها، فقضى للزوج عليها، فغضبت فقالت: والله هو كما قضيت، والله ما تقضي بالسويّة، ولا تعدل في الرعيّة، ولا قضيّتك عند الله بالمرضيّة.

قال: فغضب أمير المؤمنين عليه السلام فنظر إليها مليّاً ثمّ قال: كذبت يا جريّة! يا بذيّة! يا سلسع! يا سلفع! يا الّتي لا تحيض مثل النساء!

قال: فولّت هاربةً وهي تقول: ويلي! ويلي! ويلي! فتبعها عمرو بن حريث فقال: يا أمة الله، قد استقبلت ابن أبي طالب بكلام سررتني به، ثمّ نزغك بكلمة فولّيت منه هاربةً تولولين!

قال: فقالت: يا هذا، ابن أبي طالب أخبرني بالحقّ، والله ما رأيت حيضاً كما تراه المرأة.

قال: فرجع عمرو بن حريث إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقال له: يابن أبي طالب ما هذا التكهّن؟

قال: ويلك يابن حريث ليس منّي هذا كهانة، إنّ الله تبارك وتعالى خلق الأرواح قبل الأبدان بألفي عام، ثمّ كتب بين أعينها مؤمن أو كافر، ثمّ أنزل بذلك قرآنا على محمّد صلى الله عليه وآله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾[1] فكان رسول الله صلى الله عليه وآله من المتوسّمين، وأنا بعده والأئمّة من ذرّيّتي منهم[2].

● عن إبراهيم ابن أبي البلاد، عن أبيه، عن بعض أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام قال: دخل عبد الرحمان بن ملجم - لعنه الله - على أمير المؤمنين عليه السلام - وساق الحديث إلى أن قال: - قال عليه السلام: إنَّ الله خلق الأرواح قبل الأجساد بألفي عام فأسكنها الهواء، فما تعارف منها هنالك ائتلف في الدنيا، وما تناكر منها هناك اختلف في الدنيا، وإنّ روحي لا تعرف روحك (الخبر)[3].

● عن صالح بن سهال، عن أبي عبد الله عليه السلام: إنّ رجلاً جاء إلى أمير المؤمنين عليه السلام وهو مع أصحابه فسلّم عليه ثمّ قال: أما والله أُحبّك وأتولاّك.

---

(١) سورة الحجر، الآية: ٧٥.

(٢) البصائر: ٣٥٦، البحار ج٥٨ ص١٣٦-١٣٧، ح١٣.

(٣) البصائر: ٨٨ - ٨٩، البحار ج٥٨ ص١٣٨، ح١٤.

فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: ما أنت كما قلت، ويلك إنّ الله خلق الأرواح قبل الأبدان بألفي عام عرض علينا المحبّ لنا فوالله ما رأيت روحك فيمن عرض علينا، فأين كنت؟ فسكت الرجل عند ذلك ولم يراجعه[1].

● عن سماعة بن مهران، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: بينا أمير المؤمنين عليه السلام في مسجد الكوفة إذ أتاه رجل فقال: يا أمير المؤمنين والله إنّي لأحبّك.

قال: ما تفعل.

قال: بلى الله الّذي لا إلّه إلاّ هو، قال: والله الّذي لا إلّه إلاّ هو ما تحبّني.

فقال: يا أمير المؤمنين إنّي أحلف بالله أنّي أُحبّك وأنت تحلف بالله ما أُحبّك! والله كأنّك تخبرني أنّك أعلم بما في نفسي!

قال: فغضب أمير المؤمنين عليه السلام وإنّما كان الحديث العظيم يخرج منه عند الغضب.

قال: فرفع يده إلى السماء وقال كيف يكون ذلك وهو ربّنا تبارك وتعالى خلق الأرواح قبل الأبدان بألفي عام، ثمّ عرض علينا المحبّ من المبغض فوالله ما رأيتك فيمن أُحبّ، فأين كنت[2]؟.

◎ متطلّبات الروح والبدن

ولما كان مصدر الروح السماوي قدسيّاً فإنَ متطلباتها وغاياتها تختلف بشكل واسع عن متطلبات الجسد وغاياته، فهي تسعى إلى تحقيق أهداف سامية، وقيم عالية وهي ترى في تحقيق غاياتها من فعل الخيرات، فمن ذلك الغايات أن يعمّ الخير ويسود السلام، ويحكم الحق ويأمر العدل وتشيع مفاهيم المحبّة والتعاون، وتنتشر العلوم والمعارف، والروح تميل بطبعها إلى الخصال الحميدة، كالكرم والشجاعة، والصدق، والإباء، والإخلاص، والأمانة.. وغيرها.

لكن متطلبات الجسد لا تعير لهذه المعاني أدنى أهمية، ولا تضع لهذه المفاهيم أدنى وزن، لأنّ البطن إذا جاعت ستذل صاحبها وتفرض عليه أن يشق الأرض ليؤمّن لها لقمة غذاء تسد جوعها، ولا تُبالي من حلالٍ كانت أو من حرام، من تعب وشقاء اكتسبت أو من سرقة وخداع، وما يهمها هو تحقيق مرادها... وهكذا بالنسبة لباقي

---

(١) البصائر: ٨٧، البحار ج٥٨ ص١٣٨، ح١٥.

(٢) البصائر: ٨٧ - ٨٨، البحار ج٥٨ ص١٣٨ - ١٣٩، ح١٦.

الشهوات والرغبات الجسدية التي لا تنفك، فهي تلح على صاحبها كي ينقاد لمتطلباتها، فإن هو أذعن فقد تجره إلى مكان سحيق شديد الظُلمة، وإن لم يذعن فقد توبخه وتلومه على ما فرّط في حقها. والصحيح هو الإعتدال في كلّ شيء في الأكل والشرب والشهوات من باب الحلال والسعي في ذات الوقت إلى السيطرة على تلك الأهواء والشهوات والتحكم بمتطلباتها.

فإن هذا مفترق طرق والناس فيه أشتات، فمنهم من إرتقى سلّم المعالي، ومنهم من هبط إلى أسوأ دركٍ في الحضيض، وعلى المرء أن يكون حذراً في انتخاب الطريق الذي يسلكه، ففي أحدهما السعادة وفي الآخر التعاسة والشّقاء،

والأمراض النفسية هي من صنف طريق الشقاء، وهي تنشأ نتيجة العجز عن توفير متطلبات الروح والإسراف والمبالغة في تلبية حاجات وشهوات البدن، فإن هناك تناقضاً كلياً بين متطلبات الروح ومستلزمات البدن، الإسراف في أحدهما يستلزم التفريط في الآخر.

وقد أشار الإمام علي عليه السلام في حديث له عن هذه الحقيقة قائلاً: «**خدمة الجسد أعطاؤه ما يستدعيه من الملاذ والشهوات والمقتنيات، وفي ذلك هلاك النفس**»[1].

فإنّ من يريد أن يصبح كريماً عليه أن يقمع البُخل الصادر عن متطلبات بدنه، ومن يريد أن يكون شجاعاً عليه أن يقمع الخوف الصادر عن خشيته من إلحاق الضرر ببدنه، ومن يسعى لأنّ يكون صادقاً عليه أن يقمع الكذب الصادر عن متطلبات مصلحته، ومن يريد أن يكون عالماً عليه أن يقمع الجهل الصادر عن طبيعته المادية، وهكذا ما ترى من حسنة للروح إلاّ وتقابلها سيئة من جانب البدن والمادة والتراب، وهذا لا يعني أن الروح لا تتلوث بمساوىء الأخلاق، وإنّما هي تكون كذلك عندما تنقاد من جانب الجهل والشهوات والأهواء، ونجد إنه من يستولي عليه البخل وحب جمع المال لا يستطيع أن يكون كريماً، وأنه من يخاف على نفسه الضرر لا يستطيع أنّ يكون شجاعاً، وإنّ من ينغمس في اللذات والشهوات والحياة المادية لا يستطيع أن يكون عفيف النفس. كم من المرتاضين الهنود وغيرهم وصلوا إلى مراحل عالية من التجرد الروحي، وقد صدرت عنهم خوارق للطبيعة وذلك كلّه بسبب كسرهم لشهوات بدنهم، وهو ما يدل على أن من يتمكن من ضبط شهواته وأهوائه وانفعالاته لهو مؤهل لكسر قوانين المادة.

(١) غرر الحكم ودور الكلم: ١/ ٣٥٩/ ح٦٠.

ولو نظرنا بتمعن إلى الحديث الذي أدلى به الإمام الصادق منقولاً عن الإمام علي عليه السلام وهو يبين مقتضيات الروح والجسد ومتطلباتهما، تتضح لنا صورة ناصعة حول الطبيعتين الروحية والجسدية في داخل الإنسان، الحديث هو: «**إن للجسم ستة أحوال: الصحة، والمرض، والموت، والحياة، والنوم، واليقظة، وكذلك الروح. فحياتها علمها، وموتها جهلها، ومرضها شكلها، وصحتها يقينها، ونومها غفلتها، ويقظتها حفظها**»[1].

ومما يظهر من الحديث الشريف أن الأرواح تميل بطبعها إلى عالم المثل والقيم السامية إلاّ أن ميلانها هذا لا يتحقق على أرض الواقع إلاّ عن طريق العلم والمعرفة، فلكي تفرض الروح هذه القيم على النفس البشرية عليها:

أولاً: أن تقنع القلب بدلائل علمية وقاطعة بضرورة الإنقياد لتلك المثل والقيم، لأنّ القلب هو الزعيم الذي يتحكم بمصير الإنسان، فمرّة يتّبع عقل الروّح ومرّة أخرى يتبع الهوى، لذلك يحث الدين الإسلامي أتباعه ويشدد عليهم بطلب العلم والمعرفة، لأن مفاهيم الدين لا يمكن إدراكها إلا مع التبحر في العلم والمعارف، وأن هذه المعارف تلتقي مع مبادىء الدين في نهر واحد لأن أصلهما وجذرهما سماوي المنبع، فالعلوم الدنيوية المكتشفة وغير المكتشفة هي قوانين شرّعها الباري عزّ وجلّ لتنظيم الحياة في الدنيا، وأن أحكام القرآن الكليّة جاءت متلائمة ومتوافقة مع هذه القوانين العلمية، فمرّة نكتشف الحقيقة القرآنية عن طريق القوانين العلمية، ومرّة أخرى نصل إلى الحقائق العلمية من خلال القوانين القرآنية، وهكذا نلاحظ اللقاء الحميم بين معارف الدين وبين العلوم الدنيوية.

نعود إلى الحديث الشريف: «**... وكذلك الروح، فحياتها علمها، وموتها جهلها...**»

ومن ذلك نعرف موقع العقل للروح وهو بمنزلة الرأس للبدن، فكما أن الإنسان لا يعيش من دون الرأس وكذلك الروح لا تعيش من دون العقل، لأن حياتها في العلم ومماتها في الجهل، ألاّ تنظرون إلى المجنون كيف إن روحه معذبة تتقلب بين الموت والحياة وذلك بسبب فقدان العقل، وليس المجنون وحده المعذب بل الجاهل أكثر عذاباً لأنّه يملك عقلاً لا ينتفع به، ويملك قلباً لا يحسن الإستفادة منه، يريد أن يصنع

(١) بحار الأنوار: ٥٨/ ٤٠.

معروفاً فيسيء، ويحاول أن يصف حقاً فينطق باطلاً، وتأبى نفسه أن يجهدها في التفكير، ولا يرهق بدنه في تحصيل العلم، كثير الأخطاء وقليل الحياء، يسرع وراء اللذّة، ويستهين بكرامته من أجل اللقمة، روحه في عذاب وبدنه منه في راحة، وذلك ميت الأحياء، وقد جاء في الذكر الحكيم: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾[1].

ولقد أغلق الجاهل منافذ عقله، فهو لا يسمع ولا يرى بنور العقل، وإنما هو يسمع بأذن قاصرة، ويرى بعين جاهلة، والعقل في غفلة دائمة.

والروح تمرض كما البدن يمرض، ومرضها وصفه الإمام علي عليه السلام: «**ومرضها شكلها. . .**»

وهو داءٌ عضال يصيب المرء من الجانب الخفي من ناحية قلبه، إذ يهجم عليه وهو في غفلة عن أمره، لا يدري من أين يأتيه! . . . من شماله؟ أم من جنوبه؟ أم من يمينه؟ من حيثما يولّي وجهه يرى وساوس الشكوك تلاحقه وتطارده وتنغّص عليه عيشته مثل سلسلة طويلة (شكاً يقود إلى شك، ووسواس يُمهّد إلى وسواس) والمرء المعذّب بينهما كالكرة يُرمى به من جهة إلى جهة، ويطير من فكرة إلى فكرة، ويتنقل من عقيدة إلى عقيدة دون أن يركن إلى جدارٍ من العلم يسكن إليه، ولا عقيدةٍ راسخة تنزع الشك من صدره وتثبّت اليقين في قلبه، فما أعظم ما يصيب القلب من هذا الوسواس، وما أكبر ما يصيب العقل من هذه الحيرة والناس في غفلة عن هذا، ولا يعرفون أن من هذه الشكوك تأتي الكثير من الأمراض النفسية، وبسببها تعمّ الأوجاع الروحية.

وفي الحديث الشريف الذي نقلناه عن الإمام الصادق عن جده علي عليه السلام: «. . . **ومرضها شكها. . .**» فيه تحذير واضح لنا بأن نتقي شرور الشكوك لأنّها السبب في بروز أمراض نفسية عديدة. ومن هنا نلاحظ أنّ الأئمة من آل البيت عليهم السلام حاولوا من خلال كلماتهم وحكمهم أن يكشفوا لنا الداء الرئيسي لكل الأمراض التي تصيب الروح الإنسانية، فإذا تمكنا من معالجة قلوبنا من هذا الداء فإننا سنحمي أنفسنا من الإصابة بتوابعه، لأن الكآبة واليأس والقنوط وغيرها من الأمراض هي أعراض لأمراض عقلية أساسية وعلى رأسها الشك! ويمكن تشبيه ذلك بهرمين:

فالعقل هو على رأس الهرم الأول.

---

(١) سورة النمل: الآية ٨٠.

والجهل أو الهوى على رأس الهرم الثاني، فإذا كانت صفة الإنسان جيدة وسالماً من الأمراض النفسية، فهو دليلٌ على سلامة العقل. أما إذا أصيب بمرض نفسي فمنبع هذا المرض هو الجهل، وهناك عدّة مراحل يتنقل فيها الإنسان مع الجهل لكي يصل إلى المرض، وللمثال على ذلك نقول: أنّ الجهل يقود إلى الشّك والشكوك ذات وجوه مختلفة منها:

شك الزوج بشرف زوجته ونحن لا نستطيع أن نتصور مقدار العذاب الذي يتحمله ذلك الزوج كنتيجة لهذا المرض، ولو علم الرجل بأن هذا النوع من الشّك هو نابع من نفسه، وهو حصيلة الشكوك المتراكمة في عقله وفكره عن كافة المسائل التي تدور حوله من مسائل فكريّة وسياسيّة وعقائدية لهان عليه الأمر، لكن الشكوك أعمت عين قلبه فهو لا ينظر إلى الأمور إلاّ بعين عوراء ويقيّمها بميزان خاطىء، لذلك فهو لا يخرج من متاهة حتى يدخل في أخرى، ولا يخرج من شكٍ حتى يدخل في آخر أوسع منه.

وعندما نعود إلى حديث الإمام علي عليه السلام سنجد أنّ السلامة الروحية تتحقق عن طريق ترسيخ اليقين في القلب «... **وصحتها يقينها**...» وقد اعتمد الكثير من علماء النفس الحديث على أسلوب التداوي بالإيحاء النفسي كطريقة لعلاج عشرات الأمراض النفسية! وهذا الأسلوب قائمٌ على ترسيخ اليقينات في الفرد وقلع كلّ الأوهام والخرافات والشكوك المترسبة في قلبه، فالمصاب بمرض خوف مفرط مثلاً علاجه يكون عن طريق تثبيت الإعتقاد لديه، بأن الأوهام التي يتخيلها هي غير واقعية، وأنّه قادرٌ على التغلب على خوفه بمقدار قليلٍ من الشجاعة.

إنّ الشكوك والأوهام التي تراود الإنسان وتوسوس له بوجود خطر ما يتهددهُ ينبغي أن يقابلها في العلاج يقينٌ أكبر منها. ولقد أثبتت الدراسات العملية أن المؤمنين من أتباع الديانات هم أكثر سلامةً وصحةً من الناحية الروحية من غير المؤمنين، وسبب ذلك هو أن هؤلاء المؤمنين يتمتعون بمقدار عالٍ من الإعتقادات والأفكار اليقينية، بينما لا يتمتع غيرهم سوى بمقدار ضئيل من تلك المعتقدات اليقينية.

وإذا عرفنا أهمية ودور المعتقدات الذهنية في الحياة الإنسانية، اكتشفنا حقيقة تأثيرها على التصرفات الفردية، وكيف أنّها لم تكن يقينة تؤدي بلا ريب إلى اضطراب في شخصية الإنسان. ولتوضيح ذلك نقول:

أنّ كل الأفراد بحاجة إلى ميزان يزنون فيه تصرفاتهم وأفعالهم اليومية، وهذا الميزان هو:

المعتقدات التي يؤمن بها الإنسان، فإن كانت هذه المعتقدات راسخة ويقينة فإن الفرد سيحاول أن يطابق تصرفاته مع تلك المعتقدات بحيث لا تشذّ عنها ولا تخرج عن سكّتها، بينما لو كانت معتقداته غير يقينة فهو أوّل من سيضحي بها فداءً لمصلحته الشخصية وأهوائه الذاتية، ويكفينا أن نتصوّر إلى أي مكانٍ سحيق سيقود الفرد هذا التناقض والتضارب بين معتقداته وتصرفاته، إذن فاليقين كما وصفه الإمام علي عليه السلام هو ضمان لسلامة الإنسان من الأمراض النفسية وطريق لنجاته من الشكوك والأوهام.

والروح تنام كما ينام البدن، إلاّ أن نومها مذموم كما جاء في حديث الإمام علي عليه السلام: «. . . **ونومها غفلتها** . . .» وغفلتها هو الإنشغال كما ينبغي عليها إلاّ ما هو دونه، والروح بطبعها ذاكرة ومتيقظة إلاّ أنها تنشغل بتلبية متطلبات ومستلزمات البدن عندما تتصل به إلى درجة تغفل فيها عن تحقيق متطلباتها وأهدافها، وترقد في نوم عميق قد يمتد لسنين عديدة وما لم تتنبه في الوقت المناسب فقد يستمر هذا النوم إلى آخر العمر، وقتها لا تنفعها اليقظة ولا تُفيدها الصحوة. فعلى المرء أن يتعهد نفسه بطلب العلم والعبرة بتجارب الماضين، والتدبر في الخلق، والتفكر فيما ينفع نفسه في سنينه الأولى من بلوغه العقلي، قبل أن ينسدل على عينيه ستار الغفلة وتغط روحه في نوم عميقٍ لا تدرك معه دورة العمر والأيام، ولا تفقه أن نومتها الطويلة ستؤخرها عن عجلة الزمان، فكل شيء في هذا العالم يتحرك إلى الأمام نحو مستقرٍ معلوم ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾[1].

فكل الموجودات في هذا العالم تسير باتجاه نقطة واحدة، فإذا عجز روح المرء عن مواكبة هذه المسيرة فإنها ستتأخر بحساب الزمن نفس المقدار الذي أهدرته حين نومها وغفلتها، وهكذا نجد على المستوى الحضاري أنّ الأمة المتخلفة عن ركب الأمم المتطورة يصفون تخلفها بأنه يعادل مئة عام أو أقل أو أكثر، وإن كان هذا الرقم هو في حقيقته تخيلّي إلاّ إنه في الواقع يعبر بشكل صادق عن الفترة التي قضتها تلك الأمة في نوم الغفلة، ولكي تلحق هذه الأمة المتخلفة بتلك الأمم المتقدمة عليها أن تبذل جهوداً مضاعفة لكي تعوّض الماضي وتلحق بالمستقبل، أما لو تساوى ميزان الطاقات المبذولة في هذا الصدد بين الأمة المتخلفة والأمم المتطورة بمقدار واحد، فإن نسبة تفوّق تلك الأمم وتأخر هذه تبقى كما كانت عليه، والأفراد هم من حيث البناء والهدم تتماثل

(١) سورة يس، الآية: ٣٨.

أفعالهم مع أفعال الأمم، فمنهم من عمّر بيتاً صالحاً في هذه الدنيا، ومنهم من خرّب بيتاً، ومنهم من هو منشغل عن البناء باللهو واللعب. . . وروحه راقدة في نوم غفلتها.

وليست الرقدة تشبه اليقظة، لأن الأولى يصحبها خدر الغفلة، والثانية يصحبها نباهة الصحوة، ففي الأولى الراحة وفي الثانية الألم، فمن ذا الذي يرجحُ الألم على الراحة؟ فمع كل يقظة يتعرض القلب إلى صدمة حادة يبدأ على أثرها بمراجعة حساباته الماضية، وما قدّم وأخّر، وما يجب فعله من أيامه الباقية.

وصفة هذه اليقظة: إنّ الروح تبدأ باستيعاب العلوم ما ظهر منها وما بطن، استيعاباً حيوياً، فبعدما كانت الروح في حالة غفلتها ميالة إلى النوم والخدر وعدم إزعاج الدماغ بالتفكير، فإنها تصبح بعد اليقظة نشيطة متلهفة للعلم والتفكير وإن كان مصاحباً للألم ووجع الرأس.

وقد جاء في حديث الإمام علي عليه السلام: «. . . **ويقظتها حفظها**. . .»

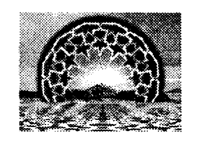
فإنّ الشاهد هنا على يقظة الروح أنها تكون على استعداد لتقبل العلوم والتجارب والعبر وحفظها في صندوق خاص لحفظ المعلومات، وقد دلّت التجارب العلمية أنّه لما تكون الروح منشغلة في عالم الخيال والوهم، فإنها تكون أقل استعداداً للحفظ واستيعاب المفاهيم العقلية، وأن الطالب الذي يكون حاضر الذهن في الصف الدراسي يكون أكثر تفهماً للمعارف والعلوم، بينما التلميذ الكسول الذي يشغل ذهنه في أمور تافهة وقت الدرس سيتعذر عليه فهم تلك المادة وحفظها في صندوق الذاكرة.

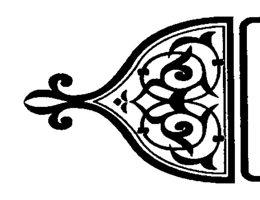
◎ منبع الأمراض النفسيّة

من حق باستور وابن سينا وغيرهم من الأطبّاء والمحققين أن يفتخروا بإنجازاتهم العلميّة والطبيّة وباكتشافاتهم التي قدّمت خدمات جليلة للإنسانية، فهؤلاء يستحقون منا كلّ التقدير والاحترام، لأن اكتشافاتهم العلمية والطبية أدت إلى تخفيف الآلام عن ملايين المرضى، ولسنا بحاجة للقول أن الأمراض النفسيّة لا تقلّ ألماً وإزعاجاً للإنسان من الأمراض البدنية، وأن المحققين والعاملين في هذا المجال ليسوا أقل شأناً من أطباء الصحة البدنية ولا يمكن التقليل من إنجازاتهم فهي ليست قليلة، وقد سبق هؤلاء الأطباء والمحققين رجالٌ مصلحون مثل الأنبياء والمرسلين، وهم الذين عالجوا أمراض النفس بدواء الدين واستطاعوا بفضل سمو أرواحهم وسلامة أنفسهم أن يغيروا مجرى التاريخ ويصنعوا أمجاد الأمم، ومنهم رسول الله صلى الله عليه وآله الذي كانت تعج

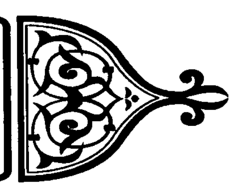
الأرض التي ولد فيها بأفتك الأمراض النفسيّة وأكثرها استحالةً على التغيير، فللطبيعة الصحراوية أحكامها وتأثيراتها على تلك النفسيات التي كانت تعاني بالأصل من أمراض نفسية مزمنة، وليس وأد البنات إلا نموذجاً واحداً لسلوك ذلك المجتمع المريض الذي عاصره الرسول ﷺ وتعامل معه، بل وغيّره وساعد على علاج أمراضه. لقد تمكن من علاج كل هؤلاء المرضى بفضل أدويته السماوية.

لقد اكتشف الرسول الأعظم ﷺ وعن طريق الإسلام منبع الأمراض النفسية، والمصدر الرئيسي لكل التصورات والتصرفات غير السوية التي تصدر عن الإنسان وهو (الهوى) فليس من مرضٍ نفسي أو أزمة نفسية تعرض للإنسان إلاّ ولها صلة بالهوى، وليس من فعلٍ أو رد فعل إنساني إلاّ وهو متعلق بالهوى، وليس من حركة أو سكون إنساني إلاّ وله ارتباط بالهوى، وليس من قول أو حديث ينطق به الإنسان إلاّ وله علاقة بالهوى، فالهوى يتدخل في كل الإحساسات البشرية، فما هو الهوى؟.





ما هو الهوى؟



الهوى هو ميلان النفس إلى لذتها وشهوتها ورغبتها، وبالطبع المقصود هي اللذة والشهوة والرغبة غير المشروعة، وهي المخالفة لقانون العقل وفطرته، فقد يجوز لنا العقل الإلتذاذ حتى بالنسبة للقضايا المشروعة إلى حدٍ معين، أما إذا تجاوز الحد فإنه سيلحق ضرراً بالإنسان، كمن يلتذ بأكل الطعام، فيكثر منه إلى حد تجاوز المعقول، وهنا يتدخل العقل ويحرم مثل هذه الزيادة المفرطة في الطعام، لأنّها إضافة لأضرارها الجسمانية فإنها تسبب خمولاً للعقل والفكر، وفي المقابل تقوّي عناصر الهوى من الغرائز والشهوات.

لو فكرنا قليلاً لوجدنا أن الشذوذ الجنسي مثلاً يعد بالإساس مرضاً نفسياً، وهو نابع من عجز العقل عن الضبط والتحكم بشهوات النفس وأهوائها.

فشهوة النفس إذن لا حدّ لها ولا حصر، وينبغي أن يتدخل العقل من أجل وضع حد لهذه الشهوة، لأنّ الإفراط بها سيؤدي إلى أمراض نفسية وبدنية مستعصية.

قال المجلسي: في بيان أنّ اللذات العقليّة أشرف وأكمل من اللّذات الحسيّة، اعلم أنّ الغالب على الطباع العاميّة أن أقوى اللذّات وأكمل السعادات لذّة المطعم والمنكح، ولذلك فإن جمهور الناس لا يعبدون الله إلا ليجدوا المطاعم اللذيذة في الآخرة، وإلاّ ليجدوا المناكح الشهيّة هناك. وهذا القول مردود عند المحققين من أهل الحكمة وأرباب الرياضة ويدلّ عليه وجوه نذكر منها:

١ - لو كانت سعادة الإنسان متعلقة بقضاء الشهوة وإمضاء الغضب لكان الحيوان الذي يكون أقوى في هذا الباب من الإنسان أشرف منه، لكن الجمل أكثر أكلاً من الناس، والذئب أقوى في الإيذاء من الإنسان، والعصفور أقوى على الفساد من الإنسان، فوجب كون هذه الأشياء أشرف من الإنسان، لكن التالي معلوم البطلان بالضرورة، فوجب الجزم بأن سعادة الإنسان غير متعلقة بهذه الأمور.

٢ - كلّ شيء يكون سبباً لحصول السعادة والكمال، فكلما كان ذلك الشيء أكثر حصولاً كانت السعادة والكمال أكثر حصولاً، فلو كان قضاء شهوة البطن والفرج سبباً لكمال حال الإنسان ولسعادته لكان الإنسان كلما أكثر اشتغالاً بقضاء شهوة البطن والفرج وأكثر استغراباً فيه كان أعلى درجة وأكمل فضيلة لكن التالي باطل، لأنّ الإنسان الذي جعل عمره وقفاً على الأكل والشرب والبعال يعد من البهيمة ويقضي عليه بالدناءة والخساسة، وكل ذلك يدلّ على أن الاشتغال بقضاء هاتين الشهوتين ليس من باب السعادات والكمالات، بل من باب دفع الحاجات والآفات.

٣ - إنّ الإنسان من حيث يأكل ويشرب ويجامع ويؤذي يشاركه سائر الحيوانات، وإنّما يمتاز عنها بالإنسانية، وهي مانعة من تكميل تلك الأحوال وموجبة لنقصانها وتقليلها، فلو كانت هذهِ الأحوال عين السعادة لكان الإنسان من حيث أنه إنسان ناقصاً شقياً خسيساً، ولما حكمت البديهية بفساد هذا التالي ثبت فساد المقدم[١].

إنّ هذه المفاهيم تقودنا إلى أن الهوى يتعلق بكلّ اللذات والشهوات والرغبات الكامنة في داخل الإنسان، ليس المادية منها فقط بل غير المادية أيضاً، فالإنسان مثلاً يلتذ عندما يمتدحه الآخرون وهو أيضاً يرغب بالاستعلاء على الآخرين ويشتهي الإنتقام من معارضيه، إذن هناك شهوات وأهواء غير مادية هي أكثر خطورة من تلك المادية، لأنّها تستولي على الإنسان من دون شعور منه أو عندما يكون غافلاً عن عقله.

ومما تقدم تبين أن الهوى له علاقة بكل شاردة وواردة تصدر عن الإنسان فهو على ذلك يعتبر أُس الأمراض النفسية. كما جاء في الحديث الشريف، عن الإمام علي عليه السلام إذ يقول: «**الهوى أُسّ المحن**»[٢].

وفي نفس الإتجاه، قال الإمام علي عليه السلام: «**أنّ طاعة النفس ومتابعة أهويتها، أُس كلّ محنة ورأس كل غواية**»[٣].

وفي حديث ثالث، قال الإمام علي عليه السلام: «**أهلكُ شيء الهوى**»[٤].

---

(١) بحار الأنوار: ٥٨/ ١٢٧ - ١٢٩.
(٢) غرر الحكم ودرر الكلم: ١/ ٥٠/ ح١٠٩٠.
(٣) غرر الحكم ودرر الكلم: ١/ ٢٢٠/ ح١٠٩.
(٤) غرر الحكم ودرر الكلم: ١/ ١٨٠/ ح٢٤.

وفي حديث رابع، قال الإمام عليه السلام: «**إنّكم إن أمّرتم عليكم الهوى أصمّكم وأعماكم وأرداكم**»(١).

وفي حديث خامس، قال الإمام عليه السلام: «**من غلبت عليه شهوته لم تسلم نفسه**»(٢).

وليس المقصود هنا عمى العين وإنّما عمى القلب وهو أشدّ العمى وأضرّ على الإنسان، لأنّه أساس كل بليّة وأصل كلّ أذيّة، فمن يتبع هواه يفتح لنفسه باباً من الجهل ويغلق على قلبه باباً من العلم، ومن يسترسل مع هواه إلى أبعد حد فهو سيغلق على نفسه كلّ أبواب المعرفة والنوافذ التي يطلّ قلبه منها على حقائق نور العلم حتى يهلكه الجهل، مثل الذي يتمادى في الإدمان على المخدرات والشذوذ الجنسي حتى يقوده ذلك إلى الإصابة (بالإيدز) فيهلك، فهلاكه بالأساس كان هو جهله الذي قاده إلى عبودية الشهوات والرغبات.

ومثلما بيّنا في موضوع سابق حول خصائص الروح والجسد، وقلنا أن الإفراط في تلبية رغبات الجسد يؤدي إلى ضمور في الجانب الروحي لدى الإنسان والعكس بالعكس، فإنّ موضوع الهوى سيقودنا إلى هذه النتيجة، وذلك لأنّ اتباع الهوى الذي هو ميلان النفس إلى شهوتها ولذتها ورغبتها يعدّ نوعاً من الخلود للجزء الأرضي والمادي في النفس الإنسانية، وقد جاء في الكتاب العزيز: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾(٣). والإنغماس في لذات الدنيا يؤدي إلى الإصابة بالأمراض النفسية، لأنّ هذه الأمراض هي من طبع الأرض والشهوات التي تدور عليها.

فتبدأ جيوش الأهواء والشهوات بمهاجمة الإنسان إلى أن تتحكم وتسيطر عليه وتأسره بقيودها الفتّاكة، فلا يتمكن بعد ذلك من فك قيوده بسبب قوتها وتحكمها وسريانها في دمه وعروقه كالمدمن الذي يصعب عليه أن يترك عادته الخبيثة بعد استفحالها وتمكنها من النفس، كذلك أيضاً الشهوات والأهواء فإنها بادىء الأمر تهاجم الفرد بشكل انفرادي ولكنها إذا تحكمت فإنها تتحكم بشكل جماعي، لأنّها ستجتمع كلها على تضعيف قوّة إرادته وتشل نظام الحماية في داخله، حتى يجد الإنسان

(١) غرر الحكم ودرر الكلم: ١/ ٢٦٤/ ح٣٠.
(٢) غرر الحكم ودرر الكلم: ٢/ ١٧٥/ ح٤٩٥.
(٣) سورة الأعراف، الآيتان: ١٧٥، ١٧٦.

العجز في نفسه عن مواجهة هذا الجيش الفتّاك ويستسلم له كُلياً، فتقودهُ الشهوات بعد ذلك إلى حيث ما تريد، فالأمراض النفسية المتعلقة بالشهوة الجنسية مثلاً تحدث نتيجة سيطرة جنود هذه الشهوة على الإنسان وعجزه عن مواجهة رغباتها الجامحة وغير المحدودة.

وكما وصفنا النفس سابقاً أنّها متحرّرة وطلقة فهي عندما تنقاد من جانب جيش الأعداء، فإنّ هذا الجيش سيقودها إلى فضاء واسع وغير محدود من اللذّة والشهوة إلى هناك حيث تقبع الأمراض النفسية والجسدية مثل السادية وغيرها، وبيّن الإمام علي عليه السلام في حديث له كيفية تحكم الشهوات والأهواء في الإنسان، فهي تأتي على شكل لذّات تطرب النفس والبدن وتنعشهما.

فقد قال الإمام عليه السلام: «**أوّل الشهوة طربٌ وآخرها عطب**»(١) فهي تتزين للإنسان وترتدي ثوب الصديق الذي يدخل السرور على رفيقه، وأن همها راحته وسعادته، فتظهر حسناً وتضمر سوءاً، وتبدو له جميلة وهي في حقيقتها قبيحة، تفرحه في البداية وتعقّبه في النهاية.

ومن طبيعة الأهواء السيطرة والتحكم، فهي وإن كانت أول الأمر تتملق كالصديق الموافق إلاّ أنها فيما بعد تتحكم كعدو شرس تأمر وتنهي، تمنع وتعطي حتى يصير الإنسان عبداً لها يهدر عمره على تلبية رغباتها، يصرف جهده على توفير وسائل لذّتها، لا يستطيع أن يعصي لها أمراً ولا أن يرفض لها طلباً، تستصغره وتذلّه وتحرضه على القيام بأسوأ الأفعال، وهو ينقاد إليها ذليلاً ضائعاً من دون أن يملك من أمره حزماً أو عزماً، فهو الضعيف الذي لا يقوى على مواجهة أهوائه ولا التفكير فيما ينبغي فعله، والإنسان العاقل المدرك لا يضع نفسه في أسر الشهوات ولا يقيّدها بأغلال الأهواء، لأنّه يقدّر الأمور بميزان العقل، ويعرف من خلال ذلك أنّ هذه الأغلال لا تُفيد يديه ورجليه وإنّما تقيد عقله وتحجبه عن التفكير الصحيح واتخاذ القرار السليم، لأن من يتبع هوى نفسه لا يستطيع أن يسير على منهج عقله، فالطريقان متقاطعان، وقد عبّر الإمام علي عليه السلام عن ذلك بقوله: «**الشهوات تسترق الجهول**»(٢).

فالجاهل يُسترق لأنّ لديه الإستعداد للعبوديّة والإسترقاق، فهو مستعبد من قبل

---

(١) غرر الحكم ودرر الكلم: ١/ ١٩٥/ ح٣١١.

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم: ١/ ٤٥/ ح٩٦٥.

الشهوات والأهواء ومستعبد من قبل الآخرين، بينما العاقل الفاهم لا أحد يستطيع أن يستعبده أو يتحكم بإرادته، لأنّ لديه السّلاح الذي يستطيع به أن يواجه أي عدو داخلي أو خارجي، والجاهل يفتقر لمثل هذا السلاح لذلك فهو يستسلم مع أول طلقةٍ في المواجهة.

وقد صوّر الإمام علي عليه السلام حالته بقوله: «**عبد الشهوة أذلّ من عبد الرق**»[١] فلربما يكون عبد الرق عزيز النفس فيسعى بأي شكلٍ لخلاص نفسه، بينما عبد الشهوة يبقى مكبلاً بقيودها تجره من رذيلة إلى رذيلة حتى تورده في مزالق الأمراض والأوبئة.

ومما يتبين من الذي ذكرنا ومن الأحاديث الشريفة، فإنّ الأهواء تتحكم وتسيطر على النفس البشريّة على شكل مراحل، ففي البداية تستخدم أسلوباً ليناً مع الإنسان عندما تستزله بالغفلة، وبعد ذلك تطربه باللذة، وفي مرحلة ثالثة تقهرهُ بالعادة فيصبح عقله أسير هواه، وليس على الإنسان سلطانٌ أقوى من الهوى. فقد سأل زيد بن صوحان أمير المؤمنين عليه السلام قائلاً: «**أي سلطان أغلب وأقوى، قال: الهوى**»[٢] فللهوى قوّة وسطوة أكبر وأعظم من قوّة الملوك والسلاطين.

وقوّتها نابعة من كونها غير مرئية فهي تدخل على الإنسان من باب خفي، فلا يحسب لها المرء ولا يشعر، وتنفذ إلى قلبه من غير آلة أو وسيلة، ومثلما تتغلغل الروح في البدن، فإنّ روح الأهواء تنتشر في القلب ببطء حتى تستولي عليه بالتمام والكمال، وعملية الإنقلاب هذه لا تحدث خلال ساعات أو أيّام لأنّها قد تطول سنين عديدة، فتتحد روح الأهواء مع القلب فيصبح القلب مثلما قلنا سابقاً عبداً مطيعاً للأهواء، وبالطبع تختلف درجات قلوب الناس من حيث تأثرها بالأهواء.

فمنها: القلوب القويّة القادرة على صد هجمات الأهواء.

ومنها: التي تخضع لبعض عناصرها وتمنع غيرها.

ومنها: القلوب المريضة التي لا مكان فيها لغير الأهواء والشهوات.

وكثيرٌ من الناس هم الذين يخلطون بين العقل والهوى، وبين الحق والباطل، وبين العلم والجهل، ولو كان الهوى له بدن مثل الإنسان لسهل على المرء معرفته وتجنبه أو حتى محاربته ولكنه متلبس برداءٍ غير مرئي، ويأتي بلسان الصديق قبل أن يهاجم بسيف

(١) غرر الحكم ودرر الكلم: ٢/ ٤٠/ ح١٣. (٢) بحار الأنوار: ٦٧/ ٧٦.

العدو، وبسبب قوة اختفائه الخارقة يعجز المرء في أكثر الأحيان عن اكتشافه فترى أناساً يتبجحون بالعلم والتعقل والمنطق بينما هم في الواقع يتّبعون أهواءهم المضلة التي ظهرت وتزينت لهم بثوب العلم المغري، ليس هذا فحسب بل إنّ أصحاب الباطل وأولئك الظلمة والمجرمين والسفاحين وكل من يسلك سلوكهم، فهؤلاء قد برر كل واحدٍ لنفسه الأعمال التي يقوم بها من جهة المنطق والعقل، فالظالم يجد نفسه مجبراً على استخدام هذا الأسلوب ويبرر ذلك بالمحافظة على أمن الدولة وسلامتها، والمجرم يبرر لنفسه فعله الإجرامي، وما من أحد يرتكب خطيئة إلاّ بعد ما يتم تزيينها وتلوينها بألوان حسنة من جانب جنود الهوى لكي تمرّ أمام العقل دون اعتراض منه،

وهذا هو الرداء غير المرئي الذي ترتديه كل الأهواء والشهوات لكي تفتح لها مجالاً في قلب الإنسان وتمرّ أمم العقل وبجواز عبور منه، فنحن كبشر لا نقدم على عمل إلاّ بعد ما نصبغه بالصبغة العقلية، وذلك لكي لا نندم على ما نقترفه من أعمال ونحاسب أنفسنا عليها، ومن هذا الباب فإنّ الأهواء التي نعرف ضررها على صحتنا العقلية والنفسية لا نقدم على إرتكابها إلاّ بعد ما تأخذ مبرراً شرعياً ومنطقياً، بينما الأمور العقلية الحسنة لا تحتاج إلى أي مبررٍ للقيام بها.

ولبيان القوّة العظيمة لهذه الأهواء والشهوات، فقد وصلتنا عدّة أحاديث وروايات هذه بعضها:

عن الإمام علي عليه السلام قال: «**أشجع الناس من غلب هواه**»[1].

من يركض وراء هواه يسرع بنفسه إلى الأمراض والأسقام، فعلى مقدار العجلة تكون الإصابة بالمرض.

فمنهم من افتقر إلى رادع عقلي يمنعه.

ومنهم من احتوشته اللذة فأذهبت نصف عقله وفكره.

ومنهم من لم يجد الحزم في نفسه لمقاومة إغراءات الهوى.

ومنهم من أزاح كل القيم السماوية والمبادىء العقلية عن طريق أهوائه وشهواته وترك عنان نفسه لهواه يقوده كيفما يشاء، وهذا هو أسرع الناس استجابة لهواه وأكثرهم احتمالاً للإصابة بالأمراض النفسية والخُلقية، لأنّ الذي يتخلى عن ميزان القيم ليس أمامه إلاّ أن يتبنى ميزان الهوى.

---

(١) بحار الأنوار: ٦٧/ ٧٦.

والمصيبة أن الهوى نفسه لا يثبت على ميزان واحد، لأنّه خاضع لتقلبات النفس وأحوالها، فمرّة هو يميل بتطرف نحو اليسار، ومرّة أخرى يميل باتجاه معاكس وبتطرف أكبر نحو اليمين، وهذا ما شهدناه عندما تغيّرت الأنظمة السياسية في جمهورية الاتحاد السوفييتي السابق، فقد تحول زعماء تلك الجمهوريات من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين بلمح البصر، والسبب هو أنّ هؤلاء ما كانوا يتبعون ميزاناً قيماً ومبدئياً بل كان ميزان الهوى يسحبهم من جهة إلى جهة، فمرّة إلى هنا ومرة إلى هناك، وهم يسارعون إلى الشهوات.

فقد ورد عن الإمام علي عليه السلام أنّه قال: «**من تسرّع إلى الشهوات تسرّعت إليه الآفات**»[١] وكلمة الآفات هنا تشمل معنى الأمراض النفسية والبدنية، وفي حديث آخر قال عليه السلام: «**قرين الشهوة، مريض النفس، معلول العقل**»[٢].

وفي حديث ثالث، قال الإمام عليه السلام: «**الشهوات أعلال قاتلات، وأفضل دوائها اقتناء الصبر عنها**»[٣] ومن ذلك يتبين أنّ الصبر على الشهوات هو طريق لوقاية النفس من الأغلال التي وصفها الإمام بأنها قاتلات. فعلاوة على أن الصبر يتيح الفرصة للمرء كي يدرس أوضاعه وأحواله النفسيّة، فإنّه يساعد على اكتشاف المرض واستئصاله قبل انتشاره وتوسعه في القلب.

◎ صراع العقل والهوى

ومن كلّ ما مرّ لدينا من حديث نكتشف بالبداهة أنّ هناك صراعاً أبدياً بين قوى عظمى داخل النفس البشرية هما: العقل والهوى، فإذا حلّ العقل في موقع الزعامة في القلب ولّى الهوى وأدبر، وإذا استولى الهوى على القلب فإنّه سيضع حجاباً سميكاً أمام العقل بحيث لا يرى ولا يسمع، وهو معنى قوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌۖ﴾[٤] والعقل والهوى يتداخلان في كل صغيرة وكبيرة تخص الإنسان وهما يتصارعان للإستيلاء على القلب، ففي بعض الأحيان يكون العقل هو الغالب وفي أحيانٍ الهوى، ولكن في أغلب الأحوال نجد أن العقل والهوى يتقاسمان قلب الإنسان

---

(١) غرر الحكم ودرر الكلم: ٢/ ٢٠١/ ح٩٣٤.
(٢) غرر الحكم ودرر الكلم: ٢/ ٧٧ - ٧٨/ ح٧٨.
(٣) غرر الحكم ودرر الكلم: ١/ ٩٠/ ح١٨١٤.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٧.

فحسب درجة تحكم أحدهما في القلب تقابلها نسبة سيطرة الطرف الآخر، فإذا قلنا افتراضاً أن الهوى يسيطر على ثلث القلب، فإن العقل بالبداهة يتحكم بالثلثين الباقيين والعكس بالعكس، وقد تصل الحالة إلى درجة أن يكون لكل منهما حصة في جزء من عمل واحد، ولذلك يدعونا الإسلام إلى إخلاص النيّة في أداء العمل، لأنّ الهوى يتدخل حتى في تزييف النيّة أو الباعث الذي من أجله يقوم ذلك العمل.

وعلى الرغم من تأخّرهم من حيث الزمان عن الحقبة الإسلامية إلاّ أنّ علماء النفس الغربيين قد ألمحوا في كتاباتهم إلى وجود الصراع النفسي بين قوى النفس الخيّرة والشريرة.

وقد كشف فرويد أنّ قوّة الغرائز التي تُسمى: (بالهي) تتضامن مع قوة أخرى أطلق عليها اسم: (الذات العليا) وهي تمثل قوة المعايير الأخلاقية.

ويقول فرويد: أن الشخص الذي هو: (الأنا) يقع تحت ضغط هاتين القوّتين، وهو يرى مثلاً أن مصدر القلق العصابي هو الغريزة، فإذا زاد التوتر الغريزي زيادة كُبرى وزاد ضغط الذات العليا اعتبر ذلك مصدراً للضغط على الأنا.

ويضيف فرويد: وبعبارة أخرى أن القلق ينتج من الصراع بين قوتين في النفس، قوة الغرائز التي يعبر عنها بـ (الهي) والقوة المقابلة لها وهي قوة المعايير الأخلاقية، والتي تعتبر قوة رادعة معاقبة، والتي يعبّر عنها بالذات العليا، وأطلق عليها أيضاً بقوة الضمير(١).

ومن البديهي أن يتصوّر القارىء أن ما قدمه فرويد من مفاهيم في هذا الصدد هي تشبه إلى حد كبير المفاهيم الدينية، فهو يشير إلى الضمير والمعايير الأخلاقية التي تنبع منه، ولدينا (العقل) ويقدم لنا أيضاً قوة ثانية هي قوة الغرائز التي أطلق عليها فرويد: (الهي) إنّها هي الهوى التي ذكرتها الأديان السماويّة قبل آلاف السنين، وحذرت من أن غلبتها على العقل تؤدي إلى هلكة الإنسان، فهذه القوى الفتّاكة التي تمثل الشر تهاجم أقوى جهاز في النفس البشرية وهو العقل الذي يمثل قوة الخير، وحينما نريد معرفة قوة أي شيء فإننا يمكن أن ندرك ذلك من خلال معرفة نقيضه أو عدوّه، ولما كان العقل هو عدو الهوى سنعرف مقدار قوّة الهوى، لذلك نحن نعتقد بأنّ فرويد لم يأتِ بجديد في مجال الصراع النفسي، لأنّ الفكر الديني قد سبق إلى ذلك كما أننا لا نستبعد أن يكون فرويد قد اقتبس فكرته تلك من العقيدة الدينية!.

(١) راجع كتاب نقطة الضعف: ٤٢.

ولأجل توضيح صورة التناقض الحاصل بي الهوى والعقل نستطيع تشبيه العقل بإنسان منظّم يسير وفق برنامج دقيق في إطاره منهج ثابت، بينما الهوى يشبه الإنسان الفوضوي الذي ليس له منهجاً ثابتاً في الحياة، إذ هو لا يعمل على تنظيم شؤونه، ولا يحدد هدفاً لحياته، ولا يضع للزمن أهمية، فهو يتصرف كما يحلو له من دون حاجة إلى شريعة أو قانون، فمثلما لا يجتمع التنظيم مع الفوضى فإنّ العقل لا يجتمع أيضاً مع الهوى، وكيف يجتمع العدوين؟.

فقد جاء في حديث للإمام علي عليه السلام يقول فيه: «**الهوى أعظم العدوّين**»[1].

وقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «**احذروا أهواءكم كما تحذرون أعداءكم، فليس شيء أعدى للرجال من اتباع أهوائهم وحصائد ألسنتهم**»[2] وإذا اعتبرنا الهوى هو العدو رقم واحد للإنسان، فإنّه ينبغي أن نعرف أيضاً بأن هذا العدو الشرس له من القدرة ما يستطيع بها مهاجمة أقوى وأعظم جهاز في الإنسان وهو العقل، ولا بدّ هنا أن نفكر ونتدبر في مستوى القدرة التخريبية التي تمتلكها الأهواء لمواجهة هذا العقل العظيم.

فلنتخيل ساحة المعركة: جنود العقل وهم مسلحون بالمنطق والعلم، وجنود الهوى وهم مسلحين بالشهوات واللذّات، الهجوم يبدأ من جانب جنود الهوى وذلك عبر إشارات خاصة أو يمكن أن نعتبرها سهاماً سامة تضرب الخلايا الحساسة في مركز القلب، فإذا تحرك جنود العقل لمواجهة هذه السهام، فإن جنود الهوى سيرمونهم بسهام أقوى وأشدّ فتكاً حتى يخضع القلب كاملة لوسوسة الهوى واللذة، لأنّ سهام الهوى تحمل رسائل ذات مغازي ودلالات للقلب تُزين له اللذة المحرّمة وتقرّبه من الشهوة، فإنّ مال إليها تحكمت وتسلّطت وإن امتنع وعارضها تبقى على وسوستها وتزينها حتى تظفر به في زلة أو سقطة.

ولجنود العقل دروع من العلم والدين قوية تدفع هجوم الأعداء بالحجج والبراهين المنطقيّة، فإذا أخذ بها القلب أصبح المرء مسلحاً بالعلم والمنطق، وإن لم يفعل فإن قلبه سيكون وعاءً للجهل والخرافات، ولقد كشف لنا القرآن الكريم الإرتباط الدقيق والتأثير المباشر للهوى ليس على نفسية الإنسان فقط بل على عقله من خلال هذه الآية

(١) غرر الحكم ودرر الكلم: ١/ ٨٣/ ح١٧١٨.
(٢) بحار الأنوار: ٦٧/ ٨٢.

العظيمة: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ. . .﴾[١] فمن لا يسترشد بالعقل لا يجد بُداً من الاعتماد على الهوى كمنبع أساسي لأفكاره ومعتقداته. والهوى الذي وصفناه بالفوضى لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يثبت أو يستقر على دليل علمي أو عقلي، بل يمكن التأكيد أن نتاج الهوى هي مجرد ظنون لا تُغني عن الحق شيئاً، لأنها مجرد احتمالات غير علميّة فهي تصيبُ مرةً بالصدفة وتخطأ بألف.

● **وقد وصف الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة حال ذلك الإنسان الذي يتّبع الظنون النابعة من هوى نفسه بقوله: «. . . ورجل قمش جهلاً[٢]، موضع في جُهّال الأمة[٣] عادٍ في أغباش الفتنة[٤]، عم بما في عقل الهدنة[٥]، قد سماه أشباه الناس عالماً وليس به، بكّر فاستكثر من جمع، ما قلّ منه خيرٌ مما كثر، حتى إذا ارتوى من ماءٍ آجنٍ، وأكثر من غير طائل،[٦] جلس بين الناس قاضياً، ضامناً لتخليص ما التبس على غيره، فإن نزلت به إحدى المبهمات، هيّأ لها حشواً رثاً من رأيه، ثم قطع به[٧]، فهو من لبس الشبهات في مثل نسج العنكبوت[٨] لا يدري أصاب أم أخطأ، فإن أصاب خاف أن يكون قد أخطأ، وإن أخطأ رجا أن يكون قد أصاب، جاهلٌ خبّاط، جهالاتٍ، عاشٍ ركّابُ عشواتٍ[٩]، لم يعضَ على العلم بضرسٍ قاطع يُذري لروايات إذراء الريح الهشيم، لا مليء والله - بإصدار ما ورد عليه، ولا هو أهلٌ لما فوّض إليه، لا يحسب العلم في شيء مما أنكره، ولا يرى أنّ من وراء ما بلغ مذهباً لغيره. . .»[١٠].**

فهذا حال من اتّبع هواه فقاده إلى ظلام الجهل. وهناك أحاديث أخرى تكشف بوضوح مدى التناقض والتضارب بين الهوى والعقل.

---

(١) سورة النجم، الآية: ٢٣.
(٢) قمش جهلاً: أي جمعه.
(٣) مسرعٌ فيهم بالغش والتغرير.
(٤) مسرعٌ في ظلمات الفتنة.
(٥) أعمى عن بصيرته والأجل الذي ينتظره.
(٦) أي جمعه للجهل واكتنازه منه كمن يجمع الماء الآسن ويكتنزه لا طائل منه.
(٧) المبهمات: المشكلات - الرث: الخَلِقُ البالي.
(٨) فمن جهلة أنه إذا أثبت شيئاً عرضت له شبهة تنفيه وإذا نفاه عرضت له شبهة تثبته.
(٩) خباط: سار في الجهل - عاش: الأعمى أو ضعيف البصر.
(١٠) نهج البلاغة: خطبة ١٧/ ٥٩ - ٦٠.

فقد جاء في حديث للإمام علي عليه السلام أنّه قال: «**مخالفة الهوى شفاء العقل**»(١).

ويعني أيضاً أن طاعة الهوى سقم العقل، أو كما جاء في حديث آخر للإمام عليه السلام: «**آفة العقل الهوى**»(٢).

وفي حديث ثالث قال الإمام علي عليه السلام: «**غلبة الهوى يُفسد الدِّين والعقل**»(٣). وبطبيعة الحال فإن أول ما يعرض للإنسان نتيجة لغلبة هواه على عقله هو ميلانه عن سبيل الحق واتباع الباطل، ونقصد بالباطل هو كل تصور أو تصرف مخالفٍ للعقل والفطرة، فمن كانت لديه أفكار لا تستند على أسس علمية وعقلية فإنها تعتبر تصوّرات باطلة، ومن كان سلوكه من قول أو فعل مخالفة للعقل والمنطق فإنّه يعتبر تصرفاً باطلاً، فالحق والباطل يتدخلان في كلّ صغيرة وكبيرة في حياة الإنسان، لذلك فهما يتأثران بنتائج الصراع بين الهوى والعقل، فإذا غلب الهوى مال الإنسان إلى جهة الباطل في تصوّراته وتصرفاته، وإذا غلب العقل مال الإنسان إلى سمت الحق وتغيرت تصوراته وتصرفاته. ونستطيع أن نلاحظ ذلك بدقة من خلال ما نشاهده من تغيير عميق يحدث في داخل الإنسان عندما ينقلب من الفسق إلى الإيمان، وكأنه يصبح إنساناً آخر يفكر بطريقة مغايرةٍ كما سبق، ويتكلم بمنطق آخر ويتصرف بأسلوب مخالف لما مضى.

قال المجلسي قدس سره: أن أصحاب الرياضات والمجاهدات كلّما أمعنوا في قهر القوى البدنية وتجويع الجسد، قويت قواهم الروحانيّة، وأشرقت أسرارهم بالمعارف الإلهية، وكلما أمعن الإنسان في الأكل والشرب وقضاء الشهوات الجسدانية صار كالبهيمة، وبقي محروماً عن آثار النظر والعقل والفهم والمعرفة، ولولا أنّ النفس غير البدن لما كان الأمر كذلك(٤).

وهكذا يثبت هذا التحول وجود قوتين متصارعتين للإستيلاء والسيطرة على قلب الإنسان، وأنّ المنتصر بينهما هو الذي يفرض شروطه وآراءه وقوانينه على الطرف المنهزم أو المنكسر في المعركة، هاتان القوتان هما العقل والهوى، وكما أشرنا سابقاً فإنّهما قد يتقاسمان دائرة النفوذ بالطبع من دون أن يكون هناك إتفاق سري أو علني

---

(١) غرر الحكم ودرر الكلم: ٢/ ٢٨٢/ ح٧٩.
(٢) غرر الحكم ودرر الكلم: ١/ ٢٧٢/ ح١٠.
(٣) غرر الحكم ودرر الكلم: ٢/ ٤٩/ ح٣٤.
(٤) بحار الأنوار: ٥٨/ ١٨.

بينهما، ولكن في إطار سياسة فرض الأمر الواقع يسعى كل واحدٍ منهما الإبقاء على المناطق التي تخضع لنفوذه، ومن علامات إستيلاء الهوى على قلب المرء أن يصيبه العمى والصمم، فلا يرى الباطل ولا يسمع الحق.

ومما ورد من أحاديث الإمام علي عليه السلام في هذا الشأن قوله: «**أوصيكم بمجانبة الهوى، فإنّ الهوى يدعو إلى العمى، وهو الضلال في الآخرة والدنيا**»(١).

وقال عليه السلام أيضاً: «**إنّك إن أطعت هواك أصمّك وأعماك، وأفسد من قلبك وأرداك**»(٢).

وقال عليه السلام أيضاً: «**من اتّبع هواه أزلّه وأضلّه**»(٣). والأهواء بمثابة الأغلال التي تقيد الإنسان، وهي معه حتى آخر عمره، ولها تأثيرات على حياته الخاصّة والعامّة، فمن نتائج تحكمها وتسلطها على القلب:

١ - تدمير الاعتقادات الإيمانية لدى الفرد:

ولا فرق أن يكون مسلماً أو مسيحياً أو يهودياً أو غير ذلك، لأنّ الهوى إذا حلّ في قلب الإنسان فإنه لن يسمح لمثل هذه الاعتقادات أن تبقى معه في مكانٍ واحدٍ، أضف إلى أنّ هذه الاعتقادات تعتبر مثل قوانين تنظم وتحدد سلوك الإنسان، وهي تضع الهوى في فقصٍ ضيق، وهو ما يتضارب مع الحالة الفوضية للأهواء التي تريد أن تكون حرة وطلقة كي تحقق لذتها، ومن هنا يقع النزاع بين إيمان الإنسان وهواه.

وعلى المرء أن يختار بين إعتقاداته وبين هواه، أقول هذا: لأن هناك من يميلون إلى إتباع الهوى دون أن يدركوا بأنّ ميلهم هذا سيضعف إيامنهم ويزلزل اعتقاداتهم، فهم يرغبون أن يكونوا مؤمنين حقيقيين وفي نفس الوقت يلبون أوامر أهوائهم ولا يجدون أي تناقض في ذلك! وقد لا ينتبه هؤلاء الأشخاص إلى أنّ التحولات المنطقية تجري في داخلهم بإرادة منهم أو من دون إرادة، ولا نقصد بأن يكونا مسلوبي الإرادة! كلا.. وإنما تجري التحولات عليهم بشكل حتمي بعد ما هم يبادرون إلى إتخاذ القرار غير السليم أو إتباع السلوك المضر، فالقرار الأوّل كان بيد الإنسان ولا بدّ أن يتحمل تبعاته

---

(١) مستدرك الوسائل: ١٢/ ١١٣/ ح١٣٦٦٦، باب ٨١ من أبواب جهاد النفس.

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم: ١/ ٢٦٠/ ح٢١.

(٣) غرر الحكم ودرر الكلم: ١/ ٢٤٢/ ح١٥١٥.

التي عادةً ما تكون خارج نطاق سيطرته وإرادته، فمن يرتكب جريمة القتل فإنّ تبعات هذه الجريمة ستلاحقه حتّى توقع فيه العقاب، أو من كان مؤمناً واستولى الهوى على قلبه فيما بعد، فإنّ الإيمان سيُنتزع من قلبه حتى يرى نفسه في صفوف غير المؤمنين من حيث التفكير والمنطق والسلوك، فإذا وقف مع نفسه في لحظة تأمل حقيقية أدرك في قراراته أنه قد ابتعد عن عالم الإيمان الذي كان يحلم به من قبل، فليس كل ما يحبّ المرء يثبت في قلبه بل عليه أن يرسخ ذلك الحب من خلال سلوكه وعمله، فمن يحب أن يكون مؤمناً عليه أن يُثبت ذلك في واقع الحياة ولا يدع قلبه يكون مرتعاً للأهواء، لأنّ الإمام علي عليه السلام يقول: «**غلبة الهوى يُفسد الدين والعقل**»(١).

٢ - الأهواء تخدّر العقل:

وكنا قد فصّلنا الحديث فيما سبق في هذا الشأن ولا داعي للإطالة، إلّا أنه وبشكل مختصر يمكن القول أنّ الأهواء تأخذ مكان عقل الإنسان الذي سيطرت عليه الأهواء.

٣ - قوّة الأهواء يقابلها ضعف الإرادة:

فمن سمح لأهوائه بالزعامة ضعفت قوته عن مواجهتها، وهزلت إرادته عن مقاومتها، وكلّما استزاد من الأهواء كُلّما ضعف عزمه عن مقابلتها حتى يصير الإنسان عبد شهوته وهواه ولا يقدر أن يعصي لهما أمراً.

ومن يريد أن يشحذ همته ويقوي عزيمته لنزاع جيش الأهواء عليه ان يضع خطةً محكمةً لذلك ولا يتساهل في الأمر، مثلما فعل طوال تلك السنين الماضية عندما استولّت تلك الأهواء والشهوات على قلبه وتحكمت بإرادته، فالمرء في مثل هذه الحالات يكون بحاجة إلى عزيمة قوية وعونٍ من الباري عزّ وجل، لأنّه مثلما قلنا سابقاً أنّ التحوّل الذي يحدث داخل الإنسان من سيطرة الهوى إلى سيطرة العقل يجعله إنساناً آخراً، بل وينقله من عالم إلى عالم آخر. هذه الانتقالة العظيمة وهذا التحول الكبير من أجل الإستقرار عليه يكون عادةً بحاجة إلى إرادة فولاذية تجعله يصبر على مفارقة اللذّات والشهوات التي كانت فيما سبق متحكمةً به. وفي حديث للإمام علي عليه السلام يقول فيه: «**من قوي هواه ضعُف عزمه**»(٢).

---

(١) غرر الحكم ودرر الكلم: ٢/ ٤٩/ ح٣٤.

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم: ٢/ ١٦٤/ ح٣١٤.

٤ - الأهواء منبع الشرور في الإنسان:

فهي تضرب القانون الذي يحكم الإنسان وهو العقل، فإذا خالف المرء قانون عقله فما الذي يمنعه بعد ذلك من مخالفة القوانين التي تحكم المجتمع؟ فإذا انضبط الإنسان من الداخل ينضبط أيضاً من الخارج، ولعلّ المشكلة الكبيرة التي تُعاني منها المدنية الحاضرة هي هذه: أنّها تريد أن تضبط الإنسان من الخارج عبر القانون المدني، بينما الإسلام يقوم أولاً بتربية الإنسان من الداخل، وترسيخ نقاط القوة في داخله مثل تنشيط العقل وازاحة الهوى عن طريقه، وثم تنظيم علاقته مع بقية أفراد المجتمع بأطر وقوانين منسجمة مع تلك التي في داخله، لذلك قيل: إن النظام الأصلح للبشرية هو الذي تنسجم شرائعه وقوانينه المدنية مع متطلبات الإنسان الذاتية: من عقلية ومادية.

فمثلما يحتاج الإنسان إلى الطعام فإنّه أيضاً يكون بحاجة إلى غذاء ينمّي به عقله، ويعينه على تدبير أموره الحياتيّة، ويساعده على حلّ مشكلاته المستعصية، إنّ الدخول إلى قلب الإنسان ومحاولة البحث والتقصي عن نقاط الضعف والقوّة في داخله، ثم وضع العلاج لذلك قبل استفحال الأمراض النفسيّة، هو الذي يمنع من إزدياد عدد المجرمين في بلادنا، ولا بدّ أن نعرف قبل هذا كله أن (الهوى هو منبع الشرور) ولإثبات ذلك نقول:

إنّ هوى كلّ فرد يتعارض مع هوى الأفراد الآخرين ومن هنا يحدث الصدام وتقع المشاحنات، لا سيما مع قلّة الموارد والنعم فإنّه لا يمكن تلبية كل أهواء الناس لذلك تبقى هناك أهواء مكبوتة، قد يتم التعبير عنها لدى بعض الأشخاص بصورة شريرة.

فمن يكون عبداً مطيعاً لشهوته الجنسية قد يقوده ذلك إلى قتل إنسان كما فعل قابيل مع أخيه هابيل.

ومن يكون عبداً لشهوة السلطة فقد يقوده ذلك إلى أفظع الشرور كما فعل فرعون بموسى عليه السلام وببني إسرائيل.

ومن يكون عبداً لشهوة الإنتفاع فقط يقوده ذلك إلى إرتكاب أفظع الجرائم كما فعل ذلك يزيد بن معاوية بالإمام الحسين عليه السلام انتقاماً لمقتل جدّه وأخواله.

ومن يكون عبداً لشهوة المال فقد يقوده ذلك إلى السرقة... وهكذا ما ترى من جريمة يرتكبها الإنسان وإلا ولها صلة بهوى يقوده إلى حتفه.

وقد صرح الإمام علي عليه السلام في حديث له: أن «**سبب الشّره غلبة الشهوة**»[(١)] فمن تغلب عليه هواه سيأمره بأن يفعل كلّ ما من شأنه تحقيق اللذة والشهوة وإن تعذر تحقيقها عن طريقٍ طبيعي فإنها ستفرض عليه اللجوء إلى طرق غير شرعية.

٥ - الهوى منبع الأمراض النفسيّة:

من أوضح النتائج التي تصيب الإنسان نتيجة إستيلاء الهوى على مقدراته هو إصابته بأسوأ الأمراض النفسية المهلكة، والتي قد تدفعه في بعض الأحيان إلى الإنتحار أو تقلب حياته رأساً على عقب إلى الحد الذي يتمنى معها الموت.

ولنا أن نتخيل الحالة الصعبة التي يمرّ بها مثل هذا الإنسان حتى يصبح الموت بلسماً لعذاباته، الموت الأحمر! هذا البعبع الذي يرهبه ويهابه جميع الناس، يصبح أمنية يتمناها المرء ليخلص نفسه من أوجاع روحه، وعلينا هنا أن نبحث بجد عن الخلل الرئيسي والمسبب لكلّ الآلام والأمراض النفسيّة! ونسأل ونقول من أين تأتي هذه الأمراض؟.

ولكي نتدرج بشكل موضوعي ونعرف مراحل تطور الإصابة بالمرض النفسي علينا أن نبدأ من أعلى الهرم حتى نصل إلى قاعه، فنقول:

في المرحلة الأولى: يحثّ الهوى ويزيّن الشهوة.

وفي المرحلة الثانية: ينقاد المرء إلى اللّذة الموجودة في الشهوة.

وفي مرحلة ثالثة: يتعود على تلك الشهوة فهي تتحكم فيه.

والعادة السيئة تقود إلى المرض فهي المرحلة الرابعة. إذن فالمراحل الأربعة للإصابة بالمرض النفسي هي:

١ - الهوى.

٢ - اللذة.

٣ - العادة.

٤ - المرض.

وللمثال على ذلك نقول: يعتبرُ الخوف حاجة طبيعية للإنسان كي يستطيع حماية

(١) غرر الحكم ودرر الكلم: ١/ ٣٩٠/ح٢٣.

نفسه من الأخطار المحدقة به من الخارج والداخل، ولكن يصبح هذه الخوف مرضاً عندما يستولي على كيان الإنسان ويشلّ حركته ويربك حياته الفرديّة والإجتماعية، وهو ما يمكن أن نطلق عليه بالخوف المفرط فمنبعه هوى حب الدنيا، ولذته حب البقاء، وعادته الخوف من كلّ شيء مع الخطر أو بدونه، ولو بحثت في جميع الأمراض النفسية غير الناتجة عن سبب عضوي ستجد أن لها علاقة بشكل من الأشكال من الأشكال بالهوى، وكان قد توصل فرويد إلى ما يشبه هذه الحقيقة إلا أن تفسيره لم يكن متكاملاً فهو الذي يؤكد وجود الصراع النفسي، فإنّه في نفس الوقت اعتبر أنّ الإصابة بالأمراض النفسية هي نتيجة لهذا الصراع، بينما التقييم الإسلامي يذهب إلى أن الإصابة بالأمراض هي نتيجة تغلب الهوى على العقل في ذلك الصراع النفسي، لأنّ هذا الصراع طبيعي وهو مستمر مع الإنسان حتى مماته إلاّ أن نتائجه هي التي تغير مجرى حياته، فمثلما نتائج الحروب هي التي تعين مصير الدول والأمم كذلك تتبين حقيقة الإنسان عند نهاية الصراع بين هواه وعقله.

٦ - الهوى منبع الصفات السيئة:

يستطيع المرء أن يمسك بزمام أمور نفسه وأهوائه المضلة ما لم تتحكم وتتسلط، فإذا تسلطت وتحوّلت إلى صفة للإنسان فإنّه سيتعسر عليه قلعها من نفسه، فلنعود إلى بداية الإنسان ونقول: أنّ الإنسان ينشأ على فطرة العقل سالماً من الهوى ومن الصفات الذميمة ذو قلب أبيض سليم ولكنه يتغير بمرور الزمان وتقادم الأيّام، ومن ذلك تتغير تصوراته وصفاته وتصرفاته ونحن الآن معنيّون بالتغيرات التي تطرأ على صفاته، فكيف يمكن تفسير إنقلاب بعض الصفات الحسنة لدى الطفل إلى صفات سيئة عندما يبلغ الرشد؟ هل العقل يقضي بذلك أم أنّ هناك أسباباً أخرى؟

بالطبع لا يجوز أن يأمر العقل بتصرف غير لائق... وكما بيّنا من ذي قبل فإنّ الهوى هو الذي يأمر بالسلوك السيء، وهو الذي يفرش الأرض ورداً من خلال وساوسه لكي تتحول تلك التصرفّات شيئاً فشيئاً إلى صفات لا تنفكّ عن شخصيته، ويمكن تشبيه الصفات الحسنة والصفات السيئة كقلبين أحدهما أبيض والثاني أسود، فإذا زحفت إحدى الصفات السيئة من القلب الأسود إلى القلب الأبيض، انتقشت نقطة سوداء في القلب الأبيض، فإذا اتسع السواد تغيّر اللون الأبيض إلى أسود والعكس بالعكس، لأنّه مقابل كلّه صفة حسنة تقف صفة سيئة تصارعها وتنازعها كي تأخذ مكانها وتحتل موقعها في القلب، والهوى هو الذي يقود هذا النزاع نيابة عن الصفات السيئة

بينما العقل ينو الدفاع عن الصفات الحسنة، وينطلق الهجوم أولاً من جانب الهوى فهو يهاجم الصفات الحسنة، فإذا كان الإنسان كريماً قال له هواه: لو استمريت على كرمك هذا لنفذ مالك!! لماذا تهدر أموالك هنا وهناك من غير فائدة ترجوها؟ أو يقول: لماذا تكرم زيداً إنّه لا يستحق كرمك!.. وهكذا ترى الهوى يثبّط فعل الخير، ويمنع سبيل المعروف، ويفتك بالصفات الحسنة، ويُزين الصفات السيئة، ففي مهاجمته لصفة الكرم هناك دعوة مبطنة للشخص كي ينتحل صفة البخل.

وكلّ إنسان لديه الاستعداد للإتصاف بالصفات السيئة لأنّها ليست بعيدة عنه بل هي قريبة إلى الحدّ الذي يتخيل أنّه يكون في أمان إذا كان معها، فهذه الصفات هي نتيجة الإفراط في تلبية الحاجات أو ردع المخاوف النفسيّة، وللمثل على ذلك نقول:

إنّ لدى كل واحد منا مخاوف من المستقبل ومخاوف أخرى من إمكانيّة نفاذ المال، فإنّ هذه المخاوف تجرنا إلى صفة البخل ونفس الشيء بالنسبة إلى الجُبن، فإن سببه يعود إلى وجود مخاوف من خطر يحدق بحياة الإنسان، أما بالنسبة للحاجات فإن التكبر هو حالة مفرطة من حاجة الإنسان إلى الثقة بنفسه والإعتزاز بكرامته، فالإفراط في تلبية الحاجات والركون لتلك المخاوف يؤدي إلى الإتصاف بصفات سيئة، وأنّ الهوى هو الذي يحثّ على الإفراط في تلبية تلك الحاجات وهو الذي يوحي بالضعف، أمام مخاطر الحياة ومخاوفها.

◎ علاج الهوى

لقد قدم الإسلام للإنسانية أعظم دواء لأعظم داء، فقد جعل العقل مقابل الهوى يردعه ويمنعه واشترط لفاعلية العقل أن يكون يقظاً متنبهاً لألاعيب الهوى، لا تفوته شاردةٌ ولا واردةٌ، ولا يغفل عن شهوة دخيلة ولا لذةٍ قد تكون من ورائها حسرة، فجنود العقل هم بمثابة الكريّات البيضاء التي تدافع عن سلامة البدن وصحته، ولولا القوة الكامنة في هذه الكريات لمهاجمة الجراثيم لما تمكنت من تحقيق السلامة البدنية، إذن لا بدّ أن يتمتع العقل بقوّة كافية حتى يستطيع صد الهجوم الذي يقوده الهوى، وفي سبيل تنميّة العقل واتّساع قدرته يحث الإسلام المرء على طلب العلم، لأنّ العلم سلاحٌ فعال يدافع به العقل عن نفسه ويهاجم به عدوه، وقد جاء عن الإمام الباقر عليه السلام قوله: «**توقّ مجازفة الهوى بدلالة العقل، وقف عند غلبة الهوى باسترشاد العلم**»[(١)].

---

(١) بحار الأنوار: ٧٥/ ١٦٣.

وفي حديث آخر وصف الإمام علي عليه السلام أقوى الناس بقوله: **«أغلب الناس من غلب هواه بعلمه»**[١].

فلم يترك الإسلام العقل منفرداً في نزاعه مع الهوى بل طلب من المسلم أن يحمل أسلحة إضافية مع العقل حتى يتمكن من صد هجمات الهوى والدفاع عن المنظومة النفسية، وإن أحسنّا استغلال العقل عمل كالسيف البتّار في مهاجمته للهوى والشهوات فهو قاطع حازم، كما بيّنه الإمام علي عليه السلام: **«الحلم غطاء ساتر والعقل حسام قاطع، فاستر خلل خُلقك بحلمك، وقاتل هواك بعقلك»**[٢]

ويستدل بالعقل على مواقع الشهوات والأهواء لأنّها غير مرئية، فالعقل ينظر بعيون ثاقبة وفكر نيّر.

فعلى المرء أن يتّبع الطرق التي تؤدي به إلى تنمية عقله وأفكاره ليدخل الحرب، وهو مجهز بكامل عتاده، وأن يغذي نفسه بالحكمة، فنورها يخيم على ظلام الشهوات، ومحركاً لعزيمة المرء على الثبات، ومقاومة اللذات، وكان الإمام علي عليه السلام قد وصّى بالحكمة لأنّها تقلل من تحكم الشهوة، فقال: **«كلّما قويت الحكمة ضعفت الشهوة»**[٣]

ومما يضعف الشهوات والأهواء: الإرادة والقدرة، فكلّما قويت الإرادة عجزت الشهوة عن فرض سيطرتها وتحكمها على القلب.

فقد جاء عن الإمام علي عليه السلام قوله: **«إذا كثرت المقدرة قلّت الشهوة»**[٤] وأن الكفاف عما لا يجوز فعله من المحرمات العقليّة والدينية يساعد على تنمية الإرادة وتقويتها على حساب الشهوة التي ستتراجع قوتها أمام العقل، ففي حديث للإمام علي عليه السلام أنّه قال: **«العفّة تضعف الشهوة»**[٥]

وكذلك حبّ الآخرة والزهد في الدنيا يضعف اللذّات والشهوات، فعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: **«من أحب الدّار الباقية لَها عن اللذّات»**[٦].

---

(١) غرر الحكم ودرر الكلم: ١/ ١٩٨/ ح٣٥٧.
(٢) نهج البلاغة: حكم ٤٢٤/ ٥٥١.
(٣) غرر الحكم ودرر الكلم: ٢/ ١١١/ ح١٢.
(٤) بحار الأنوار: ٦٩/ ٦٨.
(٥) غرر الحكم ودرر الكلم: ١/ ١١٨/ ح٢١٧٠.
(٦) غرر الحكم ودرر الكلم: ٢/ ٢٠١/ ح٩٣٨.

وعنه عليه السلام أيضاً: «**من اشتاق إلى الجنّة سلا عن الشهوات**»[(١)].

وذكر الموت ومعرفة أنّ دار الدنيا فانية يساعد أيضاً على تضعيف الشهوات، فقد أوصى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: «**إذكر أنك ساكن القبر فيمنعك ذلك عن كثير من الشهوات**»[(٢)].

ومن خلال الأحاديث الشريفة التي أوردناها بشأن موضوع الهوى نصل إلى حقيقة نهائية هي أنّ علاج الهوى يكون عن طريق مخالفته، وليست هذه مجرد كلمة تُقال باللسان بل تحقيقها يتطلب مجاهدة حقيقية من قبل المرء لأهوائه وشهواته في إطار برنامج دقيق، لأنّه لو كان المطلوب هو مخالفة عدو ظالم لسهل الأمر، بينما المطلوب هو مخالفة اللذّات المحرمة عقلاً وشرعاً، مخالفة كل ما يرغب إليه الإنسان ويحبّه من الأمور التي لو تمادى فيها أوردته موارد الهلكة من الأمراض والخصال السيئة، ويبالغ الرجال الصالحون بترويض أنفسهم ومجاهدة أهوائهم عندما يقمعون كل هوى حتى وإن كان مباحاً لهم إتيانه، لكي لا يَدعوا أي مجال للهوى كي يتغلغل في ذواتهم.

أما أولئك الذين تلعب الأهواء بمقدرات حياتهم، فإنه يتعين عليهم أن يتبعوا طريقةً علمية لمحاربة أهوائهم الفاسدة، فلكل واحد منا نقطة ضعف تجاه غريزة معينة أو لذة من اللذات، فعلينا أولاً أن نكتشف نقطة الضعف تلك، لأنّها تعتبر منافذ لدخول فيروسات الأهواء، ومن ثم محاولة سدّ هذه الثغرات وتحويل نقطة الضعف إلى قوة.

ولا تتحقق مخالفة الهوى إلاّ عبر ثلاث طرق:

أولاً: صيانة النفس عن اللذّات المحرمة.

ثانياً: ترويضها بالعلم والحكمة.

ثالثاً: اجهادها بالتعويد على الخير والعبادة.

يقول المفكر الإسلامي الشهيد السيد حسن الشيرازي (قدس سره) في كتابه خواطري عن القرآن:

(أن الإنسان أكبر من هذا الكيان الأرضي، وأكبر من هذه الكتلة الصغيرة من العناصر الترابيّة المركبة تركيباً بشرياً، إنه ذلك اللقاء الفريد بين رغبات الأرض ونفحات السّماء، وهو بروحه المتنقلة بين العوالم أكثر مما هو بجسده المزمن على

---

(١) نهج البلاغة: الحكمة ٣١/ ٤٧٣. (٢) المحجة البيضاء: ٥/ ١٩٩.

الأرض، فهو ليس أكثر من زورق مرحلي يجتاز بحيرة الدنيا، ولذلك: لا يقيّم بوزنه وإلّا لكان الثور أثمن منه، ولا بلونه وإلّا لكانت اللوحة الفنيّة أثمن منه، ولا بشجاعته وإلّا لكان الأسد أثمن منه، ولا بقوّته، وإلا لكان الفرس أثمن منه، ولا بسائر مزاياه الجسديّة، وإلاّ لما وجدنا أصحاب المزايا الجسدية في الشوارع وفاقدي المزايا الجسدية على مقاعد الرئاسات(١).

ثم يقول قدس سره: (إنّ الذي يملكه الإنسان هو ما يكون من سنخه فينمّيه بصفته لقاء الأرض والسماء، وذلك هو سعي الإنسان لأن سعيه تحركه، وتحركه ملكه لأنّ الحركة تفتح ذاتيات المتحرك، وتفتح لها المجالات لتسير نحو التكامل وتأخذ مداها فتبلغ بصاحبها قمته، فسعي الإنسان هو الشيء الوحيد الذي يملكه في الحياة لأنّه يصدر منه ويعود إليه، فهو المصدر والمصب لسعيه)(٢).

من هذا يتبين لنا أنّ الإنسان عليه أن يُعالج جيمع الثغرات التي تؤدي إلى الانحراف سعياً لصيانة النفس الإنسانية من الوقوع في المهالك، ولا يتحقق ذلك إلاّ بالسعي والمجاهدة.

ولدينا العشرات من الأحاديث الشريفة التي تحث على مخالفة الهوى ونبذ الشهوات إلا أننا سنأتي على بعضها ونشير في البداية إلى الآية الكريمة: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾(٣) فهذه الآية تقرر أن نتيجة مخالفة الهوى هو كسب رضا الله والدخول إلى جنّة الخُلد، وقد تحمل هذه الآية معنى آخر دنيوي هو: أنّ من يخالف هواه يعيش سعيداً وسالماً من الأمراض النفسيّة كمن يعيش أحلى أيّام حياته في جنة الخُلد، ونقرأ في حديث للإمام علي عليه السلام إذ يعتبر مخالفة الهوى هو ضمان لسلامة العقل من الأوهام والظنون والأمراض الفكرية، فقد جاء في حديثه: «**مخالفة الهوى شفاء العقل**»(٤).

وفي حديث آخر اعتبر الإمام علي عليه السلام مخالفة الهوى بمثابة إتّباع العلم والحكمة فقال: «**من خالف الهوى أطاع العلم**»(٥).

---

(١) خواطري عن القرآن: ٣/ ١٤٧-١٤٩.
(٢) المصدر نفسه: ٣/ ١٤٨-١٤٩.
(٣) سورة النازعات: ٤٠ - ٤١.
(٤) غرر الحكم ودرر الكلم: ٢/ ٢٨٢/ ح٧٩.
(٥) غرر الحكم ودرر الكلم: ٢/ ١٧٧/ ح٥٣٤.

وفي حديث ثالث جعل الإمام مخالفة الهوى والنفس كدليل على الإستقامة: «**خالف نفسك تستقم**»(١) والإستقامة هي السير على درب واضحة.

ولمخالفة الهوى فضيلة قلّ ما ينتبه إليها الناس وهي: أن يحوز المرء على خاتمة أمره ويدرك خاتمة عمله، بينما الذي تقوده الشهوات عاجز عن متابعة عقله ومخططاته، فهو يتنازل في أكثر الأحيان عنها لمجرد تعرّض لذّاته للخطر، فهو يترك الدراسة وطلب العلم لأنّ ذلك يتطلب منه العناء والسهر، ويستدعي منه التقليل من لذّة النوم والرّاحة والاستجمام، فمن يستطيع مخالفة هواه يتمكن من أن يرى ثمار خاتمة عمله، وكذلك الأمر ينطبق على الحالات النفسية المؤقتة التي تمر على الإنسان، فإنّه لو كان مخالفاً لهواه لتمكّن أن يتحكم بانفعالاته العصبية، بينما نجد أن العاجز عن مواجهة هواه هو عاجز بالضرورة عن ضبط انفعالاته هذه، وقد يؤدي به الغضب في أحيان إلى قتل النفس التي حرم الله، فمن يريد أن تكون خواتيم أموره وأعماله بيده فالطريق لذلك واضح هو: مخالفة الهوى.

ولمن يريد أن يختبر نفسه ويعرف قدرها، وهل أنّه من أتباع الهوى أم من أتباع العقل؟ فهناك علامات للسلامة النفسية منها:

أولاً: ظهور رجاحة العقل: فقد جاء عن الإمام علي عليه السلام قوله: «**من غلب شهوته ظهر عقله**»(٢).

وفي مخالفة ذلك قال الإمام عليه السلام: «**من لم يملك شهوته لم يملك عقله**»(٣).

ثانياً: سلامة النفس من الكدورات: فقد قال الإمام علي عليه السلام: «**خالف الهوى تسلم**»(٤).

ثالثاً: أن يكون ذو عزة وكرامة: لأنّ عبد الهوى هو ذليل لغرائزه ولذّاته، فهو يهدر كرامته من أجل تحقيق اللذة، وهنا قال الإمام عليه السلام: «**حلاوة الشهوة ينغّصها عار الفضيحة**»(٥).

---

(١) غرر الحكم ودرر الكلم: ١/ ٣٥٨/ ح٥٣.
(٢) غرر الحكم ودرر الكلم: ٢/ ١٦٤/ ٣٠٨.
(٣) غرر الحكم ودرر الكلم: ٢/ ٢٢٩/ ١٣٤١.
(٤) غرر الحكم ودرر الكلم: ١/ ٣٥٦/ ح٢٤.
(٥) غرر الحكم ودرر الكلم: ١/ ٣٤٣/ ح١٩.

رابعاً: سلامة القلب من التعصب الأعمى: فمن يمرضه الهوى يقسو قلبه، فلا يترك للحق مجالاً أن يتغلغل في قلبه، فقد ورد في القرآن الكريم: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[1].

خامساً: الإنعتاق من كل الأغلال النفسيّة: لأنّ عبد الهوى يشعر بعجزه أمام كلّ شيء، فقد نُقل عن الإمام علي عليه السلام قوله: «**عبد الشهوة أسيرٌ لا ينفك أسره**»[2].

سادساً: حسن السريرة وسلامة اللسان: لأنّ فحش اللسان وسوء السريرة من الهوى.

سابعاً: قوّة العزيمة والإرادة: فهذه أيضاً من علامات سلامة النفس!.

● **عن عبد الله بن جبلة، عن حميد بن شعيب، عن جابر بن يزيد، عن أبي جعفر عليه السلام قال: لمّا احتضر أمير المؤمنين عليه السلام جمع بنيه فأوصاهم ثمّ قال: يا بنيّ إنّ القلوب جنود مجنّدة، تتلاحظ بالمودّة وتتناجى بها، وكذلك هي في البغض، فإذا أحببتم الرجل من غير سبق منه إليكم فأرجوه، وإذا أبغضتم الرجل من غير سوء سبق منه إليكم فاحذروه**[3].

◎ الشرور من محفّزات الخير

قال العلماء: حتى الجراثيم والميكروبات المسبّبة للأمراض فلهجومها المستمر الأثر البالغ في تنشيط خلايا الجسم، وجعلها في حالة دفاعية دائماً إلى درجة يعتقد بعض العلماء إنه لو لم تكن هذه الميكروبات لكان بدن الإنسان ضعيفاً.

وكذا إنّ المؤمن إذا أحسّ بخطر على عقيدته يسعى جاهداً للمعرفة والتدرّع بسلاح العلم. كما إنّ من جملة ما يصنع عظماء الرجال هي شدائد الأمور والبلايا حتّى قالوا: أنّ الكثير من حالات الحرمان تصير سبباً لتحريك الإستعدادت بل ربّما كانت سبباً لقفزات علمية أو اجتماعيّة أو ماديّة، وقد ورد عن علي عليه السلام: «**ألا وإنّ الشّجرة البرّيّة أصلب عوداً**»[4].

والبشر يخضعون لهذا القانون.

---

(١) سورة الجاثية، الآية: ٢٣.
(٢) غرر الحكم ودرر الكلم: ٢/ ٤٠/ ح١٥.
(٣) البحار ج٥٨، ص١٤٩، ح٢٧.
(٤) نهج البلاغة: كتاب ٤٥/ ٤١٨.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾[(١)].

النور: هو الإعتقاد الحقّ بما ترتفع به ظلمة الجهل وحيرة الشّك واضطراب القلب، والنور هو صالح العمل من حيث أن رشده بيّن أثره في تحقيق السعادة، والظلمة هي الجهل والريب وطالح العمل كلّ ذلك بالاستعارة، والخير كلّ ما له مدخلية في سعادة الإنسان دنيا وآخرة، والشرّ هو الضرر أو الشيء القبيح، أو عدم الوجود، أو عدم كمال وجود أو عدم كمال الشيء من حيث هو مستحق له، أو فقدان كل شيء ما هو من شأنه كالموت والفقر والجهل. والخير هو النفع الحسن، الثواب والفضل، حصول شيء يناسب شيئاً، وجدان كلّ شيء كماله اللائق، الصلاح.

والنور كيفية يكون بها الجسم ظاهراً والظلمة فقدان النور، والخير هو غاية الغايات والخير كل ما يصبو إليه الإنسان بفطرته حيث من أنه من أجله خلق.

فالخير والشرّ فطريّان لا مجال لإنكارهما وإنّما يقع النزاع في تشخيص المصاديق، فإن فسّر الخير بالوجود والشرّ بالعدم كان التقابل بينهما تقابل السلب والإيجاب. أو الخير كلّ ما يتناغم مع وجودنا ويسبّب تكامله وتقدّمه والشرّ بعكسه. والخير هو الأصل حيث أنّ الأشياء في ذاتها ليست إلاّ خيراً، وقد تؤدي إلى عدم شيء، فيقال لها شرّ للعرض لا بالذات.

ومن البديهية أنّ الله تعالى جعل الفطرة قادرة على تمييز كلّ من الخير والشرّ كما يميز العقل أنّ الكلّ أعظم من الجزء.

وحكي عن الشيخ ابن سينا في الشفاء والنجاة: إنّ ما يشاهد من الشرور في عالم المادّة مثل الأمراض والأحزان والآلام، فإنّها إمّا من صنف الأفعال غير المناسبة، أو من مبادئها التي هي من الملكات الأخلاقية والهيئات الراسخة الظلمانيّة النفسانية، أو من النقص في المحلّ القابل الفاقد للكمال. أمّا الأمراض والآلام والأحزان فمنشأها النقص[(٢)].

والعدم في محلّ قابل للكمال فمثل الآلام المحسوسة من إحتراق اليد، هو أمر وجودي يدرك من جهة تفرّق أجزاء اليد، فهو مرتبط بأمر عدمي هو عدم اتصال أجزاء اليد، والحزن ينشأ من عدم العلم أو عدم الثروة وعدم العيش المريح أو ينشأ من موت

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٧.

(٢) راجع كتاب الشفاء (الإلهيات): ١/ ٤١٥.

الأحبة وهذه أمور عدميّة، نعم. إدراك القوة المدركة بالنسبة إلى المدرك أمر وجودي وهو كمال وخير محض، ويستوجب المنافع الكثيرة والتفوّق على عالم الجماد والنبات.

بالجملة الشر في هذا العالم يستند إلى النقص والعدم المضاف وأسبابها لا تخرج عن ثلاثة أنواع، فهذه الاعدام إمّا مستندة إلى عدم علّة الوجود، أو عدم استعداد الكمال في المحل القابل، أو تستند لوجود سببها وهي جميعاً لا تستند إلى الفاعل لأنّها أمور عدميّة.

فللشرّ معنى عام يشمل المشاكل والآلام والأمراض والفقر والنقص.

وكلمة الشر في القرآن وردت بمعنى البلاء والمصيبة، والعذاب والشدائد، وأنواع الوسوسة والفساد. واعتبر القرآن الشرور مخلوقات إلَهيّة، حيث قال تعالى: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾[1] وهنا يقع التساؤل أولاً كيف يتناسب هذا مع عدميّة الشرور؟ وثانياً أنه تعالى قال: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾[2].

فيقال: الخير المطلق هو الله تعالى وما كان وجهاً إلَهياً لا يكون إلّا خيراً، لأنّه فيض الله تعالى وما يسير في سبيل غاية الغايات لا يكون إلّا خيراً، فالتخلّق بأخلاق الله أيضاً لا يكون إلّا خيراً وغير ذلك لا يكون إلّا شرًّا وضياعاً وعدماً.

وقال صدر المتألهيّن: الخير ما يتشوّقه كلّ شيء ويتّم به قسطه من الكمال الممكن في حقّه، والخير المطلق هو الواجب بالذات لأنّه وجود محض لا نقص فيه. والشرّ هو فقد ذات الشيء أو فقد كمال من الكمالات التي تخصّه وهو أمر عدمي، فالشرّ لا ذات له أو يقال الوجود نور فهو خير على اختلاف مراتب الوجود وجوباً وإمكاناً والعدم شرّ.

وسبل تحقيق الخير بالزكاة وهي تنمية الشيء بجعل القابلية فعليّة بالعلم والعمل الصالح والتحلّي بالفضائل باعتدال الموازين، وهو سبيل الأنبياء للتخلّق بأخلاق الله تعالى، ولا ريب أنّ أشرف ما يزيّن به الإنسان نفسه للبناء الإنساني نحو الأحسن والخير هو العلم المستتبع للعمل.

وقال البعض: أنّ مثل نور الله وهو الوجود المنبسط كالنور الحسيّ حيث لا يكون إلّا واحداً من حيث الحقيقة خالياً من الألوان، لكنّه بعد ما يسطع على الزجاجات

---

(١) سورة الفلق، الآية: ٢.

(٢) سورة السجدة، الآية: ٧.

المختلفة يتلوّن بلونها، وعليه فيمكن القول بأنّ النقص والشر مستند إلى ذوات الأشياء، والفعليّة والكمال مستند للجهة الربوبيّة، فتكون الشرور من لوازم الظلمات المادّية أو الماهوية، لأنّ الإختلاف والتزاحم والتعارض والتضاد من لوازم عالم المادّة أو من لوازم الماهية الإمكانية، قال تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾(1). وفي موضع آخر يقول: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾(2).

لكن قد يقال: لِمَ هذا التضاد والشرور والمعاصي تتحقّق في العلم ولو كان منحصراً بعالم الطبيعة...؟ فأجابوا:

أولاً: أنّ هذه المادة الظلمانيّة في قوس الصعود تحقّقت منها العقول النوريّة والنفوس الشريفة، والكون الجامع وحقيقة الإنسان الكامل الذي هو فوق جميع مراتب المجرّدات العقليّة، وهو مظهر مقام الجمع والمرتبة الأحديّة الذي هو خليفة الله تعالى.

وثانياً: إنّه مبرهن في العالم الإلَهي أنّ الكثرة في عالم الظهور من لوازم الكثرة الأسمائية الإلَهية، والنظام الكوني تابع للنظام الربّاني وما يرى بحسب الظاهر من بعض الجزئيات غير منتظم، ويبدو منه الشّر والنقص هو خير وموزون بالنسبة إلى النظام العام، وعلى هذا فالإحراق كمال للنار والخير مقتضى بالذات والشرّ مقتضى بالعرض.

وقال البعض: إنّ الله تعالى لو لم يضلّ عبده في بعض ما يتعاطاه من مكاسبه ومطالبه لما انتبه على نقصان جبلّته من إنه عبد مدبّر ناقص، فيتبرء من حول نفسه وقوّتها ويعتصم بحول مولاه فيصير الإعتصام به ذريعة إلى الهداية المطلقة وبمثل هذا الحال أحواله أيضاً في الإفقار والإغناء والتقوية والإعجاز والتوفيق والخذلان والتصحيح والأمراض وجميع ما يعرض له الإصابة والخطأ، فيحرّك عباده بكلّ واحد من المتضادين حتى لا يظن العبد الحول لنفسه، فإذن الأضلال الموجود عين الخير والحقّ في هذا العالم، وهو من شرائط الإمتحان للخلق والرقي نحو المبدأ الأعلى وليس هو بشرٍّ محض فهو من تمام حكمة الخلق والحمل على الإستقامة وليس بمعدود من إرادة الشرورة بالإصالة في عالم الإمكان.

فالخير فضيلة ووسط وحقّ، والشرّ طرف وباطل، ولا يكاد يخلو خير من شرّ يطيف به ويلمّ بجوانبه.

---

(1) سورة النساء، الآية: ٧٩. (2) سورة النساء، الآية: ٧٨.

قال علي عليه السلام: «كلّ خير معه شرّ»

وقال عليه السلام: «وما خير خيرٍ لا ينال إلاّ بشر»(١).

وفي بيان القول: بأنّ أسباب الشرور في العالم بالعرض لا بالقصد الأوّل، قالوا: إن الشرور عارضة في هذا العالم من قبل الهيولي التي هي جوهر منفعل ناقص القبول للفضائل لتبلغ الأشياء غاياتها، والشرور عدم هذه الخيرات.

◎ أنواع النحوس والخير والشر

قالوا: إن منها نحوس الأفلاك وسعدها، ومنها ما يرجع للطبيعة ثم الكون والفساد، ومنها ما يلحق بالحيوان من الآلام والأوجاع، ومنها ما يرجع إلى جبلّة الحيوانات من التنافر والتآلف، ومنها ما ينتسب إلى ما يلحق النفوس التي تحت الأمر والنهي في أحكام الناموس من السعادة والمحنة في الدنيا والآخرة جميعاً، فالأمطار قد يعرض منها تلف لإنسان أو نبات أو حيوان، فيكون بالعرض لا بالقصد الأوّل، وعبّر البعض بأنّ هناك خيرات محدودة كالتي يفعلها الإنسان لتحصيل ثواب أو دفع عقاب. ويرى إفلاطون أنّ هذه الخيرات ضيّقة وأما الخير المطلق وهو الذي يكون مكتفياً لذاته بحيث لا يكون وسيلة لشيء وراءه.

وحكي عن مونتسكيو: أنّ الخير هو توثيق عرى العلاقات الجوهريّة بين طبائع الأشياء وتوهينها هو الشرّ. وقد يقال: أن الخير هي الفضائل وما يكون محقّق لها من العلم والحلم والكرم والصدق، والشرّ على خلاف ذلك.

فربّ حسن بعقل ليس بحسن حسّاً، وربّ حسن في سنّ ليس حسناً في سنّ آخر، وجميل في عين ليس جميلاً في عين، وإن كان كلّ شيء بحسب نفس الأمر والواقع في الزمان والمكان الخاص له ما يناسبه من الحسن والخير أو القبح والشر.

وقالوا: للأمور حكمان: حكم ظاهر للحواس وحكم باطن للعقول والعقل هو الحجّة، فلو شاء الله أن يترك كتبه ويجعل كلام أنبيائه بحيث لا يحتاج إلى تبيين وتفسير لفعل، ولكنّا لم نرّ شيئاً من الدين والدنيا دفع إلينا على الكفاية، ولو كان كذلك لسقطت المحنة والبلوى، وذهب للتسابق والمنافسة، ولم يكن تفاضل ولا ظهور ولا سرور، ولكن الله بنى الدنيا على امتزاج خيرها بشرها واختلاط علمها بالجهل وصوابها بالخطأ

(١) نهيج البلاغة: كتاب ٣١/ ٤٠١.

وتوفيقها بالخلاف، وينتهي السعيد إلى ما دعي إليه وخلق له ولو كان العلم كلّه ظاهراً والعلم وجهاً واحداً والخلاف مرتفعاً لما صحّ تكليف ولا تمّ سعي ولا استحقّ حمد ولا ذمّ ولا ثواب ولا عقاب، فلولا أن الله أراد أن يجعل الخلاف سبباً للائتلاف لما جعل واحداً طويلاً وآخر قصيراً وواحداً حسناً وآخر قبيحاً وكذا لما جعل فقيراً وغنيّاً وذكياً وغبيّاً فخالف بينهم ليختبرهم.

ولو أنّ الناس كلّهم رغبوا عن عار الحياكة لبقينا عراة ولو رغبوا عن البناء لبقينا على العراء وهكذا في الفلاحة والتجارة، ولولا اختلاف الطبايع لما اختاروا من الأسماء إلاّ أحسنها، ومن البلاد إلاّ أعدلها. ولولا اختلاف الأسباب في الخير والشرّ لتنازعوا بلدة واحدة واسماً واحداً وبذلك بطلان الأمور.

وقال بعض الحكماء قولاً مفيداً في علّة وجود الشرّ في هذا العالم: بأنّه لِمَ لَم يكن الأمر كلّه خيراً محضاً؟ إنّ الشر بالذات العدم والشرّ في الموجودات بالعرض لحابس الكمال عن مستحقّه، ولكلّ شيء وجوده على كماله الأقصى وليس فيه ما في القوّة، فلا يحلقه الشرّ وإنّما يلحق الشر ما في طباعه بالقوة وذلك لأجل المادّة.

◎ ما يقال عليه الشرّ

قالوا: الشر يقال على وجوه منها يقال: الشرّ للأفعال المذمومة، ومنها يقال لمبادئها من الأخلاق ويقال للآلام والغموم وما يشبهها، ومنها لنقصان كلّ شيء عن كماله وفقدانه ما من شأنه أن يكون له.

ولن تجد شيئاً مما يقال له شرّ من الأفعال إلاّ وهو كمال لسببه الفاعل له، والفعل إنما هو شرّ بالقياس إلى السبب القابل له، أو بالقياس إلى فاعل آخر يمنع عن فعله في تلك المادة التي هي أولى بها من هذا الفعل.

فالظلم يصدر مثلاً عن قوة طلابه للغلبة وهي القوة الغضبيّة والغلبة هي كمالها، فهذا الفعل بالقياس لها خير وإنّما هو شرّ للمظلوم أو النفس النطقية التي كمالها كسر هذه القوّة.

◎ منهج الإسلام في الخير والشرّ

ركّز الإسلام على الإصلاح الداخلي لدعم قوة الخير، فجعل تهذيب النفس وتزكيتها أساساً لبلوغ الغاية المنشودة التي خلق الإنسان من أجلها، وجعل فعل الخير

والصلاح تدعيماً للصلاح ليكون مثالاً للخير والصلاح بإماتة الشهوات ورفع حجب العقل لمشاهدة الواقع. ولمّا كان منهج الشرعِ لسبيل الخير فطرة تحتاج إلى زكاة النفس لمسيرة الكمال التي لا تحدّ بحدّ اختلفت عن جميع الثورات والسلطات على وجه الأرض حيث وجدت الدعم الباطني فلم تسقط في مضطرب الحياة.

قال ﷺ: «**إنّما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**» حيث يكون بها تمام الخير والصلاح، وقال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾[١]. فمثلاً العين وإن كانت أداة للإبصار لكنّها قد تصاب بالعمى أو الرمد.

ومشاهدة الحقّ حقاً بعيداً عن رواسب القرون وحضارات الأمم وعصبيّات الجاهليّة على اختلاف مظاهرها القبليّة والدينية والشهويّة والغضبيّة والسبعيّة، تحتاج إلى حرّ يخوض الغمرات في ديار الكرب والبلاء والفتنة والاختبار، حيث تعلّقت المشيئة الإلهيّة بأن بلوغ الغاية وتحقيق الخير لا يكون إلاّ بجهاد مطلق في ميادين العلم والعمل، حيث جعل تعالى الدنيا مختبر العقول وأشار قائلاً: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[٢] فالمحتاج إليه الإنسان لمسيرة الخير إزالة العوائق والقيود، وهي حجب الغفلة ليصبح البصر حديداً، لأنّ الخير وحبّ السعادة والكمال هو فطرة الإنسان.

والشرّ هو العدوان على الفطرة بالخروج عن الإعتدال إلى الطغيان أو الخمول بتجاوز الحد أو التخلّف عن قافلة السلام ومن البديهي أنّه لابدّ وأن تكون للخيرات والشرور أسباب، ولا يمكن علاج المسبّبات إلاّ بالأخذ بعين الإعتبار تلك العلل المؤديّة إلى السعادة أو الشقاوة وإلاّ فإصلاح المعاليل بدون تحقيق عللها يصبح ما يشبه الشعر والخطابة المبنيين على أسس الوهم والخيال.

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦﴾[٣]. وقد فسرّ حسن التقويم بمعرفة الحقّ والإستمساك به.

---

(١) سورة الشمس، الآيات: ٧ - ١٠.

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٦٩.

(٣) سورة التين، الآيات: ٤ - ٦.

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾(١). ولمّا كانت الغاية المنشورة لتحقيق الخير مسيرة طويلة، لأنّ الكمال المطلق هو الله والغاية التخلّق بأخلاقه تعالى، فلابدّ وأن يكون تحقيق سبل الخير محتاجاً لمراحل من السير، ولا يعقل تحقيق الخير والفضيلة بالإكراه على الفعل، لأنّ الفعل لا مبلغ له إلى بواطن القلب، وأنّ الروابط العامّة التي يجب الإلتزام بها كقانون جامع هي من مواطن الخير.

وقال آخرون: فلسفة الإيجاب والخير والشرّ بحث عن سرّ الحقيقة، ولهذا السبب يتعذّر علينا التعمّق إلى درجة الكشف عن هذا السرّ، فإنّ كلّ من يحاول أن يتعمّق في فهم حقيقة المطلق، والإنسان يجد أن طريق المعرفة طويل وواسع لا ينتهي لأنّه متضمّن في اللانهاية.

وقد يطرح البحث عند البعض بنحو التساؤل قائلاً: العالم الماديّ لا نعرف أنّ ما فيه هو خير أو شرّ أو أنّه حيادي لا يوصف بشيء من الأمرين، لكن كلّ ما فيه يمكن أن يصبغ من الخير أو الشر؟ فقد يكون الحجر شرّاً إن وقع عثرة في طريق إنسان أو أصاب رأسه، وقد يعتبر خيراً إن أصبح سكناً.

وقال آخرون: ليس الشرّ إلاّ نفي الخير فهو انعدام له وعليه فلا يتّصف الشرّ بجوهر أو حقيقة، فالخير إيجاب والشرّ سلب، فهناك مصدر للخير وليس من مصدر للشرّ، فالشرّ نقص في ماهيّة الخير.

ونظر آخرون بمنظار آخر فقالوا: فيما ورد من الكتاب المجيد من المحكم والمتشابه إنه لو كان بتمامه محكماً لاتكل الناس كلّهم على الخير واستغنوا النظر، وكان لا يتبيّن فضل العلماء على غيرهم، ولكان لا يحصل لهم ثواب النظر واتعاب الخواطر في استنباط المعاني.

◎ تساؤل في المقام:

هل هناك شرّ بحسب الواقع أو هو أمر قياسي نسبي حينما نقيس الأشياء إلى أنفسنا بما تعود إلينا منها من نفع أو ضرر وعليه فيكون الشرّ والخير ولو بالخروج عن الإتزان بالإفراط والتفريط؟

---

(١) سورة البقرة، الآيتان: ١٦٨، ١٦٩.

وعليه لابدّ من البحث عن الشرور هل هي ذاتيّة أو اعتبارية أو نسبيّة إضافيّة؟ فالذاتيّة تناسب مسلك الثنويّة حيث تتنازع عندهم الخيرات والشرور بتبع مناشىء صدورها وعللها المختلفة أو هي أمور اعتباريّة، فربّ شخص باعتبار ومصلحة يرى شيئاً من الخير وآخر يراه من الشرّ لاختلاف العقليّات أو المصالح أو الرغبات أو الغايات.

فمثلاً السمّ ليس شرّاً في ذاته نعم أكله أو شربه يجعله شرّاً ولو أصبح دواءً لكان خيراً، وكذلك ما خلق الله تعالى كالخنزير ففي ذاته ليس شرّاً وشريّته من حيث أكله، فوضع الشيء في محلّه خير وفي غير محلّه شرّ وإلاّ فمن المحال أن يكون الشيء في ذاته، لأن الشيء لا يناقض نفسه.

فإذن من جملة أسباب اعطاء الأشياء صفة الخير أو الشر هو كيفيّة التعامل مع الأمور.

◎ هل الخير والشرّ تميّزهما وجداني أو برهاني؟

قد ذكرت بعض الأمور من باب المصاديق للشرور، فمن جملة ما ذكر نحوسة الأفلاك وسعدها، فهل يكون هذا الإعتقاد من المحرّمات أم أنّ هناك قاعدة يجب أن لا نخرج منها وهي أنّ لا اعتبار إلاّ لليقين؟. كما وأنه يجب ملاحظة الأسباب المؤديّة إلى الأعتقاد، وإلاّ فمجرد الاحتمال أو الظن بدون ترتب الآثار لا يعدّ محرماً.

ثم يقال: هل الشرّ من لوازم عالم المادة أو عالم الإمكان للحديّة والنقص للتضاد والتزاحم؟!. فها هنا وقع بحث طويل الذيل بين الأعلام.

◎ الإنسان بين الخير والشر:

قالوا: يعتمد الإسلام على تهذيب النفس محاولاً التغلغل في أعماقها حتّى يستحيل جزءاً منها لاتحاد العاقل والمعقول أو لتصبح الملكات الطيبة فعلية بالعمل الصالح، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[1].

وقال تعالى معللاً هلاك الأمم الفاسدة: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[2].

---

(١) سورة الرعد، الآية: ١١.

(٢) سورة الأنفال، الآيتان: ٥٢، ٥٣.

وقال آخر: إنّا لا نقول بأنّ القيم ذات وجود يمكن تحديده لأنّ التحديد بالإجمال لن يكون إلاّ ضمن مقولتي الخير والشرّ، ثم قال: وفي رأي إنّ لفظة الفضيلة أو القيم آتية من الأفضل باستمرار، وهذه المحصلّة تكون تيمّناً بقوله تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[(١)] وهذا الأحسن معناه المقارنة الدائمة ما بين سلوك وسلوك وصولاً إلى الأفضل دون توقّف، فأمّا أن تكون أنا هي المعيار الذي نون به الخير والشرّ.

والضمير: هو الميزان الذي نزن به النوايا، وإما أن تكون الفطرة الصحيحة المستقيمة هي الميزان فهي جوهر كريم لا تتغير قيمه في زمان أو مكان به نميّز الحق عن الباطل والخير عن الشرّ، وهذه القوّة ليست نتيجة بيئة ولا زمان ولا تربية فهو منحة كما منحنا العين لنبصر بها، والأذن لنسمع بها فإذن هو الشعور المميّز بين الخير والشرّ وهو المعبّر عنه بالزاجر والواعظ أو السّر أو داخل الخاطر أو ما هو مضمر.

لكن قد يقال: أنّ أحكام الضمير نسبيّة وليست مطلقة، لأنّ المعرفة للخير أو الشرّ متفاوتة من إنسان لآخر، وذلك لاختلاف الوجدان اختلافاً كبيراً بين الأمم حتّى المتمدنة منها، فهي مختلفة في تقييم الخير والشرّ بل إنّ الشخص الواحد يختلف وجدانه باختلاف زمانه ولكل مجتمع ضميره الخاص به، فالضمير كثيراً ما يتأثر من معتقدات وعادات وتقاليد، فالإنسان يحكم على الأفعال والتصرّفات لا من خلال ضميره فقط بل من خلال ضمير المجتمع، فالضمير حصيلة آلاف الضغوط الإجتماعية على الفرد: التربيّة في الأسرة والمدرسة، القهر الرسمي الذي تمارسه المؤسسات والنظم الإجتماعية، القهر المنتشر الذي يصدر عن الأعراف والتقاليد وسلطان الحضارة، فكلّها قوى تتظافر وتتحالف على تشكيل ضمير الفرد، وكذا لوراثة الأخلاق المكتسبة الأثر في المقام وضغوط الأبوين. وقد يقال:

إنّ الضمير لا عمل إيجابي له إلاّ من خلال اللذة والألم. أجل كلّ هذا ولكن يجب أن يستمد الضمير أحكامه من القرآن والسُنّة، لأنّها ظهور الخلق الكريم فهو الحق والميزان والنور والبرهان. ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾[(٢)].

◎ كيفيّة علاج الضمير حتى لا يموت:

اعلم أنّ الإنسان قد يخطىء وقد يعتاد على الخطأ والبعض قد يتحجّر. والإسلام

(١) سورة فصلت، الآية: ٣٤.
(٢) سورة الفلق، الآية: ٣.

يرفض اعتياد الشرّ كما يرفض اليأس والقنوط، ويعالج النفس بالتهذيب والعلم والعمل الصالح.

وقيل: الشرّ هو الإهتمام بالحياة الدنيوية، والفضائل والرذائل فطريّة، والإختلاف في تشخيص المصاديق، ومن تمكّن من معرفة الخير والشرّ سهل عليها التفرقة بين الإلهام والوساوس الشيطانيّة، إلاّ أنّ حديث النفس لا مؤاخذة عليه لعدم دخوله تحت الاختبار، وإن كان يعود إلى مراتب النفس. وإن أمكن القول بأنه يدخل تحت الحكم إن أصبح فعلاً نفسانياً.

والغاية من تهذيب النفس وتزيّنها بالعلم وتزكيتها بالفضائل هو الوصول إلى الخير والسعادة والإبتعاد عن الشرور. ولذا قالوا: السعيد من أصلح جميع صفاته وأفعاله بحكمة علميّة وعملية على وجه الثبوت والإستمرار، لأن الكمال والقرب إلى الحق لا يحدّ بحدّ، لأنّ عدم الزكاة والجهل قد يجعل الإنسان يخلط بين الخير والشّر كالذي يرى الإسراف كرماً والتهوّر شجاعة والذلّ صبراً.

وقيل: للشبهة شبه، لأنّها تشبه الحق فتشبه على الإنسان ما لم يكن سليماً في أدواته المعرفة علماً وزكاة، وقد يكون الضعف في جهة المعرفة وتشخيص الخير من الشرّ، وقد يكون في مورد العمل ضعيف وإن كانت أدوات التشخيص قويّة.

◎ الفطرة:

هل الفطرة هي خير أو شرّ بالفعل أو قابلة لكلّ منهما أو هي بالفعل تميّز بينهما لولا الحجب وإن لم تكن بالفعل متلبّسة بأحدهما...؟ وكون الفطرة خيراً بمعنى أنها لولا العوامل الخارجية لكانت صلاحاً، وكونها شرّاً أنّه لولا الإصلاح وحسن التربية لكانت شرّاً. والذي يظهر من الأحاديث أنّ الفطرة هي الخير ومعرفة الصلاح والفضائل، كما قال ﷺ: **«يولد الإنسان على الفطرة وإنّما أبواه يهوّدانه أو ينصرانه أو يمجّسانه»** فالعلم الحضوري فطرة والحصولي عارض ولا حدّ للخير المحض والمنافس فيه.

◎ الكمال والخير بما يناسب الشيء:

فقد يكون شيء، كمالاً للرجل وهو ليس بكمال وخير للمرأة وبالعكس، كما يقال: الحلاوة خير وكمال للسكّر والتمر لكنها ليست كمالاً للنحل بل كماله الخمر.

◎ ما هو ملاك الخير والشر؟

قالوا: الخير والصلاح ما يقول له الناس طيّب وعكسه الشرّ وإلاّ فلا ملاك للخير والشرّ، ولكلّ أمة بحسب حضارتها خيرات وشرور ممدوح ومذموم، فلا ملاك عام في المقام، فالقيم تختلف باختلاف الأمم ونظراتها وباختلاف الزمان والمكان، ثم يقولون إذن لا ملاك ثابت يمكن أن يستند إليه في المقام، والأفضل إنسان طالب للخير والسعادة وفارّ من الشرّ والشقاوة، وعند التحلي بالعلم والتزكية يتمكن من تشخيص المصاديق.

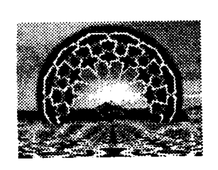
◎ ومن شرّ ما خلق:

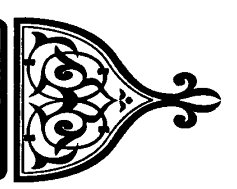
أي من شرّ كل ذي شر. وما من مخلوق إلاّ وله الأهليّة التامة للخير والشر والقوة الموجبة والقوة السالبة، ولا شيء في الوجود خير محض بذاته إلا خالق الوجود. والخير بروز آثار القوة العقليّة والشر بروز آثار القوة الشهوانية، لكن ليست القوة الشهوانية شرّاً بذتها وإنّما هي شرّ إذا خرجت من الإعتدال إلى الإفراط أو التفريط.

وما تفرد به العقل الراجح هو الخير وما تفرّد باستقباحه هو الشرّ.

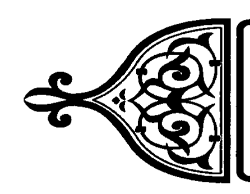
وقيل في تعريف الخير: أنه المطلوب المرغوب فيه لذاته لا لغيره، وعلى العكس منه الشرّ فإنه ربّما كان عرضاً غير مقصود وإن وقع ذلك بالتقدير الإلّهي والحكم السماوي، فيكون وجود الشرّ ضرورة حصول الخير، فإن الأشياء لو لم تكن بحيث تتضاد لم يمكن أن يكون منها هذه الأنواع الشريفة، وذلك كإحراق النار ثوب فقير لا يملك غيره وكذا في المطر فقد يتأذى به شخص ويتداعى له البنيان ويحبس الناس في منازلهم عن حوائجهم حيث جبل هذا العالم الطبيعي على امتزاج الخير والشرّ والنفع والضرر والغنى والفقر والفيض والبسط والسرّاء والضرّاء والشدّة والرخاء والصحة والألم. وأمّا الخير الصرف غير الممزوج والنفع الخالص المطلق غير المحصور فهو في غير هذه الدار.

وخلاصة القول: ذلك لأنّ الدنيا دار اختيار واختبار فهي مختبر العقول وبهذا يمتاز الإنسان عن سائر الجمادات.





بين العقل والقلب



◎ العقل دليل مرشد والقلب زعيم مفكر:

نقرأ في وصية الإمام علي عليه السلام لإبنه الحسن عليه السلام إذ يقول له: **«إنّما قلب الحدث كالأرض الخالية ما ألقي فيها من شيء قبلته، فبادرتك بالأدب قبل أن يقسو قلبك، وينشغل لبّك»**[١] وذلك لأن إنشغال الذهن في مشاكل الحياة في الكبر مانعٌ من ترسيخ العلم في القلب.

ولترسيخ العلوم في الذاكرة نجد أن هناك توصيات دينية بهذا الخصوص، وهي تقوم على قاعدة أساسية هي ممارسة العلم وتكون هذه الممارسة بثلاثة طرق هي:

١ - **بالتجربة:** وأن لا يكتفي المتعلم بحفظ المعلومة في ذهنه بل يمارسها بالتجربة وفي المختبر، ونجد ذلك في قول الإمام عليه السلام: **«العقل عقلان عقل الطبع وعقل التجربة، وكلاهما يؤدي إلى المنفعة»**[٢].

وقال ايضاً عليه السلام: **«والعقل حفظ التجارب، وخير ما جربّت ما وعظك»**[٣].

وقد أخذت المدارس الحديثة بهذه الطريقة وهي تمارسها في علوم مختلفة كالكيمياء والطب وغيرها.

٢ - **بالتعليم:** بأن يقوم المتعلم الذي أنهى دراسته بتدريس تلك المادة لطلاب آخرين فإنه ادعى لحفظ تلك المعارف، ونقرأ ذلك في الحديث الآتي عن الإمام علي عليه السلام إذ يقول: **«إنّ النار لا ينقصها ما أخذ منها ولكن يخمدها أن لا تجد حطباً، وكذلك العلم لا يُفنيه الإقتباس لكن بُخل الحاملين سبب عدمه»**[٤].

---

(١) بحار الأنوار: ١/ ٢٢٣.

(٢) بحار الأنوار: ٧٥/ ٦.

(٣) بحار الأنوار: ١/ ١٦٠.

(٤) غرر الحكم ودرر الكلم: ١/ ٢٢٣/ ح١٤٤.

والحديث الثاني أيضاً عنه عليه السلام: «**أعون الأشياء على تزكية العقل التعليم**»[1].

ونلاحظ أن الذين يمتهنون التدريس لديهم قابليات هائلة على حفظ المواد التي يدرسونها للآخرين.

٣ - ممارسة المعرفة بالسلوك: فإنّ المعارف الذهنية التي تتحول إلى تصرفات سلوكية تكون أرسخ في الذاكرة، كمن يمارس الحديث بلغةٍ أجنبية فإنّه سيكون أقدر على إجادتها من ذلك الذي يتعلمها من الكتاب فقط، وكذا الحال بالنسبة للمعارف الحياتية الأخرى. وهنا نقرأ الحديث التالي عن الإمام الصادق عليه السلام إذ يقول: «**العلم مقرون بالعمل، فمن علم عمل، ومن عمل علم، والعلم يهتف بالعمل، فإن إجابه وإلاّ ارتحل**»[2].

إنّ إثارة الإنسان لمثل تلك المسائل تستحثه على البحث والتنقيب عن الأجوبة المتعلقة بها، وتقوده في النهاية إلى اكتساب المعارف الحقيقية المرتبطة بها، ويصل المرء في ذلك إلى الاعتقاد بوجود نظام متقنٍ للخلقة.

ومما ينبغي التفكر فيه أيضاً هو عواقب الأمور، فإننا نستخلص من عاقبة موت الجسد البشري بوجود حياة ثانية، ونستنتج من عاقبة البخيل أنّ البخل عاقبته الخسران، فالبخيل لا يسعد بأمواله التي جمعها بالطمع والحرص لأنّه سيموت ويورثها لأشخاص آخرين دون أن يكون له نصيبٌ منها، ونستخلص من عاقبة موت الطغاة والمتجبرين أن الإنسان مهما علا واستكبر، فإنه لن يستطيع أن يؤخر أجله ساعةً واحدة، ونتعلم من عاقبة الكرماء بين الناس، أن الكريم محمود حتى بعد مماته.

وهكذا نجد أن هناك علاقة وثيقة بين العواقب. والمقدمات، ومن الأشياء التي ينبغي التفكر فيها هي عاقبة الأقوم السابقة التي نجد آثارهم ما زالت ماثلةً أمامنا لتكون لنا عبرة، فقد أبقى الله سبحانه وتعالى على آثار الفراعنة لا لكي نمجّدها ونفتخر بها، وإنّما لنعتبر بها ونتدبر في فعل الله بهم بعدما طغوا في البلاد، وهناك دعوة من قبل الباري عزّ وجلّ لكي ندرس حياة أولئك الطواغيت وندرك عواقب أمورهم، فالقرآن الكريم يقول: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[3].

---

(١) المصدر نفسه ١/ ٢٠٢/ ح٤٢١.

(٢) بحار الأنوار: ٢/ ٤٠.

(٣) سورة الروم، الآية: ٩.

وها هو الإمام علي عليه السلام يروي لنا ولإبنه الحسن عليه السلام كيف نظر في آثار الأولين، وهو يقول: **«يا بني إنّي وإن لم أكن قد عمّرت عمر من كان قبلي، فقد نظرت في أعمارهم، وفكرت في أخبارهم، وسرتُ في آثارهم حتى عدتُ كأحدهم، بل كأني بما انتهى إليّ من أمورهم قد عمّرت مع أولهم إلى آخرهم. . .»**[١].

ومن التفكير المحمود أيضاً هو في خلق السموات والأرض وتدبير الله في ذلك وأنّه لم يخلق هذا الكون العظيم عبثاً بل من وراء ذلك غاية وهدف، وفي يوم رأى بلال الحبشي رسول الله محمداً صلى الله عليه وآله، وقد بلّت لحيته من البكاء، فقال: يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر.

فقال صلى الله عليه وآله: ويحك يا بلال ما يمنعني أن أبكي وقد أنزل الله عليّ في هذه الليلة: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[٢]، ثم قال صلى الله عليه وآله: **«ويلٌ لمن قرأها ولم يتفكر فيها»**[٣].

والتفكير الهادف هو الذي يكون ذا قيمة ويُثاب عليه المرء بالإستزادة من العلم وثواب آخر يحصل عليه الشخص من الباري عزّ وجلّ عندما يعتبر تفكيره نوعاً من العبادة، وقد قيل: أن أكثر عبادة أبي ذر الغفاري هي التفكير.

وعن الإمام الرضا عليه السلام نقل أنه قال: **«ليست العبادة بكثرة الصلاة والصوم، إنّما العبادة التفكر في أمر الله تعالى»**[٤].

وعن الإمام علي عليه السلام أيضاً أنّ: **«التفكر في آلاء الله، نِعْمَ العبادة»**[٥].

وتتحقق صفة العبادة التفكريّة عندما ينجح المرء من تحويل الطاقة الفكريّة لديه إلى معرفة حقيقية قائمة على أسس العلم والمنطق، وهنا نجد أنّ الدعوة الربّانية للتفكر الذاتي تأتي في سياق دمج الإنسان مع محيطه، والكائنات التي حوله، فإن الجبال والوديان والأشجار والبحار والكواكب كلّها صور مرئية تشكل المرتكزات الأولى للمعرفة، فمن خلال هذه الصور المحسوسة يرتقي الإنسان إلى الدرجات العلمية

(١) بحار الأنوار: ٧٧/ ٢٠١.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٩٠.
(٣) المحجة البيضاء: ٨/ ١٩٤.
(٤) المحجة البيضاء: ٨/ ١٩٥.
(٥) غرر الحكم ودرر الكلم: ١/ ٥٥/ ح١١٩١.

العُليا، فلكل صورة من هذه الصور المحسوسة هناك دلالة لمعرفة كلية يسعى إلى تحصيلها الإنسان، وبالتفكير يتمكن المرء من تحقيق الترابط بين تلك الصورة المختلفة ليستنتج منها معرفة كُلية.

ونحن نلاحظ لأهمية منهج التفكير في الاستنتاجات العلمية أن أغلب مدارس علم النفس الحديث تأخذ بالطريقة الاستبطانية التي تعتمد على التأمل الذاتي، وعلاوة على ما في هذا المنهج من نتائج فكريّة وعلمية، فإنه أيضاً يجلي العقل وينقيه من الزوائد الذهنية ذات الأصل الجاهلي، وهذه التصفية هي مرحلة أساسية للإستفادة من كل مجهودات العقل للإستزادة العلمية، وذلك لأنّ الرواسب تعمل كحواجب تمنع ضياء المعرفة الساطع من الدنو نحو العقل، ونحن نستطيع أن نشبه ذلك بقدرة هائلة يمتلكها العقل لحل الشفرة المعقدة الكائنة في خلق الكون، وهذه الإمكانية المتوفرة في جميع عقول البشر تضعف أو تقوى بعزم الإنسان وإرادته، فمن يجعل عقله مرتعاً للأفكار المضللة والجاهلة فإنّه في الحقيقة يعمل على تضعيف القدرات التي بحوزة عقله على التفكير والاستنتاج، وتكون تلك الأفكار المضللة بمثابة الحاجب الذي يمنع العقل عن رؤية الحقيقة كاملة.

والتفكير الذي يقابل الغفلة يعمل بجهتين:

الأولى: هي الاستزادة من المعارف الحقيقية.

الثانية: تصفية الذهن من معوّقات المعرفة.

وإذا كانت هذه العملية تجري في جهتين فهي أيضاً تحقق نتيجتين متعاكستين:

الأولى: هي زيادة في علم.

الثانية: نقصان من جهلٍ.

والتفكير لا يكون مثمراً إلاّ بعد أن تترتب عليه هذه النتيجة المتعاكسة.

ونخلص من كلّ ما مرّ لدينا أن الفكر يقوم بعدة عمليات هي:

١ - الكشف وإظهار المجهولات.

٢ - تنقية وتطهير الذهن من رواسب الجهل.

٣ - تقويم وتعديل السلوك.

٤ - الاعتبار والاكتساب من خبرة الآخرين.

٥ - التنبيه وإرشاد القلب للخيرات وتحذيره من المحظورات.

٦ - التمييز بين الباقي والفاني، والحق والباطل.

٧ - اليقظة من بعد نوم الغفلة.

والقوة المفكرة تعتمد بشكل أساسي على ثلاثة أمور هي:

١ - الفطنة. ٢ - الفهم. ٣ - العلم.

◎ ما هي الفطنة؟

الفطنة هي الشعور الذهني بحقيقة الشيء، وهي أول عملية يقوم بها العقل لمعرفة الأشياء وإدراك جوهرها ومعرفة أقدارها وأحجامها وحدودها، فمن كان فطناً أقدر على استيعاب الأشياء والأنواع والأجناس والأفكار، بينما يعجز الغبي عن تحقيق هذه المعرفة، ذلك لأنه لم ينبّه عقله لفحص وتمييز الصور التي شاهدها في الواقع الخارجي، في المقابل نجد أن الفطن هو الذي يتوقف عند حقيقة الأشياء ويتلمس أحجامها ومقاديرها وأشكالها في ذهنه، وهو لا يمر على المؤثرات الحسيّة والشعورية مرور الكرام كما يفعل الغبي، فهو ينّبه عقله دائماً لمعرفة كنه الأشياء، فهو يفكر فيها، ويبحث عن غوامضها ويتحقق من ديمومة واستمرارية تأثيرها حتى يصل من ذلك إلى المعرفة الكاملة بشؤونها، بينما الغبي لا يريد أن يُتعب ذهنه في التفكير، فلذلك يبقى عقله محدوداً ومعرفته ناقصة.

يقول السيد الشيرازي (دام ظلّه) في إشارة إلى الفطنة: الفطنة وهي إدراك معالجة الأمور حتى نصل إلى ما يتوخاه الإنسان، ربما تكون من العقل، وربما تكون من غير العقل، فإنّ كان الإدراك إلى الحق فهو من العقل، وإن كان إلى غيره فهو من الشيطان والنفس الأمارة بالسوء[1].

وفي رواية عن الإمام الصادق عليه السلام: قال الراوي:

قلت له: ما العقل؟

قال: ما عبد به الرحمن واكتسب به الجنان، قال:

قلت له: فالذي كان في معاوية؟

---

(١) الفقه العقائد: ١٤٨.

قال: تلك النكراء، وتلك الشيطنة، وهي شبيهة بالعقل وليست بعقل[١].

وأضاف (دام ظله): مثلاً اللص يعالج دخول البيوت للسرقة فهل هذا يسمى عقلاً أو تعقّلاً؟. كلا.. وإنّما هو اللا عقل، وشيء من الشيطان، والنفس الأمارة بالسوء، وقوله عليه السلام: «**ما عبد به الرحمن، واكتسب به الجنان**» إن: أن من آثار العقل ذلك[٢].

ولدينا في التصور الإسلام أن تكون المفاهيم داخل العقل يتم بصورة تدريجية، فيتدرج المرء من مرحلة التصوّرات البسيطة والجزئية حتى يصل إلى التصورات الكونيّة، ثم مرحلة الطبع أو الختم وفي هذه المرحلة ينطبع المفهوم في ذهن الإنسان إذ يصعب بعدها اقتلاعه، كما نلمس ذلك في الآية الكريمة: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾[٣].

والفطن هو الذي ينطبق وضعه مع المرحلة الأولى من تكوين التصوّرات الجزئية عن الحقائق القائمة في الكون، وأنّ التبصر في هذه الحقائق يؤدي إلى الفهم، والفهم يقود إلى العلم. ونقرأ في حديث الإمام علي عليه السلام ما يلي: «**اليقين على أربع شُعبٍ: على تبصرة الفطنة، وتأوّل الحكمة، وموعظة العبرة، وسنّة الأوّلين، من تبصّر في الفطنة تبيّنت له الحكمة، ومن تبيّنت له الحكمة، عرف العبرة، ومن عرف العبرة، فكأنّما كان في الأوّلين**»[٤].

والذهن يجب أن يكون مستعداً لإلتقاط الموجات الخاصة التي تقوده إلى المعرفة، فهو ينتبه لشيء ما أو يركز تفكيره على حدثٍ ما، ثم يبدأ بربط هذه القضايا فيما بينها من أجل الكشف عن الحقائق العلميّة التي هي غائبة عن أعيننا، فالإنسان لا بدّ أن يقوي لديه حاسة التركيز لكي يلتقط تلك الحقيقة التي توصله إلى مبتغاه، مثلما فعل (نيوتن) عندما ركز انتباهه وذهنه على تلك التفاحة التي سقطت من على الشجرة

◎ ما هو الفهم؟

الفهم هو إدراك الرابطة الشعورية بين الأشياء الحسية وغير الحسية، ويحصل الفهم

(١) بحار الأنوار: ١/ ١١٦.
(٢) راجع الفقه العقائد للإمام السيد محمد الحسيني الشيرازي (دام ظلّه): ١٤٩.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٧.
(٤) نهج البلاغة: الحكم ٣١/ ٤٧٣.

بالفطنة، فمن لا يكون فطناً يتعذر عليه فهم الأشياء واستيعابها بشكل جيد. ولذلك نقرأ في الحديث الشريف عن الإمام علي عليه السلام قوله: «**الفهم بالفطنة**»[(١)]

وهنا نعرف أن فهم الأشياء لا يحصل نتيجة صدفة أو ظروف غير موضوعية، وإنّما هو نتيجة لإرادة الإنسان ورغبته في تحصيل المعرفة، وإذا اعترفنا بدور أولي للذكاء في كسب المعرفة، فإنّ هذا الذكاء سيكون عاجزاً عن تحصيل المعارف العالية إذا لم تصاحبه الرغبة في التعلم، وكثيرٌ هم الذين ارتقوا سلّم المعاني وكانوا محدودي الذكاء، ولقد بيّنت دراسات علمية أن الكثير من المخترعين والمبتكرين كانوا فاشلين في باكورة دراستهم ولكن إرادتهم ورغبتهم في الإبداع هي التي ساعدتهم على إنجاز ما لم يتكمن غيرهم من القيام به، فكسب المعرفة يستدعي تنبيه الذهن وتوجيهه نحو حقيقة ما للكشف عن بواطنها.

ويصل الإنسان في فهمه إلى حد الربط بين الحقائق المادية والحقائق العقلية غير المحسوسة، فإنّه عندما شاهد بعين عقله أن لكل مصنوع له صانع عرف بالضرورة أن هناك خالقاً لهذا الكون وإن لم يكن يراه بالبصر إلاّ أنه يشاهده بالبصيرة، فقد وصل فهم الإنسان إلى إدراك هذه الحقيقة العقلية وذلك من خلال الربط بين عالم المحسوسات وعالم المعقولات باستدلالات علمية لا يرقى إليها الشك.

ونصل من هذا المفهوم إلى أن القوانين العلمية سابقة لوجود الإنسان وهي تشكل حلقات متّصلة ببعضها، وفهم الإنسان وإدراكه يقودانه إلى الكشف عن هذه الروابط التي تعتبر قوانين في الوجود، وعندما يحث الباري عزّ وجلّ في قرآنه الكريم الإنسان على البحث العلمي والتفكير بمصير الأقوام السابقة إنّما يدعوه لتقصي القوانين التي تربط بين مصير تلك الأقوام ومصير الإنسان الحالي، إنّ إجراء عملية ربط دقيقة بهذا الشأن تهدي الإنسان إلى الكثير من الحقائق الغائبة عن ذهنه.

◎ من هو العلم؟

العلم هو المعرفة اليقينية بالشيء، ويضع القرآن الكريم العلم بإزاء العقل، ويقيمه على أساس العلم الكائن فيه، فالعقل يسمو ويتكامل بالعلم ويتميز به عن الحيوانات غير العاقلة فلا قيمة إذن للعقل من دون العلم، ومن المهم أن نعرف بأنّ الناس في يوم

---

(١) غرر الحكم ودرر الكلم: ١/ ١٣/ ح٥٧.

الجزاء يحاسبون على قدر عقولهم، ولقد دلّت الكثير من الروايات والأحاديث الشريفة المعتبرة على هذا المعنى، وعندما نسترسل بالموضوع ونتحدث عن شؤون القلب سيتضح تماماً هذا المعنى بشكل علمي دقيق، لأنّ هناك علاقة متلازمة بين القلب الذي تنطبع فيه المعارف وبين العلم وبين السلوك، ومن هنا فليس هناك تناقضٌ أو تضاربٌ بين أن نقول بأنّ الإنسان سيحاسب في يوم الجزاء على أعماله أو على مقدار عقله وعلمه، لأنّ سلوك الإنسان ينطبع في الذهن على شكل اعتقادات ثابتة، فمن كان سلوكه سيئاً من المحتم فإن اعتقاداته وموازين قلبه هي أيضاً سيئة بنفس درجة سوء سلوكه، وقد يأتي التفصيل حول ذلك فيما بعد.

إلاّ من اللازم أن نعرفه بأن العلوم هي موازين أودعها الله سبحانه وتعالى في مخلوقاته وفي الكون، وهناك تعلقاً وارتباطاً بين كل واحدة من هذه القوانين ومن البديهي أن يجد كل قانون له تفسيراً في غيره، كما أنّ كل مخلوق ينطوي على معنى وعلى صفة هي في غيره، لذلك قيل: إن من أهم العمليات التي يقوم بها العقل هي الربط بين الحقائق القائمة لإستنتاج حقيقةٍ ممتازة.

ولما ينطبع العلم في قلب الإنسان فإنه سيظهر على لسانه وسلوكه، فلذلك يمكن اختبار علم المرء من أقواله وتصرفاته. ولقد حثّ الدين الشريف على تعلّم المعارف الساميّة التي تفتح عين الإنسان على حقائق هذا العالم وأن لا يكتفي الطالب بالسعي وراء الشهادة الجامعية ويعزف عن طلب العلوم الحقيقية التي هي بمثابة النور الذي يكشف طريق الحق والعدل والصراط السوي للإنسان.

ويقول السيد الشيرازي (دام ظله) في موضوع العلم: كما إنّ العقل مفرق بين الحق والباطل والصحيح والسقيم وما اشبه ذلك رؤية أو حكماً أو كليهما حسب اختلاف المباني، كذلك العلم، فهو نور من الله سبحانه وتعالى، به يبصر الإنسان معنويات الأشياء وما أشبه، فإن النور الظاهري يسبب إدراك الإنسان بحاسة البصر لأشياء لا بحقيقتها بل بظواهرها، أما نور العلم الذي هو في داخل الإنسان فيدرك الإنسان به الأشياء بقدر تمكّنه من إدراكها.

واطلاق النور على القرآن والكتاب والنبي صلى الله عليه وآله والإمام عليه السلام وما أشبه ذلك إما من باب الإطلاق على السبب أو المبالغة من باب (زيد عدل) أو ما أشبه[١].

---

(١) الفقه العقائد: ١٥٩.

وفي الروايات إشارة إلى هذه الجهة:

فعن أبي حمزة قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن العلم ما هو أعلم يتعلّم منه العالم من أفواه الرجال؟ أو في كتاب عندكم تقرأونه فتعلمون منه؟

فقال عليه السلام: الأمر أعظم من ذلك وأجل، أما سمعت قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾[1]، ثم قال عليه السلام: وأي شيء يقول صاحبكم في هذه الآية؟

فقلت: لا أدري جعلت فداك ما يقولون؟

قال: بلى، قد كان في حال لا يدري ما الكتاب ولا الإيمان حتى بعث الله إليه تلك الروح التي يعطيها الله تعالى من يشاء، فإذا أعطاها الله عبداً علّمه الفهم والعلم[2].

ويقول السيد الشيرازي (دام ظله): الظاهر أن المراد بالآية المباركة: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ ذكر لطبيعة الممكن، فإن الممكن بطبيعته لا يعلم شيئاً، كما قال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾[3] ولا ينافي ذلك أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أوحى الله سبحانه وتعالى إليه العلم والحكمة والنبوة وما أشبه ذلك من العلم اللدني كما لا يخفى[4].

إنّ العلوم الحقيقية هي التي ترشد الإنسان لحياة واعدة وسعيدة وتُزيح عن قلبه حُجب الجهل والضلالة، وتبني شخصه على أساس قويم، وهنا يكون العلم شرفاً للمرء وغنى له وإن كان فقيراً، فمنزلة العلماء عظيمة بين الناس لكبر مقامهم وما فُضلوا به عن سائر الخلق بالعلم والمعرفة، وكفى بالعلم فخراً أن يلصق الجُهال أنفسهم به.

وتحصيل العلم يتم بثلاثة طرق هي:

١ - **الإكتسابية**: وهي أن يتعلم المرء المعارف من المدرسة أو من الأسرة أو من الكتاب والسنة.

---

(١) سورة الشورى، الآية: ٥٢.
(٢) بصائر الدرجات: ٤٨٠، باب ما يسأل العالم عن العلم الذي يحدث به.
(٣) سورة النحل، الآية: ٧٨.
(٤) راجع كتاب الفقه العقائد للإمام السيد محمد الحسيني الشيرازي (دام ظله) ١٥٩-١٦٠.

٢ - **بالتجربة**: وهو أن يكتشف قانوناً فيزيائياً أو كيميائياً، من خلال القيام بتجربة داخل المختبر.

٣ - **بالتفكير**: وهي الطريقة الاستبطانية في الربط ما بين الأفكار والمعارف الموجودة في الذهن واستخلاص الحقيقة النهائية منها.

◎ القلب مسكن العقل

العقل كما ذكرنا أنّه نور روحاني موضعه الدماغ ومسكنه القلب[1]، وهو الكاشف لظلمة الجهل والمُظهر للنصف الآخر من الحقيقة الخافية، فقد خُلق هذا الكون على الصورة الظاهرة والصورة الخافية، وقد جاء في الذكر الحكيم: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾[2] فالظاهر يقود للمخفي، والواضح يهدي للغامض، والرابط بينهما هو العقل البشري، وهو النور الذي يقرأ رموز ما خفي من الحياة الثانية، ويفك شفرتها ليصل إلى الحقائق العلمية، والناس على مختلف مشاربهم ماديين وروحانيين - حسيين وعقليين يجدون السعي لإكتشاف تلك الحقائق.

وعندما نعرض العقل على القرآن الكريم لا نجد شيئاً يذكرهُ القرآن وإسمهُ العقل وإنّما يجري الحديث عن عملية عقلية تحدث لدى الإنسان عند مشاهداته للمنظورات وإحساسه بالمحسوسات، ويتكون العقل هكذا بالتدريج حتى يصل إلى مستويات عالية من العلم والإدراك، ونجد القرآن الكريم يصف هذه العملية (بإدراك الآيات الكونيّة) فإننا نقرأ في القرآن العظيم: ﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[3] أو قوله تعالى:

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[4] أو: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾[5] والكثير غيرها من الآيات التي تحث الإنسان على التبصر في حقائق الوجود واتباع الشواهد الواقعية للإهتداء إلى الحقائق العلمية، فالله

(١) لا نقصد بالقلب هو ذلك العضو الصنوبري الشكل المودع في الجانب الأيسر من الصدر وهو الذي يضخ الدم إلى سائر أعضاء البدن فذاك نطلق عليه بالفؤاد.

(٢) سورة الروم، الآية: ٧.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٧٣.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٤٢.

(٥) سورة العنكبوت، الآية: ٤٣.

الحكيم لا يريد لهذا الإنسان الذي كرمه بالعقل أن يأخذ الدين عن أبويه دون وعي أو دراية بل عن تبصر وفهم. ويعتبر القرآن الكريم المصدر الرئيسي الذي يموّن الفكر بالمعلومات هي الحواس، فهي تمثل أجهزة الإرتباط الأولى بين قلب الإنسان والعالم الخارجي ونقرأ في القرآن المجيد: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[١] أو: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾[٢] والنتيجة المستخلصة من العملية العقلية الصائبة تكون علماً وهذا هو العقل المقصود في تعريف الرسول محمد ﷺ عندما يصفه بأنه عقال[٣] من الجهل، ولا يكون العقل كذلك إلا مع العلم، فكم رجلٍ ورجل يوصمون بالجهل على الرغم من صحة بدنهم وسلامة أدمغتهم وامتلاكهم لوسائل التفكير، فغاية العقل هي كسب العلم بالموجودات.

ولاحظنا من خلال الواقع ومن الشواهد القرآنية والسُنة الشريفة أن العقل ينحصر عمله في تمرين الإنسان بالفكر والعمليات المنطقية ولكنه لا يتخذ دور الزعامة والرئاسة بالنسبة للإنسان، فلو كان العقل حاكماً لما بقي جاهل على وجه الأرض، ولو كان العقل رئيساً لما صدرت من الإنسان قرارات غير صائبة.

ولو كان العقل زعيماً لما صدر من الإنسان فعلٌ مشين، هذا يقودنا إلى البحث عن جهاز آخر هو الذي يُدير شؤون الإنسان ويعتلج فيه الحق والباطل، ويتذبذب بين الخير والشر ويتقلب بين الجهل والعلم، من هنا يأتي القرآن الكيم ويخبرنا بوجود جهاز عظيم في الإنسان ألاّ وهو القلب.

وهو الجهاز القيادي في الإنسان إذ يكون العقل في خدمته ويأخذ موقع الصدارة فيه، وهو يحتوي على الإدراكات الحسيّة والشعورية والإنطباعات النفسية، وتوجيهات العقل بالنسبة إليه غير ملزمة وإنّما هي مجرد إرشادية، وبهذا الشكل فقط يمكننا تفسير القرارات غير المنطقية التي يتخدها الإنسان، أو السلوك غير السوي الذي يصدر منه، أو الأقوال البذيئة التي تأتي على لسانه، والتي هي متناقضة تماماً مع العقل، فإذا كان العقل هو الرئيس فكيف يدع اللسان ينطق بتلك الكلمات البذيئة؟ ونحن نعرف العقل بالنزاهة والنقاء وأنّه يمثل الخير كلّه كما نجد صفته في القرآن الكريم والسُنة الشريفة، وبالعكس نجد ذماً في القرآن للقلوب المريضة أو القلوب التي طبعت بالرين.

---

(١) سورة ق، الآية: ٣٧.

(٢) سورة السجدة، الآية: ٩.

(٣) العقال: حبلٌ يشد به البعير في وسط ذراعه.

وخيرُ ما وصف القلب هو الإمام عليه السلام في حديث مطوّل بيّن فيه الإمام أن القلب موضع لإلتقاء المتناقضات شيءٌ من الخير وشيءٌ من الشر، شيءٌ من الفرح وشيءٌ من الحزن، شيءٌ من الكرم وشيءٌ من البخل وهذا هو طبع الآدمي.

لنقرأ ما جاء في حديث الإمام عليه السلام: «**أعجب ما في الإنسان قلبه وله مواد من الحكمة، وأضداد من خلافها، فإنّ سنح له الرجاء أذلّه الطمع، وإن هاج به الطمع أهلكه الحرص، وإن ملكه اليأس قتله الأسف، وإن عرض له الغضب اشتدّ به الغيظ، وإن سعد بالرضا نسي التحفّظ وإن ناله الخوف شغله الحذر، وإن اتّسع له الأمن استلبته الغرّة، وإن جدّدت له النعمة أخذته العزّة، وإن أصابته مصيبة فضحه الجزع، وإن استفاد مالاً أطغاه الغنى، وإن عضّته فاقة شغله البلاء، وإن جهده الجوع قعد به الضعف، وإن أفرط في الشبع كظّته البطنة، فكلّ تقصير به مُضرّ، وكلّ إفراط به مفسد**»[1].

قال المجلسي قدس سره في تفسير قوله سبحانه: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾[2] فيه قولان:

الأوّل: أنّه إنما قال: ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ وإن كان إنّما أنزله عليه ليؤكّد به أن ذلك المنزل محفوظ، والمرسول متمكن في قلبه لا يجوز عليه التغيّر، فيوثق عليه بالإنذار الواقع مع الذي بيّن الله تعالى أنه المقصود ولذلك قال: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾.

الثاني: أنّ القلب هو المخاطب في الحقيقية لأنّه موضع التميز والاختيار، وأمّا سائر الأعضاء فمسخرة له والدليل عليه القرآن والحديث والمعقول، أمّا القرآن فآيات:

إحداها: في سورة البقرة: ﴿نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾[3]، وقال: ههنا ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ وقال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾[4].

وثانيها: أن استحقاق الجزاء ليس إلاّ على ما في القلب من المساعي، فقال: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾[5] وقال: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾[6]. والتقوى في القلب، لأنّه تعالى قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾[7] وقال تعالى: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾[8].

---

(١) بحار الأنوار: ٥٢/٦٧، عن علل الشرائع: ١٠٣/١.
(٢) سورة الشعراء، الآيتان: ١٩٣.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٩٧.
(٤) سورة ق، الآية: ٣٧.
(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٢٥.
(٦) سورة الحج، الآية: ٣٧.
(٧) سورة الحجرات، الآية: ٣.
(٨) سورة العاديات، الآية: ١٠.

وثالثها: قوله حكاية عن أهل النار: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾(١) ومعلوم أن العقل في القلب والسمع منفذ إليه.

وقال: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾(٢) ومعلوم أن السمع والبصر لا يستفاد منهما إلا ما يؤديانه إلى القلب، فكان السؤال عنهما في الحقيقة سؤالاً عن القلب وقال: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾(٣) ولم تخن الأعين إلا بما تضمر القلوب عند التحديق بها.

ورابعها قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾(٤) فخص هذه الثلاثة بإلزام الحجة واستدعاء الشكر عليها، وقد قلنا: لا طائل في السمع والأبصار إلا بما يؤديانه إلى القلوب ليكون القلب هو القاضي والمتحكم عليه، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾(٥).

فجعل هذه الثلاثة تمام ما الزمهم من حجة، والمقصود من ذلك هو الفؤاد القاضي فيما يؤدي إليه السمع والبصر.

وأما الحديث فما روى النعمان بن بشير قال: سمعته ﷺ يقول: «**ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كلّه، وإذا فسدت فسد الجسد كلّه، ألا وهي القلب**»(٦).

وأما المعقول فوجوه:

أحدها: أن القلب إذا غشي عليه فلو قطع سائر الأعضاء لم يحصل الشعور به، وإذا أفاق القلب فإنه يشعر بجميع ما ينزل بالأعضاء من الآفات، فدّل ذلك على أن الأعضاء تبع القلب، ولذلك فإنّ القلب إذا فرح أو حزن فإنه يتغير حال الأعضاء عند ذلك. وكذا القول في سائر الأعضاء النفسانية.

وثانيها: أن القلب منبع المشيئات الباعثة على الأفعال الصادرة من سائر الأعضاء، وإذا كانت المشيئات مبادىء الأفعال ومنبعها هو القلب فالآمر المطلق هو القلب.

(١) سورة الملك، الآية: ١٠.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٣٦.
(٣) سورة غافر، الآية: ٩.
(٤) سورة السجدة، الآية: ١٩.
(٥) سورة الأحقاف، الآية: ٢٦.
(٦) بحار الأنوار: ٥٨/ ٢٣.

وثالثها: أن معدن العقل هو القلب وإذا كان كذلك كان الأمر المطلق هو القلب، أما المقدمة الأولى ففيها النزاع، فإن طائفة من القدماء ذهبوا إلى أن معدن العقل هو الدماغ، والذي يدلّ على قولنا وجوه:

الأول: قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾(١).

وقوله: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾(٢) وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾(٣). أي عقل، أطلق على العقل لما أنه معدن له.

الثاني: أنه تعالى أضاف أضداد العقل إلى القلب، فقال: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾(٤) ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾(٥). ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾(٦) ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾(٧) ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾(٨) ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾(٩) ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾(١٠) ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾(١١) فدلّت هذه الآيات على أن موضع الجهل والغفلة هو القلب، فوجب أن يكون موضع العقل والفهم أيضاً هو القلب.

الثالث: أنا إذا جربنا أنفسنا وجدنا علومنا حاصلة في ناحية القلب، ولذلك فإن الواحد منا إذا أمعن في الفكر والرويّة أحسّ من قلبه ضيقاً وضجراً حتى كأنه يتألم بذلك، وكل ذلك يدلّ على أن موضع العقل هو القلب، وإذا ثبت ذلك وجب أن يكون المكلف هو القلب لأن التكليف مشروط بالعقل والفهم.

الرابع: أن القلب هو أولّ الأعضاء تكوناً وآخرها موتاً، وقد ثبت ذلك بالتشريح ولأنه متمكن في الصدر الذي هو الأوسط في الجسد، ومن شأن الملوك المحتاجين إلى الخدم أن يكونوا في وسط المملكة. لتكتنفهم الحواشي من الجوانب ليكونوا أبعد من الآفات. واحتج من قال: العقل في الدماغ. بوجوه:

---

(١) سورة الحج، الآية: ٤٦.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٧٩.
(٣) سورة ق، الآية: ٣٧.
(٤) سورة البقرة، الآية: ١٠.
(٥) سورة البقرة، الآية: ٧.
(٦) سورة النساء، الآية: ١٥٥.
(٧) سورة التوبة، الآية: ٦٤.
(٨) سورة آل عمران، الآية: ١٦٧.
(٩) سورة المطففين، الآية: ١٤.
(١٠) سورة محمد، الآية: ٢٤.
(١١) سورة الحج، الآية: ٤٦.

أحدها: أن الحواس التي هي الآلات للإدراك نافذة إلى الدماغ دون القلب.

وثانيها: أن الأعضاء التي هي آلات الحركات الإختيارية نافذة من الدماغ دون القلب.

وثالثها: أن الآفة إذا دخلت في الدماغ اختّل العقل.

ورابعها: أن في العرف كل من أريد وصفه بقلة العقل، يقال: إنه خفيف الدماغ، خفيف العقل.

وخامسها: أن العقل أشرف فيكون مكانها أشرف والأعلى هو الأشرف، وذلك هو الدماغ لا القلب فوجب أن يكون محل العقل الدماغ لا القلب.

والجواب عن الأول: لم لا يجوز أن يقال: الحواس تؤدي آثارها إلى الدماغ ثم إن الدماغ يؤدي تلك الآثار إلى القلب، والدماغ آلة قريبة للقلب والحواس آلة بعيدة، والحس يخدم الدماغ، والمداغ يخدم القلب؟ وتحقيقه أنّا ندرك من أنفسنا أنا إذا عقلنا أنّ الأمر الفلاني يجب فعله أو يجب تركه، فإنّ الأعضاء تتحرك عند ذلك ونحن عند التعقلات نحس من جانب الدماغ.

وعن الثاني: أنه لا يبعد أن يتأدى الأثر من القلب إلى الدماغ، ثم الدماغ يحرك الأعضاء بواسطة الأعصاب النابتة منه.

وعن الثالث: لا يبعد أن تكون الدماغ شرطاً لوصول تأثير القلب إلى سائر الأعضاء.

وعن الرابع: أنّ ذلك العرف إنّما كان لأن القلب إنما يعتدل مزاجه بما يستمده من الدماغ من برودته، فإذا لحق الدماغ خروج عن الاعتدال خرج القلب عن الاعتدال أيضاً، إما لزيادة حرارته عن القدر الواجب، أو لنقصان حرارته عن ذلك القدر، فحينئذ يختل العقل.

وعن الخامس: أنه لو صح ما قالوه لوجب أن يكون موضع القلب هو القحف، ولما بطل ذلك ثبت فساد قولهم. (انتهى)[١].

من خلال البحث نفهم أن القلب متقلب بين حالات مختلفة وبين أوضاع متناقضة وتوجيهات العقل بالنسبة إليه إرشادية، ولذا نجد أن الأئمة من أهل البيت عليهم السلام يصفون

---

(١) البحار: ٥٨/ ٢٢-٢٦.

العقل بأنّه خير صديق للإنسان والصديق هو الناصح وليس الآمر، فلنقرأ طائفةً من هذه الأحاديث الواردة بهذا الشأن:

فعن الإمام علي عليه السلام قال: **«صديق كل إنسان عقله، وعدوّه جهله، والعقول ذخائر، والأعمال كنوز»**(١).

وعنه عليه السلام أيضاً: **«العقل صديق مقطوع، الهوى عدو متبوع»**(٢).

وعن الإمام علي عليه السلام: **«العقل خليل المرء»**(٣).

وعن الإمام الصادق عليه السلام: **«العقل دليل المؤمن»**(٤).

وعن الإمام علي عليه السلام أيضاً: **«لا يغش العقل من انتصحه»**(٥).

ومن هذه الأحاديث الشريفة يتبين أن لا سلطة للعقل على الإنسان وإنّما هو كالصديق أو كالدليل المرشد لطريق الحق والخير. فمن صاحب القرار؟.

إنّ الجهاز الذي يأخذ دور الرئاسة ويصدر القرارات المصيرية بالنسبة للإنسان هو القلب الذي يعدُ أيضاً مركزاً للطباع الفطرية مثل اللين والقسوة، والألفة، والضغينة، والسكينة، والخشية، والخشوع، والنكران.

وقد بيّن الإمام علي عليه السلام في حديثه المطول حول الخصائص التسلطية لهذه الطباع على مقدرات القلب، ولم يستبعد الإمام في آخر حديثه أن يكون القلب هو مركزاً للأمراض النفسية إن فلتت من يده زمام القيادة لصالح الجهل والهوى.

والقلب أيضاً مركزٌ للاعتقادات الراسخة، لا فرق أن يكون منبعها العقل أو الجهل، فإن كان المرء عاقلاً وعالماً اتبع القلب العقل فكان رئيسه، وإن لم يكن كذلك فهو يتّبع الجهل وكان الهوى رئيسه. وأمّا بالنسبة للإعتقادات الراسخة فهي تصورات مكتسبة من الواقع أو من التجربة في الحياة، وهي تترسخ في القلب مع مرور الأيّام وتمثل الشخصية الفكرية والإعتقادية للإنسان، فلكل فرد من أفراد البشر نظرة تجاهل الأشياء والأفكار والحقائق، وعندما نسأله عن رأيه بالدين أو بالعلم أو بالرأسمالية أو بالشيوعية، فإنه يجيبك من دون تفكير ويدلي برأيه بهذه القضية من دون روية، وذلك

---

(١) بحار الأنوار: ٧٥/ ٩٢.
(٢) غرر الحكم ودرر الكلم: ١/ ٢٣/ ح٣٧٦.
(٣) بحار الأنوار: ٦٨/ ٤١٩.
(٤) الكافي: ١/ ٢٥.
(٥) بحار الأنوار: ١/ ٩٥.

لأنّه يحتفظ باعتقاد راسخ في قلبه تجاهها ولا يشعر عند ذلك بحاجة إلى القيام بعملية عقليّة واستدلالية معقّدة، لأن ذلك الاعتقاد هو بالأساس حصيلة عملية فكريّة قام بها الإنسان في وقت مضى وترسخ عبر الأيام في قلبه.

وفي القرآن الكريم نجد وصفاً دقيقاً لهذه الحالة إذا يطلق عليها كلمات مثل (الطبع - والختم) ونقرأ في القرآن الكريم هذه الآيات الكريمة: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾[١]، أو الآية الشريفة: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[٢]، أو الآية الأخرى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾[٣] والكثير غيرها حتى يتصور المرء وكأن الله سبحانه وتعالى يفرض الكفر على قلوب المنكرين ويجبرهم على اتّباع غير طريق الهُدى وحاشا لله عن ظلم البشر، فهو الرحيم بعباده وما بعثه للأنبياء والرسالات إلاّ بغرض هدايتهم، ولكنّ طبع القلوب، وختم الأسماع، وغشاوة الأبصار، كانت نتيجة طبيعية لاعتقاداتهم الراسخة والكائنة في قلوبهم والنابعة من الجهل، فهم كانوا يصرّون عقولهم عن الحق بأفكارهم الراسخة التي ما كانت تدع مجالاً لنفوذ نور الحق إليها.

ومما يتبين من الآيات الآنفة الذكر أنّ للقلب عيناً من نور روحانية ترى الأشياء على حقيقتها من دون غشاوة، وأوّل شيءٍ يراه الإنسان عندما تتفتح بصيرته أن يرى عمله له أم عليه. كما قال الإمام علي عليه السلام: «**فالناظر بالقلب، العامل بالبصر، يكون مبتدأ عمله أن يعلم: أعمله عليه أم له! فإن كان له مضى فيه، وإن كان عليه وقف عنه...**»[٤].

ولن تتوقف عين البصيرة إلى هذا الحد بل ترقى إلى الأعلى لتتكشف لها الكثير من الحجب، ومنها الحجاب الذي يمنع الإنسان من التبصر في القرآن الكريم والله العزيز يقول: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾[٥] فمع سلاسة الأسلوب القرآني وبساطة معانيه إلاّ أن المتدبرين في القرآن قليل، والسبب هي الغشاوة المضروبة على قلب الإنسان وبصيرته.

وهناك ارتباط جوهري بين طباع القلب وسلوك الإنسان، فإنّ أي تصرف يقدم عليه

(١) سورة الجاثية، الآية: ٢٣.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٠١.
(٣) سورة الحج، الآية: ٤٦.
(٤) نهج البلاغة: ١٥٤/ ٢١٦.
(٥) سورة محمد، الآية: ٢٤.

المرء ينتقش على القلب ولا يزول بسهولة، فإذا كان الفعل حسناً ترك انطباعاً حسناً لديه وزاد في إنشراحه، وإنّ كان سيئاً فإنه أيضاً سيترك أثراً سيءً مماثلاً، وتراكم الأفعال الحسنة تطبع القلب بذلك الفعل الحسن، حتى يعتاد المرء على فعله وكأنّه شيء من سجيته، وكذا الحال بالنسبة للفعل السيء، ولذلك فقد حذر الأنبياء والصالحون معاشر المؤمنين من اقتراف الذنوب ليس لآثارها الآنية فحسب وإنّما بسبب عواقبها الوخيمة على قلب الإنسان، لأن المداومة عليها سيؤدي إلى طبع القلب عليها وبعد ذلك يتعذر الخلاص منها بسهولة.

تقلب القلب بين حالات الإقبال والإدبار، فعن الإمام علي عليه السلام: **«إنّ للقلوب إقبالاً وإدباراً، فإذا أقبلت فاحملوها على النوافل، وإذا أدبرت فاقتصروا بها على الفرائض»**[1].

تطهير القلب: قال الإمام علي عليه السلام: **«طهروا قلوبكم من الحسد فإنّه مُكمد مضنٍّ»**[2].

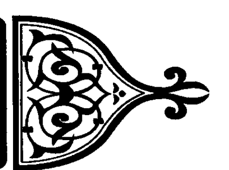
مرض القلب: ففي القرآن الكريم: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًاۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾[3]. وفي الحديث نقرأ عن الإمام علي عليه السلام: **«إنّ من البلاء الفاقة، وأشدّ من ذلك مرض البدن، وأشدّ من ذلك مرض القلب، وإنّ من النعم سعة المال، وأفضل من ذلك صحة البدن، وأفضل من ذلك تقوى القلوب»**[4].

قوة القلب: فقد جاء عن الإمام علي عليه السلام أنّ: **«أصل قوّة القلب التوكّل على الله»**[5].

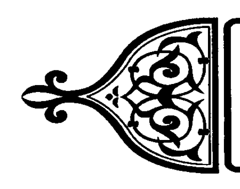
عمارة القلب: وعن الإمام علي عليه السلام أن: **«عمارة القلوب في معاشرة ذوي العقول»**[6].

---

(١) غرر الحكم ودرر الكلم: ١/ ٢٣٦/ ح٢٥٧.
(٢) المصدر نفسه: ٢/ ١٢/ ح٣٣.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٠.
(٤) بحار الأنوار: ٦٧ج ٥١.
(٥) غرز الحكم ودر الكلم: ١/ ١٩٢/ ح٢٥٦.
(٦) غرز الحكم والدر الكلم: ٢/ ٤١/ ح٢٨.



حقيقة الرؤيا وتعبيرها



● عن عيسى بن عبد الله، عن أبيه عبد الله بن عمر بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام عن أبيه، عن جدّه، عن عليّ عليه السلام قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وآله عن الرجل فيرى الرؤيا فربما كانت حقّاً، وربما كانت باطلاً.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: يا عليُّ ما من عبد ينام إلا عرج بروحه إلى ربّ العالمين، فما رأى عند ربّ العالمين فهو حقّ، ثمّ إذا أمر الله العزيز الجبّار بردّ روحه إلى جسده، فصارت الروح ين السماء والأرض، فما رأته فهو أضغاث أحلام[1].

● مجالس الصدوق: بإسناده عن ابن عبّاس قال: كنت مع أمير المؤمنين عليه السلام في خروجه إلى صفّين، فلمّا نزل نينوي - وهو بشطّ الفرات - توضّأ وصلّى ثمّ نعس فانتبه فقال:

رأيت في منامي كأنّي برجال قد نزلوا من السماء معهم أعلام بيض قد تقلّدوا سيوفهم وهي بيض تلمع، وقد خطّوا حول هذه الأرض خطّة، ثمّ رأيت كأنّ هذه النخيل قد ضربت بأغصانها الأرض يضطرب بدم عبيط، وكأنّي بالحسين فرخي ومضغتي ومخّي قد غرق فيه يستغيث فلا يغاث، وكان الرجال البيض قد نزلوا من السماء ينادونه ويقولون:

صبراً آل الرسول، فإنكم تقتلون على أيدي شرار الناس، وهذه الجنّة يا أبا عبد الله إليك مشتاقة، ثم يعزّونني ويقولون:

يا أبا الحسن أبشر، فقد أقرّ الله عينك به يوم يقوم الناس لربّ العالمين، ثمّ انتبهت هكذا والّذي نفس عليّ بيده لقد نبّأني الصادق المصدّق أبو القاسم صلى الله عليه وآله أنّي سأراها في خروجي إلى أهل البغي علينا، وهذه أرض كرب وبلاء يدفن فيها الحسين وسبعة عشر رجلاً من ولدي وولد فاطمة[2] (والحديث المختصر).

---

(١) الأمالي: ٨٩، البحار ج٥٨ ص١٥٨ - ١٥٩، ح١.

(٢) الأمالي: ٣٥٦، البحار ج٥٨ ص١٧٠، ح٢٦.

● مجالس الشيخ: بإسناده عن شمر بن عطيّة قال: كان أبي ينال من عليّ ابن أبي طالب عليه السلام فأتي في المنام فقيل له: أنت السّاب علياً؟ فحنق حتّى أحدث في فراشه ثلاثاً[١].

● عن عبيد الله بن علي، عن الرضا، عن عليّ عليه السلام قال: رؤيا الأنبياء وحي[٢].

● وعن سليم بن عامر أنّ عمر بن الخطّاب قال: العجب من رؤيا الرجل إنّه يبيت فيرى الشيء لم يخطر له على بال، فيكون رؤياه كأخذ باليد، ويرى الرجل الرؤيا فلا يكون رؤياه شيئاً.

فقال عليّ بن أبي طالب عليه السلام: أفلا أُخبرك بذلك يا أمير المؤمنين؟ إنّ الله يقول: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾[٣] فالله يتوفّى الأنفس كلّها، فما رأت وهي عنده في السماء فهي الرؤيا الصادقة، وما رأت إذا أرسلت إلى أجسادها تلقتّها الشياطين في الهواء فكذبتها وأخبرتها بالأباطيل فكذبت فيها. فعجب عمر من قوله[٤].

● كتاب سليم بن قيس: قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام لعبد الله بن عمر: ما قال لك أبوك حين دعانا رجلاً؟

فقال: أمّا أدنى شهادتي فانّه قال: إن بايعوا أصلح بني هاشم حملهم على المحجّة البيضاء وأقامهم على كتاب ربّهم وسنّة نبيّهم. ثمّ قال: يابن عمر، فما قلت أنت عند ذلك؟

قال: قلت له: فما يمنعك أن تستخلفه؟

قال: فما ردّ عليك؟

قال: وردّ عليّ شيئاً أكتمه.

قال عليّ عليه السلام: فإنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله قد أخبرني به ليلة مات أبوك في منامي، ومن رأى رسول الله عليه السلام فقد رآه في اليقظة.

قال: فما أخبرك؟

قال: أنشدك الله يابن عمر لئن حدّثتك لتصّدقنّ؟ أو أسكت.

---

(١) البحار ج٥٨ ص١٨٢ ح٢٩.

(٢) البحار ج٥٨ ص١٨١، ح٤٣.

(٣) سورة الزمر، الآية: ٤٢.

(٤) الدر المتور ج٥ ص٣٢٩، البحار ج٦٨ ص١٩٣، ح٧٤.

قال: فإنّه قال لك حين قلت له: فما يمنعك أن تستخلفه؟

قال: الصحيفة الّتي كتبناها بيننا والعهد في الكعبة في حجّة الوداع.

فسكت ابن عمر وقال: أسألك بحقّ رسول الله ﷺ لمّا أمسكت عنّي (الخبر)(١).

● ومنه: عن عبد الرحمان بن غنم الإزديّ - وساق قصّة وفاة معاذ بن جبل وأبي بكر إلى أن قال: - دعا بالويل والثبور وقال: هذا محمّد وعليّ صلوات الله عليهما يبشّراني بالنار، بيده الصحيلة الّتي تعاهدنا عليها في الكعبة، وهو يقول: لقد وفيت بها، فظاهرت على وليّ الله وأصحابك، فأبشر بالنار في أسفل السافلين.

قال سليم: فقلت لمحمّد بن أبي بكر: فمن ترى حدّث أمير المؤمنين عن هؤلاء الخمسة بما قالوا؟

قال: رسول الله ﷺ إنّه يراه في منامه كلّ ليلة، وحديثه إيّاه في المنام مثل حديثه إيّاه في اليقظة، فإنّ رسول الله ﷺ قال: من رآني في المنام فقد رآني، فإنّ الشيطان لا يتمثّل بي في نوم ولا يقظة، ولا بأحد من أوصيائي إلى يوم القيامة.

قال سليم: فقلت لمحمّد بن أبي بكر: من حدّثك بهذا؟

قال: علي عليه السلام.

فقلت: سمعت أنا أيضاً كما سمعت أنت.

قلت لمحمّد: فلعلّ ملكاً من الملائكة حدّثه.

قال: أو ذاك - وساقه إلى أن قال سليم: - فلما قتل محمد بن أبي بكر بمصر وعزّينا أمير المؤمنين عليه السلام حدّثته بما حدّثني به محمد وخبرته بما خبّرني به عبد الرحمان بن غنم.

قال: صدق محمد - رحمه الله - أما إنّه شهيد يرزق (الحديث)(٢).

● ومنه: بإسناده عن سلان في أجوبة أمير المؤمنين عليه السلام عن مسائل الجاثليق - وساق إلى أن طلب الجاثليق منه عليه السلام المعجز - فقال أمير المؤمنين: خرجت أيّها النصرانيّ من مستقرّك مضمراً خلاف ما أظهرت الآن من الطلب والاسترشاد فأريت في منامك مقامي، وحدّثت فيه كلامي، وحذّرت فيه من خلافي، وأمرت فيه باتّباعي.

قال: صدقت والله الّذي بعث المسيح، ما اطّلع على ما أخبرتني به غير الله تعالى. ثمّ أسلم وأسلم الذين كانوا معه(٣).

---

(١) البحار ج٥٨ ص٢٤٠ - ٢٤١، ح٧.

(٢) البحار ج٥٨ ص٢٤١، ح٨.

(٣) البحار ج٥٨ ص٢٤٢، ح١٠.

● **التوحيد للصدوق: بإسناده عن وهب بن وهب القرشيّ، عن أبي عبد الله عن آبائه عليهم السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: رأيت الخضر عليه السلام قبل بدر بليلة فقلت له: علّمني شيئاً أنصر به على الأعداء.**

فقال: ياهو يا من لا هو إلاّ هو، فلمّا أصبحت قصصتها على رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: يا عليّ علّمت الإسم الأعظم، وكان على لساني يوم بدر[1]. (الخبر).

◎ الفرق بين الحلم والرّؤيا والطيف:

يطلق لفظ الرؤيا والحلم في اللغة ويراد بهما معنى واحد على سبيل الإشتراك المعنوي بمعنى أنهما مترادفان، فمن كلمات أهل اللغة في ذلك، ما قاله الطريحي في مجمعه: (الرؤيا) بالضم والقصر ومنع الصرف ما يرى في المنام، وقال في موضع آخر: (الحُلُم) بضم الحاء واللام واحد الأحلام في النوم. وحقيقته على ما قيل: أنّ الله تعالى يخلق بأسباب مختلفة في الأذهان عند النوم صوراً علمية، منها ما يطابق لما مضى ولما يستقبل، ومنها غير مطابق[2].

وكثير من اللغويين لم يذكروا الرؤيا في بابها إكتفاءً بذكرها في باب الحلم.

قال الفيروز آبادي في القاموس: الحُلم بالضم وبضمتين الرؤيا[3].

وقال ابن فارس في معجم المقاييس: الحُلم رؤية الشيء في المنام.

وقال الراغب في مفرداته: الحُلم بضمتين زمان البلوغ.

وسمي الحُلم لكون صاحبه جديراً بالحِلم[4].

وأمّا في استعمالات الشارع المقدسي فإن الرؤيا تطلق على ما كان محتم الوقوع، على العكس من الحلم فإنّه عند الإطلاق لا يراد به ذلك، ولذا قال إبراهيم عليه السلام في محكي كتاب الله العزيز: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ﴾[5] فتجده قد استعمل لفظ الرؤيا ولم يقل إني أحلم في المنام أنّي أذبحك[6].

(١) البحار ج٥٨ ص٢٤٢، ح١١.

(٢) بُلغة الشيعة الكرام في تعبير رؤيا المنام: ٥٦.

(٣) القاموس المحيط: ١٤١٦ (الحُلم).

(٤) مفردات ألفاظ القرآن: ٢٥٣ (حلم)

(٥) سورة الصافات: ١٠٢.

(٦) بُلغة الشيعة الكرام في تعبير رؤيا المنام: ٥٧.

وأما الطّيف فإنّ معانيه متعددة ويشهد بذلك لك العرض الموجز لبعض أقوال علماء اللغة:

قال الفيومي في المصباح: طاف الخيال (طيفاً) ألمّ. و(اطيف) الشيطان و (طائفه) إلمامهُ بمسٍ أو وسوسة[١].

وقال الرازي في المختار: طيف الخيال مجيئه في النوم، وبمثله صرح الطريحي في مجمعه والضمير في (مجيئه) متعلق بالشيطان، وهذا ما يفسّره قول الفيومي المتقدم.

وقال ابن فارس في المعجم: الطَيف والطائف ما أطاف بالإنسان من الجنّ والإنس والخيال.

وقال الراغب في مفرداته: الطوف المشي حول الشيء، ومنه أستعير الطائف من الجن، والخيال، والحادثة قال الله عزّ وجلّ: ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾[٢] وهو خيال الشيء وصورته المترائي له في المنام أو اليقظة[٣].

وقال الفيروز آبادي في القاموس: الطّيف: الغضب، والجنون، والخيال الطائف في المنام أو مجيئه في المنام[٤].

◎ هل من علاقة بين الأحلام والحوادث؟:

نشرت إحدى المجلات العلميّة في الغرب فصلاً حاولت أن تشرح به مسألة الأحلام، وأن تثبت أن بينها وبين الحوادث التي تقع حولنا علاقة لا يمكن انكارها، وقد رأينا أن نورد فيما يلي خلاصة كلامها قالت:

يبذل العلماء منتهى الجهد للوقوف على كنه الأحلام وحلّ ألغازها، ومع أن جهودهم في هذا السبيل ترجع إلى أقدم الأزمنة إلاّ أنهم لم يكترثوا للأمر إكتراثاً جدياً إلاّ منذ عهد قريب، وفي الواقع أن علماء نصف القرن الماضي لم يكونوا يعتقدون أن الأحلام جديرة بالبحث، ولكن علماء هذا العصر ينظرون إلى المسألة نظرة أخرى ويجمعون الحقائق التي تعينهم على استجلاء هذا السّر الغامض. وهناك أمور ثابتة لا سبيل إلى إنكارها وفي مقدمتها أن حوادث كثيرة أشير إلى وقوعها أو أنبيء بها بواسطة الأحلام.

---

(١) المصباح المنير: ٣٨٣ (طاف).
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٢٠١.
(٣) مفردات ألفاظ القرآن: ٥٣١ (طوف).
(٤) القاموس المحيط: ١٠٧٧ (الطّيف).

وهناك أيضاً ما يثبت أن بعض الأحلام أوجدت في أصحابها قوة النبوة واستجلاء المستقبل مما لا سبيل معه إلى إهمال تلك الأحلام وعدم الاهتمام بها.

فمن أمثلة ذلك ما رواه الدكتور (دي سرمين) وهو أنه حلم ذات ليلة أن ولده الذي كان يحبه محبّة فائقة وقع في نار ملتهبة واحترق، وكان الحلم واضحاً جداً حتى انزعج الدكتور فنهض من نومه مذعوراً وذهب إلى حيث كان ولده مستغرقاً في سبات هنيء.

وفي اليوم التالي ظل تأثير الحلم عالقاً به حتى إنه أخذ يراقب ولده كمن يحاول أن يرد عنه الشر، ثم يفحص جسمه بكل دقة فوجده صحيح البنية لا يشكو علّة.

ولكن الولد أصيب في اليوم الذي بعده بالتهاب الرئة الحاد وتوفي بعد بضعة أيّام، فهل كان حلم الدكتور (دي سرمين) من قبيل الاتفاق؟ أم كان بينه وبين وفاة الولد علاقة ما؟

ومن هذا ما وقع لسيدة عجوز من أهالي مدينة (فيلادلفيا) بأمريكا منذ عدّة سنوات فإنها حلمت ذات يوم بأن إبنها وهو رجل كهل سقط بين عجلات الترامواي، وقتل فنهضت السيدة من نومها مذعورة ولما علمت أن ما رأته لم يكن سوى حلم عادت فنامت ثانية، ولكنها حلمت مرّة أخرى بأن الترامواي قد قتل ابنها وكان الحلم جليّاً جداً حتى إنها ركبت القطار في صباح اليوم التالي وذهبت إلى (نيويورك) حيث كان إبنها يسكن وما كادت تخرج من محطة نيويورك وتجتاز أحد الشوارع حتى أبصرت جمهوراً من النّاس مجتمعين حول رجل ميّت قد دهمه الترامواي، وكان ذلك الرجل هو إبنها وهو المستر (وليم كوبر) من كبار أغنياء الأميركيين، وقد شهد الكثيرون بصحة ما روته السيدة أمّه حيث اطلعت الكثيرين على حلمها قبل أن تسافر من فيلادلفيا إلى نيويورك ومن جملة الذين شهدوا بذلك العالم (كاميل فلامريون).

وهناك أيضاً أحلام تنبيء بوقوع حوادث تافهة. فمن ذلك أن فتاة أرلندية حلمت ذات ليلة بأنها واقفة في إحدى مركبات السكة الحديدية وحولها أصدقاؤها، وما كاد القطار يقوم حتى شعرت بأن يداً قذفت إليها برزمة ففتحتها وإذا بها قطعة من الصابون وأخرى من البسكويت، وأرادت أن ترى ما في بقية الرزمة ولكن القطار دخل في تلك اللحظة نفقاً مظلماً ثم استيقظت.

قصّت هذه الفتاة هذا الحلم على أمّها وجمهور من صديقاتها كن مجتمعات حولها، وبعد ثلاثة أشهر كانت مسافرة بأحد القطارات الاسكتلندية فوقع لها ما رأته في الحلم

تماماً. ترى ما معنى هذه الأحلام وكيف تعلل وقوعها وهل هي من قبيل الاتفاق أو بينها وبين الحوادث التي تقع حولنا علاقة ما؟ إنّ الكثير من العلماء يعتقدون اليوم أنّ في الإمكان الإنباء بالمستقبل بواسطة الأحلام.

إنّ العلماء يواصلون البحث لمعرفة أسرار الأحلام والوصول إلى تعليلها تعليلاً علمياً صحيحاً ولا بدّ أن ينتهوا إلى حلّ يحسن السكوت عليه، فيثبتوا أنّ الأحلام ليست مجرد مشاهد تعرض للنائم بلا سبب منطقي بل إنّ بينها وبين الحوادث علاقة لا سبيل إلى إنكارها[1].

◎ التفسير المادّي للرؤيا:

يقول الماديون يمكن أن تكون للرؤيا عدّة علل:

١- قد تكون الرؤيا نتيجة مباشرة للأعمال اليومية أي أن ما يحدث للإنسان في يومه قد يراه في منامه.

٢- وقد تكون الرؤيا عبارة عن سلسلة من الأماني التي تتحقق فيراها الإنسان في النوم كما يرى الظمآن، في منامه الماء، أو أن إنساناً ينتظر مسافراً فيراه قادماً من سفر.

٣- وقد يكون الباعث للرؤيا الخوف من شيء ما، وقد كشفت التجارب أن الذين يخافون من السارق يرونه في المنام.

أما فرويد وأتباعه فلديهم مذهب خاص في تفسير الأحلام، إذ أنهم بَعد شرح بعض المقدمات يقولون: إن الرؤيا عبارة عن إرضاء الميول المتخلفة لا أولئك الذين يريدون أن يشعروا بتحققها بالتغييرات والتبديلات للمخدوع بها.

ولزيادة الإيضاح يقولون: بَعد قبول أن النفس البشرية مشتملة على قسمين:

(الوعي): وهو ما له إرتباط بالأفكار اليوميّة والمعلومات الارادية والاختيارية للإنسان.

و**(اللاوعي)**: وهو ما خفي في باطن الإنسان بصورة رغبة لم تتحقق، فكثيراً ما يحدث أن تكون لنا ميول لكننا لم نستطع إرضاءها لظروف ما، فتأخذ مكانها في ضمير الباطن وعند النوم حين يتعطل جهاز الوعي تمضي في نوع من إشباع التخيل إلى الوعي

(١) راجع كتاب تفسير الأحلام: بحث في سيكولوجية الأعماق.

نفسه، فتنعكس أحياناً دون تغيير، كمثل العاشق الذي يرى في النوم معشوقته الذاهبة عن يده وأحياناً تتغير أشكالها وتنعكس بصورة مناسبة، وفي هذه الحالة تحتاج الرؤيا إلى تعبير.

فعلى هذا تكون الأحلام مرتبطة بالماضي دائماً ولا تخبر عن المستقبل أبداً.

نعم يمكن أن تكون وسيلة جيدة لقراءة (ضمير اللاوعي).

ومن هنا فهم يستعينون لمعالجة الأمراض النفسية المرتبطة بضمير اللاوعي باستدراج أحلام المريض نفسه.

ويعتقد بعض علماء التغذية أن هناك علاقة بين الرؤيا وحاجة البدن للغذاء، فمثلاً لو رأى الإنسان في نومه دماً يقطر من أسنانه فتعبير ذلك أن بدنه يحتاج إلى فيتامين (ث)، وإذا رأى في نومه شعر رأسه صار أبيض فمعناه أنه مبتلى بنقص فيتامين (ب).

◎ التفسير الروحي للرؤيا:

إن فلاسفة الروح يعتقدون أن الرؤيا والأحلام على أقسام:

١- الأطياف والرؤيا المرتبطة بما في الحياة والرغبات والأمنيات التي تشكل قسماً مهماً في الأحلام.

٢- الأطياف غير المفهومة والمضطربة وأضغاث الأحلام التي تنشأ من التوهم والخيال (إذا كان من الممكن أن يكون لها دافع نفسي).

٣- الأطياف المرتبطة بالمستقبل والتي تخبر عنه.

وممّا لا شك فيه أن الأحلام المتعلقة بالحياة الماضية، واحتباس النفس، وتجسّد الأمور التي رآها الإنسان في طول حياته ليس لها تعبير خاص، ومثلها الأطياف المضطربة أو ما تسمى بأضغاث أحلام التي هي نتيجة الأفكار المضطربة، كالأطياف التي تمر بالإنسان وهو في حال الهذيان أو الحمّى، فهي أيضاً لا يمكن أن تكون تعبيراً عن مستقبل الحياة وإن كان علماء النفس يستفيدون من هذه الأحلام ويتخذونها نوافذ للدخول إلى ضمير اللاوعي في البشر، ويعدّونها مفاتيح لعلاج الأمراض النفسيّة، فلذلك يكون تعبير الرؤيا عند هؤلاء لكشف الأسرار النفسية وأساس الأمراض، لا لكشف حوادث المستقبل في الحياة.

أمّا الأطياف و(الرؤى) المتعلقة بالمستقبل فهي على نحوين:

قسم منها أحلام واضحة وصريحة لا تحتاج إلى تعبير، وأحياناً تتحقق في المستقبل القريب أو البعيد دون أي تفاوت، وهي في منتهى التعجب.

وهناك قسم آخر من هذه الأحلام التي تتحدث عن المستقبل، ولكنّها في الوقت ذاته غير واضحة، وقد تغيّرت نتيجة العوامل الذهنيّة والروحيّة الخاصة فهي تحتاج إلى تعبير.

ولكل من هذه الأحلام نماذج ومصاديق كثيرة، ولا يمكن إنكار جميعها، وهي ليست مذكورة في المصادر التأريخية فحسب بل تتكرر في حياتنا أو حياة من نعرفهم بشكل لا يمكن عدّه من باب المصادفات والاتّفاقات.

- وروى أحد العلماء المصريين حيث قال: إذا كنت أنكر جميع ما قلتم في الرؤيا فلن أستطيع أن أنكر ما حدث لي يوم كنت في أمريكا أبداً. رأيت هناك في المنام أن إبن أختي قد نزفت عيناه دماً ولا يستطيع أن يرى (كان ابن أختي وسائر أعضاء أسرتي بمصر) فاستوحشت مما رأيت وكتبت رسالة إلى أسرتي بمصر فوراً، وسألتهم عن حال ابن أختي بوجه خاص، فلم تمض فترة حتى جاءني الجواب الذي يخبرني بأن ابن أختي مبتلى بنزيف داخلي في العين ولا يستطيع أن يرى وهو مشغول بالمعالجة.

ومما يستلفت النظر أن النزف الداخلي كان بشكل لا يمكن رؤيته إلاّ بالأجهزة الطبيّة، ولكن ابن أختي كان قد حرم من النظر والرؤية على كل حال، غير أنني رأيت في منامي حتى هذه المسائل الدقيقة.

إنّ الأحلام التي تكشف الحجب عن الأسرار والحقائق المرتبطة بالمستقبل، أو الحقائق المتعلقة بالحاضر، هي أكثر من أن تحصر، وليس بمقدور بعض الأفراد الذين لا يعتقدون بهذه الحقائق أن يضعوا أصابع الإنكار عليها أو يحملوها على المصادفة والأتّفاق.

ومن خلال التحقيق مع الأصدقاء القريبين يمكن الحصول على شواهد كثيرة من هذه الأحلام، وهذه الأحلام لا يمكن تعبيرها عن طريق التفسير المادي أبداً، وإنّما الطريق الوحيد هو تعبير فلاسفة الروح والإعتقاد باستقلال الرّوح، ومن مجموع هذه الأحلام يمكن أن نستفيد أنّها شاهدة على استقلال الروح.

نلاحظ في سورة يوسف عليه السلام أنّ يعقوب عليه السلام كان بالإضافة إلى تحذيره لولده

يوسف من أن يقصّ رؤياه على إخوته، فإنّه عبر عن رؤياه بصورة إجماليّة وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾[١].

ودلالة رؤيا يوسف على أنّه سيبلغ في المستقبل مقامات كبيرة معنوية وماديّة يمكن دركها تماماً، ولكن هنا يبرز هذا السؤال وهو كيف عرف يعقوب عليه السلام أن ابنه يوسف عليه السلام سيعلم تأويل الأحاديث في المستقبل؟ أهو خبر أخبره يعقوب ليوسف مصادفة ولا علاقة له بالرؤيا؟ أم أنّه اكتشف ذلك من رؤيا يوسف؟.

الظاهر أنّ يعقوب عليه السلام فهم ذلك من رؤيا يوسف ويمكن أن يكون ذلك عن أحد طريقين:

الأوّل: إن يوسف عليه السلام في تلك السن والعمر القصير وقد نقل لأبيه خاصة بعيداً عن أعين أخوته (لأن أباه أوصاه أن لا يقصّها على أخوته) وهذا الأمر يدلّ على أن يوسف نفسه كان له إحساس خاص برؤياه بحيث لم يقصها بمحضر الجميع. ولأن مثل هذا الإحساس في صبي قصير العمر كيوسف عليه السلام يدلّ على أنّ له استعداداً روحيّاً لتعبير الرؤيا، وإن أباه قد أحسّ بهذا الاستعداد وبالتربية الصحيحة سيكون له في المستقبل حظ زاهر في هذا المجال.

الثاني: إنّ ارتباط الأنبياء بعالم الغيب له عدة طرق، فمرةً عن طريق (الالهامات القلبيّة)، وتارة عن طريق (ملك الوحي)، وأخرى عن طريق الرؤيا.

وبالرغم من أن يوسف عليه السلام لم يكن نبيّاً في ذلك الوقت، ولكن وقوع مثل هذه الرؤيا ذات المعنى الكبير له يدلّ على أنّه سيكون له ارتباط بعالم الغيب في المستقبل، ولا بدّ أن يعرف تعبير الرؤيا طبعاً حتى يكون له مثل هذا الارتباط.

يقول أحد المفكرين: إننا ملزمون بالاعتقاد بأن بعض الرؤى تحمل نبوءات عن المستقبل القريب أو البعيد، ملزمون بهذا لسببين:

أولاً: من ناحية ما ورد في هذه السورة من وقوع مصداق رؤيا يوسف عليه السلام ورؤيا صاحبيه في السجن ورؤيا الملك في مصر.

وثانياً: من ناحية ما نراه في حياتنا الشخصيّة من تحقق رؤى تنبؤية في حالات متكررة بشكل يصعب نفي وجوده لأنّه موجود بالفعل.

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٦.

والسبب الأول يكفي ولكننا ذكرنا السبب الثاني لأنّه حقيقة واقعة لا يمكن إنكارها إلاّ بتعنت.

من الدروس التي نستلهمها من الآيات التي وردت في سورة يوسف عليه السلام أن نحفظ الأسرار، فدائماً تقع في حياة الإنسان أسرار لو أذيعت قد تهدد مستقبله بالفشل وقد تهدده بالخطر، وقد ورد حديث عن الإمام الصادق عليه السلام يقول فيه: (سرّك من دمّك، فلا يجرينّ من غير أوداجك)(١).

◎ حقيقة الرؤيا:

ما منا واحد إلاّ وقد شاهد من نفسه شيئاً من الرؤى والمنامات دله على بعض الأمور الخفيّة أو المشكلات العلميّة أو الحوادث التي ستستقبله من الخير أو الشر، أو قرع سمعه بعض المنامات التي من هذا القبيل، ولا سبيل إلى حمل ذلك على الاتفاق وانتفاء أي رابطة بينها وبين ما ينطبق عليها من التأويل. وخاصة في المنامات الصريحة التي لا تحتاج إلى تعبير.

ومما لا سبيل له أيضاً إلى إنكاره أن الرؤيا أمر إدراكي وللخيال فيها عمل، والمتخيلة من القوى الفعالة دائماً ربما تدوم في عملها من جهة الأنباء الواردة عليها من ناحية الحس كاللمس والسمع، وربما تأخذ صوراً بسيطة أو مركبة من الصور والمعاني المخزونة عندها تتحلل المركبات، كتفصيل صورة الإنسان التامة إلى رأس ويد ورجل وغير ذلك، وتركب البسائط كتركيبها انساناً مما اختزن عندها من أجزائه وأعضائه فربما ركبته بما يطابق الخارج، وربما ركبته بما لا يطابقه كتخيل إنسان لا رأس له أو له عشرة رؤوس.

وبالجملة للأسباب والعوامل الخارجية المحيطة بالبدن كالحرّ والبرد ونحوها، والداخلية الطارئة عليه كأنواع الأمراض والعاهات وانحرافات المزاج وامتلاء المعدة والتعب وغيرها تأثير في المتخيلة فلها تأثير في الرؤيا.

فترى أن من عملت فيه حرارة أو برودة بالغة يرى في منامه نيراناً مؤججة أو الشتاء والجمد ونزول الثلوج، وإن من عملت فيه السخونة فألجمه العرق يرى الحمام وبركان الماء ونزول الأمطار ونحو ذلك، وأن من انحرف مزاجه أو امتلأت معدته يرى رؤيا مشوشة لا ترجع إلى طائل.

---

(١) بحار الأنوار: ٧٢/ ٧١/ ح١٥، باب فضل كتمان السر.

وكذلك الأخلاق والسجايا الإنسانية شديدة التأثير في نوع تخيله، فالذي يحب إنساناً أو عملاً لا ينفك يتخيله في يقظته ويراه في نومته، والضعيف النفس الخائف الذعران إذا فوجىء بصوت يتخيل إثره أمور هائلة لا إلى غاية، وكلك البغض والعداوة والعجب والكبر والطمع ونظائرها كل منها يجر الإنسا إلى تخيله صور متسلسلة تناسبه وتلائمه، وقلّ ما يسلم الإنسان من بعض السجايا على طبعه.

ولذلك كان أغلب الرؤى والمنامات من التخيلات النفسانية التي سقاها إليها شيء من الأسباب الخارجية والداخلية الطبيعية أو الخلقية ونحوها، فلا تحكي النفس بحسب الحقيقة إلاّ كيفية عمل تلك الأسباب وأثرها فيها فحسب لا حقيقة لها وراء ذلك.

وهذا هو الذي ذكره منكروا حقيقة الرؤيا من علماء الطبيعة لا يزيد على تعداد هذه الأسباب المؤثرة في الخيال العاملة في إدراك الإنسان.

ومن المسلم ما أورده غير أنه لا ينتج إلاّ أن كل الرؤيا ليس ذا حقيقة، وهو غير المدعى وهو أن كلّ منام ليس ذا حقيقة، فإن هناك منامات صالحة ورؤيا صادقة تكشف عن حقائق ولا سبيل إلى إنكارها ونفي الرابطة بينها وبين الحوادث الخارجية والأمور المستكشفة كما تقدم.

فقد ظهر ممّا بيّنا أن جميع الرؤى لا تخلو عن حقيقة بمعنى أن هذه الادراكات المتنوعة المختلفة التي تعرض النفس الإنسانية في المنام وهي المسماة بالرؤى لها أصول وأسباب تستدعي وجودها للنفس وظهورها للخيال، وهي على اختلافها تحكي وتمثل بأصولها وأسبابها التي استدعتها، فلكل منام تأويل وتعبير غير أنّ تأويل بعضها السبب الطبيعي العامل في البدن في حال النوم، وتأويل بعضها السبب الخلقي، وبعضها أسباب متفرّقة إتفاقية كمن يأخذه النوم وهو متفكر في أمر مشغول النفس به فيرى في حلمه ما يناسب ما كان ذاهناً له.

وإنّما البحث في نوع واحد من هذه المنامات، وهي الرؤى التي لا تستند إلى أسباب خارجية أو طبيعية، أو مزاجية أو إتفاقية ولا إلى أسباب داخلية خلقية أو غير ذلك ولها ارتباط بالحوادث الخارجية والحقائق الكونيّة[1].

(١) الميزان في تفسير القرآن: ١١/ ٢٦٩ - ٢٧٠.

بحث فلسفي في علّة التغاير والتخالف بين صور الأشياء في عالم المثال والطبيعة

إنّ علّة الاختلاف الحاصل بين صور الأشياء في عالم المثال وصورها في عالم الطبيعة بحيث استدعى فهمها الإحاطة بأساليب وطريق التعبير كامنةً في أمور ذكرها المحدث النوري في دار السّلام وهي كالتالي:

الأوّل: إنّه قد يكون للشيء صورة في عالم المثال وليس له صورة في هذا العالم كالشجاعة التي صورتها الأسد، والحيلة والخديعة فإن صورتها الثعلب، والجهل فإن صورته الخنزير، ومتاع الدنيا فإنّ صورته العذرة وغير ذلك. وقد يكون للشيء الواحد صور متعددة بإعتبار جهات متعددة فيها، كالعلم فإن صورته الماء من حيث كونه سبباً لحياة النفس وبقائها، والعسل لكونه أحلى الأشياء عندها وألذّها، واللبن لكونه من عالم الصفاء والضياء، والأجسام النورية كالشمس والسراج لكونه سبب تنوير النفس وتفرقتها بين الحق والباطل. وقد تختلف صورة الشيء باختلاف الأشخاص الذين يرونه، وقد يكون الشيء الواحد مثالاً لشيئين مختلفين باختلاف الأشخاص كالماء فإنّه مثال للعلم الذي فيه الحياة الحقيقية للنفوس، للعلماء والمتعلمين.

الثاني: أن يكون سببه الإختلاف في المدرك وهو الروح إذا كان ضعيفاً وناقصاً من جهة العلم والاعتقاد بل مريضاً ومتشكلاً بصورة ما غلب على طبيعته من الأخلاط البدنية، فإنّه يدرك حينئذ الشيء متكيّفاً بما هو عليه ويخرجه عن الصورة التي تقوم فيه، وقد منعنا سابقاً كونه كذلك دائماً غير أنّه مما لا يمكن منعه كلياً لقيام التجربة ومساعدة حالات الحواس الظاهرة، فإنّ الإنسان يرى الشيء الواحد مختلف الهيئة واللون والحجم باختلاف عينه بالصحة والمرض وقوة النور وضعفه بل قرب المرئي وبعده وغير ذلك.

الثالث: أن يكون ذلك من مقتضيات وجود الشيء المرئي في هذا العالم كالأعمال الحسنة والقبيحة فإنّها أعراض في الدنيا وجواهر في تلك الدار، كما جاءت في متواتر الأخبار، ومثلها الكعبة والقرآن وشهر رجب وشعبان ورمضان بل جميع الساعات والأزمان وخصوصاً يوم الجمعة وليلة القدر ويوم الغدير وغيرها في إطلاعه على ذلك، وكشف الغطاء عن عين قلبه ورؤيته حقائق تلك الأشياء ما مرّ من الإنذار والبشارة والعقوبة والاختبار حسب ما قدمت يداه، وقد تكون صورة عمل حقيقة عمل آخر فيرى

في المنام تلك الصورة إذا صدر منه أو من غيره هذا العمل مثل ما ورد من أن من فعل كذا كان كمن عمل كذا، هذا إذا كان المقصود إزالة الريب عن قلب الرائي في كون عمل كالزيارة والحج مثلاً وإلاّ فلا يرى حقيقة الحج.

الرابع: أن يكون السبب فيه الشيطان بأن يتصوّر في عينه الشيء المرئي في غير صورته كالمشعبذ الذي يصرف الأبصار بحركات سريعة وخفة يلتبس على الحس التفرق بين الشيء وشبهه لسرعة الانتقال منه إلى شبهه ومنه بعض أنواع السحر.

الخامس: أن لا يكون المرئي هو أصل الشيء الخارجي أو صورته بل شيئاً آخر يشارك الخارجي في بعض الصفات الحسنة أو الذميمة الذي أريد تنبيه الرائي عليه ليترتب على الخارجي بعد الكشف عنه ما يترتب عليه بملاحظة هذه الصفة من فعل أو ترك أو زيادة أو نقصان أو حب أو بغض كالعذرة والقاذروات التي يراها الإنسان في المنام، فيصيب مالاً حراماً أو حلالاً، واللباس الذي رأى أنّه لبسه أو خلعه فيتزوج أو يطلقها.

وهذه الأسباب وغيرها يحتمل في المقام ولا يبلغه عقول ذوي الأفهام قد يجتمع في شيء واحد في منام واحد أو متعدد أو في أمور متفرّقة كذلك. وهذه الأمور قد تكون من الأمور الماضية أو المستقبلة أو الحالية والجميع قد يكون مما يتعلق بنفس الرائي، أو المكان الذي نام فيه، أو يرى الذي نام فيه أو يرى فيه الرؤيا، أو بجملة ما وجد أو يوجد في العالم، فإنّ الإنسان قد يرى حقيقة أعماله السابقة والعاكف عليها وما يبتلى بها بعد حين من الحسنة والقبيحة والمركّبة منها في نوم واحد، وقد يرى دفعة في مكان معيّن ما فعل فيه في السابق أو حال نومه أو يفعل فيه بعد امة من الأقسام الثلاثة من غير ارتباط لتلك الأفعال به، وإنّما انكشفت له لبشارة أو انذار أو امتحان أو غير ذلك، وقد يرى أموراً سلفت في العالم أو ستظهر فيه مما لا تختص بهما وإذا ضممت بعض ذلك بالآخر.

ثم بما ذكرنا من أقسام مباني اختلاف الصور تاقت الأجسام وأوجبت جملة منها توهم كونها من الأضغاث والأحلام، كما وقع لجلساء مَلك مصر في رؤياه في قصّة يوسف عليه السلام مع أنها كانت من الأور المستقبليّة المتعلقة بكلية العالم، فلو كان معها شيء مما تقدم كانوا أولى بهذا المقال.

ومن هنا تعرف أن كثيراً من المنامات التي تحمل على الأضغاث لعدم التمكن من ضمّ أجزاء بعض المنام إلى بعض ومعرفة المناسبة بينها[١].

◎ الأحلام من وجهة نظر علماء النفس

يعتبر علم النفس الفردي كلاً من الوعي واللاوعي وحدة لا تتجزأ، لذلك يمكننا أن نعد حياتنا اللاوعية أو الشبيهة بالواعيّة، فالأحلام التي نتعرض إليها كجزء من أسلوبنا في الحياة، وينطوي على المثال الأول منها على الدوام، والحق أننا لن نفهم حلماً من الأحلام فهماً صحيحاً إلاّ إذا أدركنا كيف يرتبط المثال الأول بهذا الحلم، كما أننا إذا عرفنا شخصاً معرفة صادقة كان في إستطاعتنا أن نهتدي إلى الطابع الذي تنطبع به أحلام هذا الشخص، ولما كنا نعرف أن الخوف صفة عامة في جميع أفراد الجنس البشري.

ومن هذه الحقيقة العامة يمكننا أن نفترض أن عدداً كبيراً من الأحلام يكون أحلام خوف، أو قلق وحيرة، وكذلك إذا عرفنا أن هدف شخص ما هو الهرب من مشاكل الحياة مثلاً، استطعنا أن نحرز أنّه كثيراً ما يحلم أنه قد سقط على الأرض، وكأن هذا الحلم إنذار له معناه (إيّاك أن تتقدم وإلاّ حلّت بك الهزيمة)، وإذن فهو يعبر عن نظره إلى المستقبل بهذه الطريقة، طريقة السقوط، ولذلك نرى الكثرة الغالبة من الرجال يحملون هذا النوع من الأحلام وهو أحلام السقوط.

ولا بدّ لنا من تقديم بعض الأمثلة عن بعض الحالات الخاصة، وهي حالة طالب مهمل في دروسه في اليوم السابق لامتحانه، إن في وسعنا أن نعرف ما يقع لهذا الشخص فهو يظل طوال يومه مهموماً، غير قادر على إستجماع فكره، وينتهي به الأمر إلى أن يقول لنفسه: (إنّ الوقت جداً قصير) فكأنّه يريد أن يؤجل الامتحان إلى آجل، وإذن فهو يرى في الحلم أنّه واقع، وفي حلمه هذا تعبير صريح عن أسلوب حياته، فلا بدّ له أن يرى هذا النوع من الأحلام ليبلغ به هدفه.

وإليك مثال آخر طالب آخر ناجح في دراسته، شجاع ذكي غير هيّاب ولا مختال، إنّ في وسعنا أن نعرف أيضاً أحلام هذا الشخص فهو يرى نفسه قبيل الامتحان، كأنّه يتسلق جبلاً شاهقاً فيسره المنظر الذي يشرف عليه من فوق قمة الجبل ثم يستيقظ وبذلك

(١) بُلغة الشيعة الكرام في تعبير رؤيا المنام: ١٣٦ - ١٣٩.

نلمس تعبيراً صادقاً عن حياته العادية، كما نرى أن حلمه ينم عن هدفه الأخير في هذه الحياة.

وهنالك الشخص المحدود القدرة وهو الذي تقف همته عند حد محدود لا تتعداه، ومثله يحلم بالحدود والموانع تعترض سبيله، وبأنّه غير قادر على تخطيها والتغلّب على الواقفين في سبيله من الناس، وكثيراً ما يرى في حلمه كأنّ شخصاً يتعقبّه ويريد اقتناصه.

وقبل أن ننتقل إلى لون آخر من ألوان الأحلام يجب أن نشير إلى حقيقة هامة، وهي أننا لا نرى عالماً نفسانياً يتولاه القنوط إن قال له زيد من الناس:

إني لا أستطيع أن أقص عليك أي حلم من أحلامي، لأنّ ذاكرتي لا تعيها ولكني أستطيع أن أصطنع بعض الأحلام. إذا هو سمع ذلك فلن يقنط لأنه يعلم أن خيال زيد هذا لا يستطيع أن يبتكر شيئاً خلاف ما يوحي به أسلوب حياته.

ولذلك فإن أحلامه المصطنعة لا تقل شأناً عن أحلامه الحقيقية التي تعيها الذاكرة، وإن خياله وقصوره ليعبران أيضاً عن أسلوب حياته. وليست المخيلة في حاجة إلى أن ترسم صورة طبق الأصل من حركات الإنسان الحقيقية لتعبير بها تعبيراً صادقاً عن أسلوب حياته. ألسنا نشاهد مثلاً ذلك الرجل الذي يعيش في الخيالات أكثر مما يعيش في الحقيقة؟ فهو النمط الصادق للجبن البالغ نهاراً والشجاعة المفرطة في الأحلام. ولكنا لا بد وأن تكون فيه من المظاهر ما يدلّ على أنه لا يريد أبداً إتمام عمله، وهذه المظاهر نفسها تكون واضحة كلّ الوضوح حتى في أحلامه الباسلة.

وغرض الأحلام على الدوام هو تمهيد الطريق لهدف التفوّق، نعني هدف التفوق الخاص بهذا الفرد نفسه. والحلم لا يعبّر عن الهدف الذي يرمي إليه تعبيراً منطقيّاً ولا صحيحاً، وهو إنّما يخلق إحساساً أو حالة وجدانية لا تدوم.

أمّا الناحية التأريخيّة فقد كانت الأمم البدائية على الدوام ترى في الأحلام غموضاً ألجأها إلى أن تؤولها بأنّها تنبؤات بالمستقبل، أي أنّهم نظروا إليها كأنها أخبار عن الحوادث المقبلة، وقد كانوا في ذلك في منتصف الطريق إلى الصواب، فالواقع أنّ الحلم هو البرزخ الذي يصل بين ما يواجه الحالم من مشكل وبين هدفه النهائي، وبهذا المعنى يصدق الحلم في كثير من الأحيان، لأنّ الحالم في أثنائه يدرب في الواقع جانباً من نفسه أي أنه يمهد السبيل لأن يحقق حلمه ويصدق، ومما يساعدنا على فهم منطق

الأحلام إلاّ نوازن هذا المنطق بحركات اليقظة في حياتنا المعتادة، بل نوازنه بذلك النمط من مظاهر الذكاء الفردي الخاص[(١)].

◎ فوائد الأحلام في نظر علماء النفس

يقول علماء النفس: الأحلام ضرورية بصورة مطلقة للتوازن العقلي والسيكولوجي. وهي أساسية كالتغذية والنوم سواء بسواء، فالحلم شبيه بقرن التوازن[(٢)]، أو بجيرسكوب[(٣)] يصوننا على الحبل المشدود، حبل التوازن، وهكذا يمكن لنقص الأحلام أن تؤدي إلى اضطراب وجدانية أو نفسيّة، وإلى عوز في البروتين الحيواني، مع ما يرافق ذلك من كوارث يفترضه.

والحلم ضرب من التنفس السيكولوجي، إنه قبل كل شيء (صمام) لاندفاعات عديدة مقموعة خلال النهار، ويتيح الحلم تحرير الهموم والعداوات والفظاظات والآمال والمطالب والرغبات، إنها على وجه الخصوص تعيد إلى السطح صعوبات داخليّة، وتوحي لنا على الغالب بحلول، وذلك بواسطة هذه الناظمة الآلية الهائلة التي تتصف بأنها لا شعورنا.

إنّ غالبية الشخصيات التي تبدو في حلم من الأحلام تتصف على الغالب بأنّها مظاهر أنفسنا، وهكذا نفهم بصورة مسبقة إلى أي حد يتسم بالأهمية أن نفك رموز الأحلام حتى نفهمها ونصغي إلى رسائلها[(٤)].

ثمة أحلام بوسعها أن تكشف إلى حد يتصف بعضهم - بصورة لا شعورية أحياناً - بأنّهم غير راضين في حياتهم وتكشف بعض الأحلام الأخرى عن العداوة، بل عن الحقد الذي يكابده بعض الناس إزاء أنفسهم، ولكن الحلم يقوم كذلك مقام آلية تعويض، فيناقض الحلم ضروب الحنين والأسف والضعف.

والأحلام العظيمة تبعث رموزاً صادرة بصورة مباشرة عن إحساسات عميقة تنتمي إلى الإنسانية برمّتها وهذه الأحلام قويّة، لا تنسى في الغالب، وقد تكون مشحونة بطاقة هائلة وتجعل فرداً من الأفراد ينقلب صوب مناخ إيجابي جداً أو سلبي جداً.

---

(١) راجع كتاب التنويم المغناطيسي: ٩٤ - ٩٦.
(٢) قرن التوازن: عضو خيطي الشكل في رؤوس ذوات الجناحين، يساعدها على التوازن.
(٣) جيرسكوب: كلمة معرّبة تعني أداة لحفظ توازن الطائرة أو الباخرة وتحديد الاتجاه.
(٤) تفسير الأحلام (بحث في سيكولوجية الأعماق): ١٤.

هكذا يرى علماء النفس أهمية الأحلام من الناحية السيكولوجيّة وتأثيرها على الإنسان، بعد أن عرفنا نظر علماء النفس في خصوص الأحلام، وكذلك الفوائد المترتبة من هذه الأحلام من وجهة نظرهم، نود الإشارة هنا إلى أن هذه الأحلام التي يراها الإنسان في منامه من صور سيئة أو رائعة، وميادين موحشة أو مؤنسة، وما يثير السرور أو الغم في نفسه هل هي مرتبطة بالماضي الذي وجد عشّاً في أعماق روح الإنسان وأظهر بعض التبديلات والتغيّرات؟ أم هي مرتبطة بالمستقبل الذي تلتقط صوره عدسة الروح برموز خاصة من الحوادث المستقبليّة؟ أو هي أنواع مختلفة منها ما يتعلق بالماضي، ومنها ما يتعلق بالمستقبل، ومنها ناتج عن الميول النفسيّة والرغبات وما إلى ذلك[١].

إنّ القرآن الكريم يصرح في آيات متعددة أن بعض هذه الأحلام على الأقل انعكاسات عن المستقبل القريب أو البعيد، ومثال ذلك ما جاء في سورة يوسف عليه السلام إنّ الرؤيا تحققت في وقت بعيد نسبياً حيث يقال: إنّ رؤيا يوسف عليه السلام تحققت بعد أربعين سنة وبعضها تحقق في المستقبل القريب، كما في رؤيا عزيز مصر ولمن كان في السجن مع يوسف كما سيأتي ذلك ذكره في موضوع لاحق.

وفي غير سورة يوسف إشارات إلى الرؤيا التي كان لها تعبير أيضاً، كما ورد في سورة الفتح عن رؤيا النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وما ورد في سورة الصافات عن رؤية إبراهيم الخليل عليه السلام حيث أن هذه الرؤيا كانت وحياً إلّهياً بالإضافة لما كانت تحمل من تعبير، كما أننا نقرأ عن نبينا الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم من كلامه عن الرؤيا في بعض الروايات قوله صلى الله عليه وآله وسلم: (الرؤيا ثلاث: بشرى من الله، وتحزين من الشيطان، والذي يحدّث به الإنسان نفسه فيراه في منامه)[٢]. وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: الرؤيا على ثلاثة وجوه: بشارة من الله للمؤمن، وتحذير من الشيطان، وأضغاث أحلام[٣].

وواضح أن أحلام الشيطان ليست شيئاً حتى يكون لها تعبير، ولكن ما يكون من الله جلّ وعلا في الرؤيا، فهي تحمل بشارة حتماً ويجب أن تكون رؤيا تكشف الستار عن المستقبل المشرق.

---

(١) تفسير الأحلام: (بحث في سيكولوجية الأعماق): ١٥.

(٢) بحار الأنوار: ٥٨/ ١٨١.

(٣) بحار الأنوار: ٥٨/ ١٨٠ عن روضة الكافي: ٩٠.

هذا ما أردنا الإشارة إليه من أن الرؤيا وبحسب التقديرات الإلّهية تطابق الواقع الذي نعيشه كما ورد ذلك في القرآن الكريم وأحاديث النبي ﷺ والأئمة الأطهار عليهم السلام.

◎ المنامات الحَقّة

المنامات التي لها إرتباط بالحوادث الخارجيّة وخاصة المستقبلة منها لما كان أحد طرفي الإرتباط أمراً معدوماً بعد كمن يرى أن حادثة كذا وقعت ثم وقعت بعد حين كما رأى، ولا معنى للارتباط الوجودي بين موجود ومعدوم، أو أمراً غائباً عن النفس لم يتصل بها من طريق شيء من الحواس، كمن رأى أن في مكان كذا دفيناً فيه من الذهب المسكوك كذا ومن الفضة كذا في وعاء صفته كذا وكذا ثم مضى إليه وحفر كما دل عليه فوجوده كما رأى، ولا معنى للارتباط الإدراكي بين النفس، وبين ما هو غائب عنها لم ينله شيء من الحواس.

ولذا قيل: أن الارتباط إنما استقر بينه أو بين النفس النائمة من جهة إتصال النفس بسبب الحادثة الواقعة الذي فوق عالم الطبيعة، فترتبط النفس بسبب الحادثة ومن طريق سببها بنفسها.

◎ العوالم ثلاثة:

أولها: عالم الطبيعة وهو العالم الدنيوي الذي نعيش فيه، والأشياء الموجودة فيها صورة مادية تجري على نظام الحركة والسكون والتغير والتبدل.

وثانيها: عالم المثال وهو فوق عالم الطبيعة وجوداً، وفيه صور الأشياء بلا مادة منها تنزل هذه الحوادث الطبيعيّة وإليها تعود، وله مقام العلّية ونسبة السببية لحوادث عالم الطبيعة.

وثالثها: عالم العقل وهو فوق عالم المثال وجوداً، وفيه حقائق الأشياء وكلياتها من غير مادة طبيعية ولا صورة، وله نسبة السببيّة لما في عالم المثال.

والنفس الإنسانية لتجرّدها لها مسانخة مع العالمين عالم المثال وعالم العقل، فإذا نام الإنسان وتعطلت الحواس انقطعت النفس طبعاً عن الأمور الطبيعيّة الخارجيّة ورجعت إلى عالمها المسانخ لها، وشاهدت بعض ما فيها من الحقائق بحسب ما لها من الاستعداد والإمكان.

فإن كانت النفس كاملة متمكنة من إدراك المجردات العقليّة أدركتها واستحضرت أسباب الكائنات على ما هي عليها من الكليّة والنورية، وإلاّ حكتها حكاية خيالية بما تأنس بها من الصور والأشكال الجزئية الكونية، كما نحكي نحن مفهوم السرعة الكلية بتصور جسم سريع الحركة، ونحكي مفهوم العظمة بالجبل، ومفهوم الرفعة والعلو بالسماء، وما فيها من الأجرام السماوية، ونحكى الكائد المكار بالثعلب والحسود بالذئب والشجاعة بالأسد إلى غير ذلك.

وإن لم تكن متمكنة من إدراك المجرّدات على ما هي عليها والإرتقاء إلى عالمها، توقفت في عالم المثال مرتقية في عالم الطبيعة، فربما شاهدت الحوادث بمشاهدة عللها وأسبابها من غير أن تتصرف فيها بشيء من التغيير، ويتّفق ذل غالباً في النفوس السليمة المتخلقة بالصدق والصفاء وهذه هي المنامات الصريحة.

وقد تبين مما قدمناه أن المنامات الحقّة تنقسم إنقساماً أولياً إلى منامات صريحة لم تتصرف فيها نفس النائم، فتنطبق على ما لها من التأويل من غير مؤونة، ومنامات غير صريحة تصرفت فيها النفس من جهة الحكاية بالأمثال والانتقال من معنى إلى ما يناسبه أو يضاده، وهذه هي التي تحتاج إلى التعبير بردّها إلى الأصل الذي هو المشهود الأولي للنفس كرد التاج إلى الفخار، ورد الموت إلى الحياة، والحياة إلى الفرج بعد الشدة، ورد الظلمة إلى الجهل والحيرة أو الشقاء.

ثم هذا القسم الثاني ينقسم إلى قسمين:

أحدهما: ما تتصرف فيه النفس بالحكاية فتنتقل من الشيء إلى ما يناسبه أو يضاده، ووقفت في المرّة والمرتين مثلاً بحيث لا يعسر رده إلى أصله كما مرّ من الأمثلة، **وثانيهما**: ما تتصرف فيه النفس من غير أن تقف على حد كأن تنتقل مثلاً من الشيء إلى ضده، ومن الضد إلى مثله، ومن مثل الضد إلى ضد المثل وهكذا بحيث يتعذر أو يتعسر للمعبر أن يرده إلى الأصل المشهود، وهذا النوع من المنامات هي المسماة **بأضغاث الأحلام** ولا تعبير لها لتعسره أو تعذّره.

وقد بان بذلك أن هذه المنامات ثلاثة أقسام كليّة: وهي: **المنامات الصريحة**: ولا تعبير لها لعدم الحاجة إليه، **وأضغاث الأحلام**: ولا تعبير فيها لتعذره أو تعسره، **والمنامات التي تصرفت فيها النفس بالحكاية والتمثيل**: وهي التي تقبل التعبير.

هذا إجمال ما أورده علماء النفس من قدمائنا في أمر الرؤيا واستقصاء البحث فيها أزيد من هذا المقدار موكول إلى كتبهم في هذا الشأن[١].

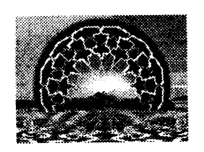
◎ بحث في الرؤيا الصادقة والكاذبة

قال المجلسي قدس سره في موضوع الرؤيا الصادقة والكاذبة: فأمّا الحكماء فقد بنوا ذلك على ما أسسوه من إنطباع صور الجزئيات في النفوس المنطبعة الفلكيّة، وصور الكليات في العقول المجردة، وقالوا: إنّ النفس في حالة النوم قد تتصل بتلك المبادىء العاليّة فتحصل لها بعض العلوم الحقّة الواقعة، فهذه هي الرؤيا الصادقة، وقد يركب المتخيّلة بعض الصور المخزونة في الخيال ببعض فهذه هي الرؤيا الكاذبة.

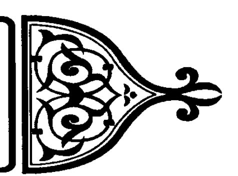
وقال بعضهم: إن للنفوس الإنسانية إطلاعاً على الغيب في حال المنام وليس أحد من الناس إلاّ وقد جرب ذلك من نفسه تجارب أوجبته التصديق وليس ذلك بسبب الفكر، فإن الفكر في حال اليقظة التي هو فيها أمكن أن يقصّر عن تحصيل مثل ذلك فكيف في حال النوم، بل بسبب أن النفوس الإنسانية لها مناسبة الجنسية إلى المبادىء العالية المنتقشة بجميع ما كان وسيكون وما هو كائن في الحال، ولها أن تتصل بها إتصالاً روحانياً، وأن تنتقش بما هو مرتسم فيها، لأن اشتغال النفس ببعض أفاعيلها يمنعها عن الاشتغال بغير تلك الأفاعيل، وليس لنا سبيل إلى إزالة عوائق النفس بالكليّة عن الانتعاش بما في المبادىء العالية، لأنّ أحد العائقين هو إشتغال النفس بالبدن ولا يمكن لنا إزالة هذا العائق بالكليّة ما دام البدن صالحاً لتدبيرها إلاّ أنّه قد يسكن أحد الشاغلين في حالة النوم، فإن الروح ينتشر إلى ظاهر البدن بواسطة الشرايين، وينصب إلى الحواس الظاهرة حالة الانتشار ويحصل الإدراك بها، وهذه الحالة هي اليقظة فتشتغل النفس بتلك الادراكات، فإن انخنس الروح إلى الباطن تعطلت هذهِ الحواس، وهذهِ الحالة هي النوم، وبتعطلها يخف إحدى شواغل النفس عن الإتصال بالمبادىء العالية والانتقاش ببعض ما فيها، فيتصل حينئذ بتلك المبادىء اتصالاً روحانياً ويرتسم بالنفس بعض ما انتقش في تلك المبادىء مما استعدت هي لأن تكون منتقشة به، كالمرايا إذا حوذي بعضها ببعض، والقوة المتخيلة جبلت محاكية لما يرد عليها، فتحاكي تلك المعاني المنتقشة في النفس بصورة جزئية مناسبة لها. ثم تصير تلك الصور الجزئية في الحس المشترك فتصير مشاهدة، وهذهِ هي الرؤية الصادقة.

(١) الميزان في تفسير القرآن: ١١/ ٢٧٠ - ٢٧٣.

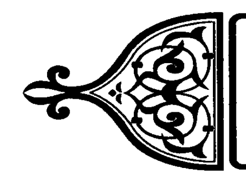
ثم أن الصور التي تركبها القوة المتخيلة إن كانت شديدة المناسبة لتلك المعاني المنطبعة في النفس حتى لا يكون بين المعاني التي ادركتها النفس وبين الصور التي ركبتها القوة المتخيلة تفاوت إلاّ في الكليّة والجزئية، كانت الرؤية غنية عن التعبير وإن لم تكن شديدة المناسبة إلاّ أنه مع ذلك تكون بينهما مناسبة بوجه ما كانت الرؤيا محتاجة إلى التعبير، وهو أن يرجع من الصورة التي في الخيال إلى المعنى الذي صورته المتخيلة بتلك الصورة، وأما إذا لم تكن بين المعنى الذي أدركته النفس وبين الصورة التي ركّبتها القوّة المتخيلة مناسبة أصلاً لكثرة انتقالات المتخيلة من صورة إلى صورة لا تناسب المعنى الذي أدركته النفس أصلاً، فهذهِ الرؤيا من قبيل أضغاث الأحلام، ولهذا قالوا: لا اعتماد على رؤيا الشاعر والكاذب، لأن قوتهما المتخيلة قد تعودت الانتقالات الكاذبة الباطلة[١].



(١) بحار الأنوار: ٥٨/١٩٦، باب حقيقة الرؤيا وتعبيرها.



قوام بدن الإنسان وتشريح أعضائه



● عن عمرو بن أبي المقدام، عن جابر، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: إنّ الله تبارك وتعالى لمّا أحبّ أن يخلق خلقاً بيده، وذلك بعد ما مضى من الجنّ والنسناس في الأرض سبعة آلاف سنة، قال:

ولمّا كان من شأن الله أن يخلق آدم للّذي أراد من التدبير والتقدير لما هو مكوّنه في السماوات والأرض وعلمه لمّا أراد من ذلك كلّه كشط عن أطباق السماوات ثمّ قال للملائكة: انظروا إلى أهل الأرض من خلقي من الجنّ والنسناس، فلمّا رأوا ما يعملون فيها من المعاصي وسفك الدماء والفساد في الأرض بغير الحقّ، عظم ذلك عليهم وغضبوا لله وأسفوا على أهل الأرض ولم يملكوا غضبهم أن قالوا:

يا ربُّ أنت العزيز القادر الجبّار القاهر العظيم الشأن، وهذا خلقك الضعيف الذليل في أرضك يتقلّب في قبضتك، ويعيشون برزقك، ويستمتعون بعافيتك، وهم يعصونك بمثل هذه الذنوب العظام، لا تأسف ولا تغضب ولا تنتقم لنفسك لما تسمع منهم وترى! وقد عظم ذلك علينا وأكبرناه فيك. فلما سمع الله عز وجل من الملائكة قال: إنّي جاعل ذلك علينا وأكبرناه فيك.

فلمّا سمع الله عزّ وجلّ من الملائكة قال: إنّي جاعل في الأرض خليفة لي عليهم، فيكون حجّة لي عليهم في أرضي على خلقي.

فقالت الملائكة: سبحانك! أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبّح بحمدك ونقدّس لك.

قالوا: فاجعله منّا فإنّا لا نفسد في الأرض ولا نسفك الدماء.

قال الله - جلّ جلاله -: يا ملائكتي إنّي أعلم ما لا تعلمون، إنّي أريد أن أخلق خلقاً بيدي، أجعل ذرّيّته أنبياء مرسلين، وعباداً صالحين، وأئمّة مهتدين، أجعلهم خلفائي على خلقي في أرضي، ينهونهم عن المعاصيّ، وينذرونهم عذابي، ويهدونهم إلى طاعتي، ويسلكون بهم طريق سبيلي، وأجعلهم حجّة لي عذراً أو نذراً، وأبين

النسناس من أرضي فأطهّرها منهم، وأنقل مردة الجنّ العصاة عن بريّتي وخلقي وخيرتي، وأسكنهم في الهواء وفي أقطار الأرض لا يجاورون نسل خلقي، وأجعل بين الجنّ وبين خلقي حجاباً، ولا يرى نسل خلقي الجنّ ولا يؤانسونهم ولا يخالطونهم، فمن عصاني من نسل خلقي الّذين اصطفيتهم لنفسي أسكنتهم مساكن العصاة وأوردتهم مواردهم ولا أبالي.

فقالت الملائكة: يا ربّنا افعل ما شئت، لا علم لنا إلاّ ما علّمتنا، إنّك أنت العليم الحكيم.

فقال الله - جلّ جلاله - للملائكة: إنّي خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون، فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين. وكان ذلك من أمر الله عزّ وجلّ تقدمة إلى الملائكة في آدم من قبل أن يخلقه، احتجاجاً منه عليهم.

قال: فاغترف - تبارك وتعالى - غرفة من الماء العذب الفرات فصلصلها فجمدت، ثمّ قال لها: منك أخلق النبيين والمرسلين وعبادي الصالحين والأئمّة المهتدين الدعاة إلى الجنّة وأتباعهم إلى يوم القيامة ولا أبالي، ولا أسأل عمّا أفعل وهم يسألون يعني بذلك خلقه أنّه سيسألهم، ثمّ اغترف غرفة من الماء المالح الأجاج، فصلصلها فجمدت، ثمّ قال لها: منك أخلق الجبّارين والفراعنة والعتاة إخوان الشياطين والدعاة إلى النار يوم القيامة وأتباعهم ولا أبالي، ولا أسأل عمّا أفعل وهم يسألون.

قال: وشرط في ذلك البداء، ولم يشترط في أصحاب اليمين البداء. ثمّ خلط الماءين فصلصلهما ثمّ ألقاهما قدّام عرشه وهمائلّة من طين.

ثمّ أمر الملائكة الأربعة: الشمال والدبور والصبا والجنوب، أو جولوا على هذه السلالة الطين وابرأوها وأنشؤها ثمّ جزّئوها وفصّلوها وأجروا فيها الطبائع الأربعة: الريح، والمرة، والدَّم والبلغم.

قال: فجالت الملائكة عليها وهي الشمال والصبا والجنوب والدبور، فأجروا فيها الطبائع الأربعة.

قال: والريح في الطبائع الأربعة [وفي البدن] من ناحية الشمال.

قال: والبلغم في الطبائع الأربعة في البدن من ناحية الصبا.

قال: والمرّة في الطبائع الأربعة في البدن من ناحية الدبور.

قال: والدم في الطبائع الأربعة في البدن من ناحية الجنوب.

قال: فاستقلّت النسمة وكمل البدن.

قال: فلزمه من ناحية الريح: حبّ الحياة وطول الأمل والحرص.

ولزمه من ناحية البلغم: حبُّ الطعام والشراب واللين والرفق.

ولزمه من ناحية المرّة: الغضب والسفه والشيطنة والتجبّر والتمرّد والعجلة.

ولزمه من ناحية الدم: حبّ النساء واللذّات وركوب المحارم والشهوات.

قال عمرو: أخبرني جابر أنّ أبا جعفر عليه السلام قال: وجدناه في كتاب من كتب علي عليه السلام [(1)].

● قال الإمام علي عليه السلام: «اعجبوا لهذا الإنسان ينظر بشحم، ويتكلم بلحم، ويسمع بعظم، ويتنفس من خرم!»[(2)].

● عن عبد الرحمن بن العزرميّ، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: إنّ الله عباداً في أصلابهم أرحام كأرحام النساء.

قال: فسئل: فمالهم لا يحملون؟

فقال: إنّها منكوسة، ولهم في أدبارهم غدّة كغدّة الجمل أو البعير، فإذا هاجت هاجوا، وإذا سكنت سكنوا[(3)].

إن حياة الإنسان ليست حياة مادية محضة بل هي حياة مادية، تقوم على هذا الجسم الذي يتكوّن من لحم ودم وعظم، مثل أجسام بقيّة الحيوانات الراقية، ومن حياة فكرية تقوم على الإنتاج العقلي والفكري، الذي انحدر إلينا من آبائنا وأجدادنا الأولين، فالحياة المادية والعقلية هما اللتان تكوّنان الإنسان وتكيفانه وتسيّرانه، ولا يكون الإنسان إنساناً إلاّ إذا اجتمعت له الحياة المادية والحياة الفكرية (العقلية)، بينما يحيا الحيوان بحياة مادية محضة ليس فيها أي أثر للفكر.

فالإنسان مركب من شيئين: المادة والعقل، ولكل منهما تأثير في تكوينه الخلقي والخُلقي، وهناك روابط وثيقة وصلاة محكمة بين المادة والعقل، فصفات المرء المعنوية من تفكير واتجاهات وتصرفات تلبس المرء لباساً من المادة يختلف إذا ما اختلفت هذه الصفات المعنوية، ويكون هذا اللباس المادي الخارجي أعني به الجسم، بحالاته المختلفة، دليلاً قاطعاً على ما في النفوس من طابع وصفات، وقد ثبت الآن

---

(1) العلل: ج1، ص98 - 100، البحار ج58 ص298 - 301، ح7.

(2) نهج البلاغة الرقم7 من الحكم، البحار ج58 ص307، ح15.

(3) الكافي: ج5، ص549، البحار ج58 ص319، ح27.

علمياً بأنّ كثيراً من الأمراض ولا سيما الحكة والقرحة والسكري منشأها الفكر، ولذا فهي تصيب رجال الأعمال المغامرين، ورجال السياسة غير المحترفين أكثر مما تصيب غيرهم من الناس، وحالات الخوف تحدث الإسهال، والحزن يقطع شهوة الطعام والشراب، ورائحة الطعام تسيل لعاب الجائع وتبعث الشهوة للطعام، والألم الجسمي يخطف اللون ويشتت الذهن.. الخ.

وليست هذه الحالات، التي ذكرناها والتي تؤثر الجسميّة منها في الفكرية والفكرية في الجسميّة، هي كل ما يحدث من تفاعل بين الجسم والفكر، بل يقول الأطباء بأنّ كثيراً من الأمراض والأوجاع التي يشعر بها بعض الناس قد لا يكون لها منشأ عضوي، بل تنشأ من الفكر وتعرف بالطب بإسم: (أمراض الجهد) ويطلق عليها الناس اسم الوهم بينما هي في الواقع ألم متوضع يحس به المريض في كبده أو في معدته أو قلبه أو في أي مكان آخر من جسمه، ولا ينفع فيه دواء مادي ولا يستطاع شفاؤه بالعقاقير بل يشفى بعلاج نفسي، وقد تنبه الأطباء إلى هذه الناحية، وصاروا يصفون لمرضاهم الترويح عن النفس وشم الهواء أو أنواعاً من الرياضات البدنية فيزول المرض.

من جانب آخر رأى العلماء اختلاف مظاهر خلقة الإنسان واختلاف صفاته النفسيّة، وما يتّبع ذلك من اختلاف في المؤهلات والإدراك والتصرّفات، فأدركوا أنّ هناك صلة بين الظاهر المادي وبين الداخل المعنوي، فعكفوا على دراسة هذه الظاهرة حتى وصلوا إلى حقائق علميّة أقاموا عليها أسس علم جديد أسموه (Caracterologie) أي علم معرفة الطباع.

إن المدنية الحديثة أضفت على الإنسان معالم جديدة زادت من تعقيدات الحياة رغم الإكتشافات العلميّة الهائلة، وإنّ ابتعاد الأمة الإسلاميّة عن منهجها الأصيل المتمثّل بالقرآن الكريم والسنّة النبوية الطاهرة التي تركها لنا النبي الكريم صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة الميامين عليهم السلام، هو السبب في أن تعد اليوم امتنا من الأمم الجاهلة والفقيرة، بالرغم مما حباها الله تعالى به من غنى وخيرات، فنحن اليوم بأمس الحاجة إلى الدعاة من المتفقهين في مختلف فروع العلوم الإنسانية والمادية، لشرح الآيات القرآنية الكريمة، والأحاديث الشريفة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة الأطهار عليهم السلام والتي تتعلق بحقل اختصاص كل منهم كما هو الحاصل في الموسوعات العلميّة، فلو فعلنا ذلك لأغنينا الأجيال بموسوعة عظيمة بأمس الحاجة إليها اليوم.

يمر التطور الجنيني بمراحل متتالية يمكن إيجازها بالنقاط التالية:

◎ مرحلة تكوين الأعراس Gametogenesis:

تبدأ منذ المرحلة الجنينية وبعد أن تصل الخلايا الأصلية المنشئة Primorolial germ cells إلى المناسل الآخذة بالتشكل. ويحدث أثناء تكوين الأعراس الانقسام المنصف Meiosis الذي يؤدي إلى تنصيف عدد الصبغيات، وهكذا تتشكل النطفة في الخصية والخلية البيضية في المبيض، وتكون كل واحدة منهما أحادية الصيغة الصبغية Haploid (أي تشتمل على ٢٣ صبغياً).

◎ الإلقاح FERTILISATION:

وفيه تلتقي النطفة مع الخلية البيضية، وتندمج نواتهما مما يؤدي إلى تشكيل البيضة الملحقة zygote ثنائية الصيغة الصبغية diploide (أي تشتمل على ٤٦ صبغياً)

ويحدث الإلقاح في الثلث البعيد من قناة فالوب بعد حدوث الإباضة بوقت قصير.

◎ التقسيم clivage:

يتم انقسام البيضة الملقحة عدداً من الإنقسامات الخيطية المتساوية Mitosis فتنقسم إلى خليتين بعد(٣٠) ساعة من الإلقاح، وإلى أربع بعد (٤٠) ساعة، وإلى (١٦-٣٢) بعد٣-٤ أيام من الإلقاح، وتسمى الخلايا الأولى الناتجة عن التقسيم باسم الخلايا الأصلية Blastomeres تملك استطاعة تشكيلية كبيرة تمكنها من تشكيل جنين كامل لو انفصلت عن بعضها بعضاً(مثال على ذلك التوائم الحقيقية أحادية البيضة الملقحة) وتشكل الخلايا الناتجة حتى هذه المرحلة كتلة من الخلايا تدعى الجسم التوتي، التوتية Morula.

ثم تظهر تجاويف بين خلايا الجسم التوتي تتحد مع بعضها في جوف واحد يدعى الجوف الأصلي Blastocele (الكيسة المصوّرة) وبنتيجة ذلك تنفصل الخلايا إلى قسمين:

قسم محيطي يتألف من طبقة خلوية متماسكة تدعى الأصليّة المغذية trophoblasts.

وقسم داخلي يبقى معلقاً في أحد نقاط الطبقة الأولى، ويسمى الخلايا الأصليّة الجنينية Embryoblasts.

◎ المراحل الرئيسية الأولى للتقسم

تشكيل الجسم النواتي والكيسي الاصلي.

يتم تشكل الكيس الأصلي في حدود اليوم ٥-٦ بعد الإلقاح، ويكون قد وصل في هذه المرحلة إلى جوف الرحم، حيث يقترب ليلتصق بين الزغابات البطانية لجدار الرحم، وفي الوجه الظهري للرحم بصورة طبيعية، ليبدأ عملية التعشيش، وتعيش البيضة الملقحة المتطورة المتقسمة حتى هذه المرحلة على حساب المفرزات التي تصادفها في أنبوب فالوب وجدار الرحم، وهي مرحلة الحياة الحرّة من التطور الجنيني، وتستمر حتى نهاية الأسبوع الأول من التطور الجنيني.

◎ القرص الجنيني ثنائي الوريقة والتعشيش Dilaminar disc:

تتم حوادث التعشيش وتشكيل الوريقة أثناء الأسبوع الثاني من التطور الجنيني.

يتم التعشيش من القطب الجنيني دوماً، وفي نقطة تماس القطب مّع بطانة الرحم، تنقسم خلايا الأصلية المغذية إلى طبقتين:

طبقة خارجية على تماس مع خلايا بطانة الرحم من مختلط خلوي، وتدعى الأصلية المغذية اللا خلوية (السديم الخلوي) syntiotrophoblast طبقة داخلية تتألف من خلايا مفردة على تماس مع الخلايا الأصلية الجنينية، ومع الجوف الأصلي وتدعى الأصلية المغذية الخلوية cytotrophoblast.

ويساعد على عملية التعشيش عدة عوامل:

١ - اللصوقية الخلوية العالية لخلايا الأصلية المغذية اللاخلوية.

٢ - إفرازها لأنزيمات حالة تحل خلايا بطانة الرحم.

٣ - تغير شكلها الأميبي لتندس في الفراغات التي تصادفها.

وابتداء من اليوم الثامن وحتى نهاية الأسبوع الثاني من التطور تنفصل الخلايا الأصليّة الجنينية إلى طبقتين خلويتين:

- **الأولى**: باتجاه القطب الجنيني، خلايا عالية هرمية تدعى الوريقة الأصلية الخارجية (أو العلوية) Ectoblast وتستمر في حوافها بخلايا الوريقة الأصلية الأمينوسية Aminoblast التي تحيط بالجوف الأمينوسي الآخذ بالتشكيل.

- **الثانية**: باتجاه الجوف الأصلي، وتكون صغيرة الحجم مكعبة، ترى الوريقة الأصلية الداخلية (أو السفلية) Endoblast.

ويحدث تطور كبير في سوية الخلايا الأصلية المغذية، إذ تستمر الخلوية منها بانقسام معطية لخلايا تنضم خارجياً إلى طبقة اللاخلوية، وداخلياً تشكل نسيجاً متوسطاً خارج خلوي يحيط بالجوف الأصلي محولاً إياه إلى الجوف المحي الأولي، ثم تظهر فجوات كثيرة في هذا النسيج المتوسط تتحد مع بعضها مشكلة الجوف الكويلوني، وبتشكله يتحد الغشاء الأمينوسي، سويقة الإتصال الكوريون، كما تزحف الوريقة الأصلية، الداخلية باتجاه الجوف المحي الأولي، وتبطنه مشكلة الجوف المحي الثانوي (النهائي).

◎ القرص الجنيني ثلاثي الوريقة Trilaminar disc:

ويتم تشكله أثناء الأسبوع الثالث من التطور الجنيني، ويتميز بتشكيل وريقة ثالثة، وتحديد الوريقات الجنينة الثلاث النهائية: الوريقة الخارجية Ectoderm - الوريقة الوسطى Mesoderm الوريقة الداخلية Endoderm.

وتتميز هذه المرحلة بتشكل المعيدية Gastrulation التي تكون معالمها مما يلي:

١ - يتشكل الخط الابتدائي primitive streak في الوريقة الأصلية الخارجية، ومنه تهاجر الخلايا من السطح لتشكيل الوريقة الوسطى.

٢ - تتوضع المحاور الجنينية الرئيسية، وهي المحور العصبي في الوريقة الخارجية لعصبية الحبل الظهري Notochord في الوريقة الوسطة المحورية، القطع الظهرية Somites في الوريقة الوسطى جانب المحورية، بداءة الأنبوب الهضمي الابتدائي في الوريقة الداخلية.

وفي نهاية هذه المرحلة تتوضح في الجنين المتطور المعالم الأولى لبداءات الأعضاء، إذ يشكل - الجهاز القلبي - الوعائي الابتدائي في المناطق الداخل والخارج الجنينية، كما يبدأ تطور الجوف العام الداخل، جنيني، ويبدأ تمايز القطع الظهرية إلى مشتقاتها.

وفي المنطقة الخارج جنينية تتطور الزغابات الكوريونيّة الأولية والثانوية والثالثية، وتكون منتشرة في البدء على كامل الكوريون. وفيما بعد سوف ينحصر وجودها في منطقة المشيمة المتكوّنة، وتمتلىء البريكات الكوريونية بالدم الأموي، الذي يتم بينه

وبين أنسجة الأم التبادلات بالنفوذ في البدء، ثم يبدأ تبادل مع الدم الجنيني في الشبكة الوعائية الخارج جنينية.

◎ - الفترة الجنينية الأولى Embryonic Period:

وتمتد من بداية الأسبوع الرابع وحتى نهاية الأسبوع الثامن (تقريباً ٦٠ يوماً من التطور الجنيني). يدعى الجنين المتطور خلالها باسم Embryo وهو مشابه شكله الخارجي وبنيته لباقي أجنة الفقريات.

إن الظاهرة العامة في هذه الفترة، هوحدوث الالتواءات الجنينية، التي تعزل الجوف العام الداخل جنيني عن الجوف العام الخارج جنيني، ويؤدي بالتالي إلى تشكل الحبل السري، كما تتحدد المشيمة أثناء ذلك، وإنّ سبب حدوث هذ الالتواءات هو النمو السريع لجسم الجنين، كما يتم في هذهِ المرحلة نقل القلب إلى موضعه النهائي، وتحديد الأنبوب الهضمي بجميع أقسامه.

◎ الفترة الجنينية الثانية Fetal Period:

وتمتد منذ بداية الأسبوع التاسع وحتى نهاية الحمل (مدة الحمل النظامية ٣٨ أسبوعاً)، ويسمى الجنين المتطور خلال هذه الفترة باسم Fetus ويكون له شكل إنساني واضح المعالم يميزه عن باقي الفقاريات.

وخلال هذه الفترة تبدأ أعضاء الجسم وأجهزته بالتكون السريع، لتنتهي بالشكل المتكامل الوظيفي[١].

من خلال هذه النظرة السريعة إلى مراحل التطوّر الجنيني من الناحية العلميّة والتشريحية، تمكنّا من فهم المراحل الأساسية التي يمرّ بها تخلّق الإنسان، وكيف تنمو وتتطوّر ليكون الإنسان في أحسن تقويم.

ونستشهد هنا بالراوية التالية عن وهب بن منبّه، قال:

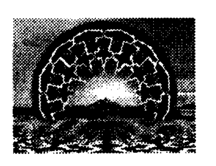
خلق الله ابن آدم كما شاء وبما شاء[٢]، فكان كذلك، فتبارك الله أحسن الخالقين، خلق من التراب والماء، فمنه لحمه ودمه وشعره وعظامه وجسده، فهذا[٣] بدء الخلق

---

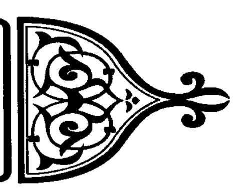
(١) التشريع وعلم الأجنة: ٧.
(٢) في المصدر: مما شاء.
(٣) فيه: فذلك.

الذي خلق الله منه ابن آدم ثمّ جعلت فيه النفس، فبها يقوم ويقعد ويسمع ويبصر، ويعلم ما تعلم الدوّاب، ويتّقي ما تتّقي، جعلت فيه الروح، فيه عرّف الحقّ من الباطل، والرشد من الغيّ، وبه حذر وتقدّم، واستتر وتعلّم ودبّر الأمور كلّها، فمن التراب يبوسته، ومن الماء رطوبته، فهذا بدء الخلق الذي خلق الله منه ابن آدم كما أحبّ أن يكون، ثم جعل فيه من هذه الفطر الأربع أنواعاً من الخلق[(١)] في جسد ابن آدم، فهي قوام جسده وملاكه بإذن الله، وهي المرة السوداء، والمرّة الصفراء، والدم والبلغم، فيبوسته وحرارته من قبل النفس ومسكنها في الدم، ورطوبته وبرودته من قبل الروح ومسكنه[(٢)] في البلغم.

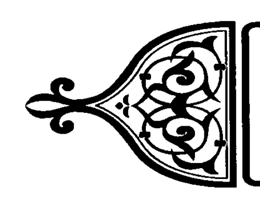
فإذا اعتدلت هذه الفطر في الجسد. فكان من كلّ واحد ربع كان جلداً[(٣)] كاملاً وجسماً صحيحاً، وإن كثر واحد منها على صاحبه علاها وقهرها وأدخل[(٤)] عليها السقم من ناحيته، وإنّ قلّ عنها واحد[(٥)] منها غلبت عليه وقهرته ومالت به، فضعف عن قوّتها، وعجز عن طاقتها، وأدخل عليها السقم من ناحيته، فالطبيب العالم بالداء والدواء يعلم من الجسد حيث أتى سقمه، أمن نقصان أو من زيادة[(٦)].



(١) فيه: أنواعاً من الخلق أربعة في.
(٢) مسكنها (خ).
(٣) في المصدر: جسداً.
(٤) دخل (خ).
(٥) فيه: وأخذ عنها.
(٦) بحار الأنوار: ٥٨/ ٣٣٠ - ٣٣١، عن الدر المنثور: ٥/ ٧/ .



السحر والعين وحقيقتهما



● عن عيسى بن محمّد، عن جدّه، عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: سحر لبيد بن أعصم اليهوديّ وأمّ عبد الله اليهوديّة رسول الله صلى الله عليه وآله فعقدوا له في إحدى عشرة عقدة، وجعلوه في جفّ من طلع، ثمّ أدخلوه في بئر بوادٍ بالمدينة في مراقي البئر تحت حجر، فأقام النبيّ صلى الله عليه وآله لا يأكل ولا يشرب ولا يسمع ولا يبصر ولا يأتي النساء. فنزل جبرئيل عليه السلام وأنزل معه المعوذات، فقال له: يا محمّد، ما شأنك؟

قال: ما أدري، أن بالحال الّذي ترى.

قال: فإنّ أمّ عبد الله ولبيد بن أعصم سحراك، وأخبره بالسحر، وحيث هو. ثمّ قرأ جبرئيل: «بسم الله الرحيم الرحيم قل أعوذ بربّ الفلق».

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله ذاك، فانحلّت عقدة، ثمّ لم يزل يقرأ آية ويقرأ رسول الله صلى الله عليه وآله. وتنحل عقدة، حتّى قرأها عليه إحدى عشرة آية وانحلّت إحدى عشرة عقدة، وجلس النبيّ ودخل أمير المؤمنين عليه السلام فأخبره بما أخبره جبرئيل عليه السلام وقال: انطلق وائتني بالسحر، فجاء به فأمر به النبيّ صلى الله عليه وآله فنقض، ثمّ تفل عليه وأرسل إلى لبيد وأمّ عبد الله، فقال: ما دعاكم إلى ما صنعتما؟ ثمّ دعا رسول الله صلى الله عليه وآله على لبيد وقال: لا أخرجك الله من الدنيا سالماً.

قال: وكان موسراً كثير المال، فمرّ به غلام في أذنه قرط قيمته دينار فجذبه، فخرم أذن الصبيّ وأخذه فقطعت يده فيه[1].

● عن المفضّل بن عمر، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: إنّ جبرئيل أتى النبيَّ صلى الله عليه وآله وقال: يا محمّد.

قال: لبّيك يا جبرئيل.

قال: إنّ فلاناً اليهوديَّ سحرك، وجعل السحر في بئر بني فلان، فابعث إليه - يعني

(١) تفسير فرات: ٢٣٣، البحار ج٦٠ ص٢٢-٢٣، ح١٥.

إلى البئر - أوثق الناس عندك، وأعظمهم في عينك، وهو عديل نفسك، حتّى يأتيك بالسحر.

وقال: فبعث النبيُّ ﷺ عليّاً بن أبي طالب عليه السلام وقال: انطلق إلى بئر «ذروان» فإنّ فيها سحراً سحرني به لبيد بن أعصم اليهوديُّ، فائتني به.

قال عليٌّ عليه السلام: فانطلقت في حاجة رسول الله ﷺ فهبطت فإذا ماء البئر صار كأنه ماء الحناء من السحر، فطلبته مستعجلاً حتّى انتهيت إلى أسفل القليب ولم أظفر به.

قال الّذين معي: ما فيه شيء فاصعد.

فقلت: لا والله، ما كذبت ولا كذّبت، وما يقيني به مثل يقينكم - يعني رسول الله ﷺ - ثمّ طلبت طلباً بلطف، فاستخرجت حقّاً، فأتيت النبيّ ﷺ فقال: افتحه، ففتحته فإذا في الحقّ قطعة كرب النخيل، في وتر عليها إحدى وعشرون عقدة.

وكان جبرئيل عليه السلام أنزل يومئذٍ المعوذّتين على النبي ﷺ، فقال النبيُّ ﷺ: يا عليُّ اقرأهما على الوتر، فجعل أمير المؤمنين كلّما قرأ آية انحلّت عقدة حتّى فرغ منها وكشف الله عزّ وجلّ عن نبيّه ما سحر به وعافاه.

ويروي أنّ جبرئيل وميكائيل عليهما السلام أتيا إلى النبيّ ﷺ فجلس أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله، فقال جبرئيل لميكائيل: ما وجع الرجل؟

فقال ميكائيل: هو مطبوب.

فقال جبرئيل عليه السلام: ومن طبّه؟

قال: لبيد بن أعصم اليهوديّ، ثمّ ذكر الحديث إلى آخره[1].

تأثير السحر والعالم

● النهج: قال أمير المؤمنين عليه السلام: ما قال الناس لشيء طوبى له إلّا وقد خبأ الدهر له يوم سوء[2] [3].

---

(١) الطب: ١١٣ - ١١٢، البحار ج٦ ص٢٣-٢٤، ح١٦.

(٢) نهج البلاغة: ج٢، ص٢٠٥، البحار ج٦٠ ص٢٧، ح٣٢.

(٣) «طوبى» كلمة تستعمل في مقام المدح والاستحسان والتعجّب من حسن الشيء وكماله. وخبأت الشيء أخبوه: أخفيته. «يوم سوء» بالفتح أي يوم نقص وبليّة وزوال. وإخفاء الدهر ذلك اليوم كناية عن جهل الناس بأسبابه وأنّه يأتيهم بغتة، أو غفلتهم عن عدم ثبات زخارف الدنيا وسرعة زوالها. =

◎ السّحر في الشرع:

اعلم أن لفظ السّحر في عرف الشرع مختصر بكل أمر مخفي سببه، ويتخيّل على غير حقيقته، ويجري مجرى التمويه والخداع، ومتى أطلق ولم يقيد أفاد ذم فاعله، قال تعالى: ﴿سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ يعني موهوا عليهم حتّى ظنوا أنّ حبالهم وعصيهم تسعى، وقال تعالى: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ﴾[(١)] وقد يستعمل مقيداً فيما يمدح ويحمد، وروي أنّه قدم على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهثم وقال لعمرو: خبرني عن الزبرقان.

فقال: مطاع في ناديه، شديد العارض، مانع لما وراء ظهره.

قال الزبرقان: هو والله يعلم أنّي أفضل منه. فقال عمرو: إنّه زمر المروءة ضيّق العطن، أحمق الأب، لئيم الخال.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: صدقت فيهما ارضاني فقلت أحسن ما علمت وأسخطني فقلت: أسوأ ما علمت.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إن من البيان لسحراً. فسمى النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعض البيان سحراً، لأن صاحبه بوضح الشيء المشكل ويكشف عن حقيقته بحسن بيانه وبليغ عبارته. فإن قيل: كيف يجوز أن يسمي ما يوضح الحق وينبيء عنه سحراً وهذا القائل إنّما قصد إظهار الخفي لا إخفاء الظاهر، ولفظ السحر إنّما يكون عند إخفاء الظاهر؟.

قلنا: إنّما سماه سحراً لوجهين:

الأول: إنّ ذلك العذر للطفه وحسنه استمال القلوب، فأشبه السحر الذي يستميل القلوب فمن هذا الوجه يسمى سحراً لا من الوجوه التي ظننت.

= ثمّ إنّه يحتمل أن يكون ما ورد في هذا الخبر والخبر السابق إشارة إلى تأثير العيون كما مرّ، أو إلى أنّ من لوازم الدّنيا أنّه إذا انتهت فيها حال شخص في الرفعة والعزّة إلى غاية الكمال فلا بدّ أن يرجع إلى النقص والزوال، فقولهم طوبى له واستحسانهم إيّاه ورفع أبصارهم إليه من شواهد الرّفعة والكمال، وهو علامة الأخذ في الهبوط والاضمحلال.

وقد يخطر بالبال أنّ ما ورد في العين وتأثيرها يمكن أن يكون إشارة إلى هذا المعنى، وإن كان بعيداً من بعض الآيات والأخبار، ويمكن تأويلها إليه وتطبيقها عليه كما لا يخفى على أولي الأبصار، وما ورد من ذكر الله والدعاء عند ذلك لا ينافيه بل يؤيّده، فإنّ أمثال ذلك موجبة لدوام النعمة واستمرارها، والله يعلم حقائق الأمور ودقائق الأسرار.

(١) سورة طه، الآية: ٦٦.

الثاني: أن المقتدر على البيان يكون قادراً على تحسين ما يكون قبيحاً وتقبيح ما يكون حسناً، فذلك يشبه السحر من هذا الوجه في أقسام السحر»[١].

وبناءً على هذا الفهم فإنّ السحر ليس من القدرات الحقيقية التي يمتلكها الساحر بل في استخدام هذا القدرات للغش والخداع وإيهام السذج الذين يجهلون الأسباب العميقة وراء القدرات التي يراها الناس عند الساحر، فمثلاً بالنسبة لخصائص المواد والآثار التي بعضها صار يدخل في الطب والكيمياء في العصر الحاضر بعد أن انفصلت عن السحر واستخدمت لخير ونفع البشر خارجة عن إطار السحر.

فالحرام هنا جانب الخداع والإيهام وتحريف المعتقدات إلى الاعتقاد بوجود قدرة للكواكب أو البشر أو الأرواح أو المواد الموجودة في الطبيعة، لأن هذا هو السحر أي الاستفادة من الخفاء وهو معنى السحر في التأثير في الناس الذين يجهلون تلك الفنون أو العلوم سواء كان هذا الخداع في مجال اقتصادي أي لتحقيق مكاسب اقتصادية أو لتحقيق اعتقادات باطلة، وهكذا تكون بعض المقدمات الصحيحة تقود إلى نتائج استدراج الناس، فمثلاً الاستفادة من بعض الأدوية المنشطة لإشعار الناس بامتلاك الساحر قدرة في تغيير حقائق الأشياء أو قدرة في سيطرته على الطبيعة بالاستفادة مثلاً من قدرات الجاذبية أو القوى الكهربائية عند أناس يجهلونها.

وهذا الفهم يلقي ضوءاً على ما ورد في الآيات السابقة: «وتشير كلمة (السحر) إلى مجموعة أساليب تستخدم للتأثير على القوى الطبيعية أو الخارقة للطبيعة، وذلك عن طريق أداء بعض الممارسات الشعائرية التي يعتقد أنّها تؤدي إلى النتائج المرغوبة.

ومن الواضح أن السحر قد تأثر بالتطورات السياسية والاجتماعية التي أنتجت المجتمع الحديث إذ لم يعد يعتبر جزءاً من نسق منظم يشتمل على معتقدات وأدوار لكنه يكون في مجتمعات أخرى بدائية وتقليدية أكثر تنظيماً. فيشغل «السحرة» حينئذ مراكز محددة ويقومون بأدوار متخصصة ويلعب الساحر في مثل المجتمعات دوراً لا يختلف كثيراً عن دور الأخصائي في ميدان الطب أو دور رجل الدين»[٢].

وكما تشير الدراسات في المجتمعات القديمة أن السحر والساحر يدخلان كعناصر

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦/ ٢٧٧

(٢) علم الإنسان مدخل إلى الأنتربولوجيا الاجتماعية الثقافية: ١٤٧.

في ترتيب الأنساق الاجتماعية، والتالي فهو جزء أساسي من الثقافة لأنّه «مكون من مجموعة من العقائد والطقوس.

وللسحر أيضاً شعائره وقرابينه وعملية التطهير المتعلقة وصلواته وترانيمه ورقصاته»[١].

وتنشأ خطورته من كونه ليس مجرد ممارسة طارئة بل هو غالباً ما يرتبط بعقائد وطقوس خرافية ويحتل المكانة التي يجب أن يشغلها الدين عموماً أو يؤدي إلى انحراف المعتقدات بعد أن يلتصق بها ويوجهها ولهذا فإننا نلاحظ ذيوع الاهتمام بأرواح الموتى.

ونجد «من المجتمعات البدائية أن أرواح الموتى تكون بمثابة الشيء المقدس وبالتالي تعتبر موضوعاً للطقوس الدينية. لكنها - وفي نفس الوقت - تلعب دوراً أساسياً في السحر. ففي استراليا وماليزيا واليونان.

ولدى بعض المسيحيين تستخدم أرواح الموتى وعظامهم وشعرهم بواسطة القائمين على السحر. وكذلك فإن الشياطين أيضاً يكونون وسائل وأدوات عامة في السلوك السحري»[٢].

كما أن من النتائج المترتبة على السحر هو الاعتقاد بقدرة الساحر على إيقاع الأذى في مقابل قدرته على نفع الناس ولهذا فإن هناك مصطلح «السحر الضار» و «استخدام مقصود للسحر بقصد إيذاء الغير»[٣].

وهو يختلف بالطبع عن «وجود قدرة فطرية وراثية عضوية عند شخص يستطيع بواسطتها أن يلحق الأذى بالآخرين بوسائل غير ملموسة لا يمكن ملاحظتها أياً كانت المسافة بينه وبينهم وبشرط أن يشعر بدوافع عدائية نحوهم»[٤].

ومن هنا فإن السحر يعتمد بدرجة رئيسية على وجود وسط جاهل ببعض الملكات الحقيقية للساحر ويستفيد من هذا الجهل في صنع عقائد باطلة. و «باختصار فإنّ السحر

---

(١) المصدر نفسه: ١٣٧.
(٢) علم الإنسان مدخل إلى الأنتربولوجيا الاجتماعية الثقافية: ٣٧.
(٣) علم الإنسان مدخل إلى الأنتربولوجيا الاجتماعية الثقافية: ١٤٨.
(٤) المصدر نفسه: ١٤٨.

عبارة عن نسق غير منطقي في القانون الطبيعي وبالإضافة إلى أنه موجه ومرشد وهمي ومخادع إنّه علم زائف كما أنّه فن فاشل»[١].

ويمكن أن نربط هذه الصورة بما أثبتته الآية الشريفة: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ﴾ نرى أنّها تنفي قدرة الساحر على إيقاع الضرر حقاً أي أنّها تريد أن تبطل عقيدة شائعة في المجتمعات القديمة وهي نسبة النفع والضرر إلى الساحر لأنّ الله هو النافع الضار في الواقع والحقيقة، وهذا وهم في إزالة الخوف في النفوس عند الناس والذي يترتب عليه حصول الساحر على المكانة في المجتمع.

◎ سحر أصحاب الأوهام والنفوس القويّة

«قالوا: اختلف الناس في أن الذي يشير إليه كل إنسان بقوله «أنا» ما هو؟ فمن الناس من يقول:

إنّه هو هذه البنية، ومنهم من يقول:

إنّه جسم سار في هذه البنية، ومنهم من يقول:

إنّه موجود ليس بجسم ولا جسماني أما إذا قلنا:

إن الإنسان هو هذه البنية فلا شك أن هذه البنية مركبة من الأخلاط الأربعة، فلم لا يجوز أن يتفق في بعض الأعصار النادرة أن يكون مزاج من الأمزجة في ناحية من النواحي يقتضي القدرة على خلق الجسم والعلم بالأمور الغائبة عنا؟

وهكذا الكلام إذا قلنا: إن الإنسان جسم سار في هذه البنية، أمّا إذا قلنا: إن الإنسان هو النفس فلا يجوز أن يقال: النفوس مختلفة، فيتفق في بعض النفوس أن تكون لذاتها قادرة على هذه الحوادث الغريبة مطلعة على الأسرار الغائبة عنا فهذا الاحتمال ممّا لم يقم دلالة على فساده سوى الوجوه المتقدمة وقد بان بطلانها.

ثم الذي يؤكد هذا الاحتمال وجوه:

أوّلها: أن الجذع الذي يتمكن الإنسان من المشي عليه لو كان موضوعاً على الأرض لا يمكنه المشي عليه لو كان كالجسر على هاوية تحته، وما ذاك إلاّ لأن تخيّل السقوط متى قوي أوجبه.

---

(١) المصدر نفسه: ١٤٨.

وثانيها: أجمعت الأطباء على نهي المرعوف عن النظر إلى الأشياء الحمر، والمصروع عن النظر إلى الأشياء القوية اللمعان والدوران، وما ذاك إلاّ لأن النفوس خلقت مطيعة للأوهام.

وثالثها: حكى صاحب الشفاء عن أرسطو في طبائع الحيوان: إنّ الدجاجة إذا تشبّهت كثيراً بالديكة في الصوت وفي الجواب مع الديكة نبت على ساقيها مثل الشيء النابت على ساق الديك. ثم قال صاحب الشفاء: وهذا يدل على أنّ الأحوال الجسمانية للأحوال النفسانية.

ورابعها: أجمعت الأمم على أنّ الدعاء مظنّة للإجابة وأجمعوا على أنّ الدعاء اللساني الخالي عن المطلب النفساني قليل البركة عديم الأثر، فدل ذلك على أن للهمم والنفوس آثاراً، وهذه الاتفاق غير مختص بملة معينة، ونحلة مخصوصة.

وخامسها: أنك لو أنصفت لعلمت أن المبادىء القريبة للأفعال الحيوانية ليست إلاّ التصورات النفسانية. لأن القوة المحركة المخلوقة المطبوعة المغروزة في العضلات صاحلة للفعل وتركه أو ضده ولن يترجح أحد الطرفين على الآخر إلاّ المرجح، وما ذاك إلاّ تصور كون الفعل جميلاً أو لذيذاً أو تصور كونه قبيحاً أو مؤلماً فتلك التصورات هي المبادىء لصيرورة القوى العضلية مبادىء بالفعل لوجود الأفعال بعد أن كانت كذلك بالقوة، وإذا كانت هذه التصورات هي المبادىء لمبادىء هذه الأفعال فأي استبعاد في كونها مبادىء للأفعال بأنفسها وإلغاء الواسطة عن درجة الاعتبار.

وسادسها: التجربة والعيان شاهدان بأن هذه التصورات مبادىء قريبة لحدوث الكيفيات في الأبدان، فإن الغضبان يشتد سخونة مزاجة حتى أنّه يفيد السخونة قوة. يحكى عن بعض الملوك أنّه عرض له فالج فأعيى الأطباء مزاولة علاجه. فدخل عليه بعض الحذّاق منهم على حين غفلة منه وشافهه بالشتم والقدح في العرض، فاشتد غضب الملك وقفز من مرقده قفزة اضطرارية لما ناله من شدة ذلك الكلام، فزالت تلك العلة المزمنة والمرضة المهلكة! وإذا جاز كون التصورات مبادىء لحدوث الحوادث في البدن فأي استبعاد من كونها مبادىء لحدوث الحوادث خارج البدن.

وسابعها: أن الإصابة بالعين أمر قد اتفق عليها العقلاء، وذلك أيضاً يحقق إمكان ما قلناه.

إذا عرفت هذا فنقول: النفوس التي تفعل هذه الأفاعيل قد تكون قوية جداً فتستغني في هذه الأفعال عن الاستعانة بالآلات والأدوات وقد تكون ضعيفة فتحتاج إلى

الاستعانة بهذه، وتحقيقه أن النفس إذا كانت قوية مستعلية على الدن شديدة الانجذاب إلى عالم السماوات كانت كأنها روح من الأرواح السماوية فكانت قوية على التأثير في مواد هذا العالم، أما إذا كانت ضعيفة شديدة التعلق بهذه اللذات البدنية فحينئذٍ لا يكون لها تصرف البتة إلاّ في هذا البدن، فإذا أراد هذا الإنسان صيرورتها بحيث يتعدى تأثيرها من بدنها إلى بدن آخر اتخذ تمثال ذلك الغير ووضعه عند الحس ليشتغل الحس به، فيتبعه الخيال عليه، وأقبلت النفس الناطقة عليه، فقويت التأثيرات النفسانية والتصرفات الروحانية.

ولذلك اجتمعت الأمم على أنّه لا بدّ لهذه الأعمال من الانقطاع عن المألوفات والمشتهيات وتقليله الغذاء والانقطاع عن مخاطبة القلب، فكلما كانت هذه الأمور أتم كان ذلك التأثير أقوى، فإذا اتفق أن كانت النفس مناسبة لهذا الأمر نظراً إلى ماهيتها وخاصيتها عظم التأثير والسبب اللّمي فيه، أن النفس إذا اشتغلت بالجانب الواحد استعملت جميع قوتها في ذلك الفعل، وإذا اشتغلت بالأفعال الكثيرة تفرّقت قوتها وتفرّعت على تلك الأفعال، فتصل إلى كل واحد من تلك الأفعال شعبة من تلك القوة، وجدول من ذلك النهر، ولذلك ترى أن إنسانين يستويان في قوة الخاطر إذا اشتغل أحدهما بصناعة واحدة واشتغل الآخر بصناعيتن، فإن ذا الفن الواحد يكون أقوى من ذي الفنّين، ومن حاول الوقوف على حقيقة مسألة من مسائل فإنه حال تفكّره فيها لا بد وأن يفرغ خاطره عما عداه فإنّه عند تفريغ الخاطر يتوجه الخاطر بكلّيته إليه، فيكون الفعل أسهل وأحسن، وإذا كان كذلك، فإذا كان الإنسان مشغول الهم والهمة بقضاء اللذات وتحصيل الشهوات كانت القوة النفسانية مشغولة بها مستغرقة فيها، فلا يكون انجذابها إلى تحصيل الفعل الغريب الذي يحاوله انجذاباً قوياً، لا سيما وهنا آفة أخرى، وهي أنّه مثل هذه النفس اعتادت الاشتغال باللذات من أول أمرها إلى آخره ولم تشتغل قط باستحداث هذه الأفعال الغريبة، فهي بالطبع حنون إلى الأول عزوف للثاني، فإذا وجدت مطلوبها من النمط الأول فإنّى تلتفت إلى الجانب الآخر؟

فقد ظهر من هذا أن مزاولة هذه الأعمال لا تتأتّى إلاّ مع التجرد عن الأحوال الجسمانية وترك مخالطة كانت معلومة فالأمر فيها ظاهر، لأن الغرض منها أن حس البصر كما شغلناه بالأمور المناسبة لذلك الغرض فحس السمع نشغله أيضاً بالأمور المناسبة لذلك الغرض، فإن الحواس متى تطابقت نحو التوجه إلى الغرض الواحد كان توجه النفس إليه حينئذٍ أقوى.

وأمّا إذا كانت بألفاظ غير معلومة حصلت للنفس هناك حالة شبيهة بالحيرة والدهشة ويحصل للنفس في أثناء ذلك انقطاع عن المحسوسات وإقبال على ذلك الفعل وجد عظيم، فيقوى التأثير النفساني، فيحصل الغرض، وهكذا القول في الدخن، قالوا: فقد ثبت أن هذا القدر من القوة النفسانية مستقل بالتأثير، فإن انضم إليه النوع الأول من السحر هو الاستعانة بالكواكب وتأثيراتها عظم التأثير. بل ههنا نوعان آخران:

الأول: أن النفوس التي فارقت الأبدان قد يكون فيها ما هو شديد المشابهة لهذه النفس في قوتها وفي تأثيراتها، فإذا صارت هذه النفوس صافية لم يبعد أن ينجذب إليها ما تشابهها من النفوس المفارقة، ويحصل لتلك النفوس نوع ما من التعلق بهذا البدن فتعاضد النفوس الكثيرة على ذلك الفعل، وإذا كملت القوة تزايدت قوى التأثير.

الثاني: أن هذه النفوس الناطقة إذا صارت صافية عن الكدورات البدنية صارت قابلة للأنوار الفائضة من الأرواح السماوية والنفوس الفلكية، فتتقوى هذه النفوس بأنوار تلك الأرواح، فتقوى على أمور غريبة خارقة للعادة، فهذا شرح سحر أصحاب الأوهام والرقى»[١].

وهذا النوع من السحر الذي يدخل في إطار علم النفس حيث بات معروفاً على نطاق واسع قدرة بعض الأشخاص على إحداث تأثيرات في الآخرين بواسطة التنويم المغناطيسي وهي ليست سوى الاستفادة من الإيحاء الذي يستطيع ضخه بقوة إلى أصحاب الشخصيّات الأضعف أو المرضى.

كما أنّه تم اكتشاف وجود قدرات كبيرة في النفس الإنسانية وعرفت عموماً بالظواهر البارسايكولوجية، وهي قوى حقيقية يستطيع الاستفادة منها من يمتلكها ويعرف كيف يتصرف بها، خصوصاً أنّ هناك أبحاث منظمة متواصلة تهدف للتوصل إلى حقيقة هذه القوى وحدودها ومستوى تأثيرها والفرز بينها وبين التوهمات التي ليس لها أساس من الواقع.

وطبعاً هذه القوى صارت في الآونة الأخيرة تبحث بحثاً علمياً وبالتالي فإنّها لم تعد في شعب السحر كالسابق.

«إن تأريخ القوى النفسية الخارقة طويل جداً. وقد اعتراها على توالي الأحقاب

(١) بحار الأنوار: ٥٦/ ٣٨٨ - ٣٩٢.

شتى الملابسات والمضاعفات، والمشكلة الأساسية في تاريخ هذه القوى آتية من كونها قد استخدمت في مختلف الأزمان والأماكن من قبل السحرة والكهان واختلطت من جراء ذلك بكثير من التدجيل والشعوذة»[١].

وهي لا تختلف عن الملاكات الأخرى التي استخدمت استخداماً سيئاً بحيث تصبح جزءاً من أجزاء السحر والشعوذة، وبالتالي وضعت في نفس الزاوية التي وضع فيها السحر عندما بدأت النهضة العلمية في القرون الوسطى واتخذ منها موقف النفي والإنكار بناءً على ما ساد في تلك القرون من رفض كل ما هو غير محسوس وغير تجريبي.

غير أن التقدم العلمي نفسه عاد ليلقي ضوءاً جديداً على هذه القوى وبدأ بحثها «بشكله التجريبي الراهن حوالي سنة ١٩٣٠. ففي هذه السنة التي يمكن اعتبارها نقطة تحول في تأريخ البشر أسّست جامعة (ديوك) في أمريكا فرعاً خاصاً لدراسة هذه القوى دراسة مختبرية تحت إشراف البروفسور (راين) وقد ألّف (راين) عدة كتب لخّص فيها نتائج بحوثه حيث أثار بذلك ضجة كبرى في الأوساط العلمية».

«وقد أخذت الضجة ضدّه تخفت كثيراً... وبدأ العلماء ينظرون إليه نظرة جدية بعد أن لمسوا نتائجه التجريبية التي تكاد لا تقبل الشك»[٢].

ومن هذه البداية انطلق البحث ليصل إلى معرفة الكثير من أبعاد القوى النفسية فـ «التجارب المختبرية التي أجراها (راين) وغيره على مئات الألوف من الأفراد دلت على أن كل فرد يملك في أعماق نفسه انبثاقات نفاذة مبدعة»[٣].

«وقد توصلت جمعيات المباحث النفسية في بريطانيا وغيرها إلى أن لدى الإنسان ملكات نفسية خارقة أهمهما ثلاث وهي: تناقل الأفكار - ورؤية الأشياء من وراء حواجز - والتنبؤ»[٤].

وهذه الملكات طبعاً موجودة لدى جميع البشر لكنها تختفي بسبب الإهمال وعدم الاعتناء وتظهر في حالات أخرى، وقد سمى الدكتور (ميلان ريزل) القوة التي تقف

---

(١) خوارق اللا شعور أو أسرار الشخصية الناجحة: ٢٠.
(٢) المصدر نفسه: ١٧.
(٣) المصدر نفسه: ٣١.
(٤) خوارق اللاشعور أو أسرار الشخصية الناجحة: ١٤٥.

وراء هذه الظواهر بقوة الإدراك الحسي الفائق وقال: «إن كل فرد منا يتمتع بتلك الموهبة»[1] ولكنها تحتاج إلى ظروف خاصة لكي تظهر وتبرز إذا يمكن «مقارنة موهبة الإدراك الحسي الفائق الدفينة بموهبة مقدرة الطفل المولود حديثاً على تعلم القراءة والكتابة عند توفر الظروف المناسبة». فإنها تظهر إذا توفرت هذه الظروف لكن الطفل سوف يظل أمياً إذا لم يحصل على التدريب المناسب سواء كان تدريباً منظماً أو فطرياً.

«ويمكن إجمال عدد من الإحساسات التي نستطيع تنيمتها بحذاقة ولطافة، بالدرجة الأولى، من الحواس السبع المتممة للحواس الخمس، والتي يمكن أن نجد ما يفيدنا عنها في كتابات (رودلف ستاينر) وتتمثل هذه الإحساسات السبع في:

١ - الإحساس بالتوازن.

٢ - الإحساس بالحركة.

٣ - الإحساس بالحياة.

٤ - الإحساس بالحرارة.

٥ - الأحساس بالنطق.

٦ - الإحساس بالفكر.

٧ - الإحساس بالآنا والآخر

وإلى ما بعد هذه الإحساسات النفسانية توجد ظواهر أخرى فوق نفسانية نذكر منها:

١ - **الإحساس بالاتجاه**: إحساس لم يطوره جميع الناس.

٢ - **الإحساس بالصعوبات**: هناك خلائق عمياء، تمتلك نوعاً من الرادار يعلمها عن وقوع أو وجود صعوبة قبل أن تكون قد لمستها أو أحست بها.

٣ - **إحساس الإيحاء الذاتي**: هو القدرة على وصف خلل عضوي أو غيره.

٤ - **إحساس تقبل الإشعاعات الكهربية**: هو إحساس يسمح بتحقيق وتطبيق عمليات حساسية - واكتشاف خلل في ميزان حسابي وأمور أخرى.

٥ - **إحساس المعايير النفسية**: يعني البيئة الفكرية والنفسية التي تحدث فيها أحداث مأساوية أو سعيدة.

(١) تدريب الإدراك الحسي الفائق: ١٠.

٦ - **صفاء الرؤية**: رؤية سريعة عابرة، هي إدراك حالة وجدانية لدى شخص آخر.

٧ - **السماع الفوقي**: هو الشعور بصوت داخلي، كما كانت حالة سقراط.

٨ - **التخاطر وانتقال الأفكار**: هو اتصال أو هو تزامن المشاعر والأفكار بين شخصين.

٩ - **الإخطار**: هو تنبيه، أو إلهام لظاهرة بعيدة.

١٠ - الإخطار المسبق: هو نوع من التخاطر المسبق وهو اتصال، وهو إحساس يسبق دافعه ويعلم عنه مسبقاً.

١١ - **التلستزي**: هو نوع من التخاطر، يحدث بين شخصين يتبادلان أفكارهما على نحو دائم ومتبادل دوري.

١٢ - **التلكنزي**: هو إمكان تحريك الأشياء، أوتحويلها أو نقلها عن بعد دون لمسها أو دفعها.

١٣ - **السيكوسنيزي**: ينتج هذا التحريك عن تأثير مباشرة لقوة الفكر ودون تدخل لآية قوة أخرى.

١٤ - **إحساس الانتباه اللاعقلي**: لا يرتبط هذا الانتباه بقشرة الدماغ بل بانتباهنا إلى حياتنا الداخلية اللطيفة هذا هو الإحساس بالحياة.

١٥ - **إحساس الانتباه الهامشي**: هو الشعور بأن شخصاً ما يراقبنا.

١٦ - **الإحساس بالضمير**: هو إحساس ضمن نطاق التكون المستقيم.

١٧ - **إحساس العدالة**: هو إحساس فوق طبيعي منحته الطبيعة للإنسان. ولما كنا لا نستطيع أن نلاحظ أن العدالة غير موجودة في الطبيعة، من حولنا أو بين الحيوانات والنباتات. فإننا نعلم أن العدالة تلعب دور العلاقة بين القوى، ففي كل مكان نجد مستويات أو اتفاقات بين القوى المتعارضة، وبهذا الصدد، نرى يقينية هذا الإحساس عند كل إنسان، وخاصة عند الطفل وقد جُرح إحساسه أو صدم، يصرخ قائلاً: ليس هذا عدلاً. ولا شك أن الإحساسه بالعدالة كشف للضمير أو ظهور له، وهو بالتالي ظاهرة فوق نفسانية»[١].

---

(١) مجلة المعرفة، ما بعد الباراسيكولوجي: ٢٦ - ٢٨.

◎ الاستعانة بالأرواح الأرضيّة

«وإعلم أن القول بالجنّ مما أنكره بعض المتأخرين من الفلاسفة والمعتزلة أمّا أكابر الفلاسفة فإنّهم ما أنكروا القول به، إلاّ أنّهم سمّوها بالأرواح الأرضية، وهي في أنفسها مختلفة، منها خيّرة ومنها شريرة.

فالخيّرة منهم الجنّ والشريرة هم كفّار الجنّ وشياطينهم، ثم قال: خلق منهم هذه الأرواح جواهر قائمة بأنفسها لا متحيّزة ولا حالّة في المتحيّز، وهي قادرة عالمة مدركة للجزيئات واتصال النفوس الناطقة بها أسهل من اتّصالها بالأرواح السماوية، إلاّ أنّ القوة الحاصلة للنفوس الناطقة بسبب اتصالها بهذه الأرواح الأرضية أضعف من القوة الحاصلة لها بسبب اتّصالها بتلك الأرواح السماويّة، أمّا أن الاتّصال أسهل فلأن المناسبة بين نفوسنا وبين هذه الأرواح الأرضيّة أرسل، فإن المشابهة والمشاكلة بينها أتمّ من المشاكلة بين نفوسنا وبين الأرواح السماويّة، وإمّا أن القوّة الحاصلة بسبب الأتّصال بالأرواح السماوية أقوى فلأن الأرواح السماوية بالنسبة إلى الأرواح الأرضية كالشمس بالنسبة إلى الشعلة والبحر بالنسبة إلى القطرة والسلطان بالنسبة إلى الرعيّة قالوا: وهذه الأشياء وإن لم يقم على وجودها برهان قاهر فلا أقلّ من الاحتمال والإمكان، ثم أصحاب الصنعة وأرباب التجربة شاهدوا أن الاتصال بهذه الأرواح الأرضيّة يحصل بأعمال سهلة قليلة من الرقى والدخن والتجريد، فهذا النوع المسمّى بالعزائم وعمل تسخير الجنّ»[(١)].

إن هذا النوع من السحر هو الأكثر شيوعاً لأن الاتّصال مع الأرواح الأرضية أكده القرآن وادعاه أغلب الممارسين، وبالنسبة للعلوم العصرية فقد أكدته حيث تم الاتصال بهذه الأرواح لكن يشير البعض إلى أن هذه الأرواح هي أرواح الموتي، وبالتالي فإن الصورة الموضوعية والتي أكّدتها التجارب لا تستطيع تأكيد أن الاتصال كان مع الجن أو مع أرواح الموتى« ففي الثلاثينات من هذا القرن التقارير العسكرية الاسكندنافية تتكلم عن رسائل صوتية لم تعرف مصدرها في عام ١٩٤٧.

كان عمل أتيلافون في تسجيل الديسكات حيث سمع أصواتاً غريبة غير مفهومة في تسجيلاته - وفي عام١٩٥٠ تلقى جون أوتو - مهندس إذاعي - أصواتاً بلغات متعددة لم يعرف مصدرها. لكن الحالة الأولى التي تم فيها تسجيل أصوات الأموات في العالم

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦/ ٢٩٢-٢٩٣.

كان في مختبر الفيزياء التجريبية في الجامعة الكاثوليكية في ميلانو في إيطاليا عام١٩٥٢ من قبل رجلي دين هما: الأب الوستينوجيميلي - فيزيائي معروف - مؤسس هذه الجامعة ورئيس الأكادمية الرسولية، والأب بيلكارينو ارنيتي - فيزيائي هو أيضاً»[١].

وهذه الاتصالات ليست مقصورة على هذا العصر فإن الثقافات القديمة أكدتها ولكن أحداً لا يستطيع أن يحزم أن ما يقع هل هو من فعل الجن مع ادعّاء أنّهم أرواح الموتى أم أن هذه الاتصالات هي فعلاً مع أرواح الموتى أم أن الاثنين يتم الاتصال بهما معاً؟ وهناك أكثر من طريقة بالطبع وأحد أهمها وأقدمها هي طريقة الوسطاء وهم نوع خاص من البشر تستخدم الروح أصواتهم للاتّصال بالأحياء.

كما أنّه من الشائع الاستعانة بالجن في كتب السحر عن طريق استدعائهم بواسطة الأذكار الخاصة، وهناك مصنّفات كثيرة لأرباب الصنعة بهذا الخصوص ولا شك بأن هناك بعض الآثار لهذا التعاون لكنه لا يخلو من الكذب والادّعاء بما لا يستطيعه هؤلاء، ذلك أن الجن مخلوقات مثل البشر محدودة القدرة وأنّها لا تستطيع أن تفعل بعض الأشياء فإنّها تتوسل إليه بواسطة الأسباب الطبيعية التي قد تكون خافية على بني البشر.

فإذا أخذنا مثلاً كتباً من كتب السحر ومثاله: «شموس الأنوار وكنوز الأسرار الكبرى» تأليف ابن الحاج التلمساني سنة ٧٣٧ فإننا نلاحظ مزج الأدعية، بالطب وبالأبراج بالإضافة إلى الاستعانة بالجن أو الاستعانة بأسماء الله والأوراد والأذكار، وهذا يعني وجود أكثر من عنصر، فهناك خصائص المواد والأعشاب التي يستفاد منها في خلق تأثيرات طبيعية، وهناك أيضاً أدعية كما في الأحيان هناك الأوراد التي من المعروف أن لها آثاراً كما مرّ، فإن الانقطاع يؤدي إلى انطلاق طاقات النفس الإنسانية وربما يؤدي في بعض الأحيان إلى حصول المراد منها.

ولعلنا نرى أن هذا هناك فضلاً في خصائص الحروف وهو شبيه بما ورد عن خصائص الأرقام، ولعله هو نفسه لأن كل حرف معادل لرقم معين، وأغلب الذين يريدون استخراج البروج يتعاملون مع الحروف بعد أن يرجعوها إلى الأرقام المقابلة لها، ولحد الآن لم تأت أدلة علمية على وجود، آثار خاصة لهذه الحروف وإذا أخذنا ما ورد إزاء الحرف أ وهوما يلي:

(١) الاتّصال المباشر مع الآخرة ١٠.

«حرف الألف صورته (ا،ا) من كتبه والقمر قد بات في منزله النطح في كفه الأيمن بماء ورد ومسك ألف مرة ويده مقابلة تلك المنزلة والبخور صاعد وهو العنبر ثم يذكر ذلك العدد المرقوم، فإذا كما ذلك العدد ينظر إلى تلك المنزلة ويقول القسم الذي يجري على الحروف الثمانية والعشرين وهو كمال أسرارها وبه قوام نتاج الأفعال، وهو هذا: أيّها الروحاني الموكل بحرف كذا سألتك بالذي خلقك فسواك فعدلك في أي صورة ما شاء ركّبك... الخ».

فهنا إشارة إلى افتراض وجود روح موكل بكل حرف وأن الآثار عائدة لذلك الروح وهكذا يكون مآل التأثيرات إلى أنواع الأرواح التي هي القوى الحقيقية الفاعلة في الطبيعة والأشياء، ولكن من غير الواضح أن هذه الأرواح هل هي الكواكب أم هي الجان؟ ولكن في النهاية يتأكد عدم وجود قوى ذاتية للحروف وهناك أيضاً خصائص الآيات وخصائص الأسماء الحسنى، وهاذ طبعاً له جذور في الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام ولكن هؤلاء مزجوه مع أعمال السحر وبالتالي فإن هذا ليس منه طبعاً بل هو من الاستعانة المشروعة حتى لو أدخل عليه بعض التحريف.

وبالنسبة للجن فقد أشار المؤلف إلى استعانته بالجن بعد اطلاعه على الأسماء التي يخضعون لها وأعلمه بعض أسرار الأمراض والسبل الكفيلة بعلاجها لأنّ منشأها عن صرع الجن لبعض النساء والرجال والأطفال.

◎ التخيّلات والأخذ بالعيون

«فهذا النوع مبني على مقدمات:

أولها: إنّ أغلاط البصر كثيرة، فإن راكب السفينة إذا نظر إلى الشط رأى السفينة واقفة والشط متحركاً، وذلك يدل على أنّ الساكن يرى متحركاً والمتحرك يرى ساكناً، والقطرة النازلة ترى خطاً مستقيماً، والزبالة التي تدار بسرعة ترى دائرة، والقبة ترى في الماء كالإجاصة، والشخص الصغير يرى في الضباب عظيماً، وكبخار الأرض الذي يريك قرص الشمس عند طلوعها عظيماً، فإذا فارقته وارتفعت صغرت، وأما رؤية العظيم من البعيد صغيراً فظاهر، فهذه الأشياء قد هدت العقول إلى أنّ القوة الباصرة قد تبصر الشيء على خلاف ما هو عليه في الجملة لبعض الأسباب العارضة.

وثانيها: أن القوة الباصرة إنما تقف على المحسوس وقوفاً تاماً إذا أدركت المحسوس في زمان له مقدار، فأمّا إذا أدركت المحسوس في زمان صغير جداً ثم أدركت بعده محسوساً آخر وهكذا فإنّه يختلط البعض بالبعض، ولا يتميز بعض

المحسوسات عن البعض، ولذلك فإن الرحى إذا أخرجت من مركزها إلى محيطها خطوطاً كثيرة بألوان مختلفة ثم استدارت فإن الحس يرى لوناً واحداً كأنه مركب من كل تلك الألوان.

وثالثها: أن النفس إذا كانت مشغولة بشيء فربّما حضر عند الحس شيء آخر فلا يشعر الحس به البتة، كما أن الإنسان عند دخوله على السلطان قد يلقاه إنسان ويتكلم معه فلا يعرفه ولا يفهم كلامه، لما أن قلبه مشغول بشيء آخر، وكذا الناظر في المرأة فإنّه ربما قصد أن يرى قذاة في عينه فيراها ولا يرى ما هو أكثر منها إن كان بوجهه أثر أو بجبهته أو بسائر أعضائه التي تقابل المرأة، وربما قصد أن يرى سطح المرآة هل هو مستو أم لا فلا يرى شيئاً مما في المرآة.

إذا عرفت هذه المقدمات سهل عند ذلك تصور كيفية هذا النوع من السحر، وذلك لأن المشعبذ الحاذق يظهر عمل شيء يشغل أذهان الناظرين به ويأخذ عيونهم إليه، حتى إذا استفز عنهم الشغل بذلك الشيء والتحديق نحوه عمل شيئاً آخر عملاً بسرعة شديدة فيبقى ذلك العمل خفيّاً لتفاوت الشيئين:

أحدهما: اشتغالهم بالأمر الأول.

والثاني: سرعة الإتيان بهذا العمل الثاني.

وحينئذٍ يظهر لهم شيء آخر غير ما انتظروه، فيتعجبون منه جداً، ولو أنّه سكت ولم يتكلم بما يصرف الخواطر إلى ضد ما يريد أن يعمل ولم تتحرك النفوس والأوهام إلى غير ما يريد إخراجه، لفطن الناظرون لكل ما يفعله، فهذا هو المراد من قولهم:

إن المشعبذ يأخذ بالعيون لأنّه بالحقيقة يأخذ بالعيون إلى غير الجهة التي يحتال. وكلما كان أخذه للعيون والخواطر وجذبه لها إلى سوى مقصوده أقوى كان أحذق في عمله،

وكلما كانت الأحوال التي تفيد حس البصر نوعاً من أنواع الخلل أشد، كان هذا العمل أحسن مثل أن يجلس المشعبذ في موضع مضيء جداً، فإن الضوء الشديد يفيد البصر كلالاً واختلالاً، وكذا الظلمة الشديدة، وكذلك الألوان المشرقة القوية تفيد البصر كلالاً واختلالاً، والألوان المظلمة قلما تقف القوة الباصرة على أحوالها فهذا مجامع القول في هذا النوع من السحر»[1].

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦/ ٢٩٣ - ٢٩٥.

وهذا النوع تحول إلى تسلية شائعة في المحافل وفي الأعياد حيث يعتمد على عناصر لخداع البصر منها سرعة الحركة وتشتيت الانتباه، وهناك أيضاً كتب ألّفت في هذا المجال شرحت كيفية إحداث هذه العمليات التي صارت للتسلية المحضة وخرجت عن الطبيعة السابقة لها لكنه مختلف الدرجات، فهناك الحالات العظيمة التي وصفها القرآن في حادثة يوم الزينة التي وقعت في زمان موسى عليه السلام إذ شاهد عشرات الناس الحبال والعصي على أنها أفاع تتحرك وانطلت الحيلة عليهم ولذلك قال الله: ﴿وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾[1]، كما أن هناك خدعاً بسيطة مثل: إخفاء ورقة أو كرة في مكان ثم إخراجها من مكان آخر، وما إلى ذلك من الأشكال التي باتت معروفة ومشهورة في هذا الزمان.

◎ الأعمال العجيبة

«الأعمال العجيبة التي تطرأ من تركيب الآلات المركّبة على النسب الهندسيّة تارة وعلى ضرب الخيلاء أخرى مثل فارسين يقتتلان فيقتل أحدهما الآخر وكفارس على فرس في يده بوق كلّما مضت ساعة من النهار ضرب البوق من غير أن يمسه أحد، ومنها الصور التي تصوّرها الروم وأهل الهند حتّى لا يفرق الناظر بينها وبين الإنسان حتّى يصوّرونها ضاحكة وباكية، وحتّى يفرق فيها بين ضحك السرور وضحك الخجل وضحك الشامت، فهذه الوجوه من لطيف أمور التخائيل، وكان سحر سحرة فرعون من هذا الضرب، ومن هذا الباب تركيب صندوق الساعات ويندرج في هذا الباب علم جرّ الأثقال، وهو أن يجرّ ثقيلاً عظيماً بآلة خفيفة وهذا في الحقيقة لا ينبغي أن يعدّ من باب السحر، لأنّ لها أسباباً معلومة تعيّنية من اطّلع عليها قدر عليها، إلاّ أنّ الاطلاع عليها لمّا كان عسراً شديداً لا يصل إليه إلاّ الفرد بعد الفرد لا جرم عدّ أهل الظاهر ذلك من باب السحر.

من هذا الباب عمل «ارجعانونس» الموسيقات في هيكل أورشليم العتيق عند تجديده إياه. وذلك أنّه اتّفق له أن كان مجتازاً بفلاة من الأرض، فوجد فيها فرخاً من فراخ البراصل - والبراصل هو طائر عطوف - فكان يصفر صفيراً حزيناً بخلاف صفير سائر البراصل، فكانت البراصل تجيئه بلطائف الزيتون - فتطرحها عنده، فيأكل بعضها

(١) سورة الأعراف، الآية: ١١٦.

ويفضل بعضها عن حاجته، فوقف هذا الموسيقات هناك وتأمل هذا الفرخ وعلم أن في صفيره المخالف لصفير البراصل ضرباً من التوجّع والاستعطاف حتى رقت له الطيور وجاءته بما يأكله، فتلطّف لعمل آلة تشبه الصفارة إذا استقبل الريح بها أدت ذلك الصفير، ولم يزل يجرب ذلك حتى وثق بها وجاءته البراصل بالزيتون كما كانت تجيء إلى ذلك الفرخ، لأنّها تظن أن هناك فرخاً من جنسها، فلما صح له ما أراد النسك وعمد إلى هيكل أورشليم، وسأل عن الليلة التي دفن فيها «اسطرحن» الناسك القيم بعمارة ذلك الهيكل، فأخبر أنه دفن في أول ليلة من آب، فأخذ صورة من زجاج مجوف على هيئة البرصلة، ونصبها فوق ذلك الهيكل، وجعل فوق تلك الصورة قبة، وأمرهم بفتحها في أول آب، فكان يظهر صوت البرصلة بسبب نفوذ الريح في تلك الصورة وكانت البراصل تجيء بالزيتون حتى كانت تمتلىء القبة كل يوم من ذلك الزيتون، والناس اعتقدوا أنّه من كرامات ذلك المدفون، ويدخل في هذا الباب أنواع كثيرة لا يليق شرحها في هذا الموضع»[1].

أمّا هذا النوع من السحر فقد بات معروفاً لدى الناس لأنّه يعتمد على قوانين علمية وعلى مهارات خاصّة قد تكون غير معروفة لدى جميع الناس ولعلّنا نرى بعض الكتب التي ألفت في هذا المجال من قبيل كتب الفيزياء المسلّية أو الاستفادة من القوانين من قبيل البكرات أو الانعكاسات الضوئية وما إلى ذلك مما أصبح معروفاً، وهو طبعاً لا علاقة له بالسحر إلاّ من باب اللفظة لأنّ أسبابه غير معروفة وشائعة وهو في الحقيقة عبارة عن الاطلاع على بعض القوانين الطبيعية في مجال الكيمياء أو الفيزياء أو الهندسة أو الأحياء والاستفادة منها بصورة الصور، ولعلّها في ذلك الزمن استفيد منها للدجل والاستفادة من سذاجة أبناء ذلك العصر وإيقاع الوهم في نفوسهم، ولذلك عدت من السحر لكنّها لا علاقة لها به إلاّ من هذه الجهة وهو طبعاً يشمل أغلب أنواع السحر حيث يتم الانتفاع من بعض الحقائق انتفاعاً غير سليم.

◎ الأستعانة بخواص الأدوية

«النوع السادس من السّحر: الاستعانة بخواص الأدوية من أن يجعل في طعامه بعض الأدوية المبلدة المزيلة للعقل، والدخن المكسرة نحو دماغ الحمار إذا تناوله

(١) بحار الأنوار: ٥٦/ ٢٩٥ - ٢٩٦.

الإنسان تبلد عقله وقلت فطنته، واعلم أنّه لا سبيل إلى إنكار الخواص، فإن أثر المغناطيس مشاهد إلاّ أن الناس قد أكثروا فيه، وخلطوا الصدق بالكذب، والباطل بالحق»(١).

ومن الواضح أن هذا النوع صار يشكّل جزءاً مما يمارسه عالم الصيدلة الذي يدرس خواص المواد وتأثيرها على الإنسان سواء كان إيجابياً أو سلبياً وبالتالي فإنّها خرجت نهائياً عن دائرة السحر وباتت ضمن دوائر العلم.

«ولعل المثال في هذا المجال هو التعويذ ضد الدودة التي كان الآشوريون في تاريخ ألف قبل الميلاد يرون فيها سبب الألم في الأسنان. كان أسلافنا متشوقين إلى فهم العالم ولكنهم لم يعثروا على الطريقة وتخيّلوه عالماً صغيراً ومنسقاً تتآلف القوى القاهرة فيه من آلهة مثل آنوويا وشاماش»(٢).

ولقد كانت بعض هذه الآلهة من الكواكب هي المسؤولة عن حياة البشر وهي التي تتصرف، ولهذا فإنّ علماً نشأ عن المقارنة بين حركة هذ الكواكب وبين طبائع الإنسان وإحداث حياة وبين تواجد هذه الكواكب في الأفلاك.

ومن الواضح أن الإسلام حارب جميع أنواع هذه الخرافات وقدم صورة موضوعية للفضاء الخارجي بل هو نفي وجود أي سلطة على حياة الإنسان باستثناء سلطة الله تعالى، ولعل في توبيخ الإمام علي عليه السلام للرجل الذي حاول أن يحدد للإمام الساعة الملائمة لخروجه إلى أحد المعارك دليل على عدم اعتراف الإسلام بهذا اللون من التفكير.

وقد جاءت علوم الفضاء المعاصرة لتلقي ضوءاً على طبيعة الكواكب خصوصاً تلك الكواكب التي كانت مرصودة وتنسب إليها التأثيرات.

◎ تعليق القلب

«النوع السابع من السّحر: تعليق القلب. وهو أن يدعى الساحر أنّه قد عرف الإسم الأعظم وأن الجن يطيعونه وينقادون له في أكثر الأمور، فإذا اتفق أن كان السامع لذلك ضعيف العقل قليل التميز اعتقد أنّه حق وتعلق قلبه بذلك وحصل في نفسه نوع من الرعب والمخافة، فإذا حصل الخوف ضعفت القوى الحساسة، فحينئذ يتمكن الساحر

(١) بحار الأنوار: ٥٦/ ٢٩٦.

(٢) الكون: ١١ - ١٢.

من أن يفعل حينئذ ما شاء، وإن من جرّب الأمور وعرف أحوال العالم علم أن لتعلق القلب أثراً عظيماً في تنفيذ الأعمال وإخفاء الأسرار[١].

◎ النميمة والتضريب من وجوه خفية

النوع الثامن: السعي بالنميمة والتضريب من وجوه خفيّة لطيفة وذلك شائع في الناس. فهذا جملة الكلام في أقسام السحر وشرح أنواعه وأصنافه والله أعلم[٢].

وما سبق ذكره من النوعين مما لا يحتاجان إلى تعليق وقد مرّ بحث النوع السابع في المباحث السابقة وأن هذا الأدّعاء يقوم على ما لا يمكن إتيانه.

والنوع الثامن فإنّه ممكن لكن من يريد الإيقاع بين الناس ويمارس في ذلك بعض الحذق من الدس.

وبناءً على ما تقدم فإن مفهوم السحر قد تغيّر بالنسبة لعصرنا الحاضر، إذ خرجت من تحت دائرته الكثير من الأبعاد المذكورة ودخلت تحت دائرة العلوم، فضلاً عن انهيار أكبر وأهم أنواعه وهي المتعلقة بالأجرام وحركتها والأفلاك حيث انهار مفهوم حيوية الطبيعة والتي تقول:

بأن الأجرام وحركتها والأفلاك حيث انهار مفهوم حيوية الطبيعة والتي تقول بأن الأجرام هي أرواح مدبّرة للعالم وأنّها حيّة ومؤثرة في السعادة والتعاسة، نعم لقد اكتشف لبعضها تأثير ولكن في الطبيعة كانتظام الفصول وأن حركتها إذا خرجت عن النظام المألوف فإنّها ستقود إلى كوارث.

فالأنواع التي دخلت تحت موضوع الكيمياء خرجت من السحر، وكذلك التي تتعلق بخصائص الأطعمة والأدوية والمواد المقوية التي صارت تحت علم الصيدلة والطب وعلم الكيمياء العضوية. وكما خرج بعضها ليدخل تحت علم النفس والظواهر النفسية وهكذا صار السحر بالمصطلح الحديث يضم ألعاب الخفة التي تمارس وبعض الحيل والاستفادة من القوى والملكات النفسية التي ذكرت تحت صنف قوة النفس.

ومن ذلك فإن موجة معاصرة من العلوم التي تحاول كذلك إدخال هذه الظواهر الخارقة ضمن دائرة العلوم ويتم دراستها على أنّها أسباب ونتائج لأسباب معلومة وهي ظواهر التلباثي.

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦/ ٢٩٧.

(٢) بحار الأنوار: ٥٦/ ٢٩٧.

كما انفصل ذلك عن بعض الملكات الطبيعية التي تعرف «بظواهر الإدراك الخارق» حيث يتم التنبؤ ببعض الأحداث.

◎ العين من منظور معاصر

إن الاعتقاد بوجود ظواهر تحدث بدون وسائط مادية، قديم قدم الإنسان غير أنّ النهضة العلمية الحديثة عندما استطاعت أن تحقق إنجازاتها العريضة على أساس العقلانية الماديّة، نقلت الإنسان باتجاه نفي كافة الظواهر التي تقع خارج دائرة التجريب أو التي لا تستند إلى أسس مادية ثابتة.

غير أن الإنسان سرعان ما عاد ليتناول هذه الظواهر التي طواها النسيان، ويحاول إعادة اكتشافها على أساس ما وصل إليه العلم الحديث مرّة أخرى، وبذلك صارت هذه العودة تختلف عن سابقاتها، لأنّها هذه المرة تحاول القيام على أساس طرق اليقين المتقدمة الحديثة، حيث يكون من الصعب التسليم بيقينيّة الشيء إلاّ بعد أن تتم دراسته بواسطة السبل والمناهج المعاصرة التي تنتهي إلى تأكيد أو نفي تلك اليقينية.

ولهذا فإن الأوساط العلمية لم تتقبل هذه الآراء واعتبرتها مجرد استعارة تخيلات وأساطير الأجداد، وكانت الظواهر (الروحية) من الأشياء التي جوبهت بهذا الموقف الرافض، لكن التقدم العلمي نفسه اكتشف أن العلية بالصورة التي حاولت تقديمها المادية ليست بهذه الصرامة، إذ أن الكثير من الظواهر تحدث دون التعرّف على علتها المادية، لكنها أيضاً ليست بدون علّة، وانتهى الحوار بعد فترة إلى الاعتراف بقوى النفس الخارقة حتى «أصبحت اليوم من الحقائق العلمية المقررة، وقد أخذت التجارب المختبرية تؤيدها تأييداً لا بأس به»(١).

إلاّ أن هذا الإثبات مرّ بأطوار عديدة وبدأ عندما اكتشف علماء النفس مقدمات تشير إلى إمكانية التنويم المغناطيسي، حيث يمكن التأثير على الإنسان ودفعه إلى النوم، ثم الاستجابة للأوامر الصادرة له من قبل النوم.

فـ «العالم فرانز أنطون» مسمر (١٧٣٤-١٨١٥) عندما نشر آرائه سنة ١٧٧٥» عن التنويم المغناطيسي وقدم الأساس الذي بنيت عليه عودة البحث في الظواهر الروحيّة وهو طبعاً كان مطروحاً من قبل الحكماء «فمنذ القرن الخامس عشر كان هناك حكماء

---

(١) خرق اللاشعور أو أسرار الشخصية الناجحة: ١٤٣.

علماء تعرّضوا لأمثال هذه الأفكار وعلى رأسهم العالم فيشيني من فلورنسا الذي ذهب إلى أن الأشخاص يمارسون تأثيراً من بعضهم على البعض الأخر عن طريق سيالات تمر بالعينين تحت تأثير تركيز الإرادة، كما كان العالم الإيطالي بومبوناج يتحدث منذ القرن السادس عشر عن قدرة الروح على المروق من العينين ومن أجزاء أخرى من الجسم كيما تباشر عن بعد تأثيراً روحياً»[١].

ومن هناك بدأت الآراء تتجه نحو الاعتراف بوجود هذه التأثيرات الروحيّة وبدأت حركة متزايدة تدريجياً نحو دراسة هذه الظواهر وإحصائها والبحث عن عللها ومستوى تأصلها في الوجود، وبالفعل تمّ اكتشاف عدد من الظواهر تباعاً اتسع الإيمان بأن في داخل الإنسان قوى خفية لا يدركها واضحةً الآن، وأنها تؤدي إلى حدوث ظواهر روحيّة متنوعة[٢].

وقد أحصى العلماء عدداً من الظواهر التي تتعلق بعضها بعالم الإدراك وبعضها الآخر في عالم المادة وهي كالآتي:

أ - الظواهر العقلية:

١ - الاستشفاف البصري.

٢ - الاستشفاف السمعي.

٣ - الاستشفاف الحسي.

٤ - السيكومتري: وهي ظاهرة تقديم معلومات عن شخص من خلال الإمساك بشيء يعود له كالساعة أو القلم.

ب - الظواهر الفيزيقية (المادية):

١ - تحريك الأجسام الصلبة «وهذه الظاهرة مظهراً لحقيقة موضوعية أعمّ منها، وهي إمكان تأثير العقل أو الروح في المادة الصلبة تأثيراً مباشراً»[٣].

٢ - الكتابة المباشرة.

٣ - الصوت المباشر.

٤ - المجلوات والمأخوذات الروحيّة.

---

(١) التنويم المغناطيسي: ٣٤ - ٣٥.

(٢) التنويم المغناطيسي: ٥٤.

(٣) التنويم المغناطيسي: ١٢٣.

فهذه الظواهر جميعاً وبغض النظر عن أسلوب تفسيرها، قد أثبتت من خلال الممارسة الطويلة ورغم احتمال وجود مستوى من الخداع في بعضها إلاّ أنّها ليست جميعاً خارجة عن الصحة، وعلى هذا الأساس يتم إثبات المبدأ الذي نحاول إثباته وهو وجود آثار للروح أو النفس أو العقل.

وقد ثبت أيضاً أنّ هذه الظواهر تحدث عند أفراد محددين يمتلكون مواهب طبيعية، وهذه القضية تشبه أن يكون لبعض الناس عضلات غير اعتيادية وقوة بدنية متميزة أو حدة من الذكاء أو البصر والسمع، وهي من المواهب التي تخص البدن، فإنّه أيضاً يمكن أن تكون لبعض النفوس والأرواح قابلية على إبراز الظواهر التي عرفت فيما بعد بالظواهر الباراسايكولوجية.

ومما ثبت أيضاً أن هذه الملكات عندما تظهر فإنها لن تكون على وتيرة واحدة، وثبت أنها متفاوتة من ناحية الشدّة والضعف، فقد تكون قوية وبارزة الآثار عند البعض، بينما تكون ضعيفة عند البعض الآخر، ويضاف إلى ذلك ثبوت أن للتدريب والممارسة دوراً كبيراً في تطوير هذه الملكات، فإذا تواصلت الممارسة والتدريب فإن الآداء يتحسن بصورة واضحة، وعلى العكس من ذلك فإن الترك والإهمال يؤدي إلى ضمورها، ولذلك ساد اعتقاد بأن التدريب قادر على أن يجعل جميع الناس من أصحاب هذه القدرات إذا تحلّوا بالصبر والمواصلة واتّباع الخطوات الصحيحة بناءاً على أن هذه القدرات من مختصات روح أو نفس أي إنسان، وأنها موجودة لدى الجميع لكن الظروف تعمل على بروزها عند البعض وضمورها عند البعض الآخر تماماً مثل ملكة تعلم الكتابة أو المهارات الإنسانية الأخرى.

وإذا كانت هناك مثل هذه الملكات التي تكون إيجابية التأثير، فإننا بإمكاننا تصوّر ملكات سالبة تقود إلى إيقاع من قبيل: «قدرات بعض العيون على «حرق» شيء ما»(١).

ويمكن تصوير بروزها عند أناس ذوي مشاعر سلبية، فقد ثبت من خلال التجارب أن هناك موجات شعورية متنوعة فمن خلال مئات البحوث (الموجية) التي قام بها (الدكتور ديلجادو) وجد «الأنواع الخاصة بكل حالة شعورية»(٢). ولذلك استطاع من خلال توجيه هذه الموجات بواسطة جهاز صغير التأثير على ثور بدفعه إلى الهياج ثم تهدئته.

---

(١) هل هناك حاسة سادسة: ٩١.
(٢) المصدر نفسه: ٨٧.

وهكذا نلاحظ أن الشعور أو الموجات المنطلقة من النفس لها آثار على الآخرين، وأن العين غالباً ما تعمل على تركيز هذه الطاقة، فبعض قارئي «الفنجان» من ذوي القدرات الحقيقية لا يرون الفنجان كما يزعمون ولكنهم تدربوا على أن «يجبروا الطرف الآخر على التركيز» في شيء محدد لنجاح عملية التليباثي التي يقومون بها ودليلنا على ذلك واضح في استبدال «الفنجان بورق اللعب» أو «البيضة» أو حتى «دهن ظفر الإبهام» بمادة ملونة سوداء[1].

وهكذا نلاحظ أن العين تلعب دوراً رئيسياً في توجيه القوى النفسية التي صارت لها استخدامات واسعة، والتي يمكن أن تكون في حدود قصوى شبيهة بالطاقة التي جاء بها «آصف بن برخيا» بعرش بلقيس بين يدي النبي سليمان، فإذا أمكن نقل بعض الأشياء أمتار فإنه بمرور الزمن يمكن أن تتطور الملكة لنقل هذه الأشياء كليومترات.

«من نافلة القول أنه ليس في قدرة الأفراد اليوم استخدام الإدراك الحسي الفائق حسب الرغبة على رغم أنّ كل فرد منّا يتمتع بتلك الموهبة، فنحن لا نمتلك نظاماً فكرياً كافياً للتحكم بأفكارنا وجعل أنفسنا حسبما نتمنّى في حالة تؤهلنا للإدراك الحسي الفائق»[2].

إلاّ أن هذه الملكة قابلة للتطور ككل الملكات التي حاز عليها الإنسان، وأنّها يمكن أن تساهم في أداء فعاليات كثيرة على صعيد التطور الحضاري، لعلنا نستطيع أن نفسّر من خلال هذه الملكات ما وصلت إليه الحالة في زمن سليمان عليه السلام عندما استطاع التأثير على الوحوش والطير وعلى الشياطين. وإذا أتيح للإنسان البلوغ إلى هذه المزايا، فإن أطواراً من الحضارة والمدنية سوف تولد ليس لها سابقة في التأريخ.

ومن المفيد جداً الالتفات إلى ما مرّ في طيات الأحاديث من الإشارة إلى أن العين هي من جملة «السحر» ثم أنها أيضاً موجودة لدى كل إنسان يقوى على الرؤية العلمية التي تقول بأنّ هذه القوة موجودة لدى كل البشر، وأنّها يمكن أن تبرز وأن ضمها إلى السحر يعني إدراجها في بعض أشكالها ضمن العلل الخفية التي يتمكن بعض البشر من تطويرها من خلال الممارسة إلى استخدامها بحدود معينة في الاستخدام الإرادي، ولكن الاستخدام هنا يكون استخداماً سالباً وبالتالي، فإن وجود الوجه السالب يلفت النظر إلى وجود الوجه الموجب.

---

(١) هل هناك حاسة سادسة: ٨٩.

(٢) تدريب الإدراك الحسي الفائق: ١٠.

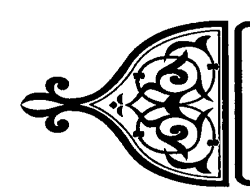
وعلى هذا الأساس فإنّنا يمكن لنا إدراك الإصابة بالعين على أساس ما قدمه علم البارسايكولوجي من أساس، والذي أكد وجود قوى وقدرات لدى الإنسان يمكن أن تنطلق في ظروف معينة لأداء شغل بالمعنى الفيزيائي للشغل، وأن العين هي اتي تمثل حلقة الارتباط بين الحقول المغناطيسية الموجودة داخل النفس أو خارجها وتعمل على تسليطها على الجسم الذي تم التركيز عليه، وإذا أمكن بشكل تجريبي نقل أجسام وإحراق أجسام، فإن الصورة التي تكلمت عنها الأحاديث أشارت إلى هذه القدرة «العين نزل الحالق».

فمن خلال المواصفات العامة التي جاءت في الأحاديث، فإننا نلاحظ أنّها تشير إلى هذه القوة بنفس الصورة التي ترسمها تجارب البارسايكولوجي، فجميع المعالم التي أثبتتها التجارب موجودة في الأحاديث مع الفارق هو أن الصورة كانت تتحدث عن الآثار السالبة لهذه القوة، بينما التجارب تناولت القوة بأشكالها المتنوعة.

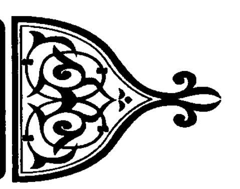
والأمر الذي يمكن استنتاجه أن الأحاديث حاولت الإشارة إلى هذه القوة باعتبارها قوة سحرية (أي خفية) حقيقية ليست من قبل الآلاعيب والحيل السحرية، ولذلك فإنّها نفت أي سلطة للساحر إلاّ في هذه الناحية كما نلاحظ أن العمليّة تتم أيضاً بالاستفادة من أشياء متعلقة بالشخص لتوجيه الطاقة نحوه وهو الذي أكّده أيضاً العلم، وهذا يمكن للعين أن تكون أداة رئيسية في التركيز وتوجيه القوى، ولهذا فإن البشر نسبوا إليها الآثار بينما أن الحقيقة التي حاولت النصوص تبيانها هي أن هذه قوة طبيعية موجودة لدى كافة البشر، وأنّها قابلة للتطور في درجة معينة لدى السحر، وأنّها قادرة على إنجاز الكثير من الأشياء إذا ما وصلت إلى درجة الاستخدام الإرادي.

وفي النهاية فإن تقدم العلم كفيل بتقديم صورة أكثر دقة عن هذا العالم الذي بدأت تتلاحق الأبحاث حوله منذ عام ١٩٧٠ وهو لا يزال يعد بالكثير ولا نملك غير الأسف لأنا لم نفهم الإشارات التي جاء بها الوحي رغم أنها مودعة في الكتب منذ زمن بعيد، كما أن أقوال العلماء قدمت صورة لا تختلف عن التفسير العلمي المعاصر لأنّها نسبت القوة إلى النفس وقالت بانطلاق الأشعة وهو الأمر الذي لم يتجاوزه العلم.

وهذا يجب أن يكون حافزاً لفهم إيماءات الوحي فهماً موضوعياً بدلاً عن الفهم الذي يبعدنا عن رؤية الصورة الحقيقية.



حقيقة الجن وأحوالهم



● عن عمرو بن شمر، عن جابر، عن أبي جعفر عليه السلام قال: بينما أمير المؤمنين على المنبر إذ أقبل ثعبان من ناحية باب من أبواب المسجد، فهمّ النّاس أن يقتلوه، فأرسل أمير المؤمنين عليه السلام أن كفّوا، فكفّوا.

وأقبل الثعبان ينساب حتّى انتهى إلى المنبر فتطاول فسلّم على أمير المؤمنين فأشار أمير المؤمنين عليه السلام إليه: أن يقف حتّى يفرغ من خطبته، ولمّا فرغ من خطبته أقبل عليه.

فقال: من أنت.

فقال: أنا عمرو بن عثمان خليفتك على الجنّ، وإنّ أبي مات وأوصاني أن آتيك فأستطلع رأيك، وقد أتيتك يا أمير المؤمنين، فما تأمرني به؟ وما ترى؟

فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: أوصيك بتقوى الله، وأن تنصرف فتقوم مقام أبيك في الجنّ، فإنّك خليفتي عليهم.

قال: فودّع عمرو أمير المؤمنين عليه السلام وانصرف فهو خليفته على الجنّ، فقلت له: جعلت فداك فيأتيك عمرو، وذاك الواجب عليه؟

قال: نعم(١).

● تفسير النعماني: بإسناده عن أمير المؤمنين عليه السلام حيث قال: وأمّا ما حرّف من الكتاب فقوله: «فلمّا خرّ تبيّنت الأنس أن لو كانت الجنّ يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين»(٢).

● عن عبد الله بن أحمد بن عامر الطائي، عن أبيه، عن الرضا، عن آبائه عليهم السلام قال: سأل الشّامي أمير المؤمنين عليه السلام عن اسم أبي الجنّ.

---

(١) أصول الكافي ١: ٣٩٦، البحار ج٦٠ ص٦٦، ح٤.

(٢) المحكم والمتشابه: ٣٣، البحار ج٦٠ ص٦٩ - ٧٠، ح١٢.

فقال: شومان، وهو الّذي خلق من مارج من نار.

وسأله: هل بعث الله نبياً إلى الجن؟ فقال: نعم، بعث إليهم نبياً يقال له: يوسف، فدعاهم إلى الله عزّ وجلّ فقتلوه(١).

● عن عمرو بن أبي المقدام، عن جابر، عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: إنّ الله تبارك وتعالى لمّا أحبّ أن يخلق خلقاً بيده وذلك بعد ما مضى للجنّ والنسناس في الأرض سبعة آلاف سنة، قال: ولمّا كان من شأن الله أن يخلق آدم للّذي أراد من التدبير والتقدير لما هو مكوّنه في السّماوات والأرض وعلمه لما أراده من ذلك كلّه كشط عن أطباق السماوات، ثمّ قال للملائكة: انظروا إلى أهل الأرض من خلقي من الجنّ والنسناس.

فلمّا رأوا ما يعملون فيها من المعاصي وسفك الدّماء والفساد في الأرض بغير الحقّ، عظم ذلك عليهم وغضبوا لله وأسفوا على أهل الأرض ولم يملكوا غضبهم أن قالوا: يا ربّ أنت العزيز القادر الجبّار القاهر العظيم الشأن، وهذا خلقك الضعيف الذليل في أرضك يتقلّبون في قبضتك ويعيشون برزقك ويستمتعون بعافيتك وهم يعصونك بمثل هذه الذنوب العظام لا تأسف ولا تغضب ولا تنتقم لنفسك لما تسمع منهم وترى، وقد عظم ذلك علينا وأكبرناه فيك.

فلمّا سمع الله عزّ وجلّ ذلك من الملائكة قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ لي عليهم فيكون حجّة لي عليهم في أرضي على خلقي.

فقالت الملائكة سبحانك: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾.

وقالوا: فاجعله منّا فانّا لا نفسد في الأرض ولا نسفك الدماء.

قال الله جلّ جلاله: يا ملائكتي: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾(٢) إنّي أريد أن أخلق خلقاً بيدي أجعل ذرّيّته أنبياء مرسلين، وعباداً صالحين، وأئمّة مهتدين، أجعلهم خلفائي على خلقي في أرضي، ينهونهم عن المعاصي، وينذرونهم عذابي، ويهدونهم إلى طاعتي، ويسلكون بهم طريق سبيلي، وأجعلهم حجّة لي عذراً أو نذراً، وأبين النسناس من أرضي فأطهّرها منهم، وأنقل مردة الجنّ العصاة عن بريّتي وخلقي وخيرتي،

(١) علل الشرائع: ١٩٨، عيون أخبار الرضا: ١٣٢، البحار ج٦ ص٧٨، ح٣٣.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٣٠.

واسكنهم في الهواء وفي أقطار الأرض لا يجاورون نسل خلقي، وأجعل بين الجنّ وبين خلقي حجاباً، ولا يرى نسل خلقي الجنّ ولا يؤانسونهم ولا يخالطونهم، فمن عصاني من نسل خلقي الذين اصطفيتهم لنفسي أسكنتهم مساكن العصاة وأوردتهم مواردهم ولا أبالي.

فقالت الملائكة: يا ربّ افعل ما شئت ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾[١] [٢].

فالحديث الذي مرّ يتحدث عن مرحلة زمنية ظهرت فيها موجودات عضوية وسماها: بالنسناس. وهو يختلف عن الحديث الذي تحدث عن مرحلة زمنية ساحقة القدم، حيث كان العالم مسكوناً فقط بالجن أي بمعنى المخلوقات الجرثومية وهو الأمر الذي تشير إليه نظرية التطور البايلوجي، وظهور النسناس يعني ظهور كائنات عضوية قريبة من الإنسان بدليل أن الله تحدث عن اقتراب لحظة ظهور الإنسان الذي يشير القرآن أن ظهوره ليس فجائياً ﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا﴾[٣].

ومن المؤيدات أيضاً أن إبليس وذريته ليسوا وحيدين من سلسلة النار بل هناك آخرون أشار إلى بعضهم الحديث التالي:

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إنّ لابليس عوناً يقال له: تمريح، إذا جاء الليل ملأ ما بين الخافقين[٤].

فهناك مخلوقات تشابه إبليس في المهمة وصفها الحديث من خلال الحجم الكبير وإنها طبعاً غير مرئية، وهذا يؤيد ما نذهب إليه في أن الجان هم سلسلة مخلوقات تتشابه في بعض الجوانب ولا تتطابق من جميع المعالم. وإذا كان الحديث لم يتحدث عن مادة خلقة هذا المخلوق ولا بقية معالم وجوده وحياته، فإنها تبقى مجهولة، ولقد سلّط الحديث الضوء على الجانب المهم وهو دور في الاضلال فقط.

ومن هنا فإنه كان أوّل كافر لأنّه ملك العقل دون الأنواع الأخرى من الجن التي لم تصلح للخلافة بسبب الطبع الذي شأنه الإفساد. وهي ليست من مخلوقات النار بل من مخلوقات الريح أو الماء، وبذلك لا يتناقض مدلول هذا الحديث مع ما مرّ سابقاً.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٢.
(٢) البحار ج٦٠ ص٨٢ - ٨٣، ح٣٨.
(٣) سورة المدثر، الآية: ١٤.
(٤) بحار الأنوار: ٦٠/ ٣٦٣.

«بإسناده عن الرضا، عن آبائه عليهم السلام قال: سأل الشامي أمير المؤمنين عليه السلام عن اسم إبليس: ما كان في السّماء؟

فقال: كان اسمه الحارث.

وسأله عن أوّل من كفر.

فقال: إبليس لعنه الله»[١].

وفي هذا الحديث تأكيد على عدم وجود المعصية قبل إبليس وهو ما ينفي وجود المعصية اتي تحدث عنها الحديث الذي يقول بوجود دورة النسناس والجن فإنّها ليست أول معصية بنفس الكيفية.

ويمكن الجمع بأن إبليس أولّ من عصى في السماء، وأن النسناس والجان هم أوّل من عصى على الأرض، وبالتالي فإنّه ينسجم مع كون إبليس أوّل الجن من سلسلة النار الذين اشتبكوا مع آدم في علاقة العداء والتنافس على خلافة الأرض.

جاء عن الحسن بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام أنّه قال في حديث طويل له مع ملك الروم: إنّ ملك الروم سأله فيما سأله عن سبعة أشياء خلقها الله عز وجلّ لم تخرج من رحم، فقال: **آدم وحوّا، وكبش إبراهيم، وناقة صالح، وحيّة الجنّة، والغراب الذي بعثه الله عزّ وجلّ يبحث في الأرض، وإبليس لعنه الله»**[٢].

والقول بأن إبليس لم يخرج من رحم فيه دلالة على أن الجنّ كالإنس يتوالدون ويخرجون من الأرحام مثلهم. وهذا من عناصر الاشتراك بين الجن والإنس، ثم إن إبليس مثله مثل آدم عليه السلام من ناحية الخلق وإن الله خلقه من طين مباشرة ولم يمر بالدورات التي مرّ بها البشر قبله فصار أبو الطور الحاضر من الإنس وأن إبليس هو مثله هو أبو الطور المتقدم والحاضر منهم. وأن هناك مخلوقات نار قبله هي التي مرت بمراحل التخلف والتطور، وهذا هو أسلوب من أساليب الجمع بين مداليل الأحاديث والآيات التي تقيد المضمونين معاً.

وهنا أيضاً يؤكد القضية الرئيسية من خلال صريح القرآن الذي أكد أن إبليس ليس من الملائكة ثم يعرج على فلسفة أمهاله الذي هو ذا وجهين:

الوجه الأول: ما يتعلق بالشيطان إبليس الذي منح فرصاً لكي يؤكد أنه مستحق لسخط الله وذلك بإدامة سعيه لإضلال الناس.

---

(١) بحار الأنوار: ٦٠/ ١٩٥.

(٢) بحار الأنوار: ٦٠/ ٣٤٨.

والوجه الثاني: بالنسبة للناس إكمال عملية البلاء الذي قلنا أنه أحد قوانين الوجود الذي يثبت به الإنسان أو سواه أهلية البقاء والدوام في الوجود.

الأوصاف ومعالم التعادل بين الجن والإنس

◎ الأوصاف والأصناف والملامح العامة

سيكون ضرورياً التعرّف على الجن من خلال الأوصاف التي جاءت عنهم في الأحاديث والآيات طالما كانا كائنات غائبة لا يمكن للإنسان رؤيتها والتعامل معها بكيفية الموجودات الأخرى التي يرتبط بها بروابط متينة.

وكما يبدو أن هذا القدر من المعرفة كافٍ لتأسيس الرابطة بين الإنسان والجان وهي رابطة ملازمة لوجودهما، وبحسب ما فهمناه من النصوص أن أياً منهما لا يمكن أن يصل إلى كماله بدون لآخر.

إذ لا بدّ من تكوين تصوّر صحيح بالنسبة للإنسان عن هذا الكائن غير المرئي الذي يساهم في حركة الإنسان المصيرية كما يساهم في مصيره من خلال عملية الإعاقة التي يقوم بها في الحياة، فهو القطب السالب الذي يعيق التكامل الأخلاقي، فيساهم دون قصد فيه، ذلك أنّه يمارس عملية الهدم، فيعمل في النهاية على تحسين كيفية البناء لأنّه لن يهدم الأجزاء الضعيفة الآيلة للإنهيار، وأن دوره مثل دور الحيوانات المفترسة في عالم الحيوان إذ ثبت علمياً أن دورها دوراً غاية في الأهمية في الحفاظ على قوة النسل وبالتالي في بقاء الأحياء، لأنّه حين يطارد الحيوانات فيأكل الضعيفة فيخرجها من دائرة التكاثر لأنّ موتها لا يبقي إلاّ القوية، فالضعيفة منها تموت وتمنع من الامتداد والتناسل ولا يسمح إلاّ للقوية فتساهم في تحسين النسل، وعليه فإنّ المقاومة جزء أصيل من أجزاء الطبيعة وأنّها كذلك في الجانب الحي.

فالجان قطب يعيش كظل للوجود وأنّه لا يمارس البناء لكنّه يمارس الهدم فالحضارة والمدنية والعلم مهام يقوم بها الإنسان، فهو يسعى إلى اكتشاف الصورة الموضوعية لذاته وللعالم، ومن خلال معرفة هذه الصورة فإنّه يتقدم نحو امتلال القوة والحرية وهي أهم معالم الكمال وبالتالي الانتظام في علاقات الوجود.

بينما يكون دور الجان دوراً مضاداً لأنّه يحاول التمويه وخلق الأوهام وإخفاء الحقائق وقلب الأولويات، فيعطي التافه أهمية لكي لا يصار إلى الاهتمام بالمهم.

إننا نحتاج إلى رسم معالم هذه الشخصية السلبية التي تشكل ظلاً لحركة التاريخ، وبالمقدار الذي تمارس فيه الإعاقة فإنّها تعمل على تركيز عناصر القوة لإنجاز الحركة، فتعمل على الدفع نحو خلق الذرة في منحنيات التطور العام للإنسانية.

في العادة «دراسة التراكيب والعمليات السيكولوجية الثابتة، التي تنظم الخبرة الإنسانية وتشكل أفعال الفرد واستجاباته للبيئة التي يعيش فيها»[١].

«أما الشخصية فتميل إلى توكيد الاختلافات بين الأفراد في الوظائف السيكولوجية، كالانفعال والدافعية والإدراك والتعلم والتذكر، واللغة والفكر وغيرها، وليس معنى ذلك أن الفروق الفردية هي مجال الاهتمام الوحيد للشخصية، بل تمثل مجال اهتمام رئيسي لها، ذلك أن علماء نفس الشخصية يهتمون أيضاً بمظاهر الشخص أو قوانينها التي تنطبق على جميع أفراد الجنس البشري، فنحن نشارك جميعاً في كثير من مظاهر الشخصية، مثال ذلك إن القدرة على كف العل تزداد ابتداءً من المراحل الأولى للحياة حتى مراحلها الأخيرة، كما أن الناس جميعاً لديهم وظائف دافعية وتنظيمية تعمل وفق قوانين عامّة معينة، كما يحدث لدينا جميعاً ازدياد في تعقيد العمليات السيكولوجية ابتداء من الولادة حتى النضج»[٢].

وعليه فإنّ الشخصية مجموع الصفات والملامح التي تجعل من الشخص شخصاً متميزاً، وإذا كان جنساً كما في ما نحن بصدده ففيه تمثل المميزات التي يتميز بها مجموع الأفراد عن سواهم من أفراد الأجناس الأخرى، وهذه المميزات سواء كانت مميزات للجسم أو للنفس والتفكير من قبيل الاعتقادات والانفعالات، فإنّها في النتيجة تقرر نوعية السلوكيات التي «تشرح لنا القوة الديناميكية للعادة، عندما ننظر إليها في ارتباطها بتسلسل العادات مع بعضها البعض، وحدة الشخصية والسلوك، أو بطريقة عملية وحدة الإرادة والعمل، ووحدة الدافع والفعل»[٣].

وهذا الترابط بين الشخصية والسلوك هو الذي يشكل مصدر اهتمامنا، وهو الذي أسهبت الروايات في بيان معالمه التفصيلية، بحيث نستطيع أن نقترب في تخيلنا لمعالم شخصية الجان من حالة الرؤية العقلية لهم وهذه المعالم هي كالآتي:

---

(١) راجع كتاب الشخصية: ١٩.
(٢) الشخصية: ٢٠.
(٣) الطبيعة البشرية والسلوك الإنساني: ٦٧.

◎ أصناف الجن:

قد يسود انطباع حول ضرورة وجود تطابق في الشكل أو ما هو أكثر من ذلك إذا اطّلعنا على مجموعة أحياء بأنها صنف، لكن الاستقراء وبالنسبة لأصناف الأحياء يلاحظ أن هناك تفاوتاً كبيراً بين أنواع كل صنف رغم وجود المظاهر المشتركة، فمثلاً هناك في عالم الحشرات تفاوت هائل بين كل نوع ونوع حتى يصل أحياناً إلى اختلاف أنظمة التكاثر عدا عن الاختلاف في الأشكال وأنماط التغذية وهكذا فإن التصنيف يعمد إلى قراءة المظاهر المشتركة وبيان عناصر الاختلاف، فمن المعروف أن «ل. مانوفريا الذي جاء الأول في تصنيف الأفراد بالنسبة إلى مختلف أجزاء الجسم، وفي سنة ١٩١٤ طلع سيغو وماك أوليف بتمايز النماذج التأسيسية الكلاسيكية الأربعة: العضلي، والتنفسي، والهضمي، والدماغي، وأخيراً جاء دور آلية الوراثة»[١]. ولكي نصل إلى نتيجة من هذا النوع فإننا سنتناول الروايات والآيات التي تطرقت إلى هذا الأمر إما مباشرة أو التي يمكن الوصول من خلالها إلى نتائج.

لقد وردت أدلّة كثيرة على أن الجن ليسوا صنفاً واحداً ومنها ما تناول أصل الجن كالحديث الذي أكد أنهم من أصول مختلفة [الريح، النار، الماء]. وقد تعرضنا إلى هذه القضية فيما سبق وهناك أحاديث تعرضت إلى أصنافهم الفعلية ومنها ما يلي:

جاء عن أبي ثعلبة، عن رسول الله ﷺ قال: الجن ثلاثة أصناف: صنف لهم أجنحة يطيرون في الهواء، وصنف حيّات وكلاب، وصنف يحلّون ويظعنون[٢].

وكذلك ما رواه الطبراني أن النبي ﷺ قال: الجنّ ثلاثة أصناف، فصنف لهم أجنحة يطيرون بها في الهواء، وصنف حيّات، وصنف يحلّون ويظعنون، وكذلك رواه الحاكم وقال: صحيح الإسناد.

وروى أبو الدنيا في كتاب مكائد الشيطان من حديث أبي الدرداء أن النبيّ ﷺ قال: الجنّ ثلاثة أصناف:

صنف حيّات وعقارب وخشاش الأرض، وصنف كالريح في الهواء، وصنف عليهم الحساب والعقاب، وخلق الله الإنس ثلاثة أصناف:

صنف كالبهائم لهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها، ولهم أعين لا

---

(١) تاريخ العرقية: ٦٢.

(٢) بحار الأنوار: ج ٦٠/ ١١٤.

يبصرون بها، وصنف أجسادهم أجساد بني آدم وأرواحهم أرواح الشياطين، وصنف كالملائكة في ظل الله يوم لا ظل إلا ظله(١).

ففي الحديث جاء أن الجنّ ثلاثة أصناف أولهم:

صنف له أجنحة ولم يبين ما إذا كانت هذه الأجنحة هي أدوات للطيران أم لا؟ وعلى الأول فإن هذا الصنف وحده قادر على الطيران.

أما الصنف الثاني: فهو صنف الحيّات والكلاب ولم يبين ما إذا كان هذا الصنف له شكل الحيّات والكلاب أمّ أنه غالباً ما يظهر بمظهر الحيّات والكلاب.

والصنف الثالث: لم يتطرق إلى شكل هؤلاء الرحّل وإننا نعرض لوصف نمط حياتهم وهو نمط قائم على الترحل والتنقل وعدم الاستقرار. ولذلك يفهم منه أن بقية الأصناف ذات حياة مستقرة وأنهم يتواجدون في أماكن محددة بينما هذا النوع لا يستقر في مكان دائم التنقل.

ومن جهة ثانية فإن اتصافهم بالترحال لا علاقة له بكونهم صنف مختلف عن الآخرين، إذ يمكن أن يكون الترحل من أوصاف ذوي الأجنحة أو الحيّات والكلاب، إلا إذا قلنا أن هؤلاء الرجال ذوي أبدان وصفات مغايرة للآخرين، إلا أن الحديث لم يحاول التطرق إلى الأوصاف الأخرى أي أنهم صنف واحد مختلف في البنية والصفات، ومن معالمهم الترحل.

وهناك أيضاً ملاحظة بالنسبة للطيران فمعروف أن جميع الجن قادرون على التنقل بطريقة سريعة لكونهم أجسام لطيفة، ولكن الاتصاف بوجود الأجنحة فإنه صفة للبدن ولا علاقة له بالطيران أو عدمه فهناك من له جناح ومن ليس له جناح.

أما بالنسبة للكلاب والحيّات فإذا كان لها هذا المظهر وهو الدائم فإنها إذن استحالت ومسخت إلى هذا الشكل الجديد، وأما إذا كان شكلاً مؤقتاً وأنهم غالباً ما يكونون ظاهرين من خلاله فإنه سيكون تعبيراً عن قدرة هذا الصنف على التحول، وهو ما يميزهم عن سواهم ذلك أن سواهم إما أن يكونوا غير قادرين على التحول أصلاً أو أنهم قادرون ولكن تحولهم إلى أشكال أخرى سوى الكلاب والحيّات.

إما بالنسبة للجزء الذي أكد أن الجن ثلاثة أصناف حيات وعقارب وخشاش

---

(١) بحار الأنوار: ج ٦٠/ ٢٩١-٢٩٢.

الأرض، وصنف كالريح في الهواء، وصنف عليه الحساب والعقاب فإنه أيضاً تصنيف متداخل كالسابق ولا يقدم ضابطة دقيقة لتميز كل صنف عن سواه، وهو يؤكد أن الحشرات والحيّات هو أحد الأصناف، وهو بالنسبة للحيّات يؤكد ما جاء في الحديث السابق لكنه استبدل الكلاب بالخشاش والعقارب وكرر معنى الطيران بالنسبة للصنف الثاني ولم يشر إليه صراحة. ولكن بالنسبة للصنف الثالث (عليهم الحساب والعقاب) فهو إن اعتبر ضابطة فإن الصنفين سيكونان مما لا عليهم الحساب والعقاب مع أننا نعلم أن الجن مكلفون جميعاً.

ومن جهة أخرى فإن وصف الجن بالحيوانات يلغي أصلاً كونهم جن ذلك أن معنى الجن هو الخفاء والغياب، وأن سبيلهم للاتصال بالإنسان هو الوسوسة والاغواء وبهدف اضلال أكبر عدد منهم، ولهذا فإن هؤلاء إما خارج دائرة البحث أو أنهم تعرضوا لحالة من التغير والتحول وهو يحتاج إلى دليل. وقد ورد أيضاً الآتي:

جاء عن أبي عبد الله عليه السلام قال: الجنّ على ثلاثة أجزاء: فجزء مع الملائكة وجزء يطيرون في الهواء، وجزء كلاب وحيّات. الخبر[1].

وهو كما يبدو شبهه بما مرّ سابقاً وهو مؤسسة على ضابطة اختلاف بنية الحيّات، فجزء مع الملائكة وهذا يفيد أن هؤلاء استمروا على الطاعة ولم يكفروا مع إبليس، وبالتالي يخرجون عن دائرة الاشتراك مع البشر في التكليف والحياة الأرضية، وهذا لا يوجد ما يؤيده فهو يضاد كل البناء والتصورات المستفادة من جميع ما ورد حول الجن مع أنه لا توجد استحالة من مرضه، أما الجزئين الآخرين فهما مكررات وفيهما ما أوردناه.

ونقل المصنف عن أهل الخلاف ما يلي:

قال الدميري: الغول واحد الغيلان وهو جنس من الجنّ والشياطين وهم سحرتهم، وقال الجوهري: هو من السعالي والجمع أغوال وغيلان وكل من اغتال الإنسان فأهلكه فهو غول، والتغوّل: التلوّن[2].

فما يستفاد من هذا القول أن الشياطين أجناس بينهم جنس الغيلان وهو نوع الجان الذي يتلون لاهلاك الإنسان، وكما نقل أيضاً أنه السعالي بينما هناك من يذهب إلى أن

---

(١) بحار الأنوار: ج ٦٠/ ٧٨.

(٢) بحار الأنوار: ج ٦٠/ ٣١٥.

السعالي هي جنس من الجان ولا علاقة له بالغيلان، وعلى هذا القول فإن هناك أجناس لها القدرة على التلون دون سواها أو أنّها الأكثر ممارسة لهذا الأمر.

ونسب إلى الرسول ﷺ حديث يؤكد وجودها وهو الآتي:

فقد روى الطبراني أن النبي ﷺ قال: إذا تغوّلت لكم الغيلان فنادوا بالآذان، فإنّ الشيطان إذا سمع النداء أدبر وله حصاص أي ضراط.

قال النووي في الأذكار: إنه حديث صحيح أرشد ﷺ إلى دفع ضررها بذكر الله.

ورواه النسائي في آخر سننه الكبرى، عن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ قال: عليكم بالدلجة فإن الأرض تطوى بالليل، فإذا تغولّت لكم الغيلان فنادوا بالآذان.

قال النووي: وكذلك ينبغي أن يؤذّن آذان الصلاة إذا عرض للإنسان شيطان، لما روى مسلم عن سهل بن أبي صالح أنه قال: أرسلني أبي إلى بني حارثة ومعي غلام لنا، أو صاحب لنا، فناداه مناد من حائط باسمه فأشرف الذي معي على الحائط فلم ير شيئاً فذكرت ذلك لأبي فقال: لو شعرت أنك تلقى هذا لم أرسلك، ولكن إذا سمعت صوتاً فناد بالصلاة، فإني سمعت أبا هريرة يحدّث عن رسول الله ﷺ أنه قال: إن الشيطان إذا نودي بالصلاة أدبر(١).

ففي الحديث الأول إشارة إلى أن الغول هي من شياطين الجن، وهو يتطابق مع الحديث الثاني في المضمون، بينما يكون الحديث الثالث عاماً ولا يختص بجنس الغول.

وروى مسلم عن جابر أن النبي ﷺ قال: لا عدوى ولا طيرة ولا غول.

قال جمهور العلماء: كانت العرب تزعم أن الغيلان في الفلوات وهي جنس من الشياطين تتراءى للناس وتتغوّل تغوّلا، أي تتلوّن تلوّناً، فتضلّهم عن الطريق وتهلكهم، فأبطل النبي ﷺ ذلك، وقال آخرون: ليس المراد بالحديث نفي وجود الغول، وإنما معناه إبطال ما تزعم العرب من تلوّن الغول بالصور المختلفة، قالوا: ومعنى لا غول، أي لا تستطيع أن تضل أحداً. ويشهد له حديث آخر(٢).

وفي هذا الحديث إنكار لتلون الغيلان وإنها مثلها مثل الطيرة ترتبط بنوع من المخاوف التي تصدر عن الإنسان نفسه غير أن هذا التلون نسب إلى سحرة الجن كما يلي: «لا غول ولكن السعالي».

---

(١) بجار الأنوار: ج ٦٠/ ٣١٥.

(٢) بحار الأنوار: ج ٦٠/ ٣١٥.

قال العلماء: السعالي بالسين المفتوحة والعين المهملة من سحرة الجن، ومنه ما روى الترمذي والحاكم عن أبي أيوب أنه قال: كانت لي سهوة فيها تمر، فكانت تجيىء الغول كهيئة النسور فتأخذ منه، فشكونا ذلك إلى النبي ﷺ فقال: اذهب فإذا رأيتها فقل: بسم الله أجيبي رسول الله، فأخذتها فحلفت أن لا أعود، فأرسلها ثم جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: ما فعل أسيرك؟

قال: حلفت أن لا تعود، قال ﷺ: كذبت وهي معاودة للكذب فأخذها وقال: ما أنا بتاركك حتى أذهب بك إلى رسول الله ﷺ، فقالت: إنّي ذاكرة لك شيئاً، آية الكرسي اقرأها في بيتك فلا يقربك شيطان ولا غيره، فجاء إلى رسول الله ﷺ فقال: ما فعل أسيرك؟ فأخبره بما قال، قال ﷺ: صدقك وهو كذوب.

قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، وهذا روى مثله البخاري عن أبي هريرة وفي آخره: تعلم من تخاطب منذ ثلاث ليال يا أبا هريرة؟ قال: لا، قال ﷺ: ذاك الشيطان[١].

فالسحلية هي من سحرة الجن وكون الجن ساحراً هو الذي جعل هذا الإسم يختص به، أم أنه في الأصل فرد من جنس متميز قادر على الاتيان بالسحر لكونه مثلاً ذا ذكاء متميز أو أي شيء آخر، فبالمعنى الذي عرفناه عن السحر لا يوجب أن يؤدي جنس معين إلا إذا قلنا أن هذا الجنس هم يحتكرون هذا الفن ولا يعلمونه إلا لأبناء جنسهم وإذا كان السحر كما في الآية:

قال تعالى: ﴿قَالَ أَلْقُوا۟ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾[٢].

قال الرازي في قوله تعالى: ﴿سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾: احتجّ بهذه الآية القائلون بأن السحر محض التمويه:

وقال القاضي: لو كان السحر حقاً لكانوا قد سحروا قلوبهم لا أعينهم، فثبت أن المراد أنهم تخيّلوا أحوالاً عجيبة مع أن الأمر في الحقيقة ما كان على ما وفق ما تخيّلوه[٣].

---

(١) بحار الأنوار: ج ٦٠/٣١٦.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١١٦.
(٣) بحار الأنوار: ج ٦٠/٤٩.

وإذا أضفنا إلى ذلك ما مرّ في قصة هاروت وماروت من الإشارة إلى تعليم الشياطين الناس السحر صار الاحتمال وارداً إذ أن أصل السحر هو صناعة شياطين. وهذا بحسب الآية سيكون القدر المتيقن ويبقى أن (علم السحر) خاص بطبقة خاصة من شياطين الجن أم أنه خاص بصنف هذا الحديث يحمل هذه الإشارة إلا أنها غير كافية للقطع بهذا الأمر.

ومن خلال تعدد الوصف يمكن لنا أن نفهم تعدد الأصناف والأجناس لكن لا ينطوي على وصف كامل بحيث نستطيع أن نكون صورة كاملة للجنس وقد ورد هذا الأمر فيما يلي:

وروى الحاكم وابن حبّان، عن أبي بن كعب أنه كان له جرين تمر وكان يجده ينقص فحرسه ليلة فإذا هو بمثل الغلام المحتلم قال: فسلّمت فردّ عليّ السلام، فقلت: ما أنت ناولني يدك، فإذا يد كلب وشعر كلب، فقلت: أجني، أم أنسيّ؟ فقال: بل جنيّ، قلت: إنّي أراك ضئيل الخلقة، أهكذا خلق الجنّ؟

قال: لقد علمت الجنّ أن ما فيهم أشدّ منّي فقلت: ما يحملك على ما صنعت؟

قال: بلغني أنك رجل تحب الصدقة فأحببت أن أصيب من طعامك، فقلت: فما يجيرنا منكم؟

قال: تقرأ آية الكرسي فإنّك إن قرأتها غدوة أجرت منّا حتى تمسي، وإن قرأتها حين تمسي أجرت منا حتى تصبح، قال: فغدوت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأخبرته فقال: صدق الخبيث[1].

فهنا الملفت للنظر هو أن هذا الجني عندما كان يسرق كان متخذاً شكل آدمي وأنه على غير العادة اتخذ وضع الظهور بدلاً عن وضع الغياب، وهنا لا بدّ من التساؤل حول مبررات هذا الظهور وخصوصاً في حال كحال السرقة، إذ أن الأولى الاستفادة من حالة الغياب لكي تنجح السرقة ولا يلقى القبض على السارق.

ثم أن الجني السارق يشبه الغلام الحدث أي أنه غير ضخم الجثة، وهذا يخالف وصف ورد بأن الجان هم طوال القامة وقامة أحدهم كقامة نخل. ويمكن حمل هذا على أن كل وصف يخص جنس معين ثم أنه لا يختلف عن الإنس إلا بكون يده لها حال

---

(١) بحار الأنوار: ج ٦٠/ ٣١٦-٣١٧.

كحال يد الكلب وله شعر كشعر الكلب، وهذا يذكرنا بوصف ورد حول أن بعض أجناس الجان هم كلاب، وهنا أيضاً يوجد فرق بين كون الجني كلب كامل وبين يديه فقط يد كلب ودون الإشارة إلى أقدامه مثلاً أو بقية معالم جسده. وما مرّ طبعاً هو وصف للغول التي «تزعم العرب أنه إذا انفرد الرجل في الصحراء ظهرت له في خلقة إنسان فلا يزال يتبعها حتى تضلّه عن الطريق وتدنو له وتتمثّل له في صور مختلفة فتهلكه روعاً، وقالوا: إذا أرادت أن تضلّ إنساناً أوقدت له ناراً فيقصدها فيفعل ذلك، قالوا: وخلقتها خلقة إنسان ورجلاها رجلا حمار».

وقال القزويني: ورأى الغول جماعة من الصحابة منهم عمر حين سافر إلى الشام قبل الإسلام فضربها بالسيف، وذكر عن ثابت بن جابر الفهري أنه رأى الغول، وذكر أبياته النونيّة في ذلك.

وقال الدميري أيضاً: قطرب: طائر يجول الليل كلّه لا ينام، وقال ابن سيدة: إنه الذكر من السعالي، وقيل: هم صغار الجنّ، وقيل: القطارب: صغائر الكلاب واحدها قطرب: دويبة لا تستريح نهارها سعياً، وقال محمد بن ظفر: القطرب حيوان يكون بالصعيد في أرض مصر يظهر للمنفرد من الناس، فربما صدّه عن نفسه إذا كان شجاعاً وإلا لم ينته حتى ينكحه، فإذا نكحه هلك، وهم إذا رأوا من ظهر له القطرب قالوا: أمنكوح أم مروع، فإن قال: منكوح يئسوا منه، وإن قال: مروع عالجوه، قال: وقد رأيت أهل مصر يلهجون بذكره.

ولنبيّن بعض ما ربما يحتاج إلى البيان: الحشاش مثلثة: حشرات الأرض، وفي النهاية: مستطير أي منتشر، متفرّق كأنه طائر في نواحيها، ومنه حديث ابن مسعود فقدنا رسول الله ليلة فقلنا: اغتيل استطير أي ذهب به بسرعة، كأنّ الطير حملته أو اغتاله أحد، والاستطارة والتطاير: التفرّق والذهاب، والاغتيال: أن يخدع فيقتل في موضع لا يراه فيه أحد، قوله: أو (فرما كان)، قال الآبي: الأظهر أنه مما يبقى عليه بعد الأكل، ويحتمل أنه تعالى يخلق ذلك عليها، والنّظر في أنه هل يستحب أن لا يستقصى العظام بتقشير ما عليها وهل يثاب مثله له، والأظهر أن انتفاعهم إنّما هو بالشم لأنه لا يبقى عليه ما يقولون إلا أن يكونوا في القوت بخلاف الإنس انتهى»[1].

وهنا نلاحظ الاتفاق حول التلون والايذاء والاضلال والترويع، أما الوصف فيبقى

---

(١) بحار الأنوار: ج ٦٠/ ٣١٧-٣١٨.

وصف انسان ولكن الأرجل مختلفة لأنها أرجل حمار، وفي ما مضى ورد وصف الأيدي فقط وكانت أيدي كلب، فهل يمكن أن نجمع فنقول أن الهيكل هيكل إنسان والأيدي أيدي كلب والأرجل أرجل حمار؟ طبعاً لا يوجد ما يوجب هذا الجمع؛ لأن بدونه لا بد لنا من افتراض أن كل منهما جنس برأسه وهو أيضاً لا مؤيد له؛ لأن ما ورد كان بصدد وصف حالة خاصة وليس بصدد بيان وصف لجنس معين، كما أنه لا ينطوي حتى على وصف كامل لفرد لنفهم أنه نموذج لجنس من أجناس الجن.

ثمّة أنه يدل على أن ضرب الجن بالسيف يؤدي إلى قتله، مثله مثل أي إنسان من لحم ودم وأغرب ما فيه ذكر (القطرب) وهو طائر يجول الليل كله لا ينام، وإنّه ربّما كان ذكر من السعالي أو أنه من صغار الجن، وربما هو من صغار الكلاب. وذهب البعض إلى أنه حيوان يظهر للمنفرد من الناس، وربما هذا الإنسان شجاعاً فيدفعه وإلا فإنه ينكحه فيموت بسبب ذلك ولا يوجد توضيح لسبب الوفاة. وكذلك لماذا هو موجود في صعيد مصر خاصة مع العلم أن كل الحيوانات صارت معروفة في هذا الزمن ولم يرد ذكر لهذا النوع من الحيوانات!! وإذا كان حيواناً فإنّه لا موجب لعدّه من الجان إلا إذا قلنا أنه من الجان ولكنه دائم الظهور بهذه الصورة.

كما ورد أيضاً: في النهاية في صفة الجنّ: فإذا نحن برجال طوال كأنّهم الرماح مستثفرين ثيابهم، هو أن يدخل الرجل ثوبه بين رجليه كما يفعل الكلب بذنبه.

وقال: العرج بفتح العين وسكون الراء: قرية جامعة من أعمال الفرع على أيّام من المدينة، وقال: اللغط: صوت وضجّة لا يفهم معناه، وقال: الجلس: كلّ مرتفع من الأرض.

والغور: ما انخفض من الأرض. وقال: فيه ذكر عكاظ وهي موضع بقرب مكة كانت تقام به في الجاهلية سوق يقيمون فيها أياماً.

وقال: في حديث عمر أنه سأل رجلاً استهوته الجنّ فقال: ما كان طعامهم؟ قال: الفول وما لم يذكر اسم الله عليه، قال: فما كان شرابهم؟ قال: الجذف.

الفول هو الباقلي والجذف بالتحريك: نبات يكون باليمن لا يحتاج آكله معه إلى شرب ماء، وقيل: هو كلّ ما لا يغطّى من الشراب وغيره قال القتيبيّ: أصله من الجدف: القطع، أراد ما يرمى به عن الشراب من زبد أو رغوة أو قذى كأنه قطع من الشراب فرمي به، هكذا حكاه الهروي عنّه، والذي جاء في صحاح الجوهريّ: أن

القطع هو الجذف بالذال المعجمة، ولم يذكره في الدال المهملة، وأثبته الأزهري فيهما.

وقال: تفلّت عليّ أي تعرض في صلاتي فجأة، وقال في ذعت؛ فأمكنني الله منه فذعته أي خنقته، والذعت والدعت بالذال والدال: الدفع العنيف، والذعت أيضاً: المعك في التراب.

وقال: وفيه ما من آدمي إلا ومعه شيطان، قيل: ومعك؟ قال: نعم ولكنّ الله أعانني عليه فأسلم.

وفي رواية: حتى أسلم أي انقاد وكفّ عن وسوستي، وقيل: دخل في الإسلام فسلمت من شرّه، وقيل: إنّما هو فأسلم بضم الميم على أنه فعل مستقبل أي أسلم أنا منه ومن شرّه، ويشهد للأول الحديث الآخر: كان شيطان آدم كافراً وكان شيطاني مسلماً انتهى[1].

وهكذا فإن ما مرّ تكرار لوصف صغر أبدان الجان بحيث أن الموصوف هو أعظمهم خلقة وبالطبع أن البقية هم أصغر منه في البنية.

وهذه التصورات عن الجن والتي نقلها عن كتب أهل الخلاف لا يعتمدها صاحب بحار الأنوار ونحن أوردناها تبعاً له وللاطلاع عليها. فهنا جملة أوصاف أحدها الطول في القامة وهو مما يلفت النظر للتشبيه بالرمح، ثم العودة إلى استحضار شيء من أوصاف الكلاب ولو كانت في طريقة لم الثياب وهو ما يبدو بعيداً عن التشبيهات السابقة بالكلب، ثم يأتي وصف لطعام الجن وهو «الفول» ولا يذكر هل هو الطعام الوحيد الذي تتغذى به هذه الفئة أم هو عام لجميع فئاتهم وأصنافهم؟ وكذلك بالنسبة للاستفادة من هذا النبات الذي يعوض عن شرب الماء فهل تم اللجوء إليه بدلاً عن الماء لعدم توفر الماء.

ثم هناك مواجهة لإشكال حول طبيعة التغذية عند الجن فهل هي مطابقة لنظام تغذية البشر، أم أن هذا الغذاء والماء حالة ثانوية بالنسبة للجن؟

ونلاحظ أيضاً الإشارة إلى صوت الجن وهو شبيه بالجرس، وهو يعني أن الحنجرة التي تخرج الصوت تختلف عن حنجرة البشر، ولعلنا نستطيع تخيل أن نبرات الصوت

---

(١) بحار الأنوار: ج ٦٠/ ٣١٨-٣٢٠.

ترتفع وتهبط بصورة ذبذبات وأن هذه النبرات عالية، وأن وصفها بالجرس جرياً على تشبيه الصوت العالي بالجرس بل أن له آثار خاصة على الإنسان كما ينقل الحديث التالي:

جاء عن محمد بن حجرش قال: حدثتني حكيمة بنت موسى عليه السلام قالت: رأيت الرضا عليه السلام واقفاً على باب بيت الحطب وهو يناجي، ولست أرى أحداً.

فقلت: يا سيّدي لمن تناجي؟

فقال: هذا عامر الزهرائي، أتاني يسألني ويشكو إليّ.

فقلت: يا سيدي أحبّ أن أسمع كلامه، فقال لي: إنك إن سمعت كلامه حممت سنة.

فقلت: يا سيدي أحب أن أسمعه، فقال لي: اسمعي فاستمعت فسمعت شبه الصفير وركبتني الحمّى فحممت سنة[1].

لا يوجد حديث يؤكد على وجه الدقة كون جميع الجن هم ذوو خلقة موحدة، وعلى العكس من ذلك توجد روايات أكدت أنهم مثل الملائكة تتفاوت أشكالهم وأحجامهم تفاوتاً هائلاً كما مرّ في البحث السابق، كما أنهم ليسوا كالبشر متحدين من حيث الشكل والوصف العام، ويختلفون في بعض الملامح من حيث لون البشرة، وشكل الشعر، وفي لون العيون.

الأحاديث توحي أن الجن يشكلون حالة وسط بين عالم الملائكة وعالم الإنسان، فلا هم بنفس الكيفية من التفاوت مثل الملائكة، ولا هم بنفس الإتساق الذي يوجد في عالم الإنس مع إننا سنجد حالة من عدم الاتساق في أوصافهم تؤكدها روايات كثيرة.

وفي النهاية ينفي هذه التصورات المستنتجة والتي مجرد محتملات وظنون لا أكثر، كما أن الآيات اكدت أن الجان أمم لكنها لم تشر إلى الأصناف، لذا سيصار في بيان ذلك بالاعتماد على الأحاديث التي أشارت إلى أنهم ثلاثة، فقد تفاوتت أوصاف هذه الأصناف الثلاثة حتى أننا لا نستطيع التوصل إلى ضوابط دقيقة تميز كل صنف عن الصنف الآخر، لأن الأحاديث ليست بصدد البحث في الجانب العلمي وبيان المميزات بل هي غالباً تكون في معرض بيان بعض الملامح ربما اجابة عن سؤال أو ترسيخاً للتصورات الأخرى المتعلقة بالجانب الاعتقادي.

(١) لعلّ لخصوص المتكلّم أو السامع صنفاً أو شخصاً مدخلاً في الحمّى

وإذا أردنا أن نضع تصنيفاً علمياً للجان فلا بد أن نضع ضابطة معينة ويحسب اختلافها نميز كل صنف عن الأصناف الأخرى، فلو اتخذنا من أدوات الحركة في الجان كالأجنحة مثلاً معياراً لتحديد الأصناف، فإننا عندئذ نقول الجان عديمي الأجنحة والجان أحاديي الأجنحة أو رباعيي أو أي شيء آخر على هذا الغرار لكن الأحاديث لا تساعد على اعتماد أي ضابطة كأساس لعملية التصنيف.

وعلى هذا يمكن فقط من خلال التخمين الاشارة إلى وجود أصناف ولا يمكن تحديد عددها إلا بناءً على الأحاديث التي أشارت إلى أنها ثلاثة في أقل الفروض، وربما أمكن أن يكون عددها أكثر من ذلك وفي النهاية لا بدّ من ابقاء هذه الفرضية مفتوحة.

ثم أن كونهم أجناس لا يوجد من يجادل فيه غير أن طبيعة هذه الأجناس هي المثيرة للجدل لشدة اختلاف الأوصاف الواردة عنها، فقد جاء أن بعضهم ريح لا يأكلون ولا يشربون ولا يموتون في الدنيا ولا يتوالدون، وهناك أجناس أخرى يأكلون ويشربون ويتناكحون وهم الغيلان والقطارب والسعالي.

إلا أنه سيبدو صعباً تصور نمطين للحياة في جنس واحد من الأحياء إذ كيف يتصور أن يكون للحيوان نمطين؟ فبعض الحيوانات مثلاً تتكاثر وبعضها لا يتكاثر مع العلم بأنه من الضروري لأي جنس من الأحياء وجود حد مشترك في البنية والغرائز، وإلى جانب هذا فإن ظواهر الآيات لا تؤيد وجود هذا الصنف من الجان، فكونهم أمماً بصريح القرآن يقتضي وجود الموت والحياة، ثم أن عدم التوالد يقتضي تعدد الأصل فإذا كان أصل هؤلاء لا يتوالد فمن أين خلق هؤلاء؟ فلا بد أن يكونوا مخلوقين كخلق إبليس أي من غير رحم وهذا لا مؤيد له، إذ أن الاجماع قائم على وجود أصل واحد لجميع الجن إما إبليس أو الجان، ثم أن الجميع توالدوا عن هذا الأصل وإن كان هناك أصول عدة اقتضى التنويه ولا توجد إشارة إلى هذا الأمر.

كما أنه من جهة أخرى لا بد من وجود إطار ما يسمح بوحدة الجماعة في مقابل وحدة الجماعات الأخرى، فيفضي إلى خلق ظروف تسمح للجماعة بأن تكون حيزاً داخلياً يعطي شعوراً بالحرية مع الفعالية، وتضمن بقاء التبادل داخل الجماعة وزمانية خاصة (تشتمل على ماضٍ تشد منه أصلها، ومستقبلها حيث تنوي تحقيق أهداف).

ويكون الغلاف الجماعي، إذا اكتفى باللحمة والسدى، نسقاً من القوانين يعمل مثلاً

في كل منتدى ديني أو نفسي - اجتماعي - ومن هذا المنطلق تؤخذ حياة كل جماعة في لحمة رمزية، تجعلها تدوم، غير أن هذا ليس إلا شرطاً ضرورياً ولكنّه ليس بكاف، وهكذا تستطيع جماعة ماتت حياتها النفسية أن تصمد، وقد ضاعت اللحمة الحيّة من غلافها ولم يبق سوى النسيج»(١).

فالجماعة تفرز من خلال آليات كثيرة ومعروفة تأثيرها القوي على الأفراد وربما كان التأثير سلبياً أو إيجابياً، لأنها تفرض عليهم نوع من التناسق والقبول ينزع رداء الفردية لصالح الانتماء، وهذا ما يجب ملاحظته في جماعات الجن وأخبارهم من خلال وحدة البناء والتركيب بين الإنس والجن ولو مع اختلاف في بعض الملامح، ولذلك نستطيع استنتاج ضعف فرضية تنوع أنماط الحياة في عالم الجن، أما بالنسبة لكونهم أمم فقد جاء ما يلي:

قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾(٢).

وقال في قوله تعالى: ﴿وَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾ أي كلمة العذاب ﴿فِيٓ أُمَمٖ﴾ أي مع أمم ﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ﴾(٣) على مثل حالهم واعتقادهم.

قال قتادة: قال الحسن: الجن لا يموتون، فقلت: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ﴾ الآية تدلّ على خلافه(٤).

ويمكن أن يكون معنى أمم جماعات أو أجيال وهذا طبعاً يمكن أن ينطبق على كونهم أمم كأمم البشر وبالتالي فإنه يقوى إذ جمعنا إليه الآيات والأحاديث القائلة بوجود الذرية والقبيل بالإضافة إلى ما يؤكده مفهوم التماثل بين الجن والإنس في أغلب معالم الوجود.

فالتواجد في ظل جماعة يعطي الأفراد طابعاً خاصاً ذلك: «أن الجماعة غلاف يضبط الأفراد معاً ومن الممكن أن نجد - طالما هذا الغلاف غير متشكل تراكماً بشرياً وليس جماعة». فما هي طبيعة هذا الغلاف؟ يشدد علماء الاجتماع والاداريون الذين أسسوها والمؤسسون الذين خلقوها على شبكة القوانين الضمنية، والظاهرة، والعادات المتبعة والطقوس، والأفعال والوقائع والتي تملك قيمة مرجعية، وعلى تخصيص

(١) راجع كتاب الجماعة واللا وعي: ٥.
(٢) سورة الأحقاف، الآية: ١٨.
(٣) سورة فصلت، الآية: ٢٥.
(٤) بحار الأنوار: ج ٦٠/ ٥٥.

الأماكن داخل الجماعة وعلى خصوصية اللغة المتبادلة هذه الشبكة، التي تحصر الأفكار والكلام والأفعال، تسمح للجماعة بأن تكون حيزاً داخلياً يعطي شعوراً بالحرية مع الفاعلية وتضمن:

◎ الهيكل والمظهر:

«قوله تعالى: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾[1].

والشياطين العصاة من الجنّ وهم ولد إبليس، والمردة اعتاهم وأغواهم وهم أعوان إبليس ينفذون بين يديه في الاغواء كأعوان الشياطين.

قال الجوهري: كل عاتٍ متمرد من الجنّ والإنس والدواب شيطان.

قال جرير:

[البحر البسيط التام]

أيامَ يدعونني الشيطانَ من غزلٍ وهنّ يهوينني إذ كنتُ شيطانا

والعرب تسمّي الحية شيطاناً قال يصف ناقته:

[البحر الطويل]

تلاعبَ مثنى حضرميٍّ كأنّه تعمجَ شيطانٌ بذي خروعٍ قفرِ

وقوله تعالى: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ قال الفراء: فيه ثلاثة أوجه:

أحدها: أن يشبه طلعها في قبحه برؤوس الشياطين لأنها موصوفة بالقبح.

والثاني: أن العرب تسمي به بعض الحيّات، والشيطان نونه أصلية قال أمية:

[البحر الخفيف]

أيـمّا شاطنٍ عصاهُ عكاهُ ثم يُلقى في السجنِ والاغلالِ

ويقال أيضاً: أنها زائد فإن جعلته فيعالاً من قولهم: شيطن الرجل صرفته وإن جعلته من تشيطن لم تصرفه لأنه فعلان.

وقال: أبو البقاء: الشيطان فيعال من شطن يشطن إذا بعد، ويقال فيه شاطن وتشيطن، وسمي بذلك كل متمرد لبعد غوره في الشر، وقيل: هو فعلان من شاط يشيط إذا هلك، فالمتمرد هالك بتمرده ويجوز أن يكون سمي بفعلان لمبالغته في اهلاك غيره.

---

(١) سورة الصافات، الآية: ٦٥.

وقال القاضي أبو يعلى: الشياطين مردة الجن وأشرارهم، وكذلك يقال في الشرير: مارد، وشيطان من الشياطين، وقد قال تعالى: ﴿شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾[١].

وقال الجوهري: شطن عنه بعد، واشطنه أبعده، وقال ابن السكّيت: شطنه يشطنه شطناً إذا خالف عن نيّة وجهه، وبئر شطون بعيدة القعر، ونوى شطون بعيد»[٢].

قال تعالى: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾.

قال البيضاوي: «**طلعها**» أي حملها: مستعار من طلع الثمر لمشاركته إيّاه في الشكل أو لطلوعه من الشجر «**كأنها رؤوس الشياطين**» في تناهي القبح والهول وهو تشبيه بالمتخيّل كتشبيه الفائق في الحسن بالملك، وقيل: الشياطين حيّات هائلة قبيحة المنظر لها أعراف، ولعلّها سميّت بها لذلك[٣].

وفي هذا التفسير إشارة إلى أن للشياطين صورة قبيحة دون تحديد لمعالم القبح وبالتالي فإنها تترك للخيال تصوّر معالم القبح هذه.

أمّا بالنسبة للآية التالية:

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾[٤] فإنها تفيد أن الجان يهتزون بطريقة تؤدي إلى إصابة الرائي بالذعر، وهذا الأمر يبدو أحد الأوصاف التي قد تنطبق على الجن بناءً على كون الجان هو غير الجن وإنّهم جنس يضم الجن وعلى هذا الأساس ربما كان هذا الوصف جامعاً لجميع الجان، وبذلك نفترض أن الجنّ يهتزون وقد يكون هذا الاهتزاز صفة ملازمة لهم في جميع أحوالهم.

لكنّ ذلك يبقى لغزاً فكيف يكون الكائن الحي مهتزاً، وهل هذا الاهتزاز يشمل جميع أوصاله؟ بحيث أن الجسم يتردد بين نقطتين وبالتالي فإن نقطة ارتكازه ليست هي مركز واحد بل هي عبارة عن التردد بين مركزين، وهكذا فإن هاتين الآيتين حددتا معلمين من معالم شخصية الجن:

الأول: هو القبح الممعن في القبح ولسنا ندري هل أن هذا الوصف خاص بشياطين الجن أم شياطين الجن والإنس ويكون طبعاً وصفاً لحالهم في الآخرة وبعد الدخول في

(١) سورة الصافات، الآية: ٧.
(٢) غرائب وعجائب الجن كما يصورها القرآن والسّنة: ٢٤.
(٣) بحار الأنوار: ج ٦٠/ ١٩٠.
(٤) سورة النمل، الآية: ١٠، سورة القصص، الآية: ٣١.

النار؟ وثم إنه يتضمن أن يكون وصفاً لبعض الجان بناءً على أن الشياطين هم من ذرية إبليس وبالتالي فإنه يشمل بقية أفراد الجن.

غير أن هذا الوصف يمكن أن يكون وصفاً عاماً لجميع الجن، لأن الكفر والإيمان لا يغير من البنية والشكل والصورة، فتكون النتيجة أن القرآن أكد بشاعة خلقة الجن من وجهة النظر ومعايير الإنسان الجمالية.

أما الوصف الثاني: فهو الاهتزاز وهو شكل مرعب من أشكال الاهتزاز إذ أنه دفع الإنسان وهو في العادة يكون من أهل رباطة الجأش والشجاعة إلى الهرب، ولعل السبب هو المفاجأة وقد يكون نفس الاهتزاز باعثاً على الخوف.

ومن هنا فإن أبرز أوصاف الجن التي ذكرها القرآن هي أوصاف مخيفة وهي الاهتزاز والشكل البشع، أما بالنسبة للأوصاف الأخرى، فقد جاء ما يلي:

◎ وصف عام وخاص:

● الإرشاد للمفيد، وأعلام الورى: جاء في الآثار عن ابن عبّاس قال: لمّا خرج النبي ﷺ إلى بني المصطلق جنب عن الطريق وأدركه الليل فنزل بقرب وادٍ وعرٍ[(١)]، فلمّا كان آخر الليل هبط عليه جبرئيل يخبره أنّ طائفة من كفّار الجنّ قد استبطنوا الوادي يريدون كيده ﷺ وإيقاع الشرّ بأصحابه عند سلوكهم إيّاه.

فدعا أمير المؤمنين ﷺ وقال له: اذهب إلى هذا الوادي فيسعرض لك من أعداء الله الجنّ من يريدك فادفعه بالقوّة الّتي أعطاك الله عزّ وجلّ إيّاها وتحصّن منهم بأسماء الله الّتي خصّك بعلمها، وأنفذ معه مائة رجل من أخلاط الناس، وقال لهم: كونوا معه وامتثلوا أمره، فتوجّه أمير المؤمنين ﷺ إلى الوادي، فلمّا قرب شفيره أمر المائة الّذين صحبوه أن يقفوا بقرب الشفير ولا يحدثوا شيئاً حتّى يأذن لهم.

ثمّ تقدّم فوقف على شفير الوادي، وتعوّذ بالله من أعدائه وسمّى الله تعالى بأحسن أسمائه وأومأ إلى القوم الّذين اتّبعوه أن يقربوا منه، فقربوا وكان بينه وبينهم فرجة مسافتها غلوة[(٢)]، ثمّ رام الهبوط إلى الوادي فاعترضت ريح عاصف كاد القوم يقعون على وجوههم لشدّتها ولم تثبت أقدامهم على الأرض من هول الخصم ومن هول ما

---

(١) الوعر: الصعب وزنا ومعنى.

(٢) الغلوة: رمية سهم أبعد ما تقدر عليه.

لحقهم فصاح أمير المؤمنين عليه السلام : أنا عليّ بن أبي طالب بن عبد المطّلب وصيّ رسول الله وابن عمّه، اثبتوا إن شئتم.

وظهر القوم أشخاصاً على صور لازطّ يخيّل في أيديهم شعل النار قد اطمأنوا يجنبات الوادي فتوغّل[١] أمير المؤمنين عليه السلام بطن الوادي وهو يتلو القرآن ويومىء بسيفه يميناً وشمالاً، فما لبث الأشخاص حتّى صارت كالدخان الأسود، وكبّر أمير المؤمنين عليه السلام ثمّ صعد من حيث انهبط، فقام مع الّذين اتّبعوه حتّى أسفر الموضع عمّا اعتراه.

فقال له أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله : ما لقيت يا أبا الحسن؟ فلقد كدنا أن نهلك خوفاً وإشفاقاً عليك أكثر ممّا لحقنا.

فقال عليه السلام لهم: إنّه لمّا تراءى لي العدوّ وجهرت فيهم بأسماء الله فتضاءلوا[٢] وعلمت ما حلّ بهم من الجزع، فتوّغلت الوادي غير خائف منهم، ولو بقوا على هيأتهم لأتيت على آخرهم، وقد كفى الله كيدهم وكفى المسلمين شرّهم وسيسبقني بقيّتهم إلى النبي صلى الله عليه وآله فيؤمنون به، وانصرف أمير المؤمنين عليه السلام بمن معه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ، فأخبره الخبر فسري عنه ودعا له بخير، وقال له: قد سبقك يا عليّ إليّ من أخافه الله بك فأسلم وقبلت إسلامه[٣].

● عيون المعجزات: للسيّد المرتضى من كتاب الأنوار، عن أحمد بن محمّد ابن عبدويه، عن سليمان بن عليّ الدمشقيّ عن أبي هاشم الزباليّ، عن زاذان، عن سلمان قال: كان النبيّ صلى الله عليه وآله ذات يوم جالساً بالأبطح وعنده جماعة من أصحابه وهو مقبل علينا بالحديث إذ نظرنا إلى زوبعة[٤] قد ارتفعت فأثارت الغبار وما زالت تدنو والغبار يعلو إلى أن وقف بحذاء النبي صلى الله عليه وآله ثمّ برز منها شخص كان فيها.

ثمّ قال: يا رسول الله صلى الله عليه وآله إنّي وافد قومي استجرنا بك فأجرنا وابعث معي من قبلك من يشرف على قومنا فإن بعضهم قد بغى علينا ليحكم بيننا وبينهم بحكم الله وكتابه وهذا عليّ العهود والمواثيق المؤكّدة أن أردّه إليك سالماً في غداة غد إلاّ أن تحدث عليَّ حادثة من عند الله.

---

(١) توغل في البلاد: ذهب وأبعد.

(٢) أي فتصاغروا.

(٣) ارشاد المفيد: ١٨١ (ط١) و١٦٠، اعلام الورى: ١٨٢، البحار ج٦٠ ص٨٦ - ٨٨ ح٤٢.

(٤) الزوبعة: هيجان الرياح وتصاعدها إلى السماء.

فقال له النبيّ ﷺ: من أنت؟ ومن قومك؟

قال: أنا عرطفة بن شمراخ أحد بني نجاح، وأنا وجماعة من أهلي كنّا نسترق السمع، فلمّا منعنا من ذلك آمنّا ولمّا بعثك الله نبيّاً آمنّا بك على ما علمته وقد صدّقناك، وقد خالفنا بعض القوم وأقاموا على ما كانوا عليه فوقع بيننا وبينهم الخلاف، وهم أكثر منّا عدداً وقوّةً وقد غلبوا على الماء والمراعي وأضرّوا بنا وبدوا بنا، فابعث معي من يحكم بيننا بالحقّ.

فقال له النبي ﷺ: فاكشف لنا عن وجهك حتّى نراك على هيئتك الّتي أنت عليها.

قال: فكشف لنا عن صورته فنظرنا فإذا شخص عليه شعر كثير، وإذا رأسه طويل، طويل العينين عيناه في طول رأسه، صغير الحدقتين، وله أسنان كأنّها أسنان السباع، ثمّ إنّ النبيّ ﷺ أخذ عليه العهد والميثاق على أن يردّ عليه في غد من يبعث به معه.

فلمّا فرغ من ذلك التفت إلى أبي بكر فقال له: صر مع أخينا عرفطة وانظر إلى ما هم عليه واحكم بينهم بالحقّ.

فقال: يا رسول الله وأين هم؟

قال: هم تحت الأرض.

فقال أبو بكر: فكيف أطيق النزول تحت الأرض؟ وكيف أحكم بينهم ولا أحسن كلامهم.

ثمّ التفت إلى عمر بن الخطّاب فقال له: مثل قوله لأبي بكر، فأجاب مثل جواب أبي بكر.

ثمّ أقبل على عثمان، وقال له: مثل قوله لهما، فأجابه كجوابهما.

ثمّ استدعى بعليّ عليه السلام وقال له: يا عليّ صر مع أخينا عرفطة وتشرف على قومه وتنظر إلى ما هم عليه وتحكم بينهم بالحقّ، فقام أمير المؤمنين عليه السلام مع عرفطة وقد تقلّد سيفه.

قال سلمان رضي الله عنه: فتبعتهما إلى أن صارا إلى الوادي فلمّا توسّطا، نظر إليّ أمير المؤمنين عليه السلام وقال: قد شكر الله تعالى سعيك يا أبا عبد الله فارجع، فوقفت أنظر إليهما فانشقّت الأرض ودخلا فيها وعدت إلى ما كنت ورجعت وتداخلني من الحسرة ما الله أعلم به كلّ ذلك إشفاقاً على أمير المؤمنين عليه السلام.

وأصبح النبي ﷺ وصلّى بالناس الغداة وجاء وجلس على الصفا وحفّ به أصحابه، وتأخّر أمير المؤمنين عليه السلام وارتفع النهار أكثر الكلام إلى أن زالت الشمس

وقالوا: إنّ الجنّي احتال على النبي صلى الله عليه وآله وقد أراحنا الله من أبي تراب وذهب عنّا افتخاره بابن عمّه علينا، وأكثروا الكلام إلى أن صلى النبي صلى الله عليه وآله صلاته الأولى وعاد إلى مكانه وجلس على الصفّا، وما زال مع أصحابه بالحديث إلى أن وجبت صلاة العصر، وأكثر القوم الكلام وأظهروا اليأس من أمير المؤمنين عليه السلام.

فصلّى النبي صلى الله عليه وآله صلاة العصر وجاء وجلس على الصفا وأظهر الفكر في أمير - المؤمنين عليه السلام وظهرت شماتة المنافقين بأمير المؤمنين عليه السلام وكادت الشمس تغرب فتيقّن القوم أنّه قد هلك، إذا وقد انشقّ الصفا وطلع أمير المؤمنين منه وسيفه يقطر دماً ومعه عرفطة.

فقام إليه النبي صلى الله عليه وآله وقبّل بين عينيه وجبينه، وقال له: ما الّذي حبسك عنّي إلى هذا الوقت؟

قال عليه السلام: صرت إلى جن كثير قد بغوا إلى عرفطة وقومه من المنافقين، فدعوتهم إلى ثلاث خصال فأبوا عليّ، وذلك أني دعوتهم إلى الإيمان بالله تعالى، والإقرار بنبوّتك ورسالتك فأبوا، فدعوتهم إلى أداء الجزية فأبوا، فسألتهم أن يصالحوا عرفطة وقومه فيكون بعض المرعى لعرفطة وقومه وكذلك الماء فأبوا ذلك كلّه، فوضعت سيفي فيهم وقتلت منهم ثمانين ألفاً، فلمّا نظروا إلى ما حلّ بهم طلبوا الأمان والصلح، ثمّ آمنوا وصاروا إخواناً وزال الخلاف وما زلت معهم إلى الساعة.

فقال عرفطة: جزاك الله يا رسول الله وأمير المؤمنين عليه السلام عنّا خيراً[1].

● تفسير الفرات: عن عبد الله بن محمّد بن هاشم، معنعناً عن محمّد بن عليّ، عن آبائه عليهم السلام قال: هبط جبرائيل عليه السلام على النبيّ صلى الله عليه وآله وهو في منزل أمّ سلمة فقال: يا محمّد أن ملكاً من ملائكة السّماء الرابعة يجادلون في شيء حتّى كثر بينهم الجدال فيه وهم[2] من الجنّ من قوم إبليس الّذين قال الله في كتابه: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓ﴾[3].

فأوحى الله تعالى إلى الملائكة قد كثر جدالكم، فتراضوا بحكم من الآدميّن يحكم بينكم.

قالوا: قد رضينا بحكم من أمّة محمّد صلى الله عليه وآله؟

---

(١) عيون المعجزات: ٣٧-٣٩، البحار ج٦٠ ص٩٠-٩٣، ح٤٥.

(٢) ظاهره أن الضمير يرجع إلى الملائكة، فاطلق لفظة الملائكة على الجن مجازاً.

(٣) سورة الكهف، الآية: ٥٠.

قالوا: رضينا بعليّ بن أبي طالب عليه السلام، فأهبط الله ملكاً من ملائكة السماء الدنيا ببساط وأريكتين فهبط إلى النبيّ صلى الله عليه وآله فأخبره بالّذي جاء فيه.

فدعا النبيّ صلى الله عليه وآله بعليّ بن أبي طالب عليه السلام، وأقعده على البساط ووسّده بالأريكتين ثمّ تفل في فيه، ثمّ قال: يا عليّ ثبّت الله قلبك وجعل حجّتك بين عينيك ثمّ عرج به إلى السّماء، فإذا نزل قال:

يا محمّد الله يقرأك السّلام ويقول لك: «نرفع درجات من نشاء وفوق كلّ ذي علم عليم»(١).

● الاحتجاج: عن موسى بن جعفر، عن آبائه عليه وعليهم السلام في أجوبة أمير المؤمنين عليه السلام عن مسائل اليهوديّ في فضل محمّد صلى الله عليه وآله على جميع الأنبياء - إلى أن قال:

- قال له اليهودي: فإنّ هذا سليمان سخرت له الشياطين يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل. قال له علي عليه السلام: لقد كان كذلك، ولقد اعطي محمد صلى الله عليه وآله أفضل من هذا، إنَّ الشياطين سُخّرت لسليمان وهي مقيمة على كفرها، ولقد سخّرت لنبوة محمّد صلى الله عليه وآله الشياطين بالإيمان، فأقبل إليه الجنّ التسعة من أشرافهم، من جنّ نصيبين واليمن من بني عمرو بن عامر من الأحجة منهم شصاه، ومصاه، والهملكان، والمرزبان والمازمان، ونضاه، وهاصب، وهاضب، وعمرو، وهم الّذين يقول الله تبارك اسمه فيهم: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾(٢) وهم تسعة ﴿يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾(٣) فأقبل إليه الجنّ والنبيّ صلى الله عليه وآله ببطن النخل، فاعتذروا بأنّهم ظنّوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحداً.

ولقد أقبل إليه أحد وسبعون ألفاً منهم فبايعوه على الصوم والصلاة والزكاة والحجّ والجهاد ونصح المسلمين، واعتذروا بأنّهم قالوا: على الله شططاً، وهذا أفضل ممّا أعطى سليمان، سبحان من سخّرها لنبوّة محمّد صلى الله عليه وآله بعد أن كانت تتمرّد وتزعم أنّ لله ولداً، فلقد شمل مبعثه من الجنّ والإنس ما لا يُحصى(٤).

● الاختصاص: أبو محمد، عن صباح المزنيّ، عن الحارث بن حصيرة، عن

---

(١) البحار ج٦٠ ص٩٥-٩٦، ح٥٦.
(٢) سورة الأحقاف، الآية: ٢٩.
(٣) سورة الأحقاف، الآية: ٢٩.
(٤) الاحتجاج: ١١٨، البحار ج٦٠ ص٩٦-٩٨، ح٦٠.

الأصبغ بن نباته قال: كنّا مع أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام يوم الجمعة في المسجد بعد العصر إذ أقبل رجل طوال كأنّه بدويّ فسلّم عليه.

فقال له عليّ عليه السلام: ما فعل جنيّك الذي كان يأتيك؟

قال: إنّه ليأتيني إلى أن وقفت بين يديك يا أمير المؤمنين.

قال علي عليه السلام: فحدّث القوم بما كان منه، فجلس وسمعنا له فقال: إنّي لراقد باليمن قبل أن يبعث الله نبيّه صلى الله عليه وآله، فإذا جنى أتاني نصف الليل فرفسني[١] برجله وقال: اجلس، فجلست ذعراً.

فقال: اسمع.

قلت: وما أسمع؟

قال: [البحر السريع]

عجبتَ للجنّ وإبلاسها وركبِها العيسَ بأحلاسِها[٢]
تهوي إلى مكّةَ تبغي الهُدى ما طاهرُ الجنّ كأنجاسِها
فارحلْ إلى الصفوةِ من هاشمٍ وارم بعينيك إلى رأسِها[٣]

قال: فقلت: والله لقد حدث في ولد هاشم شيء أو يحدث وما أفصح[٤] لي، وإنّي لأرجو أن يفصح لي، فأرقت[٥] ليلتي وأصبحت كئيباً، فلمّا كان من القابلة أتاني نصف الليل وأنا راقد فرفسني برجله وقال: اجلس فجلست ذعراً، فقال: اسمع فقلت: وما أسمع؟

قال: [البحر السريع]

عجبتَ للجنّ وأخبارِها وركبِها العيسَ بأكوارِها[٦]
تهوي إلى مكّةَ تبغي الهُدى ما مؤمنُو الجنّ ككفّارِها
فارحلْ إلى الصفوةِ من هاشمِ بين رَوابيها[٧] وأحجارِها

---

(١) رفسه: ضربه في صدره.
(٢) العيس بالكسر: الابل البيض يخالط بياضها شيء من الشقرة. والاحلاس جمع حلس وهو كساء يطرح على ظهر البعير.
(٣) الضمير يرجع إلى القبيلة.
(٤) أي ما بين مراده ولا أوضحه.
(٥) ارق: ذهب عنه النوم في الليل.
(٦) الأكوار جمع الكور بالضم وهو الرحل بإداته.
(٧) الروابي جمع الرابية: ما ارتفع من الأرض.

فقلت: والله لقد حدث في ولد هاشم أو يحدث، وما أفصح لي وإنّي لأرجو أن يفصح لي، فأرقت ليلتي وأصبحت كئيباً، فلمّا كان من القابلة أتاني نصف الليل وأنا راقد فرفسني برجله وقال: اجلس فجلست وأنا ذعر، فقال: اسمع.

قلت: وما أسمع؟

قال: [البحر السريع]

عجبتَ للجنِّ وإبلابِها ... وركبِها العيسَ بأقتابِها
تهوي إلى مكّةَ تبغي الهُدى ... ما صادقُو الجنِّ ككذّابِها
فارحلْ إلى الصفوةِ من هاشمٍ ... أحمدَ إذ هو خيرُ أربابِها

قلت: عدوّ الله أفصحت، فأين هو؟

قال: ظهر بمكّة يدعو إلى شهادة أن لا إلّه إلاّ الله، وأنّ محمداً رسول الله، فأصبحت ورحلت ناقتي ووجّهتها قبل مكّة فأوّل ما دخلتها لقيت أبا سفيان، وكان شيخاً ضالاً فسلّمت عليه وسألته عن الحيّ.

فقال: والله إنّهم مخصبون إلاّ أنّ يتيم أبي طالب قد أفسد علينا ديننا.

قلت: وما اسمه؟

قال: محمّد، أحمد.

قلت: وأين هو؟

قال: تزوّج بخديجة بنت خويلد فهو عليها نازل فأخذت بخطام ناقتي ثمّ انتهيت إلى بابها فعلقت ناقتي ثمّ ضربت الباب فأجابتني: من هذا؟

فقلت: أنا أردت محمّداً.

فقالت: اذهب إلى عملك.

فقلت: يرحمك الله إني رجل أقبلت من اليمن وعسى الله أن يكون منّ عليّ به فلا تحرميني النظر إليه، وكان ﷺ رحيماً فسمعته يقول: يا خديجة افتحي الباب، ففتحت، فدخلت فرأيت النور في وجهه ساطعاً نور في نور ثمّ درت خلفه فإذا أنا بخاتم النبوّة معجون على كتفه الأيمن فقبّلته، ثمّ قمت بين يديه وأنشأت أقول:

[البحر الطويل]

أتاني نجيٌّ بعد هدْءٍ ورقدةٍ ... ولم يكُ فيما قد تلوتُ بكاذبِ[1]

(١) النجي: المحدث، وفي المصدر: [بجني] والهدء: السكون.

ثلاثَ ليالٍ قولُه كلّ ليلة أتاك رسولٌ من لوءيٍّ بنِ غالبِ
فشمّرتُ من ذيلي الأزارَ ووسّطتْ بي الذعلبُ الوجناءُ بين السباسبِ[1]
فمرْنا بما يأْتيك يا خيرَ قادرٍ وإن كان فيما جاءَ شيبُ الذوائبِ[2]
وأشهدُ أنّ اللهَ لا شيءَ غيرُه وأنّك مأمونٌ على كلّ غائبِ
وأنّك أدنى المرسلين وسيلةً إلى اللهِ يا بنَ الأكرمين الأطائبِ
وكنْ لي شفيعاً يومَ لا ذو شفاعةٍ إلى اللهِ يُغني عن سوادِ بنِ قاربِ

وكان اسم الرجل سواد بن قارب[3] فرحت واللهِ مؤمناً به صلى الله عليه وآله ثمّ خرج إلى صفّين فاستشهد مع أمير المؤمنين عليه السلام [4].

وفي هذا الحديث دلالات منها:

١ - أن كل من الجن له اسم وينتمي إلى أسرة، وهذا يدل على وجود تشابه في نمط العلاقات الداخلية بين الإنس والجن.

٢ - أن الإيمان والكفر سبب لقيام نزاعات وصراعات بين بعض جماعات الجن، وأن هؤلاء المؤمنين أقلية ولا تستطيع الانتصار بدون دعم خارجي، وهذا يساوق مع القاعدة أو أن أكثرية الجنّ هم على الكفر.

٣ - والدلالة الهامة هناهو وصف الجان وفيه تنعدم الدلالة على كون هذا الوصف هل هو خاص بفرد أو جنس أو عام لجميع أفراد الجن، وهو كالآتي:

١ - وجود شعر كثير.

٢ - رأس طويل.

٣ - عينان طويلتان بطول الرأس.

٤ - صغير الحدقتين.

٥ - أسنان كأسنان السباع.

---

(١) الذعلب: الناقة القوية: والوجناء: الناقة الصلبة. والسباسب جمع سبسب وهو القفز والمفازة.

(٢) في المصدر: [فيما جاتشيب الذوائب] فعليه: جامخفف جاء، والمعنى أي قبلنا وصدقّنا بما يأتيك به الوحي من الله وإن كان فيه أمور شداد تشيب منها الذوائب والذوائب جمع الذؤابة أي الناصية.

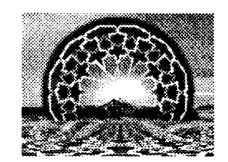
(٣) التفسير من صاحب كتاب الاختصاص أو من الروات.

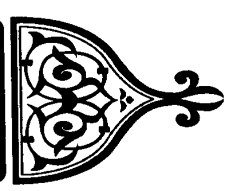
(٤) الاختصاص: ١٨١-١٨٣، البحار ج٦٠ ص١٠٤-١٠٧، ح٦٨.

ولم يرد ذكر طول القامة أو قصرها وورد وصف لطريقة الحركة التي تشبه الزوبعة ولا دلالة على أن هذه الزوبعة هي شكل حركة فرد أو جماعة.

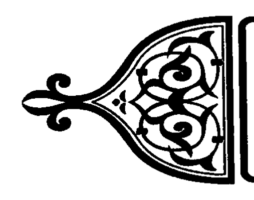
وفي النهاية إن هذا الوصف فيه إغفال لوصف بعض المعالم التي تبدو ضرورية لتكوين صورة كاملة عن شكل الجان لكنّه وصف الرأس بصورة واضحة.

وفي النهاية لا بدّ من الخروج بهذه النتيجة من خلال جمع الأوصاف الواردة في أكثر من حديث.





ذكر إبليس وقصصه



● العيون والعلل: بإسناده عن الرضا، عن آبائه عليهم السلام قال: سأل الشامي أمير المؤمنين عليه السلام عن اسم إبليس ما كان في السّماء؟

فقال: كان اسمه الحارث.

وسأله عن أوّل من كفر، فقال: إبليس لعنه الله(1).

● تفسير الفرات: بإسناده عن أبي جعفر عليه السلام قال: رأى أمير المؤمنين عليه السلام على بابه شيخاً فعرفه أنّه الشيطان فصارعه وصرعه قال: قم عنّي يا عليّ حتّى أُبشّرك فقام عنه فقال: بمَ تبشّرني يا ملعون؟

قال: إذا كان يوم القيامة صارا الحسن عن يمين العرش والحسين عن يسار العرش، يعطيان شيعتهما الجواز من النّار.

قال: فقام إليه وقال: أُصارعك؟

قال: مرَّة أُخرى.

قال: نعم، فصرعه أمير المؤمنين قال: قم عنّي حتّى أُبشّرك، فقام عنه.

فقال: لمّا خلق الله آدم خرج ذرّيته من ظهره مثل الذّرّ فأخذ ميثاقهم فقال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾(2).

قال: فأشهدهم على أنفسهم فأخذ ميثاق محمّد وميثاقك فعرف وجهك الوجوه وروحك الارواح، فلا يقول لك أحد: أحبّك، إلاّ عرفته، ولا يقول لك أحد: أبغضك، إلاّ عرفته.

قال: قم صارعني.

قال: ثلاثة.

---

(1) عيون أخبار الرضا: ١٣٣-١٣٥ علل الشرائع: ١٩٧، البحار ج٦٠ ص١٩٥، ح٣.

(2) سورة الأعراف، الآية: ١٧٢.

قال: نعم فصارعه وصرعه.

فقال: يا عليّ لا تبغضني وقم عنّي حتّى أبشرّك.

قال: بلى وأبرأ منك وألعنك.

قال: والله يابن أبي طالب ما أحد يبغضني إلاّ شركت في رحم أمه وفي ولده.

فقال له: أما قرأت كتاب الله، ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَالِ وَٱلْأَوْلَادِ﴾[1] الآية[2].

وفي جواز وطء الجن للإنسان أو العكس أدلّة كثيرة وقد مرّ بعضها إلاّ أن الإشكال وقع في الذرية، ففي الروايات الأولى تأكيد على أن أصل الإنسان قد شرك فيه الجان وهذا يحتاج إلى بحث إذ قلنا أو وطء الجان للإنسان قد يساهم في جعله ذا ميول شيطانية، لكن زواج الإنسان من جان فهل يجعل في الذرية تابعة للإنسان؟ فهذا مورد نظر، إذ لا بدّ من تأكيده في أرض الواقع وحصوله في عهد آدم عليه السلام لا بدّ أن يسمح باستوراره في أجيال لاحقة، إذ أن نظام التكاثر هو نظام متواصل ولا يتغير لا عند الجان ولا عند الإنسان، وأقصى ما يمكن افتراضه هو أن الوليد سيتبع الإنسان في التفكير والخصائص النفسية إما ناحية البدن فلا بد أن يكون غير مرئياً إلاّ إذا قلنا أن هذه الحالة حدثت في بداية خلق الإنسان. وهو طبعاً مردود لإنّ الله تعالى يقول: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾[3] فسنن الله ثابتة ولا تتبدل.

وعلى هذا الأساس لا بدّ أن نفترض أن الشرك في الذرية سيكون من الجانب النفسي والأخلاقي بين العالمين وليس في البنية الجسدية، لأن الجانب القابل للاشتراك باعتباره غير مرئي لدى الطرفين، وإذا قلنا بذلك فهو يعني أن الإنسان مكوّن من تركيبة فيها شيء يطابق بناء الشيطان، هذا الشيء هو النفس أي أن بنية الإنسان هي عبارة عن بنية الشيطان مع إضافة وزيادة هي الجسم المادي وسيكون عندئذٍ التفاعل بين هذين الجزئين المتطابقين حاصلاً وممكناً وبالتالي سيكون ولادة الإنسان من أم جنية مستحيلة بينما تكون ولادته من أب جنّي وأم أنسية ممكنة لأن الأثر حينئذ نفسي، ولا بدّ حينئذ من وجود أب أنسي أيضاً إذ لو جاز من هذا الأمر لكان ممكناً أن تلد البواكر من النساء أولاداً وتنسبهم إلى الجان ثم يقبل منهن ذلك، ولا يقتصر هذا الأمر على

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٤٠.

(٢) البحار ج٦٠ ص٢٠٨، ح٤٣، تفسير فرات ص٤٠.

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٦٣.

المتزوجات نعم يمكن أن تقوم علاقات جنسية فينتج عن الإنسان أبناء جان يتبع الأم الجنيّة، وربما كان ذلك في الجانب النفسي فقط، وربّما يكون كاملاً، لأن الجن هم عبارة عن نفوس، وربّما يولد من شراكة بين إنسان وجان ذكرين وأم جنيّة وهو يعني مقلوب ما ذكرته الأحاديث.

وهذا طبعاً في الإطار المعروف وربّما كانت هناك آفاق مجهولة قد نرجع إليها ما لا نستطيع هضمه بناءً على معلوماتنا الحالية، وعليه فإن هذا هو حد علمنا الفعلي والمستقبل كفيل بفك الأسرار إن كانت هناك أسرار في هذا الخصوص.

● **في خطبة للإمام علي عليه السلام يذكر فيها خلقة آدم عليه السلام قال صلوات الله عليه: واستأدى الله سبحانه وتعالى الملائكة وديعته لديهم وعهد وصيّته إليهم في الادعان بالسّجود له والخنوع لتكرمته فقال: ﴿ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾ فسجدوا إلاّ ابليس وقبيله اعترتهم الحميّة وغلبت عليهم الشقوة[1] وتعزّزوا بخلقة النار واستوهنوا خلق الصلصال فأعطاه النظرة[2] استحقاقاً للسخطة واستتماماً للبليّة وإنجازاً للعدة فقال: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ۝٨٠ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ۝٨١﴾[3] ثمّ أسكن سبحانه آدم داراً أرغد فيها عيشه وآمن فيها محلّته وحذّره إبلس وعداوته، فاغترّه عدوّه نفاسةً عليه بدار المقام ومرافقة[4] الأبرار[5].**

● **النهج: في الخطبة القاصعة قال أمير المؤمنين عليه السلام: الحمد لله الذي لبس العزّ والكبرياء واختارهما لنفسه دون خلقه وجعلهما حمىً[6] وحرماً على غيره واصطفاهما لجلاله وجعل اللعنة على من نازعه فيهما من عباده، ثم اختبر بذلك ملائكته المقرّبين ليميز المتواضعين منهم من المستكبرين، فقال سبحانه وهو العالم بمضمرات القلوب ومحجوبات الغيوب: ﴿إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ ۝٧١ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ**

---

(١) الشقوة بكسر الشين وفتحها: ما حتم عليه من الشقاء والشقاء ضد السعادة وهو النصب الدائم والالم الملازم.

(٢) النظرة المهملة.

(٣) سورة ص، الآيتان: ٨٠،٨١.

(٤) أي مرافقته مع الملائكة الأبرار، أو أعم منهم وممن يأتي بعد ذلك من الأنبياء والصلحاء.

(٥) نهج البلاغة ١: ٢٤-٢٤. البحار ج٦٠، ص٢١٢ - ٢١٣.

(٦) الحمى ما حميته عن وصول الغير إليه والتصرف فيه.

سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾[١] اعترضته الحميّة فافتخر على آدم بخلقه وتعصّب عليه لأصله، فعدو الله إمام المتعصّبين وسلف المستكبرين الذي وضع أساس العصبيّة[٢] ونازع الله رداء الجبرية وادّرع لباس التعزّز وخلع قناع التذلّل - إلى قوله: - فاعتبروا بما كان من فعل الله بابليس إذ أحبط عمله الطويل وجهده الجهيد وكان قد عبد الله ستّة آلاف سنة لا يدري[٣] أمن سني الدنيا أم من سني الآخرة عن كبر[٤] ساعة واحدة، فمن بعد إبليس يسلم على الله بمثل معصيته؟

كلاّ ما كان الله سبحانه ليدخل الجنّة بشراً بأمر أخرج به ملكاً[٥]، إن حكمه في أهل السّماء وأهل الأرض لواحد، وما بين الله وبين أحد من خلقه هوادة[٦] في إباحة حمىً حرّمه على العالمين، فاحذروا عباد الله عدوّ الله أن يعديكم[٧] بدائه وأن يستفزّكم[٨] بخيله ورجله، فلعمري لقد فوّق لكم سهم الوعيد وأغرق بكم بالنزع الشديد[٩] ورماكم من مكان قريب[١٠]، وقال: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[١١] قذفاً بغيب بعيد، ورجماً بظنّ غير مصيب[١٢] فصدّقه به أبناء الحميّة واخوان العصبيّة

---

(١) سورة ص، الآية: ٧١-٧٤.

(٢) أبان عليه السلام أن العصبية بكل معانيه من التعصب القومي والجنسي واللوني من الشيطان فالاسلام بريء من كل تعصب.

(٣) متعلق باحبط أي أضاع عمله بسبب كبر ساعة.

(٤) لا يدري، على صيغة المجهول، وفي بعض النسخ على المتكلم المعلوم، فعلى الأول لا يدلّ على عدم علمه عليه السلام وعلى الثاني أيضاً المراد به غيره وأدخل نفسه تغليباً، والإبهام لمصلحة كعدم تحاشي السامعين من طول المدّة أو غيره.

(٥) قوله عليه السلام: (أخرج به منها ملكاً)، ظاهره أن إبليس كان من الملائكة، ويمكن الجواب بأن إطلاق الملك عليه لكونه من الملائكة بالولاء. وقال بعض شراح النهج: يسلم على الله أي يرجع إليه سالماً من طرده ولعنه. تقول: سلم عليّ هذا الشيء إذا رجع إليك سالماً ولم يلحقه تلف، والباء للمصاحبة كما في قوله: بأمر، وأما الباء في «به» فيحتمل المصاحبة والسببيّة.

(٦) الهوادة: اللين والرخصة.

(٧) اعداه من علة أو خلق: اكسبه مثل ما به من الملة أو الخلق.

(٨) في المصدر: وان يستفزكم بندائه وان يجلب عليكم بخيله ورجله.

(٩) اغرق النازع: إذا استوفى مدقوسه.

(١٠) لأنه يجري من ابن آدم مجرى الدم.

(١١) سورة الحجر، الآية: ٣٩.

(١٢) في المصدر: بظن مصيب.

وفرسان الكبر والجاهليّة - إلى قوله عليه السلام : - فاجعلوا عليه حدّكم[(١)] وله جدّكم فلعمر الله لقد فخر على أصلكم ووقع في حسبكم ودفع في نسبكم وأجلب بخيله عليكم وقصد برجله سبيلكم[(٢)]. إلى آخر الخطبة.

فالمبدأ الذي يلفت النظر هنا قول الإمام عليه السلام : «إن حكمه في أهل السماء وأهل الأرض لواحد، وما بين الله وبين أحد من خلقه هوادة في إباحة حمى حرمة رب العالمين».

◎ وحدة عالم المخلوقات

إن ما يسمى قانوناً في العلوم يسمى في الرؤية الإسلامية، وكلاهما يعبران عن اضطراد في بروز نتائج كلما تكررت الشروط وأن السنة هي عبارة حكم لله أملته إرادته على خلقه سواء كان حكماً على أحياء أو على جوامد وتفهم العمومية من خلال قوله في أهل السماء وأهل الأرض فالسماء والأرض محكومة بقوانين وسنن واحدة. أبرز الإمام عليه السلام نموذجها بالنسبة لطبقة الأحياء وبين أن الله يعاقب متكبري البشر مثلما يعاقب متكبّري الجن وأنه لا يبيح حرمة لأحد من خلقه سواء كان هذا الخلق من الجوامد والأحياء. وأن التجربة العملية تؤكد أن وحدة القوانين الطبيعية التي سنها الله وحتى لو اختلفت أشكال هذه القوانين بحسب طبقة الأحياء أو طبقة الجوامد، فهذه القوانين التي هي سنن [أحكام] واحدة. وعامة ومعها أيضاً وحدة الحدود والرخص بالنسبة لجميع الخلق.

ونلمح أيضاً في ثنايا الخطبة أيضاً قانون آخر عام هو قانون البلاء الذي ذكرته آيات كثيرة كذلك ومثاله البارز ابتلاء الله إبليس بخلق آدم والذي ترتب عليه اخراجه من عالم الملائكة وإنزاله إلى عالم الأرض كما أن الله ابتلى آدم بإبليس الذي يسعى إلى إغوائه.

وهكذا فإن البلاء عبارة عن عملية امتحان لإثبات الصلاحية تسمح بمرور الكائن نحو مرحلة قادمة، وبالتالي فهو عبارة عن إثبات أهلية الكائن لمزيد من استمرار الحياة، ويمكننا إذا نزلنا إلى الطبقات الأدنى من الأحياء فإننا نشاهد صيغة مقاربة لهذا القانون حيث يستطيع الكائن أن يستمر في البقاء إذا تمكن من التكيف وإنجاز التطورات

---

(١) أي غضبكم وحدتكم.

(٢) نهج البلاغة ١ : ٣٩٦-٣٩٩. البحار: ج ٦٠ ص ٢١٤-٢١٥، ح ٤٩.

الملائمة للظروف البيئية المحيطة بهذا الكائن، فالكائن الذي يتكيف يحصل على فرصة للخلود، والكائن الذي يعجز عن هذا الأمر فإنه يزول ويتلاشى فالبلاء عبارة عن صعوبات تقع في في طريق المخلوقات ويطلب منها تجاوزها وأنها في طبقة الكائنات العاقلة الحرة [الجن والإنس] تعبر عن مستوى الإدراك وقوة الإرادة وفي الكائنات الأقل [القسرية] [الحيوانات، النباتات] تعبر عن سلامة الأجهزة وقدرتها على مواصلة الحياة ضمن التغيرات في البيئة والمناخ ونوعية الغذاء، والهدف طبعاً المجيء بكائنات أكثر قوة وهو الأمر الذي أثبته علم الوراثة حيث تتغلب الصفات الأقوى لدى الكائنات في أي عملية تكاثر عند الحيوان أو النبات.

ويمكن أيضاً لنا أن نطبق هذا المبدأ على الجوامد، ولكن ضمن دائرة أضيق إذ أن عمليات التركيب الناجحة تؤهل المادة إلى التشكل في عناصر أكثر تطوراً وأن الفشل يؤدي إلى التفكك وهو يعادل العودة إلى طبقة أوطأ.

وهذا فإن عالم الجوامد ينطوي على صيغ اتحاد ناجحة وهي تعادل فرص للدخول في مركبات أكثر تقدماً وهو شكل من أشكال البقاء، بينما يوازي التفكك عملية الموت لدى الأحياء.

وعليه فإن البلاء: هو عبارة عن امتحان عام يتحدد على ضوءه مستوى الفرصة التي يستحقها الإنسان للدخول في مرحلة تالية أكثر اتساماً بالبقاء.

وهو شكل من أشكال الدورة الحاكمة في الوجود بجميع طبقاته، فكل اتحاد وتفكك دورة كاملة يتم خلالها امتحان قدرة الكائن على الدخول في اتحاد آخر أم لا. ذلك أن كل كائن هو عبارة عن مركب من (زوج أوأكثر) من الكائنات يدخل في حالات من التركيب المتوالية كلما أثبت صلاحيته لهذا التوالي، وعندما لا يثبت ذلك فإنه يتفكك ويتم تمثيل أجزائه في مركبات أخرى وهو ما يعادل الموت عند الأحياء.

فهنا مبدأ الزوجية والتركيب الذي يحكمه قانون البلاء والذي ينتج اثبات صلاحية الموجود لمواصلة الحركة باتجاه مزيد من التعقيد، وذلك أن اتجاه حركة الوجود من البسيط إلى المعقد من القسر إلى الحرية ومن الجهل إلى العقل(١).

وعلى هذا فإن الحركة مبدأ عام من الوجود.

---

(١) راجع حركة التأريخ - رؤية قرآنية: ٧٦ - ٨٧.

◎ الحركة

وهناك أيضاً مبدأ عام في الوجود هو مبدأ الحركة، والحركة نقصد بها الحركة النوعية أي الزيادة في الخلق من ناحية الكم والكيف. فالقرآن أكد لنا بأن ظهور مخلوقات عملية متتابعة لا تتوقف. فقد صرح القرآن بأن الإنسان ظهر إلى الوجود بعد الجان وقبل ذلك خلق الله الملائكة وهناك مخلوقات أخرى أيضاً. فهذا العدد من المخلوقات يظهر بالتتابع وهو مبدأ الزيادة في الأحياء كما أن هذا المبدأ مؤيد من خلال تصريح القرآن بأن السماء في حال توسع وقد ذهب إلى هذا المبدأ العديد من الفلاسفة مؤكدين أن «جوهر الكون وأساسه حقيقتان، هما التغير والتحول»[(١)].

كما أن العلم الحديث أشار إلى تركب جميع هذا الوجود برمته في مجموعة من الذرات وهو نفس المبدأ الذي آمن به الذّريون حيث قالوا: «أنه لو حللّنا المادة إلى جزئياتها لوصلنا إلى وحدات لا تقبل التقسيم هي ما أطلقنا عليه اسم الذرات أو الجواهر الفردة وهي التي من مجموعها تتكون مادة الكون وهي لا نهائية عدداً، وبلغت من الدقة حدّاً لا تدركها الحواس»[(٢)].

على أن العلم الحديث أثبت وجود هذه الوحدات البنائية واستطاع تقسيمها إلى أجزاء أصغر حتى بات أنها لا تزال تقبل الإنقسام إلى مزيد من الإجزاء، وبالتالي فإننا سنحتاج في النهاية إلى الوقوف عند نقطة غير قابلة للإنقسام تشبه ذرات الذريين ليبدأ منها العلم حركته ضمن تفاعلات متواصلة لتصل إلى كل هذه الكثرة والغناء.

وهناك أيضاً اجماع حول حركة الوجود نحو الكمال وهو ظهور الأشكال الأعقد من الأشكال الأبسط، وقد أيّد هذا المبدأ الفلاسفة المسلمون ورغم أن البعض ذهبوا إلى أن الكمال بالنسبة للإنسان حالة تنحصر في الجانب الأخلاقي، وهذا صحيح إذا نظرنا إلى الطور الأخير وبعد وصول البنية العضوية إلى حالة من الثبات النسبي، ذلك أن عمليات التزاوج تهدف إلى انتاج الشكل الأكمل من خلال الإمكانات المتاحة لأي زوجين حيث تنحى الصفات الضعفية وتبقى الصفات القوية.

غير أن هناك من قال بوجود حركة تطور عضوي في الموجودات، وأن كل عملية تركيب (تزواج) تهدف إلى حالة الكمال وأنها متواصلة، وأن في حلقات معينة تولد

---

(١) آراء الذريين حول الذرة والحوكة: ١٠

(٢) المصدر نفسه: ١٦.

كائنات جديدة وأكثر قدرة مع الظروف وهو نوع من السير إلى الكمال في البنية العضوية حيث تتوالد الكائنات الأكمل بمرور الزمن.

وقد شهدت الثقافة الإسلامية وجود تيارات تؤمن بهذا النوع من التوالد والتطور، وكانت جماعة «إخوان الصفا» هي الجماعة الأكثر شهرة في مثل هذا القول رغم وجود الكبير عن الرؤية المعاصرة للتطور العضوي أو توالد الأنواع.

ولقد جاء العلم الحديث برؤية كلية تشمل حتى الجوامد التي تتوالد جميعها في أجزاء أبسط من المادة وتدخل في تراكيب لبناء ذرات. والعملية متوقّفة لأنها حدثت بعد ولادة الكون أو الانفجار الكبير.

ويقف التصور القرآني الذي يمكن تركيبه في عدد كبير من الآيات والنصوص ليمثل رؤية خاصة تختلف عن الرؤية القديمة أو المعاصرة من معالم أساسية منها:

أ - أن الله هو المشرف والمكون لكل العمليات فهو الموجه للقوى والذي يسوقها نحو هدف الإنسان، وقد ظهرت اتجاهات حديثة في أوساط العلم تنحو هذا المنحى لأن تجاهل الهدفية وهي طبعاً تحتاج إلى دقة في الأوضاع والكميات بحيث تسمح بظهور الإنسان وبقاءه ويسمى هذا الاتجاه(بالتسخير) ولهذا فإن كان التطور ذاتياً أو من خلال نقلات فإن الله هو المشرف عليه والمحرك له.

ب - إن التطور في القرآن حل مشكلة الطفرات التي تعتبر أهم الثغرات على نظرية التطور المعروفة خلال القول بالتدخل المباشر لإضافة أفراد من خارج السلسلة لتوجيه التطور وجهات مقصودة.

ج - إن التطور في القرآن والحديث يختلف عن التطور في المدارس الأخرى، لأنّه يشمل الكائنات غير المرئية وأن هناك ترابطاً بين حركة المواد الجامدة والأحياء، فالمادة في وضع النور أنتجت الملائكة، فالنور هو أساس الحياة وهو أيضاً أساس الجماد ثم تتطور المادة فتظهر النار، فيظهر معها الجن، ثم تظهر المادة الصلبة(التراب) فيظهر الإنسان. وهذا الظهور لا يعني ظهوراً بالصورة المعروفة بل بداية خلق الجنس المعين ثم يمر بتطورات وخلال أحقاب طويلة ليصل إلى الحالة التي يمكن أن نسميه بالإنسان أو الجان. غير أن الحديث عن الملائكة يختلف لأن النصوص ليس فيها ما يدل على بدايات خلق الملائكة.

وبين كل بداية ونهاية حلقات متواصلة من ظهور الأحياء واختفائها وهي تمثل

مقدمات لظهور الكائن الأكمل أو الهدف. وتبرز هذه القضية في الآيات والأحاديث بالنسبة للإنسان لكنها ليست بهذا الوضوح بالنسبة للجن، إلاّ أن القرآن الذي يتحدث عن التماثل الكبير ويتحدث عن بدايات مشتركة لظهور الإنسان والجان يجعل افتراض التماثل من حيث التطور أمر ممكناً.

هذا بالإضافة إلى وجود قوانين أخرى تسوق إلى هذا النوع من الفهم كقانون السير من البسيط إلى المعقد وظهور الأقل كمالاً، يجعلنا واثقين من هذا الفهم. فمن المعروف أن القرآن لم يصرح أن الإنسان أكثر تعقيداً من الملائكة لكن الأحاديث وأقوال العلماء جعلت هذه القضية واضحة، فهناك في قضية السجود أشار إلى الأفضلية التي تؤول إلى نمط الكمال غير موجودة، كما أن الحديث في «البحار»[1].

عن الدر المنثور، عن أبي عامر المكي قال: **خلق الملائكة من نور، وخلق الجانَّ من نار، وخلق البهائم من ماء، وخلق آدم من طين، فجعل الطاعة في الملائكة والبهائم، وجعل المعصية في الإنس والجن**[2].

أشار إلى أن الملائكة والبهائم خاليان من دوافع المعصية وأنهما ذوا طبيعة واحدة وهي طبيعة الطاعة، وأن لدى الإنسان دوافع المعصية وهذا يفيد بساطة نفس الحيوان والملاك وعدم وجود دوافع المعصية لديه، لأنّه يتحرك إما وفقاً للعقل(الملاك) أو للغريزة(الحيوان) وكلاهما عوامل قهرية لا تواجهها أقطاب مضادة كما هو لدى الإنسان(غريزة - عقل) أو لدى الجان (عقل - غريزة) وفي كل هذا إشارة إلى الحركة من البساطة إلى التعقيد وهو صورة التطور التي نفترضها.

●ويؤيد فكرة التطور أيضاً الحديث التالي: **جاء عن أبي جعفر، عن آبائه، عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: إنّ الله تبارك وتعالى أراد أن يخلق خلقاً بيده، وذلك بعدما مضى من الجنّ والنسناس في الأرض سبعة آلاف سنة - وساق الحديث - إلى أن قال تعالى:**

«إني أريد أن أخلق خلقاً بيدي وأجعل من ذريته أنبياء ومرسلين وعبادا صالحين وأئمة مهتدين وأجعلهم خلفاء على خلقي في أرضي، وأبيد النسناس من أرضي وأطهرها منهم، وأنقل مردة الجن العصاة من بريتي وخلقي وخيرتي وأسكنهم في الهواء وفي أقطار الأرض فلا يجاورون نسل خلقي وأجعل بين الجن وبين خلقي حجابا فلا يرى نسل خلقي الجن ولا يجالسونهم ولا يخالطونهم» - وساق الحديث إلى قوله:

---

(١) بحار الأنوار: ٦٠/١٠٨ - ١٠٩. (٢) سورة البقرة، الآية: ٣٤.

- «**فخلق الله آدم فبقي أربعين سنة مصورا، فكان يمر به إبليس اللعين» فيقول: لأمر ما خلقت، فقال العالم عليه السلام: فقال إبليس: لئن أمرني الله بالسّجود لهذا لعصيته، ثم نفخ فيه، ثم قال للملائكة: ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِآدَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾[1] فأخرج إبليس ما كان في قلبه من الحسد فأبى أن يسجد، فقال الله عزّ وجّل:**

﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾[2] [3].

ففي هذا الحديث يلاحظ وجود عدد من المفاهيم التي تلتقي مع أفكار التطور، وهذا اللقاء يؤكد وجود رؤية خاصة بالإسلام تختلف عن الرؤية التي جاء بها علم البايلوجي، إذ ليس من الضروري أن تتطابق الرؤى الإسلامية مع سواها، وهذه المفاهيم هي:

أولاً: مفهوم وجود كائنات سابقة على وجود الإنسان وبالطبع هي أقل تطوراً، فالحديث يقول: إنّ الله أراد أن يخلق خلقاً يجعلهم خلفاء مع أن النسناس والجن موجودون وبما أن الله لا يخلق ما خلق عبثاً فهناك إذن مقومات وأسس تمنع كون النسناس خليفة وبالتالي فإن الخلق التالي سيكون ممتلكاً لمقومات الخلافة. وهذا هو مفهوم التطور فالمخلوق السابق أقل أهمية من التالي والذي يليه أكثر أهلية وهذا لا يشير بالطبع إلى أن الأهلية هي من الناحية العضوية أو الأخلاقية أو بهما معاً وهما غالباً لا ينفصلان حيث يشير علماء الأحياء أن قدرة الإنسان على السيطرة على الطبيعة لا تنحصر بقدراته العقلية بل أن انتصاب قوامه كان له دور مكمل لتكريس تفوقه.

ثم أن الفترة التي ذكرها لبقاء الجن والنسناس قبل خلق الإنسان هي سبعة آلاف سنة ولا يعلم أهي من سنين الأرض أم من سنين السماء!! يحمل دلالة على وجود الفواصل الزمنية الكبيرة وهي فترة التعاقب ولا يهم بعد ذلك إن كان النسناس جزءاً من سلسلة البشر التطورية أم هو يمثل سلسلة خاصة سبقت خلق الإنسان.

وبالنسبة لخلق آدم فإنه ظل مصوراً لمدة أربعين سنة، وفي حديث سابق مرّ عليه ألف سنة قبل نفخ الروح، وهذا الحديث هو الذي يشير إلى سبب نتانة جوف آدم بسبب دخول إبليس وخروجه فهنا توجد إشارات إلى مراحل خلق آدم.

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٢.
(٢) بحار الأنوار: ٦٠/ ٢٧٣ - ٢٧٥.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ٦٤.

ولعل الآيات كانت أكثر إفادة لهذا المفهوم من الأحاديث لأنّها وقد تطرقنا إلى إبعادها في كتاب الملائكة وسنمر عليها هنا في هذا الكتاب رغم أنّها بالنسبة للجان تبدو أكثر غموضاً، وذلك لقلة الآيات التي تحدثت عن المراحل الأولية لعملية الخلق ولكنها يمكن أن تستنتج من خلال المبادىء العامة في الكون، ومن خلال التشابه بين الجن والإنس الذي يفيد تشابه في النشأة ومراحل التطور فالمبادىء العامة لا تستثني موجوداً دون آخر وكذلك التشابه في مراحل التطور.

وفي الحديث السابق إشارة إلى أن النسناس مخلوق سبق الإنسان في تجربة الوجود، وهذا يفيد أنه تعرض إلى امتحان الأهلية الذي تعرض له الإنسان، فثبت من خلالها مستوى الأهلية ثم أيدت بناءاً على عدم ثبات الأهلية أو لأن الأجل المخصص لها انتهى بيوم معين، كما ينتهي أجل الإنسان بيوم القيامة، أو كما ينتهي أجل الشيطان عند ظهور الإمام الغائب كما يدل على ذلك ما يلي:

«روي عن وهب بن جميع مولى إسحاق بن عمّار قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول إبليس: ﴿رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾﴾[1] قال له وهب:

جعلت فداك أي يوم هو؟ قال:

يا وهب أتحسب أنّه يوم يبعث الله فيه الناس؟ إن الله أنظره إلى يوم يبعث فيه قائمنا، فإذا بعث الله قائمنا كان في مسجد الكوفة، وجاء إبليس حتّى يجثو بين يديه على ركبتيه فيقول:

يا ويله من هذا اليوم فيأخذ بناصيته فيضرب عنقه، فلذلك يوم الوقت المعلوم»[2].

«بحذف الإسناد مرفوعاً إلى وهب بن جميع، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن إبليس وقوله: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾﴾ أيّ يوم هو؟ قال:

يا وهب أتحسب أنّه يوم يبعث الله الناس؟ لا ولكن الله عزّ وجل أنظره إلى يوم يبعث الله قائمنا فيأخذ بناصيته فيضرب عنقه فذلك اليوم هو الوقت المعلوم»[3].

---

(١) سورة ص، الآيات: ٧٩ - ٨١.

(٢) بحار الأنوار: ٦٠/ ٢٥٤.

(٣) بحار الأنوار: ٦٠/ ٢٢١.

غير أنّ هذا لا يعني نهاية شياطين الجن والإنس بل ربما يمكن حمله على موت إبليس الأول أبو الجن الذي قد يكون معمراً حتى ظهور الغائب عليه السلام أو أنّه إبليس ذاك الزمان بمعنى كبير الشياطين إذ أن إبليس كما مرّ معناه البعيد عن الرحمة وهذا يمكن أن ينطبق على كثيرين بهذا المعنى.

أما موته فإنّه يتناقض مع كونه ليس واحداً كما جاء في الآيات وإنهم أمم، ثم أنّه يعني انتهاء البلاء قبل يوم القيامة، وهذا معناه خرق لأحد أهم قوانين الوجود ومبررات الاستمرار في الحياة، فالحياة لا تستمر بدون بلاء بل إن أصل النزول إلى الحياة هو البلاء.

ويترجم مبدأ التطور من خلال عنصرين هما:

أ - مبدأ التتابع في الخلق.

ب - ارتباط المخلوق بمادة الخلق.

◎ مبدأ التتابع في الخلق:

يستفاد من مبدأ التتابع في بعض الآيات كما سيرد ويمثل الصورة العملية لمبدأ الحركة نحو الكمال، فإن المخلوقات تأخذ فرصة معينة لامتحان قدرتها على البقاء، ثم تفسح لسواها من المخلوقات الأكثر كمالاً لأخذ حيزها في هذا العالم الذي يفيد التصور الإسلامي أنّه لا يزال يزداد غناءً سواء كان عبر التوالد المباشر أو عبر التنقلات النوعية المفاجئة أو الطفرات وفي هذا المجال ترد آية: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾[1] التي تفسر لنا المادة التي خلق منها الجان وهي النار بالإضافة إلى مبدا التتابع وقد ورد في تفسير هذه الآية ما يلي:

وهذا المبدأ يستفاد من استخدام القرآن للفظ: (من قبل ....).

وقال في قوله تعالى: إنّه ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾[2]: للناس في هذه المسألة أقوال:

القول الأوّل: أنّه من الملائكة ولا ينافي ذلك كونه من الجنّ، ولهم فيه وجوه:

الأوّل: أن قبيلة من الملائكة يسمّون بذلك بدليل قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾[3] وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ﴾[4].

---

(١) سورة الحجر، الآية: ٢٧.
(٢) سورة الكهف، الآية: ٥٠.
(٣) سورة الصافات، الآية: ١٥٨.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٠٠.

والثاني: أن الجن سميّ جنّاً للاستتار، فهم داخلون في الجنّة.

والثالث: أنّه كان خازن الجنّة فنسب إلى الجنّة، كقولهم: كوفي وبصريّ، وعن سعيد بن جبير: كان من الجانين الذين يعملون في الجنان جنّ من الملائكة يصوغون حلى أهل الجنة مذ خلقوا، رواه القاضي في تفسيره عن هشام، عن ابن جبير.

والقول الثاني: أنّه من الجن الذين هم الشياطين والذين خلقوا من النار وهو أبوهم.

والقول الثالث: قول من قال: كان من الملائكة فمسخ وغيّر.

وقال البيضاوي: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ حال باضمار ﴿قَدْ﴾ أو استيناف للتعليل كأنّه قيل: ما له لم يسجد؟

فقيل: كان من الجنّ ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ فخرج عن أمره بترك السجود، والفاء للتسبب، وفيه دليل على أنّ الملك لا يعصي البتّة وإنّما عصى إبليس لأنّه كان جنياً في أصله، ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ﴾ أعقيب ما وجد منه تتخذونه؟ والهمزة للانكار والتعجب ﴿وَذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ أولاده وأتباعه، وسمّاهم ذريته مجازاً ﴿أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى﴾ فتستبدلونهم بي فتطيعونهم بدل طاعتي ﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ من الله إبليس وذريته ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ﴾ الخ نفي إحضار إبليس وذريته ﴿خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾(١) وإحضار بعضهم خلق بعض ليدلّ على نفي الاعتضاد بهم في ذلك كما صرّح به بقوله: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾(٢) أي أعواناً ردّاً لاتخاذهم أولياء من دون الله شركاء له في العبادة، فإنّ استحقاق العبادة من توابع الخالقية والاشتراك فيه يستلزم الاشتراك فيها.

وقيل: الضمير للمشركين، والمعنى ما أشهدتهم خلق ذلك وما خصّصتهم بعلوم لا يعرفها غيرهم حتّى لو آمنوا تبعهم الناس كما يزعمون فلا يلتفت إلى قولهم طمعاً في نصرتهم للدين، فإنّه لا ينبغي لي أن أعتضد بالمضلين لديني.

وقال في قوله: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ﴾ الخ أي وما أنساني ذكره إلاّ الشيطان فإنّ ﴿أَذْكُرَهُۥ﴾ بدل من الضمير وهو اعتذار عن نسيانه بشغل الشيطان له بوسواسه ولعلّه نسي ذلك لاستغراقه في الاستبصار وانجذاب شراشره إلى جناب القدس بما عرفه من مشاهدة

(١) سورة البقرة، الآية: ١٦٤.
(٢) سورة الكهف، الآية: ٥١.

الآيات الباهرة، وإنّما نسبه إلى الشيطان هضماً لنفسه، أو لأنّ عدم احتمال القوة للجانبين واشتغالها بأحدهما عن الآخر يعدّ من نقصان»[١].

فالجان كان موجوداً قبل خلق الإنسان وقبل ضمه إلى مجموع المخلوقات التي يشير القرآن إلى أنها كانت حصراً الملائكة كما مرّ في الآيات في سورة البقرة. والملائكة كان إبليس معهم والذي بدوره يحتمل أن يكون غير موجود في الجزء الأول من الآية حينما قال الله تعالى للملائكة: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾[٢] ولهذا فإن القرآن لم يتحدث إلاّ عن اعتراض استفساري للملائكة على ما ذهب إليه أغلب العلماء اتساقاً مع عصمة الملائكة فإذا كان الشيطان موجوداً لأبرز القرآن وجوده بالرفض والعصيان ويحتمل أيضاً أنّه كان ضمن المجموع المعترض لكن اعتراضه كأنه من منطلق مقدم العصيان، لكنه لم يكن قد بلغ مرحلة الفعل، وكان نبه حصراً ولهذا فإن القرآن لم يتحدث عنه قبل حصوله وحين خلق الإنسان تحول هذا إلى معصية فعلية فاستحق الطرد.

وتبعاً لكل احتمال فإن زمن خلق إبليس سيختلف، فالزمن حسب الاحتمال الأول سيكون بعد اخبار الملائكة بخلق آدم، خلق الله إبليس.

حيث جاء في بعض الأحاديث منها الحديث من بحار الأنوار الذي جاء فيه: «إن الله خلق خلقاً قبل آدم وكان إبليس فيهم حاكماً في الأرض فعتوا وأفسدوا وسفكوا الدماء فبعث الله الملائكة فقتلوهم وأسروا إبليس ورفعوه إلى السماء وكان مع الملائكة يعبد الله إلى أن خلق الله آدم»[٣].

وجاء أيضاً في الحديث أن الله تعالى قال: «إني أريد أن أخلق خلقاً بيدي وأجعل من ذريته أنبياء ومرسلين وعباداً صالحين وأئمة مهتدين، وأجعلهم خلفاء على خلقي في أرضي، وأبيد النسناس من أرضي، وأطهّرها منهم وأنقل مردة الجن العصاة من بريتي وخلقي وخيرتي، وأسكنهم في الهواء وفي أقطار الأرض فلا يجاورون نسل خلقي واجعل بين الجن وخلقي حجاباً فلا يرى نسل خلقي الجن ولا يجالسونهم ولا يخالطونهم»[٤].

فإبليس هنا سبق خلق الإنسان وهناك جنس آخر أيضاً هم النسناس وكل هؤلاء لم

---

(١) بحار الأنوار: ٦٠/١٧٨ - ١٨٠.
(٢) سورة ص، الآيتان: ٧١، ٧٢.
(٣) بحار الأنوار: ٦٠/ ٢٧٣.
(٤) المصدر نفسه: ٦٠/ ٢٧٣.

يبلغوا مستوى القدرة على خلافة الأرض. وفي هذا الحديث دلالة اضافية على وجود أجناس بائدة هم النسناس، وبذلك يفتح باب أمام العقل لتصور كون عملية البقاء خاضعة لمعايير معينة، وبدونها فإن الإبادة ستكون نصيباً للبغاة غير المؤهلين للبقاء لكن حالة إبليس لم يحكم فيها بالزوال وحكم بحرمانه من الخلافة لعدم الأهلية وهذه القضية سنعود إلى بحثها.

والاحتمال الثاني: هو أن إبليس كان موجوداً حين الإخبار وهذا فيه عدة احتمالات تبعاً لما يكون عليه إبليس، فإن كان إبليس هو أول مخلوق من الجن وهو أبوهم، فإنّه سيكون قد عصى ثم ولدت له ذرية كان فيها الصالح والعاصي، وأنّه كان كآدم قبل النزول إلى الأرض وكونه من الجن سوف يدل على أنّه كان مع الملائكة وليس منهم.

أمّا إذا كان إبليس فرداً من جنس أرضي اختير ليكون مع الملائكة بناءً على صفات خاصة، وأن الله ابتلاه فيما بعد فخرج بعصيانه وأنزل إلى الأرض، فهنا سيكون الجان الصالحون لا علاقة لهم بهذا العاصي.

والمهم في هذا البحث أن ظهور المخلوقات سيكون متتابعاً، وكلما ظهر جنس ارتبط بعلاقة مع الأجناس الأخرى الموجودة بحسب قواعد خاصة. وهذا سيقودنا إلى عدة من الفرضيات:

١- الخلق التطوري.

٢- الخلق المباشر.

٣- الجمع بين الفرضيتين.

ووفق جميع هذه الفروض فإن عملية الخلق لا تزال مستمرة وأن الله يبرىء أجناساً جديدة تختلف تتبارى في طاعة الخالق وأن فشل أي مخلوق يؤدي إلى فنائه وزواله. وهذا بدوره رهين بعدم قدرته على التوآم مع ضغط الغرائز المقوم الرئيسي لبقاء النوع الفيزيولوجي، وبالتالي اصطدامها مع حقيقة الوجود الأصلية أو عنصر البقاء الكامل ألا وهي الطاعة، فالبقاء يتأسس على طاعة الموجودات لله سبحانه وتعالى ذلك أن عدم الطاعة يؤدي إلى الفناء، فالحدود التي يفرضها الله هي عبارة عن المجالات التي يمكن للحي الاستمرار ضمنها وحين يغادرها فإن فرص فنائه ستتضاعف ويرتب على فنائه فناء النوع أو الأنواع الأخرى.

ومن هذا المنطلق فإن الطاعة هي مقوم البقاء والتكامل، فإن المخلوق يرتقي في

درجات البقاء أي أنه يتكامل وعلى هذا الأساس فإن القرآن يطرح مفهوماً معقداً للبقاء يعتمد على الطاعة، ذلك أن عبور كل عنصر كيميائي أو كائن حي لدورة معينة ستضعه في قائمة المواد التي ستستمر وتتحول إلى مادة أكثر تعقيداً وأكثر تطوراً، فلو تصورنا أن الكائن ذا الخلية الواحدة فشل في البقاء فإنّ الكائن ثنائي الخلية سوف لن يظهر ونفس الشيء بالنسبة للأجرام المادية.

فإذا كنا سنفترض أن التطور يعتمد أصلاً على توفير مقوماته فإننا لا بدّ أن نفترض أيضاً بأن عملية دفع باتجاه توفير هذه المقومات موجودة، وأن هناك تفاوتاً في الاستجابة، وأن الأكثر قدرة على الاستجابة هو الذي سيشكل نواة الحلقة القادمة من التطور، وهكذا يكون هذا المبدأ عام ويشمل جميع أجزاء الوجود المعروفة، فإذا تأملنا الوجود في الأطوار السابقة وفي مرحلة ما قبل الحياة، فإن ظهور مخلوق كالإنسان سيكون شيئاً بعيداً عن التصور وغاية في البعد ولكن بعد ظهور الحياة فإن الحلقة الأولى لتطور الأحياء تكون قد بدأت.

وفي النهاية فإن طاعة الإنسان ستشكل مقدمة لتطورات في أشكال الحياة يمكن أن تصل إلى مديات عالية في التطور وتكون نسبتها كنسبة الخلية الحية الواحدة إلى الإنسان.

وعلى هذا فإن هناك قانون البقاء وهو يضم ثلاث حالات:

أ - حالة الطاعة.

ب - حالة العصيان الجزئي.

جـ - حالة العصيان الكلي.

فالطاعة وهي كون الموجود قابلاً للتطور والبقاء للمشاركة في الحلقات القادمة، والعاصي عصياناً كلياً لا يستحق البقاء ويحكم عليه بالفناء، والزوال وبالتالي عدم المشاركة في حلقات التكامل اللاحقة، والثالث العصيان الجزئي يسمح له بالبقاء ولكنه سيشكل عنصراً من عناصر التطور بمقدار الإستجابة والطاعة.

وعلى هذا فإن الإنسان والشيطان يشتركان في كونهما كجنس فيهما مقدار من الطاعة ومقدار من المعصية، وكأفراد فيهم المطيع وفيهم العاصي جزئياً لذلك فإن حكم الفناء المطلق لم يصدر عليهما ولذلك فإن استمرارية حياتهما تعبر عن قدرة على انتاج الأفراد والجماعات المطيعة، وفي النهاية أي يوم الحساب سيتم فرز الأفراد المهيئين للبقاء والأفراد غير المهيئين.

وهكذا نصل إلى مفهوم عميق للبلاء الذي يشكل جوهر قانون البقاء والفناء، فالوجود هو البلاء ذاته، والطاعة هي مقوم البقاء، والعصيان مفهوم الفناء، وعلى أساس وحدة القوانين التي أشار إليها الإمام علي عليه السلام في الخطبة القاصعة فإن الإنسان والشيطان يتماثلان.

● **عن عبد الله بن الصلت، عن أبي هدية، عن أنس بن مالك أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان ذات يوم جالساً على باب الدار معه عليّ بن أبي طالب عليه السلام إذ أقبل شيخ فسلّم على رسول الله صلى الله عليه وآله ثمّ انصرف.**

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام: أتعرف الشيخ؟

قال له علي عليه السلام: ما أعرفه.

فقال صلى الله عليه وآله: هذا إبليس.

فقال علي عليه السلام: لو علمت يا رسول الله لضربته ضربة بالسيف فخلصت أمّتك منه، قال: فانصرف إبليس إلى عليّ عليه السلام فقال له: ظلمتني يا أبا الحسن، أما سمعت الله عزّ وجلّ يقول: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ﴾[1]؟ فوالله ما شركت أحداً أحبّك في أمّه[2].

● **المحاسن: عن الرضا، عن آبائه عليهم السلام قال: قال عليّ بن أبي طالب عليه السلام: إن لإبليس كحلاً وسفوفاً ولعوقاً، فأمّا كحله: فالنوم، وأمّا سفوفه: فالغضب، وأمّا لعوقه: فالكذب[3] [4].**

● **عن إسماعيل بن أبان، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبيه، عن أبي هارون العبديّ، عن جابر بن عبد الله الانصاريّ قال: كنّا بمنى مع رسول الله صلى الله عليه وآله إذ بصرنا برجل ساجد وراكع ومتضرعٍ.**

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٦٤.

(٢) المحاسن: ٣٣٢، البحار ج٦٠ ص٢١٥-٢١٦، ح٥٠.

(٣) مناسبة الكحل للنوم ظاهر، وأمّا السفوف للغضب فلأنّ أكثر السفوفات من المسهلات التي توجب خروج الأمور الردية، والغضب أيضاً يوجب صدور ما لا ينبغي من الإنسان وبروز الأخلاق الذميمة به ويكثر منه، وفي القاموس: سففت الدواء بالكسر سفّا واستففته: قمحته أو قمحته أو أخذته غير ملتوت، وهو سفوف كصبور انتهى، وأما اللعاق فلأنّه غالباً ممّا يتلذّذ به ويكثر منه، والكذب كذلك، وفي النهاية: فيه إنّ للشيطان لعوقاً ودسوماً، اللعوق بالفتح: اسم لما يلعق به أي يؤكل بالملعقة، والدسام بالكسر ما يشدّ به الأذن فلا تعي ذكراً ولا موعظة.

(٤) البحار ج ٦٠ ص٢١٧، ح٥٣.

فقلنا: يا رسول الله ما أحسن صلاته؟؟

فقال ﷺ: هو الّذي أخرج أباكم من الجنّة، فمضى إليه عليّ غير مكترث[١] فهزّه هزّة أدخل أضلاعه اليمنى في اليسرى واليسرى في اليمنى، ثمّ قال: لأقتلنّك إن شاء الله تعالى.

فقال: لن تقدر على ذلك إلى أجل معلوم من عند ربّي، مالك تريد قتلي؟ فوا الله ما أبغضك أحد إلاّ سبقت نطفتي إلى رحم أمّه قبل نطفة أبيه، ولقد شاركت مبغضيك في الإموال والاولاد، وهو قول الله عزّ وجلّ في محكم كتابه: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾[٢].

قال النبّي ﷺ: صدق يا عليّ لا يبغضك من قريش إلاّ سفاحيّ ولا من الانصار إلاّ يهوديّ ولا من العرب إلاّ دعيّ ولا من سائر الناس إلاّ شقيّ ولا من النساء إلاّ سلقليّة وهي الّتي تحيض من دربها، ثمّ أطرق مليّا ثمّ رفع رأسه فقال: معاشر الانصار! اعرضوا أولادكم على محبّة عليّ.

قال جابر بن عبد الله: فكنّا نعرض حبّ عليّ عليه السلام على أولادنا، فمن أحبّ عليّا علمنا أنّه من أولادنا ومن أبغض عليّا انتفينا منه[٣].

● عن جعفر بن بشير المكّي، عن وكيع، عن المسعوديّ رفعه إلى سلمان الفارسيّ رحمه الله قال: مرّ أبليس لعنه الله بنفر يتناولون أمير المؤمنون عليه السلام فوقف أمامهم فقال القوم: من الّذي وقف أمامنا؟

فقال: أنا أبو مرّة.

فقالوا: يا أبا مرّة أما تسمع كلامنا.

فقال: سوأة لكم تسّبون مولاكم عليّاً بن أبي طالب؟

قالوا له: من أين علمت أنّه مولانا؟

قال: من قول نبيّكم ﷺ: «من كنت مولاه فعليّ مولاه اللّهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله».

فقالوا له: فأنت من مواليه وشيعته؟

---

(١) أي غير مبال به.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٦٤.

(٣) علل الشرائع ١: ١٣٥ و١٣٦ طبعة قم، البحار ج٦٠ ص٢٣٦ - ٢٣٧، ح ٨٠.

فقال: ما أنا من مواليه ولا من شيعته، ولكنّي أُحبّه، ولا يبغضه أحد إلاّ شاركته في المال والولد.

فقالوا له: يابا مرّة فتقول في عليّ شيئاً؟

فقال لهم: اسمعوا منّي معاشر الناكثين والقاسطين والمارقين، عبدت الله عزّ وجلّ في الجانّ اثني عشر ألف سنة فلمّا أهلك الله الجانّ شكوت إلى الله عزّ وجلّ الوحدة، فعرج بي إلى السّماء الدنيا فعبدت الله في السّماء الدنيا إثني عشر ألف سنة أُخرى في جملة الملائكة، فبينا نحن كذلك نسبّح الله عزّ وجلّ ونقدّسه إذا مرّ بنا نور شعشعانيّ فخرّت الملائكة لذلك النور سجّداً فقالوا: سبّوح قدّوس هذا نور ملك مقرّب أو نبّي مرسل، فاذا بالنداء من قبل الله عزّ وجلّ: ما هذا نور ملك مقرّب ولا نبّي مرسل، هذا نور طينة عليّ بن أبي طالب عليه السلام [(١)].

● عن عيون أخبار الرضا عليه السلام، عن عليّ بن أبي طالب عليه السلام قال: كنت جالسا عند الكعبة فاذا شيخ محدودب قد سقط حاجباه على عينيه من شدّة الكبر وفي يده عكازة وعلى رأسه برنس أحمر، وعليه مدرعة من الشعر، فدنا إلى النبيّ صلى الله عليه وآله والنبيّ مسند ظهره على الكعبة فقال: يا رسول الله ادع لي بالمغفرة.

فقال النبيّ صلى الله عليه وآله: خاب سعيك يا شيخ وضلّ عملك.

فلمّا تولّى الشيخ قال لي: يا أبا الحسن أتعرفه؟

قلت: لا.

قال: ذلك اللعين إبليس.

قال عليّ عليه السلام: فعدوت خلفه حتّى لحقته وصرعته إلى الارض وجلست على صدره ووضعت يدي في حلقه لاخنقه.

فقال لي: لا تفعل يا أبا الحسن فانّي من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم، والله يا عليّ إنّي لأُحبّك جداً وما أبغضك أحد إلاّ شركت أباه في أُمّه فصار ولد زنا، فضحكت وخلّيت سبيله[(٢)].

● العيون والعلل: باسناده قال: سأل الشاميّ أمير المؤمنين عليه السلام عن اسم إبليس ما كان في السّماء؟

---

(١) علل الشرائع ١: ١٣٦و١٣٧، المجالس: ٢٠٩، البحار ج٦٠ ص٢٣٧ - ٢٣٨، ٨١٢.
(٢) عيون الاخبار: ٣٣٩، البحار ج٦٠ ص٣٤ - ٢٣٥، ح٩٨٢.

فقال: كان اسمه الحارث.

وسأله عن أوّل من عمل عمل قوم لوط فقال: إبليس فانّه أمكن من نفسه[١].

◎ إبليس كان خازن السماء الخامسة

● بإسناده عن الحسن عليه السلام فيما سأل كعب الأحبار أمير المؤمنين عليه السلام قال: لَما أراد الله تعالى خلق آدم بعث جبرائيل فأخذ من أدم الأرض قبضة فعجنه بالماء العذب والمالح وركّب فيه الطبايع قبل أن ينفخ فيه الروح، فخلقه من أديم الأرض فطرحه كالجبل العظيم، وكان إبليس يومئذ خازناً على السماء الخامسة يدخل في منخر آدم ثمّ يخرج من دبره، ثم يضرب بيده على بطنه فيقول: لأي أمر خلقت؟ لئن جعلت فوقي لا أطعتك، ولئن جعلت أسفل منّي لأعينك فمكث في الجنّة ألف سنة ما بين خلقه إلى أن نفخ فيه الروح الحديث[٢].

وفي هذا الحديث تأكيد لانفصال مرحلة الخلق عن مرحلة نفخ الروح وأن الفاصلة هي ألف سنة فإذا كانت من سنين السماء كانت ١٠٠٠× ٣٦٠× ١٠٠٠= بناءً على أن اليوم هو ألف سنة أو١٠٠٠× ٣٦٠× ٥٠٠٠٠= بناءً على أن االيوم٥٠ ألف سنة.

وهو أيضاً يدل على أن أبليس كان خازناً على السماء الخامسة وفيه دلالة على الأسبقية والمكانة التي له بين الملائكة.

◎ ارتباط المخلوق بمادة الخلق

وهي العنصر الثاني في التطور.

◎ مادة الخلق

لقد قدم العلم الحديث صورة مختلفة عن الصورة القديمة لبناء المادة من خلال كشفه عن الوحدات البنائية للوجود، فقد كانت الذرات وهي أصغر وحدة بنائية غير قابلة للإنقسام وكانت عناصر بناء المادة أربعة هي: الماء، والنار، والتراب، والريح التي تتحدد فيما بينها لتولد المواد والطبائع الكثيرة التي تتفاوت بحسب نسبة تركيبها من هذه العناصر الأربعة.

---

(١) عيون الاخبار: ١٣٤، علل الشرائع ٣: ٣٨١ و٣٨٣، البحار ج٦٠ ص٢٤٧، ح٣ - ٢١.

(٢) موسوعة أهل البيت الكونية: ج٨ ص٥٧.

أما اليوم فقد أثبت العلم أن الذرة هي وحدة بناء المادة إلاّ أنها ليست تلك الذرة غير القابلة للإنقسام ذلك أنّها تنقسم إلى أجزاء أصغر، وأن الذرات تختلف بحسب التركيب في هذه الأجزاء ولذلك فإن كل ذرة هي تابعة لعنصر معين، وهكذا فإن عدد العناصر أكثر من (١٠٠) عنصر وهذه العناصر تتحد فيما بينها لتكوين المركبات ثم تتفاعل هذه المركبات الكيمياوئية لتنتج المواد المعروفة في الطبيعة.

وكما أسلفنا أن الإسلام أرجع الأحياء إلى المواد الجامدة وأكد أن بناء الكائن ناتج عن اتحاد المواد الجامدة، فقال أن الملائكة من نور وأن الجان خلقوا من نار وأن الحيوانات ناطقة وغير ناطقة من ماء أو تراب، غير أنّه لا يقف عند هذا الحد لأنّه يشير إلى عنصر آخر هو الروح وهي طبعاً شيء مجهول، لأنّ القرآن استخدم هذه اللفظة بمعانٍ متعددة فهي تعني مخلوقات سماوية مرة أو تعني جبرائيل، وتعني شيئاً غامضاً ومجهولاً ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾[1]، وربّما تعني ذلك الجزء من الكائن الذي به يستطيع أداء الفعاليات الحيوية غير أنّ هذا المعنى فيه نظر لأن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾[2] وهذا يدل على التسوية هي مرحلة من مراحل الوجود وهي لا يمكن أن تكون موجوداً كالأصنام، ولذلك يمكن أن تفهم على أنها منح الإنسان ما به الإمتياز عن الكائنات الأدون كالحيوان وسواه.

وإذا لم نذهب هذا المذهب فإن عنصر الحياة راجع إلى الروح وليس إلى الجسد وعليه فإن الحي يصبح حياً بإضافة عنصر الروح إلى النور أو النار أو الطين والماء فيتيح للكائن الحي أداء الفعاليا البايلوجية أو هو شيء آخر مسؤول مستوى خاص من الإدراك أو هو الذي به يمتلك انسان الإرادة وحرية الاختيار.

إن ما يفهم من النصوص أن الأحياء مركبة من عنصرين هما العنصر الذي يتركب منه البنية المادية أو الجسم أو البدن وشيء آخر بالطبع. لقد خصصت النصوص الإنسان بشيء من التفصيل، ولكنها كانت غاية في الاجمال بالنسبة للجان والملائكة، فلم يرد أيّ نص قرآني حول مادة خلق الملائكة. وعرفنا ذلك من الأحاديث ونلاحظ أيضاً نفس الاجال بالنسبة للجان مع فارق هو اشارة القرآن إلى أن مادة خلق الجان هي النار ولكن

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٥. (٢) سورة ص، الآية: ٧٢.

لم يتبين هل أن الجان أضيفت إليه الروح مثل الإنسان أم لا؟ وإنه كل خلقه من النار أم لا؟ وبالتالي فإنه يمتلك هذه الروح أصلاً.

غير أن هناك أدلة تقودنا إلى افتراض وجود روح للجان كما هي بالنسبة للإنسان وهي تنحصر في أدلة التماثل بين الجان والإنس إذ أن كلاهما عاقلان مريدان ومكلفان بنفس الطريقة.

ولهذا فإننا سنفترض أن الطين والنار هما مادتان لبناء الجسد ولكي نفهم أن الإسلام لم يجارِ الفكر السائد في ذلك العصر، فإنّه قال بأن الملائكة من نور مع العلم أن النور ليس مادة من العناصر الأربع التي مرّ ذكرها. وهذا دليل على أن القرآن لم يتبنّ نظرية العناصر الأربع حتى لو لم يعارضها أو بنفيها بصراحة. ثم أنّه لم يقل بتركيب الجان من مادة أو أكثر بل طرح مادة واحدة وهي النار بينما يذهب العلم في ذلك الزمان إلى دخول النار والماء والريح والتراب في تركيب الإنسان، لكن القرآن أفاد أن الإنسان مركب من مادتين هما الماء والتراب [الطين] وأحياناً أشار إلى الماء وحده أو إلى التراب وهذا أيضاً يغاير ما ذهبت إليه نظريات الخلق التي تقول: أن المواد الأربعة تشترك في تركيب الإنسان.

وعلى هذا الأساس تفهم خصوصية الرؤية الإسلامية حتى ولو كانت تستفيد في بعض المفردات المألوفة إلاّ أن التأمل العميق يفيد اختلاف الرؤية الإسلامية بصورة أساسية عن طريقة التفكير السائدة في ذلك العصر. كما أن هناك ملاحظات دقيقية أخرى تؤكد هذا الأمر فمثلاً نرى أن القرآن يقول: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾[1].

فهنا استخدام «ثم» يشير إلى وجود فاصلة وهذا يمكن أن يفهم على أنّه طور من أطوار التخلق وهناك أيضاً شيء مشابه في الآية: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾[2].

فهذه الآية إشارة إلى أن بداية خلق الإنسان من طين أي أن الطين مرحلة من مراحل الخلق وهو الذي يسمح بجمع هذه بالفرضية العلمية كما سيأتي.

فالرؤية الإسلامية أكدت أن النور وحده عنصر من عناصر الخلق، وأن النار عنصر

---

(١) سورة غافر، الآية: ٦٧.
(٢) سورة السجدة، الآية: ٧.

آخر، وأن امتزاج الماء بالتراب كان مادة من مواد الخلق هذه من جهة العناصر. أما بالنسبة للأحياء المبنية فإن الرؤية الإسلامية أشارت إلى وجود عدد من الأجناس الكبيرة وهي أجناس الأحياء التي تتفاوت تفاوتاً شديداً، فبعضها غير مرئي، فهناك الملائكة وهي كائنات عاقلة لكنها قسرية وغير حرة، وهناك كائنات غير عاقلة وقسرية وتتحرك بالغرائز وهي الحيوان والنبات، وهناك كائنات عاقلة حرة كالإنسان ولديه غريزة وهو مرئي، وهناك كائنات عاقلة حرة كالجان ولديها غريزة لكنها غير مرئية بالنسبة للإنسان.
وقد وردت آيات حول مادة خلق الجان وجاء في تفسيرها ما يلي:

قوله تعالى: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾[1].

«والجان» قال البيضاوي: أي الجن.

وقيل: إبليس ويجوز أن يراد به كون الجنس بأسره مخلوقاً منها، وانتصابه بفعل يفسره «**خلقناه من قبل**» أي من قبل خلق الإنسان «**من نار السموم**» أي من نار الحرّ الشديد النافذ في المسامّ، ولا يمتنع خلق الحياة في الأجرام البسيطة كما لا يمتنع خلقها في الجواهر المجرّدة، فضلاً عن الأجساد المؤلّفة التي الغالب فيها الجزء الناري، فإنها أقبل لها من التي الغالب فيها الجزء الأرضي، وقوله: ﴿مِن نَّارٍ﴾[2] باعتبار الجزء الغالب كقوله: ﴿خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾[3].

وقال الرازي: اختلفوا في أن جان من هو؟ قال عطاء: عن ابن عباس: يريد إبليس، وهو قول الحسن ومقاتل وقتادة.

وقال ابن عباس في رواية أخرى: الجان هو أبو الجن، وهو قول الأكثرين.

وسميّ جاناً لتواريه عن الأعين كما سميّ الجن جنّاً لهذا السّببِ، والجنين متوار في بطن أمه، ومعنى الجان في اللغة الساتر من قولك جنّ الشيء إذا ستره فالجانّ المذكور هنا يحتمل أن يكون جاناً لأنه يستر نفسه عن بني آدم أو يكون من باب الفاعل الذي يراد به المفعول، كما تقول في لابن وتامر وماء دافق وعيشة راضية، واختلفوا في الجنّ فقال بعضهم: إنه جنس غير الشياطين، والأصح أن الشياطين قسم من الجنّ، فكل من كان منهم مؤمناً فإنه لا يسمى بالشيطان، وكل من كان منهم كافراً يسمّى بهذا الأسم.

---

(١) سورة الحجر، الآية: ٢٧.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٢.
(٣) سورة الروم، الآية: ٢٠.

والدّليل على صحة ذلك أن لفظ الجن مشتق من الاجتنان بمعنى الاستتار فكل من كان كذلك كان من الجن.

والسموم في اللغة الرّيح الحارّة تكون بالنهار، وقد تكون بالليل، وعلى هذا فالريح الحارة فيها نار ولها لهب، على ما ورد في الخبر أنها من قيح جهنم قيل: سمّيت سموماً لأنها بلطفها تدخل مسام البدن، وهي الخروق الخفيّة التي تكون في جلد الإنسان يبرز منها عرقه وبخار باطنه.

قال ابن مسعود: هذه السموم جزء من سبعين جزءاً من السموم التي منها الجان وتلا هذه الآية.

فإن قيل: كيف يعقل حصول الحيوان من النار؟ قلنا هذا على مذهبنا ظاهر لأن البنية عندنا ليست شرطاً لا مكان حصول الحياة، فإنه تعالى قادر على خلق الحياة والعقل والعلم في الجوهر الفرد، وكذلك يكون قادراً على خلق الحياة والعقل في الجسم الحار[١].

قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾[٢].

وقال الطبرسي رحمه الله: قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ﴾ أي أبا الجن، قال الحسن: هو إبليس أبو الجن، وهو مخلوق من لهب النار كما أن آدم مخلوق من طين ﴿مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ أي نار مختلط أحمر وأسود وأبيض، عن مجاهد.

وقيل: المارج: الصافي من لهب النار الذي لا دخان فيه، «**سنفرغ لكم أيها الثقلان**» أي سنقصد لحسابكم أيها الجن والإنس، والثقلان أصله من الثقل، وكلّ شيء له وزن وقدر فهو ثقل، وإنما سميّا «ثقلين» لعظم خطرهما وجلالة شأنها بالإضافة إلى ما في الأرض من الحيوانات، ولثقل وزنهما بالعقل والتمييز[٣].

في بيان أن الجنّ مخلوق من النار، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾[٤] وقال تعالى حاكياً عن إبليس أنه قال: ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾[٥].

واعلم أن حصول الحياة في النار غير مستبعد، ألا ترى أن الأطباء قالوا: إن

---

(١) بحار الأنوار: ٦٠/٤٩-٥٠.
(٢) سورة الرحمن، الآية: ١٥.
(٣) بحار الأنوار: ٦٠/٥٩.
(٤) سورة الحجر، الآية: ٢٧.
(٥) سورة الأعراف، الآية: ١٢.

المتعلّق الأول للنفس هو القلب والروح وهما في غاية السخونة، وقال جالينوس: إنّي بقرت مرة بطن قرد وأدخلت يدي في بطنه وأدخلت اصبعي في قلبه فوجدته في غاية السخونة، ونقول: أطبق الأطباء على أن الحياة لا تحصل إلا بسبب الحرارة الغريزية، وقال بعضهم: الأغلب على الظن أن كرة النار تكون مملوءة من الروحانيات[١].

وقد جاء في الميزان ما يلي:

قوله تعالى: «﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ قال الراغب: السموم الريح الحارة تؤثر تأثير السم انتهى...»[٢].

وجاء أيضاً:

«ظاهر المقابلة بين قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ...﴾ وقوله تعالى: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ ...﴾[٣] أن خلق الجان من نار السموم المراد به الخلق الابتدائي وبدء ظهور النوع كخلق الإنسان من صلصال وهل كان استمرار الخلقة في أفراد الجن المستتبع لبقاء النوع على سنة الخلق الأول من نار السموم بخلاف الإنسان حيث بدء خلقه من تراب ثم استمر بالنطفة؟

كلام الله سبحانه وتعالى خال عن بيانه ظاهراً غير ما في بعض كلامه من نسبه الذرية إلى إبليس كما قال: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى﴾[٤] ونسبة الموت إليهم كما في قوله: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾[٥] والمألوف من نوع فيه ذرية وموت هو التناسل والكلام بعد في هذا التناسل هل هو سفاد كسفاد نوع من الحيوان أو بغير ذلك؟»[٦].

وجاء في قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾[٧] ما يلي:

المارج: هو اللهب الخالص من النار وقيل: اللهب المختلط بالسواد والكلام عن

(١) بحار الأنوار: ٦٠/ ٣٣٠.
(٢) تفسير الميزان: ١٢/ ١٥١ - تفسير سورة الحجر.
(٣) سورة الحجر، الآيتان: ٢٦، ٢٧.
(٤) سورة الكهف، الآية: ٥٠.
(٥) سورة فصلت، الآية: ٢٥.
(٦) تفسير الميزان: ١٢/ ١٥٣.
(٧) سورة الرحمن، الآية: ١٥.

الجان كالكلام عن الإنسان فالمراد نوع الجن وعدهم مخلوقين من النار باعتبار انتهاء خلقهم إليه وقيل: المراد بالجان أبو الجن[1].

ومن خلال ما بينته الآيات يمكن الوصول إلى ما يلي:

١ - أن مادة خلق الجن هي النار ولكنها ليست هذه النار فهي مرة «نار السموم» وأخرى «مارج من نار» وقد مر تفسيرهما مما يساعد على انتزاع صورة علمية معاصرة من خلال الصورة التي رسمها القرآن الكريم، وهي أن خلق الجن إنما جاء من حرارة شديدة. وفي العادة أن الحرارة هي عبارة عن موجات تطلقها المادة إذا تعرضت لآثاره وإذا زادت فإنها تطلق موجات مشعة.

٢ - قد أشار الطباطبائي إلى حقيقة مهمة وهي أن خلق الجان من نار كان في البداية فقط لكن استمر وجودهم من خلال نظام التكاثر وتوليد الذرية وهذا يستفاد من التشابه بين حياة الإنسان وحياة الجان إذ بدأ الإنسان من تراب وبدأ الجان من نار واستمر كلاهما من خلال الذرية.

وإذا كان هذا التحول قد صار ممكناً بعد مرور الكائن من حالة التراب إلى حالة التكاثر من خلال مراحل تخلق فإننا نستطيع تعميم هذا الفرض على انتقال الجان من النار إلى حالة التكاثر.

ويمكن اجمال هذا الأمر بما يلي:

أفادت النظريات العلمية أن الكون برمته قد مرّ بأطوار من التحولات وأنه لم يصل إلى وضعه الحالي إلا بعد تطورات متواصلة وهذا هو أحد المبادىء الأساسية في الوجود، وهو مبدأ الحركة التكاملية التي تسير فيها الموجودات من حالة بسيطة إلى حالة أكثر تعقيداً وأكثر استقراراً. وقد جاءت الترجمة العملية لهذا المبدأ من خلال النظريات العلمية التي رسمت سيناريو من المراحل المبكرة للكون «عندما كان عمره حوالي واحد من عشرة آلاف جزء من الثانية، حيث كانت درجة الحرارة بحدود ترليون درجة، وكان الكون عبارة عن مزيج كثيف من المادة والطاقة. المادة هنا تعبر عن الجسيمات الأساسية ذات الكتلة. وفي مثل هذه الدرجات الحرارية، فإنها تتصرف مثل الاشعاعات تماماً إذ تكون طاقاتها الحركية وسرعاتها عالية جداً». وكانت هذه

---

(١) المصدر نفسه: ٩٩/١٩.

الجسيمات في حالة خلق وفناء مستمرين، ولما كان الكون آنذاك في حالة توازن حراري، فإن الأجزاء المخلوقة كانت تساوي الأجزاء الفانية لكل نوع من الأنواع، أي أن عددها يبقى ثابتاً دون تبديل. لاحظ أننا نقصد هنا بالفناء: تحول الجسيمات ذوات الكتل إلى اشعاعات، ونعني بالخلق: تحول الاشعاعات إلى جسيمات ذات كتلة[1].

ومن هذه البداية تتواصل مراحل الخلق حتى تتولد الجسيمات الأولية لبناء الذرة والفاصلة بين لحظة الانفجار الكوني الكبير وبين وصول الكون إلى حالة الاستقرار تقدر بحوالي (١٣) مليار سنة مرت فيها الأجرام بتحولات.

وبحسب النظريات العلمية أيضاً أنه لم يكن ممكناً ظهور أبسط أشكال الحياة إلا في مطلع الأربعة مليارات سنة الأخيرة، وهذا الأمر سيكون معقولاً إذ لا بدّ من تحكم نفس القانون في ظهور الأحياء وأن الأشكال البسيطة في أصل ظهور الأشكال الأعقد لكي يكون الكون مهيأ لظهور الإنسان خليفة الرحمن في الأرض.

وقد تم بحث عملية التوفيق بين ظهور الإنسان بحسب النصوص القرآنية والأحاديث وظهوره بحسب الآراء العلمية في بحثنا عن الملائكة، المهم هنا أننا نفترض فرضية مشابهة للأجناس الأخرى، فالجان الذي هو من نار سبق ظهور الإنسان وقبل ظهور الجان ظهرت الملائكة بل أنها أولى الموجودات الحية، وهذا يعني أن الطور الأول للكون وعندما كان من المستحيل ظهور أحياء ظهرت الملائكة لأنها قادرة على التوائم مع هذا الطور من الوجود، كما أنها قادرة على التوائم مع أطوار الكون الأخرى، لأنها لا تتأثر بدرجات الحرارة وأنها لا تنام ولا تتكاثر، وأنها بحسب ما جاء في الأحاديث وما يفهم من الروايات كانت أولى الكائنات العاقلة لذلك كانت هي المشرفة على حركة الطبيعة والحياة ومسؤولة عن تنفيذ برامج التكامل في الوجود.

وفي طور لاحق وعندما بلغ الكون مستوى أكثر تقدماً أضيف جنس جديد هو جنس الجان «مخلوقات النار». وعلى هذا الأساس فإن الحياة تبدأ من أشكال النور إذ أنها أبسط الأشكال وهي عبارة عن [عقل حي] ربما بدا بصورة بسيطة أيضاً وتطور ليصبح ملائكة مكرمين في آخر صورهم التي نقلتها الأحاديث والآيات، ثم تظهر النار ليولد معها كائن جديد من الطاقة بإضافة [غريزة إلى العقل الحي] ونلاحظ إن النصوص لا تشير إلا إلى البدايات دون ذكر الأزمان والصورة الفعلية للمخلوقات.

---

(١) خلق الكون بين العلم والإيمان: ٨٩.

فهل أن البدايات كانت متزامنة أو متقاربة في الزمن؟ فهذا ما لم يذكر. ولذلك يمكننا أن نفترض أن ظهور العقل الحي في زمن مقارب لظهور الغريزة الحية ليتحدا في أزمنة لاحقة، فيظهر الكائن [عقل - غريزة] [جن] في صوره البدائية ثم يظهر الكائن الثاني [غريزة - عقل] [الإنسان] وأن البدايات طبعاً متوازية فهناك بحسب النظرية العلمية مواد كاربونية ذائبة في سواحل المحيطات مثلت ما يشبه الحساء الذي ظهرت من خلاله الأحماض التي منها نشأت أبسط أشكال الحياة.

فإننا نستطيع افتراض حساء مشابه في الجسيمات الكثيفة التي خلقت في بدايات الانفجار الكوني ليولد أبسط أشكال الحياة التي بدايتها الطاقة، ثم تتواصل التطورات لتظهر الأشكال الأعقد وهي التي بإمكانها التكاثر بأحد صيغ التكاثر البسيطة وربما بالانشطار، ذلك أننا لن نستطيع افتراض وجود كائن حي بدون افتراض هذا الطور وهو الذي يستطيع فيه الكائن الحي التوالد، ذلك أنها هي الميزة الرئيسية التي تفصل الكائنات الحية عن الجوامد.

ومن هناك تتواصل حركة هذه المخلوقات حتى يأتي الطور الذي يظهر فيه المخلوق الراقي الذي اسمه [الجان] وهو الذي انضم إلى الملائكة وصار يعبد الله كما تعبد وقد عدّ أحدها، فكلمة **(من قبل)** التي وردت في الآية تشير إلى بداية خلق الجان وتسكت عن المراحل التي تفصل بين مبدأ الخلق ولحظة التكون التي انتمى فيها إلى الملكوت وصار يحاكي الملائكة في السلوك والطاعة؛ لأنه حينئذٍ لم تكن لديه دوافع المعصية ولعل فواصل زمنية هائلة قد مرّت قبل وقوعها، فإذا كان الإنسان بناءً على القول بفرضية التطور قد استغرق ٤ مليارات سنة من حين وجودة «الحساء» وهو الذي قد يلتقي مع وصف القرآن لخلقه حمأ مسنون وحتى ظهور آدم عليه السلام فلعلنا يمكن أن نفترض أزماناً أكثر طولاً بالنسبة للطاقة إذ أن أهم خصائص الطاقة هو الحركة الأشد.

ويمكننا افتراض فرص أقل لموجات الطاقة في اللقاء ثم في التفاعل نسبةً لمقابلها المادي، كما في الماء والمركبات الكاربونية مثلاً التي ظهرت منها سلاسل الحياة صعوداً نحو تخلّق الأحماض الأمينية التي منها وجد الشكل الأبسط للحياة والذي يمكن أن لا يشبه أبسط أشكال الحياة الحالية إلا من جهة بعيدة جداً.

وإذا صحت هذه الفرضية فإن أجناس النار الحية كثيرة مثل أجناس الطين ولكن لا يمكن افتراض بقائها مثل أجناس الطين التي لا تزال أنواع منها غير منقرضة وأنواع قد بادت وانقرضت، ولكن يفترض أن الذي عاش مع الملائكة منها هو الجان ثم شارك

الإنسان في العيش على الأرض، أما بقية الأنواع فإنها قد انقرضت أو أنها تعيش في مناطق أخرى. وأن التطور يشمل جميع أفراد النوع المتطور بحيث لا يترك أي فرد من السلالات الأقل تطوراً.

وإذا كان الفرض قائماً على تشابه الجن والإنس فإنّه لا يعني التطابق التام في جميع المواصفات، وبالتالي فإن حركة جنس النار تختلف عن حركة جنس الطين حتى لو كانت هناك معالم كثيرة متطابقة، وأن الاختلاف يعود إلى الطبيعة التي كونت الكائن. وهنا لا بد من التطرق للحديث التالي الذي يطرح قضية هامة جداً في هذا الخصوص:

روي عن إسحاق بن جرير، قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: أي شيء يقول أصحابك في قول إبليس: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾.

قلت: جعلت فداك، قد قال ذلك وذكره الله في كتابه.

قال: كذب يا إسحاق ما خلقه الله إلا من طين، ثم قال: قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾(١) خلقه الله من ذلك ومن تلك الشجرة، والشجرة أصلها من طين(٢).

يطرح هذا الحديث الوحدة الجوهرية بين النار والطين وهو ما قدمت له الآيات دون أن يلتفت إليه كثيرون. ورغم تصريح الإمام عليه السلام به فإن القول بأن الله خلقه من نار يعادل قوله أنه خلقه من طين، لأن الطين يؤدي إلى انتاج النار، ولكن بعد مجموعة من عمليات التحول فالطين يؤدي إلى خلق الشجرة، والشجرة حين تحترق تنتج النار وهذه صورة من الصور يشبه مبدأ تكافىء المادة والطاقة، وأن لم يعبر عنه بصورة قوانين رياضية إلا أن فيه الماعة قوية إلى أن التباين بين الطين والنار تباين في بعض المظاهر ولكن يمكن لكل منهما أن يصبح كالآخر فالنار تنتج حياً غير مرئي.

وفي حديث قيل للإمام العسكري عليه السلام: لم يكن إبليس ملكاً؟

قال: لا، بل كان من الجن، أما تسمعان الله يقول: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾(٣) وهو الذي قال الله: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾(٤).

---

(١) سورة يس، الآية: ٨٠.

(٢) بحار الأنوار: ج٦٠/ ص٣٤٤. لعلّ المعنى أن الطين داخل في طينته وإن كان النار فيه أغلب.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٣٤.

(٤) بحار الأنوار: ٦٠/ ٩٥.

فهذا الحديث عرض التأكيد كون إبليس كان مع الملائكة في طريقة الحياة وأنه قادر على أن يصبح مثلهم في ظروف خاصة إلا أنه مختلف في الطبيعة عنهم، ولم يكن هذا الاختلاف بارزاً حتى جاءت اللحظة التي فرضت السلوك المغاير والمساوق لطبيعة المادة التي خلق منها وهي النار. ولذلك أشار الله سبحانه وتعالى إلى تلك الطبيعة فقال: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾.

فبقاء الشيطان فترة طويلة مع الملائكة أدى إلى خفاء طبيعته عن نفسه وعنهم، لأنه صار مثلهم في كل شيء حتى في طريقة السجود الطويلة كما هو وارد في بعض الأحاديث حيث أن فترة الطاعة الطويلة التي قضاها الشيطان كانت عبارة عن سجدتان.

وفي النهاية هذا الحديث يشير إلى أن خلقة الشيطان ومبدأه هو النار.

جاء عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن الملائكة كانوا يحسبون أن إبليس منهم وكان في علم الله أنه ليس منهم، فاستخرج ما في نفسه بالحمية والغضب، فقال: ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾[1].

وعن داود بن فرقد، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن الملائكة كانوا يحسبون أن إبليس منهم وكان في علم الله أنه ليس منهم، فاستخرج الله ما في نفسه بالحميّة، فقال: خلقتني من نار وخلقته من طين[2].

وفي هذا الحديث تأكيد كون إبليس مخلوقاً من نار وتأكيد على مطابقة الشيطان للملائكة في السلوك وفي طرائق الطاعة، لذلك فإنها لم تعد ترى الفرق بينها وبينه.

وروي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن الله عز وجل خلق الملائكة من أنوار، وخلق الجان من نار، وخلق الجن صنفاً من الجان من الريح، وخلق الجن صنفاً من الجن من الماء[3].

هذا الحديث يعرض سلسلة مخلوقات النار والنور، فيشير إلى أن الجان ليسوا موحدي الطبيعة بل أن الأصل هو النار، لكن هناك نوعاً من الريح فتولد نوعاً من أنواع الجان ثم تفرع من الماء فتولد نوعاً آخر.

وهذا المبدأ يعادل ما مرّ من أن الطبائع تتفاوت تبعاً لمادة الخلق ولعل هذا يؤكد ما

(١) بحار الأنوار: ٦٠/ ٣٥٩.
(٢) بحار الأنوار: ٦٠/ ٢٢٠.
(٣) بحار الأنوار: ٦٠/ ٩٤.

ذهب إليه حديث سابق من أن النار مبدأ الخلقة ولكنها فيما بعد مرّت بتطورات عديدة فاختلطت بالريح لتشكل مركبات جديدة ثم لتتحد بالماء فتشكل مركبات أخرى ومن كل مركب تنتج أنواع جديدة من الأحياء.

كما أن الحديث يبين أن الاشتراك في الاستتار يخفي في طياته تفاوتاً في طبيعة هذا الاستتار، فهناك الجان المستتر الرئيسي الذي يضم بين جنبيه صنفين هما المستتر الغازي [الريح] والمستتر [المائي].

◎ ارتباط الطبائع بمادة الخلق

«عن أبي عامر المكّي، قال: خلق الملائكة من نور، وخلق الجانّ من نار، وخلق البهائم من ماء، وخلق آدم من طين، فجعل الطاعة في الملائكة والبهائم، وجعل المعصية في الإنس والجنّ»(١).

إن هذا الحديث يعرض لأهم مادة يتركب منها الكائن فالملائكة هي من نار ولعلها بنفس الطريقة مرّت بأطوار الخلق ثم الجان، وكذلك مرت بأطوار من الخلقة ثم البهائم من ماء إلى أن الطبيعة الغالبة هي الماء وخلق آدم من طين. وقد أشار القرآن إلى أن آدم والحيوان مشتركان في الماء والطين، ولكن أشار إلى الطاعة في الملائكة أي وحدة الدوافع وتناقض الدوافع في الإنس والجان وهو الذي يؤدي غالباً إلى زرع دوافع المعصية.

وجاء في حديث آخر شرح أوضح لارتباط الطبائع والأخلاق بالمادة إلى خلق منها الكائن الحي، وهذا البحث هام ويحتاج إلى تفصيل لاستفادة جذور الطباع التي تتناسب في تكاملها مع تكامل الطبيعة أو المادة التي خلق منها الكائن الحي.

في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾(٢)، قال: وخلق الجان وهو أبو الجن وأنواع الطيور يوم الأربعاء(٣).

وهنا أشار إلى زمن خلق الجان هو الأربعاء بناءً على افتراض زمن معين لكل مخلوق أو مجموعة مخلوقات.

---

(١) بحار الأنوار: ٦٠/١٠٨-١٠٩.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٥٤.
(٣) بحار الأنوار: ٦٠/٩٥.

◎ مراحل وأدلة خلق الجان

تنفرد روايات أهل البيت عليهم السلام بطرح مفهوم للوجود يختلف عن المفاهيم الأخرى، ذلك أنها تفتح الأفق لتأريخ بعيد يقطعه الكائن لكي يصل في لحظة ما إلى الوجود الفعلي المحسوس، ولهذا فإننا نرى أحاديث تؤكد على أن الأئمة عليهم السلام كانوا عبارة عن أنوار في ساق العرش قبل خلق آدم.

وإذا بنينا على هذه القضية فإننا سوف لن نستطيع الوصول إلى لحظة معينة في التأريخ اسمها البداية، ويمكن أن تكون البداية هي بداية لمرحلة معينة، وعليه فإن هناك بدايات لأطوار وعمليات تخلق مستمرة يمر بها الكائن سواء كان حياً أو ميتاً، وأن هذه المراحل مجهولة إذ أنها سبقت إلى تأريخ معروف وقابل للاستنتاج وأن ما يمكن الوصول إليه من ذلك لا يتم إلا عبر الآيات والأحاديث التي أوحى الله بها إلى عباده لأنه العالم الوحيد الذي رافق العالم بهذه الأطوار الغامضة من الخلق.

فالحديث السابق مثلاً يتحدث عن طور سبق خلق آدم عليه السلام وتحدث القرآن عن بدايات منذ خلق آدم عليه السلام ومن مجموع ما ورد يمكننا الخروج بتصورات خاصة جداً للوجود والعدم.

فإننا إذا افترضنا للكون بداية مجمع عليها بين التيارات العلمية المعاصرة والتي عرفت باسم «الانفجار الكوني الكبير» وهي أيضاً قد تشبه البداية التي أشار إليها القرآن الكريم ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾[1].

وقد أشارت إليها إحدى خطب الإمام علي عليه السلام حين قال: **أنشأ الخلق إنشاءً وابتدأه ابتداءً... ثم نشأ سبحانه فتق الأجواء، وشق الأرجاء، وسكائك الهواء، فأجرى فيها ماءً متلاطماً تياره، متراكماً زخاره، حمله على متن الريح العاصفة... إلخ**[2].

وفي كل هذه الرؤى لا يأتي تصوّر عن بداية خلق المادة بل حديث عن مادة موجودة تعرضت إلى حالة من التمدد [إنفجار] [فتق الأجواء] [ففتقناهما] وقبل هذا التمدد فإن هناك مادة بصورة من الصور هي التي حدث فيها المتحول من الصورة السابقة إلى

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٣٠.
(٢) نهج البلاغة - شرح محمد عبده: ١/١٦ - ١٧.

الصورة التي تفترضها النظرية العلمية وتدثت عنها آيات القرآن الكريم وأحاديث أهل البيت عليهم السلام.

وهكذا فإن الوجود بهذه الصورة يعني حالة تحول ومقابلة العدم يعني عدم الحالة الجديدة وليس العدم المطلق بل إننا لا نلاحظ تصوراً عن العدم المطلق فلا يستطيع العلم أن يرسم صورة لنا عن حالة العدم أو اللاشيء.

وعلى هذا الأساس فإن الوجود عبارة عن طبقات من التحول وأن كل طبقة تكون في حالة كمون في المرحلة السابقة لها فهي مجرد حالة سكون. وهكذا فإن الوجود في أي طبقة يمثل حالة دخول في علائق مستحدثة بعد أن يغادر طبقة سابقة وحين يغادر علائقها فيدخل في علائق جديدة وهذا طبعاً ينطبق على الأحياء والجمادات بنفس الكيفية.

وكما ورد في النصوص أن الجن مروا بهذه الحالة قبل ظهور آدم عليه السلام في جانب معين من حياتهم وهو جانب الغرائز، ذلك أنّها كانت كامنة ولم تدخل في طور الفعالية والتأثير لانعدام الحافز لأنّها كانت تحتاج إلى حافز وهذا حافز كان خلق آدم.

وإذا بنينا على أن الجان هم كالبشر وقد مرّوا بحالة من التخلق كالتي مر بها بني البشر فإننا سنفترض أنّها كانت خاصة بالجانب العضوي، فهي عبارة عن مراحل الوصول إلى أكبر حالة تلائم بينهم البنية العضوية والعالم، وعند الوصول إلى هذه الحالة فإن بني البشر يدخلون في طور آخر هو طور التحولات الأخلاقية بحيث تهدف الصراعات إلى انتاج الحالة الأخلاقية الأكمل.

وعلى هذا الأساس فإن حالة التحولات متواصلة وتكون في البداية تحولات عضوية، وحين تتوقف عمليات التخلق العضوي فإن الكائن يستمر في عملية التخلق [التحول الأخلاقي] فقط.

وبالنسبة للإنس فإنّهم قد قطعوا مرحلة تخلق حتى ظهور الإنسان الأكمل (آدم عليه السلام) وكذلك الجن خاضوا نفس الأطوار حتى ظهر إبليس وهو الجني الأكمل، غير أن الفرق هنا يكمن في أن إبليس وصل إلى حالة التكامل العضوي قبل الإنس. وهنا أيضاً يمكن أن نفترض أن شخص إبليس صنع بصورة مفاجئة مثل آدم أما بقية الإنس فإنّهم تطورا عن آباء أقل تطوراً، وكل من آدم وإبليس هما اللذان مثلا حلقة التطور المفقود ومنذ ظهورهما تتهيأ الكائنات العاقلة لقطع مسيرة التطور العقلي والنفسي.

إذن هناك مرحلتان هما مرحلة التطور العضوي ومرحلة التطور الأخلاقي مع أن التطور العضوي لا يتوقف إنّما يستمر ولكن بصورة أكثر هدوءاً لأسباب تخرج عن موضوع بحثنا.

والقرآن حدثنا عن الطور الثاني والذي بدأ منذ إكمال الإنسان مراحل تطوره العضوي عند صدور الأمر الإلّهي بالسجود له، وهذا الطور طبعاً خاص بالمخلوقات ذات الطبيعة الثنائية أي [الجن والإنس].

وكما يبدو من النص أن تطور كل من الجن والإنس لا يبدأ إلاّ بظهور الطرف الثاني، فهما مخلوقان متوازنان، من ناحية البنية النفسية والأخلاقية وإن تطور كل منهما أخلاقياً مرتبط بالكائن الآخر، ولكنهما متضادان في التركيب فالإنسان الذي أساسه الطين هو عبارة عن (غريزة + عقل) بينما يمثل الجان قطباً معاكساً (عقل + غريزة) ويمكن لنا أن نفترض أن المراحل السابقة من التخلق كانت تهدف إلى خلق الانسجام بين الغريزة والعقل وبين البنية العضوية، إذ بدون هذا التناسب فإن وجود الكائن سيكون مضطرباً ويؤدي إلى زوال هذا الكائن في النهاية، فلو كانت الغرائز ضعيفة فإن الكائن قد لا يحاول تجنب الأخطار وبالتالي فإنّه سيموت وتتقلص أعداده بسرعة كبيرة، وإذا زادت وأمعن أي كائن في الخوف فإنّه يهلك لأنّه سوف لن يحصل على حاجاته الضرورية للبقاء.

ومن جهة أخرى فإنّه لا بد من تناسب بين البنية العضوية والمحيط أو البيئة إذ بدون هذا التناسب فإنّه أيضاً يموت الكائن وتنعدم الحياة وهكذا يمسي التناسب عنصر البقاء الرئيسي، لأن البقاء هو عبارة عن ارساء علاقات ناجحة بين عناصر الكائن الحي وهي الهدف الرئيسي الذي تحاول عمليات التخلف المتواصلة انجازه، وهذا التدرج هو سنّة الله في خلقه إذ لم يجعل المفاجئة هي القانون ومع ذلك فإن التدرج بالنسبة للإنسان فقط. إذ يمكن بالنسبة لله أن يكون بصورة مفاجئة لأن الزمن سيبدو لله قصيراً مهما طال أو أنّه لا يوجد زمن أصلاً وليس كما ننظر إليه نحن.

◎ أوّل من لاط

● «وفي الحديث التالي: بإسناده عن الصدوق قال: سأل الشّامي أمير المؤمنين عليه السلام عن اسم إبليس ما كان في السّماء؟

فقال: كان اسمه الحارث.

وسأله عن أوّل من عمل عمل قوم لوط.

فقال: إبليس فإنّه أمكن من نفسه.

وفي هذا دلالة على أن إبليس كان أوّل من علّم البشر هذا الإنحراف وكما يبدو أنّه عرفه في عالمه ثم صار ينشره سواء في الرجال أو في النساء، كما أن هذا التعليم جاء بطريقة غير مباشرة وبدأ في الرجال؛ لأن ظهور الفاحشة في النساء أضعف منه عند الرجال وعندما يعزف الرجال عنهن فإن الاستعداد للإنحراف يبدأ فيهن كما جاء في الروايات السالفة.

◎ التغذية والسكن

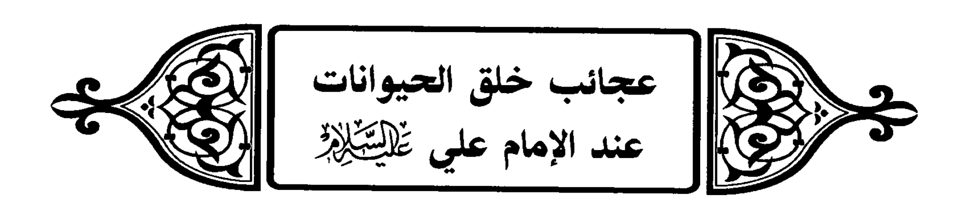
لا بدّ لنا من التأمّل فيما ورد عن خالص الجنّ من أنّهم لا يأكلون ولا يشربون ولا يموتون ولا يتوالدون؛ لأنّ هذا يتضارب مع صريح القرآن الذي أكّد أنّهم أمم خلت وأنّ لهم ذراري، وفي هذا أيضاً نسف لوحدة الأصل إذ كيف يكون الجان جداً لهؤلاء مع أنّهم لا يتوالدون؟ ثم كيف أصبحوا كذلك مع أنّهم ولدوا عنه؟ فهل أنتج سلسلة عقيمة ولا تموت ولا تأكل بينما هو يأكل ويلد ويموت؟ إن تغيير من هذا النوع يعني تغيير في كل أبعاد الحياة وإن كان ممكن الوقوع فلابدّ أنّه يحتاج إلى عملية خلق جديدة ومع ذلك فإن نفي النكاح لا يعني نفي التناسل والتكاثر، وبالتالي لابدّ من وجود طريقة للبقاء وطريقة أخرى للتغذية حتى لو كانت بطريقة ليست من الأكل والشرب.

وفي هذه الحالة لابدّ لنا أن نقول أن هذا الجن هو إما من الملائكة أو هو قريب من الملائكة، وبالتالي فإنّه جنس مغاير للجان في كامل أبعاد الوجود ولا يشتركون معهم إلاّ بالاسم، وبالتالي فإنّهم يخرجون عن مدار اهتمامنا إذ أننا معنيون بالجن الذين هم ثقل الحياة المقابل للإنس، وهم يأكلون ويشربون ويتناكحون بل أنّهم أبناء إبليس الذين يخلقون التفاعل في الحياة والدائرة القريبة منهم من سائر الجنّ.

الروايات أكدت على أنّهم يشبهون البشر في نظام التغذية ولا يختلفون إلاّ بوجود أطعمة خاصة بهم، وقد أشارت إلى هذا الأمر روايات منها:

عن وهب أنّه سئل عن الجنّ هل يأكلون ويشربون، أو يموتون أو يتناكحون؟

قال: هم أجناس، أمّا خالص الجنّ فهم ريح لا يأكلون ولا يشربون ولا يموتون ولا يتوالدون.



عجائب خلق الحيوانات عند الإمام علي عليه السلام

◎ علم الحيوان

قال الإمام علي عليه السلام : يصف عجيب خلقة الطيور : ابتدعهم خلقاً عجيباً من حيوانٍ ومواتٍ وساكنٍ وذي حركاتٍ، وأقام من شواهد البينات على لطيف صنعته، وعظيم قدرته، ما انقادت له العقول معترفةً به، ومسلمةً له، ونعقت في أسماعنا دلائله على وحدانيته، وما ذرأ من مختلف صور الأطيار التي أسكنها أخاديد الأرض، وخروق فجاجها ورواسي أعلامها، من ذات أجنحةٍ مختلفةٍ، وهيئاتٍ متباينةٍ، مصرفةٍ في زمام التسخير، ومرفرفةٍ بإجنحتها في مخارق الجو المنفسح، والفضاء المنفرج. كونها بعد إذ لم تكن في عجائب صورٍ ظاهرةٍ، وركبها في حقاق مفاصل محتجبةٍ، ومنع بعضها بعبالة خلقه أن يسمو في السماء خفوفاً، وجعله يدف دفيفاً. ونسقها على اختلافها في الأصابيغ بلطيف قدرته، ودقيق صنعته. فمنها مغموسٌ في قالب لونٍ لا يشوبه غير لون ما غمس فيه، ومنها مغموسٌ في لون صبغٍ قد طوق بخلاف ما صبغ به[1].

◎ عجيب خلق الجرادة:

●الإمام علي عليه السلام : وإن شئت قلت في الجرادة، إذ خلق لها عينين حمراوين، واسرج لها حدقتين قمراوين، وجعل لها السمع الخفيّ، وفتح لها الفم السويّ، وجعل لها الحسّ القويّ، ونابين بهما تقرضُ، ومنجلين بهما تقبض. يرهبها الزرّاع في زرعهم، ولا يستطيعون ذبّها، ولو أجلبوا بجمعهم، حتى ترد الحرث في نزواتها، وتقضي منه شهواتها. وخلقها كله لا يكوّن إصبعاً مستدقة[2].

(الجراد) اسم جنس لمجموعة من الحشرات المستقيمة الأجنحة، والتي تجمع في

---

(١) نهج البلاغة الخطبة: ١٦٥.

(٢) سفينة البحار ١/ ١٥٠. نهج البلاغة: الخطبة ١٨٥، الاحتجاج: ١١٧/٤٨٣/١، بحار الأنوار: ١/٢٧/٣، ربيع الأبرار: ٤٩٥/٤.

رتبة بهذا الاسم (رتبة مستقيمات الأجنحة (Orthoptera)، وتضم بالإضافة إلى الجراد مجموعة كبيرة من الحشرات منها نطاط الحشائش، والحفار، والصرصار (الصرصور) وغيرها.

وواحدة الجراد (الجرادة) وهو لفظ يطلق على كل من الأنثى والذكر، فيقال أنثى الجرادة، وذكر الجرادة، كما يقال ذكر الجراد وأنثى الجراد.

ويوضع الجراد مع نطاط الحشائش (Grass Hopper) في عائلة واحدة تعرف باسم عائلة الجراديات (Family Acrididae) وتتميز الحشرات فيها بالفم القارض، والأجنحة المستقيمة، وبالقدرة الفائقة للحشرة البالغة على التجمع في أسراب كبيرة، والهجرة عبر مسافات طويلة.

ويتراوح طول الحشرة البالغة من الجراد بين السنتيمتر والعشرة سنتيمترات، ويصل عدد الجراد المهاجر في السرب الواحد إلى عشرات البلايين، مما يجعله يغطي مساحة تقدر بأكثر من ألف كيلومتر مربع، بكتلة تقدر بآلاف الأطنان، ويأكل مثل هذا السرب في اليوم الواحد قدر وزنه من المزروعات، ومن هنا كانت تسمية هذه الحشرة الخطيرة باسم (الجراد) وهو اسم مستمد من الفعل (جرد) بمعنى أزال وكشف، وعرى، وقشر، يقال: (جرد الجراد الأرض جرداً) أي أكل جميع ما عليها من نبات حتى تجردت من غطائها الخضري كما (يجرد) المرء عن ثيابه، و(الجرادة) بضم الجيم ما قشر عن الشيء أي ازيل عنه، و(الجريد) هو السعف الذي (جرد) منه الخوض أي نزع عنه، و(التجريد) هو التعرية من الثياب، و(التجرد) هو التعري من الثياب أو من غيرها.

وتهاجر أسراب الجراد على ارتفاعات مختلفة من سطح الأرض، فمنها ما يطير على ارتفاعات منخفضة لا تتجاوز الثلاثمائة متر فوق مستوى سطح البحر في طبقات مستوية من الجراد المتراص بكثافات تتراوح بين مليون وعشرة ملايين جرادة في الكيلومتر المربع الواحد، (الأسراب الطباقية)، ومنها ما يصعد إلى ارتفاعات تصل إلى ألف متر فوق مستوى سطح البحر في هيئة تراكمية يأخذ فيها سرب الجراد شكل السحب الركامية فيسمى باسمها (الأسراب الركامية) يتوزع فيها الجراد في أكوام منها القمم السامقة، والسفوح الهابطة، والاودية الفاصلة، وبكثافات أقل من كثافة الأسراب الطباقية يتراوح فيها توزيع الجراد بين الألف والمائة ألف جرادة في الكيلومتر المربع، وتساعد تيارات الحمل في الغلاف الغازي للأرض الهواء على إعطاء أسراب الجراد المهاجرة على ارتفاعات عالية هذه الأشكال الركامية ولذلك يختلف شكل

سرب الجراد الركامي في هجرته من وقت إلى آخر باختلاف التيارات الهوائية التي تواجهه، وإن كان الجراد بفطرته يقود سربه مع الاتجاه الرئيسي للرياح السائدة أو في اتجاه ممرات الهواء التي يتحرك الريح الرئيسي صوبها. وغالباً ما تهاجر أسراب الجراد في النهار، وتحط في الليل على المزروعات والأشجار تلتهم منها كميات كبيرة تعينها على استئناف الهجرة في الصباح التالي.

وتتحرك أسراب الجراد بانضباط شديد تحت قيادة صارمة، فتتحرك مقدمة السرب قبل مؤخرته باستمرار، وتحط قبلها، حتى تحدد اتجاه السرب ومواقع الهبوط ولحظات الانطلاق في كل يوم.

وتبدأ دورة حياة الجراد بوضع البيض في أماكن محددة، ورعايته حتى يفقس في حدود شهر مايو من كل سنة لتخرج منه الحوريات التي تقوم بعملية الانسلاخ من جلدها عدة مرات حتى تصل إلى حجم الحشرة البالغة التي تحيا في بادىء الأمر حياة فردية، ثم تمر بمرحلة انتقالية لتكوين جماعة، ثم تنتهي بمرحلة الهجرة الجماعية التي تقطع فيها أسراب الجراد المهاجر مسافات شاسعة تمر خلالها بمناطق التكاثر الصيفي، والشتوي، والربيعي حتى تعود إلى مناطق تكاثرها الأولى التي انطلقت منها.

وهذه الحشرات تصل إلى مرحلة البلوغ عادة في الفترة من منتصف شهر يوليو إلى منتصف شهر سبتمبر من كل سنة.

وعلى الرغم من علمنا بدورة حياة الجراد إلا أن غاراته لا يمكن التنبؤ بها قبل بدئها، فقد يبقى الجراد في منابته الأصلية ويقوم بتكاثر محدود دون هجرة لفترات طويلة ودون الخروج من أسرابه المعتادة، ثم يعاود تسارع تكاثره بشكل ملحوظ وتنظيم أسرابه لمفاجأة البد بالهجرة الجماعية.

ومنابت الجراد ليست دائمة باستمرار، بل تتغير من فترة إلى أخرى، وإن كانت هناك أحزمة معروفة لغزوات الجراد كما أن هناك أحزمة محددة تكثر فيها الهزات الأرضية.

وللجرادة قدرة فائقة على الطيران لمسافات طويلة تصل إلى مائة كيلومتر في اليوم، وذلك بما حباها الخالق سبحانه وتعالى به من قوة عضلية فائقة بالنسبة إلى حجمها، وتمكنها هذه القوة العضلية غير العادية من خفق جناحيها لفترات متصلة تتراوح بين الست ساعات والست عشرة ساعة مما يعينها على اجتياز كل العوائق المائية والتضاريسية.

والطاقة اللازمة لهذا الجهد الخارق للعادة تستمد من تمثيل كل من المواد الكربوهيدراتية التي تحصل عليها مما تلتهمه من غذاء أولاً، ثم مما تختزنه في جسمها الناحل من دهون.

ويقوم الجراد بهضم المواد النباتية التي يقرضها من كل من الزروع والأشجار بنهم شديد، ويستخلص ما بها من مواد سكرية ونشوية وسيليولوزية وزيتية ودهنية، ويحللها إلى مكوناتها الأساسية في عمليات من الهضم والأيض المعقدة، ومن أمثلة ذلك أن الله (تعالى) قد أعطى للجراد القدرة على استخراج غاز الايدروجين من الدهون المختزنه في جسده، وعندما يصل ذلك إلى دمه وتتم عملية احتراقه بواسطة الأكسجين الجوي يتكون الماء في داخل جسم الجراد بالقدر الذي يحتاج إليه خلال رحلة طيرانه الطويلة دون الحاجة للنزول إلى الأرض من أجل الارتواء، وذلك لأنه يستهلك كميات كبير من الماء أثناء طيرانه لا يكفيه فيها ما يأخذه من النباتات الغضة التي يلتقمها بشراهة كبيرة.

ومن هذا الاستعراض الموجز للجراد يتضح أن هذه الحشرة من جند الله التي يسخرها سبحانه وتعالى على من يشاء من عباده عقاباً للمجرمين من العصاة الفاجرين، وابتلاء للصالحين، وعبرة للناجين ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾[1].

◎ عجيب خلق الخفاش:

● **قال أمير المؤمنين عليه السلام في خطبة له يصف الخفاش:**

من لطائف صنعته وعجائب حكمته، ما أرانا من غوامض الحكمة في هذه الخفافيش، التي يقبضها الضياء الباسط لكل شيء، ويبسطها الظلام القابض لكل حي، وكيف عشيت أعينها عن ان تستمد من الشمس المضيئة نوراً تهتدي به في مذاهبها، وتتصل بعلانية برهان الشمس إلى معارفها. وردعها بتلألؤ ضيائها عن المضيّ في سحبات إشراقها. وأكنّها في مكامنها عن الذهاب في بلج ائتلاقها، فهي مسدلة الجفون بالنهار على حداقها. وجاعلة الليل سراجاً تستدل به في التماس أرزاقها. فلا يرد أبصارها إسداف ظلمته، ولا تمتنع من المضيّ فيه لغسق دجنته. فإذا ألقت الشمس قناعها، وبدت أوضاح نهارها، ودخل من إشراق نورها على الضباب في وجارها، أطبقت الأجفان على مآقيها، وتبلغت بما اكتسبته من المعاش في ظلم لياليها.

(١) سورة الحشر، الآية: ٢.

فسبحان من جعل الليل لها نهاراً ومعاشاً والنهار سكناً وفراراً، وجعل لها اجنحة من لحمها، تعرج بها عند الحاجة إلى الطيران فكأنها شظايا الآذان غير ذوات ريش ولا قصب. إلا أنك ترى مواضيع العروق بينه أعلاماً. لها جناحان لم يرقّا فينشقاًولم يغلظا فيثقلا. تطير وولدها لاصق بها لاجيء إليها يقع إذا وقعت ويرتفع إذا ارتفعت لا يفارقها حتى تشتد اركانه، ويحمله للنهوض جناحه، ويعرف مذاهب عيشه ومصالح نفسه. فسبحان البارىء لكل شيء على غير مثال خلا من غيره[1].

◎ ظريفة في نوادر الخفاش

قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا﴾[2]، قال في (التفسير): إنه وضع من الطين كهيئة الخفاش ونفخ فيه فصار طائراً.

قال الشارح في الأحاديث العامية قيل للخفاش: لماذا لا جناح لك؟ قال: لأني تصوير مخلوق، قيل: فلماذا لا تخرج نهاراً؟ قال: حياء من الطيور، يعنون أن المسيح صوره.

وفي (البحار) في تفسير قوله: ﴿أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا﴾[3] قال: المشهور بين الخاصة والعامة من المفسرين أن الطير كان هو الخفاش.

قال أبو الليث في (تفسيره): إن الناس سألوا عيسى عليه السلام على وجه التعنت فقالوا له: اخلق لنا خفاشاً واجعل فيه روحاً إن كنت من الصادقين، فأخذ طيناً وجعله خفاشاً ونفخ فيه فإذا هو يطير بين السماء والأرض، وكانت تسوية الطين والنفخ من عيسى عليه السلام، والخلق من الله تعالى، ويقال: إنما طلبوا منه خلق خفاش لأنه أعجب من سائر الخلق، ومن عجائبه أنه دم ولحم، يطير بغير ريش، ويلد كما يلد الحيوان ولا يبيض كما تبيض سائر الطيور، ويكون له الضرع ويخرج اللبن، ولا يبصر في ضوء النهار ولا في ظلمة الليل، وإنما يرى في ساعتين بعد غروب الشمس ساعة وبعد طلوع الفجر ساعة قبل أن يسفر جداً، ويضحك كما يضحك الإنسان ويحيض كما تحيض المرأة، فلما رأوا ذلك منه ضحكوا وقالوا: هذا سحر مبين فذهبوا إلى جالينوس فأخبروه بذلك فقال: آمنوا به.

(١) نهج البلاغة ص٢١٧.
(٢) سورة المائدة، الآية: ١١٠.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ٤٩.

وقال الدميري في (حياة الحيوان): والحق أنه صنفان، وقال قوم: الخفاش الصغير، والوطواط الكبير، وهو لا يبصر في ضوء القمر ولا في ضوء النهار، ولما كان لا يبصر نهاراً التمس الوقت الذي لا يكون فيه ظلمة ولا ضوء وهو قريب غروب الشمس لأنه وقت هيجان البعوض، فإن البعوض يخرج ذلك الوقت يطلب قوته وهو دماء الحيوان والخفاش يطلب الطعام فيقع طالب رزق على طالب رزق، والخفاش ليس هو من الطير في شيء لأنه ذو أذنين وأسنان وخصيتين، ويحيض، ويطهر، ويضحك كما يضحك الإنسان، ويبول كما تبول ذوات الأربع، ويرضع ولده ولا ريش له.

قال بعض المفسرين: لما كان الخفاش هو الذي خلقه عيسى ابن مريم بإذن الله كان مبايناً لصنعة الله ولهذا جميع الطير تقهره وتبغضه فإن كان منها يأكل اللحم أكله وما لا يأكل اللحم قتله، فلذلك لا يطير إلا ليلاً.

وقيل: لم يخلق عيسى غيره، لأنه أكمل الطير خلقاً وهو أبلغ في القدرة، لأن له ثدياً وأسناناً وأذناً.

وقيل: إنما طلبوا الخفاش لأنه من أعجب الطير، إذ هو لحم ودم، يطير بغير ريش، وهو شديد الطيران، سريع التقلّب، يقتات بالبعوض والذباب وبعض الفواكه، وهو مع ذلك موصوف بطول العمر فيقال: إنه أطول عمراً من النسر ومن حمار الوحش، وتلد أنثاه ما بين ثلاثة أفراخ وسبعة، وكثيراً ما يسفد وهو طائر في الهواء، وليس في الحيوان ما يحمل ولد غيره والقرد والإنسان، ويحمله تحت جناحه، وربما قبض عليه بفيه وهو من حنوه وإشفاقه عليه، وربما أرضعت الأنثى ولدها وهي طائرة، وفي طبعه أنه متى أصابه ورق الدّلب حذر ولم يطر، ويوصف بالحمق، ومن ذلك أنه إذا قيل له: أطرق وكراً، لصق بالأرض[١].

◎ عجيب خلق الطاووس:

الإمام علي عليه السلام في بيان عجائب خلقة الطاووس -: من أعجبها خلقاً الطاووس الذي أقامه في أحكم تعديل، ونضد ألوانه في أحسن تنضيد، بجناح أشرج قصبه[٢]،

(١) راجع بحار الأنوار: ٦١/ ٣٢٩.

(٢) القصب: كل عظم مستدير أجواف (لسان العرب: ٤/ ٦٧٥).

وذنب أطال مسحبه إذا درج إلى الأُنثى نشره من طيّه وسما به مطلاً على رأسه كأنه قلع داري[١] عنجه نوتيه[٢] يختال بألوانه ويميس[٣] بزيفانه. يفضي كإفضاء الديكة، ويؤرُّ بملاقحه أرَّ[٤] لافحول المغتلمة[٥] للضراب. أحيلك من ذلك على معاينة، لا كمن يحيل على ضعيف أسناده. ولو كان كزعم من يزعم أنه يلقح بدمعة تسفحها مدامعه، فتقف في ضفتي جفونه، وإن أنثاه تطعم ذلك ثم تبيض لا من لقاح فحلٍ سوى الدمع المنبجس، لما كان ذلك بأعجب من مطاعمة الغراب، تخال قصبه مداري من فضة، وما أنبت عليها من عجيب داراته وشموسه خالص العقيان[٦] وفلذ الزبرجد.

فإن شبهته بما أنبتت الأرض قلت: جنًى جُني من زهرة كل ربيع. وإن ضاهيته بالملابس فهو كموشِيِّ الحلل أو كمونق عصب اليمن. وإن شاكلته بالحلي فهو كفصوصٍ ذات ألوان، قد نُطِّقت باللجين[٧] المكلل.

يمشي مشي المرح المختال ويتصفح ذنبه وجناحيه، فيقهقه ضاحكاً لجمال سرباله، وأصابيغ وشاحه، فإذا رمى ببصره إلى قوائمه زقا[٨] معولاً بصوت يكاد يبين عن استغاثته، ويشهد بصادق توجعه، لأن قوائمه حمش[٩] كقوائم الديكة الخلاسية[١٠] وقد نجمت من ظنبوب[١١] ساقه صيصية خفية، وله في مواضع العرف قنزعة[١٢] خضراء موشاة ومخرج عنقه كالإبريق، ومغرزها إلى حيث بطنه كصبغ الوسمة اليمانية، أو كحرير، ملبسة مرآة ذات صقال، وكأنه متلفع بمعجرٍ[١٣] أسحم[١٤] إلا أنه يخيل

(١) القلع: شراع السفينة. والداريّ: البحار والملاح (النهاية: ٣/ ٣٠٧).
(٢) عَنَجَه: أي عَطفه. ونُوتِيُّه: مَلّاحُه (النهاية: ٣/ ٣٠٧).
(٣) يميس: إذا تبخر في مشيه وتثنى (النهاية: ٤/ ٣٨٠).
(٤) الأرّ: الجماع (النهاية: ١/ ٣٧).
(٥) الغلمة: هيجان شهوة النكاح من المرأة والرجل وغيرهما (النهاية: ٣/ ٣٨٢).
(٦) العقيان: هو الذهب الخالص (النهاية: ٣/ ٢٨٣).
(٧) اللجين: هو الفضة (النهاية: ٤/ ٢٣٥).
(٨) زقا يزقو إذا صاح (٢/ ٣٠٧).
(٩) حمشت قوائمه وحمشت: دقت (لسان العرب: ٦/ ٢٨٨).
(١٠) الخلاسي من الديكة: بين الدجاج الهندية والفارسية (لسان العرب: ٦/ ٦٦).
(١١) الظّنوب: حرف العظم اليابس من الساق (النهاية: ٣/ ١٦٢).
(١٢) القنازع: خصل الشعر، واحدتها قنزعة (النهاية: ٤/ ١١٢).
(١٣) المعجر: ثوب تعتجر به المرأة أصغر من الرداء وأكبر من المقنعة (لسان العرب: ٤/ ٥٤٤).
(١٤) الأسحم: الأسود (النهاية: ٢/ ٣٤٨)

لكثرة مائة وشدة بريقه، أن الخضرة الناضرة ممتزجة به، ومع فتق سمعه خط كمستدق القلم في لون الأقحوان أبيض يقق[١]، فهو ببياضه في سواد ما هنالك يأتلق[٢].

وقل صبغ إلا وقد أخذ منه بقسطٍ، وعلاه بكثرة صقاله وبريقه، وبصيص ديباجه ورونقه، فهو كالأزاهير المبثوثة لم تربّها أمطار ربيع، ولا شموس قيظ.

وقد ينحسر من ريشه ويعرى من لباسه، فيسقط تترى وينبت تباعاً فينحت من قصبه انحتات أوراق الأغصان، ثم يتلاحق نامياً حتى يعود كهيئته قبل سقوطه، لا يخالف سلفه ألوانه ولا يقع لون في غير مكانه! وإذا تصفحت شعرة من شعرات قصبه أرتك حمرة وردية، وتارة خضرة زبرجدية، وأحياناً صفرة عسجدية[٣] فكيف تصل إلى صفة هذا عمائق الفطن، أو تبلغه قرائح العقول، أو تستنظم وصفه أقوال الواصفين؟! وأقل أجزائه قد أعجز الأوهام أن تدركه، والألسنة أن تصفه فسبحان الذي بهر العقول عن وصف خلق جلاه للعيون فأدركته محدوداً مكوناً، ومؤلفاً ملوناً وأعجز الألسن عن تلخيص صفته وقعد بها عن تأدية نعته[٤].

الموطن الأصلي للطاووس هو آسيا وجزر الهند الشرقية. يعتبر طيراً متباهياً وذلك بسبب طريقة استعراضه لريشه. وقد ورد منذ القديم قولٌ: فلان مثل الطاووس، أو إنه «مطوَّس» إذا كان معجباً بنفسه.. فالطاووس لا يتباهى بريشه من أجل الآخرين بل من أجل أنثاه. فأكثريّة الطيور تظهر بشكل براق أمام الإناث.

وقد اختصّ الطاووس دون بقية الطيور بهذه الفسيفساء الغريبة في دنيا الحيوان. يعلو رأسَه عرفٌ من ٢٤ ريشة. وظهره أخضر أمّا ريش الأجنحة فإنّ نهاياته نحاسية اللون. والميزة الأهم في الطاووس هي امتداد ذيله الذي يتراوح بين (١٠٠ و ١٣٠) سم. وفيه معرض للألوان من الأخضر والأزرق والذهبي وتنتشر فيما بينه بشكل منتظم «عيون» تتغيَّر الألوان من خلالها. ويتحرّك هذا التسلسل صعوداً وهبوطاً بقوة قصبات الريش اليابسة التي يتألف منها الذيل الحقيقي. والطاووسة أقل تألقاً لكنّها جميلة أيضاً.

---

(١) يقق: أبيض يقق ويقق، بكسر القاف الأولى: شديد البياض ناصعة (لسان العرب: ١/ ٣٨٧).
(٢) تألق البرق: التمع (تاج العروس: ١٣/ ١٠).
(٣) العسجد: الذهب (لسان العرب: ٣/ ٢٩٠).
(٤) نهج البلاغة ص٢٣٧. الخطبة رقم ١٦٥، بحار الأنوار: ٦٥/ ٣٠/ ٠١

وفي طبعه: العفة، وحب الزهو بنفسه، والخيلاء، والإعجاب بريشه، وعقده لذنبه كالطاق، لا سيما إذا كانت الأنثى ناظرة إليه.

والأنثى تبيض بعد أن يمضي لها من العمر ثلاث سنين، وفي ذلك الأوان يكمل ريش الذكر، ويتم لونه، وتبيض الأنثى مرة واحدة في السنة اثنتي عشرة بيضة وأقل وأكثر، ولا تبيض متتابعاً، ويسفد في أيام الربيع، ويلقى ريشه في الخريف، كما يلقى الشجر ورقه، فإذا بدا طلوع الأوراق في الشجر طلع ريشه، وهو كثير العبث بالأنثى، إذا حضنت، وربّما كسر البيض، ولهذه العلة يحضن بيضه تحت الدجاج، ولا تقوى الدجاجة على حضن أكثر من بيضتين منه، وينبغي أن تتعاهد الدجاجة بجميع ما تحتاج إليه من الأكل والشرب، مخافة أن تقوم عنه فيفسده الهواء، والفرخ الذي يخرج من حضن الدجاجة يكون قليل الحسن، ناقص الخلق، وناقص الجثة، ومدة حضنه: ثلاثون يوماً وفرخه يخرج من البيضة كالفروج كاسياً كاسباً.

أعجب الأمور أنّه مع حسنه يتشاءم به، وكأنّ هذا والله أعلم، أنّه لما كان سبباً لدخول إبليس الجنة، وخروج آدم منها، وسبباً لخلو تلك الدار من آدم مدة دوام الدنيا، كرهت إقامته في الدور بسبب ذلك.

وحكي أنّ آدم لمّا غرس الكرمة، جاء إبليس فذبح عليها طاوساً فشربت دمه، فلمّا طلعت أوراقها، ذبح عليها قرداً فشربت دمه، فلمّا طلعت ثمرتها ذبح عليها أسداً فشربت دمه، فلمّا انتهت ثمرتها ذبح عليها خنزيراً فشربت دمه، فلهذا شارب الخمر تعتريه هذه الأوصاف الأربعة، وذلك: أنّه أوّل ما يشربها وتدب في أعضائه، يزهو لونه ويحسن كما يحسن الطاوس فإذا جاءت مبادىء السكر لعب وصفق ورقص، كما يفعل القرد، فإذا قوي سكره جاءت الصفة الأسدية، فيعبث ويعربد ويهذي بما لا فائدة فيه، ثم يتقعص كما يتقعص الخنزير، ويطلب النوم وتنحل عراقوته.

◎ عجيب خلق النملة

● **الإمام علي عليه السلام: ألا ينظرون إلى صغير ما خلق كيف أحكم خلقه وأتقن تركيبه، وخلق له السمع والبصر وسوى له العظم والبشر، انظروا إلى النملة في صغر جثتها ولطافة هيئتها، لا تكاد تنال بلحظ البصر ولا بمستدرك الفكر، كيف دبت على أرضها، وصبت على رزقها تنقل الحبة إلى جحرها وتعدُّها في مستقرها، تجمع في حرها لبردها وفي وردها لصدرها، مكفول برزقها، مرزوقة بوفقها لا يغفلها المنان،**

ولا يحرمها الديان ولو في الصفا اليابس والحجر الجامس[(١)] ولو فكرت في مجاري أكلها في علوها وسفلها، وما في الجوف من شراسيف[(٢)] بطنها، وما في الرأس من عينها وأذنها، لقضيت من خلقها عجباً، ولقيت من وصفها تعباً!

فتعالى الذي أقامها على قوائمها، وبناها على دعائمها، لم يشركه في فطرتها فاطر، ولم يعنه على خلقها قادر. ولو ضربت في مذاهب فكرك لتبلغ غاياته ما دلتك الدلالة إلا على أن فاطر النملة هو فاطر النخلة، لدقيق تفصيل كل شيء، وغامض اختلاف كل حيّ. وما الجليل واللطيف والثقل والخفيف والقوي والضعيف في خلقه إلا سواه[(٣)].

◎ الوحوش والحيتان

● الإمام علي عليه السلام: وسبحان من أدمج قوائم الذرّة[(٤)] والهمجة[(٥)] إلى ما فوقهما من خلق الحيتان والفيلة[(٦)]!

● عنه عليه السلام: يعلم عجيج الوحوش في الفلوات، ومعاصي العباد في الخلوات، واختلاف النينان[(٧)] في البحار الغامرات، وتلاطم الماء بالرياح العاصفات[(٨)].

الأسرار الإلهية لخلق النمل

◎ في النمل مطامنة من كبرياء الإنسان

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾[(٩)].

---

(١) الجمس بالفتح: الجامد (النهاية: ١/ ٢٩٤).

(٢) الشّرسُوف واحد الشّراسيف، وهي أطراف الأضلاع المشرفة على البطن، وقيل: هو غضروف معلق بكل بطن (النهاية: ٢/ ٤٥٩).

(٣) نهج البلاغة: الخطبة ١٨٥، الاحتجاج: ١/ ٤٨١/ ١١٧، بحار الأنوار: ٣/ ٢٦/ ١، ربيع الأبرار: ٤/ ٤٨١ وفيه إلى «قادر».

(٤) الذرّ: النمل الأحمر الصغير، واحدتها ذرة (النهاية: ٢/ ١٥٧).

(٥) الهمج: ذباب صغير يسقط على وجوه الغنم والحمير (النهاية: ٥/ ٢٧٣).

(٦) نهج البلاغة: الخطبة ١٦٥، بحار الأنوار: ٦٥/ ٣٢/ ١

(٧) النون: الحوت، والجمع أنوان ونينان، وأصله نونان فقلبت الواو ياء لكسرة النون (لسان العرب: ١٣/ ٤٢٧).

(٨) نهج البلاغة: الخطبة ١٩٨، بحار الأنوار: ٧٧/ ٣١٥/ ١٦

(٩) سورة النمل، الآية: ١٨.

جاء في مجلة عالم الفكر[1]، في مقالٍ مطوّل بعنوان «لغة الحيوان»: «استمر العلماء العديد من السنوات وهم يحاولون تفسير سلوك الحيوان، حتى استطاع علماء هذا العصر متعاونين أن يحلّوا ما استعصى على من سبقهم، وأنشأوا علماً جديداً، سموه علم سلوك الحيوان أثبتوا أن لكل صنفٍ من الحيوانات والحشرات طريقةً خاصة في التفاهم». قال مغنيّة تعليقاً على ذلك: «وهذا بالذات ما نطق به القرآن منذ ١٤٠٠ عام أو أكثر، فمن أين جاء محمدٌ صلى الله عليه وآله بهذا وبما هو أعظم إن لم يكن من عند الله؟». وقال تعقيباً على النملة التي تدافع عن جماعتها وتريد منع الأذى عنها: «نملة لا تقتحمها الأعين تخاف على رعيّتها أو جماعتها من الأقوى من أي أذى، فتبذل ما في وسعها من جهد لصيانة أمّتها وسلامتها، وسَجَّل ذلك سبحانه في كتابه، عسى أن يعتبر ويتّعظ كل من بيده زمام أمرٍ من الأمور: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾[2]، صرّف لهم من كل مَثَلٍ، حتى بالنمل والذباب».

لقد جاءت السورة ٢٧ من كتاب الله تعالى باسم «النمل»، والنمل هو من أصغر الحشرات وأضعفها، وهو أكثرُ ما يراه الإنسان مِنْ حشرة. والنمل، في أغلب مراحل حياته وأصنافه، لا يطير، فهو إذاً محرومٌ، وإلى حدٍّ بعيد، من إمكان الفرار السريع من الإنسان كالذي تمتاز به الطيور. وما أسهل وأكثر أن يدوس إنسانٌ على نملة أو مجموعة من النمل فيسحقُها. والنمل طوائف عظيمةٌ تعيش في مستعمرات، وهي تُشْتَهَرُ إلى ذلك بحبّها للعمل، وجدّها، وبقوّتها مقارنةً بجسمها الضئيل. لقد اكتشف العلماء أن النمل، والذي هو أضعف وأضأل ما يراه الإنسان ممّا يدبّ على سطح الأرض، يقوم بتخليص جوف الأرض، من خلال عمله الدؤوب، من بقايا جسم الإنسان، من بعد موت. فانظر إلى العبرة في تسلّط أضعف ما في الأرض على أقوى ما فيها، أو هكذا نحن نظنّ أنفسنا! وإنها لَعِبرةٌ للإنسان تستحثّه على أن يُطامِنَ مِنْ كبريائه الكاذبة، ويحدّ من جبروته الزائف تجاه بقية خَلق الله، كل خلق الله! إن النملة أقوى من الإنسان، وأكثر حبّاً للعمل وجدّاً منه. وإن في ذلك لَعبرةٌ أيضاً.

◎ أولًا: النمل يحيا في جماعات منظمة

تبدأ جماعة النمل بالملكة المخصبة التي تضع بيضها في مكان آمن ترعاه فيه حتى

(١) العدد ٢ من المجلد ٧.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٨٩.

يفقس وتخرج منه اليرقات التي تتعهدها الملكة حتى يتم نموها إلى الحشرة الكاملة، والملكات هي الإناث الخصبة من النمل التي أعطاها الله (تعالى) القدرة على التكاثر، ووضع البيض، ورعاية صغارها حتى تصبح قادرة على العمل، وحينئذ تبدأ الشغالات القيام بمسؤولية مستعمرة النمل قياماً كاملاً حتى تأتي ملكة جديدة، وتستغرق هذه الدورة عدة سنوات تتفاوت من نوع من النمل إلى نوع آخر.

والشغالات التي تشكل الغالبية الساحقة في مستعمرة النمل هي إناث النمل العاقرة (العواقر) التي لا دور لها في عملية التكاثر ولكنها تقوم بمسؤوليات الجماعة كاملة، أما ذكور النمل فيتحدد دورها في إخصاب الملكات، وكل من الملكات وذكور النمل لها أجنحة تطير بها بعد نضجها مباشرة في أسراب تتم خلالها عملية التزاوج وإخصاب الملكات، وبعد ذلك تموت الذكور مباشرة، وتعود الملكة المخصبة إلى عش النمل لتضع بيضها، وتقصف أجنحتها حتى لا تتكرر عملية الإخصاب لها: وتستمر الملكة في إدارة أمور جماعة النمل طيلة حياتها التي قد تمتد إلى خمس عشرة سنة، بينما تعيش الشغالات لفترات تتراوح بين الأربع والسبع سنوات ثم تموت، ولذلك تقوم على مستعمرة النمل ملكة واحدة، أو عدة ملكات بحسب حجم المستعمرة، وتقوم الشغالات ببناء المستعمرة (عش أو أعشاش النمل) وشق الطرقات المؤدية إليها، ونظافتها وصيانتها، وحراستها، والدفاع عنها، كما تقوم بجمع الطعام، وتجهيزه وتخزينه، وغير ذلك من الأعمال.

وقد يحتوي عش النمل على كائنات أخرى تتعايش مع النمل في تكافل عجيب، وذلك من مثل حشرة المن وبعض الخنافس.

وأمة النمل هي من أكثر الأمم الحية عدداً، وأوسعها انتشاراً إذ يعرف منها اليوم أكثر من ثمانية عشر ألف نوع، يمثل كل نوع منها ببلايين الأفراد التي تنتشر في جميع مناطق الأرض ما عدا المناطق القطبية، ويزدهر انتشار النمل في المناطق الحارة بمتوسط ١٥٠ نملة في المتر المربع، وهذه الأسراب من النمل تبني ملايين البيوت (الأعشاش) وتقضي على بلايين الحشرات سنوياً والتي لو تركت لدمرت الكساء الخضري للأرض، وعلى ذلك فإن أسراب النمل تلعب دوراً رئيسياً في عملية الاتزان البيئي للأرض، وتمثل حلقة هامة منها، وبالإضافة إلى ذلك فإن النمل بحفره المستمر في الأرض يقوم بدور هام في تهوية التربة، وتسميدها، وتعقيمها، وتطهيرها من العديد

من الآفات، وبحركته وسط النباتات يقوم بدور في تلقيح بعض الزهور، ونشر عدد من البذور عبر مساحات متباعدة من الأرض.

◎ ثانياً: أن لأمة النمل لغات خاصة بها:

وهذه الحقيقة أثبتتها الآية الكريمة التي نحن بصددها بقول الحق (تبارك وتعالى): ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾[1].

وقد سمع نبي الله سليمان عليه السلام نصيحة النملة لرفاقها، وفهم لغتها بنعمة من الله وفضله، ولغات النمل ظل عدد من علماء الحشرات يحاولون فك رموزها لعشرات من السنين دون جدوى، وقد وظفوا في ذلك كل وسائل المنهج العلمي وتقنياته المتطورة، وأصبحت لغات التخاطب ووسائل الاتصال عند الحيوان علماً من العلوم المستحدثة في زماننا ينطوي تحت ما يعرف باسم علم سلوك الحيوان، إلا أن هذا المنهج البشري في استقراء لغات الحيوان وفهم سلوكه يبقى منهجاً جزئياً، استنتاجياً، تجريبياً يحتمل الصواب والخطأ، بينما العلم الذي تلقاه نبي الله سليمان عليه السلام عن ربه (تبارك وتعالى) هو علم يقيني، كامل، صحيح، علم به سليمان لغات عدد من الحيوانات كالطير والنمل وهي معجزة من المعجزات الحسية التي خصه الله (تعالى) بها، وجعلها خارقة من الخوارق تخالف المألوف عند الناس، وكانت هذه أول إشارة مؤكدة إلى وجود لغات محددة لكل أمة من المخلوقات العديدة التي أوجدها الخالق العظيم بعلمه وحكمته وقدرته.

وأحدث ما كتب عن النمل يؤكد أن هذه الحشرة العجيبة (التي يتراوح طول الفرد من أفرادها بين المليمتر الواحد والسبعة ملليمترات، ولا يتعدى حجم مخه حجم حبة الملح المسحوق الناعم) لها قدرة هائلة على التخاطب بأكثر من لغة واحدة، فلكل مستعمرة من مستعمرات النمل لغتها الخاصة بها التي يتحدث ويتفاهم بها أفرادها مع بعضهم البعض، ولها لغة أخرى تتفاهم بها مع النمل من غير مجموعتها، ومع غيرها من الحشرات والحيوانات الأخرى.

ولم يستطع العلم بكل تقنياته الراهنة المتطورة أن يستشف من لغات النمل إلا بعض الظواهر والحركات والأصوات المصاحبة للكلام والتي تم تلخيصها فيما يلي:.

---

(١) سورة النمل، الآية: ١٨.

١ - **اللغة الكيميائية**: والتي تتمثل في إفراز عدد من المركبات الكيميائية الطيارة من جسم النملة لتعبر بكل مركب منها عن معنى محدد من مثل إصدار الأوامر والتعليمات، والتوجيهات والتحذيرات، وغير ذلك من عمليات الاتصال، وتبادل المعلومات والرسائل للإرشاد إلى بعض الأمور من مثل مواقع الغذاء أو مواد البناء التي تريد أن توجه أنظار الشغالات إليها.

وقد ثبت أن هذه الإفرازات الكيميائية تختلف في أنواع النمل المختلفة وتعرف عند علماء الحشرات باسم الإفرازات الدالة على الأثر.

ومن هذه الإفرازات الكيميائية ما يستخدم للإنذار في حالات الأخطار وتعرف باسم إفرازات الإنذار.

٢ - **اللغة الحركية**: وتتم بواسطة تحريك كل من الأرجل والبطن والملامسة بواسطة قرون الاستشعار، وقد رصدت هذه الحركات بدقة شديدة في محاولة لإيجاد تفسير لها.

٣ - **اللغة الصوتية**: وهذه لم يفهم منها علماء السلوك الحيواني سوى ذبذبات صوتية مترددة كالصرير تلتقطها خلايا سمعية في أرجل كل واحدة من النمل. وهذه الذبذبات الصوتية وإن أكدت أن للنمل قدرة على التخاطب إلا أنها تبقى دون اللغة التي سمعها سليمان عليه السلام وفهم دلالاتها.

◎ ثالثاً: أن للنمل قدراً من الذكاء والوعي والإدراك والشعور:

وهي حقيقة أكدتها الآية الكريمة بتعرف النملة على شخص نبي الله سليمان ومن معه من الجنود.. وبتخويفهم من إمكانية أن يطأ الجند النمل بأقدامهم أو بحوافر خيلهم، وبنصيحتها لأقرانها أن يدخلوا مساكنهم نجاة من تلك المخاطر، وبإدراكها أن من صفات النبوة الرحمة بالخلق فأضافت هذه الجملة الراقية.. ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بمعنى أنها تدرك أن من صفات المؤمنين الرفق بالخلق فإن حدث غير ذلك فإنما يكون عفواً بغير قصد منهم ولا شعور.

وقد أكدت الدراسات المتخصصة في علم سلوك الحيوان كل هذه الحقائق باكتشاف أن النمل - كغيره من المخلوقات - له من الغرائز الفطرية ما يعطيه قدراً من الذكاء، والوعي، والإدراك، والشعور، الذي يمكنه من معرفة الأشياء، والأماكن، والاتجاهات، والأوقات، والأشخاص ويعينه على التمييز بين الحق والباطل وعلى

توقي المخاطر وتجنبها، وفي الإقدام على المغانم واقتناص فرصتها، وفي ترتيب وتنظيم وضبط حياته الاجتماعية بعدد من القواعد الدقيقة. وفوق ذلك كله فإن الآيات القرآنية الكريمة، والأحاديث النبوية الشريفة تؤكد أن أمة النمل - كغيرها من الأمم غير المكلفة - مفطورة على الإيمان بالله (تعالى) وحده رباً وإلهاً، وفاطراً ومعبوداً ورازقاً بغير شريك ولا شبيه ولا منازع، وعلى عبادته وتقديسه، والتسبيح بحمده، عبادة وتقديساً وتسبيحاً تسخيرياً لا إرادة لها في شيء منها، ولكنها تدركه وتعلمه وتعيشه.

وهذا يفسر تعرف النملة على نبي الله سليمان، والإشارة بهذا الأدب الجم إلى مقام النبوة الذي أفاء الله (تعالى) به على هذا العبد الصالح. وهذا العلم الوهبي الذي من الله (تعالى) بأقدار منه على جميع مخلوقاته تتفاوت بتفاوت الأدوار المطلوبة من كل منها في هذه الحياة وفي الحدود التي وضعها الله تعالى لكل أمة من أمم الوجود الحيوي على الأرض.

ولذلك تبسم نبي الله سليمان عند سماعه مقولة النملة، والتي فهمها بما وهبه الله (تعالى) من علم، وأعجب بقدرة الله البالغة التي أعطت النملة الضئيلة في الحجم هذا القدر من الإدراك والأدب والحكمة، وأعطت رفاقها قدرة الفهم عليها، والانصياع لأوامرها، وأعطته هو القدرة على إدراك ذلك فتوجه إلى الله (تعالى) بالدعاء أن يلهمه شكر النعم العديدة التي أسبغها عليه وعلى والديه، وأن يوفقه إلى عمل الخير الذي يرتضيه ربنا (تبارك وتعالى)، وأن يدخله الجنة مع عباده الصالحين.

ومن الأدلة المتجمعة على ذكاء النمل، ووعيه، وإدراكه دقة تنظيم مجتمعاته، وتوزيع العمل بين أفراده، وبناء أعشاشه وبيوته، وتنظيم المخارج منها والمداخل إليها، والمهارة في اصطياد وجمع طعامه، وحسن تجهيزه وتخزينه وصيانته ورعايته، وقدرته على زراعه بعض النباتات (مثل الفطر)، وحمايتها من الميكروبات بإفراز العديد من المضادات الحيوية، وقدرته كذلك على التعايش في توازن وتكافل تأمين مع العديد من الحشرات الأخرى مثل المن والخنافس.

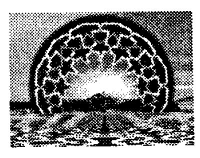
هذه الحقائق لم يدركها علم الإنسان إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين، وسبق القرآن الكريم بالوحي بها من قبل أربعة عشر قرناً في زمن لم يتوافر لأي من البشر أدنى إلمام بشيء منها مما يؤكد أن هذا الكتاب الكريم لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بحفظه في

نفس لغة وحيه (اللغة العربية) وحفظه حفظاً كاملاً تحقيقاً لوعده الذي قطعه على ذاته العلية فقال (عزّ من قائل): ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾(١).

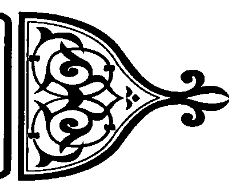
وهكذا بقي القرآن الكريم محتفظاً بنصه الإلّهي، وإشراقاته النورانية، والحق المطلق الذي جاء به على مدى أربعة عشر قرناً أو يزيد، وإلى أن يرث الله (تعالى) الأرض ومن عليها، بقي المصدر الوحيد للهداية الربانية في أمر الدين الذي تعرضت كل رسالاته السابقة للضياع التام، وبقيت من بعضها ذكريات متناثرة ظلت تتناقل شفاها، تفسرها الأهواء، وتضيف إليها، وتحذف منها، وتحرفها كيفما تشاء حتى تم إخراجها عن إطارها الرباني، وإلقاؤها في أحضان عدد من الوثنيات القديمة والفلسفات الوضعية التي جعلتها عاجزة عن هداية البشرية، وهذا هو السبب الحقيقي من وراء المظالم التي تسود الأرض في زماننا..!!.

وحين تم التدوين لبعض هذه الذكريات القديمة تم بلغات غير لغات الوحي، وبواسطة أقلام متفرقة، في أماكن متعددة، وفي أزمنة متباعدة وصلت إلى العديد من القرون بعد موت أو رفع الرسول الذي تلقى الرسالة الأصلية والتي فقدت أصولها السماوية بالكامل، ولذلك تعددت الأسفار، وتناقضت المعلومات، وكثرت المراجعات إلى يومنا الراهن وستظل إلى ما شاء الله.

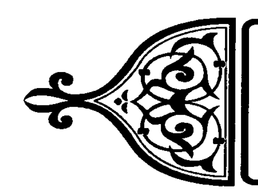
وللخروج من هذه الدوامات العاتية من الشك والشرك والشقاق والنفاق فإننا ندعو كل مؤمن بالله إلى قراءة القرآن الكريم بحيدة وموضوعية ثم الحكم بنفسه إن كان هذا هو كلام الله الخالق أم كلام البشر المخلوقين؟ ونحن معشر المسلمين نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ولا نفرق بين أحد من رسله، ونؤمن بوحدة الدين، وبوحدة تجميع رسالات السماء، وبالأخوة الإنسانية، وبأنه لا إكراه في الدين، وانطلاقاً من ذلك كله نقدم القرآن العظيم للبشرية التائهة، عسى الله تعالى أن يهديها إلى طريقة القويم وما ذلك على الله بعزيز وآخر دعوانا إن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله الأطهار.



(١) سورة الحجر، الآية: ٩.



معجزات الهية



قال الإمام علي عليه السلام :

أيها المخلوق السوي والمنشأ المرعي في ظلمات الأرحام ومضاعفات الأستار، بدئت من سلالة من طين، ووضعت في قرار مكين، إلى قدر معلوم وأجل مقسوم، تمور في بطن إمك جنيناً، لا تحير دعاء ولا تسمع نداء، ثم أخرجت من مقرك إلى دارٍ لم تشهدها ولم تعرف سبل منافعها. فمن هداك لإجترار الغذاء من ثدي أمك، وعرفك عند الحاجة مواضع طلبك وإرادتك؟ هيهات إن من يعجز عن صفات ذي الهيئة والأدوات (أي الأشياء المخلوقة) فهو عن صفات خالقه أعجز، ومن تناوله بحدود المخلوقين أبعد»[(١)].

◎ «أيها المخلوق السوي والمنشأ المرعي»

يخاطب الإمام الإنسان ليلفت انتباهه إلى الرعاية الإلّهية التي جعلتهُ في أحسن تقويم، متكامل الخلقة والصفات، رعته العناية الربانية بدقة وإبداع، حتى أوجدته على هذه الصورة الحسنة: ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾[(٢)].

إنَّ تلك الخلقة إنما تمت وتكاملت بإرادة الله ورعايته، وحُفظَتْ من المكروه بقدرتِه، حيث هيأ له الأسباب والمتطلبات التي تديم الحياة وتبعد الأضرار والمضاعفات «صوَّر الله الجنين في الرحم حيث لا تراه عين ولا تناله يد، ويدبّره حتى يخرج سوياً مستوفياً جميع ما فيه، قوامه وصلاحه من الأحشاء والجوارح والعوامل إلى ما في تركيب أعضائه من العظام واللحم والشحم، والعصب والمخ والعروق والغضاريف، فإذا خرج إلى العالم تراه كيف ينمو بجميع أعضائه وهو ثابت على شكل

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج٩ ص ٢٥٧.
(٢) سورة النمل، الآية: ٨٨.

وهيئةٍ لا تتزايد ولا تنقص إلى أن يبلغ أشدّه إنّ مدَّ في عمره أو يستوفي مدته قبل ذلك. هل هذا إلاّ من لطيف التدبير والحكمة؟»[١].

◎ «في ظُلُماتِ الأرحامِ وَمُضاعَفاتِ الأستارِ»

الجنين عندما ينمو ويكبر ويتحرك في بطن أمه يكون محمياً ومحجوباً بأستار وظلمات تقيه شر الصدمات والمؤذيات؛ سواء كانت داخلية أو خارجية، والظلمات الثلاث هي:

١- ظلمة البطن.

٢- ظلمة الرحم.

٣- ظلمة المشيمة والسائل الأمينوسي المحيط بالجنين.

والجنين في تلك الحالة لا يعلم شيئاً ولا يستطيع دفع الأذى عن نفسه، مغمض العينين، غذاؤه من دم أمه، لا يستطيع الكلام ليقول ما يريد، ولا يفهم السؤال ليرد على ما يطلب منه.

◎ «بُدِئتَ من سُلالَةٍ من طين»

خلق الله آدم عليه السلام من الطين: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾[٢].

الإنسان ينمو ويكبر سواء كان ذكراً أم أُنثى، من خلال تناوله الأغذية المتنوعة التي تجود بها أرض الله، وعند البلوغ يصبح الرجل قادراً على إنتاج الحيامن المنوية من البيضتين، والمرأة تبدأ انتاج البيوض من المبايض، وكلا الانتاجين جاءا من الأرض، أو خلاصة الطين التي قدمت لنا أنواع الأطعمة والفواكه بما فيها لحوم الحيوانات التي عاشت على ما قدمته الأرض من أعشاب وحشائش، وخلاصة الأمر: أن الإنسان خلق من الطين وما يحويه، والأجدر به التواضع والزهد، لا التكبر والتفاخر والتعالِ، لأنّ الأصل واحد: ﴿۞ مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ﴾[٣].

---

(١) توحيد المفضل للامام الصادق عليه السلام ص ٥٨.

(٢) سورة السجدة، الآية: ٧.

(٣) سورة طه، الآية: ٥٥.

◎ «وَوضَعتَ في قرارٍ مكينٍ»

بعد أن يتم التقاء الحيمن بالبيضة يتم التلقيح، حيث يبدأ الجنين بالتكوين من خلال استقراره في باطن الرحم المهيأ لاحتضان البيضة الملقحة من خلال الهرمونات التي يفرزها المبيض والغدة النخامية والمشيمة حين تكاملها؛ وعندها يبدأ غشاء الرحم بالنمو والتضخم ليكون العش الأحسن الملائم والمستعد لاحتضان البيضة الملقحة وحتى نموها إلى جنين متكامل يبلغ وزنهُ عدة كيلو غرامات. هذه الرحم الفاقدة للأعصاب الحسية الخاصة بالألم والضغط تنمو وتكبر وتتمدد مع نمو الجنين حتى يبلغ حجمها آلاف المرات حجمها الأصلي، وبذلك تسمح للجنين بالنمو والحركة بحرية وأمان.

خلال فترة النمو تقوم المشيمة بتزويد الجنين بالغذاء اللازم الذي يأتي إليها من دم الأم عبر الحبل السري.

أما السائل الأمينوسي الذي يحيط بالجنين، فهو سائل خاص خلقهُ الله كي يسمح للجنين بحرية الحركة، ويمنع تأثير تقلصات الرحم على الجنين، كما ويقي الجنين من تأثيرات الصدمات الخارجية التي قد تتعرضْ لها الأم أثناء فترة الحمل. هذا من الداخل، أما من الخارج: فتواجهنا الأربطة المتعددة التي تمتد من أجزاء الرحم المختلفة لترتبط مع عضلات وعظام الحوض، هذه الأربطة لها عدة وظائف:

١ - حمل الرحم.

٢ - المحافظة على وضعية الرحم الملائمة للحمل والنمو والولادة.

٣ - تمنع الرحم من الانقلاب إلى الخلف أو الأمام أو الهبوط إلى الأسفل عندما يزداد وزنها وحجمها آلاف المرات.

الأربطة تتألف من الرباطين المدورين، والرباطين العريضين، وأربطة العنق، الأمامية والخلفية والرباطين الرحميين العجزيين.

بعد الأربطة يأتي دور عظام الحوض التي تحيط بالرحم من كافة الجهات؛ وقد خلقها الله ووضعها بصورة جميلة تلائم قوام المرأة وجمالها؛ وكما تسمح بنمو الرحم إلى الأعلى، وتعتبر الركن الأساسي في الحفاظ على الرحم والجنين من الأخطار الخارجية التي قد تواجه الأم أثناء الحمل.

◎ مما تتألف عظام الحوض:

١ - عظم العجز والعصعص من الخلف.

٢ - العظمين الحرقفيين من الجانبين.

٣ - عظمي العانة من الأمام.

تحاط عظام الحوض بعضلات قوية مختلفة الأطوال والأشكال لتشكل مع عظام الحوض درعاً قوياً يحمي الرحم ومحتوياته؛ وبهذه التركيبة الهندسية الإلّهية المحكمة صار الجنين يتمتع بالحماية الكافية (قرار مكين).

◎ «إلى قَدَرٍ معلومٍ وأَجَلٍ مقسُومٍ»

يقدر أطباء النسائية والتوليد مدة الحمل الطبيعي بـ (٢٧٠) يوماً منذ تلقيح البيضة حتى خروج الجنين من بطن الأم مع زيادة ونقصان بأيام أو أسابيع؛ ولم يعرف العلماء بالضبط العوامل المحركة لعملية الولادة، التي تبدأ بآلام خفيفة ثم تزداد مع زيادة دفعات الطلق التي تعاني منها الحامل؛ الأطباء يفترضون فرضيات ميكانيكية وهرمونية لها دور فعّال في عملية شروع الولادة؛ وفي كل الأحوال تخضع تلك العوامل للإرادة الربانية التي ترعى الأم والطفل حيث تشرع الولادة بتقلصات دورية للرحم؛ تكون خفيفة في البداية وبفواصل متباعدة، ثم تزداد التقلصات وتقترب مدتها مع ازدياد الآلام، حيث يشتد المخاض وتحصل الولادة. وهذا هو القدر المعلوم الذي أشار إليه الإمام علي عليه السلام، إذا سارت الأمور على ما يرام، ولكن قد يحدث ما لم يكن بالحسبان، حين تتعرض الأُم والجنين إلى أمراض وصدمات تؤدي إلى ولادة مبكرة قبل موعدها المقرر بأيّام أو أشهر؛ يتولد خلالها جنين غير متكامل النمو يسمى بالخديج، أو قد تحدث عملية: إسقاط في الأشهر الأولى، وتؤدي إلى موت الجنين (وأَجَلٍ مقسومٍ).

◎ «تَمُوْرُ في بَطنِ إمِّكَ جنيناً، لا تُحيرُ دُعاءً ولا تَسمَعُ نِداءً»

في بداية الشهر الرابع من الحمل، يصبح الجنين متكامل الخلقة ويبدأ بالحركة حالما تتم عملية اتصال الجهاز العصبي بالعضلات وأجهزة الجسم الأخرى؛ وتشعر الأم بحركة جنينها في نهاية هذا الشهر. أما في الشهر الخامس وما بعده فيبدأ الجنين بالحركة والسباحة في السائل الأمينوسي داخل الرحم؛ فينقلب يسرة ويمنة وأعلى

وأسفل، لكنه مغمض العينين، لا يستطيع الكلام أو ارجاع الجواب حين النداء والسؤال، لعدم قدرته على الفهم والنطق، ولوجوده داخل ظلمات ثلاث تجعله بعيداً عن مؤثرات العالم الخارجي.

◎ «ثُمَّ أُخرِجتَ من مَقرِّك إلى دارٍ لم تَشهَدها ولم تعرفْ سُبُلَ منافِعها»

الإمام عليه السلام في هذه الفقرة من كلامه المبارك يقول: أُخرجت، ولم يقل خَرجت، أي أنك أيها المخلوق لم تخرج بإرادتك، وإنما أخرجتك الإرادة الإلّهية الحكيمة التي رعتك حتى اكتملت أعضاؤك وأصبحت قادراً على مواجهة الحياة الجديدة «حتى إذا كمل خلقه، واستحكم بدنه، وقوي أديمه على مباشرة الهواء، وبصرهُ على ملاقاة الضياء، هاج الطلق بأُمه فأزعجه أشد الإزعاج وأعنفه حتى يولد، فإذا ولد صرف ذلك الدم الذي كان يغذيه من دم أُمه إلى ثديها، وانقلب الطعم واللون إلى ضرب آخر من الغذاء، وهو أشد موافقة للمولود من الدم، فيوافيه في وقت حاجته إليه»[1].

الحياة الجديدة (حياة الدنيا) لم يتصورها الجنين حيث الرغد والراحة والدفء، والحنان والأمان والغذاء السهل والدائم وهو قابع في بطن أمه. دنيا تتطلب منه الحركة والجهد، وطلب الغذاء والعناية والحماية والتنظيف، ومواجة المشاكل والأخطار والأمراض، دنيا يعيش فيها الطفل وهو حيران ولهان، يتعرض فيها كل ساعة للنور والأصوات والضوضاء، وتقلبات الجو، وطلب الغذاء الذي يجبره على الصراخ عند حاجته إليه؛ وإذا أصيب بمرض ما فلا يعرف إلاّ البكاء وعدم النوم، وتحريك اليدين والرجلين، بطريقة يعبر فيها عن آلامه ومشاعره في مواجهة تلك الحالات.

◎ «فَمن هَداكَ لاجترارِ الغذاء من ثَدي أُمِّكَ وَعَرَّفَكَ عِندَ الحاجة مَواضع طَلَبكَ وإرادتَك؟»

سؤال فلسفي ومنطقي يوجهه الإمام للفت أفكارنا وعقولنا إلى الإلهام الإلّهي الذي هدى الرضيع إلى امتصاص الحليب من ثدي أُمه؛ وكيف أنَّ الثدي زوِّد بحلمة بارزة مطاطية التكوين سهلة الجذب، تكفل للطفل الرضيع مص الحليب بسهولة وبساطة «وحين يولد الطفل يتلمظ ويحرّك شفتيه طلباً للرضاع، فيجد ثديّ أُمه كالأدواتين المعلقتين لحاجته فلا يزال يتغذى باللبن ما دام رطب البدن، رقيق الامعاء ليس

(١) توحيد المفضل للإمام الصادق عليه السلام ص ٤٨.

الأعضاء؛ حتى إذا تحرك واحتاج إلى غذاء فيه صلابة ليشتد ويقوى بدنه طلعت له الطواحن من الأسنان والأضراس؛ ليمضغ بها الطعام فيلين عليه ويسهل له إساغته فلا يزال كذلك حتى يدرك»[١].

وقد توصل العلماء في عصرنا الحاضر إلى أن الطفل إضافة إلى العناية الإلّهية التي توجهه نحو ثدي أُمه إلى وجود مادة كيميائية خاصة تجذب الطفل نحو حلمة ثدي أُمه؛ فيبدأ بالتقاطها ومصها، وحينها تلعب الأعصاب والهرمونات دورها في جمع ودفع الحليب نحو فم الطفل الذي يستمر بالرضاعة حتى الأرتواء.

إن عملية الرضاعة هي عملية تربوية ونفسية تتم بين الأُم والرضيع ضمن الرعاية الإلّهية التي أحكمت التدبير؛ فعند الجوع تتحرك المعدة ويبدأ الطفل بالصراخ وتحريك الشفاه طالباً الرضاعة من صدر أُمه؛ ولولا تلك المحفزات والمحركات الهرمونية والعضلية عند الأُم والطفل لما تمت الرضاعة وَعُرفت حاجة الرضيع إلى حليب أُمه.

◎ «هَيهاتَ إنَّ من يَعجزُ عن صفات ذي الهَيئَةِ والأدَوات فهو عن صفات خالِقِهِ أعجزُ وَمِن تَناوُلِهِ بحدود المخلُوقين أبعَدُ»

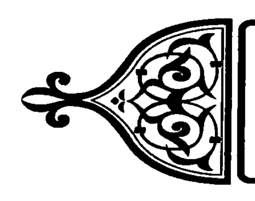
إن الكلمات الإعجازية الواردة في خطاب الإمام تدل على أنّ الإنسان مخلوق أتقن الله صنعه؛ فلا يدرك كنهه وحقيقته إلاّ العلماء العارفون المؤمنون، والحديث القدسي يشير إلى ذلك: «من عرف نفسه عرف ربه».

إن عظمة تكوين الإنسان وخلقتهِ تدل بلا شك على عظمة الخالق، وعلى العكس فمن لم يعرف حقيقة نفسه فهو بلا ريب عن معرفة حقيقة خالقه أعجز، وعن معرفة ما يحيط به من كائنات ومخلوقات أبعد، وصدق أمير المؤمنين عليه السلام حين قال: **«أَم هذا الذي أنشأَهُ في ظُلُماتِ الإرحام، وشُغُف الأستار، نطفة دهاقاً، وعَلَقةً محاقاً وَجَنيناً وراضِعاً، وَوَليداً ويافعاً، ثم مَنَحَهُ قلباً حافظاً، ولساناً لافظاً، وبصراً لاحِظاً، ليَفهَمَ مُعتبراً ويُقصِّرَ مُزدَجِراً»**[٢].

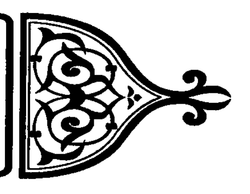
---

(١) توحيد المفضل للإمام الصادق عليه السلام ص ٤٨.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج٦ ص ٢٦٩.



وصف الإنسان



● **قال الإمام علي عليه السلام: «جَعَلَ لكُم أسماعاً لِتَعَي ما عَناها، وأبصاراً لِتجلُوَ عن عَشاها، وأَشلاءً جامعةً لأعضائِها، مُلائمةً لأحنائها، في تركيبِ صُوَرِها وَمُدَدِ عمُرِها، بأَبدانٍ قائمةٍ بأَرفاقِها، وقُلُوبٍ رائِدَةٍ لأرزاقِها في مُجَلِّلاتِ نِعَمِهِ وَمُوجباتِ مِنَنِهِ، وحواجِزِ عافِيَتِهِ»**(١).

الإمام عليه السلام أوضح في هذا المقطع من خطبته، بأنّ الله جعل لنا أجهزة للسمع كي نفهم بها شؤون حياتنا، ونحفظ من خلالها ما يقال لنا ويُرادُ منا، وعيون تكشف لنا حقائق الدنيا وصورها في الليل والنهار، لنرى عظمة الخالق وبديع صنعه. وبهذين العضوين يسير الإنسان نحو طريق التكامل والاستقامة العقلية والروحية والصحية. ومن البديهي أن الإنسان الذي لا يسمع ولا يبصر هو إنسان عاجز ناقص، لا يستطيع الإدراك الكامل وبلوغ الهدف بيسر وسهولة، ولا يمكن له مجارات الناس والعيش معهم بسعادة مثلما يعيش الآخرون.

أما الشيء الجالب للنظر في هذه الخطبة هو: تجلي عظمة الإمام العلمية والطبية وهو يقدم حاسة السمع على البصر، مؤيداً ما جاء في القرآن الكريم: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾(٣).

هنا تبرز أمامنا عدة نقاط تبين عظمة القول واعجازه:

١ - أُثبت العلم أن الجنين في بطن أُمه يتأثر بالأصوات ويتحرك بدنه تبعاً لقوة الصوت؛ في حين أن العين مغلقة لم ترَ النور ولا تتأثر به.

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج٦ ص٢٥٧.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٣٦.

(٣) سورة المؤمنون، الآية: ٧٨.

٢ - إن حاسة السمع هي من الحواس التي تبدأ بالحس والعمل بعد الولادة مباشرة، حيث نلاحظ أن الطفل المولود يقوم بتحريك رأسه وعيونه عند سماع الأصوات، وأحياناً يبدأ بالصراخ، أما بالنسبة للعين وحاسة البصر فإنها تحتاج إلى مُدّة وزمان كافٍ حتى يتمكن الطفل من الرؤية بصورة واضحة. والتحقيقات الطبية والفسيولوجية الحديثة أثبتت أن حاسية خلايا الشبكية في عين الإنسان المولود حديثاً ضعيفة مقابل النور المسلط عليها؛ ولا تتكامل حاسية وبناء الشبكية حتى نهاية الشهر السادس، ولا يتمكن من الرؤية بصورة جيدة حتى نهاية السنة الأولى من عمره.

٣ - حاسة السمع دائماً وفي كل الحالات قادرة على أداء وظيفتها بدون توقف؛ لكن هذه الخاصية لا تنطبق على العين التي في بعض الحالات غير قادرة على الرؤيا؛ كما في حالة الظلام والنوم، حيث نلاحظ أن الإنسان في حالة النوم يغمض عينيه وينام، لكن في حالة حدوث أصوات أو ضوضاء يستيقظ الإنسان. وقد أثبتت البحوث الفسيولوجية أن آخر عضو حسي يستقر عند النوم هو حاسة السمع؛ وهذا ما حدث لأصحاب الكهف الذين قال عنهم القرآن: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِي ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾[1].

٤ - الأذن من ناحية الأدراك الحسي والتعلم وتحصيل العلوم أهم من العين، لأنه يمكن للإنسان تعلم اللغة والعلوم وهو أعمى، أما في حالة الطرش تكون المهمة صعبة جداً. ومن الدلائل المهمة لأهمية وتأثير حاسة السمع في الإدراك والتعلم هو: أن القرآن الكريم ربط بين السمع والعقل رابطة محكمة وقوية حين قال: ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾[2] وهذه الآية برهان آخر على عظمة الإمام علي عليه السلام.

٥ - من الوظائف المهمة للسمع والبصر هي الموازنة والتعادل عند الإنسان، حيث ثبت أن الأقنية الهلالية ذات أهمية خاصة في تعادل توازن جسم الإنسان؛ أكثر من أهمية التوازن الذي تعطيه العين بالرغم من أن كلاً منهما يشتركان في عملية الموازنة والتعادل مع أعصاب الرقبة؛ وإن فقدان اثنتين من هذه المراكز يؤدي ب الإنسان إلى فقدان التوازن والسقوط على الأرض؛ كما في حالة الأعمى المصاب بمرض السفلس أو الألتهاب الشديد للأذن الداخلية.

٦ - كذلك أشار الإمام إلى محدودية السمع والبصر، وهو يؤكد وجود ألوان

---

(١) سورة الكهف، الآية: ١١. (٢) سورة الملك، الآية: ١٠.

وأجسام غير مرئية بالنسبة للعين؛ لأنها صغيرة جداً وتقع خارج نطاق قدرة العين على الرؤية «**وكُلُّ سَمِيعٍ غَيرَهُ يَصَمُّ عَن لَطيفِ الأصواتِ، وَيُصِمُّهُ كَبيرُها، وَيَذهبُ عَنهُ ما بَعُدَ منها، وَكُلُّ بَصيرٍ غَيرَهُ يَعمى عَن خَفِّي الألوانِ وَلَطيفِ الأجسامِ**»[١].

هذا المقطع يشير بصورة ساطعة إلى إحدى أُسس علم الصوت والبصر، لأن عين الإنسان لا ترى كل الألوان، كالألوان الموجودة في ضوء الشمس وبعض أنواع الأشعاعات، أما الأذن فلها محدوديات سمعية فهي لا تسمع أقل من (١٦) هزة أو ذبذبة في الثانية ولا أكثر من (٢٠٠٠٠) ذبذبة في الثانية. هذه الحقيقة نطق بها الإمام قبل مئات السنين ولم تعرف إلا حديثاً وبواسطة الأجهزة الحديثة المتطورة.

٧ - أشار الإمام إلى عمى الألوان الذي يعاني منه بعض الناس، الذين يرون الأشياء على غير حقيقتها بسبب بعض الأمراض والنواقص التي تصيب الشبكية فيقول: «**لَيسَتِ الرُّؤيَةُ مَعَ الإبصارِ، فَقَدَ تَكْذِبُ العُيونُ أهلها ولا يَغُشُّ العَقلُ مَن استَنصَحَهُ**»[٢].

◎ «وأَشلاءَ جامِعَةَ لأعضائها»

الأشلاء: تعني الأعضاء الظاهرة، كالجلد والعضلات التي تلف وتجمع وتضم الأعضاء الباطنة بصورة مرتبة ومحكمة، بحيث تشدها وتحفظها من الأذى والضرر والصدمات مع احتفاظها بعملها وفعاليتها وترابطها مع بقية الأعضاء الأخرى؛ بصورة تلائم وظيفتها التي خلقت من أجلها كما قال القرآن الكريم: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾[٣].

◎ «مُلائمةَ لأحنائها»

أي أن التركيب الإلّهي لجسم الإنسان المكوَّن من الجهاز العظمي والعضلي يتلائم مع حركة الإنسان وطبيعة عمله؛ فلا يمنعهُ ذلك التركيب العظيم المدهش من الأنحناء والقيام والقعود والحركة في مختلف الاتجاهات وأداء الوظائف على أحسن الوجوه؛ فقد رُكّبت العظام ورُبطت بصورة تسمح بالحركة والانحناء بسرعة وسهولة، كما وكسيت العظام بعضلات مختلفة الأحجام والأطوال والوظائف، بحيث يتمكن الإنسان

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج ٥ ص ١٥٣.
(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج ١٩ ص ١٧٣.
(٣) سورة التغابن، الآية: ٣.

من الحركة في كافة الإتجاهات عند الاحتياج والضرورة التي يتطلبها عمله اليومي، قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[١].

ومن الأجدر هنا إلقاء نظرة مختصرة على تركيب ومكونات الجهاز الحركي عند الإنسان.

يتكون الجهاز الحركي من العظام والعضلات والأربطة التي تربط العظام ببعضها، وكذلك الأوتاد العضلية التي تربط العضلات بالعظام.

◎ الجهاز العظمي[٢]:

يتكون من عظام صلبة متنوعة وعديدة، تعطي جسم الإنسان الشكل المطلوب، والإسناد اللازم. ترتبط العظام مع بعضها بأربطة ومفاصل تسمح له بالحركة الحرة في جميع الاتجاهات.

◎ أنواع العظام:

١ - **العظام المسطحة**: تحمي أعضاء الجسم الحساسة.

٢ - **العظام الطويلة**: تعمل كرافعات مفيدة أثناء حركة الجسم.

٣ - **العظام القصيرة**: تعطي القوة اللازمة للإنسان أثناء الفعالية والحركة.

٤ - **العمود الفقري**: يعتبر ركناً مهماً من أركان الجهاز العظمي ويتكون من (٣٣) فقرة.

أ - فقرات الرقبة وهي (٧) فقرات.

ب - فقرات الصدر وهي (١٢) فقرة.

ج - الفقرات القطنية وهي (٥) فقرات.

د - الفقرات العجزية وهي (٥) فقرات متصلة مع بعضها.

هـ - الفقرات الذنبية وهي (٤) فقرات متصلة مع بعضها.

الجهاز العظمي مكسواً بعضلات تلائم نوع وخاصية الحركة.

---

(١) سورة التين، الآية: ٤.

(٢) illustrated physiology.

الجهاز العضلي:

تعتبر العضلات الأدوات المحركة للجهاز العظمي من خلال تقلصها وإنبساطها. أما وظائف العضلات فتختلف حسب موقعها من الجسم.

عضلات الوجه: تشترك في عمليات التعبير والكلام والهضم.

عضلات الأيدي: والأرجل بمختلف أطوالها وأحجامها، تشترك في حركة وعمل اليدين والرجلين والموازنة خصوصاً أثناء العمل والحركة.

عضلات الصدر الداخلية: تربط الأضلاع وتحافظ على الرئتين والقلب، وتشارك في عملية التنفس وحركة اليدين.

عضلات البطن: تحافظ على الأحشاء الداخلية في البطن، وتشارك أثناء تقلصها في عملية التقيء والبراز والتبول.

عضلات الظهر: تربط الأضلاع الخلفية، وتحفظ الأحشاء والكلى، وتربط الفقرات ببعضها، كما تساعد في حركة اليدين.

عضلات الجسم: مكونة من آلاف الألياف الصغيرة جداً وتلتصق بالعظام عن طريق الأوتاد.

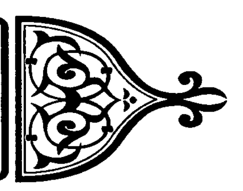
الألياف العضلية مزودة بنهايات عصبية دقيقة جداً، وحينما تجتمع مع بعضها تشكل عصباً رفيعاً يتصل في نهايته بالخلايا العصبية المحركة والباسطة؛ وهذه الخلايا بدورها تنقل الأحساسات إلى الدماغ الذي يصدر الأوامر بالتقلص، أو الانبساط، أو المحافظة على حالة التوازن التي تعطي الإنسان شكله وقامته الطبيعية.

«في تركيب صورها وَمُدَدِ عمرها بأبدانٍ قائمةٍ بأرفاقها».

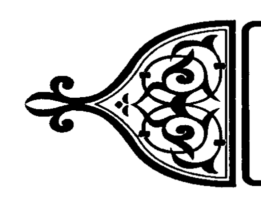
أي أن الله جلت قدرته ركب تلك الإجسام وهي مزودة بالمرافق اللازمة التي تحفظ وتصون الغايات والمنافع التي خلقت من أجلها.

«وقُلوبٍ رائِدةٍ لأرزاقِها في مُجَلّلاتِ نعَمِهِ وَمُوجباتِ مِنَنِهِ وهواجزِ عافِيَتِهِ».

أي أنَّ القلوب المؤمنة الطيبة، تطلب وتنشد الرزق الحلال الذي يجلّل الناس ويرفع من مكانتهم، بحيث يعم الخير والرفاه جميع بني البشر بنعم الله التي لا تعد ولا تحصى؛ والتي توجب الشكر وطلب العافية التي تساعد الإنسان وتقيه من شر المساوىء والأخطار المرضية.



العالمُ الأكبَرُ



● قال الإمام علي عليه السلام :

[البحر المتقارب]

«وَتَحسبُ أَنَّكَ جرمٌ صغيرٌ   وفيكَ انطوى العالمُ الأكبَرُ»[1]

الأجرام السماوية: كثيرة العدد، متنوعة الأحجام، منها المأهول بالبشر كالأرض، ومنها غير المأهول، لكنها تتفق جميعاً من حيث التكوين الإلّهي والعظمة الربانية؛ بعجيب الصنع الذي يدل بلا ريب على عظمة الصانع وابداع المكوّن.

الأرض بصغرها نسبة للكواكب والأجرام السماوية الأُخرى، تحوي وتتكون من ملايين التركيبات المادية، وأنواع المخلوقات الحياتية ومختلف النباتات والأشجار والفواكه ذات المذاقات المتعددة؛ تجعل الإنسان العاقل يقف بخشوع وإجلال لعظمة الخالق البارىء المصور، ويجزم بيقين بعظمة الكون وبداعته.

الإمام علي عليه السلام الخازن والحافظ لعلوم النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، عرف حقيقة الإنسان وما أعطاه الله من عناصر ومكونات فاقت أكبر المخلوقات الأُخرى؛ كالكواكب والأجرام السماوية التي بهرت عقل الناظر إليها، فخاطبه بهذا البيت من الشعر الذي يحوي الكثير من المعاني والآيات، لكي يتفكر ما بنفسه من معجزات رتبها وصورها الله في أحسن تصوير، معجزات فاقت التصور البشري، حتى أن العلم الحديث وما يملكه من أجهزة متطورة لم يتوصل إلى معرفة كنه الإنسان، وصدق الرسول الكريم صلى الله عليه وآله حين قال: «من عرف نفسه عرف ربه».

نعم، إن من يطلع على التكوين التشريحي والفسيولوجي والكيميائي، وما أودع الله في الإنسان من أنسجة واعضاء معقدة التركيب بعيدة التصور، سيخر ساجداً شاكراً

(١) ديوان الإمام علي عليه السلام، ص ١٧٩.

للخالق العظيم، الذي لا تعد نعمه ولا تحصى، ويزداد يقيناً وإيماناً واستقامةً وتسليماً لله رب العالمين. ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾(١).

الإعجاز الذي نطق به الإمام قبل عدة قرون، بدأ العلماء يكتشفونه ويدركونه بعد سنين طويلة وجهود مكثفة من البحث والمتابعة؛ ولا يزالون يكتشفون كل يوم حقائق جديدة ومذهلة، حتى توصلوا أخيراً إلى اكتشاف ما أسموه بالخارطة الجنينية للأنسان؛ والتي تحتوي على أكثر من ثلاثين ألف جين. ومما زاد الأمر انبهاراً وعظمةً هو أن كل جين متخصص بعمل معين ووظيفة معينة؛ حيث يؤثر ويتأثر بالأمراض المختلفة التي عانى ويعاني منها الإنسان في الوقت الحاضر والمستقبل؛ ناهيك عن أن الخلية الانسانية بحد ذاتها هي عالم خاص، له مدير وادارة وعمال ومراقبون، وحدود تراقب الداخل والخارج ولا تسمح بذلك إلا بجواز رسمي موقع من إدارة الخلية، كما وانها تملك المولدات الكهربائية التي تزودها بالطاقة اللازمة.

إما الدماغ وما يحويه من مليارات الخلايا العصبية فهو عبارة عن عجينة ذات لون رمادي وأبيض لم يتعرف العلماء على حقيقته وكيفية عمله، وكيف تخصصت خلاياه للقيام بالأفعال والأعمال العضوية والعاطفية المختلفة.

والآن لو أردنا أن نشرح عمل كل خلية ونسيج وعضو وجهاز، لتطلب ذلك مجلدات لا تحصى. لذلك نكتفي بجرد بسيط لما يحويه جسم الإنسان من خصائص ووظائف واعضاء فريدة في نوعها وتكاملها؛ وكيف أنها تشكل عالماً كبيراً واسعاً يفوق تصورنا وخيالنا. وبذلك نصل إلى نتيجة هامة وهي: أن الإنسان بحجمه الصغير يملك من الطاقات والأجهزة والمعامل والوظائف ملايين المرات أكبر وأكثر وأعقد من الأجرام السماوية المعروفة لدى الإنسان؛ وصدق الله العظيم في كتابه الكريم: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾(٢).

وإليك ما في الإنسان:

١ - يزن الإنسان المتوسط العمر والبالغ من الطول متر و٧٥ سم (٧٠) كيلوغرام ومساحة بدنية حوالي (١,٨) متر مربع.

٢ - يحتوي جسم الإنسان على ألف مليون مليون خلية.

---

(١) سورة فاطر، الآية: ٢٨.

(٢) سورة الذاريات، الآيات: ٢٠-٢١.

٣ - يقوم جسم الإنسان بالعمليات المختلفة التالية خلال اليوم الواحد:

أ - يأكل حوالي ٣-٤ أرطال من مختلف الأطعمة.

ب - يشرب ما يقارب ١,٥ لتر أو أكثر من السوائل.

جـ - يتنفس (٢٣٠٠٠) مرة.

د - يدق قلبه (١٠٠٠٠٠) مرة.

هـ. يختزن في ذاكرته نصف مليون صورة جديدة.

و - يتخلص بوسائله المختلفة من أوقية من الأملاح.

ز - ينتج يومياً ٢٤٠× ١٠ كرية حمراء وأضعاف كمية الكريات البيضاء.

ح - يتنفس (٤٢٥) قدماً مكعباً من الهواء منها (٨٥) قدم من الأوكسجين.

ط - يفرز (١,٥) لتراً من اللعاب.

ك - يولد كمية من الطاقة تعادل الطاقة الناتجة من سيارة كبيرة.

ل - يتخلص من (٢,٥) لتر من السوائل عن طريق البول والتعرق والتنفس والبراز.

م - يتخلص من (٢,٢٥) رطل من غاز ثاني أوكسيد الكاربون.

ن - يفرز الكبد يومياً لتراً من المادة الصفراء.

٤ - يستهلك جسم الإنسان من خلاياه حوالي (١٢٥) مليون خلية في الثانية الواحدة أي: بمعدل (٧٥٠٠) مليون خلية في الدقيقة الواحدة، وبنفس الوقت يتشكل ويتركب نفس العدد من الخلايا بصورة تقريبية.

٥ - خلق الإنسان بأحسن الصور، فاليدان للعمل والرجلان للوقوف والسعي، والعينان للاهتداء، والفم للاغتذاء، والمعدة للهضم، والكبد للتحويل والتصفية، والمنافذ لدفع السموم والفضلات، والأعضاء التناسلية لادامة النسل.

٦ - شرايين الدماغ والرأس والقلب والكلية والرئتين والعضلات تختلف من حيث التركيب والوظيفة بعضها عن البعض الآخر.

٧ - إن الشعر والأظافر خالية من الحياة، لأن طولها سمج وقبيح، ويؤدي إلى القذارة والإصابة بالأمراض، وقصهما حسن وجميل، ولو كانت فيهما حياة لآلم الإنسان قصهما.

٨ - الأذن لا تسمع الذبذبات الصوتية التي هي أقل من (١٦) موجة في الثانية، وأكثر من (١٦) ألف موجة في الثانية، وهذه نعمة من الله، لأن الإنسان لو سمع جميع الأصوات الصادرة من مختلف الموجودات والكائنات لأُصيب بالخوف والهلع والإجهاد والموت؛ وذلك من شدة الضوضاء التي يتعرض لها.

٩ - إن عدد ضربات القلب (٧٦) ضربة في الدقيقة، وتصل بمعدل (١٠٠) ألف ضربة يومياً أي (٤٠) مليون ضربة بالسنة أو ما يعادل (٢٠٠٠) مليون ضربة في الشخص المتوسط العمر.

١٠ - إن طي الركبة هو إلى الخلف، لكون الإنسان يمشي إلى الأمام فتعتدل الحركات، ولولا ذلك لسقط في المشي، والقدم مقوسة لأن المشي إذا وقع على الأرض بكامل القدم ثقل الجسم وتعب.

١١ - جدار الأنف البسيط على الرغم من صغر مساحته ودقته والذي يمر فيه الهواء ليل نهار بمعدل (٢٠) مرة في الدقيقة، يعتبر من أدق وأفضل أجهزة التكييف الهوائي في العالم.

١٢ - المعدة تحوي (٣٥) مليون غدة معقدة التركيب لأجل الإفراز، أما الخلايا الجدارية التي تفرز حامض الكلوريد، فتقدر بمليار خلية.

١٣ - الإنسان هو المخلوق الوحيد الذي انتصب بدنه قائماً، واستوى جالساً.

١٤ - جعل الله العينين في الرأس، ولم يجعلها في مكان آخر، حفظاً لها من الضرر، وليتمكن الإنسان من مطالعة الأشياء بيسر وسهولة.

١٥ - الغدة النخامية التي تزن حوالي نصف غرام، وحجمها لا يتجاوز سنتمر مكعب، هي الغدة الأُم التي تدير وتسيطر على كافة الغدد الأُخرى في جسم الإنسان.

١٦ - صوت الإنسان الذي تشترك فيه الحنجرة واللسان والشفتان والأسنان، صفة خاصة بالإنسان لا يجاريه فيها مخلوق آخر.

١٧ - يوجد في العفج والصائم (٣٦٠٠) زغابة في كل سنتمتر مربع لامتصاص الأغذية المهضومة، وفي الدقاق (٢٥٠٠) زغابة، وان تلك الزغابات أدق وأفضل من أحدث الكومبيوترات الحديثة، علماً بأن طول الأمعاء الدقيقة ثمانية أمتار.

١٨ - إختص الإنسان بخاصية الحفظ والنسيان والحياء والمنطق والكتابة.

١٩ - إختصت المخلوقات بالأخص الإنسان السالم بخاصية توقف النمو عند حد معين؛ ولولا ذلك لبرزت مشاكل عديدة، كذلك نراه يتوالد ذكراً وانثى ولو كان غير ذلك لانقرض نسل الإنسان.

٢٠ - إن التجاويف الموجودة في الرأس هي للموازنة واتقاء الصدمات التي قد يتعرض لها الإنسان خلال حياته اليومية.

٢١ - إن في مخاطية الفم يتوسف (٥٠٠٠٠٠) خلية تعوض فوراً، وذلك كل خمس دقائق.

٢٢ - اللسان يحوي (٩٠٠٠) حليمة ذوقية لتمييز الطعم الحلو والحامض والمر والمالح.

٢٣ - إن الشعر لحفظ الرأس والبدن من الحر والبرد.

٢٤ - وإن الجبهة بدون شعر، لأنها مصب النور إلى العينين، وجعل فيها تجاعيد لمنع وصول العرق بسهولة إلى العينين، وإن الحاجبين مفرق العينين ليردا عليهما النور.

٢٥ - إن الكريات الحمراء الموجودة في جسم الإنسان لو وضعت بجانب بعضها في صف واحد لأحاطت بالكرة الأرضية؛ أما مساحتها فتقدر بـ (٣٤٠٠) متر مربع، وعددها خمسة ملايين كرية حمراء في كل (مليمتر مكعب) من الدم، وإنه يوجد في دم الإنسان الكامل (٢٥) مليون المليون كرية حمراء لنقل الأوكسجين، و(٢٥) مليار كرية بيضاء لمقاومة الجراثيم، ومليون مليون صفيحة دموية لمنع النزف داخل الأوعية الدموية في حالة النزف.

٢٦ - وان دفقة المني الواحدة عند الرجل تحوي ثلاثمائة مليون حيواناً منوياً، ولا يتخلق الإنسان عند المقاربة إلا من حيوان منوي واحد يندمج مع بيضة واحدة من الأنثى.

٢٧ - درجة حرارة الإنسان ثابتة بالرغم من ملايين الفعاليات المختلفة التي يقوم بها الإنسان؛ وهذا ما لا يوجد في أرقى الماكنات المصنوعة في العالم، حيث تتجاوز حرارتها حرارة جسم الإنسان أضعاف المرات بالرغم من صغرها وعدم قيامها إلا بوظيفة واحدة فقط.

٢٨ - لسان المزمار الصغير الحجم الكثير الفعالية، يعتبر من أمهر وأحسن وأعظم شرطي مرور في العالم.

٢٩ - الكلية الواحدة بصغرها تحوي مليون وحدة وظيفية لتصفية الدم، تسمى النفرونات، ويرد إلى الكلية الواحدة في مدى (٢٤) ساعة (١٨٠٠) لتر من الدم، ويتم رشح (١٨٠) لتراً منه ثم يعاد إمتصاص معظمه في الأنابيب الكلوية، ولا يطرح منه سوى (١,٥) لتر وهو المعروف بالبول، ويبلغ طول أنابيب النفرونات حوالي (٥٠) كليو متراً، وان الكلية الطبيعية بالرغم من صغر حجمها تقوم بمئات الوظائف، ولو أردنا أن نقوم بصنع كلية صناعية مماثلة، لتطلب منا مصانع كبيرة وكثيرة، تأخذ حوالي خمسة كيلومترات مربعة من الأرض.

٣٠ - الكبد بحجمه المعروف يقوم بأكثر من (٦٠٠) عملية فيزيولوجية في اليوم.

٣١ - الأنف جعل وسط العينين ليقسّم النور إلى العينين بالتساوي، وأن ثقبه إلى الأسفل ليكون مصب الرواشح، والشارب والشفة لمنع نزول سوائل وروائح الأنف إلى الفم.

٣٢ - العين لا توازيها أكبر وأحدث الكاميرات العالمية الموجودة، لأنها تصور ملايين الصور يومياً بدون صوت أو إزعاج وبمختلف الأحجام والألوان، وليس لها جهاز تحميض معقد، مثل الكاميرات الحالية.

العين الواحدة تحوي حوالي (١٤٠) مليون مستقبل ضوئي، وهي ما تسمى بالمخاريط والعصي. يبلغ عدد المخاريط في كل عين (٧) ملايين، وعدد العصيات (١٣٠) مليون، مهمة الأولى الضوء المركز والألوان، والثانية الضوء الضعيف والعادي.

٣٣ - القصبة الهوائية تتفرع إلى قصبات ثم قصيبات، وهكذا حتى تصل إلى فروع دقيقة على مستوى الاسناخ الرئوية. يبلغ عدد الأسناخ الرئوية حوالي (٧٥٠) مليون سنخاً، وكل سنخ يتمتع بغلاف رقيق ويتصل بجداره عرق دموي صغير يتم خلاله تبادل الغازات.

٣٤ - تبدأ الأسنان بالتعظم في بداية الشهر السابع من عمر الجنين، وتبدأ بالظهور من الشهر الخامس أو السابع، وتسمى الأسنان اللبنية، وعددها (٢٠) سناً، وتبدأ بالسقوط في بداية السنة السادسة وحتى الثالثة عشرة، كي تسمح بنمو الأسنان الدائمية التي تعداها (٣٢) سناً، وأقتضت الحكمة الإلَهية جعل تلك الأعداد ثابتة عند الصغار والكبار.

٣٥ - وزن القلب في الشخص المتوسط العمر والوزن حوالي ٣١٢ غراماً. وحجمهُ قبضة يد، تبلغ عدد ضرباته بصورة متوسطة (٦٠-٨٠) ضربة في الدقيقة الواحدة أي ينبض (٤٠) مليون مرة في العام الواحد، في كل نبضة يدخل القلب حوالي ربع رطل من الدم، ويضخ في اليوم الواحد (٢٢٠٠) غالون من الدم وحوالي (٥٦) مليون غالون على مدى الحياة.

٣٦ - عمل عضلات الإنسان مجتمعة في اليوم يساوي ما حمولته (٢٠) طن. يحوي جسم الإنسان حوالي (٦٠٠) عضلة، وأكثر من (٢٠٠) عظم. وتحوي العضلة المتوسطة الحجم على (١٠) ملايين ليف عضلي.

٣٧ - زغابات المشيمة عند المرأة الحامل تفرش مساحة (١٦٠) قدم مربع وطول (٣٠) ميل، وتعتبر مقراً لإفراز العديد من الهرمونات، وممصات الغذاء، وجهاز تصفية لأي مادة داخلة وخارجة.

٣٨ - توصل العلماء إلى اكتشاف الخارطة الجينية للإنسان، ووجدوا أنها تحتوي على أكثر من ثلاثين ألف جين، وكل جين مسؤول عن عمل معين وصفة معينة ومرض معين.

٣٩ - في الدماغ (١٣) مليار خلية عصبية و(١٠٠) مليار خلية دقيقة استنادية تشكل سداً لحراسة الخلايا العصبية من التأثر بأية مادة، وأن الخلايا العصبية في جسم الإنسان لو وضعت بصف واحد لبلغ طولها أضعاف المسافة بين الأرض والقمر.

٤٠ - في عضو كورتي الذي يمثل شبكية الأذن يوجد حوالي (٣٠) ألف خلية سمعية لنقل كافة أنواع الأصوات.

٤١ - في المبيض عند المرأة بويضات جاهزة تصلح كل واحدة أن تكون نصف إنسان، يبلغ عددها في المبيض الواحد (٤٠٠٠٠٠) بويضة ولا يفرز من هذه البويضات في كل دورة قمرية (٢٨ يوماً) سوى بيضة واحدة، ويتناوب المبيضان في الإفراز بالحالة الطبيعية.

٤٢ - تحت سطح الجلد يوجد حوالي (٥-١٥) مليون مكيف لحرارة البدن والمكيف هنا هو الغدة العرقية، لأن تبخر العرق من الجلد يمتص معه نسبة عالية من

حرارة البدن وسطح الجلد الذي يبلغ ١,٨ متر مربع تتفاوت فيه الغدد العرقية قلة وكثرة، ومجموع أطوال أنابيب الغدد العرقية الموجودة تحت الجلد حوالي (٤-٥) كيلومترات.

٤٣ - لا يمكن أن تتشابه بصمات أصابع الإنسان حتى لو أجري الاختبار على مليارات البشر، كما أن الوان وأصوات الناس تختلف فيما بينها. وحديثاً تمكن العلماء من الوصول إلى حقيقة أن تركيب حامض D.N.A الموجود في خلايا الإنسان يختلف من فرد لآخر.

بهذه التركيبة العجيبة والمواصفات الغريبة التي ذكرناها تكوّن دماغ الإنسان أو عقله، والشيء المدهش أن تلك الخلايا المتشابهة والمستقرة في أماكن خاصة، لها وظائف متباينة ومتعددة تختلف من مجموعة إلى أُخرى، فبعضها للسمع والبصر، وأُخرى للنطق، وبعضها للسيطرة على الحركة والحس والألم، وأُخرى للفكر والعاطفة.

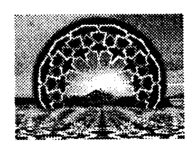
تعتبر الخلايا المختصة بالعاطفة من أعظم آيات الله الناطقة التي نفرّق فيها بين الحق والباطل، الإيمان والكفر، والعدل والظلم، والخير والشر.

إن العقل البشري هو من أسمى المخلوقات التي منحها الله للإنسان، لأن أول ما خلق الله العقل، إستنطقهُ ثم قال له: إقبل فأقبل، ثم قال له: ادبر فأدبر، ثم قال: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً هو أحبُّ إليَّ منك، ولا اكملتك إلا فيمن أُحب، أما إني إياك آمر وإياك أنهى، وإياك أُعاقب وإياك أُثيب.

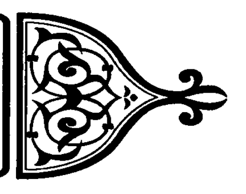
من ذلك تتضح عظمة العقل التي من خلالها عرف الإنسان ربه، ومن عرف ربه عاش الحياة بسعادة وطمأنينة، حيث القناعة والايمان والعلم والخير، ومن سلك طريق العلم عرف نفسه ومن عرف نفسه عرف بأنه أكبر واسمى عند الله من بعض المخلوقات ومنها الأجرام السماوية. قال الرسول ﷺ: «لكل شيء آلة وعدّة، وإن آلة المؤمن وعدّته العقل، ولكل شيء مطية ومطية المرء العقل، ولكل شيء دعامة ودعامة الدين العقل، ولكل قوم غاية وغاية العباد العقل، ولكل قوم راع وراعي العابدين العقل، ولكل تاجر بضاعة وبضاعة المجتهدين العقل، ولكل أهل بيت قيّم وقيّم بيوت الصدّيقين العقل، ولكل خراب عمارة وعمارة الآخرة العقل، ولكل امرىء عقب يُنسب

إليه ويُذكرُ به، وعقب الصدّيقين الذين ينسبون إليه ويذكرون به العقل، ولكل سفر فسطاط وفسطاط المؤمنين العقل»[١].

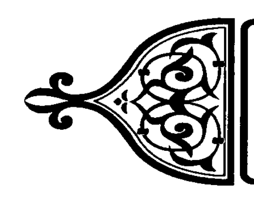
● وقال الإمام علي عليه السلام: **«العقل غطاء ستير، والفضل جمال ظاهر، فاستر خلل خلقك بفضلك، وقاتل هواك بعقلك تسلم لك المودة وتظهر لك المحبة»**[٢].



(١) المحجة البيضاء في تهذيب الأحياء: ج ١ ص ١٧٢.
(٢) المحجة البيضاء في تهذيب الأحياء: ج ١ ص ١٧٣.



معجزات ربانية



● **قال الإمام علي عليه السلام: «إِعْجَبُوا لهذا الإنسانِ، يَنظُرُ بشحمٍ، وَيَتكلّمُ بلحمٍ، ويَسمَعُ بعظمٍ، ويَتَنَفَّسُ من خَرْمٍ»[1].**

لقد نطقَ الإمام بتلك الكلمات الخالدة وهو يبين لنا عظمة الخالق الذي خلق الإنسان من سلالة من طين؛ وصوره فأحسن صوره، وجعل كل خلية وعضو من أعضائه معجزة ربانية باقية بقاء الكون، تدلل على قدرته وبديع صنعه.

الإمام عليه السلام صرح بهذه المعجزات العلمية قبل مئات السنين، حيث لا وسائل علمية حديثة ولا مختبرات متطورة ولا علم للتشريح العصري؛ ولم يكتف الإمام بذلك بل شرح تركيب وعمل تلك الأعضاء الحساسة التي يجهلها أغلب الناس.

إن القدرة الإلّهية تتجلى بوضوح عندما نتعرف على دقة التكوين في تلك الأعضاء الحياتية للإنسان (كالعين واللسان والأذن والأنف)؛ فتلك الأعضاء بالرغم من صغرها وظرافة ودقة تركيبها، تبهر العقل وتجعل الإنسان العاقل يقف بإجلال وخشوع للرب الكريم على النعم والعطايا التي توجب الشكر والطاعة والإيمان.

إن كشف هذه الحقائق خلال تلك الفترة من التاريخ هي بلا ريب معجزة علمية، تؤكد بلا شك بأن علوم الإمام علي عليه السلام هي علوم الّهية أخذها من حبيبه رسول الله صلى الله عليه وآله؛ وإلا كيف عرف الإمام أن كرة العين عبارة عن قطعة شحمية صغيرة، وان السمع يعتمد على ثلاث عظام صغيرة جداً داخل الأذن الوسطى، وأن ثقب الأنف الذي هو طريق التنفس الصحيح لا تتجاوز فتحته سنتمتراً مربعاً يؤدي إلى غشاء مخاطي شفاف يعمل كأعظم مكيّف هوائي بالرغم من صغره ودقته وديمومته وثبات درجة حرارته.

حقاً إن تلك الأعضاء هي من العجائب التي تحيّر العقول، وتجعل الإنسان يخر

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج ١٨ ص ١٠٣.

راكعاً لربه الذي تحنن عليه بكثير من النعم، فشكراً لله تعالى وللرسول ﷺ وللإمام علي عليه السلام على الهداية التي أوصلتنا إلى معرفة وطاعة خالقنا الكريم.

والآن ما أحرى بنا أن نطلع على تكوين تلك الأعضاء من الناحية التشريحية والفسيولوجية، لنكون على بيّنة من بحر علم علي عليه السلام.

«يَنظُرُ بشحمٍ»

◎ بعض خواص العين:

١ - عبارة عن قطعة شحمية لا يتجاوز وزنها (٨) غرامات، تحركها عدة عضلات رقيقة ودقيقة في مختلف الاتجاهات، وتقع في حفرة خاصة في مقدمة الجمجمة.

٢ - العين هي المسؤولة عن الإبصار والإدراك ورؤية الأشياء على حقيقتها والوانها؛ سواء كانت جميلة أم قبيحة.

٣ - العين هي إحدى مسببات الحسد.

٤ - العين هي العضو الذي يميز به الإنسان بين الحق والباطل.

٥ - قد تجلب لصاحبها الذنوب لأنها إحدى مصائد الشيطان.

٦ - أحد أسباب سعادة الإنسان، وهو يرى بها الحياة السعيدة والمناظر الجميلة.

٧ - تعطي الأمل والتطلع نحو المستقبل إذا كانت سليمة، إما إذا أُصيب الإنسان بالعمى، فقد يعاني من عقد نفسية عديدة.

٨ - تعطي الإنسان جمالاً إضافياً إذا كانت واسعة وملونة وذات أهداب طويلة.

٩ - مصدر قلق وإزعاج إذا أُصيب بمرض خاص.

١٠ - لها أشكال معينة عند بعض الأقوام، كالمغول والأفغان والصينيين.

◎ حاسة البصر:

تعتبر حاستا السمع والبصر الجهازاين المميزين عند الإنسان، حيث من خلالهما يطل على العالم ويتلقى قضايا الادراك والاحساس والتوازن.

فتعلم النطق يتم عن طريق السمع، فإذا ولد الإنسان أصم صعب عليه التفاهم والاندماج مع المجتمع الذي يعيش فيه؛ لأن جهاز السمع هو الذي ينمي إدراك الإنسان

وذهنه ووعيه. أما الكتابة، فإنها تكتسب عن طريق البصر بالدرجة الأولى، وأول آية نزلت من القرآن: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥)﴾[١].

◎ النور والتمييز:

الرؤية أو الإبصار يتم بواسطة الضوء، ولا رؤية بدون شعاع ضوئي، وتبلغ سرعة الضوء (٣٠٠٠٠٠) ثلاثمائة الف كيلومتر في الثانية الواحدة.

ينطلق الشعاع الضوئي من الجسم إلى العين ويخترق سلسلة أواسط شفافة كاسرة للنور؛ حتى يقع على منطقة حساسة في العين هي الشبكية، التي توجد فيها العناصر أو الخلايا الحساسة للضوء حيث تتأثر بالاشعاعات، وينتقل هذا التأثير بشكل سيالة عصبية عبر ألياف العصب البصري إلى السرير البصري؛ ومنه إلى الفص القفوي الذي هو مركز الرؤية العام في الدماغ وهو مضاعف في فصي الدماغ.

وهكذا بواسطة العين وما يأتيها من ضوء، يمكن للإنسان أن يتعرف على المحيط الخارجي بصورة كاملة، ويشترط أن تكون الرؤية بالعينين حتى تصبح الصورة مجسمة وواضحة، حيث يتعرف الإنسان على الموجودات من ناحية الشكل واللون والمسافة.

وبواسطة العين يتمكن الإنسان من تعلم القراءة والكتابة، وبواسطة العين يحفظ الإنسان توازنه الطبيعي أثناء المشي والحركة والعمل، كما يتزن من الناحية الفكرية والنفسية.

◎ كرة العين[٢]:

تعتبر كرة العين التي تزن ثمانية غرامات من أرقى وأروع غرف التصوير الفنية، فهي غرفة مغلقة بثلاث جدران هي من الخارج إلى الداخل.

الصلبة: وهي التي تعطي اللون الأبيض للعين.

والمشيمية: وهي التي تزود بعروقها العين.

---

(١) سورة العلق، الآيات: ١-٥.

(٢) بتصرف من كتاب: الطب محراب الإيمان للدكتور خالص جلبي.

والشبكية: وهي التي تحوي العناصر الحساسة والمستقبلة للضوء، وهي عبارة عن المخاريط والعصيات.

في مقدمة العين توجد بلّورة رقيقة هي القرنية التي تُدخل الضوء القادم إلى العين؛ ثم يجتاز الضوء بعد القرنية سائلاً شفافاً كاسراً للضوء، هو الخلط المائي الذي يقع ما بين القرنية والقزحية والقزحية هي التي تعطي العينين لونهما المعهود وتقع في مركزها الحدقة، فإذا دخل الضوء الحدقة واجه بلّورة من نوع خاص هي الجسم البلّوري، وهي أعجب بلّورة إلّهية موجودة في عالم الإنسان لأنها تتمدد وتتقلص بحيث تتغير وجوه تحدبها إلى درجات عديدة وكبيرة؛ كي تتطابق رؤية العين مع الصور والمناظر التي تقع أمامها، فإذا كانت المسافة المرئية قريبة تمددت وتقلصت بما يناسب الحالة، والعكس بالعكس. بعد الجسم البلّوري يدخل الضوء محيطاً جديداً شفافاً كاسراً للضوء هو الخلط الزجاجي؛ بعدها يصل إلى الشبكية حيث تستقبله العصيات والمخاريط وتنقله بشكل سيالة عصبية إلى الفص القفوي في الدماغ.

العين كعضو تقع في التجويف الأمامي للجمجمة، وتحيطها وسائل الوقاية كالحواجب والبروز العظمي الجبهوي من الأعلى بحيث تحمي العين من الضربات والصدمات والأشعة والعرق؛ ومن الأسفل ارتفاع عظم الوجنة، كما أن العين مغطاة بالجفون التي تتحرك بسرعة لحمايتها، أما من الداخل، فتغلق العين بغشاء رقيق شفاف يسمى الملتحمة.

في حالة دخول أجسام غريبة أو ميكروبات تقوم الغدد الدمعية بإفراز مادة معقمة تسمى خميرة الليزوزيم. غدد العين تفرز باستمرار لتطهر العين وترطبها وتعطيها البريق الخاص، بعدها يذهب الدمع عبر قناة إلى الأنف لترطيبه من الهواء الجاف الذاهب إلى الرئتين.

إن حدقة العين تنكمش وتتوسع حسب قرب وبعد الأجسام المراد رؤيتها؛ وكذلك حسب درجة الإضاءة، لأن دخول كمية كبيرة من الضوء إلى العين يؤثر عليها، فإذا كان الجسم قريباً، فإن الإنسان يراه حتى وان كانت الحدقة منقبضة، أما إذا كان الجسم بعيداً ويحتاج إلى رؤية واسعة، تتوسع الحدقة، ويتم ذلك بواسطة العضلات المحيطة بالحدقة.

إن تقدير مدى الرؤية والمرئيات يتم بواسطة خلايا قشر الدماغ، حيث ترقد مراكز الوعي والادراك والفهم والتحليل والذاكرة والابداع وفهم الألوان.

للعين إحساسان للرؤية:

الأول: الإحساس عديم اللون.

والثاني: الإحساس اللوني.

وتمتاز عصيات العين بميزتين: الإحساس للرؤية الضعيفة، والنور العادي، أما المخاريط فلها ميزتان، هما: الرؤية المركزة الشديدة الإثارة، وتمييز الألوان.

◎ حدود الرؤية:

إن العين لها حدود عندما تبصر الأشياء، فإذا ابتعد الجسم المرئي أكثر من المعتاد، لم تعد العين تراه، وإذا إقترب أكثر من اللازم، تشوشت الرؤية، وهذا ما يعرف بنقطة المدى ونقطة الكثب.

الألوان المرئية لها طيوف يمكن للعين أن تبصرها، ولكن هنالك إشعاعات عديدة لا تراها العين ولا يدركها البصر. وصدق الباري حين قال: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾[1].

«وَيَتكلّمُ بلحمٍ»

◎ تكوين اللسان:

يتكون اللسان من (١٧) عضلة للحركة في مختلف الاتجاهات وغشاء مخاطي يغلّف تلك العضلات، وعصب خاص لتحريكه في كل نصف، أي عصبان رأسيان، هما: العصب الكبير تحت اللسان في كل جانب. و(٦) أعصاب لنقل الحس ثلاثة في كل جانب:

١ - العصب اللساني لنقل الحس من مقدمة اللسان.

٢ - العصب البلعومي اللساني لنقل الحس من مؤخرة اللسان.

٣ - العصب المبهم لنقل الحس من البلعوم والمزمار.

اللسان كعضو حساس وفعال ترقد فيه آلاف النتوءات والبراعم الذوقية ويحس أنواع الأطعمة، ويستخدم في عملية المضغ والبلع والذوق والصوت والمدح والقدح. لقد

(١) سورة البلد، الآيات: ٨-١٠.

بلغت دقة التأثر في الذوق أن اللسان يحس بالطعم المر ولو بلغ تركيزه على اللسان أربعة أجزاء من مائة ألف، كذلك يساعد على نطق حروف كثيرة. وصدق القرآن الكريم حين قال: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾﴾[1].

◎ حاسة الذوق:

حاسة الذوق تستقر في اللسان وباطن الفم، اللسان يتحسس حوالي ستة أنواع من الطعام، الحلو والمر والمالح والحامض والطعم المعدني والقلوي. هذه المذاقات الأساسية تتفرع منها اشتقاقات كثيرة جداً حسب إمتزاج هذه المذاقات وبنسب مختلفة؛ وهنالك التقاء ما بين الطعم والرائحة حيث تؤثر بعض المواد برائحتها وطعمها فتسبب ما يسمى بالنكهة أو الذوق. كما أن تلك الطعوم والمذاقات تتوضع على اللسان في أماكن محددة، فالطعم الحلو تتوضع نتوءاته الذوقية في مقدمة اللسان، والطعم المر في مؤخرة اللسان، وأما المالح فيتوضع على جوانب اللسان وذروته، كما تحس به معظم أعضاء الفم مثل الشفتين والحنك وباطن الخدين وقاع الفم، وأما الطعم الحامض فيتوضع على جوانب اللسان.

النتوءات الذوقية عجيبة ومدهشة في تركيبها النسيجي، فهي تكوّن في اللسان ما يشبه الكهوف الصغيرة العديدة حيث تكون فتحة البرعم الذوقي صغيرة وتتمادى مع سطح اللسان. في داخل البرعم ترقد الخلايا الذوقية وهي ترسل أهدابها التي تتحس الذوق، ويدخل العصب الذي ينتشر بأليافه من قاعدة هذا الكهف الذوقي. داخل هذا الكهف نرى الخلايا الحسية، والخلايا التي تسندها، والخلايا التي تحيط بالبرعم الذوقي تتوزع البراعم الذوقية في الحليمات اللسانية. الحليمات اللسانية ثلاثة أنواع:

١ - الحليمات الخيطية.

٢ - الحليمات الكمئية.

٣ - الحليمات الكأسية.

لقد وجد أن البراعم الذوقية تصل أحياناً في الحليمة الواحدة إلى (٢٥٠) برعماً ذوقياً، وقد قدر عدد البراعم الذوقية في اللسان إلى حوالي (٩٠٠٠) برعم ذوقي تنقل طعوم أنواع وأشكال الأطعمة.

---

(١) سورة البلد، الآيات: ٨-٩.

«وَيسمَعُ بعظمٍ»

تعتبر حاسة السمع من عجائب خلق الله، وقد توصل العلماء إلى معرفة كيفية انتقال الصوت؛ أمّا مهمة ومعرفة وتمييز الكلمات التي تسمع فهي قضايا معقدة لم تفهم لحد الآن.

تنقسم الأذن إلى ثلاثة أقسام:

١ - لأذن الخارجية.

٢ - الأذن الوسطى.

٣ - الأذن الداخلية.

الأذن الخارجية: تتكون من صيوان الأذن الخارجي مع ممر يوصل إلى غشاء الطبلة.

الأذن الوسطى: فيها ثلاثة عظام تشبه أدوات الحداد، تسمى المطرقة والسندان والركابة. وعضلتان هما المطرقة والركابة، وهنالك قناة توصل ما بين الأذن الوسطى والبلعوم تسمى قناة اوستاكي.

الأذن الداخلية: فيها الحلزون والأقنية الهلالية، وهذه الأقسام متصلة ببعضها وتبطن الأقنية من الداخل أغشية مخاطية تشبه الكيس؛ أما الحلزون الذي يدور دورتين ونصف، فيوجد بداخله عضو كورتي.

تعتبر الأذن الداخلية الجهاز المستقبل للأصوات، والأذن الوسطى والخارجية الجهاز الناقل للأصوات، ولولا هذا الجهاز الناقل لما كان بمقدور الإنسان أن يسمع الأصوات.

ينتقل الصوت نتيجة اهتزاز جزيئات المادة، ولذا فان الصوت لا ينتقل ما لم يكن هنالك وسط مادي (هواء، سائل، أجسام صلبة) الصوت له سرعة معينة ثابتة (٣٤٠) متراً في الثانية الواحدة.

ونظراً لأن نقل الصوت يعتمد على الأذن الخارجية والوسطى نرى أن الأذن الخارجية تتألف من مادة غضروفية فيها تعاريج والتواءات لجمع الصوت (الصيوان)؛ ومن الصيوان ينتقل الصوت عبر ممر يبلغ طوله ٢,٥ سم مقوس إلى الأسفل حيث ينتهي بغشاء مرن جداً هو غشاء الطبلة. هذا المجرى الذي ينقل الصوت يحتوي في مقدمته

على شعر لاصطياد ذرات الغبار، وغدد صملاخية تفرز مادة الصملاخ التي تقتل المواد الغريبة الداخلة.

إن اهتزاز غشاء الطبلة يؤدي إلى اهتزاز عظام السمع الثلاثة، لأنها متصلة ببعض، العظم الأول الذي يتصل بغشاء الطبلة هو عظم المطرقة، والعظم الذي يتصل بالأذن الداخلية هو عظم الركابة، وبينهما عظم السندان.

يبلغ وزن العظام الثلاثة (٥٥) ملغم، ولذا فهي خفيفة وتتجاوب مع الاهتزازات. التمفصل بين العظام دقيق إلى درجة أن أدنى صوت أو همس معناه اهتزاز غشاء الطبلة، ثم اهتزاز العظام التي تنقله بدورها إلى الأذن الداخلية. والعجيب أن أواسط الأذن تناسب نقل الصوت تماماً وهي الهواء في المجرى، والأجسام الصلبة المتمثلة في العظام في الأذن الوسطى والأجسام الصلبة والسوائل في داخل الأذن الداخلية.

عظام الأذن الوسطى تقوم بتسريع مرور الصوت إلى الأذن الداخلية، كما أنها تضخم الصوت أيضاً، فسطح غشاء الطبلة يبلغ (٢٠) ضعفاً لسطح قاعدة الركابة، وقد وجد أن الصوت يزداد عشرة أضعاف حينما يصل إلى قاعدة الركابة. إن عظم الركابة يهتز باشكال مختلفة من حين لآخر؛ ولقد وجد أن هذا العظم الصغير يحوّر إتجاه تمفصله بحيث يبقى محافظاً على نقل الصوت إلى الإذن الداخلية؛ بشكل يقيها من الأذى إلى حد ما إذا كانت الأصوات القادمة شديدة.

أما العضلتان أي عضلة المطرقة والركابة، فإن الأولى تسعى لإدخال عظم الركابة أكثر إلى داخل النافذة البيضية، وعضلة الركابة تفعل بالعكس، وهكذا يحدث الاتزان بتقلص العضلتين معاً.

أما قناة اوستاكي التي تمتد ما بين البلعوم والأذن الوسطى، فتقوم بتعديل الضغط بين داخل الأذن الوسطى والخارجية، خصوصاً وأن غشاء الطبلة يسد الفوهة سداً محكماً.

الأذن الطبيعة تسمع الأصوات إذا كانت ذبذبتها تتراوح ما بين (١٦-٢٠٠٠٠) ذبذبة في الثانية.

◎ الأذن الداخلية:

لها وظيفتان: الأولى: السمع، والثانية: التوازن. وهي مكونة من دهاليز وممرات معقدة، وجدارها الداخلي الذي يشرف على الأذن الوسطى يتكون من نافذتين، علوية:

هي النافذة البيضية، وسفلية: هي النافذة المدورة. في الداخل على اليمين يقبع الحلزون الذي يدور دورتين ونصف حول نفسه، بعدها يأتي عضو كورتي الذي يضم ما يقارب (١٠٠٠٠٠) خلية سمعية حيث تتصل بالخلايا؛ ومن بين العظيم ألياف عصبية في منتهى الدقة والرقة، تجتمع لتشكل العصب السمعي الذي يصل إلى عقدة سكاريا ثم إلى الفص الصدغي من فصوص الدماغ الذي يختص بالسمع.

أما ألياف العصب الدهليزي التي تتصل بالأقنية الهلالية، فهي تنقل حاسة الموازنة ووضع رأس وجسم الإنسان إلى المخيخ، حيث يتم التوازن بالاشتراك ما بين الدهليز والمخيخ والحبال الخلفية من النخاع الشوكي التي تنقل الحس العميق؛ بالاضافة إلى البصر الذي يقدّر الوضع والمسافات، والعظام والمفاصل والعضلات التي تتلقى الأوامر اللازمة حتى يحدث الشد المناسب. وهكذا يتوازن الإنسان.

«ويتنفس من خرم»

الأنف يقع في مقدمة الوجه ما بين العينين، ويبلغ طوله عدة سنتيمترات لا غير، ويقسم بحاجز غضروفي إلى قسمين. فتحتي الأنف تقعان في الأسفل، أعلى الشفة العليا للفم، ويبلغ قطر الواحدة أقل من سنتمر مربع، ولهما وظيفتان:

الأولى: إيصال الهواء إلى الرئتين، عن طريق قناة الأنف التي تفتح على البلعوم ومنها إلى القصبة الهوائية، لأن التنفس الصحيح والطبيعي يتم عن طريق الأنف وليس الفم.

والثانية: ايصال الهواء والأبخرة والروائح إلى خلايا حاسة الشم التي تقع في الجزء العلوي من الأنف؛ لتميز نوع وخاصية الرائحة التي يتعرض لها الإنسان خلال عمله اليومي.

تتصل بأعلى الأنف قناة قصيرة، ينحدر خلالها الدمع الزائد عن حاجة العين، ليرطب أغشية الأنف، ويمنع مرور الغبار المتعلق بالهواء من دخول الرئة. الأنف يقسم تشريحياً إلى ثلاثة أقسام، الثلثان الأولان يختصان بعملية التنفس التي تجري بصورة لا إرادية حيث يقوم الغشاء المخاطي الذي يغطي سطح تلك الأقسام بتعديل رطوبة ودرجة حرارة الهواء المار إلى الرئتين لكي يصل إليها بصورة معتدلة ملائمة لدرجة حرارة الجسم، وبذلك تصبح الحويصلات بعيدة عن الأذى والضرر، أما الثلث الأعلى والأخير، فهو مختص بحاسة الشم.

إن هذه الغضاريف والأغشية التي لا تتجاوز عدة سنتيمترات، هي من المعجزات الإلَهية الكبيرة التي مَنَّ الله تعالى بها على الإنسان، ففي فصل الصيف الحار تقوم بتبريد وترطيب الهواء الذاهب إلى الرئتين، وفي الشتاء تقوم بتدفئة وتجفيف الهواء البارد الرطب قبل دخوله إلى الرئتين. وتعمل تلك الأغشية ليلاً ونهاراً من دون أن ترتفع درجة حرارتها ولا يصدر عنها صوت أو ضوضاء تعكر حياة الانسان، أو تؤثر على أفكاره وأعماله. حقاً إنها إحدى النعم الإلَهية التي توجب الشكر.

الإمام علي عليه السلام أراد أن يلفت نظرنا إلى تلك المعجزة الإلَهية التي تتبلور لنا من خلال ثقب صغير (خَرم)، يجري خلاله التنفس بيسر وسهولة لا مثيل لها، وان وراء تلك الفتحة مدفئات ومبرّدات وكومبيوترات إلهية معقدة التركيب، لا يمكن للعقل البشري أن يتصورها بوسائله العادية، إلا إذا جهد في معرفة تركيبها التشريحي وعملها الفسلجي، وعندها يتيقن بلا شك بأنَّ الصانع عظيم، وأن الإنسان مهما جهد في صنع أجهزة متطورة وحديثة لا يمكنه مجارات أو منافسة الصانع الحكيم.

◎ حاسة الشم(١)

تتركز حاسة الشم في القسم العلوي من الأنف، وعندما نلقي نظرة على الجدار الداخلي للأنف، نرى فيه ثلاث قطع غضروفية مغلفة بغشاء مخاطي يعلو بعضها البعض، وتسمى القرنيات. هذه القرنيات تشارك في عملية تسخين وتبريد الهواء أثناء مروره بالأنف.

وإذا ما نظرنا إلى ما فوق القرين العلوي تتوضح أمامنا المنطقة الشمية التي تبلغ مساحتها (٢٥٠) مليمتر مربع وتحوي على خلايا حسية تقدر ما بين (٢٠-١٠٠) مليون خلية؛ ومنها تتوزع ألياف العصب الشمي، بعد أن تجتاز سقف الأنف من خلال الصفيحة الغربالية.

إن هذه الألياف العصبية تتوزع بحيث يكون لكل خلية شمية (٦-٨) أهداب تغطس في سائل مخاطي يعلو أطرافها، فإذا وصلت الروائح إلى تلك المنطقة ذابت في السائل المخاطي أولاً، ثم في المواد التي تحويها تلك الأهداب، وهي ذات طبيعة دهنية تساعد على حل المواد الكيمائية القادمة.

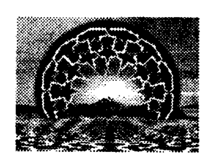
---

(١) samson wright's Applied physiology.

وقد وجد أن لكل رائحة مكان وشكل خاص داخل السائل المخاطي.

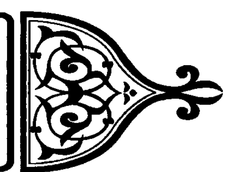
إن الألياف العصبية تصعد إلى منطقة الدماغ حيث تستقر في منطقة أولية، هي البصلة الشمية، ثم تنتقل إلى مناطق أخرى مثل تلفيف حصان البحر، وقرن آمون، والجسم المشرشر، التي ترتبط بارتباط خاص مع مناطق كثيرة في الدماغ، ولذا تشترك الرائحة مع إثارة الشهية للطعام، وتحريك الدوافع الجنسية، كما تقوم بتأثيرات روحية ونفسية وأفعال الذاكرة.

إن الروائح القادمة عبر فتحات الأنف تؤثر على الألياف العصبية ولو كانت بكمية قليلة؛ فلقد وجد أن بعض الروائح تؤثر بتركيز يبلغ حوالي خمسة أجزاء من (١٠٠) مليون من الغرام في السنتميتر المكعب، وصدق الله العظيم حين قال: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾[١]، ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾[٢].

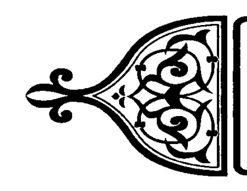


(١) سورة الفرقان، الآية: ٢.

(٢) سورة النمل، الآية: ٨٨.



وقفة علمية مع دعاء الصباح الإمام علي عليه السلام



مفهوم الزمان والمكان مفهوم قديم قدم الإنسان ذاته، لكن توجد عندنا نقطة مهمة في بحثنا حول الزمان والمكان، ربما البعد الرابع الذي وضعه العالم الألماني الأمريكي ألبرت أنشتاين الذي أسماه الزمن، جعل العلماء يعيدون النظر في مفهوم الزمان والمكان.

لا شك أن أنشتاين قد أوجد نظريتين عظيمتين ولا زال العالم يبحثهما، وربما الكثير لم يستطع أن يفهم هاتين النظريتين، وها هو أنشتاين يقول حينما اجتمع الناس حولهما هو وشارلي تشابلن: (لقد تجمع الناس لينظروا إلى عبقري يفهمونه تمام الفهم وهو أنت، وعبقري لا يفهمون منه شيئاً وهو أنا). ومع كل هذا وهذا أصبح الناس معتقدين بصحة هاتين النظريتين وجميع علماء الفيزياء قدروا لـ (أنشتاين) تلك المجهودات العظيمة، وها هو زميله في برلين العالم الفيزيائي لندتبورغ يقول: (كان يوجد في برلين نوعان من الفيزيائيين: النوع الأول أنشتاين، والنوع الآخر سائر الفيزيائيين).

ولا غرابة أن يجد أنشتاين ذاك التقدير من العلماء، لأنه استحق هذا التقدير بجدارة فلقد كان منذ صغره بعيداً عن اللعب ودؤوباً على التأمل في هذا الكون، مما جعله يستشعر وجود الله لتلك الدراسة المحكمة التي أجراها.

أهدى له والده بوصلة في عيده العاشر، أصبح أنشتاين يفكر في هذه البوصلة وكيف تشير دائماً باتجاه الشمال، استنتج أن هناك قوة تؤثر على هذه البوصلة، وبدأ رحلته في البحث في هذا الكون الفسيح، وبعد تلك الدراسة التي أخذت كل وقته قال أنشتاين: (إن علمي نقطة من بحر).

كُتب عن أنشتاين في حياته أكثر من أربعة آلاف وخمس مئة كتاب!! هذه فقط كتبت في حياته وأما الكتب التي كتبت بعد حياته فلا حصر لها!!

كل يوم يكتب كتاب عن هذا العالم الخرافي، هذا العالم الذي وصل إلى شطحات الفكر، هذه الشطحات هي التي جعلت اسمه يتربع فوق جميع العلماء.

هناك الكثير من العلماء لم يحصلوا على أي تقدير في حياتهم كـ (جاليلو). و(ابن النفيس). و(منذل). و(الحسن بن الهيثم). والكثير الكثير من هؤلاء.

أنشتاين هو أحد العلماء المعدودين على الأصابع الذين حصلوا على تقدير كبير في حياتهم، وبعد مماتهم!

في يوم ما، قلت لطلبتي: من منكم سمع بهذا الاسم (هاري ترومان)؟. لم يسمع به أي طالب، لكن حينما قلت لهم من منكم سمع بهذا الاسم (أنشتاين)؟. جميع الطلبة سمعوا بهذا الاسم.

على الرغم من أن (هاري ترومان) كان رئيس الولايات المتحدة الأمريكية، في أثناء حياة أنشتاين!!

الملوك أصبحت لا تعرف، وفي المقابل التاريخ خلد لنا أولئك العلماء!!

قد استشعر أنشتاين هذا الموقف الحساس، موقف العلم والمال. وأصبح بين موقفين متناقضين تماماً. فقد عرضت عليه رئاسة دولة إسرائيل عام ١٩٥٢م.

أنشتاين رفض هذا العرض المغري، تخيلوا أن تعرض عليكم وظيفة بـ (مئة ألف ريال). ستتمسك بهذه الوظيفة بكل جهدنا وطاقتنا. وربما نبيع أولادنا وزوجاتنا من أجل هذه الوظيفة. سنعمل فيها ولو كانت على سطح القمر!!

حب الديمومة والبقاء وحب الذات والكرسي وحب الجاه والمال، كل هذه غرائز جُبل عليها الإنسان منذ صغره. هناك نوع من البشر يرى أن (العلم) فوق كل غرائز الدنيا ولا توجد لذة فوق لذة العلم.

قال أنشتاين حينما رفض أن يكون رئيساً لدولة إسرائيل!! مقولتهُ المشهورة: (تعمل السياسة من أجل اللحظة الراهنة، أما المعادلات فللخلود).

وصدق حدسه فمعادلته التي تتكون من ثلاثة أحرف، شغلت العلماء والمفكرين... ولو لا هذه الثلاثة الأحرف لم تخرج لنا القنبلة الانشطارية، فضلاً عن القنبلة الاندماجية.

ولا زال علماء الفيزياء حتى هذه اللحظة التي أكتب لكم فيها الآن يعيشون من رشحات هاتين النظريتين.

بعد أشهر قليلة ستجري تجربة أمريكية وذلك بإرسال مركبتين فضائيتين للتأكد من النسبيّة!!

وصدق أنشتاين حينما قال: (إنكم معذورون، فإن النسبيّة صعبة ومعقدة، والأيام هي الكفيلة بتفسيرها وتوضيحها، لا أنا ولا أنتم).

وتجاربنا الكثيرة نطقت بصحة هاتين النظريتين، ولا ضير أن تبقى النسبية متعلقة بذهن هذا الرجل الذي اعتقد أن كل ما في الكون هو شيء نسبي.

اللهم يا من دلع لسان الصباح بنطق تبلجه، وسرح قطع الليل المظلم بغياهب تلجلجه، وأتقن صنع الفلك الدوار في مقادير تبرجه، وشعشع ضياء الشمس بنور تأججه، يا من دل على ذاته بذاته، وتنزه عن مجانسة مخلوقاته، وجل عن ملآئمة كيفياته، يا من قرب من خطرات الظنون، وبعد عن لحظات العيون، وعلم بما كان قبل أن يكون، يا من أرقدني في مهاد أمنه وأمانه، وأيقظني إلى ما منحني به من مننه وإحسانه، وكف أكف السوء عني بيده وسلطانه، صل اللهم على الدليل إليك في الليل الأليل، والماسك من أسبابك بحبل الشرف الأطول، والناصع الحسب في ذروة الكاهل الأعبل، والثابت القدم على زحاليفها في الزمن الأول، وعلى آله الأخيار المصطفين الأبرار، وافتح اللهم لنا مصاريع الصباح بمفاتيح الرحمة والفلاح، وألبسني اللهم من أفضل خلع الهداية والصلاح، واغرس اللهم بعظمتك في شرب جناني ينابيع الخشوع، وأجر اللهم لهيبتك من آماقي زفرات الدموع، وأدب اللهم نزق الخرق مني بأزمة القنوع.

إلَهي إن لم تبتدئني الرحمة منك بحسن التوفيق، فمن السالك بي إليك في واضح الطريق؟ وإن أسلمتني أناتك لقائد الأمل والمنى فمن المقيل عثراتي من كبوات الهوى؟ وإن خذلني نصرك عند محاربة النفس والشيطان، فقد وكلني خذلانك إلى حيث النصب والحرمان.

إلَهي أتراني ما أتيتك إلا من حيث الآمال، أم علقت بأطراف حبالك إلا حين باعدتني ذنوبي عن دار الوصال، فبئس المطية التي امتطت نفسي من هواها، فواها لها لما سولت لها ظنونها ومناها، وتبا لها لجرأتها على سيدها ومولاها.

إلَهي قرعت باب رحمتك بيد رجائي، وهربت إليك لاجئا من فرط أهوائي، وعلقت بأطراف حبالك أنامل ولائي، فاصفح اللهم عما كنت أجرمته من زللي وخطائي،

وأقلني من صرعة ردائي، (دائي) فإنك سيدي ومولاي ومعتمدي ورجائي، وأنت غاية مطلوبي ومناي في منقلبي ومثواي.

إلَهي كيف تطرد مسكينا التجأ إليك من الذنوب هاربا، أم كيف تخيب مسترشدا قصد إلى جنابك ساعيا أم كيف ترد ظمآنا ورد إلى حياضك شاربا؟ كلا وحياضك مترعةٌ في ضنك المحول، وبابك مفتوحٌ للطلب والوغول، وأنت غاية المسؤول (السؤل) ونهاية المأمول.

إلهي هذه أزمة نفسي عقلتها بعقال مشيئتك، وهذه أعباء ذنوبي درأتها بعفوك ورحمتك، وهذه أهوائي المضلة وكلتها إلى جناب لطفك ورأفتك، فاجعل اللهم صباحي هذا نازلا علي بضياء الهدى، وبالسلامة في الدين والدنيا، ومسائي جنة من كيد العدى ووقاية من مرديات الهوى، إنك قادرٌ على ما تشاء، تؤتي الملك من تشاء، وتنزع الملك ممن تشاء، وتعز من تشاء، وتذل من تشاء، بيدك الخير إنك على كل شيء قديرٌ، تولج الليل في النهار، وتولج النهار في الليل، وتخرج الحي من الميت، وتخرج الميت من الحي، وترزق من تشاء بغير حساب.

لا إلَه إلا أنت سبحانك اللهم وبحمدك، من ذا يعرف قدرك فلا يخافك، ومن ذا يعلم ما أنت فلا يهابك، ألفت بقدرتك الفرق، وفلقت بلطفك الفلق، وأنرت بكرمك دياجي الغسق، وأنهرت المياه من الصم الصياخيد عذبا وأجاجا، وأنزلت من المعصرات ماء ثجاجا، وجعلت الشمس والقمر للبرية سراجا وهاجا، من غير أن تمارس فيما ابتدأت به لغوبا ولا علاجا.

فيا من توحد بالعز والبقاء، وقهر عباده بالموت والفناء، صل على محمد وآله الأتقياء، واسمع ندائي، واستجب دعائي، وحقق بفضلك أملي ورجائي، يا خير من دعي لكشف الضر والمأمول لكل (في كل) عسر ويسر، بك أنزلت حاجتي فلا تردني من سني مواهبك خائبا يا كريم يا كريم يا كريم، برحمتك يا أرحم الراحمين، وصلى الله على خير خلقه محمد وآله أجمعين.

ثم اسجد وقل:

إلَهي قلبي محجوبٌ، ونفسي معيوبٌ، وعقلي مغلوبٌ، وهوائي غالبٌ، وطاعتي قليلٌ، ومعصيتي كثيرٌ، ولساني مقرٌ بالذنوب، فكيف حيلتي يا ستار العيوب، ويا علام الغيوب، ويا كاشف الكروب، اغفر ذنوبي كلها بحرمة محمد وآل محمد، يا غفار يا غفار يا غفار، برحمتك يا أرحم الراحمين.

◎ اللّهُمَّ يا مَنْ دَلَعَ لِسانَ الصَّباحِ بِنُطْقِ تَبَلُّجِهِ:

دلع بمعنى أخرج، . . ما معنى أخرج لسان الصباح؟ ومن أين يخرج لسان الصباح؟ هنا يتضح مفهوم الزمان والمكان.

الصباح هو الضياء الذي يأتي إلينا من الشمس لينير الأرض. الشمس تفاعلات اندماجية تحوّل كتل ذرات الهيدروجين إلى هليوم، وهذه الطاقة الناتجة تظهر على شكل حرارة لتصل إلى الأرض لتنير هذه الأرض من جهة واحدة فقط.

الصباح هو الزمان الذي تبقى فيه أشعة الشمس لتنير لنا الأرض، الذي يعبر عنه اللغويون بأول النهار.

من أين يخرج الصباح؟ نحتاج إلى مفهوم الزمن المتعلق بالصباح، هذا الزمن ينتقل من مكان إلى مكان. الزمان والمكان وجهان لعملة واحدة. . خروج الصباح من مكان معين ودخوله في مكان آخر يستلزم خروج الزمن الماضي في الزمن الحاضر.

◎ توضيح الفكرة:

دلع الرجل لسانه، معنى هذا أن الرجل أخرج لسانه، الإخراج يستلزم انتقال لسانه من مكان إلى آخر، اللسان كان موجوداً بداخل فمه (المكان داخل الفم). أخرجه من مكانه داخل الفم إلى مكان آخر وهو خارج الفم.

المكانان مختلفان تماماً، إن الإحداثيات الكارتيزية تختلف تماماً بين هاتين النقطتين، أو هذين المكانين.

نستنتج نقطة في غاية الخطورة. أن الخروج لا يكون إلا من مكان إلى مكان آخر. وبطبيعة الحال انتقال الزمان من مكان إلى مكان آخر.

◎ خروج لسان الصباح:

لا يهمني في هذا المقام مفهوم اللسان وهذا شيء خاص باللغويين والبلاغيين ولا أريد أن أتطفل في مجال لا علم لي به. لكن على الأقل نعطي فكرة بسيطة في مفهوم اللسان، لأن الإمام علي عليه السلام عبر عن هذا اللسان (بنطق تبلجه)، أي إن الظواهر المترتبة على خروج لسان الصباح هو التبلج بمعنى الإشراق أو النور. فسبحانك يا رب جعلت هذا الصباح يتكلم وينطق بهذا النور المشرق.

◎ من أين خرج نور الصباح؟

الإمام علي عليه السلام يخبرنا بأن نور الصباح كان في مكان معين، وخرج من ذاك المكان لينتقل إلينا إلى هذا المكان، وهذه الحالة متكررة في كل يوم لأن الصباح يتكرر لدينا كل يوم.

الربط بين فقرات الدعاء هو الطريقة المثلى لاستنتاج ما نريد أن نصل إليه، بداية الدعاء يخبرنا الإمام علي عليه السلام أن نور الصباح كان في مكان معين، ثم خرج من ذاك المكان ووصل إلى مكاننا نحن.

نهاية الدعاء يخبرنا الإمام عليه السلام بهذه العبارة: ﴿تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ﴾[1]. هذه الفقرة تشرح لنا بداية دعاء الصباح، ذلك أن بداية الدعاء هو سؤال محير؟؟ أن نور الصباح كان في مكان معين ثم انتقل إلينا. أين كان ذاك النور؟ يخبرنا الإمام علي عليه السلام بقوله في الدعاء، وهذه العبارة اقتبسها أميرنا من كلام الله عز وجل: ﴿تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ﴾. تدخل مكان الليل في مكان النهار وتدخل مكان النهار في مكان الليل.

استنتاج واضح أن نور الصباح كان في مكان الليل، وظلام الليل كان مكان نور الصباح.

تولج بمعنى تدخل الولوج هو الدخول. تدخل مكان الليل في مكان النهار ومكان النهار في مكان الليل.

الصباح كان في مكان الليل، معنى هذا أن هناك نقطتين في الأرض إحداهما: ليل، والأخرى: نهار. وبعد مدة معينة تتحول نقطة الليل إلى نهار ونقطة النهار إلى ليل.

(**شعشع ضياء الشمس**)، معنى هذا أن نور الصباح يأتي إلينا من الشمس، (**وجعلت الشمس والقمر للبرية سراجاً وهاجاً**).

كيف يا أميرنا تخبرنا أن الشمس هي التي تصدر الضوء إلى الأرض، وفي الوقت نفسه تخبرنا أن هناك ليلاً ونهاراً في الوقت نفسه على هذه الأرض؟

الأرض ليست مسطحة إذ لو كانت مسطحة لما كان فيها مكانان أحدهما ليل والآخر نهار.

(١) سورة آل عمران، الآية: ٢٧.

الأرض ليست مسطحة بل إنها بشكل غير مسطح، السطح المقابل للشمس يكون فيه نهار، والآخر يكون فيه ليل، وبعد فترة معينة ينتقل مكان الليل إلى مكان النهار ومكان النهار إلى مكان الليل.

◎ دوران الأرض حول نفسها يتجلى في بداية دعاء الصباح:

الأرض ليست مسطحة. نور الصباح مقابل للجهة التي فيها الشمس، الليل في الجهة الأخرى، انتقال نور الصباح إلى مكان الليل يعني انتقال مكان الصباح إلى مكان الليل، فتصبح تلك الجهة التي يغطيها الظلام تنتقل إلى الجهة التي توجد فيها الشمس، هذا الانتقال لا يتحقق إلا بتحرك ذاك المكان (مفهوم المنطق). بهذا نستنتج دوران الأرض حول نفسها.

◎ سرّح قطع الليل المظلم بغياهب تلجلجه:

سرّح بمعنى أرسل، قطع الليل تفيدنا أن الليل ليس بسيطاً بل إنه مركب ومقسم إلى قطع ربما تكون عشر قطع وربما تكون مئة قطعة وربما تكون ألف قطعة (مفهوم نسبية الزمان).

تفيدنا كلمة الغياهب بالظلام الشديد، التلجلج بمعنى التردد والاضطراب.

◎ نسبية الزمان:

الساعة التي نلبسها في يدنا هي ساعة نسبية، فلا يوجد تقسيم أساسي أعتمد عليه في هذه الساعات، فضلاً عن الدقائق والثواني.

اليوم (٢٤) ساعة. الساعة (٦٠) دقيقة. الدقيقة (٦٠) ثانية. الثانية تساوي؟؟؟ هذه التقسيمات تقسيمات نسبية ونكرر قولنا بأنها ليست أساسية ولا يوجد لها أساس علمي فلا يوجد عندنا شيء إسمه (٢٤) ساعة ولا شيء اسمه ستون دقيقة.

(وهذا التقسيم لا نستطيع أن نعممه على الكون بأكمله، فعلى سبيل المثال نلاحظ أن السنة في عطارد تساوي ٨٨ يوماً تقريباً، أما السنة في كوكب الأرض تساوي ٣٦٥,٢٥يوماً تقريباً، بالنسبة إلى كوكب بلوتو نلاحظ أن السنة تساوي ٢٤٨,٥سنة أرضية. فلو قُدّر لإنسان أن يعيش سنة واحدة على كوكب بلوتو ثم عاد إلى الأرض لوجد أن أهل سكان الأرض قد مضى عليهم ٢٤٨,٥ سنة!! وهذا يعني أنه يرى أحفاد أحفاده).

صحيح أن هذا التقسيم مر عبر عصور كثيرة وكثيرة، حتى وصل إلينا بهذا الشكل الذي نعرفه الآن، وهذا التوقيت هو توقيت عالمي، فكل دول العالم ترى أن اليوم هو أربع وعشرون ساعة والساعة ستون دقيقة والدقيقة ستون ثانية والثانية هي أصغر وحدة في الزمن، ولا يوجد شيء أصغر منها لأنها تعتبر اللبنة الأساسية في بناء الزمن.

في القدم استعمل العرب التوقيت العرب (التوقيت الغروبي) واعتبروا أن اليوم يبدأ من غروب الشمس، وتم تقسيم الليل إلى اثنتي عشرة ساعة والنهار مثلها، والساعة قسمت إلى خمس عشرة درجة، والدرجة إلى أربع دقائق تقريباً.

التوقيت الغروبي يختلف من سوريا إلى السعودية، بل إنه يختلف بين مدن السعودية. غروب الشمس في المدينة المنورة هو بداية الساعة. وغروب الشمس في القطيف هو بداية الساعة أيضاً.

النقطة التي أريد أن أصل إليها أن الزمن هو شيء نسبي وليس مطلقاً، الساعة التي نقيسها (٦٠) دقيقة، يستطيع شخص آخر أن يقيسها (١٢٠) دقيقة ولا ضير في ذلك.

ونحن نعلم أن التقويم الروماني قسم السنة إلى عشرة أشهر فقط. وكان الناس يتعايشون مع هذا التقويم الذي يبلغ عدد أيامه (٣٠٤) أيام فقط. ومع مرور الزمن عُدّل في هذا التقويم حتى وصلنا بهذا الشكل الذي نراه.

نحن هنا يجب أن نعلم أن كل إنسان يستطيع أن يقسم الزمن كما شاء اعتماداً على شيء ينسب له ذلك الزمن.

الله ينسب يومه إلى يومنا نحن البشر بألف سنة من سنواتنا: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾[1].

السنة مقدار دوران الأرض حول الشمس (٣٦٥,٢٥) ، يكون اليوم عند الله:

$$(1000 \times 365.25 = 365250 \times 24 = 8.766.000)$$

المصطلح هو ذاته لم يتغير وهو لفظ (اليوم) . لكن اليوم هنا شيء نسبي، يومنا يتكون من أربع وعشرين ساعة، أما يوم الله فيتكون من أكثر من ثمانية ملايين ساعة!!

كذلك السنة في كوكب بلوتو تختلف عن السنة في كوكب الأرض وهكذا.

هذه هي نسبية الزمان، أيام الله مختلفة عن أيامنا مع أن اللفظ هو ذاته. هذه هي

(١) سورة الحج، الآية: ٤٧.

قضية نسبية الزمان وربما الأمر يكون في غاية التعقيد خاصة من أولئك الذين لا يسبحون في بحر الخيال. الكثير منا قد عاش لحظات النوم ورأى فيها أحداثاً كثيرة وكثيرة، هذه الأحداث تصل إلى مئة سنة! ونحن نعلم أن الحلم الذي يحلم به النائم ثوان قليلة (مرحلة أقرب ما تكون بمرحلة الخلود)، وبالطبع فهو أقل من الدقيقة، نستطيع أن نقول: إن الثانية عند الحالم تعادل عشر سنوات من سنيننا ونحن أيقاظ!!

الفكرة أتوقع أنها وصلت إلى جميع القراء، وبهذا نعود إلى مقطع الدعاء **(قطع الليل)**، قطع الليل هي الأجزاء التي يتكون منها الليل. نحن هنا نقسم الليل إلى عدة ساعات وبذلك تكون قطع الليل في زماننا هي الساعات التي يتكون منها الليل، الإمام علي عليه السلام قال: **(قطع الليل)**. هنا يتجلى مفهوم نسبية الزمان فكل إنسان قادر على تقسيم الليل إلى عدد من القطع أو الأجزاء، البعض قسم الليل إلى أول الليل ووسط الليل وآخر الليل. والبعض قسمه إلى أكثر من ذلك.

(الغياهب) هي ظلام الليل، و**(التلجلج)** هو التردد والاضطراب. من المفيد أن نعرف أن الليل ليس على درجة واحدة من الظلمة، وذلك لأن الأرض تدور حول الشمس، وبالذات نفسه تدور حول نفسها، وربما لا نشعر بذاك التغير الذي يحصل في قطع الليل مقدار ذاك الشعور الذي نشعر به في النهار.

◎ مفهوم خطأ:

اعتاد البشر في زماننا على قياس الليل إلى الساعة الثانية عشرة. وبعد هذه الساعة نغادر الليل وننتقل إلى الصباح!!

هذا التقسيم خطأ بالدرجة الأولى لأن الصباح لا يبدأ إلا مع ظهور ضياء الصباح، ويكون هذا بعد الفجر.

لهذا يجب أن يعاد النظر في مثل هكذا حالات، فالليل يبدأ من غروب الشمس، إلى طهورها من جديد.

◎ وشعشع ضياء الشمس:

ضياء الشمس هو النور الذي يصل إلينا من الشمس، كلمة شعشع تفيدنا أن هذا الضوء الذي يصل إلينا نتيجة وقود أنتجه، وهذا الوقود هو الذي يشعشع ضياء الشمس في كل لحظة (وبما تفيدنا أن الشعاع كان منعدماً وحصل له اشتعال بواسطة الكتلة

المتحولة أو أن الشعاع كان موجوداً (تحول الكتلة) ويحصل له ازدياد في التوهج ليصل إلى مسافات شاسعة جداً) ، معنى هذا أن ضياء الشمس ليس في مدى استمرارية، بل إنه يتوالد في كل لحظة نتيجة الوقود الموجود في الشمس.

اليوم نعلم أن الحرارة التي تبلغ (15.000.000 °c)، في مركز الشمس هي ناتج تفاعلات اندماجية نووية تحدث داخل الشمس باستمرار، وهذه التفاعلات هي التي تولد لنا الطاقة التي تظهر لنا بشكل ضوء يصلنا إلى الأرض.

إن الإندماج الذي يحدث بين نظيري الهيدروجين في الشمس، هو الذي يكون لنا الهليوم بالإضافة إلى طاقة هائلة جداً ، واستفدنا من النظرية النسبية الخاصة التي وضعها أنشتاين أن الكتلة تتحول إلى طاقة وفق المعادلة التالية :

$$E = m.c^2$$

أن التحام نوى الهيدروجين يكوّن الهليوم الذي بدوره يحرر كمية هائلة من الطاقة، وهذه الطاقة تظهر لنا على شكل ضياء ليصل إلى الأرض.

شعاع الشمس يتكون كل ثانية نتيجة تفاعلات اندماجية تحدث في الشمس، وإن هذه التفاعلات متجددة في كل ثانية، والجدير بالذكر أن الطاقة التي تطلقها الشمس في الثانية الواحدة تكفي البشرية إلى أكثر من مائتي ألف سنة.

وفي نهاية دعاء الصباح يذكرنا أميرنا أمير المؤمنين عليه السلام ، بالحرارة الشديدة لهذه الشمس، والتوهج العظيم لها من حيث درجة حرارتها الخيالية، وهو يقول: **(وجعلت الشمس والقمر للبرية سراجاً وهاجاً)**، وكأن أميرنا يخبرنا عن التوهّج الناري لهذه الشمس، فكلمة توهّج تفيدنا بالحرارة العالية جداً لهذه الشمس التي أوقدت من تلك المواد فحولتها إلى هذه الحرارة العالية، نلاحظ هنا القمر الذي أحتمل بأن كلمة سراج خاصة به بشكل أساسي، لأن سيدنا وأميرنا ومولانا علياً بن أبي طالب عليه السلام ، ذكر في بداية الدعاء: **(وشعشع ضياء الشمس)**. نلاحظ في هذه المقولة أن الشمس هي مصدر الشعاع، ولو كان القمر مصدراً للشعاع لقال: وشعشع ضياء الشمس والقمر، وتتجلى عظمة مولانا الأمير في الفقرة التالية من الدعاء: **(وجعلت الشمس والقمر للبرية سراجاً وهاجاً)**. كلمة التوهج كما أوضحنا خاصة بالشمس لأنها مصدر الحرارة العالية، وكلمة السراج خاصة بالقمر!!! لأن السراج هو المصباح الزاهر الذي يُسرج بالليل لينير الطريق!!

تطرق أميرنا إلى مفهوم السراج في نهج البلاغة حيث قال:

(وإن شئت قلت في عيسى بن مريم عليه السلام، فلقد كان يتوسد الحجر، ويلبس الخشن، ويأكل الجشب. وكان إدامه الجوع، وسراجه بالليل القمر، وظلاله في الشتاء مشارق الأرض ومغاربها، وفاكهته وريحانه ما تنبت الأرض للبهائم، ولم تكن له زوجةٌ تفتنه، ولا ولدٌ يحزنه، ولا مالٌ يلفته، ولا طمعٌ يذله، دابته رجلاه، وخادمه يداه!)

بهذا الاستنتاج الخطير جدا نخرج بحقيقة في غاية الخطورة وهي أن أميرنا سبق أولئك العلماء بقرون عديدة، حيث أوضح لهم أن الشمس مصدر للإضاءة الذاتية بكلمة (**شعشع ضياء الشمس**)، والقمر ليس مصدرا للإضاءة الذاتية حيث يستمد نوره من توهج الشمس، ليكون سراجا ينير الطريق.

نلاحظ أيضا في خطبته التي تناول فيها خلق السماوات والأرض:

(ثم زينها بزينة الكواكب، وضياء الثواقب، وأجرى فيها سراجا مستطيرا، وقمرا منيرا: في فلك دائر، وسقف سائر، ورقيم مائر).

ذكر الإمام علي عليه السلام هنا أن النجوم ثواقب أي مضيئة، أما الكواكب غير مضيئة، تستمد نورها من النجوم. قال تعالى: ﴿ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ﴾[1].

عبّر عن الشمس بالسراج المستطير، مصدراً للإضاءة الذاتية الضخمة، بينما القمر وصفه (منير) بمعنى يعكس النور من غيره.

مفهوم النظرية النسبية الخاصة مفهوم بسيط جداً، أستطيع أن أقول: إن النظرية النسبية الخاصة احتوت بشكل أساسي مفهوم الكتلة والطاقة. العبارات السابقة تعطينا مفهوماً واضحاً جداً بالنسبة للكتلة والطاقة.

نحن هنا نحتاج لفهم أولي عن الكتلة والطاقة. فالكتلة ليست سوى ذلك الشيء الذي يقاس ببعدي الزمان والمكان. فلو كان يوجد في يدي الآن قطعة خشب، هذه القطعة تحوي زماناً ومكاناً، إذاً هي كتلة. أما الطاقة فهي الصورة المناظرة للكتلة، فقطعة الخشب تعطينا طاقة حرارية. الطاقة تظهر عادة بعدة أشكال: حرارية أو حركية. . . ، فإذا كان لدينا مجموعة من الجسيمات في حالة تفاعل. كل جسيم من هذه الجسيمات له طاقة وهذه الطاقة هي مجموع طاقته الحركية والسكونية.

---

(١) سورة الطارق، الآية: ٣.

إذا نظرنا إلى مفهوم النظرية النسبية الخاصة نخرج بنتيجة مهمة.

$$E = m.c^2 = m_0.c^2 + E_k$$

$$m = \frac{m_0}{\sqrt{1 - \frac{v^2}{c^2}}}$$

لا نريد أن نتعمق في القانون الرياضي بقدر ما نريد أن نفهم المعنى الفيزيائي لهذا القانون. **(شعشع ضياء الشمس)** تفيدنا هنا بأن الشمس تشعشع ضياءها في كل ثانية من ثوانيها. الأمر الذي يحتم لنا أن هناك كتلة تحولت إلى هذه الطاقة الهائلة. نهاية الدعاء يخبرنا الإمام علي عليه السلام أن الشمس ستؤول إلى الفناء: **(فيا من توحد بالعز والبقاء)** أي لا شيء يبقى مع الله بعد فناء المخلوقات من أجرام وحيوانات.

إن هذه الأجرام والأفلاك هي من عبيد الله وتخضع لسيطرة الله في كل لحظة من لحظاتها **(اللهم إني أسألك برحمتك التي وسعت كل شيء وبقوتك التي قهرت بها كل شيء وخضع لها كل شيء)**.

يخبرنا دعاء كميل: **(يا أول الأولين)**. هنا نستفيد بكون الله أول شيء ولا يوجد قبله شيء، فهو الذي بقدرته فلق هذا الكون وهو الذي بقدرته جعل هذا الكون يتكون عبر حقب تاريخية لتكون الأجرام والاسدام والمجرات.

إن **(النقطة الصغيرة التي كانت موجودة قبل خمسة عشر مليار سنة) هي نقطة مخلوقة من العدم، أنا لا أستطيع أن أتصور أن الكون خلق من هذه النقطة وأن هذه النقطة خلقت من العدم، وفي الوقت ذاته هذا الكون سيموت في العدم.**

الطاقة لا يمكن إفناؤها ولا يمكن خلقها من العدم، هكذا تقول لنا الفيزياء، فكيف خلقت هذه النقطة من العدم، وفي النهاية - وهذا شيء مؤكد - سيؤول كل شيء إلى العدم، كيف خلقت الطاقة من العدم؟ وكيف ستنتهي إلى العدم؟

(يا من توحد بالعز والبقاء وقهر عباده بالموت والفناء). **(وبوجهك الباقي بعد فناء كل شيء)**.

أمور غيبية لا يمكن أن نتوصل لها بالمعلومات التي أمامنا الآن، ومما لا شك فيه أن هناك قوة غيبية وراء كل ذرة من ذرات هذا الكون، وهو الله سبحانه وتعالى:

(وبقوتك التي قهرت بها كل شيء وخضع لها كل شيء)، الله الذي شعشع ضياء الشمس، الله الذي فلق هذا الكون، الله الذي أدار الأفلاك بقدرته، هذه بعض آيات الله التي نفكر فيها، والأمر لا يحتاج إلى تفكير، فهل أن الله يحتاج إلى دليل وهو دليل كل شيء؟ وما أجمل ما قاله الحسين بن علي عليه السلام في دعائه يوم عرفة:

(كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك، أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك، متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك، ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل اليك، عميت عين لا تراك عليها رقيباً).

سلام الله عليك يا أمير المؤمنين وأنت تقول: **(يا من دل على ذاته بذاته)**، وها هو دعاؤك يا أمير المؤمنين **(يدل على ذاته بذاته)**!!

◎ أتسلط النار على وجوه خرت لعظمتك ساجدة:

هذه العبارة وردت في دعاء كميل، هذا الدعاء الذي تعلمه كميل بن زياد النخعي من سيدنا الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام.

إذا كانت درجة حرارة الشمس تصل إلى (15.000.000 °c). وما الشمس إلا حجراً من أحجار نار جهنم. ودرجة حرارة نار جهنم لا تستطيع السماوات والأرض أن تتحملها، تلك الحرارة الناتجة عن الناس والحجارة يقول تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾(١). ماذا تعني لنا نحن طلبة الفيزياء كلمة الحجارة في هذا المقام، إنني أعتقد أن الحجارة لا يقصد بها جميع الأحجار، لأن الحجارة في طبيعتها غير قابلة للاشتعال، أليس من المحتمل أن تكون تلك الحجارة التي تعدّ المكون الأساسي لنار جهنم أحجاراً تحتوي على معدن اليورانيوم على سبيل المثال، وهذه الأحجار تنشطر لتولد لنا طاقة هائلة، هذا مجرد افتراض، إذ إن الوقود للشمس هو الهيدروجين، فيا ترى ماذا سيكون وقود نار جهنم، التي سيعذب الله بها العصاة؟! إن العلم استطاع أن يخدمنا في تفسير الكثير من الظواهر الغيبية، فلو قلت لإنسان منذ ألف عام تلك الحرارة الهائلة التي تنتج عن الانشطار أو الاندماج النووي فإنه لا يصدق، أما اليوم فقد استطعنا أن نتلمّس أن نار جهنم عبارة عن انشطارات نووية أو اندماجات نووية أو ما شابهها.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٤.

◎ لجعلت النار كلها برداً وسلاماً:

هل من الممكن أن يتصور الإنسان أن يشعل النار فإذا بهذه النار لا تحرق؟! من الصعوبة أن أتصور أن هناك ناراً بدون درجة حرارة عالية، إن سنخية الأشياء تلزمنا أن النار ينتج عنها حرارة، والثلج ينتج عنه برودة. ما هي النار؟ سؤال في غاية الروعة، هل النار ذاك اللهب الأصفر أو الأحمر الذي نراه؟ أم إنها قطعة الفحم المحترقة؟ أم إنها ناتج عملية تحويل كتلة الفحم إلى طاقة حرارية (مبدأ تكافؤ الكتلة والطاقة - النظرية النسبية الخاصة -) . هل من الممكن أن تتحول النار إلى غرفة باردة منعشة في الوقت ذاته؟

◎ دوران الأفلاك:

قبل أن نبحث في هذه الكلمة العظيمة التي قالها أمير المؤمنين عليه السلام : **(وأتقن صنع الفلك الدوار)**، يستحسن تقديم مقدمة علمية عن علم الفلك:

علم الفلك هو العلم الذي يهتم بدراسة الكواكب والنجوم والمجرات وكل ما يدخل في إطار الكون.

كان البشر يعتقد في القدم أن الأرض هي مركز الكون وهذا ما ذهب إليه فلاسفة اليونان، ومع تقدم التاريخ ظهرت نظرية الإمام جعفر الصادق عليه السلام بدوران الأرض[1]، لكن هذه النظرية لم تأخذ تلك الشهرة الواسعة نتيجة ظروف سياسية تتعلق بهذه الأحداث، ومضت حقبة تاريخية إلى أن ظهر العالم الفلكي (جاليلو) الذي قال بدوران الأرض، وكان هذا الرأي مخالفاً للرأي الديني مما أضطره لتبديل وجهة نظره،

---

(١) أوضح الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام الكثير من النظريات في الميكانيكا السماوية بشكل خاص وعلم الفلك بشكل عام:

- أوضح أن الأرض كروية الشكل، وتعاقب الليل والنهار ليس بسبب حركة الشمس، فالليل والنهار ناشئان عن حركة الأرض حول نفسها، فيصبح نصف الكرة الأرضية في نهار مشرق، ونصفها الآخر في ليل مظلم.

- كما أوضح سيدنا ومولانا الإمام الصادق عليه السلام الخاصية الموجبة والسالبة للذرة التي تألف لنا كل هذا الوجود.

وهناك الكثير من النظريات التي تطرق لها الإمام الصادق عليه السلام : (انظر كتاب الإمام الصادق كما عرفه علماء الغرب: ترجمه للغة العربية الدكتور نور الدين آل علي).

وما بين (جاليلو) والإمام الصادق عاش الكثير من علماء الفلك كالبيروني، والخوارزمي، وغيرهم.

قوانين كبلر التي وضعها في دراسة الفلك هي البذرة الأولى لعلم الفلك كما تعتقد الفيزياء، نحن لا نريد أن نجحف حق هذا الرجل الذي فتح لنا بوابة واسعة في علم الفلك. صاغ كبلر ثلاثة قوانين مهمة للغاية في علم الفلك.

◎ القانون الأول:

تدور الكواكب حول الشمس في مسارات بيضاوية خاصة (محكمة جداً).

◎ القانون الثاني:

الشعاع بين الشمس والكوكب يمسح مساحات متساوية في أزمنة متساوية.

◎ القانون الثالث:

إن مربع زمن الدورة لأي كوكب يدور حول الشمس يتناسب مع بعده عنها.

◎ كلام الأمير أمير الكلام:

حقيقة يجب أن نقف أمامها باستسلام في هذا البحث وهي تلك العبقرية التي كان يتمتع بها سيدنا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام.

العبارة قيلت قبل أكثر من أربعة عشر قرناً، هذه العبارة تفيدنا بدوران الأفلاك، ولم يحدد أميرنا الأرض فحسب ولا المجموعة الشمسية ولا مجرة درب التبانة، بل أخبرنا بحقيقة الفلك الذي تدور فيه الكواكب والنجوم والمجرات في مسارات محددة.

كلمة أتقن تسترعي وقفة قصيرة، فالإتقان هو العمل الممتاز من ناحية قياسية، حقيقة دوران الأفلاك الخارقة نطق بها أمير المؤمنين عليه السلام في مقولته: **(الفلك الدوار)**. كلمة أتقن تنبيء عن القدرة الخارقة التي تجعل هذه الأفلاك تدور في مداراتها الخاصة.

لو كان دوران الأفلاك بشكل اعتباطي لن تفيد كلمة (أتقن) في العبارة السابقة، لكننا نخرج بحقيقة جلية جلاء الشمس في وسط النهار هي أن الإتقان هو تلك العملية التي يدور فيها كل كوكب وكل نجم في مساره دون أن ينحرف قيد أنملة واحدة وإن هذه القوة تسترعي النظر في مثل هذه الحالات، ولو أتينا إلى مجموعتنا الشمسية نجد أن كل

كوكب من الكواكب التسعة التابعة للشمس يسير في مسار خاص به دون أن يحدث أي لبس في الكوكب الآخر.

إن مثل هذه العملية نتيجة إتقان محكم! من الاستحالة أن توجد بنفسها! إذاً لا بد من صانع حكيم لهذه الأفلاك ألا وهو الله.

ألم يسأل أحدكم هذا السؤال: كيف تدور الأرض في هذا المسار المحدد لها؟ وكيف يدور المشتري وزحل وباقي الكواكب في مسارات محددة؟

دعونا نتصور الأرض وهي تسبح في الفضاء، لماذا لا تستطيع أن تنحرف عن مسارها؟ أليس هذا هو غاية الإتقان؟؟!!!

◎ إمامنا عليه السلام يتكلم عن قانون الجذب العام لـ (نيوتن) قبل أربعة عشر قرناً:

يتجلى في هذا المقام ذلك القانون الذي وضعه نيوتن حول تجاذب الأجسام، لو لم تكن تؤثر على الأرض قوة ما استطاعت أن تسلك ذلك المسار البيضاوي، الذي تتحرك فيه.

إن عملية وجود قوة هو دليل على هذا الإتقان العظيم وهذه القوة تتمثل في الكواكب الأخرى التي تؤثر على الأرض، وبالأخص الشمس التي تجذب الأرض إليها، وتجذب جميع كواكب المجموعة الشمسية.

إن قوة الجذب التي تجذب بها الشمس الأرض هي قوة كبيرة، وإثر هذه القوة لا تستطيع أن تخرج الأرض عن المجال الجذبي للشمس. إذاً الشمس تأسر الأرض وكواكب مجموعتها في هذا المسار البيضاوي، وإن هذه القوة هي القوة التي تحافظ على سير الكوكب في مساره دون أن ينحرف قيد أنملة.

(الفلك الدوار): لم يقتصر على دوران كوكب المجموعة الشمسية حول الشمس فقط، لأن الشمس تدخل ضمن الفلك، وبهذا يتجلى كلام أمير المؤمنين عليه السلام وهو يقول: الفلك الدوار، وهذه الكلمة يتجلى وضوحها إذا علمنا أن الكواكب تدور حول الشمس في مسارات بيضاوية، كذلك تدور الشمس في مسار محدد لها، وكذلك باقي النجوم والمجرات.

إن عملية دوران الشمس لم يقل بها العلم إلا منتصف القرن التاسع عشر، فقد أكد أن الشمس تدور حول نفسها بواسطة رصد تحركات البقع الشمسية وهذه الفترة تتراوح بين خمسة وعشرين يوماً إلى ثلاثين يوماً.

بالإضافة إلى دوران الشمس حول مركز مجرة درب التبانة، وهذه الرحلة تستغرق أكثر من مائتين وعشرين مليون سنة ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾(١).

﴿لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾(٢).

جاء في نهج البلاغة:

(اللهم رب السقف المرفوع، والجو المكفوف، الذي جعلته مغيضا لليل والنهار، ومجرى للشمس والقمر، ومختلفا للنجوم السيارة. . .).

وقال عليه السلام في (نهج البلاغة) :

(وجعل شمسها آيةً مبصرة لنهارها، وقمرها آية ممحوة من ليلها، وأجراهما في مناقل مجراهما، وقدر سيرهما في مدارج درجهما، ليميز بين الليل والنهار بهما، وليعلم عدد السنين والحساب بمقاديرهما، ثم علق في جوها فلكها، وناط بها زينتها، من خفيات دراريها، ومصابيح كواكبها . .).

نحن هنا لا نريد أن نقف على هذه الحقيقة العلمية من دوران الشمس، بل إن جميع النجوم (النجوم السيارة) والمجرات والكواكب (الأفلاك) هي في حالة دوران في مسار متقن ناتج عن قوة تجاذب الأفلاك مع بعضها البعض.

إن إسحاق نيوتن درس العلاقة التي تربط الكواكب بالشمس، واستنتج أن هناك قوة تؤثر بها الشمس على الكوكب وهذه القوة هي التي تجعل الكوكب يسير في مساره دون أن ينحرف.

لنفرض أن (m_1) كتلة الكوكب الأول ولنفترض أن الكوكب هو كوكب الأرض. (m_2) كتلة الكوكب أو النجم، ولنفترض أن النجم هو الشمس، (r) بعد الكتلة الأولى عن الكتلة الثانية.

القوة التي يتجاذب بها الجسمان تزيد بطبيعة الحال إذا زادت كتلة أحد الجسمين أو كليهما (تناسب طردي) . المسافة بين الجسمين كلما زادت ضعفت تلك القوة (تناسب عكسي).

إن قوة الجذب الناتجة بين بلوتو والشمس هي أصغر من القوة التي تربط الأرض

---

(١) سورة يس، الآية: ٣٨. (٢) سورة يس، الآية: ٤٠.

والشمس، ذلك أن المسافة بين بلوتو والشمس حوالي أربعين مرة من بعد الأرض عن الشمس، ثانياً أن كتلة بلوتو أصغر من كتلة الأرض (بلوتو أصغر كوكب في النظام الشمسي) . ومع ذلك فالنظام يحكم بلوتو في مسار بيضاوي يسير فيه دون أن يخرج من سيطرة هذا النظام، صحيح أن القوة التي تربط بلوتو بالشمس أصغر من القوة التي تربط الأرض بالشمس، لكن حجم بلوتو يتناسب مع تلك القوة، ولا ننسى كيف تؤثر تلك الكواكب على بلوتو بقوة تجاذب أيضاً.

لنفرض أن قوة التجاذب (F):

$$F \alpha \frac{m_1 . m_2}{r^2}$$

$$F = G. \frac{m_1 . m_2}{r^2}$$

هنا لا نريد الوجهة الرياضية لهذا القانون بقدر ما نريد وجهة القانون المنطقية التي تخبرنا أن هناك قوة تجاذب بين الأجسام الكبيرة كالكواكب والنجوم، وهذه القوة هي التي تحافظ على سير تلك الأفلاك في مسارات متقنة دون انحراف.

◎ نظرة موضوعية في نهج البلاغة:

قال في نهج البلاغة الخطبة رقم (٩١) المعروفة بخطبة الأشباح:

(كبس الأرض على مور أمواج مستفحلة، ولجج بحار زاخرة، تلتطم أواذي أمواجها، وتصطفق متقاذفات أثباجها، وترغو زبدا كالفحول عند هياجها، فخضع جماح الماء المتلاطم لثقل حملها، وسكن هيج ارتمائه إذ وطئته بكلكلها، وذل مستخذيا، إذ تمعكت عليه بكواهلها، فأصبح بعد اصطخاب أمواجه، ساجيا مقهورا، وفي حكمة الذل منقادا أسيرا، وسكنت الأرض مدحوة في لجة تياره، وردت من نخوة بأوه واعتلائه، وشموخ أنفه وسمو غلوائه، وكعمته على كظة جريته، فهمد بعد نزقانه، ولبد بعد زيفان وثباته. فلما سكن هيج الماء من تحت أكنافها، وحمل شواهق الجبال الشمخ البذخ على أكتافها، فجر ينابيع العيون من عرانين أنوفها، وفرقها في سهوب بيدها وأخاديدها، وعدل حركاتها بالراسيات من جلاميدها، وذوات الشناخيب الشم من صياخيدها، فسكنت من الميدان لرسوب الجبال في قطع أديمها وتغلغلها متسربة في جوبات خياشيمها . . .).

هنا نحتاج لوقفة قصيرة حيث أكد إمامنا عليه السلام أن الأرض تتحرك **(وعدل حركاتها بالراسيات من جلاميدها)**، وإن هذه الجبال في حالة حركة أيضاً، قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾[1].

إن المتتبع للعبارات التالية في دعاء الصباح: **(الفلك الدوار)**. ﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾[2]. يخرج بحقيقتين مهمتين، دوران الأرض في مسارها المحدد في الفضاء. إضافة إلى دوران الأرض حول نفسها.

الله سبحانه وتعالى في سورة النمل أوضح أن الجبال ليست جامدة، في حين أننا نراها جامدة.

أوضح إمامنا عليه السلام في خطبته في نهج البلاغة، مفهوم (الاتزان) هذا المفهوم خطير جداً بالنسبة لدراستنا في الفيزياء.

إن الأرض في حالة اضطراب (عدم اتزان)، وجود الجبال يجعل لهذه الأرض خاصية الاتزان.

◎ مفهوم النسبية يتجلى في هذا المقام:

دعونا نعود للمثال الذي ذكرناه حول نظرية أنشتاين النسبية العامة، نتخيل أن سيارة تسير بسرعة ١٠٠ كم/ ساعة. وقام شخص بإطلاق رصاصة سرعتها ١٠٠٠كم/ ساعة. نتخيل أن الرصاصة أطلقت من فوق السيارة باتجاه معاكس سيكون سرعتها ٩٠٠كم/ ساعة. أما إذا كانت في نفس الاتجاه سيكون سرعتها ١١٠٠كم/ ساعة.

تخيلوا أنكم في سيارة تسير بسرعة ١٠٠كم/ ساعة. وبجانبكم سيارة تسير بنفس السرعة، ماذا سيخيل لكم؟ ألا يخيل لكم أن السيارة التي بجانبكم في حالة وقوف؟

هذا هو مفهوم النسبية، حركة الجبال هي شيء منطقي لأن الأرض تتحرك، وجميع ما على الأرض يتحرك أيضاً.

◎ مفهوم القصور الذاتي يتجلى في هذا المقام:

لو توقفت الأرض فجأة لشعرنا إننا فعلاً في حالة حركة، ولكن من حسن الحظ!!

---

(١) سورة النمل، الآية: ٨٨. (٢) سورة آل عمران، الآية: ٢٧.

أن الأرض لن تتوقف، ولو فرضنا جدلاً (فرض المحال ليس بمحال) أن الأرض توقفت سيموت كل الذين على ظهرها، هذه الحالة نُسميها بحالة القصور الذاتي.

فكما أن سائق السيارة تأقلم مع السرعة التي يقود بها سيارته، ففي الوقت ذاته لو أوقف سيارته فجأة، سيتقدم إلى الأمام ليرتطم بالشيء الذي أمامه، وهذا الارتطام سيحدث تكسراً في عظام الصدر والوجه، وهكذا ستنتهي حياته إلى الهلاك.

◎ قضية المرجع:

الكل فينا توقف بجانب إشارة المرور (حينما يكون لونها أحمر) وصادف أن يكون بجانبه سيارة أخرى عادة ما تكون كبيرة.

لاحظ السائق أن سيارته رجعت إلى الوراء!! أخذ السائق يضغط بكل قوته على الكوابح!! حركة جنونية! كيف يضغط على الكوابح والسيارة متوقفة.

هنا نحتاج لفهم قضية المرجع، القمر يكون حجمه مقارباً (سواءً في وسط السماء أو الأفق) لكن حينما ينظر أحدكم إلى القمر في الأفق يرى حجمه أكبر بثلاث مرات أو أربع مرات مقارنة بحجمه في وسط السماء.

تحرك السيارة التي بجانبك يشعرك بأنك ترجع للوراء (لأنك اتخذتها المرجع) ، بالنسبة للقمر اتخذت المرجع السماء نسبة لبعد السماء الشاسع، الأفق هنا يكون نسبة إلى الأشجار والأطلال ولهذا يبدو كبيراً.

◎ صنع....!!!

نحتاج لوقفة قصيرة حول هذه الكلمة التي تبين لنا أن هناك صانعاً (أوجد هذه الأفلاك من العدم) وأن هذا الإتقان الذي تتخذه المجرات والكواكب في أفلاكها نظام متقن بعيد عن محض الصدفة، حتى لو فرضنا ونحن في مجموعتنا الشمسية أن الأرض اتخذت هذا المسار المتقن نتيجة صدفة حدثت لها! فكيف بالصدفة تتكرر في جميع كواب مجموعتنا الشمسية.

◎ قال عليه السلام في نهج البلاغة:

(فانظر إلى الشمس والقمر، والنبات والشجر، والماء والحجر، واختلاف هذا الليل والنهار، وتفجر هذه البحار، وكثرة هذه الجبال، وطول هذه القلال، وتفرق هذه اللغات، والالسن المختلفات.

فالويل لمن جحد، المقدر، وأنكر المدبر! زعموا أنهم كالنبات ما لهم زارع، ولا لاختلاف صورهم صانع، ولم يلجأوا إلى حجة فيما ادعوا، ولا تحقيق لما أوعوا، وهل يكون بناء من غير بان، أو جناية من غير جان؟!).

هناك الكثير من الماديين يعتقدون أن الصدفة هي التي أوجدت هذا النظام الدقيق، لكن لو أتينا إلى جهة المنطق أقول إنه من الاستحالة أن تتكرر الصدفة أكثر من مرة، وجودها في المرة الأولى هي نسبة تقترب من الصفر، أما في المرة الثانية فهي نسبة أقرب وأقرب من الصفر، وتستمر الصدفة حتى تصل إلى نوع من أنواع المستحيلات.

ما هو احتمال أن يصيب الرجل في لعبة الزهرة الرقم واحد؟! وما هي النسبة للرقمين واحد ثم اثنين؟!.

لنفرض أن لدينا عشر قطع رتبت من العدد واحد إلى العدد عشرة، ورمينا بهذه القطع في صندوق وطلبنا من شخص ما أن يستخرج هذه القطع بالترتيب (بحيث تلقى كل قطعة في الصندوق بعد استخراجها) ، سيكون احتمال استخراج القطعة الأولى (١/ ١٠) ، والقطعة الثانية (١/ ١٠٠) ، وهكذا حتى نصل إلى القطعة العاشرة (١/ ١٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠).

ألا يخبرنا المنطق بأن استخراج القطع العشر مرتبة هو عملية مستحيلة تماماً.

هذا المثال الذي ذكرته قد ضربه العالم الأمريكي (كريسي مورسين) ، واستطرد قائلاً: (إن الهدف من إثارة مسألة بسيطة كهذه، ليس إلا أن نوضح كيف تتعقد «الوقائع» بنسبة كبيرة جداً في مقابل «الصدفة»).

(Man Does not Stand Alone, p.17).

◎ هل يستطيع الأعمى أن يتصل بالجوال؟

الكل فينا يعلم أن رقم الجوال مكون من عشر خانات (٠٥٠٢١٩٥٦٧٣) لو أعطينا جهاز الجوال إلى رجل أعمى وهو لا يعلم بمكان الأرقام (نفترض أن الأرقام مبعثرة عشوائياً) وطلبنا منه أن يتصل بالرقم السابق، ماذا ستكون النتيجة؟

إن احتمال أن يصيب الرجل في الرقم الأول هو (١/ ١٠) ، أما النسبة التي يحتمل أن يستطيع الأعمى أن يصيب الرقم كاملاً هي (١/ ١٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠) .

تخيلوا أن الأرقام قد زيدت إلى مئة رقم ماذا ستكون النتيجة، نتيجة خيالية بالدرجة الأولى.

قانون الصدفة الذي ذكرناه لا يسمح بخلق عين واحدة في الإنسان بهذا التعقيد الذي نراه، يكفينا أن نعرف أن عين الإنسان تحتوي علىٰ (١٤٠,٠٠٠,٠٠٠) خلية عصبية!! فهل ترتبت هذه الأعصاب صدفة بناءً على قانون الصدفة؟! إن قانون الصدفة لا يمكنه خلق عين واحدة، فكيف نسلم أنه يستطيع أن يخلق فلكاً دواراً متقناً بهذا الإتقان العجيب.

دعونا نطبق قانون الصدفة على العين الواحدة للإنسان التي تحتوي على (مئة وأربعين مليون خلية عصبية) (١٤٠,٠٠٠,٠٠٠).

سوف نجعل الصدفة ترتب هذه الأعصاب في مكانها، لتبسيط المسألة أكثر وأكثر تخيلوا أنه يوجد لديكم مجموعة من القطع يبلغ عددها (١٤٠,٠٠٠,٠٠٠) قطعة، بالطبع سوف تكون هذه القطع مرقمة.

سوف نقوم برمي هذه القطع في صندوق، وسنطلب من (هكسلي) الذي ينكر وجود الله أن يستخرج هذه القطع مرتبة(١):

سيكون احتمال استخراج القطعة الأولى هو:

$$\frac{1}{140.000.000}$$

للاختصار سوف نقوم بكتابة هذا الرقم بالشكل العلمي:

$$\frac{1}{1.4 \times 10^{8}}$$

احتمال استخراج القطعة الأولى والثانية هو:

$$\frac{1}{1.96 \times 10^{16}}$$

---

(١) قال هكسلي: (لو جلست ستة من القردة على آلات كاتبة، وظلت تضرب على حروفها لملايين السنين، فلا نستبعد أن نجد في بعض الأوراق الأخيرة التي كتبوها قصيدة من قصائد شكسبير! فكذلك كان الكون، الموجود الآن، نتيجة لعمليات عمياء، ظلت تدور في «المادة»، لبلايين السنين) The Mysterious Universe.

احتمال استخراج القطع بأكملها مرتبة هو:

$$\frac{1}{1.4^{140.000.000} \times 10^{8\times 140.000.000}} \cong 0$$

تخيلوا الرقم وما هي النسبة بين الرقمين، هذه من جهة علم الإحصاء نرى أن الصدفة لا يمكن أن تصنع هذه العين الواحدة، فضلاً عن الوقت الكثير (بافتراض نجاح الصدفة)، فلو استغرق ترتيب العصب في مكانه دقيقة واحدة فقط، سوف نحتاج إلى (١٤٠,٠٠٠,٠٠٠) دقيقة، وهذه تساوي أكثر من مائتين وستين سنة!!

مسألة الصدفة تحتاج لتكوين العين الواحدة إلى أكثر من مائتين وستين سنة، فما هو الوقت الذي تحتاجه الصدفة لتكوين إنسانٍ بأكمله؟؟

إن عمر الكون منذ ولادته إلى الآن ما يقارب (١٥) مليار سنة، هذه المدة ليست كافية لتكوين إنسان واحد بقانون الصدفة!!

الصدفة لا تستطيع أن تفعل هذه الأشياء، ولهذا جاءت كلمة (أتقن) وهي تفيد العمل غير القابل للصدفة أن تفعله، هل أحد منكم يستطيع أن يضرب بيده على لوحة المفاتيح بشكل عشوائي فإذا به يرى قصيدة متكونة من مئة بيت؟

تحضر في ذاكرتي مقولة للعالم الأمريكي عالم الطبيعة (جورج ايريل ديفيس):

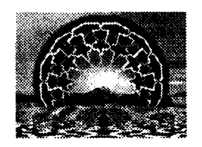
(لو كان يمكن للكون أن يخلق نفسه، فإن معنى ذلك أن يتمتع بأوصاف الخالق، وفي هذه الحال سنضطر أن نؤمن بأن الكون هو الإلّه.. وهكذا ننتهي إلى التسليم بوجود (الإله)، ولكن إلهنا هذا سوف يكون عجيباً: إلهاً غيبياً ومادياً في آن واحد!! إنني أفضل أن أؤمن بذلك الإله الذي خلق العالم المادي، وهو ليس بجزء من هذا الكون، بل هو حاكمه ومديره ومدبره، بدلاً من أن أتبنى مثل هذه الخزعبلات).

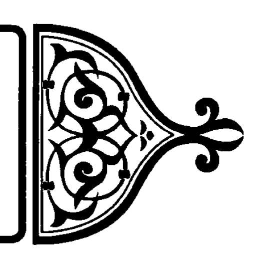
The Evidence of God, p.17.

وتحضرني مقولة إلى ألبرت أنشتاين: (هذا التناسق بين قوانين الطبيعة، وما يخفي وراءه من عقل جبار لو اجتمعت كل أفكار البشر إلى جانبه لما كونت غير شعاع ضئيل أقرب إلى القول فيه: أنه لا شيء).

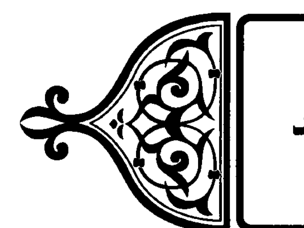
والأجمل منها تلك الكلمة التي قالها للعالم الألماني (بور) حينما أراد أن يستخرج نظرية الكل (نظرية كل شيء): (إن الله لا يلعب بالنرد).

نعم كل ذرة من ذرات الوجود تسير وفق قانون محكم وضعه الله سبحانه وتعالى، إن بعد الشمس عن الأرض ليس لعبة نرد، بل إنه قانون محكم، فلو ابتعدت الشمس أكثر من هذا المقدار لتجمدنا، ولو اقتربت لاحترقنا!.





يا من قرب من خطرات الظنون وبعد عن لحظات العيون



وضع أنشتاين النظرية النسبية الخاصة عام ١٩٠٥م، وبعد عشر سنوات وضع النسبية العامة. وربما تكون هذه النظرية لم يستطع أن يفهمها إلا عشرة في العالم! هكذا قال الناس وهم يبالغون في هذه النظرية.

قامت النظرية النسبية العامة على معتقدات وأهم هذه المعتقدات أنه لا يوجد شيء نتعامل معه في الكون كشيء أساسي بل إن كل ما في هذا الكون هو شيء نسبي، إضافة إلى وجود الزمن الذي أطلق عليه أنشتاين مسمى البعد الرابع (الطول - العرض - الارتفاع).

نحن هنا لا نريد أن نتعمق كثيراً، فكل ما في الكون هو شيء نسبي. دعونا نتمعن في عبارة سيدنا ومولانا الإمام علي بن أبي طالب ﷺ: **(يا من قرب من خطرات الظنون، وبعد عن لحظات العيون).**

المخاطب هنا الله! فكيف يكون الله قريباً وبعيداً في نفس الوقت؟! هنا نحن لا نريد أن نخوض في ذات الله ونتعامل معه كما نتعامل مع القوانين الفيزيائية لأن الله ليس بالمادة حتى نستطيع أن نخضعها لقوانيننا نحن الفيزيائيين، ويتجلى هذا الوصف في قول سيدنا أمير المؤمنين ﷺ: **(وَمَنْ أَشَارَ إِلَيْهِ فَقَدْ حَدَّهُ، وَمَنْ حَدَّهُ فَقَدْ عَدَّهُ، وَمَنْ قَالَ: «فِيمَ؟» فَقَدْ ضَمَّنَهُ، وَمَنْ قالَ: «عَلاَمَ؟» فَقَدْ أَخْلَى مِنْهُ).**

نحن هنا لا نستطيع أن نتصور الله بعيداً عن المادة، لأننا هنا لا نستطيع أيضاً أن نتصور وجود شيء خارج حدود الأبعاد الأربعة. ومما لا شك أن الله هو خالق هذه الأبعاد الأربعة، بالنسبة للأبعاد الثلاثة تصف لنا المكان، أما الزمان فمتعلق بالبعد الرابع، فهل تستطيعون معي أيها القراء أن تتصوروا وجود شيء بدون زمان ومكان؟! لا نستطيع أن نتصور هذا التصور، ولا نستطيع أن نتصور أيضاً أن هناك مكاناً بدون زمان، وزماناً بدون مكان! لكننا نعتقد أن الزمان والمكان مخلوقان، وأن وجود الله قبل وجود

الزمان والمكان. هذا شيء منطقي لأننا لو تصورنا أن الزمان والمكان أزليان أزلية الله لن نستطيع أن نخرج بالإله الحقيقي.

وهنا تتجلى مقولة لسيدنا جعفر بن محمد عليه السلام: (اللهم أنت قبل الزمان والمكان وخالقهما).

دعونا نعود للعبارة التالية: (**يا من قرب من خطرات الظنون، وبعد من لحظات العيون**).

كلمتان متضادتان، وردت في هذه العبارة (القرب). (البعد). بعيداً عن مقطع الدعاء هل من الممكن أن يكون الشيء بعيداً وقريباً في الوقت نفسه. هل من الممكن أن يكون طويلاً وقصيراً في الوقت نفسه، وسريعاً وبطيئاً في الوقت نفسه.

يتدخل أنشتاين في نسبيته ويقول نعم، وأنا أقول معه نعم أيضاً. نفرض في هذا المقام أنه يوجد لدينا ثلاثة أعمدة طول الأول عشرة أمتار، وطول الثاني مئة متر، وطول الثالث ألف متر. دعونا نصف الأعمدة، نجد أن الوصف يحتم علينا أن نقول طول العمود الثاني (90 meters) بالنسبة للعمود الأول، وطول العمود الثالث (900 meters) بالنسبة للعمود الثاني. إذاً العمود الثاني هو طويل بالنسبة للعمود الأول وقصير بالنسبة للعمود الثالث. هذه هي نسبية الأشياء.

إن الله يكون أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد! وفي الذات نفسه يكون أبعد من أن يقع بصر الإنسان عليه، قضية القرب بالنسبة لخواطر القلب التي عبر عنها إمامنا عليه السلام (**خطرات الظنون**) وقضية البعد بالنسبة (**نظرات العيون**) التي عبر عنها إمامنا عليه السلام (**لحظات العيون**).

نلاحظ الإعجاز في هذا الدعاء، بعد أن ذكر إمامنا عليه السلام أن الله (**نظير في ذاته**) فلا يلتقي بنقطة واحدة مع خلقه، لأنه خالقهم (صحيح أن صفات الله من حيث كونها صفات تعطينا نظرة بسيطة، وليست تلك النظرة الكلية فإن الله رحيم، وفلان رحيم أيضاً، الله سميع وفلان سميع أيضاً) إلا أن صفات الله تختلف عن صفاتنا نحن المخلوقات، ويؤكد إمامنا عليه السلام أن هذا النظير في ذاته بعيد عن (**نظرات العيون**) فمن المستحيل أن نظرة عين تدرك الله سبحانه وتعالى، لأنه ليس من جنس مخلوقاته، ولا يمكننا نحن المخلوقات أن نتصور الله، ولهذا نهانا إمامنا عليه السلام من التفكر في ذات الله. لأن هكذا أمثال من التفكير تقودنا إلى الزندقة، إذ إن القوانين الطبيعية تترامى وليس بوسعها أن تصل إلى الله، لأن الله فوق تلك القوانين.

◎ مثال بسيط:

الرسول محمد صلى الله عليه وآله. استطاع بفضل الله أن يشق القمر بإصبعه، فهل علماء الفلك والفيزياء يعطونا هذا التصور، سيقفون عاجزين ولن يصدقوا مثل هذه الأقوال، لأنهم طبقوا قوانينهم الفيزيائية على هذا القمر، لكن هذه الحادثة حدثت بالفعل مصداقاً لما أخبر الله في كتابه وقد سمعت من أساتذتي أن هناك حزاماً صخرياً موجوداً في سطح القمر، مما جعل علماء الفلك يعتقدون بأن القمر كان نصفين ثم التحما وأثناء ارتطامهما تكون هذا الحزام الصخري[1].

---

(١) هل النبي صلى الله عليه وآله محمد قسم القمر بسبابته:
من الصعوبة أن نثبت من الناحية العلمية قضية انشقاق القمر، حتى الحزام الصخري الذي يقال بأنه موجود على سطح القمر وبغض النظر على مصداقية هذا الحزام وبغض النظر ثانياً على أن الحزان فعلاً تكون من حادثة الانشقاق ولم يتكون من ظروف كونية فهذا الحزام ليس بدليل علمي على حادثة الانشقاق!
نحن لا نتمسك بهذا الحزام على أن القمر قد انشق فعلاً، فهذا الحزام سواء كان موجوداً أو لم يوجد، فنحن نؤمن بانشقاق القمر لأن الله قال لنا: بأن القمر قد انشق.
نحن لا نتمسك كما يتمسك الغريق بالقش لنثبت قضية الإنشقاق، بل نحن نتمسك بقول الله سبحانه وتعالى.
بعض الديانات الأخرى صرحوا بأن حادثة الانشقاق لم تحصل، بل خيّل لكفار قريش بأن القمر قد انشق! ولو أن البشر بأكملهم شاهدوا هذه الحادثة لأمنوا بالرسول محمد صلى الله عليه وآله دون قتال وجهاد. قد قرأت في الشبكة قبل فترة في هذا الموقع هذا السؤال:

http//.www.answering-cheristianity.com/moon-split.htm

- Did Prophet Muhammad really split the moon with his index finger?

- هل النبي محمد صلى الله عليه وآله قسم القمر حقاً بسبابته؟
ويأتي الجواب:

- The moon appeared to be split in half by Allah Almighty, but in reality it never got split.

- خيّل - للناظر - أن القمر قد انشق بواسطة الله القوي. لكن في الحقيقة القمر لم ينقسم.
هناك أمور يجب أن نصدقها حتى لو أن عقلنا لم يؤمن بها.
نبي الله عيسى عليه السلام كان يحيّ الموتى.. نبي الله إبراهيم عليه السلام عاش في وسط النار مع أن سنخية النار (الظاهرة الفيزيائية) يتلزم عليها أن تظهر حرارتها الخارقة.. والنبي محمد صلى الله عليه وآله قد شق=

◎ علم بما كان قبل أن يكون:

جميع التجارب العلمية مترتبة على دراسة مقدماتها من ناحية فيزيائية، لهذا لا عجب أن يتنبأ الفيزيائي باحتمال وقوع الشيء المعين.

إذا كنا نحن البشر استطعنا أن نتوصل إلى ظواهر ستقع بعد مئات السنين كالكسوف والخسوف الناتج عن دوران القمر حول الأرض ودوران الاثنين حول الشمس. فهل أن الله يصعب عليه أن يعلم بجميع ما سيكون في هذا الكون وهو من خلقه سبحانه وتعال؟!

◎ يا من أرقدني في مهاد أمنه وأمانه:

الرقاد بمعنى النوم، المهاد هو الفراش، ويقال: مهد الصبي. من صفات هذا المهد أن يحمي الصبي من كل مكروه، فهو يعمل كالحصن المنيع له.

=القمر بسبابته.. وسيدنا الأمير عليه السلام قد رجعت له الشمس..
صدقوني لو كان قضية دينية نريد لها حقيقة علمية لتحتم علينا أن نبطل الكثير الكثير من ظواهرنا الدينية، أو أن نعيش معهم وهذا مستحيل لأن الزمن لا يرجع للوراء!
هناك حقيقة يجب أن نعرفها وهي لفظ (المعجزة) فالمعجزة هي الظاهرة التي لا يستطيع العلم أن يجد لها تفسيراً علمياً ولو استطاع ما كان اسمها معجزة بل ظاهرة علمية!
فالنار من المفترض أن تنتج حرارة (الظاهرة الفيزيائية)، أما إذا كانت تنتج برودة فهذه (معجزة)، الميت لا يتكلم (الظاهرة الطبيعية) فإذا تكلم فهذا (معجزة).
هناك معاجز كثيرة ذكرها الله في كتابه، العلم لا يستطيع أن يضع لها حقائق علمية:
- قصة البقرة والقتيل الذي تكلم: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٣].
- قضية الرجعة: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩].
- قصة أهل الكهف التي أخبر الله عنها - قد ناموا في كهفهم أكثر من ثلاثة مئة سنة دون أكل وشرب: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ [الكهف: ٢٥].
- قصة نبي الله إبراهيم عليه السلام مع الطير: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠)﴾ [البقرة: ٢٦٠].

تكلم إمامنا عليه السلام عن عدد من الظواهر الفلكية في بداية دعاء الصباح، كخروج نور الصباح وتقسيم الليل إلى قطع حسب ما يقتضيه منطق الزمان، ثم انتقل إمامنا عليه السلام إلى ظاهرة دوران الأفلاك الناتجة عن الصنع المتقن، وهذا الصنع من قبل الله العلي العظيم، لأن المخاطب هو الله في دعاء الصباح.

انتقل إمامنا عليه السلام إلى هذا النجم العظيم (الشمس) الذي يقترب منا مسافة مئة وخمسين مليون كيلومتراً، أو يبتعد عنا مسافة مئة وخمسين مليون كيلومتراً (نسبية المكان)!!.

أوضح إمامنا عليه السلام أن الله هو دليل ذاته وجميع الظواهر الكونية تبقى ظواهر من حيث كونها ظواهر، وأن الاستدلال على وجود الله بمخلوقاته لا يحتاج لبعرة ولا بعير، وهذا الأسلوب في حد ذاته عقيم، لأن الاستدلال هو شيء لا يتناسب مع الذين استدلوا بالله على وجود الله!

دخل إعرابي على أحدهم وقال له: أثبت وجود الله؟ فقال له: البعرة تدل على البعير.. والأثر يدل على المسير.. فسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج ألا تدلان على اللطيف الخبير؟!

يبقى هذا الدليل دليل أولئك الضعفاء الذين لم يستشعروا الله فأخذوا يبحثون عن مخلوقات الله ليستدلوا على وجوده!

انتقل إمامنا عليه السلام إلى التنزه الذي تنزهت به ذاته المقدسة من حيث كونه واحداً في خصائصه وغير قابل لأن يكون نظيراً في أي نقطة من تلك النقاط التي يلتقي بها مع المخلوقين.

الله سبحانه وتعالى أقرب ما يكون إلى الإنسان ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾[1].

وفي الذات نفسه أن الله غير ممكن أن تدركه الأبصار التي أطلق عليها أميرنا لحظات العيون: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[2].

ثم أنبأنا إمامنا عليه السلام أن الله هو العالم بما سيحدث في جميع الأسدام والمجرات، وما تحويها هذه الأسدام والمجرات من مخلوقات.

---

(١) سورة ق، الآية: ١٦.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٠٣.

انتقل إمامنا عليه السلام إلى كوكبنا الأرضي وشبهه بالمهد الذي يحمي الطفل من المكاره، وهنا نجد القرآن الكريم يشبه الأرض أيضاً بالمهد: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا﴾(١).

قال عليه السلام في نهج البلاغة: (فَلَمَّا مَهَدَ أَرْضَهُ).

هذه الأرض تعمل على حماية جميع الأطفال الذين يعيشون فوقها وتحتضنهم وتحميهم وتجعلهم راقدين مطمئنين، وبعد هذا الرقاد يستيقظ الإنسان وهو مأمون بهذه الأرض التي دفعت عنه جميع المكاره المحتمل أن تصيبه **(وكف أكف السوء عني بيده وسلطانه)**.

ربما لولا هذا المهد الذي يحمينا لوجدنا نفسنا معرضين للنيازك والشهب التي يلتقطها الغلاف الجوي قبل أن تصل إلينا.

الأرض هي المهد الوحيد لهذا الإنسان الذي يعيش فوقها، وهذا المهد هيأه الله بجميع مستلزمات الطفل الذي يعيش بداخله.

لو ابتعدت الشمس مسافة أكثر لتجمدنا بالبرودة، ولو اقتربت لاحترقنا بالحرارة! الأرض هي المهد الوحيد للذي يعيش فوقها.

◎ قال أمير المؤمنين في نهج البلاغة:

وكان من اقتدار جبروته، وبديع لطائف صنعته، أن جعل من ماء البحر الزّاخر المتراكم المتقاصف، يبساً جامداً، ثمّ فطر منه أطباقاً، ففتقها سبع سمٰواتٍ بعد ارتتاقها، فاستمسكت بأمره، وقامت على حدّه. وأرسى أرضاً يحملها الأخضر المثعنجر، والقمقام المسخّر. قد ذلّ لأمره، وأذعن لهيبته، ووقف الجاري منه لخشيته. وجبل جلاميدها، ونشوز متونها وأطوادها، فأرساها في مراسيها، وألزمها قرارتها، فمضت رؤوسها في الهواء، ورست أصولها في الماء، فأنهد جبالها عن سهولها، وأساخ قواعدها في متون أقطارها ومواضع أنصابها، فأشهق قلالها، وأطال أنشازها، وجعلها للأرض عماداً، وأرّزها فيها أوتاداً، فسكنت على حركتها من أن تميد بأهلها، أو تسيخ بحملها، أو تزول عن مواضعها.

فسبحان من أمسكها بعد موجان مياهها، وأجمدها بعد رطوبة أكنافها، فجعلها

---

(١) سورة النبإ، الآية: ٦.

لخلقه مهاداً، وبسطها لهم فراشاً! فوق بحرٍ لجّيّ راكدٍ لا يجري، وقائم لا يسري، تكركره الرّياح العواصف، وتمخضه الغمام الذّوارف، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾(١) (٢).

في هذه الخطبة أوضح إمامنا مفاهيم كثيرة كمفهوم الانفجار العظيم (**فَفتَقَها سَبْعَ سَمَاوَاتٍ بَعْدَ ارْتِتَاقِهَا**)، مصداقاً لقول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَـٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾(٣).

مفهوم الجاذبية (**فَاسْتَمْسَكَتْ بِأَمْرِهِ**)، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾(٤).

◎ أيها العلماء الغربيون لا تبحثوا فيما لا جدوى منه:

كثر الحديث في الآونة الأخيرة عن تفكير العلماء الغربيين في العيش على المشتري أو غيره من الكواكب.

أنا أقول لا يوجد كوكب، جعله الله مهداً كهذه الأرض التي نعيش عليها، إن التفكير في اللجوء والعيش على كوكب غير الأرض هو في حد ذاته تفكير لا يصدر إلا من جاهل بواقع الأمر.

وعلى وكالات وشركات الفضاء أن توقف خرافاتها في اللجوء إلى كواكب أخرى ليعيش فوقها الإنسان.

مسكين أيها الإنسان!! إن الطائر داخل البيضة يشعر أنه في سجن دون أن يعلم أن هذه البيضة، توفر له عناية تامة وتحميه من كل مكروه.

كذلك الجنين في بطن أمه، يشعر أنه في سجن مغلق دون أن يعلم أن هذا السجن هو حماية تامة له من كل مكروه محتمل أن يصيبه.

مسكين أيها الإنسان!! تشعر أنك في سجن وتحاول اللجوء إلى المريخ لتعيش فوقه لتهرب من هذا السجن (الأرض) دون أن تعلم أن هذا السجن يعمل عمل المهد للطفل ليحميك من كل مكروه!!

---

(١) سورة النازعات، الآية: ٢٦.
(٢) نهج البلاغة الخطبة ٢٠٩.
(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٣٠.
(٤) سورة الرعد، الآية: ٢.

﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾(١).

الولوج يأتي بمعنى الدخول، فكيف أن الله يدخل الليل في النهار، والنهار في الليل، عملية تداخل الأزمنة عملية معقدة بعض الشيء، وهل أن الزمان يتداخل بعضه ببعض؟ إن الحياة التي يعيشها النائم في أحلامه هي أقل من دقيقة واحدة، لكن مقابل هذه الدقيقة قد أدخل عوالم إلى عالمه. فهل أن الزمن تقلص بالنسبة للنائم، كما يتقلص الفلم التاريخي بالنسبة للمشاهد؟ الكل فينا قد جلس أمام التلفزيون ليشاهد فلماً تاريخياً مدة عرضه ثلاث ساعات، وهذا الفلم يحكي لنا حقبة مدتها مئة سنة!!

كيف استطاع أن يدخل تلك الحقبة التاريخية الطويلة في هذا المقام القصير من الساعات؟.

زمن الليل هو بالحقيقة يدخل في زمن النهار، ولا يمكننا هنا أن نتصور دخول زمن الليل في زمن النهار، من دون أن نربط الزمان بالمكان! إن افتراق الزمان عن المكان شيء مستحيل، بعد أزلية الله. لا يمكننا أن نتصور شيئاً بدون زمان ومكان دون الله!

يقتضي إذاً في مفهومنا أن نتصور أن دخول زمن الليل في زمن النهار، يحتم علينا دخول مكان الليل في مكان النهار، وهذا من معجزات كلام إمامنا صلوات الله وسلامه عليه.

إذا كانت الشمس تتوهج وتحول كتلتها إلى طاقة حرارية تظهر لنا على شكل هذا الضياء الذي يصل إلينا، وفي الذات نفسه يخبرنا إمامنا أن الأرض تدور في فلك محكم، في الفضاء المحيط بنا وأن الإتقان هو عدم قدرة الأرض على مغادرة ذاك المسار المحدد لها، إذ إن قانون الجذب العام الذي عرف بقانون نيوتن هو الذي يصور لنا مثل هكذا حالات.

لكن هنا كيف نستطيع أن نتصور أن مكان الليل يدخل في النهار ومكان النهار يدخل في الليل، وزمان النهار يدخل في زمان الليل وزمان الليل يدخل في زمان النهار؟؟

في هذا المقام يتكلم إمامنا عليه السلام عن الأرض، فيقول تدخل مكان الليل في مكان النهار (الولوج). فهل أن الأرض يكون فيها في الذات نفسه ليلٌ ونهارٌ؟. هذا شيء منطقي، الليل يكون في نصف الأرض ويتدرج ليدخل في الذات نفسه في نصفها الآخر فعلام يدل هذا؟

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٢٧.

ألا يدل هذا على أن الأرض تدور حول نفسها، ففي الجهة التي تكون مقابلة للشمس يكون النهار، والجهة الأخرى يكون الظلام.

نظريتان واضحتان يخبرنا بهما دعاء الصباح، دوران الأرض في مسارها المحدد، بقوله: **(واتقن صنع الفلك الدوار)**. الضياء الذي يصل إلينا نحن الأرضيين هو من توهج الشمس، لقوله: **(شعشع ضياء الشمس)**. **(وجعلت الشمس والقمر للبرية سراجاً وهاجاً)**.

النظرية الأخرى، هي كروية الأرض إضافة إلى دوران الأرض حول نفسها، لو كانت الأرض مسطحة لكان النهار على جميع أصقاعها في نفس الوقت، بهذا نقول إن الأرض كروية لأنه توجد نقطتان على سطحها الأولى نهار مشرق والثانية ليل مظلم.

هاتان النقطتان لا تبقى على حالتيهما، بل تتحول إحداهما إلى نهار مشرق تدريجياً والأخرى لليل مظلم تدريجياً. وهذا أقوى الأدلة على أن الأرض تدور حول نفسها وفي الذات نفسه تدور في فلكها المعيّن حول الشمس!

◎ ألّفت بقدرتك الفرق:

هنا يتجلى كلام مولانا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وهو يقول: **(ألفت بقدرتك الفرق)**. الفرق: الشيء غير القابل للجمع، فما أعظمك يا إلّهي إنك استطعت أن تجمع بين شيئين متضادين، لتفلق لنا بهما الفلق، ألفت بمعنى جمعت. الفرق هنا الأشياء المتضادة فما أعظم قدرتك يا إلهي أن تجعل شيئين متضادين في مكان واحد، ألا يوحي لنا بتلك القدرة العالية التي تجمع الجسيمات السالبة والموجبة في حيز النواة.

قلنا في كتابنا الذرة أن العناصر تتكون من ذرات، وهذه الذرات بطبيعتها تتكون من نواة تتركز فيها معظم كتلة الذرة، الإلكترونات تدور حول النواة على شكل سحابة إلكترونية. دعونا هنا نتمعن في هذه الذرة.

كيف احتوت الذرة هذه الجسيمات السالبة والموجبة في الوقت ذاته وهي في حالة استقرار تام؟!. إن هذا الإتقان العظيم هو إتقان يسترعي النظر في مكونات هذه الذرة.

◎ وفلقت بلطفك الفلق:

الفلق بمعنى الصباح لأنه ينفلق من الليل، وربما يكون الفلق في هذا المقطع هو

الخلق أو الكون بأكمله، يا إلهي ما أعظمك حيث فلقت بلطفك هذا الكون العظيم من حيز ضيق صغير جداً جداً، لتكوّن لنا يا إلهي هذا الكون.

◎ الكون بدأ بشيء صغير:

هنا نتطرق لمقطع من الخطبة الأولى لسيدنا ومولانا علي بن أبي طالب عليه السلام، هذه الخطبة من كتاب نهج البلاغة:

أنشأ الخلق إنشاءً، وابتدأه ابتداءً، بلا رويّةٍ أجالها، ولا تجربةٍ استفادها، ولا حركةٍ أحدثها، ولا همامة نفسٍ اضطرب فيها.

أحال الأشياء لأوقاتها، ولأم بين مختلفاتها، وغرّز غرائزها، وألزمها أشباحها، عالماً بها قبل ابتدائها، محيطاً بحدودها وانتهائها، عارفاً بقرائنها وأحنائها.

ثمّ أنشأ - سبحانه - فتق الأجواء، وشقّ الأرجاء، وسكائك الهواء، فأجرى فيها ماءً متلاطماً تيّاره، متراكماً زخّاره، حمله على متن الرّيح العاصفة، والزّعزع القاصفة، فأمرها بردّه، وسلّطها على شدّه، وقرنها إلى حدّه. الهواء من تحتها فتيقٌ، والماء من فوقها دفيقٌ. ثمّ أنشأ سبحانه ريحاً اعتقم مهبّها[1]..

يتكلم إمامنا عليه السلام في خطبته ويخبرنا بنظرية الانفجار العظيم التي تمثل لنا اليوم أهم النظريات حول نشأة الكون: (فَتَقَ الأجواء)، (فَفَتَقَهَا سَبْعَ سَمَاوَات بَعْدَ ارْتِتَاقِهَا، فَاسْتَمْسَكَتْ بِأَمْرِهِ)، (وفتق بعد الارتتاق صوامت أبوابها).

◎ القرآن الكريم يخبرنا عن نظرية الانفجار العظيم:

﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾[2].

ألا تلاحظون أن كلام إمامنا عليه السلام يختلف عن كلام البشر، ألا تلاحظون أن كلام أميرنا هو فوق كلامنا نحن البشر، إن وجود القرآن هو من أعطى لسيدنا ومولانا علي بن أبي طالب عليه السلام المرتبة الثانية بعده. ولا شك أن نهج البلاغة وأدعيته عليه السلام كدعاء الصباح ودعاء كميل، ليست من جنس كلام البشر، إذ إن هذا الكلام فوق كلام البشر، ودون كلام الخالق.

---

(١) نهج البلاغة خطبة رقم (١).

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٣٠.

الله سبحانه وتعالى يتكلم عن نظرية الانفجار العظيم، بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾(١).

لو تمعنا قليلاً في كلام إمامنا عليه السلام: **(وفلقت بلطفك الفلق)**. **(وفتق بعد الارتتاق صوامت أبوابها)**، **(ففتقها سبع سماوات بعد ارتتاقها، فاستمسكت بأمره)**. وجدنا نظرية الانفجار العظيم تتجلى هنا، وقبل أن نأتي لهذه النظرية، علينا أن نسلم بمفهوم المنطق: (كل ما كانت له بداية كانت له نهاية). (وكل ما كانت له نهاية كانت له بداية). جميع الشواهد التي ذكرناها توضح لنا أن الكون له بداية معروفة، هذه البداية هي نقطة صغيرة جداً وحصل لهذه النقطة الفتق أو الفلق، لتكوّن لنا هذه الأسدام والأجرام.

الفتق والفلق كلمتان مترادفتان تعطينا مفهوماً واضحاً حول نشأة الكون، من هذا الرتق. تبين لنا الآية الكريمة أن السماوات والأرض كانتا شيئاً ملتصقاً بعضه مع بعض. ثم أتت عملية الفتق التي نعبر عنها اليوم بنظرية الانفجار العظيم.

◎ الانفجار العظيم:

كثر الحديث عن نشأة الكون وبدايته ونهايته، بداية الكون نظرية جدلية قديمة قدم الإنسان نفسه ووضعت الأساطير الكثيرة حولها. الآن هنا في هذا المقام لا توجد عندنا إلا نظرية واحدة هي الأقرب ما تكون إلى الصحة نظرية الانفجار العظيم (ربما الدراسات التي أجريت حول تباعد المجرات هي التي أكّدت صحة هذه النظرية من الوجهة المنطقية، إضافة إلى اكتشاف الإشعاع الكوني، قضية الدخان أو الغبار الكوني الذي التقطته شركة ناسا للفضاء عام ١٩٩٥م، يؤكد أيضاً صحة النظرية. وهناك أمور كثيرة تؤكد نظرية الانفجار العظيم)، هنا نريد أن نعلم أن الكون كان في بدايته يقع في حيز ضيق جداً (نقطة صغيرة جداً)، هذه النطقة الصغيرة ذات كثافة شديدة جداً، حصل لها انفجار عظيم، بعد ذلك تكون لدينا هذا الكون عبر مراحل كثيرة.

إن قضية الفلق هنا تخبرنا بمفهوم ذاك الانفجار الذي حصل ليخلف لنا الكون، إمامنا عليه السلام يتكلم عن اتحاد المتضادات **(ألفت بقدرتك الفرق)** وبعد ذلك يتكلم عن مفهوم الانفجار العظيم الذي حصل لهذا الكون.

بعد قضية الفلق، نحتاج هنا للظواهر المترتبة على هذا القلق وذكر إمامنا عليه السلام بعض هذه الظواهر التي حصلت بعد هذا الفلق.

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٣٠.

◎ أيها الفيزيائيون أجيبوني عن هذا السؤال:

أيها الفيزيائيون أجيبوني: ماذا كان قبل هذا الانفجار العظيم؟ إن عقلكم لن يستطيع أن يتصور ماذا كان قبل هذا الانفجار، وكيف تستطيعون أن تصفوا شيئاً قبل الزمان والمكان؟

إن وجود هذه النقطة يحتم علينا أن نعتقد بالزمان والمكان الموجودة فيهما. ربما يكون الانفجار العظيم هو بداية الزمان والمكان، وإذا افترضنا أن قبل النقطة الصغيرة وجد الزمان والمكان لأنه لا يمكننا أن نتصور زماناً بدون مكان ومكاناً بدون زمان. فكيف تكونت هذه النقطة؟

مهما بلغنا من علم سنبقى عاجزين عن تفسير تلك الظواهر الفلكية الغيبية ولا يسعنا في هذا المقام إلا أن نتصور قدرة الله التي تتجلى وراء كل شيء، فهو الذي بقدرته فلق الفلق وهو الذي بقدرته سيفني هذا الفلق.

◎ أنرت بكرمك دياجي الغسق:

هذه المقولة تبين لنا سواد الليل، وكيف أن هذا السواد انجلى ليتحول إلى نور، لكن هنا نقطة حساسة جداً. كيفية الجمع بين عبارات هذا الدعاء **(شعشع ضياء الشمس)**. **(أنرت بكرمك دياجي الغسق)**. **(جعلت الشمس والقمر للبرية سراجاً وهاجاً)**.

الضوء ذو طبيعة مزدوجة فهو يحمل الخاصية الموجية والجسيمية، الضوء يتكون من الفوتونات التي هي مصدر النور الذي ينير لنا الغسق.

وقد تطرقنا في كتابنا الذرة حول طبيعة انبعاث الضوء من ذرة نور، حيث افترض أن الذرة لا تشع ضوءً ما دام الإلكترون يتحرك في مساره، أما إذا انتقل الإلكترون من مساره إلى مسار آخر، فإن الذرة تشع ضوءاً طاقته تساوي الفرق بين طاقتي المدارين.

وقد أوضحنا أن التردد يعطي بالعلاقة:

$$\nu = \frac{E_i - E_f}{h}$$

وبالمنطق الفيزيائي، أن الضوء له تردد وطول موجي وطاقة، والطاقة صورة للكتلة وبما أن الضوء يتكون من جسيمات (الخاصية الجسيمية). فهو بذلك له وزن معين! نحن لا نستطيع أن نتخيل أن صندوقاً بداخله جسيمات ثم تقولون لنا: أن وزن الصندوق يساوي (صفراً). يجب أن يكون للضوء وزن وللظلمة أيضاً وزن.

جاء في الصحيفة السجادية دعاء للإمام زين العابدين في التسبيح:

(سبحانك تعلم وزن السماوات. سبحانك تعلم وزن الأرضين. سبحانك تعلم وزن الشمس والقمر. سبحانك تعلم وزن الظلمة والنور. سبحانك تعلم وزن الفيء والهواء.

سبحانك تعلم وزن الريح كم هي من مثقال ذرة. سبحانك قدوس قدوس قدوس. سبحانك عجبا من عرفك كيف لا يخافك؟!. سبحانك اللهم وبحمدك. سبحانك الله العلي العظيم).

ما أجمل هذه العبارة: (**سُبْحَانَكَ تَعْلَمُ وَزْنَ الظُّلْمَةِ وَالنُّورِ**). هذه العبارة لهي جديرة بأن يكتب فيها رسالة دكتوراه! نعم إن الضوء يتكون من جسيماته وهذه الجسيمات لها كتلة معينة، وهذه حقيقة قبل ألف سنة!

◎ الهيتون هو الذي يكون لنا الظلام:

قبل فترة بسيطة قرأت على الشبكة اكتشاف (الهيتون المكون الأساسي للظلام)، وقد افترض المكتشف أن كتلة الهيتون تساوي جزءاً من ألف جزء من كتلة الفوتون، وإذا صح هذا الكلام ستواجه الفيزياء مشاكل كثيرة وسوف تسقط العديد من النظريات في الفيزياء التي تتعلق بالضوء.

◎ جاء في كتاب أساسيات الفيزياء للبروفسور بوش:

منذ قديم الأزمنة كانت خواص الضوء مثاراً للدهشة والإثارة نحو إجراء تجارب. كما كانت طبيعة الضوء دائماً موضوعاً لتأملات عظيمة. ففي عصر نيوتن كان كل علماء تلك الفترة تقريباً يقومون بأبحاث علمية في طبيعة الضوء، وبنى (نيوتن) نفسه كثيراً من شهرته تجارب الضوء التي أجراها.

وعلى الرغم من عظيم اهتمامه بالضوء، إلا أن الطبيعة الداخلية للضوء ظلت محل جدل حتى مطلع القرن الحالي. وخلال عصر (نيوتن) ولسنوات خلت بعد ذلك كان هناك خلاف حول ما إذا كان شعاع الضوء هو تيار من الجسيمات أو هو أمواج من نوع معين. وقد كان (نيوتن) نفسه من أعظم مؤيدي النظرية الجسيمية ونظراً لمكانته فإن الكثيرين كانوا يميلون لرأيه. في عام ١٦٧٠م. استطاع (كريستيان هيجتر) وهو أحد معاصري (نيوتن) أن يفسر كثيراً من خواص الضوء باعتباره موجياً في طبيعته، وقد كان لكلتا هاتين الفكرتين حول طبيعة الضوء مؤيدوها.

ولقد ظل الأمر كذلك حتى عام ١٨٠٣م. حين قدم توماس يونج (وبعدها بقليل أوجستين فرنل) برهاناً يوضح أن الأشعة الضوئية تستطيع التداخل مع بعضها البعض مثل الأمواج الصوتية وبهذا أصبحت النظرية الموجية مقبولة عالمياً. وفي ذلك الوقت تقريباً أمكن قياس سرعة الضوء في الماء وقد كانت هذه النتيجة مناقضة للنظرية الجسيمية ومعضدة للنظرية الوجية. ومن ثم بحلول ١٨٦٥م. حين أثبت (ماكسويل) نظرياً أن الأمواج الكهرومغناطيسية يجب أن تنتقل بسرعة الضوء، أمكن بارتياح كبير تقبل فكرة أن للضوء أمواجا.

قد يظن الآن أنه بقدوم عام ١٩٠٠م. أصبحت طبيعة الضوء مفهومة بشكل كبير ولكن حتى ذلك الوقت لم يكن متاحاً الكثير عن انبعاث الضوء من الذرات. وظل الأمر كذلك حتى عام ١٩١٣م. حين أعطى بوهر أول تفسير منطقي صحيح لميكانيكية انبعاث الضوء، وقد عدلت مفاهيم (بوهر) كثيراً حتى أن ابتعاث الضوء لم يفهم بشكل نهائي إلا حوالي عام ١٩٣٠م. علاوة على ذلك أشار (أنشتاين) عام ١٩٠٥م. أنه توجد خاصية واحدة على الأقل للضوء وهي التأثير الكهروضوئي.

قد أحسن تفسيرها باعتبار الضوء مكوناً من جسيمات أو كمات. وقد تم التوسع في هذا المفهوم خلال السنوات التالية حتى أصبحنا اليوم نعتبر الضوء ذا شخصية مزدوجة فهو جزئياً يبدو كأمواج وجزئياً كجسيمات.

ف. بوش (استاذ الفيزياء بجامعة دايتون)

وقبل أن نختم موضوع الضوء نقول: إن العلم لا يفسر الحقائق بل يفسر أثر الحقائق!.

العلم لا يستطيع أن يفسر الضوء لكنه يفسر الأثر الذي يحدثه الضوء، العلم يعجز عن تفسير الحقائق.. ما هو الضوء؟ هو سيل من الجسيمات تدعى الفوتونات.. ما هي طبيعة هذه الجسيمات وكيف نشأت وكيف.. وكيف..؟ ونرى أن كل سؤال يجرنا إلى ألف سؤال وسؤال. وكلما تعلم الإنسان شيئاً فُتح أمامه ألف باب من الجهل حول هذا الشيء.

سُئل (أنشتاين) عن اللبن؟ فقال: سائل أبيض اللون.

فقالت له السائلة: سائل عرفناه! فما هو (أبيض اللون) ؟

قال: لون ريش النعام! قالت: الريش عرفناه! فما هو النعام؟

قال: طائر ذو عنق ملتوية! قالت: الطائر عرفناه! فما...؟

◎ وأنهرت المياه في الصم الصياخيد:

صياخيد جمع صيخود وهي الصخرة وتأتي هنا بمعنى الصخرة الصلبة القاسية. تتباين معجزات أمير المؤمنين عليه السلام في هذا الدعاء، حيث أوضح حقيقة جلية أن مصادر المياه الصخور القاسية!!!

فحينما تتجمع مياه الأمطار في الأرض، تصل إلى طبقة من الصخور الصلبة فلا تستطيع النفاذ منها، تتجمع إثرها المياه إلى أن تتفجر حينما تصل إلى علو الأرض فتخرج لنا البحيرات والجداول والأنهار.

دعونا نعود لخطبة أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة: (**... وحمل شواهق الجبال الشُمَّخ البُذَّخِ على أكتافها، فجَّرَ ينابيع العيون من عرانين أُنُوفِها..**).

هنا يتجلى كلام إمامنا عليه السلام حيث أوضح أن الجبال تحتوي على مصادر العيون. المتتبع لكلام الأمير يجد أن هذا الكلام يفسر بعضه بعضاً، فكما أن الجبال لها خاصية الاتزان من حيث إنها تمتد إلى أكثر من خمسين كيلومتراً لتخترق الطبقة الأولى من الأرض، وتمتد جذورها في الطبقة الثانية، إذاً الجبال تعمل كالأوتاد لتثبيت طبقات الأرض، قال تعالى: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾[1].

نستنتج أيضاً: أن أميرنا خرج بمفهوم طبقات الأرض، من خلال الجبال التي تُحدث لها خاصية الاتزان والاستقرار.

جاء في نهج البلاغة: (**ورب الجبال الرواسي التي جعلتها للأرض أوتاداً، وللخلق اعتماداً**).

◎ القرآن يخبرنا أن الانهار من الحجارة:

﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ﴾[2].

مفهومان حول الحجارة، المفهوم الأول أن الأنهار تتفجر من هذه الحجارة ﴿يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾. (**أنهرت المياه من الصم الصياخيد**). المفهوم الثاني، (أن بعض أنواع الحجارة تتشقق فيخرج منها الماء) ﴿يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ﴾.

(١) سورة النبإ، الآية: ٧. (٢) سورة البقرة، الآية: ٧٤.

يوجد نوعان من الصخور: الصخور الصلبة وهي التي لا ينفذ منها الماء وهي الصخور البلورية كالغرانيت، هذه الصخور تعمل كخزانات للمياه وهي بذلك مصدر للينابيع والأنهار. والصخور التراسبية كالصخور الكلسية والطباشيرية التي ينفذ منها الماء لوجود مسامات صغيرة فيها، وهذه الصخور لها أهمية في ترشيح المياه الجوفية.

◎ أنزلت من المعصرات ماءً ثجاجاً:

أنهرت المياه من الصخور القاسية، لكن من أين يأتي الماء لهذه الصخور القاسية؟ المعصرات بمعنى السحاب فقد أنزلت منها يا إلّهي هذا الماء لينزل إلى الأرض ويتسرب في جوف الأرض، إلى أن يتفجر من الصياخيد (الصخور القاسية).

الكل يعتقد أن قضية النزول من الشيء العالي إلى الشيء المنخفض قضية حتمية، لكن هذا ليس بصحيح، إن قضية النزول من الناحية الفيزيائية تستلزم وجود قوة تؤثر على حبات المطر لإسقاطها إلى الأسفل.

كل شيء يبدأ بتفاحة. هذا مثل فيزيائي يستحق بأن نقف عنده بضع ثوان، لماذا كل شيء أصبح في هذه الدنيا يبدأ بهذه التفاحة؟ ألا تذكرون قصة شجرة التفاح مع (إسحاق نيوتن)، هذه التفاحة هي التي جعلت (إسحاق نيوتن) يفكر، لماذا سقطعت التفاحة إلى الأسفل؟ إن قضية النزول للتفاحة من المكان العالي إلى المنخفض ليست قضية تافهة كما يعتقد الكثير، ولو كانت قضية تافهة لم نجد أعظم قانون وجد في القرن السابع عشر لـ (إسحاق نيوتن).

صحيح أن كل البشر معتادون على مثل هكذا مواقف. لكن الصدفة لا تأتي إلا لمن يستحقها.

الصدفة جعلت أرخميدس يخرج من الحمام عارياً وهو يقول: وجدتها... وجدتها!!

لكن ربما هذه الصدفة استحقها (أرخميدس)، فأتت منقادة لأرادته ومشيئته.

عملية النزول فكر فيها (إسحاق نيوتن) فخرج لنا بمفهوم الجاذبية، قانون الجاذبية.

الأرض تؤثر على جميع الأجسام التي فوقها بقوة الجاذبية، وإذا فرضنا أن القوة يرمز لها بالرمز (F)، الكتلة نرمز لها بالرمز (m). تسارع الجاذبية الأرضية يساوي ($g = 9.8\ m.s^{-2} = 10\ m.s^{-2}$). معنى هذا الكلام لو سقطت كتلة، من ارتفاع معين،

بعد ثانية من سقوطها تكون سرعتها ($10m.s^{-1}$)، بعد ثانيتين تكون سرعتها ($20m.s^{-1}$)، وهكذا.

القوة التي تجذب بها الأرض الأجسام: $F = m.g$

قضية نزول التفاحة، قضية حتمية لأنه لا توجد لدينا إلا قوة الجاذبية تؤثر في سقوطها. لو افترضنا أننا قذفنا بروتونات ونيترونات والكترونات في مجال كهربي، نلاحظ أن الإلكترونات تذهب ناحية القطب الموجب، لأنها سالبة، البروتونات تذهب للسالب لأنها موجبة، النيترونات لا تذهب إلى السالب ولا إلى الموجب، لأنها بدون شحنة.

لقد صورت لكم هذا الموقف بقضية مكونات النواة، فليس بالشرط هذه المكونات تنجذب نحو القطب الأسفل، إن وجود الجاذبية في الأرض هو من يجعل جميع سكان الأرض تنجذب نحوها.

قضية أعلى وأسفل لا أساس لها في دراستنا، فلا نستطيع أن نقول نحن الآن في الطرف الأعلى من الأرض، والدول الأوروبية في الطرف الأسفل. هذا مفهوم خطأ، لأننا في النهاية نسبح في الفضاء لأن الأرض تسبح في هذا الفضاء، فلا يوجد فوق ولا تحت.

في يوم ما قلت لطلبتي أرمزوا بأصابعكم إلى الجهة الفوقانية، فرفعوا إصبعهم إلى الأعلى، ثم قلت لهم لو سألت أناساً في الطرف الآخر من الأرض وقلت لهم أن يرمزوا إلى الجهة الفوقانية، فإلى أي جهة سيرمزون؟ الأعلى عندهم أسفل عندنا، والأعلى عندنا أسفل عندهم!

نزول المطر يسترعي وجود قوة تنزل مياه المطر وهذه القوة هي قوة الجاذبية الأرضية، التي تنسب إلى (نيوتن) وإن المنصف يرى بوضوح العبارة في دعاء الصباح **(وأنزلت من المعصرات)**. قضية النزول تسترعي قوة، ولو كانت بشكل همجي واعتباطي، كانت كلمة **(أنزلت)** كلمة سقيمة لا وجود لها في هذا المقطع.

جاء في خطبة خلق السماء والأرض في نهج البلاغة:

(فسوى منه سبع سموات، جعل سفلاهن موجاً مكفوفاً، وعلياهن سقفاً محفوظاً، وسمكاً مرفوعاً، بغير عمد يدعمها).

نلاحظ أن إمامنا عليه السلام أوضح في هذا المقام مفهوم الجاذبية (بغير عمد يدعمها)،

وهذا الكلام مصداق لقول الله تعالى في كتابه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾[1].

◎ من غير أن تمارس فيما ابتدأت به لغوباً ولا علاجاً:

يا إلٓهي ما أعظم قدرتك وأنت فعلت ما فعلت من غير تعب ولا جهد!

◎ فيا من توحد بالعز والبقاء وقهر عباده بالموت والفناء:

إلٓهي أنت الباقي وكل ما كان دونك سيموت ويفنى، الأفلاك ستموت، الكون بأكمله سوف يموت، كل شيء خلقته سوف يموت حتى الزمان والمكان سيموتان أيضاً يا إلٓهي، وتبقى أنت الواحد دون زمان ومكان.

كثر الكلام خلال القرن المنصرم حول نهاية هذا الكون، هل الكون في حالة اتساع دائمة أم أنه سيتقلص وينطوي ويعود كما كان وبذلك يفنى هذا الكون، هذه النظرية هي الأقرب إلى الصحة في اعتقادي (الانطواء العظيم).

في يوم ما سوف ينفذ الوقود لهذه الشمس، ذلك الوقود الذي (يشعشع) الشمس، ليصل إلينا على شكل حرارة، هذا الوقود عبارة عن اتحاد نظائر الهيدروجين ليكون لنا الهليوم.

سينفذ الهيدروجين في الشمس وكذلك الهليوم، وستموت هذه الشمس، ويموت كل شيء! ويبقى الله عز وجل متوحداً بعزه وبقائه.

نحن هنا نريد أن نقول: إن الكون كانت له بداية، وسوف ينتهي في يوم ما.

الفيزيائيون يقولون الطاقة لا تفنى ولا يمكن خلقها من العدم.

نظرية صحيحة بنسبة كبيرة، لكن كيف أن هذه الكتلة (النقطة الصغيرة جداً) التي قلتم عنها خلقت من العدم. بمفهوم نظرية (أنشتاين) النسبية الخاصة أن الكتلة تتحول إلى طاقة، ومهما صغرت تلك النقطة الصغيرة جداً سيكون لها كما تقول الفيزياء كثافة عالية جداً.

إن مفهوم الكتلة والطاقة يتجلى لنا في هذه النطقة الصغيرة.

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٢.

إذا قلتم: إن النقطة خلقت من العدم (يتناقض مع قوانين الفيزياء).

إذاً يجب أن نستسلم أمام حقيقة واضحة هو وجود الله قبل هذه النقطة، الكثير منكم يقول: كيف وجد الله قبل هذه النقطة؟

الله ليس بالكتلة حتى نستطيع أن نخضعه لقوانيننا نحن الفيزيائيين، فلا يوجد قبله أول ولا بعده آخر.

نحن هنا يجب أن نستسلم لهذه الحقيقة الواضحة، أزلية الله قبل كل شيء، وبقاء الله بعد فناء كل شيء. مصداق لقول إمامنا عليه السلام: **(فيا من توحد بالعز والبقاء وقهر عباده بالموت والفناء).**

قال الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة:

(وإن الله سبحانه، يعود بعد فناء الدنيا وحده لا شيء معه، كما كان قبل ابتدائها، كذلك يكون بعد فنائها، بلا وقت ولا مكان، ولا حين ولا زمان، عدمت عند ذلك الآجال والاوقات، وزالت السنون والساعات، فلا شيء إلا الواحد القهار الذي إليه مصير جميع الامور، بلا قدرة منها كان ابتداء خلقها، وبغير امتناع منها كان فناؤها، ولو قدرت على الامتناع دام بقاؤها، لم يتكاءده صنع شيء منها إذ صنعه، ولم يؤده منها خلق ما خلقه وبرأه، ولم يكونها لتشديد سلطان، ولا خوف من زوال ونقصان، ولا للاستعانة بها على ند مكاثر، ولا للاحتراز بها من ضد مثاور، ولا للازدياد بها في ملكه، ولا لمكاثرة شريك في شركه، ولا لوحشة كانت منه، فأراد أن يستأنس إليها.

ثم هو يفنيها بعد تكوينها، لا لسأم دخل عليه في تصرفها وتدبرها، ولا لراحة واصلة إليه، ولا لثقل شيء منها عليه.

لم يمله طول بقائها فيدعوه إلى سرعة إفنائها، لكنه سبحانه دبرها بلطفه، وأمسكها بأمره، وأتقنها بقدرته.

ثم يعيدها بعد الفناء من غير حاجة منه إليها، ولا استعانة بشيء منها عليها، ولا لانصراف من حال وحشة إلى حال استئناس، ولا من حال جهل وعمى إلى حال علم والتماس، ولا من فقر وحاجة إلى غنى وكثرة، ولا من ذل وضعة إلى عز وقدرة)[١].

(١) نهج البلاغة خطبة رقم ١٨٤.

تتجلى هنا أهم نظرية لم تستطع الفيزياء أن تحسمها نظرية (الانفجار الثاني) الذي سيحصل بعد الانطواء العظيم، والذي سيخلق لنا كوناً ثانياً (ثم يعيدها بعد الفناء من غير حاجة منه إليها).

◎ نظرية الانطواء العظيم في ظل القرآن الكريم:

﴿يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾[1].

هذه آية جلية جلاء الشمس في وسط النهار تبين لنا نهاية الكون، كما أشارت القاعدة الفلسفية: (كل ما كانت له نهاية كانت له بداية) . الكون نهايته انطواء عظيم، وبهذا التعليل البسيط. نقف أمام حقيقة مهمة وهو أن الكون كانت له بداية وستكون له نهاية.

جميع الذين أنكروا بداية الكون ونهايته، قدموا لنا نماذج لا تقوم على أساس علمي، لأنهم لم يستطيعوا أن يتصوروا العدم.

قبل سنتين قُدم تقرير من قبل العالمين: (بول جي شتاينهاردت) وزميله (نيل توروك) بجامعة كامبردج ونشر في ٢٥ نيسان، وقد أفاد هذا التقرير: أن الكون لا بداية له ولن تكون له نهاية.

نحن لا نريد أن نخوض في هكذا أفكار لأن المتتبع لحوادث الكون سيجزم فعلاً أن الكون له بداية، وسوف تكون له نهاية. ربما أن وجود الله من الأزل إلى الأبد. هذا التصور هو من جعل الكثير من الملحدين ينكرون وجود الله.

قال عليه السلام في نهج البلاغة:

(يقول لمن أراد كونه: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾[2]، لا بصوت يقرع، ولا بنداء يسمع، وإنما كلامه سبحانه فعل منه أنشأه ومثله، لم يكن من قبل ذلك كائنا، ولو كان قديما لكان إلّها ثانيا.

لا يقال: كان بعد أن لم يكن، فتجري عليه الصفات المحدثات، ولا يكون بينها وبينه فصل، ولا له عليها فضل، فيستوي الصانع والمصنوع، ويتكافأ المبتدع والبديع)[3].

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٤.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٧٣.
(٣) نهج البلاغة، الخطبة رقم ١٨٤.

نظرية الانطواء أخبر الله عنها في كتابه الكريم: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾[١]. وقد أخبر الله تعالى أن أول الخلق ﴿كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾[٢]. إذاً في يوم ما سوف ينطوي هذا الكون وسوف يبدأ في التقلص والتقلص إلى أن يعود لتلك النقطة التي فُتق منها. وهذا وعد من الله. والله لا يخلف وعده ﴿وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾[٣].

◎ وجود الله:

لو سألت الفيزيائي وقلت له: من أين تعلمت النظرية النسبية الخاصة بقوانينها الفيزيائية. ستقول: إنك تعلمتها من أساتذتك، وهؤلاء الأساتذة تعلموها من أساتذتهم، إلى أن تلي إلى واضعها الحقيقي (ألبرت أنشتاين).

قبل أنشتاين لا أحد يعرف هذا القانون:

$$E = m.c^2$$

لأن (أنشتاين) هو الذي خلق هذا القانون (مفهوم اعتباطي) ، وهنا نطلق لقب خلق بمعنى الموجد فـ (أنشتاين) هو الذي أوجد هذا القانون، يفيدنا هذا أن أنشتاين هو الأول في قانونه وقبل الأول لا يوجد عدد.

الكون ابتدأ من انفلاق عظيم لنقطة صغيرة جداً، حقيقة واضحة، فهل يوجد قبل هذه النقطة شيء، أم إنها تمثل الأول في دراستنا، وهذا الأول صدر عن الثاني والثالث والرابع.

إذا قلتم إن النقطة هي الأول، فكيف وجدت في الزمان والمكان، لأن وجودها يحتم علينا زماناً ومكاناً لتوجد فيه.

نحن هنا لا نستطيع أن نصف زماناً بدون مكان، أو مكاناً بدون زمان، ومن الاستحالة أن يخلق الزمان قبل المكان أو المكان قبل الزمان، لا بد من وجودهما معاً. هكذا يحتم علينا المنطق.

ثلاثة أشياء وجدت في وقت واحد (النقطة) ، (الزمان) ، (المكان) ، هذا خارج نطاق المنطقة لأن الرقم (٣)، يستلزم وجود الرقم (٢). والرقم (١)، قبله.

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٤.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٣٠.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٤.

إذا قلنا إن الزمان هو الذي أوجدها، هذا استدلال خطأ لأن الزمان يحتاج إلى المكان، إذاً، وصلنا إلى الرقم (٢). فماذا قبل هذا الرقم؟

يجب أن نؤمن بأن هناك واحداً، حتى نحصل على الرقم (٢). و (٣). فلا يمكننا أن نحصل على الرقم (٢). دون أن نمر بالرقم (١). هذا دليل واضح على أن هناك واحداً فقط! الواحد هو الذي أوجد الثاني والثالث والرابع!!

انبثاق الثاني والثالث معاً من أصل واحد لا يتعارض مع الفيزياء والمنطق. فقد يستطيع (أنشتاين) أن يشرح نظريته، بعد صدورها منه إلى (اثنين في وقت واحد)، لكن لا يمكن أن ينبثق من الاثنين واحد!! فكيف أن هذين الاثنين توصلا إلى النظرية النسبية في وقت واحد، يجب أن يكون أحدهما عرفها قبل الآخر ليكون هو الأول. ولا شيء قبله.

ربما الكثير منكم يقول: ماذا قبل هذا (الواحد) قبل الواحد لا يوجد رقم، لأن الواحد هو بداية العد، حتى لو قلنا إن قبل الواحد هو (الصفر) فالصفر معناه لا شيء.

هل يستطيع أحد منكم أن يقول: قبل (أنشتاين) كم عدد البشر الذين يعرفون هذا القانون، بصيغته الرياضية:

$$E = m.c^2$$

ستكون الإجابة (صفراً) أو (لا أحد). كلمة صفر وكلمة لا شيء معناهما واحد فكلاهما وجهان لعملة واحدة. إذ إن (أنشتاين) هو الرقم واحد. وقد صدر عنه الثاني والثالث، حتى أصبح هذا القانون يعرفه أكثر من مليار إنسان على وجه الأرض.

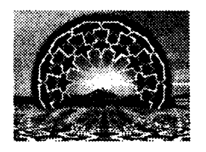
إذاً قبل الله لا يوجد شيء (تصور معقد ما هو المقصود باللاشيء)، وهو الواحد لا يوجد قبله شيء، حتى إذا قلنا يوجد (صفر) فالصفر معناه لا شيء (تصور اللاشيء يأتي بمعنى الفراغ وهذا خطأ لأن الفراغ شيء، فيتحول مفهوم اللاشيء إلى شيء، من الصعوبة أن نتصور اللاشيء لأننا لا نستطيع أن نخرج عن حدود الشيء).

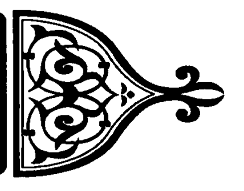
نخرج بحقيقة واضحة أن الله الواحد، الذي صدر عنه الثاني والثالث والرابع، وقبل الله لا يوجد شيء لأنه أوجد كل شيء.

وصدق سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام وهو يقول في دعاء كميل: **(يا أول الأولين)**.

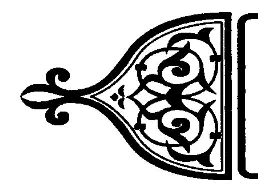
◎ مفهوم القيم العظمى والصغرى:

مفهوم القيم العظمى والصغرى مفهوم قديم قدم الإنسان ذاته، لكن هنا لم يضَعْ هذا المفهوم بشكله الرياضي. قد تطرق سيدنا ومولانا أمير المؤمنين عليه السلام في دعاء الصباح لهذا المفهوم بعبارته: (**في ذروة الكاهل الاعبل**). وذروة الشيء هو أعلى نقطة في هذا الشيء. كما أن أميرنا عليه السلام تطرق لمفهوم القيمة الصغرى بقوله: (**والماسك من أطراف حبالك**). تفيدنا كلمة الطرف بنهاية الشيء، فكما أن أعلى قمة في الشيء هي الذروة، كذلك تكون أصغر قيمة في الشيء هي (الطرف).





علم الحساب



● **تصنيف نهج البلاغة: سُئل عليه السلام عن أصغر عدد يقسّم على الأعداد الطبيعية من واحد إلى تسعة بدون باقٍ، فقال على الفور: اضرب أيّام أسبوعك في أيّام سنتك[1] [2].**

● **بحار الأنوار: في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾[3].**

● **وروى الطبرسي وغيره أن يهودياً سأل علياً عليه السلام عن مدّة لبثهم، فأخبر عليه السلام بما في القرآن، فقال: إنّا نجد في كتابنا ثلاثمائة!**

فقال عليه السلام: ذلك بسنيّ الشمس، وهذا بسنيّ القمر[4] [5].

● **تهذيب الأحكام عن عبيدة السلماني عن أمير المؤمنين عليه السلام: حيث سئل عن رجل مات وخلّف زوجة وأبوين وابنتيه، فقال: صار ثُمنها تسعاً[6].**

---

(١) المقصود بالسنة هنا: السنة القمريّة (٣٦٠) يوماً، فإذا ضربنا ٣٦٠ × ٧ وهو عدد أيّام الأسبوع حصلنا على (٢٥٢٠) وهو العدد الذي يقسّم على الأعداد الطبيعيّة من ١ إلى ٩ بدون باقي.

(٢) تصنيف نهج البلاغة: ٧٨٠ و ٧٨١ وراجع بحار الأنوار: ٤٠/ ١٨٧ وينابيع المودّة: ١/ ٢٢٧/ ٥٩.

(٣) سورة الكهف، آية: ٢٥.

(٤) يعني أنّ السنين التي اعتمدها القرآن الكريم هي السنين القمريّة؛ ولذا كان عدد السنين التي نام فيها أصحاب الكهف هو ثلاثمائة وتسع سنين، وأمّا السنين المذكورة في كتابكم فهي على أساس السنين الشمسيّة؛ وتكون حينئذٍ ثلاثمائة سنة.

(٥) بحار الأنوار: ٥٨/ ٣٥٢.

(٦) تهذيب الأحكام: ٩/ ٢٥٧، الصراط المستقيم: ١/ ٢٢٠، المناقب لابن شهر آشوب: ٢/ ٤٤ وفيهما «سُئل وهو على المنبر»، كشف الغمّة: ١/ ١٣٢ وفيهما «فلقّبت بالمسألة المنبريّة»؛ سنن الدارقطني: ٤/ ٦٩/ ٥، السنن الكبرى: ٦/ ٤١٤/ ١٢٤٥٥ كلاهما عن الحارث، المصنّف لعبد الرزّاق: ١٠/ ٢٥٨/ ١٩٠٣٣ عن ابن عبّاس، شرح نهج البلاغة: ٢٠/ ٢٨٤/ ٢٥٠ وفيه «هذا من العجائب». =

● المصنّف عن سفيان عن رجل لم يسمّه: ما رأيت رجلاً كان أحسب من عليّ، سئل عن ابنتين وأبوين وامرأة، فقال: صار ثُمنها تسعاً[1].

● الاستيعاب عن زرّ بن حبيش: جلس رجلان يتغدّيان، مع أحدهما خمسة أرغفة، ومع الآخر ثلاثة أرغفة، فلما وضعا الغداء بين أيديهما مرّ بهما رجل فسلّم، فقالا: اجلس للغداء، فجلس، وأكل معهما، واستوفوا في أكلهم الأرغفة الثمانية، فقام الرجل وطرح إليهما ثمانية دراهم، وقال: خذا هذا عوضاً ممّا أكلت لكما، ونلته من طعامكما، فتنازعا.

وقال صاحب الخمسة الأرغفة: لي خمسة دراهم، ولك ثلاثة.

فقال صاحب الثلاثة الأرغفة: لا أرضى إلا أن تكون الدراهم بيننا نصفين.

وارتفعا إلى أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام، فقصّا عليه قصّتهما.

فقال لصاحب الثلاثة الأرغفة: قد عرض عليك صاحبُك ما عرض، وخبزه أكثر من خبزك، فارضَ بثلاثة.

فقال: لا والله، لا رضيت منه إلا بمرّ الحقّ.

فقال علي عليه السلام: ليس لك في مُرّ الحق إلا درهم واحد وله سبعة.

فقال الرجل: سبحان الله يا أمير المؤمنين! وهو يعرض عَلَيَّ ثلاثة فلم أرضَ، وأشرتَ عليَّ بأخذها فلم أرضَ، وتقول لي الآن: إنّه لا يجب في مُرَ الحق إلا درهم واحد.

فقال له عليّ: عرض عليك صاحبك أن تأخذ الثلاثة صُلحاً.

فقلتَ: لم أرضَ إلا بمُرّ الحق، ولا يجب لك بمُرّ الحقّ إلا واحد.

فقال له الرجل: فعرّفني بالوجه في مُرّ الحقّ حتى أقبله.

فقال عليّ عليه السلام: أليس للثمانية الأرغفة أربعة وعشرون ثلثاً أكلتموها وأنتم ثلاثة

= شرح ذلك المناقب لابن شهر آشوب: ٢/ ٤٥ فقال:
للأبوين السدسان وللبنتين الثلثان وللمرأة الثمن عالت الفريضة؛ فكان لها ثلاث من أربعة وعشرين ثمنها، فلمّا صارت إلى سبعة وعشرين صار ثمنها تسعاً، فإنّ ثلاثة من سبعة وعشرين تسعها، ويبقى أربعة وعشرون للابنتين ستّة عشر وثمانية للأبوين سواء، قال: هذا على الاستفهام، أو على قولهم: صار ثمنها تسعاً، أو على مذهب نفسه، أو بين كيف يجيء الحكم على مذهب من يقول بالعول، فبين الجواب والحساب والقسمة والنسبة.

(١) المصنّف لابن أبي شيبة: ٧/ ٣٤٩/ ١.

أنفس، ولا يعلم الأكثر منكم أكلاً، ولا الأقل، فتحملون في أكلكم على السواء؟ قال: بلى.

قال: فأكلت أنت ثمانية أثلاثٍ، وإنّما لك تسعة أثلاثٍ، وأكل صاحبك ثمانية أثلاثٍ، وله خمسة عشر ثلثاً، أكل منها ثمانية ويبقى له سبعة، وأكل لك واحداً من تسعة، فلك واحد بواحدك، وله سبعة بسبعته.

فقال له الرجل: رضيت الآن(١).

◎ تحليل القصة بمفهوم رياضي:

دعونا نتخيل الرغيف على شكل دائرة، وبما أن عدد الآكلين ثلاثة رجال، سوف يكون نصيب الرجل مقسماً على ثلاثة، لو تخيلنا الرغيف على كل دائرة، نخرج بحقيقة واحدة وهي أن عدد الأثلاث (القطع) في الرغيف الواحد ثلاثة أثلاث (قطع) وبما أن عدد الأرغفة ثمانية أرغفة سيكون عدد الأثلاث (٢٤) ثلثاً (قطعة).

سيكون الرجل الواحد قد أكل $\left(٨ = \frac{٢٤}{٣}\right)$

الثمانية دراهم التي دفعها الرجل هي ثمن القطع الثمان التي أكلها، تكون الحصيلة كالآتي:

نصيب الرجل صاحب الأرغفة الخمسة:

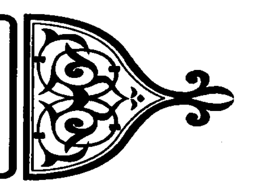
عدد القطع التي تحتويها هذه الأرغفة (٣ × ٥ = ١٥)، وقد أكل من الخمس عشرة قطعة ثمان قطع فقط، فيكون ما تبقى (١٥ - ٨ = ٧) وبهذا يكون لهذا الرجل سبعة دراهم.

نصيب الرجل صاحب الأرغفة الثلاثة:

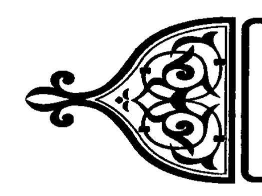
عدد القطع التي تحتويها هذه الأرغفة الثلاثة (٣ × ٣ = ٩)، وقد أكل من التسع قطع ثمان، فيكون ما تبقى (٩ - ٨ = ١)، وبهذا يكون لهذا الرجل درهم واحد فقط.

---

(١) الاستيعاب: ٣/ ٢٠٧/ ١٨٧٥، جواهر المطالب: ١/ ٢٠٥، كنز العمّال: ٥/ ٨٣٥/ ١٤٥١٢؛ تهذيب الأحكام: ٨/ ٣١٩/ ١١٨٤، كنز الفوائد: ٢/ ٦٩ كلاهما نحوه.



المتسلسلات الحسابية والهندسية



جاء في كتب شتى ككتاب مشكلات العلوم مفهوم هذه القصة:

● إن رجلاً حضرته الوفاة فأوصى لأولاده الثلاثة بسبعة عشر بعيراً، للأكبر نصفها وللأوسط ثلثها وللأصغر تسعها.

ذهبوا إلى سيدنا الأمير عليه السلام فوضع بعيراً ليكون العدد ثمانية عشر بعيراً، إذ إن العدد (سبعة عشر)، لا يقبل القسمة إلا على نفسه والعدد واحد، فلا يوجد له نصف ولا ثلث ولا تسع (أقصد لا يوجد عدد صحيح من الجمال يكون نصفاً للعدد سبعة عشر).

بهذا يكون نصيب الأكبر $\left(٩ = \frac{١٨}{٢}\right)$. ونصيب الأوسط $\left(٦ = \frac{١٨}{٣}\right)$. ونصيب الأصغر $\left(٢ = \frac{١٨}{٩}\right)$. وبهذا يكون مجموع الأنصبة الثلاثة (٩ + ٦ + ٢ = ١٧). وأما البعير الذي أضافه فأرجعه إلى مكانه.

◎ المتسلسلات الهندسية المنتهية:

تخيلوا أن عندنا الأعداد التالية، وأردنا أن نجد مجموع هذه الأعداد:

(٢ + ٤ + ٨ + ١٦ + ٣٢). لو أردنا أن نجمع هذه الأعداد بالطريقة التقليدية سيكون المجموع (٦٤). وربما لا تكون هذه الطريقة عملية بعض الشيء في حل المسائل ذات الحدود الطويلة.

تخيلوا أننا أردنا أن نحصل على مجموع أول عشرة حدود من المتسلسلة التي مضاعفاتها تساوي (٢).

إن عملية الجمع التقليدية تحتاج إلى وقت أكثر من الوقت الذي وفرته علينا الرياضيات الحديثة.

لننظر إلى القانون التالي:

$$S = \frac{ar^n - 1}{r - 1}$$

إن هذا القانون هو قانون جمع المتسلسلات الهندية المنتهية، فالحرف (a) يمثل الحد الأول في المتسلسلة. الحرف (r) يمثل أساس المتسلسلة والمقصود بالأساس هو تضاعف المتسلسلة. الحرف (n) يمثل حدود المتسلسلة:

لنكتب الأعداد العشرة المراد جمعها:

٢ + ٤ + ٨ + ١٦ + ٣٢ + ٦٤ + ١٢٨ + ٢٥٦ + ٥١٢ + ١٠٢٤

هذه الأعداد تمثل متسلسلة هندية:

الحد الأول فيها (a)، ويمثل في هذه المتسلسلة العدد (٢).

أساس المتسلسلة (r)، ويمثل في هذه الحالة (٢). لأن المتسلسلة تتضاعف بالمثل في كل عدد $\left(٢ = \frac{٤}{٢} = \frac{٨}{٤}\right)$.

عدد حدود المتسلسلة (n). ويمثل في دراستنا (١٠).

$$S = \frac{a(r^n - 1)}{r - 1} = \frac{2.(2^{10} - 1)}{2 - 1}$$

$$2.(2^{10} - 1) = 2.(1.024 - 1) = 2(1.023) = 2.046$$

◎ قاعدة أرخميدس

روي في كتاب (جواهر الفقه) للقاضي عبد العزيز بن البراج الطرابلسي. عن الإمام علي عليه السلام: أن رجلاً مقيداً حلف أن لا يقوم من مكانه حتى يعرف وزن قيده، أمر عليه السلام بإحضار جفنة وشد القيد بخيط فرفعه حتى أخرجه من الماء، ثم دعا ببرادة الحديد فألقيت في الماء حتى عاد إلى حده الأول ثم قال: زنوا هذا ففيه وزن القيد.

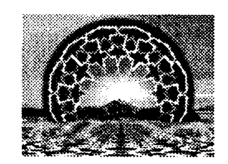
القيد ينقص وزنه في الماء بقدر السائل الذي أزاحه، وهو ما يمثل في مسألتنا الماء الذي ارتفع إلى مقدار معين. فحينما جيء بإناء في ماء وضع الرجل رجله مع القيد فارتفع الماء مقدار سنتمترات.

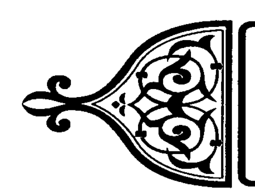
الخطوة الثانية قد علم عليه السلام المقدار الذي ارتفع إليه الماء.

استخدم عليه السلام برادة الحديد، التي يصنع منها القيد، وذلك حتى تكون الكثافة واحدة ومن العلوم أن كثافة الحديد ($7.874\ kgm^{-3}$).

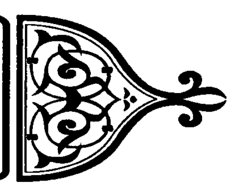
إن استخدام الحديد هو دليل واضح على مفهوم (الكثافة)، (الوزن النوعي أيضاً).

حينما ألقى عليه السلام برادة الحديد، وفي المقابل قد رفع القيد إلى حد ركبته خارج إناء الماء، ثم ألقى قطع الحديد الصغيرة إلى أن ارتفع الماء إلى ذاك المقدار الذي وضع عليه علامة، وهو ما يمثل وزن القيد!





القاسم المشترك الأصغر



● جاء في كتاب (شمس المعارف الكبرى) للشيخ أحمد بن علي اليوناني المتوفي عام ٦٢٢هـ. هذه القصة.

روي عن الإمام علي عليه السلام: أنه سأله رجل من اليهود عن عدد بجميع الكسور من النصف إلى العشر من غير كسر.

فقال له الإمام: إن أنا أخبرتك عن ذلك تسلم؟

قال: نعم!

فقال له الإمام عليه السلام: اضرب أيام جمعتك (أسبوعك) في أيام شهرك، والحاصل في شهور سنتك يظهر لك الجواب عما سألت.

اجتمع من الضرب جميعه (٢,٥٢٠)، فالنصف (١,٢٦٠)، والثلث (٨٤٠)، والربع (٦٣٠)، والخمس (٥٠٤)، والسدس (٤٢٠)، والسبع (٣٦٠)، والثمن (٣١٥)، والتسع (٢٨٠)، والعشر (٢٥٢).

◎ تحليل القصة:

إن وجود قاسم مشترك لهكذا أعداد في غاية البساطة، فلو قمنا بضرب الأعداد مع بعضها البعض سنحصل على ذاك القاسم المشترك.

٢ × ٣ × ٤ × ٥ × ٦ × ٧ × ٨ × ٩ × ١٠ = ٣,٦٢٨,٨٠٠

إن هذا العدد ليس بأصغر عدد يقبل القسمة على تلك الأعداد، وتكمن الصعوبة في أننا نستخرج أصغر عدد يقبل القسمة على تلك الأعداد.

دعونا نلاحظ في جواب أمير الكلام عليه السلام وهو يقول: اضرب أيام أسبوعك في أيام شهرك والحاصل في شهور سنتك.

٧ × ٣٠ × ١٢ = ٢,٥٢٠

- العدد (٢,٥٢٠) يقبل القسمة على (٢) لأن أوله عدد زوجي، العدد (٠).
- العدد (٢,٥٢٠) يقبل القسمة على (٣) لأن مجموع أرقامه تقبل القسمة على (٣).
- العدد (٢,٥٢٠) يقبل القسمة على (٤) لأن آحاده وعشراته (٢٠).
- العدد (٢,٥٢٠) يقبل القسمة على (٥) لأن أوله (٠).
- العدد (٢,٥٢٠) يقبل القسمة على (٦) لأنه يقبل القسمة على (٢)، (٣) في الوقت نفسه.
- العدد (٢,٥٢٠) يقبل القسمة على (٧) لأن (٢٥٢ = |٢٥٢ − ٢ × ٠)، والعدد (٢٥٢)، يقبل القسمة على (٧) حيث إن (٢١ = |٢٥ − ٢ × ٢)، والعدد (٢١)، من مضاعفات السبعة.
- العدد (٢,٥٢٠) يقبل القسمة على (٨) لأن آحاده (٠)، وعشراته (٢)، ومئاته عدد فردي (٥).
- العدد (٢,٥٢٠) يقبل القسمة على (٩) لأن مجموع أرقامه تقبل القسمة على (٩).
- العدد (٢,٥٢٠) يقبل القسمة على (١٠) لأن آحاده (٠).

ها هو كلام إمامنا عليه السلام وجوابه عن هذه المسألة ومما لا شك فيه أن كلام الأمير أمير الكلام. إن أميرنا لا يفكر كأولئك الرياضيين الذين يستغرقون الوقت الكثير في مثل هكذا مسائل، أفلا يحق لأمتنا العربية أن تفتخر لوجود هذا الأمير فيها، فهنيئاً لنا بهذا الأمير ويا ليت الدنيا تنجب لنا مثل هذا الأمير.

◎ قاعدة العين:

من اللطائف العجيبة التي وردت في حل هذه المسألة، تلك القاعدة التي اكتشفها بهاء الدين العاملي، التي عرفت بقاعدة العين:

فالأرقام التي يوجد بها حرف العين هي: (أربعة. سبعة. تسعة. عشرة) (٤)، (٧)، (٩)، (١٠)، وإذا ضربنا هذه الأرقام سنحصل على الرقم (٢,٥٢٠).

◎ قطر الشمس

● جاء في كتاب (العلوم الطبيعية في تراث الإمام علي عليه السلام) لـ (يوسف مروة) هذه القصة:

روي عن سيدنا علي بن أبي طالب عليه السلام، أنه سئل عن قطر الشمس.

فأجاب مرتجلاً: تسع مئة في تسع مئة ميل.

الميل في عصر صدر الإسلام يختلف عن الميل المتعارف لدينا (انظر كتاب تسهيل المقادير الشرعية لرضي محمد آل مطر).

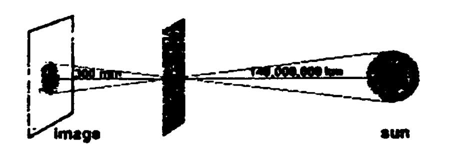
الميل يساوي ثلث الفرسخ، والفرسخ يساوي (kilometer ٥,٥٨)، إذاً. الميل يساوي $\left(\frac{٥.٥٨}{٣} = ١.٨٦ \text{ kilometers}\right)$.

kilometers ١,٥٠٧,٠٠٠ = ١,٨٦ × ٨١٠,٠٠٠ = ٨١٠,٠٠٠ = ٩٠٠,٩٠٠

المقاييس الحديثة تخبرنا أن قطر الشمس (million kilometers ١,٤)، وهذا الجواب هو الأقرب إلى جواب الإمام علي عليه السلام.

◎ تحديد قطر الشمس:

هناك طرق كثيرة لتحديد قطر الشمس، نذكر طريقة بسيطة بعيدة عن التعقيد.



افترض أن الشمس تبعد عن الأرض مسافة (kilometers ١٤٩,٠٠٠,٠٠٠)، افترض أن سرعة الضوء (kilometers.sce^{-1} ٣٠٠,٠٠٠).

نحتاج هنا إلى قطعة ورق بيضاء مقوى، إضافة إلى الحاسبة والدبوس، عند إجراء التجربة يجب أن لا تنظر إلى الشمس، وتذكر أن التحديق في الشمس لثوان قليلة يحدث تلفاً في العين.

سوف ننظر إلى الشمس في تجربتنا، لكن هذه الشمس التي سننظر إليها لن تسبب لنا الضرر!!

سوف نعمل فتحة صغيرة بالدبوس في مركز الورق المقوى، هذا الثقب سيعمل كآلة تصوير، سيمر الضوء من خلاله وسيعمل صورة للشمس على الورقة الأخرى. تقاس المسافة بين الثقب والصورة بدقة عالية، على مسافة (٣٠٠ ملم) بين الورقتين، صورة

الشمس على الصفحة البيضاء كانت حوالي (٣ ملم). فرضت المسافة بين الأرض والشمس (١٤٩,٠٠٠,٠٠٠ kilometers).

المثلث في اليمين واليسار متماثلة.

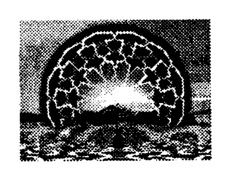
هذه علاقة بسيطة درست في الصفوف الابتدائية، علاقة تشابه المثلثات.

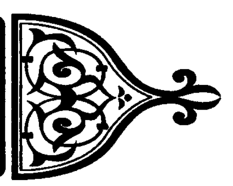
$$\frac{X \text{ kilometers}}{149.000.000 \text{ kilometers}} = \frac{3 \text{ mm}}{300 \text{ mm}}$$

$$300\,X = 3.(149.000.000)$$

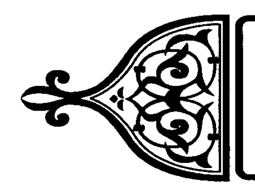
$$X = 1.490.000 \text{ km}$$

هذه القيمة التي حصلنا عليها ليست قطر الشمس، بل هي رقم أقرب ما يكون إلى قطر الشمس! الأخطاء التجريبية واردة في أي تجربة فيزيائية.





محيط الأرض



● جاء في كتاب نهج البلاغة:

قال عليه السلام وقد سئل عن المسافة ما بين المشرق والمغرب: «مَسِيرَةُ يَوْمٍ لِلشَّمْسِ»[1].

مسيرة يوم للشمس، هو بداية نهار ونهاية ليل، في نسبية زماننا في هذا القرن (٢٤ ساعة) ما يعادل (٨٦,٤٠٠ ثانية). مسيرة يوم للشمس يقتضي أن الأرض دارت حول نفسها مرة واحدة، محيط الأرض دار مرة واحدة حول نفسه.

قطر الأرض يساوي (١٢,٧٤٩ kilometers)، هناك طرق كثيرة لقياس قطر الأرض ذكرناها في كتابنا المجرة. لنرمز إلى محيط الأرض (C).

$$C = 2\pi.r$$

$$C = 2.\frac{22}{7}.\frac{12.749}{2} = 40.068 \text{ kilometers}$$

لو أردنا أن نستخرج سرعة دوران الأرض سوف نطبق العلاقة:

$$\nu = \frac{d}{t} = \frac{40.068}{24 \times 60 \times 60} = 0.46375 = 0.5 \text{ kilometers.sec}^{-1}$$

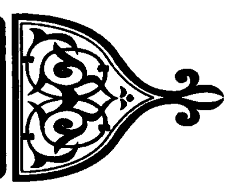
◎ إمامنا علي عليه السلام يؤكد أن الشمس تسير:

ذكر أميرنا مصطلح نسبية الزمان الذي عبر عنه اليوم وافترض اليوم مرحلة الشروق إلى الشروق في اليوم الثاني، وهو ما نرمز له الآن (٢٤ ساعة).

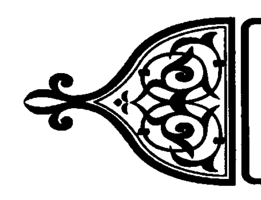
ركز أميرنا على أن الشمس تجري مصداقاً لقول الله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾[2].

وبالفعل فإن الشمس تدور حول مركز المجرة اللبنية (درب التبانة) وهذا الدوران يستغرق أكثر من مئتين وعشرين مليون سنة.

(١) نهج البلاغة الحكمة رقم ٢٩٤.
(٢) سورة يس، الآية: ٣٨.



الطاقة المائية



● قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: (لو شئت لجعلت من هذا الماء نوراً)[١].

كلمات بسيطة جداً تكلم بها أمير المؤمنين عليه السلام وهو يشير إلى ذاك الماء بإصبعه، وما أعظمها من كلمات يتلفظ بها أميرنا هذه الكلمات التي مضى عليها أكثر من ثلاثة عشر قرناً، ولم يخطر في فكر أحد من أولئك المجاورين لأمير الكلام أن يسأله: يا أميرنا كيف تستطيع أن تخرج النور من هذا الماء؟.

وحقيقة أن العقول التي عاشت مع الأمير لم تكن ناضجة لتسأل مثل هذا السؤال، على العكس تماماً يقف إليه رجل ويقول أخبرني كم في لحيتي ورأسي من شعرة؟!

مضت تلك الحقبة التاريخية إلى أن تربع الماء فوق مصادر الطاقة الكهربائية في القرن العشرين، وأصبحت مساقط المياه من أهم مصادر الطاقة في العالم.

إن الماء في سويسرا يسمى بالذهب الأسود وإنني أعتقد أن احتياج البشرية للماء هو أهم من احتياجهم للذهب الأحمر أو الأبيض.

ولم يتوقف العلم عند مساقط المياه فحسب، فقد توصلوا إلى اكتشاف الخلية الهيدروجنية التي تعمل بفصل مكونات الماء.

◎ الحصول على الكهرباء من مساقط المياه:

الماء الموجود في أعلى النهر يحوي طاقة كامنة، وإذا سقط هذا الماء تحولت طاقته الكامنة إلى طاقة حركية (الطاقة لا تفنى ولا يمكن خلقها من العدم، لكن تتحول من شكل إلى آخر). نضع توربينة مائية في وسط النهر، نلاحظ أنه كلما كان تدفق الماء أكثر

---

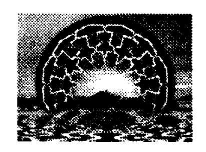
(١) هذه المقولة ذكرها يوسف مروة في كتابه العلوم الطبيعية في تراث الإمام علي عليه السلام.

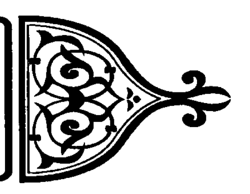
ضمنا دوران التوربينة بشكل أفضل. بالإضافة إلى الارتفاع فكلما كان الارتفاع أكثر كان للماء طاقة حركية أكثر.

حينما يصطدم الماء بالتوربينة فإنه يعمل على دورانها. دوران التوربينة يعطينا طاقة ميكانيكية، باستخدام المولد الكهربائي ينتج لدينا طاقة كهربائية.

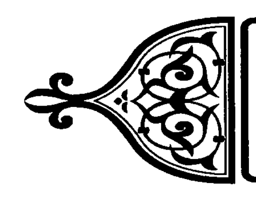
◎ الحصول على الكهرباء من الخلية الهيدروجينية:

الماء يتكون من ذرتي هيدروجين وذرة من الأوكسجين (H_2O) بفصل هذه المكونات بواسطة التحليل الكهربي أو الفصل الحراري أو باستخدام الطاقة الشمسية، وهذا الفصل يولد لنا كهرباء عن طريق الهيدروجين.





علم الذرة



● **الإمام علي عليه السلام : مؤلّف بين متعادياتها، ومفرّق بين متدانياتها، دالّة بتفريقها على مفرّقها، وبتأليفها على مؤلّفها، وذلك قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾(١) (٢).**

● **عنه عليه السلام : وأمّا الجمادات فهو يمسكها بقدرته، ويمسك المتّصل منها أن يتهافت، ويمسك المتهافت منها أن يتلاصق(٣).**

● **عنه عليه السلام : أحال الأشياء لأوقاتها، ولأَمَ بين مختلفاتها، وغرّز غرائزها، وألزمها أشباحها(٤).**

● **عنه عليه السلام : فأقام من الأشياء أَوَدَها(٥)، ونهج حدودها، ولاءَم بقدرته بين متضادّها، ووصل أسباب قرائنها(٦).**

يقول (أينشتاين): «لقد تمكن بنو البشر وبعد مرور قرون متمادية من التعرّف إلى

(١) سورة الذاريات، آية: ٤٩.

(٢) الكافي: ١/ ١٣٩/ ٤ عن محمد بن أبي عبد الله رفعه، التوحيد: ٣٠٨/ ٢ عن عبد الله بن يونس وكلاهما عن الإمام الصادق عليه السلام ، الأمالي للمفيد: ٢٥٦/ ٤ عن محمد بن زيد الطبري وفيه «متباعداتها» بدل «متعادياتها»، الأمالي للطوسي: ٢٣/ ٢٨ عن محمد بن يزيد الطبري وفيه «متعاقباتها» بدل «متعادياتها» وكلاهما عن الإمام الرضا عليه السلام ، تحف العقول: ٦٥ وفيه «متقارباً بين متبايناتها» بدل «مفرّق بين متدانياتها» وليس فيه الآية، بحار الأنوار: ٤/ ٢٢٩/ ٣.

(٣) عيون أخبار الرضا: ١/ ٢٨٢/ ٣٠، علل الشرائع: ٤١٦/ ٣، بشارة المصطفى: ٢١٣ كلّها عن محمد بن زياد ومحمد بن سيّار عن الإمام العسكري عن آبائه عليهم السلام ، بحار الأنوار: ٩٢/ ٢٢٤/ ٢.

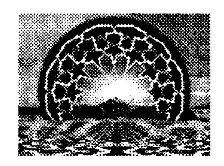
(٤) نهج البلاغة: الخطبة ١، الاحتجاج: ١/ ٤٧٤/ ١١٣.

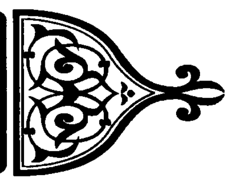
(٥) الأوَد: العوج (لسان العرب: ٣/ ٧٥).

(٦) نهج البلاغة: الخطبة ٩١، التوحيد: ٥٤/ ١٣ وفيه «ونهّى معالم» بدل «ونهج» وكلاهما عن مسعدة بن صدقة عن الإمام الصادق عليه السلام ، بحار الأنوار: ٧٧/ ٣١٩/ ١٧.

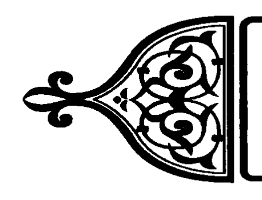
أسرار تركيب الذرّة، وتبيّن لهم أنّ هذا العالم المادّي إنّما يتألّف من الذرّات الناتجة بدورها من اتّحاد الألكترونات بالبروتونات، وأنّ وجود المادّة وبقاءها رهين بدوام تلك الآصرة التي تربط بين أجزاء الذرّة المتكوّنة من جسمين متضادّين؛ «سالب وموجب».
لكنّ الباحث المتتبّع إذا نظر بدقّة وتفحّص في كلام الإمام علي عليه السلام؛ في تفسيره للآية الشريفة (٤٩) من سورة الذاريات، سيندهش حين يرى بأنّه عليه السلام قد سبق علماء عصرنا بـ (١٤) قرناً من الزمان؛ بالتعرّف إلى أسرار تركيب الذرّة؛ حيث جاء في أحاديث هذا الباب أنّ الإمام عليه السلام أشار إلى ما يمكن انطباقه اليوم بـ (الألكترون والبروتون)، وتطرّق إلى الآصرة الموجودة بين هذين الجسمين بشكل دقيق للغاية. وعلى ما تقدّم يمكن حمل كلام الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله في مناظرته مع الدهريين حيث أشار إلى تلك المسألة العلميّة الدقيقة بقوله: «... فهذا الذي نشاهده من الأشياء بعضُها إلى بعض مفتقرٌ؛ لأنّه لا قوام للبعض إلا بما يتّصل به» (بحار الأنوار: ٩/ ٢٦٢/ ١).

وفي هذا السياق أيضاً يقول الإمام الرضا عليه السلام: «ولم يخلق شيئاً فرداً قائماً بنفسه دون غيره للذي أراد من الدلالة على نفسه وإثبات وجوده، فالله تبارك وتعالى فردٌ واحد لا ثاني معه يُقيمه ولا يعضده ولا يكنّه، والخلق يمسك بعضه بعضاً بإذن الله تعالى ومشيئته» (عيون أخبار الرضا: ١/ ١٧٦/ ١، بحار الأنوار: ١٠/ ٣١٦/ ١).





علم الفيزياء



● **الإمام علي عليه السلام: كلّ سميع غيره يصمّ عن لطيف الأصوات، ويصمّه كبيرها[(١)] .**

أثبت العلم الحديث باستخدام الهزازات الصوتيّة، أنّ الأذن البشريّة تتحسّس فقط بمجال معيّن من الاهتزازات، هي التي يقع تواترها بين ١٥ هزّة في الثانية و ١٥٠٠٠ هزّة، فإذا كان تواتر الصوت أقل من ١٥ هزّة في الثانية لا تسمعه الأذن، وكذلك إذا كان تواتر الصوت أعلى من ١٥٠٠٠ هزّة في الثانية. ولعل هذا هو المقصود بـ (لطيف الأصوات) و (كبير الأصوات) (تصنيف نهج البلاغة: ٧٨٢).

والجدير ذكره إنّ أحدث ما توصّلت إليه النظريات الفيزيائية أنّ عدد الذبذبات الصوتيّة القابلة للسماع تتراوح ما بين ٢٠ - ٢٠٠٠٠ ذبذبة / ثانية على عكس ما أثبتته النظريّات السابقة من أنّها تتراوح بين ١٥ - ١٥٠٠٠ ذبذبة/ ثانية (راجع: كتاب «الفيزياء» تأليف هاليدي ورزنيك، ترجمة كلستانيان وبهار: ٢/ ٩٥).

● **عنه عليه السلام: كلّ بصير غيره يعمى عن خفيّ الألوان، ولطيف الأجسام[(٢)] .**

كثير من الحيوانات لا ترى الألوان، بل ترى الصورة سوداء بيضاء فقط. أمّا الإنسان فإنّه يرى الألوان السبعة التي هي ألوان الطيف المرئي والتي تنحصر أطوال موجاتها بين ٤/ ٠ مكرون (البنفسجي) و ٨/ ٠ مكرون (الأحمر). أمّا الأضواء التي تقع أطوال موجاتها خارج هذا المجال فإنّ الإنسان لا يراها، ومنها الأشعّة فوق البنفسجيّة والأشعة تحت الحمراء. إذن فقدرة الإنسان البصريّة محدودة، أمّا الله تعالى فهو يرى كل جسم وكلّ لون مهما كان نوعه أو لطافته. وقد وجد بقدرة الله أنّ النحلة تستطيع أن تميّز بين سبعة ألوان مختلفة من اللون الأبيض، يراها الإنسان لوناً واحداً. بهذه الدقّة

---

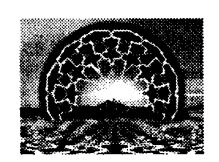
(١) نهج البلاغة: الخطبة ٦٥، بحار الأنوار: ٤/ ٣٠٩/ ٣٧.

(٢) نهج البلاغة: الخطبة ٦٥، بحار الأنوار: ٤/ ٣٠٩/ ٣٧.

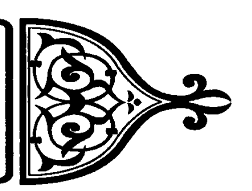
الكبيرة تستطيع أن تميّز بين أنواع الزهور وهي تطير في أعلى السماء (تصنيف نهج البلاغة: ٧٨٢).

● **عنه عليه السلام: حيث كان جالساً على نهر الفرات وبيده قضيب، فضرب به على صفحة الماء وقال -: لو شئت لجعلت لكم من الماء نوراً وناراً**(١).

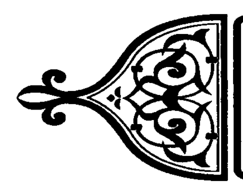
لم يفصح الإمام عليه السلام عن مضمون كلامه بل أجراه مجرى الرموز، وذلك لأنّ عقول الناس في ذلك الزمان لا تتحمّل أكثر من هذا. وفي قوله: «**لجعلت لكم من الماء نوراً وناراً**» دلالة خفيّة إلى ما في الماء من طاقة يمكن أن تولّد النور (وهو الكهرباء) والنار (وهو الطاقة الحراريّة). وإذا تعمّقنا في النظرة وجدنا أنّ الماء يتركّب من عنصرين هما الهيدروجين والأكسجين. الأوّل قابل للاحتراق وإعطاء النور، والثاني يساعد على الاحتراق ويعطي الحرارة. وأبعد من ذلك فإنّ وجود الماء الثقيل D2O في الماء الطبيعي بنسبة ٢ إلى ١٠/٠٠٠ يجعله أفضل مصدر طبيعي للهيدروجين الثقيل الذي نسميّه (الدوتريوم) ونرمز له بالرمز D. وهذا النظير هو حجر الأساس في تركيب القنبلة الهيدروجينية، القائمة على اندماج ذرّتين من الدوتيريوم لتشكيل الهليوم. علماً بأنّ الطاقة الناتجة عن هذا الاندماج والتي - هي منشأ طاقة الشمس - تفوق آلاف المرّات الطاقة الناتجة عن القنبلة الذرّية التي تقوم على انشطار اليورانيوم، ولأخذ فكرة فإنّ اصطناع غرام من الهليوم نتيجة اندماج الدوتيريوم يعطي طاقة = ٦٧٥ مليون بليون ارغة = ٢٠٠ ألف كيلو واط ساعي (تصنيف نهج البلاغة: ٧٨٣).



(١) تصنيف نهج البلاغة: ٧٨٢.



الإشعاع...
وعلاقته بالخلايا السرطانية



جاء في كتاب تاج العروس للزبيدي المتوفى سنة ٧٠٩ هـ:

«الإمام علي عليه السلام الأمير رأى رجلاً في الشمس فقال له: قم عنها فإنها مبخرة مجفرة تنقل الريح وتبلي الثوب وتظهر الداء الدفين».

وجاء في كتاب تحف العقول عن آل الرسول للعلامة الحسن بن علي الحراني وهو من أعلام القرن الرابع الهجري هذه المقولة للإمام علي عليه السلام:

«إذا جلس أحدكم في الشمس فليستدبرها لظهره فإنها تظهر الداء الدفين».

وجاء في وسائل الشيعة:

محمد بن علي بن الحسين في (الخصال)، عن محمّد بن الحسن، عن عبد الله بن جعفر الحميري، عن أحمد بن محمد بن عيسى، عن أبي يحيى سهل بن زيادة الواسطي، يرفعه إلى أمير المؤمنين عليه السلام قال: **«لا تستقبلوا الشمس فإنها مبخرة تشحب اللون، وتبلي الثوب، وتظهر الداء الدفين».**

ما أعظمها من عبارة، هذه العبارة التي يلخص فيها الإمام علي عليه السلام معارف جمة.

ما أعظمها من عبارة هذه العبارة تحتاج لمجلدات ضخمة حتى نستوفي حقها.

يتكلم الإمام علي عليه السلام قبل ألف وأربع مئة سنة عن شيئين مهمين:

◎ الشيء الأول:

- الإشعاع.

◎ الشيء الثاني:

- الخلايا السرطانية.

يتكلم الإمام علي عليه السلام عن ظاهرة الإشعاع وهو بذلك يفتح بوابة ضخمة لعلماء الفيزياء في قضية الإشعاع.

نحن لا نريد إن نتعمق كثيراً حول قضية الأشعة. ما يهمنا في هذا المقطع لماذا ينهانا الإمام علي عليه السلام عن الجلوس في وجه الشمس:

قد علل الإمام عليه السلام أحد الأسباب بقوله: **(تظهر الداء الدفين)**.

دعونا نتمعن يا أحبتي في هذه العبارة وهي (تظهر الداء الدفين، وكأن الإمام علي عليه السلام يخبرنا بأن الداء موجود فينا وتعمل الشمس على إثارته وإظهاره!

نعم الشمس تطلق الأشعة فوق البنفسجية (Ultraviolet) وهذه الأشعة تعتبر أهم المسببات الرئيسة لأمراض السرطان!! (سرطان الجلد: :Skin Cancer).

لهذا يجب أن نحتاط من أشعة الشمس وبالخصوص وقت الذروة من الساعة العاشرة إلى الساعة الثالثة، وإذا اضطررنا للخروج فيجب أن نستخدم الملابس الوقائية للأماكن المعرضة للشمس كالرقبة واليدين والوجه ويستحسن استخدام النظارات التي تمتص الأشعة فوق البنفسجية.

الشيء الآخر يخبرنا به الإمام عليه السلام بأن هذه الخلايا موجودة فينا ولكنها مدفونة أي غير ظاهرة، فإذا عرضناها للشمس أثرناها وظهرت وهذا ما عبر عنه عليه السلام: **(تظهر الداء الدفين)**.

كل إنسان فينا موجودة فيه خلايا سرطانية ولكنها تتصرف بشكل سليم وحين حصول إثارة لهذه الخلايا يحدث نمو لهذه الخلايا وتتكاثر بشكل كبير وسريع مخالفاً للنمو الطبيعي.

فعندما يطرأ مرض السرطان أو العامل السرطاني في الخلية نجد أن هذه الخلايا تتوالد وتتكاثر بشكل سريع وجنوني مما يؤدي إلى زيادة في سمك المنطقة التي أصيبت بهذا المرض وتتكون نتيجة لذلك كتلة أو كومة من الخلايا تسمى ورماً.

هذا تقرير حديث صادر من (MSN Arabia Health):

أوضحت الدراسات السابقة أن التعرض للشمس قبل سن الثامنة عشرة يزيد مخاطر الإصابة بسرطان الجلد عند تقدم العمر إلى حد كبير. وبخاصة الإصابة بالميلانوم - أشد أنواع الجلد التي تتسبب في الموت.

وقد أوضحت الأبحاث الجديدة في الوقت الحاضر أن حروق الشمس بعد سن

العشرين تتسبب أيضاً في الإصابة بالميلانوم. وفي دراسة شملت (١٢٦٣) مريضاً بالميلانوم تم دراسة كمية التعرض للشمس التراكمية لكل شخص في سن الطفولة وبعد سن العشرين. وقد وجدت الدراسة أن الأشخاص الذين أصيبوا في الماضي بحروق الشمس ولو لمرة واحدة بعد سن العشرين يكونون أكثر عرضة للإصابة بالميلانوم بمقدار الضعف. وفي دراسة أخرى أجريت على (٦٠٣) مريض بالميلانوم وجد أن الأشخاص الذين تعرضوا لحروق الشمس خمس مرات أو أكثر قد زادت احتمالات إصاباتهم بالميلانوم في مراحل تالية من العمر بأكثر من الضعف، بغض النظر عن السن الذي أصيبوا فيه بحروق الشمس. وقد أشارت الدراسة إلى وجود ارتباط مباشر بين زيادة عدد مرات التعرض لحروق الشمس خلال العمر وبين زيادة احتمالات الإصابة بالميلانوم.

ويقول الدكتور ديليو: «هذه النتائج بالغة الأهمية لأنه حتى الآن لم يكن أحد يعتقد أن مخاطر التعرض لحروق الشمس في السن المتأخرة لها نفس الضرر عند حدوثها في الطفولة. ويجب أن يكون الناس من مختلف الأعمار يقظين فيما يتعلق بحماية أنفسهم من الشمس ويجب أن يتفهموا أن أفضل حماية من سرطان الجلد تكمن في تجنب التعرض للشمس لفترات طويلة دونما حماية. وأنا واثق أننا - كلما أتيحت فرصة الإطلاع على أبحاث جديدة - سوف نستمر في التعرف على وسائل جديدة نحمي بها أنفسنا من سرطان الجلد».

وهذا تقرير صادر من (BBC ARABIC) بتاريخ ٢٩ يناير ٢٠٠٥:

يذكر أن الرياح تحاصر المنطقة التي تعلوها أكثر مناطق الأوزون ضعفاً في القطب الشمالي الأمر الذي يؤدي إلى عزل القطب الشمالي عن نظام الطقس العالمي.

ويقول العلماء إن هذا الحاجز الطبيعي سينهار في الأسابيع القادمة وستمدد مساحة المنطقة الأقل سمكاً من طبقة الأوزون نحو الجنوب لتغطي شمال أوروبا.

ويعني ذلك أن المزيد من الأشعة فوق البنفسجية ستصل إلى الأرض الأمر الذي سيؤدي لزيادة خطر الإصابة بسرطان الجلد.

فبالإجمال أن التعرض لأشعة الشمس لفترة طويلة يسبب السرطان وما أجمل ما قالته جوليا نيوتن بيشوب من المركز البريطاني لأبحاث السرطان (BBC ARABIC) بتاريخ ٢٠ فبراير ٢٠٠٥:

«يجب أن نحتاط قبل الإعلان عن فائدة أشعة الشمس للمصابين بسرطان الجلد بصفة عامة».

وقالت: «لا شك أن الشمس تسبب في الإصابة بسرطان الجلد، ولذلك يجب أن تظل الرسالة الموجهة إلى العامة كما هي دون تغيير».

ما أجمل ما قاله الإمام علي عليه السلام: **«لا تستقبلوا الشمس فإنها تظهر الداء الدفين»!!**

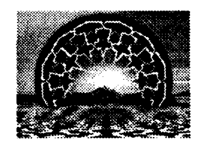
نعم ها هو الإمام عليه السلام يسبق علماء الطب بأكثر من ألف وأربع مئة سنة في إشارته لخطورة الإشعاع، وكيف يعمل الإشعاع على إثارة خلايا هي بالأساس موجودة فينا!!

دعونا نختم هذا الفصل بكلمة الإمام عليه السلام التي وردت في نهج البلاغة:

(مِسْكِينٌ ابْنُ آدَمَ: مَكْتُومُ الأَجَلِ، مَكْنُونُ الْعِلَلِ، مَحْفُوظُ الْعَمَلِ، تؤْلِمُهُ الْبَقَّةُ، وتَقْتُلُهُ الشَّرْقَةُ، وَتُنْتِنُهُ الْعَرْقَةُ)[1].

لاحظوا هذه العبارة: (مَكْنُونُ الْعِلَلِ !!!!).

نعم.. الكثير من العلل المكنونة في جسم الإنسان، وهذه العلل تثار بعامل بيئي كالحرارة أو البرودة أو غير ذلك.



(١) نهج البلاغة: رقم الحكمة ٤١٩.



مصادر الكتاب

- القرآن الكريم.
- نهج البلاغة: الدكتور صبحي الصالح - دار الكتاب اللبناني - الطبعة الثانية ١٩٨٠.
- شرح نهج البلاغة: لابن أبي الحديد - دار أحياء التراث العربي - بيروت - ١٩٦٥ ط ٢.
- بحار الأنوار للعلامة المجلسي ج٥٥-٥٦.
- الكافي للكليني - دار التعارف للمطبوعات - بيروت - لبنان ١٤٠١ هـ.
- الصحيفة السجادية الجامعة لأدعية الإمام السجاد عليه السلام - مؤسسة الإمام المهدي عج إيران - قم المقدسة - الطبعة الأولى.
- مفاتيح الجنان المعرّب الشيخ عباس القمي - ايران - قسم المقدسة - انتشارات فيروز آبادي - الطبعة الأولى- ١٩٩٦.
- تأسيس الشيعة لعلوم الاسلام: السيد حسن الصدر - انتشارات الأعلمي.
- مباحث في إعجاز القرآن: الدكتور مصطفى مسلم - دار المنارة - جدة - السعودية الطبعة الأولى ١٩٨٨.
- مفردات الفاظ القرآن: العلامة الراغب الاصفهاني - دار القلم - الطبعة الأولى ١٩٨٦.
- القاموس المحيط: الفيروز آبادي - مؤسسة الرسالة - بيروت - الطبعة الأولى ١٩٨٦.
- الشفاء: ابن سينا/ مقدمة الدكتور ابراهيم مذكور - وزارة الثقافة والارشاد القومي.
- مع الله في السماء: الدكتور أحمد زكي - بيروت - دار القلم - الطبعة الأولى ١٩٨٣.
- الآيات البينات في عجائب الأرضين والسماوات: ابراهيم أفندي الحوراني - بيروت ١٩٨٣.

- حدائق النجوم: الفاضل دبير الملك (هشار جنك) ط ١٢٥٣ هـ. ش.
- الهيئة والإسلام: السيد هبة الدين الحسيني الشهرستاني - النجف الأشرف - ط ١٩٦٥.
- الميترولوجية - ظواهر الجو: محمد حامد محمد - القاهرة ١٩٤٦.
- بين الأرض والفضاء: كلايداور جونيور - ترجمة لجنة الأدباء - بيروت ١٩٦٤.
- الطقس والمناخ: فهمي هلالي أبو العطا - دار الكتب الجامعية - الاسكندرية ١٩٧٠.
- أسرار الكون في القرآن: داود سلمان السعدي.
- الموسوعة الفلكية - موسوعة الطقس: أسامة فوفو.
- العواصف والأعاصير: علي حسن موسى.
- المناخ والطقس: ابراهيم حلمي.
- شمس المعارف الكبرى: أحمد بن علي البومي.
- المسلمون وعلم الفلك.
- استكشاف مقدمة في علم الفلك.
- مبادىء الكونيات: الآمين محمد أحمد.
- الغلاف الهوائي: محمد جمال الدين الفندي.
- الطبيعة الجوية: محمد جمال الدين الفندي.
- نظرة الاسلام إلى العلم الحديث: أحمد أمين - مؤسسة الوفاء - بيروت - لبنان - الطبعة الأولى.
- Williaml - donnmeteorology, megraw. Hill, newyourk, 1465,P49.
- glennt. Trewartha, an introduction toweather and elimaxe megraw - hill, newyourk, 1943 PP. 87-88 f. taylor, opcitp. 145.
- المادة بين الأزلية والحدوث: الشيخ محمد حسن آل ياسين - منشورات المكتب العالمي بيروت الطبعة الثانية - ١٩٩٤.
- الله: الدكتور مصطفى محمود - بيروت - ١٩٧٢م.
- الله يتجلى في عصر العالم: - ترجمة الدكتور الدمرداش عبد المجيد سرحان - القاهرة ١٩٦٨.

- اسس المادية الديالكتيكية: سبيركين وياخوت - موسكو (دار التقدم).
- الشواهد الربوبية: صدر الدين الشيرازي - ايران ١٣٨٦هـ.
- المادية الديالكتيكية: جماعة من الكتاب السوفين - دمشق (دار الجماهير).
- المادية الديالكتيكية والمادية التأريخية: ستالين - دمشق (دار دمشق).
- الناس والعلم والمجتمع: فريق من الكتاب السوفيت - موسكو (دار التقدم).
- النظرية المادية في المعرفة: روجيه غارودي - دمشق (دار دمشق).
- نقد الفكر الديني: الدكتور صادق العظم - بيروت ١٩٧٠.
- مجلة الثقافة الاسلامية: الدكتور حامد أحمد - العدد ٨٦ سنة ١٤٢١هـ - دمشق.
- مجلة العلوم: العدد ٧ و ٨ لسنة ٢٠٠٠م - فريق من العلماء.
- مجلة عالم الفكر: الدكتور عادل رمضان - العدد٢ لسنة ٢٠٠٠م.
- كتاب الكون: تأليف: ج. كارل ساغات - ترجمة أيوب لبس - مراجعة محمد كامل عارف. من سلسلة كتب عالم المعرفة - الكويت.
- التنظيم: تأليف سيّد هواري - دار المعارف بمصر - ١٩٧٣.
- تطور الفكر التنظيمي: تأليف الدكتور علي السلمي - وكالة المطبوعات - الكويت ١٩٧٥.
- علم الإنسان مدخل إلى الأنتربولوجيا الاجتماعية الثقافية: تأليف الدكتورة سامية محمد جابر - دار العلوم العربية - بيروت - ١٩٩١.
- مجلة المعرفة - ما بعد الباراسيكولوجي: تأليف ندرة اليازجي - العدد ٤١٢ - ١٩٨٨ دمشق.
- خوارق اللاشعور أو (أسرار الشخصية الناجحة): تأليف الدكتور علي الوردي - دار الورّاق للنشر - لندن ١٩٩٦.
- الاتصال المباشر مع الآخرة: تأليف الأب فرانسوا براون والعالم ريمي شوفان - ترجمة وتعليق: يشار شكري قلايجيان - دار علاء الدين - دمشق.
- شورى الفقهاء: تأليف العلاّمة السيد مرتضى الشيرازي.
- تأريخ العلم وفلسفته: تأليف الدكتور سهل النوى - الدكتور عدنان النقّاش - ١٩٨٩ جامعة بغداد - وزارة التعليم العالي.

فجر العلم الحديث - الإسلام - الصين - الغرب - الطبعة الثانية - سلسلة عالم المعرفة - الكويت.

- العلم - الأيديولوجيا - دراسة في إشكاليات منهج البحث العلمي - عماد هرملاتي - دمشق.

- المنطق - نظرية البحث - جون ديوري - ترجمة الدكتور زكي نجيب محمود - دار المعارف بمصر - ١٩٦٠.

- معنى النسبية - ألبرت أينشتاين - ترجمة: علي يوسف خرج.

- دراسات فلسفية في العلم والفلسفة - حمادي بن جار الله - مشروع مشترك - دار الشؤون الثقافية العامة (آفاق عربية) - بغداد - الدار التونسية للنشر.

- الميتافيزيقيا - العلم - الأيديولوجيا تأليف عبد السلام بن عبد العال - الشركة المغربية للناشرين المتحدة.

- الجانب العقلاني من اللامعقول: تأليف عدي الأعسم - الطبعة الثانية - بغداد ١٩٨٩.

- الروح: تأليف هاني يحيى نصري - مجلة المعرفة - العدد ٤٣١ - ١٩٩٩.

- تدريب الإدراك الحسّي الفائق - الدكتور ميلان ديزل - ترجمة: إقبال أيوب - وزارة الثقافة والإعلام - بغداد ١٩٨٤.

- تفسير مجمع البيان: تأليف الشيخ الطبرسي - دار إحياء التراث العربي - بيروت.

- آدم - فلسفة تقديم الإنسان وخلافته: تأليف البهي الخولي - مكتبة وهبة - مصر.

- قوانين المادة: اكتشافات خارقة - تأليف محمد وائل بشير الأتاسي - مجلة المعرفة - العدد ٤٣٢ - ١٩٩٩.

- النهاية - الكوارث الكونية وأثرها في مسار. . . . . تأليف: فرانك كلوز.

ترجمة: مصطفى إبراهيم فهمي. مراجعة: عبد السلام رضوان - سلسلة عالم المعرفة.

- طبيعة الكون - تأليف: كليف كيلمستر - ترجمة: محمد بشار - حكمت البيطار - منشورات وزارة الثقافة - دمشق.

- تفسير الميزان - تأليف: العلاّمة السيّد محمد حسين الطباطبائي، مؤسسّة الأعلمي للمطبوعات - بيروت - لبنان، الطبعة الثالثة، ١٩٧٣.

- مشكلة الصراع بين الفلسفة والدين من الغزالي وابن رشد إلى الطوسي والخواجة زادة - تأليف: الدكتور رضا سعادة - طبعة أولى - دار الفكر اللبناني - ١٩٩٩.
- التنويم المغناطيسي - عرض وتقديم: الدكتور مصطفى غالب - منشورات مكتبة الهلال - بيروت.
- هل هناك حاسة سادسة؟ تأليف: محمود إبراهيم الصغيري - دار الكتاب العربي - سوريا.
- المحجة البيضاء - الكاشاني، محمد بن المرتضى: دفتر انتشارات اسلامي ط٣ ايران.
- فلسفتنا - الشهيد الصدر، محمد باقر: دار التعارف للمطبوعات - ط١٢ - ١٩٨٢.
- آداب النفس - العيثاني، محمد: المكتبة المرتضوية - طهران.
- تفسير نور الثقلين - العروسي الحويزى، عبد علي بن جمعة، ط٢ - قم.
- أسباب النزول - النيسابوري: أبي الحسن علي بن أحمد الواحدي: انتشارات الرضي - قم ١٣٦٢ ش.
- مع الطب في القرآن الكريم - للدكتور عبد الحميد دياب - والدكتور أحمد قرقوز ط٢ - ١٤٠٤ هـ.
- المنطق الإسلامي أصوله ومناهجه - للسيّد المدرسي: محمد تقي: ط٢ - ١٩٨١.
- دراسات في علم النفس الإسلامي - د. عبد الرزاق عبد الغفور: مكتب الاعلام الإسلامي ط١ - قم ١٤٠٤ هـ. ق.
- الإنسان بين المادية والإسلام - سيد قطب، محمد: دار الشروق - ط ٦ - ١٩٨٠- بيروت.
- تربية المراهق بين الإسلام وعلم النفس - الزعبلاوي، محمد السيد محمد: مؤسسة الكتب الثقافية ط٤ - بيروت ١٩٩٨.
- أصول علم النفس - الدكتور أحمد عزت: المكتب المصري الحديث ط ٨ الاسكندرية ١٩٧٠.
- علم النفس دار- د. فاخر عاقل: دار العلم للملايين - ط ٧ - بيروت ١٩٨١.
- علم النفس التربوي - د. فاخر عقل: دار العلم للملايين - ط ٤٤ - بيروت ١٩٩٨.

- مدارس علم النفس - د. فاخر عاقل: دار العلم للملايين - ط ٥ - بيروت ١٩٨١.
- التعلم ونظرياته - د. فاخر عاقل: دار العلم للملايين - ط ٥ - بيروت ١٩٨١.
- نمو الشخصيّة - جبرم كاعان: ترجمة صلاح الدين المقداد- منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي - دمشق ١٩٨٣.
- علم النفس الفسيولوجي - كاظم ولي آغا: منشورات دار الآفاق الجديدة - ط ١ - ١٩٨٠.
- النمو النفسي للطفل - طاهر مزروع، (مترجم): الموزّع مكتبة النهضة المصرية القاهرة.
- مذاهب علم النفس المعاصر - د. علمي، زنعور: دار الأندلس - ط ١ - ١٩٧١.
- دور اللاشعور في الحياة - يحيى محمد: ط ١ - مطبعة اغونه.
- مشاكلنا النفسيّة - معروف زريق: دار الفكرة - ط ٢ - سورية - ١٩٨٥.
- المقتطفات السيكولوجيّة، محمد سليم باقي: دار الصادق - ط ١ - ١٩٧٧.
- علم النفس يدلّك على الطريق - رجيفالد وايلد - دونالد بنارد: الموسوعة النفسيّة دار احياء العلوم - بيروت عام ١٩٨٣.
- سيكولوجية الإبداع - د. عبد الرحمن عيسوي: دار النهضة العربيّة - بيروت.
- الكف والعرض والقلق - سيجمند فرويد: دار الشروق - ط ٣ - ترجمة د. محمد عثمان نجاتي.
- مشاكل الآباء في تربية الأبناء - د. سبوك: المؤسسة العربية للدراسات والنشر - ترجمة منير عامر - ط ٣ - بيروت - ١٩٨٠.
- دائرة المعارف السيكولوجية، مجلّدات دار صادر - بيروت - توزيع دار صعب - عرض وتلخيص عبد اللطيف شرارة.
- الاتجاهات والميول في التربية - ك م إيفاخر: ترجمة صبحي عبد اللطيف معروف، مكتبة التحرير.
- دائرة معارف القرن العشرين- محمد فريد وجدي: ج٤ - دار الفكر - بيروت.
- تاريخ الفلسفة اليونانية - يوسف محرم: دار القلم- بيروت.
- على حافة العالم الأثري - آرثر فندلاي: المترجم أحمد فهمي أبو الخير - ط ٢ - النهضة المصرية - ١٩٩٥.

- العلم يدعو للإيمان - كرس موريسون: ترجمة الأستاذ محمود صالح - القاهرة - ١٩٦٥.
- المرشد الطبي الحديث - عدد من الأطباء والمتخصصين: المكتبة الحديثة - بيروت - مكتبة النهضة - بغداد.
- بلغة الشيعة الكرام في تعبير رؤيا المنام للميرزا محسن العصفور - ط ١.
- خواطري عن القرآن للشهيد السيّد حسن الشيرازي قدس سره - ط ١ - ١٤١٤.
- تفسير الأحلام بحث في سيكولوجية الأعماق بييردا كو - ترجمة وجيه أسعد سورية - ١٩٨٥.
- التنويم المغناطيسي للدكتور مصطفى غالب ط بيروت عام ١٩٧٨.
- سيد قطب في ظلال القرآن - ط - مصر.
- الفقه العقائد للإمام السيد محمد الحسيني الشيرازي - ط٢ - بيروت - عام ١٤١٢.
- تنبيه الخواطر ونزهة النواظر - أبي الحسن ورام بن أبي فراس المالكي - مؤسسة الأعلمي بيروت - لبنان.
- مفاتيح الغيب - صدر الدين محمد بن إبراهيم الشيرازي - ايران - قم ١٣٦٣ ش.
- غرر الحكم ودرر الكلم: تأليف عبد الواحد الغامدي التميمي- مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت - الطبعة الأولى ١٩٨٧.
- ديانات الأرواح الوثنية في أفريقيا السوداء: تأليف ج - س فرويليش - ترجمة يوسف شلب الشام - الطبعة الأولى ١٩٨٨ - دار المنارة للدراسات والترجمة - سوريا.
- سيكولوجية الإنسان المقهور - تأليف د. مصطفى مجازي - معهد الإنماء العربي فرع لبنان - الطبعة الرابعة ١٩٨٦.
- الإسلام في عصر العلم - تأليف د. محمد فريد وجدي - دار الكتاب العربي - بيروت الطبعة الثالثة.
- آراء الذريين حول الذرة والحركة - تأليف السيد أبو الحسن الفاضل الحسيني البهسودي - بيروت - لبنان - الطبعة الأولى ١٩٨٢.
- خلق الكون بين العلم والإيمان - تأليف د. محمد باسل الطائي - بيروت - لبنان - دار النفائس - الطبعة الأولى ١٩٩٩.

- العالم الصغير - تأليف بيير تويلية - ترجمة لطيفة ديب عرقسوسي - منشورات وزارة الثقافة السورية - دمشق ١٩٩٥.
- الدارونيّة - عرض وتحليل - تأليف يحيى محمد - دار التعارف للمطبوعات - بيروت - لبنان ١٩٧٩.
- الساحر المتدرب - تأليف مارت أوريزون - ترجمة علي باشا - منشورات دار الثقافة - سورية - ١٩٨٥.
- الشخصية - تأليف رتشارد - س. لازاروس - ترجمة د. سيد محمد غنيم - مراجعة الدكتور محمد عثمان نجاتي - دار الشروق - ط١ - ١٩٨١.
- الطبيعة البشرية والسلوك الإنساني - تأليف جون ديوي - ترجمة الدكتور محمد لبيب النجيحي- مؤسّسة الخانجي بالقاهرة ١٩٦٣.
- غرائب وعجائب الجن كما يصورها القرآن والسنة للعلامة المحدّث القاضي بدر الدين بن عبد الله الشلبي - تحقيق وتعليق إبراهيم محمد الجمل - منشورات مكتبة التحرير ١٩٨٨.
- تاريخ العرقية - تأليف جان بوارييه - ترجمة نسيم نصر - منشورات عويدات بيروت - باريس ط ٢.
- الجماعة واللاوعي - تأليف ديدية انزو - ترجمة سعاد حرب - المؤسّسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ط١ - ١٩٩٠.
- عجائب الملكوت - تأليف عبد الله بن محمد بن عباس الزاهد - دار المحجة البيضاء - دار الرسول الأكرم ط١ - ١٩٩٨.
- مبادىء علم الوراثة - تأليف الدكتور أحمد مصطفى عثمان - مطبعة رياض - دمشق ١٩٨٣.
- التطبيقات العلمية في علم الحياة الحيوانية - تأليف د. محمد أيوب حرب - د. نجاح بيرقدار - منشورات جامعة دمشق ١٩٩٣.
- حركة التاريخ - رؤية قرآنية - تأليف عبد الله القريجي.
- الرحمن والشيطان - الثنويّة الكونيّة ولاهوت التاريخ في الديانات المشرقيّة - تأليف فراس سواح - منشورات دار علاء الدين - دمشق ط ١ - ٢٠٠٠.

- خلق لا تطور: عرّبه بتصرف الدكتور إحسان حنفي - دار النفائس بيروت ط١ - ١٩٨٢.

- التداعيات النفسية والاجتماعية لظاهرة التعصب (التطرف): د. أسعد الامارة - مجلة النبأ- العدد ٥٦ - ٢٠٠١- لبنان.

- التبادل اللامتكافىء بين الثقافتين الغربية والعربية - نظام محمود بركات - مجلة المستقبل العربي - مركز دراسات الوحدة العربية - ١٩٩٩ - العدد ٢٤١.

- جذور الاستبداد، قراءة في أدب قديم: تأليف عبد الجبار مكاوي - سلسلة عالم المعرفة - العدد ١٩٣.

- الانحراف الاجتماعي بين نظرية علم الاجتماع والواقع الاجتماعي:

تأليف الدكتورة سامية محمد جابر - دار المعرفة الجامعية - الاسكندرية ١٩٨١.

- لماذا ينفرد الإنسان بالثقافة؟ الثقافة البشرية نشأتها وتنوعها: تأليف مايكل كاريذرس - ترجمة شوقي جلال - سلسلة عالم المعرفة. الكويت ١٩٩٨.

- القضايا الاجتماعية الكبرى في العالم العربي - تأليف د. عبد الرحمن الشهبندر - منشورات وزارة الثقافة والإعلام - دمشق - ط٢- ١٩٩٣.

- الطاغية: تأليف د. إمام عبد الفتاح إمام - مكتبة مدبولي - الطبعة الثالثة ١٩٩٧.

- لغة السياسة: تأليف جورج كلاوس - ترجمة ميشل كيلو - منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي ١٩٧٧.

- بحوث في الفكر القومي العربي - إشكاليات نظرية: تأليف د. فهمية شرف الدين - د. حليم اليازجي - د. سعيد مراد. حسن نور الدين. المجلد الثاني - معهد الإنماء العربي - بيروت الطبعة الأولى.

- التغيير الاجتماعي - الجزء الأول- مصادرة - نماذجه - نتائجه: تأليف اميتاي اتزيوني وايغا اتزيوني - ترجمة محمد أحمد حنونة - مراجعة عبد الكريم ناصيف - وزارة الثقافة - دمشق ١٩٨٢.

- الضوابط الاجتماعية وسلوك الأفراد في النظريات الاجتماعية: طلال عبد المعطي مصطفى / مجلة المعرفة - العدد ٢٧٧- ١٩٩٥ الصادرة عن وزارة الثقافة في سورية.

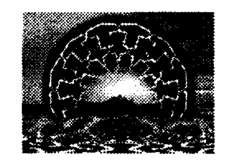
- التنويم المغناطيسي: عرض وتقديم الدكتور مصطفى غالب - منشورات مكتبة الهلال - بيروت.
- النفس، انفعالاتها وأمراضها وعلاجها: تأليف الدكتور علي كمال - الجزء الأول - الطبعة الرابعة - دار واسط.
- تشريح وعلم الأجنة العام والخاص بالفم والأسنان للمؤلفين الدكتور أحمد عثمان، الدكتور محمد عدنان مصاصاتي، الدكتور يوسف مخلوف، الدكتور عدنان بركة - منشورات جامعة دمشق - ١٩٩٢.
- سلسلة المصّورات التشريحيّة - الجزء الأول - والجزء الثالث للدكتور عدنان مصطفى جرعتلي ١٩٨١.
- علم التشريح التطبيقي للدكتور عدنان مصطفى جرعتلي.
- الاعجاز الطبي في القرآن - للدكتور السيد الجميلي - الطبعة الأولى - ١٩٨٥.
- من علم الطب القرآني - للدكتور عدنان الشريف.
- الجراثيم والطفيليات - للدكتور عدنان التكريتي - الطبعة الثالثة - ١٩٩٥.
- الأمراض الباطنيّة للمجترات - للدكتور نزار جبار مصال الخفاجي والدكتور سامح هدايت أرسلان - ١٩٨٧.
- أمراض الجهاز الهضمي ومعالجتها - للدكتور أمين رويحة - الطبعة الرابعة - ١٩٨١.
- أمراض الجهاز البولي - للدكتور أمين رويحة - الطبعة الثالثة - ١٩٨٣.
- المعتمد في الأدوية المفردة - تأليف يوسف بن عمر التركماني.
- المرشد إلى طبابة الأعشاب للمؤلف أيمن عزت الطبّاع - الطبعة الأولى- ١٩٨٤.
الجامع في التوليد - ويليامز - المترجم برئاسة الأستاذ الدكتور عماد الدين التنوخي واشراف الأستاذ الدكتور صلاح شيخة.
- طب الإمام الصادق عليه السلام - محمد الخليلي - ١٩٨٢.
- أساسيات الطب الباطني (سيسل) - الجزء الأول والثاني - الطبعة العربيّة الثانيّة - ١٩٩٥.
- الفيزيولوجي السريري - تأليف الدكتور كرين - ١٩٩٩ - ترجمة الدكتور علي صادق لويه - والدكتور فرّخ شادان - جامعة طهران.

- المدخل إلى الأسس النفسيّة والفسيولوجية للسلوك للدكتور عباس محمود عوض.
- اسعافات الطبّ الداخلي - د. سيد أصغر ساداتيان - الطبعة الرابعة - ١٩٩٧ (باللغة الفارسية).
- أصول الجراحة بوركيت - الطبعة الرابعة - ١٩٩١.
الحمول الولادات عالية الخطورة: د. محمد معربي و د. صلاح شيخة، دار الرازي ١٩٩٧م.
- الجامع في أمراض النساء: نوفاك، دار الرازي - دمشق.
- علم الجنين الطبي: محي الدين طالو، إبراهيم خزعل.
- الإعجاز الطبي في القرآن: السيد الجميلي، دار الهلال - بيروت.
- الوراثة وأمراض الإنسان: أ. د. محمد خليل يوسف، منشأة المعارف ١٩٩٤.
- خوارق الإدراك لما وراء الحس: كريم الشيخ إسماعيل - بغداد ١٩٧٤م.
- الحاسة السادسة بين منظاري الباراسيكولوجيا والقرآن: د. وليد عبد الله رزيق، مؤسسة النوري ١٩٩٥م.
- الحاسة السادسة والطاقة النفسية: سليمان النجار، دار النهار ١٩٨١م.
- الحاسة السادسة (دراسة في الظواهر الخارقة): طالب عمران، دار المعرفة ١٩٩٠م.
- عجائب الحاسة السادسة: محمد بشار البيطار، دار الرشيد ١٩٨٥م.
- الحاسة السادسة والقدرات الخارقة الكامنة: جيني راندلز.
- المدخل إلى الأمراض الجلدية: عبد الكريم شحادة.
- من علم الطب القرآني: د. عدنان الشريف، دار العلم للملايين - ط ١/ ١٩٩٠.
- الوراثة وتاريخ الحياة: دانييل بريفولت، ترجمة: محمد وائل - دمشق ١٩٨٤م.
- الوراثة والجنس: عبد الحليم منتصر، دار المعارف ١٩٤٩م
- الوراثة والطبيعة البشرية: تيودوسيوس دوبزنسكي، ترجمة: إحسان سركيس - دمشق ١٩٨١م.
- الوراثة والبيئة: علي عبد الواحد عرافي، دار النهضة - مصر ١٩٧٠م.

- الإنتاج والعلاج: عبد السلام محمد، منشأة المعارف ١٩٩٤م.
- طب المعصومين: لبيب بيضون.
- طب الأئمة: عبد الله بن سابور والحسين بن بسطام، دار الكتاب - بيروت.
- طب الأئمة: عبد الله شبر - دار الإعتصام.
- قاموس الأغذية: ترجمة: روز مخلوف، دار النمير - دمشق ١٩٩٣م.
- تهافت نظرية دارون: أورخان محمد علي، مؤسسة الرسالة - بيروت ١٩٩٧م.
- الصوم والصحة: نجيب الكيلاني، مؤسسة الرسالة - بيروت ١٩٨٠م.
- طب النبي صلى الله عليه وآله: أبو العباس جعفر المستغفري، مؤسسة أهل البيت - بيروت ١٩٩٠م.
- مع الطب في القرآن الكريم: د. عبد الحميد دياب والدكتور أحمد قرقوز، مؤسسة علوم القرآن - دمشق ١٩٨٤م.
- الجامع في التوليد: وليامز، دار الرازي - دمشق ١٩٩٤م.
- علم الحياة الحيوانية: نجاح بيرقدار - دمشق ١٩٨٢م.
- مبادىء علم الوراثة: د. أحمد مصطفى عثمان - الرياض ١٩٨٤م.
- الفتاة العصريّة إلى أين: الشيخ اسماعيل البغدادي - الطبعة الأولى - ١٩٧٢.
- المرأة المعاصرة: عبد الرسول عبد الحسن العفار - الطبعة الثالثة - ١٩٨٤.
- المرأة والأسرة في حضارات الشعوب وأنظمتها: المحامي عبد الهادي عباس - الطبعة الأولى - ١٩٨٧.
- المرأة في عالمي العرب والإسلام: عمر رضا كحالة - مؤسسة الرسالة - ١٩٧٨.
- كتاب العائلة: السيد محمد الحسيني الشيرازي.
- المرأة في التشريع الإسلامي: السيد محمد الحسيني الشيرازي.
- أساسيات الطب الباطني (سيسل) - الطبعة الثانية - ١٩٩٥.
- علم الفلك - لين نيكلسون - ترجمة د. علي مصطفى بن الأشهر.
- الحديقة الهلالية شرح دعاء الهلال من الصحيفة السجادية - تأليف الشيخ البهائي قدس سره - تحقيق السيد علي الموسوي الخراساني.

- دائرة معارف القرن العشرين - تأليف محمد فريد وجدي: ج٧ ، ج ١٠.
- الهيئة والإسلام - السيد هبة الدين الشهرستاني - دار التعارف للمطبوعات ومؤسسة أهل البيت عليهم السلام - بيروت ١٩٧٨.
- الفقه (كتاب المكاسب المحرمة) - للإمام السيد محمد الحسني الشيرازي: ج١: الطبعة الأولى ١٤١٧ هـ - بيروت.
- تفسير الفخر الرازي، الفخر الرازي - دار الفكر للطباعة ١٩٨١.
- التراث الفلكي عند العرب والمسلمين - عبد الأمير المؤمن - معهد التراث العلمي - جامعة حلب ١٩٩٢.
- دور العرب في تكوين الفكر الأوربي - د. عبد الرحمن بدوي.
- مفتاح السعادة ومصباح السيادة - اطاش كبرى زاده.
- علم الهيئة - ابن سينا - تحقيق محمد رضا مدور.
- مكانة الفلك والتنجيم في تراثنا العلمي - عبد الأمير المؤمن - مركز جمعة الماجد - دبي ١٩٩٧.
- سر العالمين: لأبي حامد الغزالي.
- صور الكواكب الثمانية والأربعين - عبد الرحمن الصوفي.
- من علم الفلك القرآني - د. عدنان الشيف - دار العلم للملايين - بيروت ١٩٩٩.
- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام - جواد علي - دار العلم للملايين - بيروت.
- عجائب المخلوقات والحيوانات وغرائب الموجودات - لزكريا القزويني ضمن كتاب حياة الحيوان الكبرى للدميري: دار أحياء التراث العربي - بيروت - لبنان.
- فلاسفة الشيعة - حياتهم وأراؤهم: الشيخ عبد الله نعمة - دار الكتاب الإسلامي - ايران - قم - الطبعة الأولى ١٩٨٧.
- ربيع الأبرار ونصوص الأخبار: أبي محمود بن عمر الزمخشري - مؤسسة الأعلمي - بيروت الطبعة الأولى ١٩٩٢.
- كتاب القانون المسعودي: أبو الريحان البيروني - الطبعة الأولى - ١٩٤٥ مطبعة دائرة المعارف العثمانية في الهند.

- موسوعة كشافة اصطلاحات الفنون والعلوم: للعلامة محمد علي التهانوي - مكتبة لبنان - الطبعة الأولى ١٩٩٦.
- تفسير تقريب القرآن إلى الأذهان - للإمام السيد محمد حسين الشيرازي - الطبعة الأولى ١٤٠٠ هـ - مؤسسة الوفاء - بيروت.



الفهرس

الموضوع — الصفحة